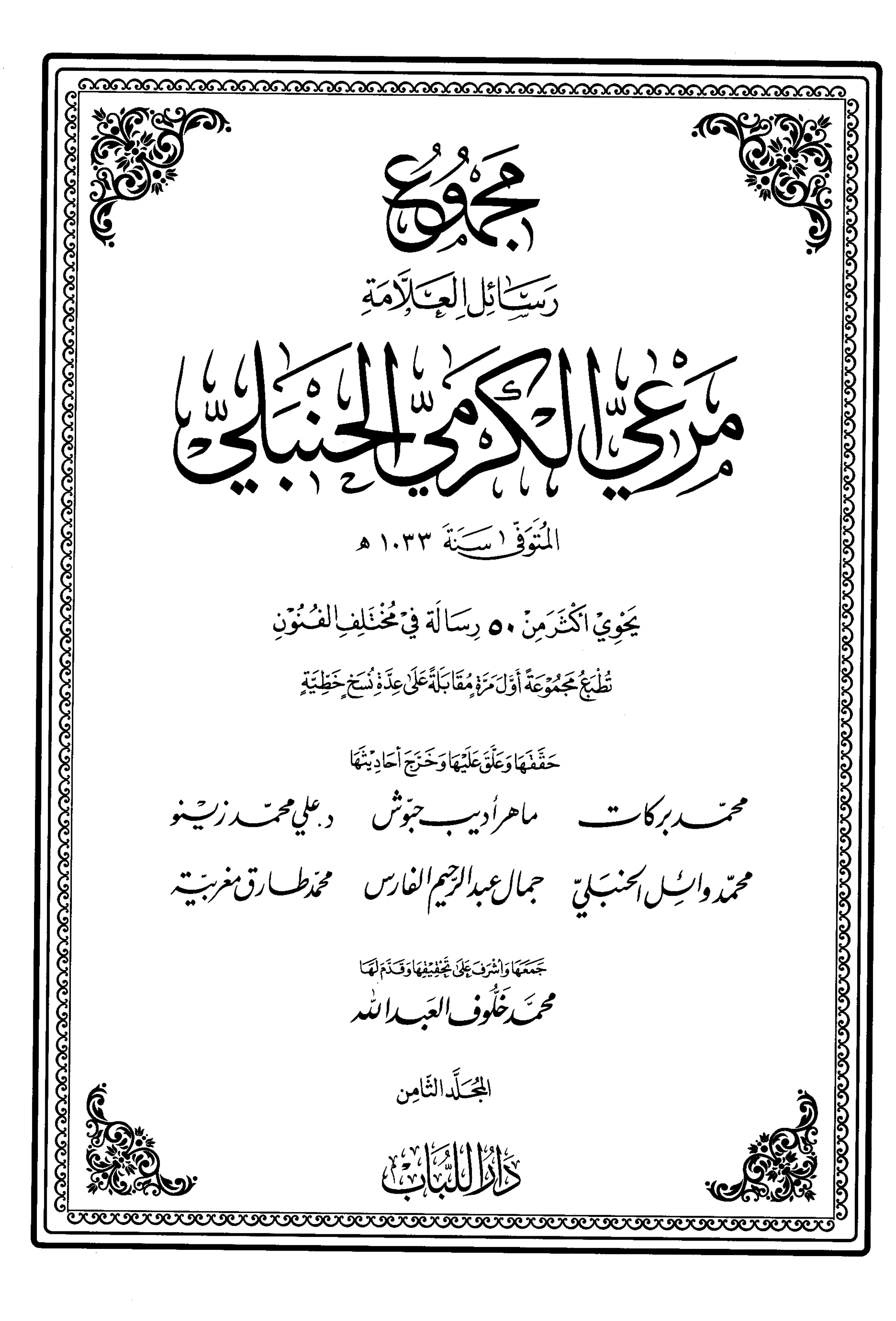


مجموع
رسائل العلامة
مرعي الكرمي الحنبلي

المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ

يحوي أكثر من ٥٠ رسالة في مختلف الفنون

تطبع مجموعة أول مرة مقابلة على عدة نسخ خطية

حققها وعلق عليها وخرج أحاديثها

محمد بركات ماهر أديب حبوش د. علي محمد زينو

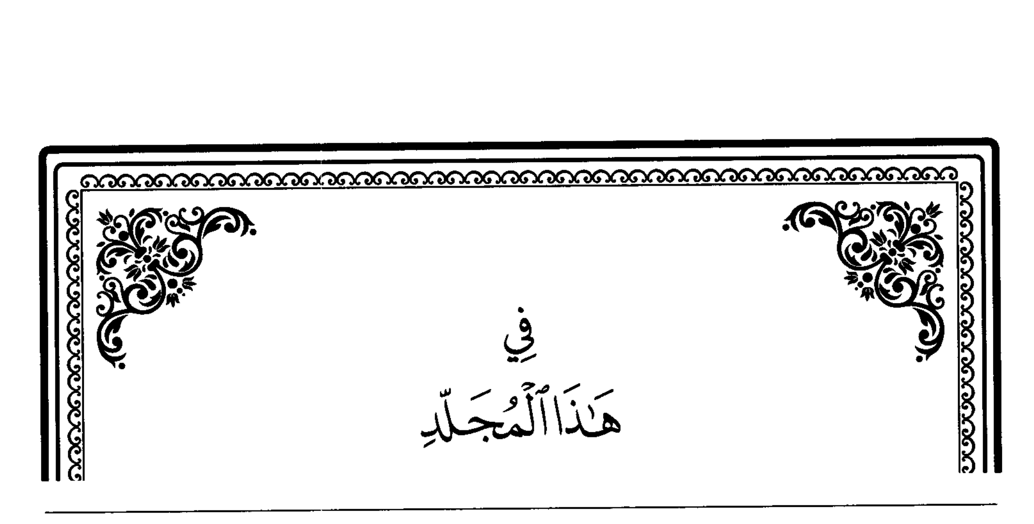
محمد وائل الحنبلي جمال عبد الرحيم الفارس محمد طارق مغربية

جمعها وأشرف على تحقيقها وقدم لها

محمد خلوف العبد الله

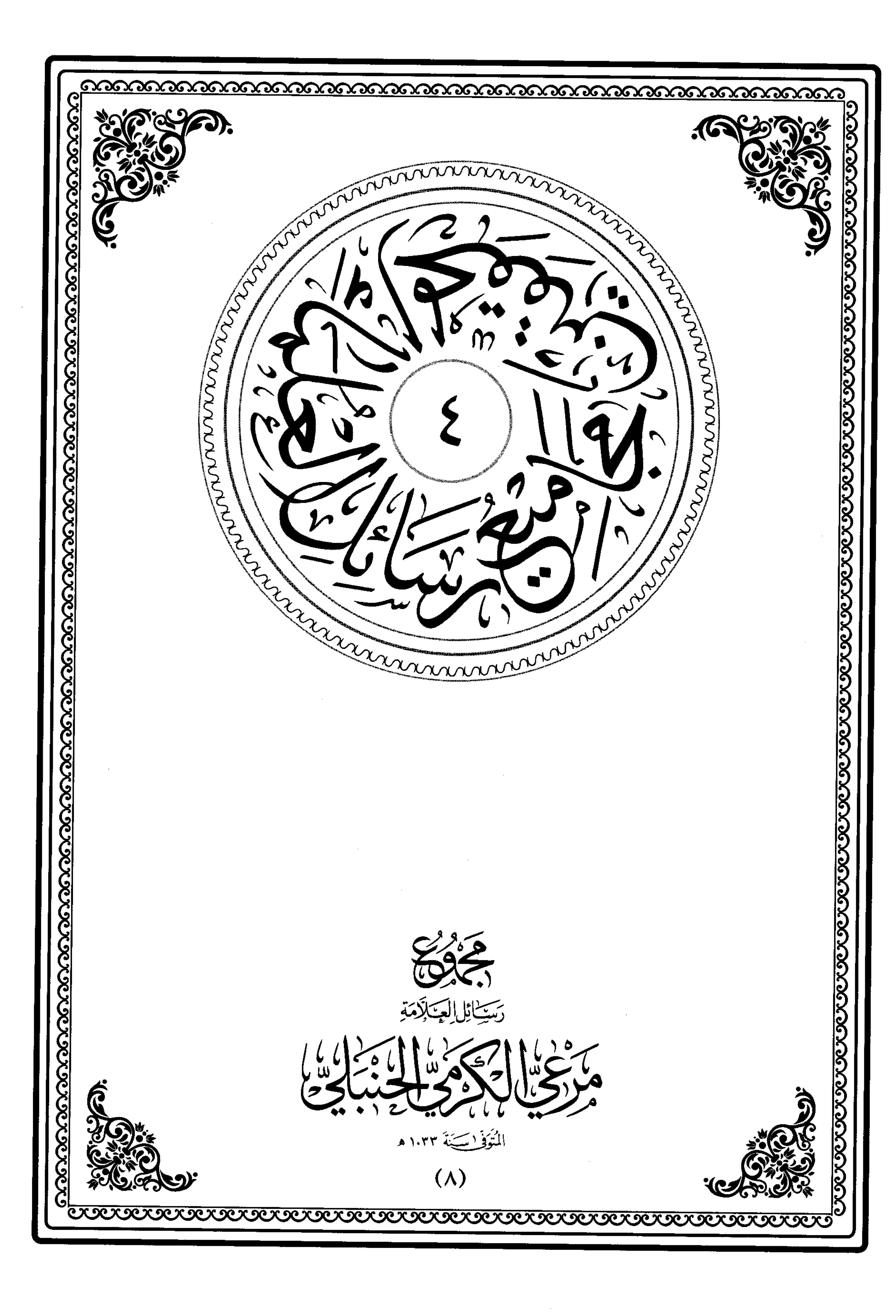
المجلد الثامن

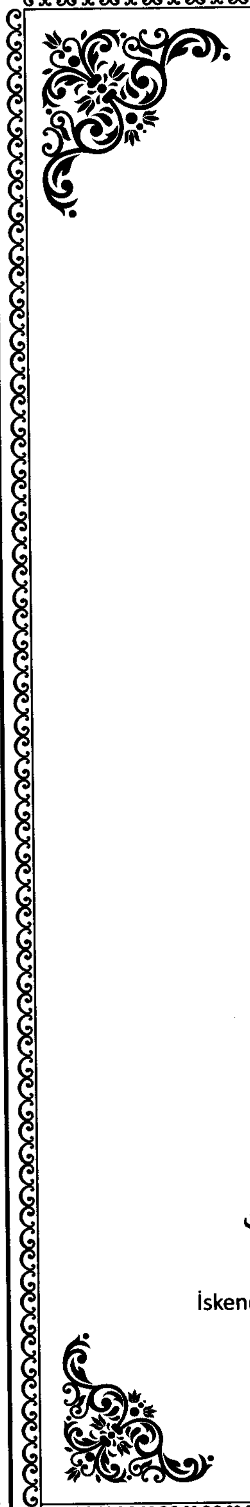
دار اللباب



الموضوع	الصفحة

***


٤
مجموع
رسائل العلامة
مرعي الكرمي الحنبلي
المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ
(٨)




الطبعَة الأولىٰ

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م



9 786052 279199

الخطوط بقلم: عدنان الشيخ عثمان

الإخراج الفنّي: خالد محمّد ياسين علوان



دار اللُّبَاب للدّراسَاتِ وتحقِيق التُّراثِ

تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كزتاش - مفرق بنك الكويت

مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥

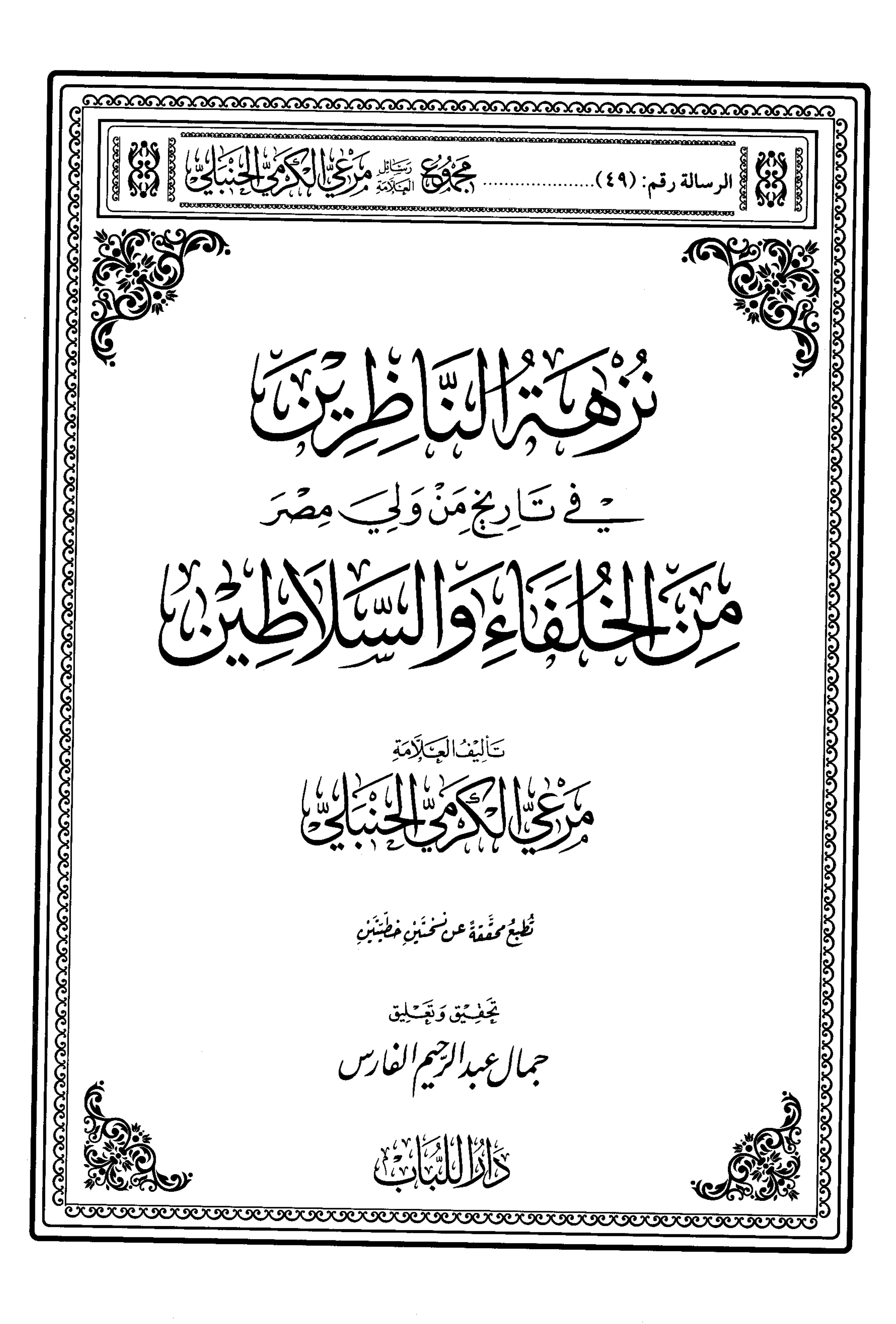
İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com





مجموع رسائل العلامة مرعي الكرمي الحنبلي .... الرسالة رقم: (٤٩)

نزهة الناظرين

في تاريخ من ولي مصر

من الخلفاء والسلاطين

تأليف العلامة

مرعي الكرمي الحنبلي

طبع محققة عن نسختين خطيتين

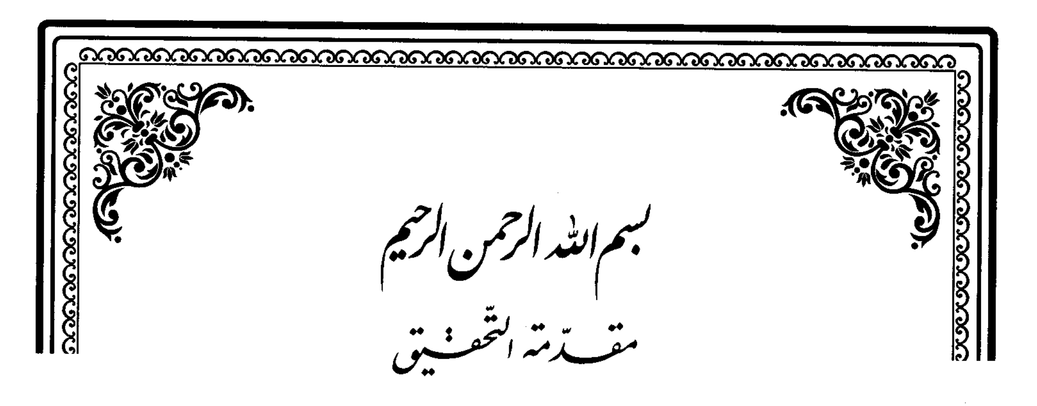
تحقيق وتعليق

جمال عبد الرحيم الفارس

دار اللباب

مكتبة خسرو باشا (خ)

مكتبة شستربتي (ش)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة التحقيق

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وأصحابِه أجمَعين.

وبعد: فإنَّ مصرَ أرضُ الكِنانةِ، وقلبُ العالَمِ الإسلاميِّ، نشأَتْ فيها منذُ القِدَمِ حضاراتٌ ودُولٌ، وبعدَ مجيءِ الإسلامِ ودخولِه إليها حافظَتْ مصرُ على منزلَتِها في العالَم، بلْ ازدادَتْ رِفعةً وشَرفًا.

وقد كانَتْ مصرُ مَحَطَّ نظرِ العلماءِ والمؤرِّخينَ، فكتبوا في تاريخِها وأيَّامِها وحكَّامِها، وكانَ مِنْ بينِ أولئكَ العلماءِ مصنِّفُ هذا السِّفر: العلامةُ مرعيُّ الكَرميُّ رحمه الله تعالى، فأدلَى بدلوِه، وحرَّك يراعَه في تسطيرِ هذه الكتابِ.

ألقى فيه الضَّوءَ على مصر وهي في ظلال المسلمين، بِدءاً مِن الخلافةِ الرَّاشدة، وانتهاءً بزمنِ المصنِّف، وكانَ آخرَ مَن ذكرَهم مِن الخلفاءِ الخليفةُ العثمانيُّ مصطفى الأوَّلِ سنة (١٠٣١هـ)، وكان الوالي على مصرَ في زمنِه إبراهيم باشا.

وقد أحاط المصنِّفُ بأسماءِ الخلفاءِ والسَّلاطين وأهمِّ الأحداث باختصارٍ وإيجازٍ.

وفي مقدِّمةِ الكتابِ أوضحَ المصنِّف الفائدةَ مِنْ كتابةِ التَّاريخِ، وهي الاتِّعاظُ وأخذُ العِبرةِ منه، فقالَ: «ففي آثارِهم عبرةٌ للمعتَبرين، وموعِظةٌ للمتَّعِظين»، وبيَّنَ

فوائدَ أخرى منها: معرفةُ الطَّبقاتِ والأمَمِ، وتمييزُ السَّابقِ من اللَّاحق، ولهذا من الفوائد مَا لا يخفى على أحدٍ، وبيَّنَ أنَّ مطالعةَ التَّاريخ «تزيدُ الشَّهامةَ والعقل، وتورِثُ النَّباهةَ والفَضْل».

ثمَّ بدأ بسردٍ سريعٍ للخلفاءِ الرَّاشدين، ثم لخلفاءِ دولَةِ بني أميَّة، ثم لخلفاءِ الدَّولةِ العباسيَّة، يذكر فيها سِني خلافةِ كلِّ خليفةٍ، وسنةَ وفاتِه، وقد يذكرُ بعضَ الحوادثِ المهمةِ، والفوائدِ المنتقاة.

فقد ذيَّل ذِكرَه للوليدِ بنِ عبدِ الملكِ بقولِه: «وأكثر الفُتوح في أيَّامه».

وقالَ بعد كلامه عن الوليدِ بن يزيد بن عبد الملك: «ومِن حينَ قُتلَ اضطربَتْ خلافةُ بني أميَّة».

وقال في آخرِ ترجمتِهِ للمأمونِ: «وهو أوَّل مَنْ أظهرَ القولَ بخلقِ القرآن، وتبعَه المعتصم والواثق في ذلك».

ثم شرعَ ببيانِ خلفاء مصرَ من العباسيِّين، وقد كانَتِ التَّراجم للخلفاء مقتضبةً مختصرةً، إلَّا أنها أوسعُ قليلًا مِن سابقتها.

ثم عقدَ بابًا في ذكر سلاطين مصرَ في الإسلام، وقال في مَطلعه: «وهو المقصود بالذَّات». أي: في تأليفه لهذا الكتاب، وبيَّن سببَ ذلك فقال: «لأنَّ الخلفاءَ الَّذين كانوا بها من العباسيَّةِ لم يكُن لهم من الخلافةِ إلَّا الاسمُ، والمستقِلُّ بالأمورِ والتَّصرفِ إنَّما هوَ السَّلاطينُ».

ولم يذكرْ أسماءَ ولاة مصرَ في ظلِّ الخلفاء الرَّاشدين والدَّولة الأمويَّة وصدر الدَّولة العباسيَّة؛ لأنَّ وُلاتها لم يكونوا مستقلِّين بالأمر، بل كانوا نوَّابًا عن الخلفاء.

وبـدأ هذا البـاب بذكرِ أحمد بـن طولون النَّائب عـن الخليفة العباسـيِّ المعتزِّ بـالله، ومِـن هنـا بـدأَتِ التَّراجـم تطـول، وصـار يذكـر بعـضَ القِصص والأشـعار والأحداث.

ثم شرعَ في بيان الدَّولةِ الفاطميَّة، وتكلَّم عن سِيَرِهم وتراجمهم، وبيَّن رأيَه في تسميةِ أنفسهِم بالخلافةِ، وقرَّر بطلانه؛ لأنَّه لا تصحُّ البيعة بالخلافة لإمامَيْن.

وخرجَ عن موضوع الكتاب فتطرَّق لحكمِ مسألةِ إحداثِ الكنائس في البلدان الَّتي بناها المسلمون كالقاهرة.

ثم انتقلَ المصنِّفُ بعد ذلك للحديثِ عن الدَّولةِ الأيوبيَّة، ولا يخفى للقارئ إعجابُ المصنِّف بهم، فهم أصحابُ فتوحات، وجدَّدوا الخطبة للعباسيِّين بمصر.

فبدأ بذكر صلاح الدِّين وتكلَّم عنه بما لم يتكلَّم عن غيره، فوصفَ سيرتَه وفتوحاتِه، لا سيَّما فتحَ بيت المقدس، ونصرته للسُّنَّة... إلى غير ذلك.

وانتقـلَ بعدهـا لدولـة المماليـك، ثـم الدَّولـةِ التركيَّـة، وبعدهـا الدَّولـة القلاوونيَّـة الصَّالحيَّـة، فالدَّولـة الجركسـيَّة، ثم كان ختـام الدُّول بالدَّولـة العثمانيَّة ووزرائِهـم بمصـر.

وكان في حديثِه عن هذه الدُّولِ يُولي اهتمامًا بالسَّلاطين الأقوياء، ويذكرُ من أخبارِهم ومآثِرهم أكثرَ مِن غيرِهم.

ولـم ينـسَ المصنِّـفُ أخبـارَ العلمـاءِ والقضـاةِ، مـع حرصِـهِ علـى الإيجـاز والاختصـار، فذكر محنـةَ القاضي بكَّار مع أحمد بن طالـون، وبعضَ أخبار العزِّ بن عبـد السَّـلام، وحادثـةً للإمـام النَّـوويِّ، وتكلَّـم عـن ابن تيمية وشـجاعته فـي قتال التَّتـار وفي إنـكار المنكـر، وغيرهم.

ومع أنَّ التَّاريخ كلَّه عبرٌ وعِظاتٌ، إلَّا أنَّه صرح بذكر ذلك في بعض المواضع، فقال معلِّقًا على حادثة السُّلطان العزِّ بن عبد السَّلام والظَّاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون وانتصارهم على التَّتار: «وذلكَ ببركةِ التَّحلِّي بالعبادةِ والطَّاعةِ والتَّخلِّي عن المعصيةِ. ولهذا أمراءُ زماننا هذا معَ كثرةِ عَددِهم وعُددِهم لا تراهم فَعلُوا في الجهادِ فضيلةً يخلِّدونَ لهم بها ذكرًا، ولو تركُوا المحرَّماتِ لرَفعَ اللهُ لهم قدرًا وأشدَّ لهم أزرًا».

وفي أثناء كلامه عن السَّلاطين عُنِيَ بذكرِ بناء المدارس والجسور والمساجد والآبار، وقد يستطردُ أحيانًا في هذا أيضًا، فعند ذكرِه لبناء مدرسة السُّلطان حسن بَيَّنَ كيفَ أنَّه تولَّى مشيختَها، ونازعَه فيها رجلٌ، وكذا تكلَّم عن حفر الآبار في مكَّة وعرفات، وتشبُّه بنت السُّلطان سليمان بزوجة هارون الرَّشيد في ذلك.

ويعتبرُ تأريخ المصنِّف للفترة التي عاصرها وما قبلها مِن أهمِّ ما جاء في الكتابِ، لأنَّه تاريخٌ عن معاصرةٍ ومشاهدةٍ أو عن سماعٍ قريبٍ، فيعدُّ مصدرًا مهمًّا وتوثيقًا فريدًا لتلك الفترة.

أمَّا خاتمة الكتاب فكانت طويلة بعض الشَّيء بالنِّسبة لحجم الكتاب، فقد جعلها المصنِّف موعظةً ونصيحةً كما ذكر في مطلعها، وذكرَ فيها عدَّة أمورٍ منها: عدمُ جوازِ تعدُّدِ الإمام، ووجوبُ طاعتِه، وفضيلةُ الإمامِ العادلِ، وعدمُ جوازِ احتجابِ الإمامِ عن النَّاس، ووجوبُ الرِّفقِ بالرَّعيَّة والنُّصحِ لهم، وتعامُلُ الإمامِ مع المالِ، ووجوبُ إقامةِ الحدودِ وإنكارِ المنكراتِ، ووجوبُ ولايةِ أمورِ النَّاسِ، وتحريمِ السُّجودِ للسُّلطان، وغيرها، مستفيداً في ذلك كلِّه مِن كتاب «السِّياسة الشَّرعية» لابن تيمية.

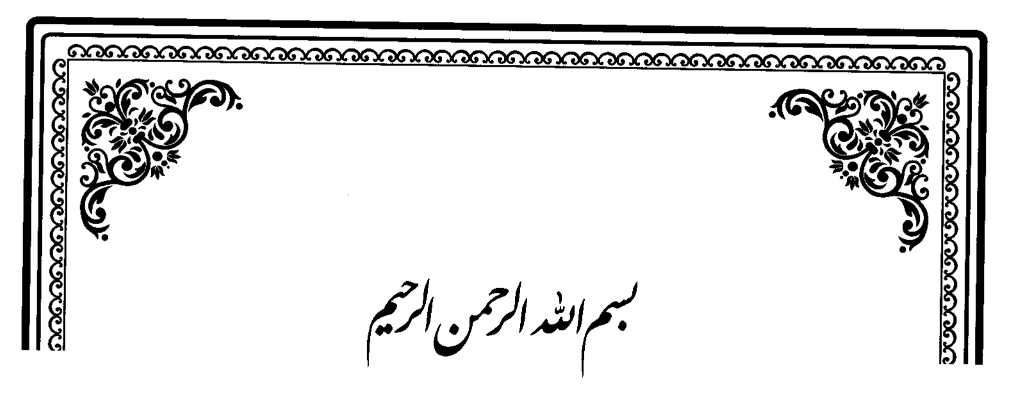
هـذا، وقـد اعتمدتُ في تحقيـقِ هذا الكتابِ على **نُسـختينِ خطِّيتيـنِ**، **الأولى**: نسـخة خسـرو باشـا، ورمـزت لها بــ(خ)، **والثانية**: نسـخة شسـتربتي ورمـزت لها بـ(ش).

وجعلتُ لبعض الفقراتِ عنواناً، لا سيَّما عند بدءِ حديثِ المصنفِ عن خليفةٍ أو سلطان، وكذا في الخاتمة لطولها، وجعلتُها بين معكوفتين تنبيهًا أنَّها زيادةٌ على نصِّ المصنِّف.

والحمدُ للهِ في البدءِ والختامِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمَّدٍ خيرِ الأنام، وعلى آلِهِ وصحابتِهِ الكرام.

المحقق

***



قالَ العبدُ الفقيرُ إلى اللهِ تعالى مرعيُّ بنُ يوسُفَ الحنبليُّ المقدِسيُّ لطَفَ اللهُ تعالى بهِ آمينَ:

الحمدُ للهِ الباقي وكلُّ من عليها فانٍ، الدَّائمِ سلطانُهُ بعدَ كلِّ سلطانٍ، الَّذي علَّمَ بالقلمِ علَّمَ الإنسانَ، والصَّلاةُ والسلامُ على مالكِ أزمَّةِ الخلافةِ والمجدِ بأرفَعِ عِنانٍ، وعلى آلهِ وأصحابِهِ وخلفائِهِ[1] أولي الزُّهدِ والتَّاريخِ والعِرفانِ.

وبعدُ:

فالنُّفوسُ لم تزَل تتشَوَّقُ لأخبارِ الماضِين، وتتشوَّفُ[2] لأحوالِ الخلفاءِ والسَّلاطِين، ففي آثارِهم عبرةٌ للمعتَبرين، وموعِظةٌ للمتَّعِظين، ومطالعةُ تواريخهم تزيدُ الشَّهامةَ والعَقلَ، وتورِثُ النَّباهةَ والفَضْلَ، والنَّاظرُ في التَّاريخِ يعرِفُ طبقاتِ سوالفِ الدُّهور، وأممَ خوالي العصور، ويصيرُ على بصيرةٍ في معرفةِ السَّابقِ واللَّاحق، وذلكَ مرتبةٌ نفيسَةٌ عند الذَّكيِّ الذَّائق.

قالَ سُفيانُ الثَّورِيُّ: لَمَّا استعمَلَ الرُّواةُ الكذِبَ استعمَلنا لهم التَّاريخَ[3].

---

(١) «وخلفائه» من (ش).

(٢) في (خ): «وتتشوق».

(٣) رواه ابن عدي في مقدمة «الكامل» (١/ ٨٤)، والخطيب البغدادي في «الكفاية» (ص١١٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٥٤).

وقالَ حمَّادُ بن زيدٍ[١]: لم يُستعَنْ عن الكذَّابينَ بمثلِ التَّاريخ[٢].

وقد أحبَبْتُ أن أذكُرَ هنا على سبيلِ التَّلخِيصِ تاريخَ مَن وَليَ مِصرَ من الخلفاءِ والسَّلاطِينِ، جعلتُها زُبدةً[٣] مُغنيةً[٤] في المذاكرَةِ، ونزهةً مقنعةً في المحاضرَةِ، ولمعةً تلذُّ بها المسامرَةُ، وتاريخًا مفيدًا مختصرًا، وجامعًا سديدًا معتبرًا، وسميتُهُ:

«نزهةَ النَّاظرينَ في تاريخِ مَن وليَ مِصرَ من الخلفاءِ والسَّلاطينَ»

وكأنِّي بمن[٥] يأتي بعدِي فيضَعُ له تاريخًا على نمَطِه، ويستريحُ من تعَبِ القلبِ وشططِه، غايتُه أنَّه يزيدُ الزَّوائد، لترغيبِ الرَّائد، وينسَى قولَ القائلِ والمثلِ السَّائرِ، شعرٌ:

ولــو قَبــلَ مَبكَاهــا بَكَيــتُ صَبابــةً ... إذًا لشَــفَيْتُ النَّفــسَ قبــلَ التَّنَــدُمِ

ولكِــن بكَــتْ قبلِــي فهيَّــجَ لــي البُكا ... بكاهــا فقلْــتُ الفَضــلُ للمُتقَــدِّمِ[٦]

فأقولُ ـ ولا مُعينَ لي سواهُ، ولا أعتمِدُ إلَّا إيَّاهُ ـ:

* * *

---

(١) كذا في النسختين، وفي مصدري التخريج: «حسان بن زيد»، وقال ابن عساكر بعد روايته للأثر: «كذا من تاريخ بغداد: حسان بن زيد، وأظنه: حماد بن زيد».

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ١٣١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٥٤).

(٣) في (ش): «نبذة».

(٤) في (ش): «معينة».

(٥) في (ش): «وكافي لمن».

(٦) نسب البيتان لنصيب بن رباح. انظر: «ديوانه» (ص١٣٠)، ولعدي بن رقاع. انظر: «ديوانه» (ص١٠٢). وفيهما: «سعدى شفيت» بدل «إذًا لشفيت».

مقدمةٌ

التَّاريخُ سُنَّةٌ ماضية، وطريقَةٌ راضية، أمَرَ بها رسولُ اللهِ ﷺ حين كتبَ الكتابَ لنصارَى نجرانَ، فأمرَ عليًّا أن يكتُبَ فيهِ: إنَّه كُتِبَ لخمسٍ من الهجرةِ[١].

وعن ابنِ شهابٍ: التَّاريخُ من يومِ قدِمَ النَّبيُّ ﷺ مهاجرًا[٢].

وقيلَ: أوَّلُ مَنْ كتبَ التَّاريخَ في الإسلامِ عمرُ بن الخطَّابِ لسنتَينِ ونصفٍ من خلافتِهِ، كتبَ إليهِ أبو موسَى الأشعريُّ: إنَّه[٣] يأتِينا من قِبَلِكَ كتبٌ ليس لها تاريخٌ، فاستشارَ في التَّاريخِ، فأجمعُوا على الهجرةِ، بعدَ أن اختلَفُوا في جعلِ مبدئهِ هل هوَ مولدُ النَّبيِّ ﷺ، أو مبعَثُهُ، أو هجرَتُهُ[٤].

ثم قالوا: بأيِّ شيءٍ[٥] نبدأُ فنُصيِّره أوَّلَ السَّنةِ؟ فقالَ بعضٌ: رجبٌ، وبعضٌ:

---

(١) انظر: «تدريب الراوي» (٢/ ٣٥٥) للسيوطي، وقال: «رأيت في مجموع بخط ابن القماح عن ابن الصلاح أنه قال: ذكر أبو طاهر بن محمش الزيادي في كتاب الشروط: أن رسول الله ﷺ أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران، وأمر عليا أن يكتب فيه: إنه كتب لخمس من الهجرة. قال: فالمؤرخ بها إذن رسول الله ـ ﷺ ـ وعمر تبعه في ذلك، وقد أشبعت الكلام في ذلك في مؤلف مستقل يختص بهذه المسألة». وهذا الكتاب الذي أشار إليه السيوطي هو «كتاب الشماريخ في علم التاريخ».

(٢) رواه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٨٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٣٨). قال المسعودي في «التنبيه والإشراف» (١/ ١٠٧): وهذا خبر مجتنب من حيث الآحاد، ومرسل من عند من لا يرى قبول المراسيل، وما حكيناه أوّلًا ـ وهو أن عمر رضي الله عنه هو من بدأ بالتأريخ ـ هو المتفق عليه.

(٣) في (خ): «أن».

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٤٢).

(٥) في (ش): «شهر».

رمضانُ، وبعضٌ: ذو الحجةِ، وبعضٌ: الشَّهرُ الذي خرَجَ فيهِ من مكةَ، وبعضٌ: الشَّهرُ الذي قدِمَ فيه المدينةَ. وقالَ عثمانُ: أرِّخوا من المحرَّمِ أوَّلَ السَّنةِ، وهو شهرٌ حرامٌ، وأولُ الشُّهورِ في العدةِ، ومُنصرَفُ النَّاسِ عن الحجِّ، فأجمَعُوا على ذلكَ[١].

وذكرَ ابنُ عساكرَ وغيرُهُ: أنَّه لم يزَل للنَّاسِ تاريخٌ، كانوا يؤرِّخونَ في الدَّهرِ الأوَّلِ من هبوطِ آدمَ من الجنَّةِ، فلم يزَل ذلكَ حتى بعَثَ اللهُ نوحًا فأرَّخُوا من الطُّوفانِ، ثم لم يزَل كذلكَ حتى حُرِقَ إبراهيمُ فأرَّخُوا من حريقِ إبراهيمَ[٢].

ثمَّ اختلَفُوا؛ فأرَّخَ بنو إسحاقَ من نارِ إبراهيمَ إلى مبعَثِ يوسُفَ، ومن مبعَثِ يوسُفَ إلى مُلكِ سُليمانَ، ومن ملكِ سُليمانَ إلى مبعَثِ عيسَى، ومن مبعَثِ عيسى إلى مبعَثِ سيِّدِنا رسولُ اللهِ ﷺ.

وأرَّخَ بنو إسماعيلَ من بُنيانِ الكعبةِ إلى موتِ كعبِ بن لؤيٍّ، ومن مَوتِ كعبِ بن لؤيٍّ[٣] إلى عامِ الفيلِ، فأرَّخوا منهُ.

ثمَّ أرَّخَ المسلمونَ بعد ذلكَ من الهِجرةِ، وكانتِ النَّصارَى تؤرِّخُ بعهدِ إسكندرَ ذي القرنَينِ، وكانَتِ الفرسُ يؤرِّخونَ بملوكِهم[٤].

ولنشرَع في المرادِ فنقولُ: لا بأسَ بذكرِ فائدةٍ لطيفَةٍ، وهيَ أنَّه قيلَ: عاشَ آدمُ عليهِ السَّلامُ ألفَ سنةٍ، وبينَ موتهِ والطُّوفانِ ألفُ سنةٍ ومئتانِ واثنتان وأربعونَ سنةً،

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٤٥)، وابن أبي خيثمة كما في «الشماريخ» للسيوطي (ص٢٤) عن ابن سيرين.

(٢) «فأرخوا من حريق إبراهيم» من (ش).

(٣) «ابن لؤي» ليس في (ش).

(٤) انظر: «تاريخ دمشق» (١/ ٣٤)، وانظر: «تاريخ الطبري» (١/ ١٩٣)، «المنتظم» لابن الجوزي (٤/ ٢٢٧).

وعاشَ نوحٌ بعدَ الطُّوفانِ ثلاث مئةٍ وخمسينَ سنةً، وبينَ نوحٍ وإبراهيمَ ألفُ[1] سنةٍ ومئتانِ وأربعونَ سنةً، وبينَ إبراهيمَ وموسى سبع مئةِ سنةٍ، وبينَ موسَى وداودَ خمسُ مئةِ سنةٍ، وبين داودَ وعيسَى ألفُ سنةٍ ومئتا سنةٍ، وبينَ عيسَى ومحمَّدٍ ستُّ مئةٍ وعشرونَ سنةً، وقيلَ غيرُ ذلكَ.

ولا يعلَمُ تحقيقَ ذلكَ إلَّا اللهُ، قالَ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

ولا بأسَ أيضًا بذكرِ الخلفاءِ كلِّهم على وجهٍ مختصرٍ، لتتمَّ الفائدةُ على الوجهِ المعتبَرِ:

سيِّدُ الخلفاءِ وخاتمُ الرُّسلِ محمدٌ ﷺ

وُلِدَ بمكَّةَ، في شِعبِ بني هاشمٍ، يومَ الإثنينِ بلا خلافٍ، الثَّاني عشرَ من ربيعٍ الأوَّلِ على الأصحِّ، لعشرينَ من شهرِ نيسانَ عامَ الفيلِ، بعد قدُومِهِ لمكَّةَ بخمسِينَ يومًا على الأشهَرِ في ولايةِ الملكِ العادِلِ كسرى أنوشَروانَ، سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وخمس مئةٍ من رفعِ عيسى عليهِ السَّلامُ إلى السَّماءِ.

ولَمَّا تمَّ لهُ خمسٌ وعشرونَ سنةً تزوَّجَ خديجةَ، ولَمَّا تمَّ لهُ أربعونَ سنةً بعثَهُ اللهُ، ولَمَّا تمَّ له إحدَى وخمسونَ سنةً وتسعةُ أشهرٍ أُسرِيَ بهِ إلى السَّماءِ، ولَمَّا تمَّ له ثلاثٌ وخمسونَ سنةً هاجرَ إلى المدينةِ، وكانَ أوَّلَ المحرَّمِ سنةَ الهجرةِ يومَ الخميسِ الثَّامنَ من أيَّامِ، سنةِ ثلاثٍ وثلاثينَ وتسعِ مئةٍ من ذي القَرنينِ، وأقامَ بالمدينةِ عشرَ سنينَ.

وتوفِّيَ ﷺ يومَ الإثنين لاثني عشرةَ ليلةً خلَتْ من ربيعِ الأوَّلِ، سنةَ إحدى عشرةَ من الهجرةِ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً.

---

(١) في (ش): «ألفا».

دولةُ الخلفاءِ الرَّاشدينَ رضوانُ اللهِ عليهم أجمَعِين

أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ: عبدُ اللهِ بنُ أبي قُحافةَ عُثمان، بويعَ بالخلافةِ سنةَ إحدى عشرةَ من الهجرةِ، فأقامَ سنتَينِ وثلاثةَ أشهرٍ وتسعةَ أيَّامٍ، وتوفِّيَ وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً.

الفاروقُ عمرُ بنُ الخطَّابِ: أميرُ المؤمنينَ، بويعَ بالخلافةِ[١] يومَ موتِ الصِّدِّيقِ، فأقامَ عشرَ سنينَ وستَّةَ أشهُرٍ وخمسَ ليالٍ، وتوفِّي ثالثَ عشرَ ذي الحجَّةِ، سنةَ ثلاثٍ وعشرينَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً.

ذو النُّورَينِ عثمانُ: بُويعَ أوَّلَ المحرَّمِ، فأقامَ اثنتي عشرةَ سنةً إلَّا أيامًا، وتُوفِّيَ بشوَّالٍ سنةَ خمسٍ وثلاثينَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً، والأشهَرُ اثنتانِ وثمانُونَ سنةً.

المُرتضَى عليُّ بن أبي طالبٍ: بُويعَ بعدَ وفاةِ عثمانَ، فأقامَ أربعَ سنِينَ وتسعةَ أشهُرٍ، وقُتِلَ ليلةَ الجمعةِ، سابعَ عشرَ رمضانَ، سنةَ أربعينَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً.

الحسنُ ولدُهُ: بُويعَ يومَ ماتَ أبوهُ، فأقامَ ستَّةَ أشهُرٍ، ثمَّ خلَعَ نفسَه طائعًا في ربيعٍ الأوَّلِ سنةَ إحدَى وأربعينَ، وماتَ سنةَ ستٍّ وخمسِينَ، وعمرُهُ سبعٌ وأربعونَ سنةً.

وفي الحديثِ: «الخِلافةُ بعدِي ثلاثونَ سنةً، ثمَّ تكُونُ[٢] مُلكًا ومُلوكًا»[٣]. وكانَ آخرُ ولايةِ الحسَنِ رضيَ الله عنه تمامَ الثَّلاثينَ.

---

(١) «بالخلافة» من (ش).

(٢) «تكون» من (ش).

(٣) روى نحوه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦) وحسنه، من حديث سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ. ولفظ أبي داود: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء، أو ملكه من يشاء».

[الدَّولة الأمويَّة]

ثم جاءَتِ الدَّولةُ الأمويةُ وكانت بالشَّامِ، وعدَّةُ الخلفاءِ منهم أربعةَ عشرَ، وكانتْ عمَّالهُم بمصرَ والشَّامِ والحجازِ والهندِ والصِّينِ وخُراسانَ، والمشرقِ والمغربِ والأندَلُسِ وسائرِ أقطارِ الإسلامِ، ومدَّتهم اثنتَانِ وتسعونَ سنةً.

فأوَّلُهم مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ: بُويعَ في ذي[1] الحجةِ ببيتِ المقدِسِ سنةَ أربعينَ، فأقامَ تسعَ عشرةَ سنةً وثلاثةَ أشهُرٍ، وتوفيَ في رجَبٍ سنةَ ستِّينَ، ودُفِنَ بدمشقَ، وعمرُهُ ثمانٍ وسبعونَ سنةً.

يزيدُ ابنهُ: بُويعَ يومَ ماتَ أبوهُ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وتسعة[2] أشهُرٍ، وتوفِّي رابَع عشرَ ربيعٍ الأوَّلِ سنةَ أربعٍ وستِّينَ، وعمرهُ تسعٌ وثلاثونَ، ودُفِنَ بدمشقَ.

معاويةُ ابنهُ: بويعَ يومَ ماتَ أبوهُ، فأقامَ أربعينَ يومًا، وتوفِّي خامسَ ربيعٍ الآخرِ سنةَ أربعٍ وستِّينَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وعشرونَ سنةً، وكانَ رجُلًا صالحًا.

عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ: بويعَ بمكَّةَ تاسعَ رجبٍ[3]، سنةَ أربعٍ وستِّينَ، فأقامَ تسعَ سنينَ إلَّا قليلًا، وقتلَهُ الحجَّاجُ ثالثَ عشرَ جمادى الآخرَ، سنةَ ثلاثٍ وسبعِينَ.

مروانُ بنُ الحكَمِ: بويعَ في الشَّامِ في رجبٍ سنةَ أربعٍ وسُبعينَ[4] فأقامَ عشرةَ أشهُرٍ، وتوفيَ برمضانَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ، وكانَ ملكُهُ بالشَّامِ ومصرَ، ولم تصِحَّ خلافتُهُ.

---

(١) «ذي» ليس في (ش).

(٢) في (ش): «وسبعة».

(٣) وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان. انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص١٦٠).

(٤) في (ش): «وستين».

عبدُ الملكِ ابنهُ: بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ إحدَى وعشرينَ سنةً ونصفَ شهرٍ، منها سبعُ سنينَ وسبعةُ أشهُرٍ مُتغلِّبًا على ابنِ الزُّبيرِ، وباقيها بعدَ قتلِهِ، ومن حينئذٍ صحَّتْ خِلافتُهُ[١]، وتوفِّي[٢] سنةَ ستٍّ وثمانينَ، وعمرُه ستونَ سنةً[٣].

الوليدُ بن عبدِ الملكِ: بُويعَ يومَ موتهِ فأقامَ تسعَ سنينَ[٤]، وتوفِّيَ بجُمادى الآخرةِ، سنةَ ستٍّ وتسعينَ، وعمرُهُ ثمانٍ وأربعونَ سنةً، ودُفنَ بدمشقَ، وأكثر الفتوحِ في أيَّامِه.

سُليمانُ أخوهُ: بُويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ سنتَينِ وثمانيةَ أشهُرٍ، وتوفي بصفر سنةَ تسعٍ وتسعينَ، وعمرُهُ خمسٌ وأربعونَ سنةً.

عمرُ بن عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنه: بويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ سنتَينِ وخمسَةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ برجبٍ سنةَ إحدى ومئةٍ، وعمرُه تسعٌ وثلاثونَ سنةً، ودُفنَ بديرِ سمعانَ بأرضِ حِمصَ.

يزيدُ بن عبدِ الملكِ بن مروانَ: بويعَ يومَ موتِ عمرَ، فأقامَ أربعَ سنينَ وشهرًا، وتوفِّيَ بحَرَّانَ[٥] في شعبانَ، سنةَ خمسٍ ومئةٍ، وعمرُهُ تسعٌ وعشرونَ سنةً.

---

(١) «خلافته» ليس في (ش).

(٢) في (ش): «وتوفي عبد الملك بن مروان».

(٣) في هامش (ش): «وولد في أيامه الإمام الأعظم أبو حنيفة النُّعمان بن ثابتٍ رحمه اللهُ تعالى في ثمانينَ، وتوفي سنة خمسين ومئةٍ، وعاش من العمرِ سبعينَ سنةً، وهو أكبرُ الأئمَّةِ وأقدمُهم، وظهر المذهب الحنفي».

(٤) في هامش (ش): «وولد الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى في زمان دولته، وتوفي سنة ١٧٩. وهو - أي الوليد - الذي بنى جامع بني أمية، وأنفق على بنائه ٤٠٠ صندوق، في كل صندوق ٢٨٠٠٠ دينارًا، رحمه الله تعالى».

(٥) حران: مدينة قديمة، كانت مركزًا من أهم مراكز الثقافة الإغريقية السريانية قبل الإسلام، وبقي فيه =

هشامٌ أخوهُ: بويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ تسعَ عشرةَ سنةً، وتوفِّيَ بالرُّصافةِ[١] في ربيعٍ الآخرِ سنةَ خمسٍ وعشرينَ ومئةٍ، وعمرُه ثلاثٌ وخمسونَ سنةً.

الوليدُ بنُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ: بُويعَ يومَ موتِ عمهِ هشامٍ، فأقامَ سنةً وشهرينِ وعشرينَ يومًا، وقتِلَ لفسقِهِ في جمادَى الأولى سنةَ ستٍّ وعشرينَ ومئةٍ، ومن حين قتِلَ اضطربَت خلافةُ بني أُميَّةَ[٢].

يزيدُ بنُ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ: بويعَ يومَ قُتِلِ ابن عمِّهِ الوليدِ، فأقامَ خمسةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ سنةَ ستٍّ وعشرينَ ومئةٍ، وعمرُهُ أربعونَ سنةً.

إبراهيمُ أخوهُ: بويعَ يومَ موتهِ في ذي الحجَّةِ، فأقامَ سبعينَ يومًا، وخلعَ نفسَهُ في صفرٍ سنةَ سبعٍ وعشرينَ ومئةٍ.

مروانُ بن محمَّدِ بن مروانَ الأوَّل[٣]: بويعَ يومَ خلعِ إبراهيمَ، فأقامَ خمسَ سنينَ وشهرًا، وقتلَ في ذي الحجَّةِ عامَ اثنينِ وثلاثينَ ومئةٍ، بناحيةِ بوصيرَ[٤] من أرضِ مصرَ، وعمرُهُ تسعٌ وخمسونَ سنةً، وهوَ آخرُ خلفاءِ بني أميَّةَ.

= بعض الصَّابئة حتى ما بعد خلافة المأمون، وينسب لها كثير من العلماء، تقع حاليًا في جنوب تركيا قرب الحدود السورية، تتبع إداريًا لمحافظة أورفة.

(١) الرُّصافة: مدينة عريقة عبر العصور، تقع في البادية السورية بالقرب من مدينة الرقة، اهتم بها هشام بن عبد الملك وبنى قصره فيها، وسميت باسمه: رصافة هشام.

(٢) «ومن حين قتل اضطربت خلافة بني أمية» من (خ).

(٣) «الأول» من (ش).

(٤) بوصير: اسم لأربع قرى بمصر، والتي قتل فيها مروان بن محمد: بوصير قوريدس، في صعيد مصر. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (١/ ٩٠٥).

يقالُ: إنَّه كانَ[١] عرضَ جيشَهُ، فبلَغَ أربع مئةِ ألفٍ غارقينَ في العُدَدِ، فقالَ لوزيرِهِ: لا أظنُّ جيشًا في الدُّنيا يغلِبُ جيشَنا هذا! فقالَ الوزيرُ: يا أميرَ المؤمنينَ! إذا جاءَتِ المدَّةُ لم تنفَعِ العدَّةُ، وإذا جاءَ المدَدُ لم تنفَعِ العُدَدُ[٢].

* * *

---

(١) «كان» من (خ).

(٢) انظر نحوه: «المنتظم» لابن الجوزي (٧/ ٣٠٥)، و«تهذيب الرياس» للقلعي (ص٣١١)، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١١/ ٤٤٣)، وفيها أن القائل هو مروان بن محمد.

[الدَّولةُ العباسيَّةُ]

ثـم جـاءَتِ الدَّولـةُ العباسـيَّةُ، وكانـوا بالعـراقِ، وعِدَّتُهـم بهـا سـبعٌ وثلاثون خليفَـةً، ثـم انتقَلُـوا لمصـرَ وعِدَّتُهـم بهـا نحـو[١] سـبعةَ عشـرَ خليفـةً، وفـي صدرِ ولايتِهـم إلـى المتـوكِّلِ على اللهِ كانت أعمالُهم سـائرَ بلادِ الإسـلامِ غيـرَ الأندلسِ، فإنَّهـا خرجَـتْ عنهـم بتغلُّبِ بنـي أُميَّـةَ علَيها.

واسـتمرَّت الخلافـةُ فيهـم نحـوَ ثمانِمئـةِ سـنةٍ، وكانَ يُظـنُّ بقاؤهـا فيهـم إلـى أن يسـلِّموها للمهـديِّ آخـرَ الزمـانِ، وهـمُ الذيـن أحدثُوا الألقـابَ للخلفـاءِ وقيلَ: كانـتِ الألقـابُ أيضًـا لبني أُميَّةَ، وإن سُـلِّمَ ذلك فلا شُـهرةَ لهـم بها، فـأوَّلُ الخلفاءِ العباسيينَ:

السَّفاحُ[٢]: أبو العباسِ، عُبيدُ اللهِ بنُ محمَّدِ بن عليٍّ ابنِ ترجمانِ القرآنِ عبدِ الله ابن عبَّاسٍ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ، بويعَ بالخلافةِ رابعَ عشرَ ربيعِ الأوَّلِ، عامَ اثنين وثلاثينَ ومئةٍ، فأقامَ أربعَ سنينَ وثمانيةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ سنةَ ستٍّ وثلاثينَ ومئةٍ[٣].

المنصـورُ أبـو جعفرٍ: عبـدُ اللهِ أخـوهُ، بويعَ يـومِ موتـهِ، فأقامَ اثنتين وعشـرينَ سـنةً، وتوفـيَ محرِمًا قـربَ مكَّةَ، فـي ذي الحجَّةِ، سـنةَ ثمانٍ وخمسـينَ ومئةٍ، وهو الذي بنى بغـدادَ[٤].

---

(١) «نحو» من (خ).

(٢) في (خ): «أولهم السفاح».

(٣) «ومئة» ليس في (ش).

(٤) فـي هامـش (ش): «وولـد الإمـام محمـد المكـرم بـن إدريـس الشـافعي رحمـه الله تعالـى سـنة خمسـين ومئـة».

المهديُّ محمَّدٌ: ولدُ المنصورِ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ عشرَ سنينَ وشهرًا، وتوفيَ في المحرَّمِ سنةَ تسعٍ وستينَ ومئةٍ[(١)].

الهادِي موسَى: ولدُ المهديِّ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقام سنةً وشهرًا ونِصفًا، وماتَ في ربيعِ الأوَّلِ، سنةَ سبعينَ ومئةٍ.

الرَّشيدُ هارُونُ: أخوهُ، بويِعَ يومِ موتِهِ، فأقامَ ثلاثًا وعشرينَ سنةً وتسعةَ عشرَ يومًا[(٢)]، وتوفِّيَ بجُمادى الأولى، سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ ومئةٍ، وعمرُه خمسٌ وأربعونَ سنةً[(٣)].

الأمينُ محمَّدٌ: ولدُ هارونَ، بويعَ يومَ موتِه، فأقامَ أربعَ سنينَ وسبعةَ أشهُرٍ، وخُلِعَ ثمَّ قُتِلَ في المحرَّمِ سنةَ ثمانٍ وتسعينَ ومئةٍ، وعمرُهُ تسعٌ وعشرونَ سنةً.

المأمونُ عبدُ اللهِ: أخوهُ بويعَ يومَ قتلِهِ، فأقامَ عشرينَ سنةً وخمسةَ أشهرٍ، وماتَ بأرضِ الرُّومِ في رجبٍ سنةَ ثماني عشرةَ ومئتينِ، وعمرهُ ثمانٍ وأربعونَ سنةً، وهو أوَّلُ من أظهرَ القولَ بخلقِ القرآنِ، وتبِعَه المعتَصِم والواثِقُ على ذلك.

المعتصِمُ باللهِ محمدٌ: أخوهُ، بويعَ يوم موتِه، فأقامَ ثمانَ سنيَن وثمانيةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ في ربيعِ الأوَّلِ سنةَ سبعٍ وعشرينَ ومئتَينِ، وعمرُهُ ثمانٌ وأربعون سنةً.

الواثقُ باللهِ هارونُ: ولدُ المعتصِمِ، بويعَ يومَ موتِه، فأقامَ خمسَ سنينَ وتسعةَ أشهرٍ، وتوفي في ذي الحجَّةِ عامَ اثنين وثلاثينَ ومئتَينِ، وعمرُهُ ستٌّ وثلاثون.

المتوكِّلُ على اللهِ جعفرٌ: أخوهُ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وتسعةَ

---

(١) في هامش (ش): «وفي أيام المهدي محمد ولد الإمام الفاضل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى».

(٢) «وتسعة عشر يومًا» من (ش).

(٣) «سنة» من (ش).

أشهُرٍ، ورفعَ محنةَ القولِ بخلقِ القرآنِ، وأظهرَ السُّنَةَ، وأكرَمَ الإمامَ أحمدَ، ثم قُتلَ، يُقالُ: بمكِيدةِ ولدِهِ المنتصِرِ في شوَّال سنةَ سبعٍ وأربعين ومئتَينِ، وعمرُهُ إحدَى وأربعونَ سنةً، ومن حين قُتلَ صارَت خلافةُ بني العباسِ مضطربةً وكادتْ تزُولُ، وهو أوَّلُ خليفَةٍ حُجرَ عليهِ، ومن كلامِهِ شعر:

أَلَيسَ مِنَ العَجائبِ أنَّ مِثلي ... يُرَى ما قلَّ ممنُوعًا عليهِ[1]

وتؤكَلُ باسمِهِ الدُّنيا جمِيعًا ... وما منها قَليلٌ في يديهِ

المنتصِرُ باللهِ محمَّدٌ: ولَدُ المتوكِّلِ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ ستَّةَ أشهرٍ، وماتَ سنةَ ثمانٍ وأربعينَ ومئتينِ، في ربيعٍ الآخرِ، وعمرُهُ أربعٌ وعشرونَ سنةً.

المستعينُ باللهِ أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ المعتصِمِ: بويعَ يومَ موتِ المنتصرِ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وتسعةَ أشهرٍ، وخلَعَ نفسَه في المحرَّمِ عامَ اثنين وخمسِينَ ومئتين.

المعتزُّ باللهِ محمَّدُ بنُ المتوكِّلِ: بويعَ يومَ خُلعَ المستعينُ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وسبعةَ أشهرٍ، وخلعَ نفسَهُ في شعبانَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ ومئتين.

المهتدِي باللهِ محمَّدُ بنُ الواثقِ: بويعَ يومَ خُلعَ المعتزُّ، فأقامَ أحد عشرَ شهرًا، وكانَ عادلًا مرضيًّا، ثم قتلَ رابعَ عشرَ رجبٍ سنةَ ستٍّ وخمسينَ ومئتَينِ.

المعتمدُ على اللهِ أحمدُ بن المتوكِّلِ: بويعَ يومَ قتلَ ابنُ عمهِ، فأقامَ ثلاثًا وعشرينَ سنةً، وتوفِّيَ في سنةِ تسعٍ وسبعينَ ومئتين.

المعتضِدُ باللهِ أحمدُ بن الموفَّقِ: بويعَ يومَ موتِ عمِّهِ، فأقامَ تسعَ سنينَ وتسعةَ أشهرٍ، وتوفِّي في جمادى الآخرِ سنةَ تسعٍ وثمانينَ ومئتين، فأقامَ في أيَّامِهِ دولةَ بني العبَّاسِ.

---

(١) في (خ): «لديه».

المكتفِي باللهِ عليٌّ ولدُ المعتضدِ: بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ ستَّ سنينَ وستَّةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ في القعدةِ سنةَ خمسٍ وتسعينَ ومئتين.

المقتدرُ باللهِ جعفرٌ: أخوهُ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ أربعًا وعشرين سنةً وأحدَ عشرَ شهرًا ونصفًا، وقُتِلَ بشوّالٍ سنةَ عشرينَ وثلاث مئةٍ.

القاهرُ باللهِ محمَّدٌ: أخوهُ، بويعَ يومَ قتلِهِ، فأقامَ سنةً واحدةً وستَّةَ أشهرٍ، ثمَّ خُلعَ وأكحلوه في جمادى الأوَّلِ عامَ اثنين وعشرينَ وثلاث مئةٍ.

الرَّاضي باللهِ محمَّدُ بنُ المقتدرِ: بويعَ يومَ خلِعَ عمهُ، فأقامَ نحو سبعِ سنينَ، وتوفِّيَ في ربيعِ الأوَّلِ سنةَ تسعٍ وعشرينَ وثلاث مئةٍ.

المتَّقي للهِ إبراهيمُ: أخوه، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وإحدى عشرَ شهرًا، وخلِعَ وأكحلوه في صفرٍ سنةَ ثلاثٍ وثلاثين وثلاث مئةٍ.

المستكفِي باللهِ عبد اللهِ بن المكتَفِي: بويعَ يومَ خُلعَ المتَّقِي، فأقامَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ، وخلِعَ في جمادى الآخرةِ سنةَ أربعٍ وثلاثين وثلاث مئة.

المطيعُ للهِ الفضلُ بنُ المقتدرِ: بويعَ يومَ خلِعَ المستكفِي، فأقامَ تسعًا وعشرين سنةً وأربعةَ أشهرٍ، وخلِعَ في ذي القعدةِ سنةَ ثلاثٍ وستينَ وثلاث مئةٍ.

الطَّائعُ للهِ عبدُ الكريمِ: ولدُهُ، بويعَ يومَ خلْعِ أبيهِ، فأقامَ سبع عشرةَ سنةً وتسعةَ أشهرٍ، وخلَعَ نفسَهُ سنةَ إحدى وثمانين وثلاث مئةٍ.

القادرُ باللهِ أحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ المقتدرِ: بويعَ يومَ خَلْعِ الطَّائعِ للهِ، فأقامَ إحدى وأربعينَ سنةً وثلاثة أشهرٍ، وتوفي في ذي الحجَّةِ عامَ اثنين وعشرينَ وأربع مئةٍ.

القائمُ بأمرِ اللهِ عبدُ اللهِ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موت أبيهِ، فأقامَ أربعًا وأربعينَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ[1] وتوفي في شعبانَ سنةَ سبعٍ وستينَ وأربع مئةٍ.

المقتدِي باللهِ عبدُ اللهِ بن محمدِ بنِ القائمِ: بويعَ يومَ موتِ جدِّهِ، فأقامَ تسعَ عشرة سنةً وخمسةَ أشهرٍ، وتوفِّي في المحرَّمِ سنةَ سبعٍ وثمانين وأربع مئةٍ.

المستظهرُ باللهِ أحمدُ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ ستًّا وعشرين سنةً، وتوفِّيَ سنةَ اثنتي عشرةَ وخمس مئةٍ.

المسترشِدُ باللهِ الفضلُ: ولدُهُ، بويعَ يوم موتِ أبيهِ، فأقامَ تسع عشرةَ سنةً، وقتلَ سنةَ تسعٍ وعشرينَ وخمس مئةٍ.

الرَّاشدُ باللهِ: ولدُهُ، بويعَ بعدَ قتلِ أبيهِ، فأقامَ سنةً، ثم خلِعَ سنةَ ثلاثينَ وخمس مئةٍ.

المقتفِي لأمرِ اللهِ محمَّدُ بنُ المستظهرِ: بويعَ يومَ خُلِعَ ابنُ عمِّهِ، فأقامَ خمسًا وعشرينَ سنةً، وتوفِّي سنة خمسٍ وخمسينَ وخمس مئةٍ، وهو الذي كتبَ العهدَ لنورِ الدِّين الشَّهيدِ بأخذِ مصرَ.

المستنجدُ باللهِ يوسفُ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ إحدى عشرةَ سنةً، وتوفِّي سنَةَ ستٍّ وستينَ وخمس مئةٍ، وكانَ عادلًا[2].

المستضيءُ بنورِ اللهِ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ تسعَ سنينَ وشهرًا[3]، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ وخمس مئةٍ، وهو الذي خطَبَ لهُ السُّلطانُ[4] صلاحُ الدِّينِ بمصرَ.

---

(١) في (ش): «وثماني شهور».

(٢) في (ش): «موصوف بالعدل».

(٣) في (ش): «وأشهر».

(٤) «السلطان» من (خ).

النَّاصـرُ لديـنِ اللهِ أحمدُ: ولـدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ سـبعًا وأربعينَ سـنةً، وتوفِّـيَ عـامَ اثنينِ وعشـرينَ وسـت مئـةٍ، وعاشَ تسـعينَ سـنةً، وخُطِبَ لـه حتَّى في الصِّيـن والأندلسِ.

الظَّاهرُ باللهِ محمَّدٌ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ تسعةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ سنةَ ثلاثٍ وعشرينَ وستِّ مئةٍ.

المستنصرُ بالله أحمدُ: ولدُهُ، بويعَ يوم ماتَ أبيهِ، فأقامَ سبع عشرةَ سنةً، وتوفِّيَ سنةَ تسعٍ وثلاثين وستِّ مئةٍ.

المستعصمُ باللهِ: ولدُهُ، وهو آخرُ الخلفاءِ ببغدادَ، بويعَ يومَ ماتَ أبوه، وكان فيهِ لينٌ وقِلَّةُ معرفةٍ، فأقامَ سبع عشرةَ سنةً، وقتلَهُ التَّتارُ سنةَ ستٍّ وخمسينَ وستِّ مئةٍ، بمكيدةِ وزيرِهِ ابن العلقَميِّ الخبيثِ الرَّافضيِّ، ووقعَ السَّيفُ ببغدادَ أربعين يومًا، فقُتِلَ فوقَ ألفي ألفٍ.

وبقتلِ المستعصمِ خُرِّبَتْ بغدادُ وانقضَتِ الخلافةُ الإسلاميَّةُ منها بدخولِ التَّتارِ واستيلائهم علَيها، وأقامَ النَّاسُ بغيرِ خليفةٍ ثلاثَ سنينَ، وعلَّقَ التَّتارُ المصاحفَ في أعناقِ الكلابِ، وقَلبوا المساجدَ كنائسَ، وألقَوا كتبَ الأئمَّةِ في الدَّجلةِ حتى صارَتْ كالجسرِ، تمرُّ الخيلُ عليها، وبذلك انقرضَتِ المذاهبُ ما عدا المذاهبِ الأربعةِ؛ لكونها كانَتِ قد انتشرَتْ وضُبِطَتْ بالتَّدوينِ، فاختيرَت لذلكَ.

ومن حينئذٍ ذهبَتْ محاسنُ بغدادَ كأنَّها لم تكُنْ، بعدَ أن كانَ بها اثنا عشرَ ألفِ خانٍ، واثنا عشرَ[1] ألفِ طاحونٍ، وأربعةٌ وعشرونَ ألفَ سوقٍ، وستُّونَ ألفَ حمامٍ، وثمان مئةِ ألفِ مدرسةٍ، ومن جوامِعها الرَّصافةُ يسَعُ مئةَ ألفٍ كانوا يحضُرونَ ابن الجوزيِّ، وكانَ سورُها المحيطُ بها ثلاثةَ أيامٍ بلياليها، وقيلَ: كانَ يمشي على عرضِهِ

(١) «عشر» من (خ).

ستون فارِسًا عرضًا غيرَ مزدحِمِينَ، وماتَ بها الإمامُ أحمدُ بن حنبلٍ فحضَرَ جنازَتهُ ألفُ ألفٍ وستُّ مئةِ ألفٍ أو أكثَرُ، ضُبِطَ ذلكَ بالمساحةِ. وكانَت أجلَّ مدنِ الدُّنيا، وانتقلَتِ الخلافةُ منها إلى مصرَ، لكِن فرقٌ ما بين الثُّريَّا والثَّرى.

ذكرُ خلفاءِ مصرَ من العباسيِّينَ

المستنصرُ باللهِ: ولدُ الظَّاهرِ، وصلَ إلى القاهرةِ سنةَ تسعٍ وخمسينَ وستِّ مئةٍ في أيَّامِ الملكِ الظَّاهرِ بيبرس، فتلقَّاهُ وبايعَهُ معَ أهلِ الحلِّ والعقدِ بالخلافةِ، ثمَّ سافرَ للعراقِ، فودَّعهُ الملكُ الظَّاهرُ إلى الشَّامِ، ثم فارقَهُ الخليفةُ متوجِّهًا إلى العراقِ، فقتَلَهُ التَّتارُ أيضًا، وهذا لم يستقرَّ له مكانٌ.

الحاكمُ بأمرِ اللهِ أحمدُ بن الرَّاشدِ العباسيُّ: أُحضِرَ إلى مصرَ وأُثبِتَ[١] نسبُه، وأقامَ بمصرَ، وهو أوَّلُ الخلفاءِ بها، وذريَّتُه إلى يومِنا هذا، بويعَ ثامنَ المحرَّمِ سنةَ إحدى وستِّينَ وستِّمئةٍ، فأقامَ نيفًا وأربعين سنةً، وتوفي سنةَ إحدى وسبع مئةٍ، ودفنَ بجوارِ السَّيِّدةِ نفيسةَ[٢].

المستكفِي باللهِ سُلَيمانُ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ إحدى وأربعينَ سنةً، ونفاهُ الملكُ النَّاصرُ إلى قُوصٍ[٣]، واستمرَّ بها إلى أن ماتَ في شعبانَ، عامَ اثنين وأربعينَ وسبع مئةٍ.

---

(١) في (خ): «وأثبتوا».

(٢) السيدة نفيسة: ابنة أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكانت من النساء الصالحات التقيات، توفيت سنة ٢٠٨هـ، ودفنت بالقاهرة بمنطقة كانت تسمى سابقًا بدرب السباع، ثم اشتهرت باسمها. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٤٢٣)، وغيره.

(٣) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٤١٤). وحاليًا هي مدينة تابعة إداريًا لمحافظة قنا في مصر.

الواثقُ باللهِ إبراهيمُ: بايعَهُ النَّاصرُ بعدَ موتِ المستكفِي، وكان إنَّما[١] عهِدَ لولدِه أحمدَ، فأقامَ نحو سنةٍ، ثم ندِمَ النَّاصرُ عند موتِهِ وأوصَى بخلعِ إبراهيمَ وعودِ الخلافةِ لأحمدَ[٢]، فخُلِعَ في أوَّلِ المحرَّمِ عامَ اثنينَ وأربعينَ وسبع مئةٍ.

الحاكمُ بأمرِ اللهِ أحمدُ: ولدُ المستكفِي، بويعَ يومَ خلعَ إبراهيمُ، بايعَهُ ابن النَّاصرِ والقضاةُ والعلماءُ، فأقامَ إحدى عشرَ سنةً، وتوفيَ سنةَ ثلاثٍ وخمسينَ وسبع مئةٍ.

المعتضدُ باللهِ أبو بكرٍ: ولدُ المستكفِي، بويعَ يومَ ماتَ أخوهُ، فأقامَ عشر سنينَ، وتوفيَ سنةَ ثلاثٍ وستِّين وسبع مئةٍ.

المتوكِّلُ على اللهِ محمَّدٌ: ولدُهُ، بويعَ يومَ ماتَ أبوهُ، فأقامَ نحوَ ستَّ عشرةَ سنةً، وخُلِعَ في سنة تسعٍ وسبعينَ وسبعِ مئةٍ.

المعتصِمُ زكريَّا بن إبراهيمُ: بويعَ يومَ خلعِ المتوكِّلِ فأقامَ نحو شهرٍ.

المتوكِّلُ بن المعتضدِ: أُعيدَ ثانيًا فأقامَ نحو ستِّ سنينَ، وخلعَهُ برقوقُ سنةَ خمسٍ وثمانينَ وسبعِ مئةٍ.

الواثقُ بالله عمرُ: بويعَ بالخلافةِ بعد خلعِ المتوكِّلِ، فأقامَ نحو ثلاثِ سنينَ، وتوفِّيَ سنةَ ثمانٍ وثمانينَ وسبعِ مئةٍ[٣].

المعتصِمُ زكريا: أعادَه برقوقُ ثانيًا، فأقامَ نحو ثلاثِ سنينَ، وتوفِّيَ سنةَ إحدى وتسعين وسبعِ مئةٍ.

---

(١) «إنما» من (خ).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٩١)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٢٣٢).

(٣) «وسبع مئة» من (خ).

المتوكِّلُ على اللهِ: أُعيدَ للخلافةِ ثالثًا[١]، فأقامَ نحو سبعَ عشرة سنةً، وتوفي سنةَ ثمانٍ وثمانِ مئةٍ، فكانَ مجموعُ خلافتِهِ بما فيها من الخلعِ والحبسِ نحوَ خمسٍ وأربعين سنةً.

وخلَّفَ عشرةَ أولادٍ ذكورٍ تولَّى بعدَهُ منهم خمسةٌ فأوَّلُهم:

المستعينُ باللهِ أبو الفضل العباسُ: بويعَ يومَ ماتَ أبوهُ المتوكِّلُ، فأقامَ إلى سنةِ أربعَ عشرةَ، ثم تسلطَنَ ستَّةَ أشهرٍ، ثم خلعَهُ المؤيَّدُ شيخ[٢] سنةَ خمس عشرةَ وثمانِ مئةٍ، وحُبِسَ بالإسكندريةِ إلى أن ماتَ بها رحمَهُ اللهُ.

المعتضدُ باللهِ أبو الفتحِ داودُ: أخوهُ، بويعَ يومَ خلعِه من السَّلطنةِ، فأقامَ ثلاثين سنةً، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وأربعينَ وثمان مئةٍ، وبلغَ مالم يبلُغهُ عباسيٌّ قبلَه بمصرَ، وصلَّى عليهِ الملكُ[٣] الظَّاهرُ جقمقُ، ومشَى في جنازَتهِ إلى المشهدِ النَّفيسِيِّ.

المستكفِي باللهِ سليمانُ: أخوهُ، بويعَ يوم موتِهِ، فأقامَ عشر سنينَ، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ، وبلغَ من العزِّ فوق أخيهِ، وحملَ السُّلطانُ نعشَهُ.

القائمُ بأمرِ الله حمزةُ: أخوهُ، بويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ أربعَ سنينَ، وخلعَهُ الملكُ الأشرفُ إينالُ سنةَ تسعٍ وخمسين وثمان مئةٍ، وأرسلَهُ للإسكندريةِ محتجًّا بما أفتاهُ الشَّافعيةُ مِن أنَّ للسُّلطانِ أن يخلَعَ الخليفةَ.

المستنجدُ باللهِ، أبو المحاسنِ يوسفُ[٤]: خامسُ الإخوةِ، بويعَ يومَ خلعِ أخيهِ،

---

(١) في (ش): «ثانيًا».

(٢) «شيخ» من (ش).

(٣) «الملك» من (خ).

(٤) «يوسف» من (خ).

يومَ الخميسِ ثالثَ رجبٍ سنةَ تسعٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ[١]، فأقامَ خمسًا وعشرينَ سنةً، وتوفِّيَ رابعَ[٢] المحرَّمِ، سنةَ أربعٍ وثمانينَ وثمان مئةٍ.

المتوكِّلُ على اللهِ، أبو العزِّ عبدُ العزيزِ: بويعَ يومَ الإثنينِ سادسَ عشرَ المحرَّمِ، بعهدٍ من عمِّهِ المستنجِدِ، سنةَ أربعٍ وثمانينَ وثمان مئةٍ، بحضرةِ السُّلطانِ قايتباي، فأقامَ نحو تسعَ عشرة سنةً، وتوفِّيَ سنةَ ثلاثٍ وتسع مئةٍ.

المستمسكُ باللهِ يعقوبُ ولدُه: ويلقَّبُ المستنصرِ بالله أيضًا، بويعَ بعد أبيهِ، واستمرَّ إلى أيامِ الدَّولةِ العثمانيَّةِ، وتوفِّيَ سنةَ سبعٍ وعشرين وتسع مئةٍ.

المتوكِّلُ على اللهِ محمَّدٌ: ولدُ يعقوبَ، بويعَ بالقسطنطينيَّةِ، وكان السُّلطانُ سليمٌ قد أخذَهُ معه، فلمَّا توفِّيَ سليمٌ عادَ المتوكِّلُ هذا إلى مصرَ وصارَ خليفةً بها[٣]، إلى أن ماتَ في شعبان، سنةَ خمسينَ وتسع مئةٍ في أيَّامِ داود باشا، وبموتِه انقطعَتِ الخلافةُ العباسيَّةُ الصُّوريةُ من الدُّنيا، فسُبحانَ من لا يزولُ ملكُهُ.

* * *

(١) «وثمان مئة» من (خ).

(٢) في (ش): «في رابع عشر».

(٣) «بها» من (ش).

بابٌ في ذكرِ سلاطين مصرَ في الإسلامِ

وهو المقصودُ بالذَّاتِ؛ لأنَّ الخلفاءَ الَّذين كانوا بها من العباسيَّةِ لم يكُن لهم من الخلافةِ إلَّا الاسمُ، والمستقِلُّ بالأمورِ والتَّصرفِ إنَّما هوَ السَّلاطينُ، غايةُ الأمرِ أنَّهم كانوا يأتونَ بالخليفةِ للسُّلطانِ الَّذي يريدونَ توليتَهُ فيبايعُهُ، ويقولُ لهُ: (ولَّيتُكَ السَّلطنةَ)، وكانَ سلاطينُ الأقاليمِ[1] يتبركُّونَ بهم، ويرسِلُونَ إليهم أحيانًا يطلُبونَ منهم تفويضَ السَّلطنَةِ، فيكتبونَ لهم[2] بذلكَ، وقد رفِعَ هذا من عهدِ السُّلطانِ سليمٍ فاتحِ مصرَ.

إذا تقرَّرَ هذا، فاعلَم ـ وفَّقكَ اللهُ تعالى ـ أنَّ مصرَ في صدرِ الإسلامِ لم يكُن ولاتُها مستقِلِّينَ بالأمرِ، بل كانوا نوَّابًا عن الخلفاءِ الرَّاشدينَ، ثمَّ عن خلفاءِ بني أُميَّةَ بالشَّامِ، ثمَّ عن الخلفاءِ العبَّاسيِّينَ بالعراقِ.

[أحمدُ بن طولونَ]

واستمرَّ الحالُ على ذلكَ إلى أن تولَّى أحمدُ بن طولونَ نائبًا عن الخليفةِ المعتزِّ باللهِ العباسيِّ، في رمضان سنةَ أربعٍ وخمسينَ ومئتينِ، وأُضِيفَت إليهِ نيابةُ الشَّامِ والعواصِمُ والثُّغورُ وإفريقيَّةُ، وكان أبوهُ طولونُ من الأتراكِ الَّذين أهداهُم عامِلُ بخارى للمأمونِ بن الرَّشيدِ، فلمَّا قوِيَت شوكةُ أحمدَ بنِ طولونَ تغلَّبَ على مصرَ وصارَ سُلطانًا بها وبغيرِها، ولم يدَّعِ الخلافةَ، ولا الخروجَ عن نيابةِ العبَّاسيِّينَ.

وهو أوَّلُ من تسلطَنَ بمصرَ في الإسلامِ، فكانَ له ما بينَ الرَّحبةِ بنواحي الموصلِ إلى أقصى المغربِ، واستمرَّ إلى أن توفِّيَ ليلةَ الأحدِ عاشرَ ذي القعدةِ

---

(١) في (خ): «الإقليم».

(٢) في (ش): «له».

سنةَ سبعينَ ومئتين، ودُفنَ خارجَ باب القَرافةِ[١]، وكانت مدَّةُ سلطنَتِهِ ستَّ عشرة سنةً وشهرينِ، وخلَّفَ عشرةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وسبعةَ آلاف فرسٍ، وسبعةَ آلافِ مملوكٍ، وثلاثةً وثلاثين ولدًا.

وهو الَّذي تحوَّلَ من دارِ النِّيابةِ بقصرِ الشَّمعِ إلى قصرٍ بناهُ بين مصرَ والقاهرةِ، وسمَّاه القطائعَ، ويقالُ: هو الميدانُ الذي تحتَ القلعةِ بالرميلةِ الآنَ، وبنى إلى جنبِهِ الجامعَ الطُّولونيَّ الكبيرَ المشهورَ به الآنَ، عمَّرهُ بعدَ ولايتِهِ بعشرِ سنينَ، وابتدأ بناءُهُ سنةَ ثلاثٍ وستين ومئتين، وأقاموا فيه ثلاثَ سنينَ، وبلغَتِ النَّفقةُ على بنائه مئةَ ألفِ دينارٍ[٢] وعشرينَ ألفٍ، وجعلَ دائرَه منطقةَ عنبرٍ معجونٍ؛ ليفوحَ ريحُها على المصلِّينَ، بناهُ بكنزٍ وجدَه مقدارُه ألفُ ألفِ دينارٍ، فأنفقَها كلَّها في أبوابِ البرِّ، وجعلَ إمامَهُ القاضيَ بكَّارًا[٣]، ومحدِّثَهُ الرَّبيعَ بنَ سليمانَ تلميذَ الإمامِ الشَّافعيِّ[٤]، ووقفَ عليهِ كثيرًا من الرِّباعِ[٥] ونحوِها، ولم يتعرَّض لشيءٍ من أراضي مصرَ.

وكان يتصدَّقُ في كلِّ أسبوعٍ بثلاثةِ آلاف دينارٍ سوى الرَّواتبِ، وكان خراجُ مصرَ في أيَّامِهِ أربعةَ آلافِ دينارٍ.

---

(١) القرافة: مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحالّ واسعة وسوق قائمة، وبها قبر الإمام أبي عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، في مدرسة للفقهاء الشافعية، وهي من نزه أهل القاهرة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٣١٧).

(٢) «دينار» من (ش).

(٣) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٢٨١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٦/ ٣٠٣).

(٤) انظر ترجمته في «مرآة الزمان» (١٦/ ٩٠)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٦/ ٣٣٢).

(٥) الرباع: جمع ربع، وهي المنازل والدور. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري، و«المغرب» للمطرزي (مادة: ربع).

ويقالُ: إنَّهُ أُحصِي مَن قتلَهُ ابن طولونَ ومن ماتَ بحبسِهِ فبلغوا ثمانيةَ عشرَ ألفًا.

ورآهُ بعضُ الصوفيةِ بعدَ موتِه في المنامِ بحالةٍ حسنةٍ، فقالَ: عُدِلَ بي عن النَّارِ إلى الجنَّةِ بسبب إنصافِ المظلومِ، وإسماع[1] كلامي لهُ[2]، وما في الآخرةِ أشدُّ على رؤساءِ الدُّنيا من الحجابِ لملتَمِسِ الإنصافِ.

وفي أيَّامهِ كان ظهورُ رأسِ الزِّنجِ بنواحي العراقِ، ادَّعى النُّبوَّةَ والاطِّلاعَ على المغيَّباتِ، وقَتَلَ من المسلمينَ ألف ألفٍ وخمس مئةَ ألفٍ، وقَتَلَ في يوم واحدٍ بالبصرةِ ثلاثَمئةِ ألفٍ، وكان يسبُّ على منبرهِ عُثمانَ وعليًّا ومعاويةَ وطلحةَ والزُّبيرَ وعائشةَ إلى أن قُتلَ في سنةِ سبعين.

وفي أيَّامهِ جرَت للقاضي بكَّارٍ معهُ محنةٌ بسببِ عدمِ لعنهِ الموفَّقَ ولي عهدِ المعتمدِ العباسيِّ؛ لأن الموفَّقَ كان ضيَّقَ على أخيه المعتمدِ، واستقلَّ بالأمورِ، ولم يبقَ للمعتمدِ من الخلافةِ سوى الاسمِ، فاستعانَ المعتمدُ بابن طولونَ فأعانَهُ، وجمعَ القضاةَ والفقهاءَ والأشرافَ وسيَّرَهم إلى دمشقَ، فاجتمَعُوا بها، وخَلعَ الموفَّقَ، فأرسلَ يخبرُ المعتمدَ بأنَّه خلعَ الموفَّقَ من ولايةِ العهدِ، وكانَ الفقهاءُ كلُّهم أفتَوا بخلعهِ إلَّا القاضي بكَّارًا، فأمرَ الموفَّقُ ببغدادَ بلعنِ ابن طولونَ، وكتبَ لعنَهُ على أبوابِ المساجدِ، فأمرَ ابنُ طولونَ بلعنِ الموفَّقِ وهو بدمشقَ، وأمرَ القاضي بكَّارًا بذلكَ، وكان صحبَتَهُ، فامتنَعَ، فغضِبَ عليه بعدَ أن كان عندَهُ[3] في غايةِ الإكرامِ، وكانَ يعطيه في كلِّ سنةٍ ألفَ دينارٍ، فأرسَلَ يطلُبها منها فأحضرَها

---

(١) في (ش): «سماعي».

(٢) في «المنتظم» لابن الجوزي (١٢/ ٢٣٣): «عدل بي عن النار إلى الجنة بتثبتي على متظلم عيي اللسان، شديد التهيب، فسمعت منه وصبرت عليه حتى قامت حجته، وتقدمت بإنصافه».

(٣) «عنده» من (خ).

من منزلِهِ مختومةً بختمِهِ[1]، لم يفكَّها القاضي بكارٌ، ستَّةَ عشرَ كيسًا، في كلِّ كيسٍ ألفُ دينارٍ، فقبضَها منه، وألحَّ عليهِ في لعنِ الموفَّقِ؛ فقالَ القاضي بكارٌ: ألا لعنةُ اللهِ على الظَّالمينَ، فقالَ عليُّ بنُ الحسينِ بنُ طباطبا: أيها الأميرُ! إنَّه عناكَ، فغضِبَ وأمرَ بتمزيقِ ثيابه[2]، وجرَّه برجلِه وخلَّدهُ الحبسُ، فكان القاضي بكَّارٌ يحدِّثُ الناس الحديثَ من طاقٍ في السِّجنِ[3].

[أبو الجيشِ خمارويهِ]

ثمَّ تولَّى بعد أحمَد بنِ طولونَ ولدُه أبو الجيشِ خمارويهِ، وماتَ ليلًا مذبوحًا بدمشقَ، ذبحَهُ بعضُ خدمِهِ على فراشِهِ. يقالُ[4]: لكثرةِ فسادِه بهم، في ذي القعدةِ، عامَ اثنينِ وثمانينَ ومئتين، وكانت مدتهُ اثنتي عشرة سنةً.

وهو الذي زوَّجَ ابنتهُ قطرَ النَّدى للخليفةِ المعتضدِ، وجهَّزَها بجهازٍ لم يُرَ مثلُه، من ذلكَ ـ كما قالَ الذَّهبيُّ[5] ـ ألفُ هاونٍ[6] من ذهبٍ.

وبنى لها على رأسِ[7] كلِّ منزلةٍ قصرًا فيما بين مصرَ وبغدادَ، وكلُّ قصرٍ فيه جميعُ ما تحتاجُ إليهِ من فرشٍ وستورٍ وغير ذلكَ، حتى كأنَّها في قصرِ أبيها.

---

(١) في (خ): «بخواتيمها».

(٢) في (ش): «أثوابه».

(٣) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٢٨١).

(٤) «يقال» من (خ).

(٥) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٣/ ٤٧٣).

(٦) هاون: والصواب: هاوون: الذي يدقُّ به، لأنه ليس في كلام العرب اسم على فاعل بعد الألف واو. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: نوه)، و«مجمل اللغة» لابن فارس (مادة: هون).

(٧) «رأس» من (خ).

ولما دخلَ بها[١] المعتضدُ أحبَّها حبًّا شديدًا لجمالِها وأدَبِها، ويقالُ: إنَّه[٢] طرقَها الحيضُ حينئذٍ، فلما مدَّ يدَه إليها، قالَت لهُ[٣]: أتى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوهُ، فَلَمَّ يدَه عنها.

وفي أيَّامِه سنةَ ثمانٍ وسبعينَ ظهرَتِ القرامطةُ بالكوفةِ، وهم نوعٌ من الملاحدةِ يدَّعونَ أنَّه[٤] لا غسلَ من الجنابةِ، وأنَّ الخمرَ حلالٌ، وأنَّ الصَّومَ في السَّنةِ يومانِ: يومُ النَّيروزَ والمهرجانُ، ويزيدونَ في أذانهم[٥]: وأن محمَّدَ ابنَ الحنفيَّةِ رسولُ اللهِ[٦].

وفي عامِ ثمانينَ فشا أمرُ عُبيدِ اللهِ المهديِّ جدِّ الفواطمِ بالقَيروانِ، وصارَ أمرُه في زيادةٍ.

[أبو العساكر جيشٌ]

ثمَّ تولَّى أبو العساكرِ جيشٌ ولدُ خمارويهِ تسعةَ أشهرٍ، وقُتِلَ في سنةِ ثلاثٍ وثمانين ومئتين.

[أبو موسى هارون]

ثم تولَّى أبو موَسى هارونَ، أخوهُ، ولَدُ خمارويهِ المذكورُ، تسعَ سنينَ، والتزمَ للخليفةِ المعتضدِ في كلِّ سنةٍ بألفِ ألفِ[٧] دينارٍ؛ فأقرَّه الخليفةُ على

---

(١) «بها» من (ش).

(٢) في (ش): «إنها».

(٣) «له» من (خ).

(٤) في (خ): «أن».

(٥) «في أذانهم» من (خ).

(٦) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٦/ ٣٦٥).

(٧) «ألف» من (ش).

ذلكَ، واستمرَّ إلى أن قتلَه عمَّاهُ ولدا أحمد بنِ طولونَ، في ثامنِ عشرَ صفرٍ، عامَ اثنين وتسعين ومئتين.

وفي أيَّامِهِ ظهرَ بالبحرينِ أبو طاهرٍ القُرمطيُّ.

[أبو المغازي شيبأن بن أحمدَ بن طولونَ]

ثم تولَّى أبو المغازي شيبأن بن أحمدَ بن طولونَ عشرةَ أيَّامٍ ثمَّ قُتلَ، وبه مضَت دولَتُهم، وجملَتُها سبعةٌ وثلاثون سنةً وأشهرًا.

[رجوع مصر لنيابة العباسيين]

ثمَّ أُعيدَتْ مصرُ لنيابةِ العباسيِّين، في خلافةِ المكتَفِي، في حدودِ عامِ اثنين وتسعينَ ومئتين، واستمرَّت إلى عامِ اثنين وعشرين وثلاث مئةٍ.

وفي تلكَ المدَّةِ سنة سبعٍ وتسعين ومئتين غلَبَ أمرُ عبيدِ الله المهديِّ الفاطميِّ بالمغربِ، وسُلِّمَ عليهِ بالإمامةِ، ودعيَ له بالخلافةِ، وبسطَ في النَّاسِ العدلَ والإحسانَ، فانحرَفوا إليهِ، وتمهَّدَ له المغربُ، وعظُمَ ملكُه جدًّا، وخرجَتْ بلادُ المغربِ عن أمرِ بني العباسِ من هذا التَّاريخِ.

[الإخشيدُ محمَّدُ بنُ طُغجٍ]

واستمرتْ مصرُ[1] في أيدي العباسِيينَ، فغلَبَ عليها الإخشيدُ محمَّدُ بنُ طُغجٍ التُّركيُّ الفِرغانيُّ، وأخذَها قهرًا في خلافةِ الرَّاضي، ثم وصلَ لهُ التَّقليدُ من الرَّاضي في سنةِ أربعٍ وعشرينَ وثلاث مئةٍ، قالَ النَّاظِمُ:

وكانَ هذا في زمَانِ الرَّاضِي ... وهوَ ببغدادَ وليسَ راضِي

(١) «مصر» من (ش).

لكِنَّهـــا تفرَّقَــت مملَكَتُـــه مِـــن يـــدِهِ لَمَّـــا تواهَـــتْ دَولَتُـــه

وكانَ الإخشيدُ ملِكًا شُجاعًا مِقدامًا، حازِمًا مُتيقِّظًا حسنَ التَّدبيرِ، عارِفًا بالحروبِ شديدَ البطشِ، ذا قوةٍ مفرطَةٍ وهيبةٍ عظيمةٍ، وموكِبُه يضاهِي موكبَ الخلافةِ، وبلغَتْ عدةُ جيوشهِ أربع مئةَ ألفٍ، وهو أستاذُ كافورٍ الآتي.

وفي ذلكَ الزَّمانِ اختلَّ أمرُ الخلافةِ العباسيَّةِ، وتغلَّبَ أمراءُ الأطرافِ على البلادِ؛ لضعفِ أمرِ الخلافةِ، وصارَت البلادُ ما بين خارِجيٍّ قد تغلَّبَ عليها، أو عاملٍ لا يحمِلُ مالًا، وصارَتِ الدُّنيا في أيدي عُمَّالها، فكانَتِ مصرُ والشامُ في يدَي الإخشيدِ، والموصِلُ وديارُ بكرٍ وديارُ ربيعةَ ومُضَرُ في أيدِي بني حمدانَ، وفارس في يدِ عليِّ بن بُوَيهٍ، وخُراسانُ في يدِ نصرِ بن أحمدَ، وواسِطٌ والبصرةُ والأهوازُ في يدِ اليزيديِّ، وكَرمانُ في يدِ محمَّدِ بنِ إلياسَ، والرَّيُّ وأصبَهانُ والجبلُ في يدِ الحسَنِ بن بُوَيهٍ، والمغربُ وإفريقيَّةُ في يدِ أبي عبدِ اللهِ الصَّنعانيِّ صاحبِ الدَّعوةِ لعبيدِ اللهِ المهديِّ، وطبرِستانُ وجُرجانُ في يدِ الدَّيلَمِ، والبحرينُ واليمامةُ وهجَرٌ في يدِ أبي طاهرٍ القُرمطيِّ الذي اقتلَعَ الحجرَ الأسودَ، والأندلسُ في يدِ الأميرِ عبدِ الرَّحمنِ الأمويِّ، وادَّعى الخلافةَ وتسمَّى بأميرِ المؤمنينَ النَّاصرِ لدين اللهِ.

واستمرَّ الإخشيدُ بمصرَ إلى أن توفيَ بدمشقَ[1]، في ثاني ذي[2] الحجَّةِ سنةَ أربعٍ وثلاثينَ وثلاث مئةٍ، ودُفنَ ببيتِ المقدِسِ، فمُدَّتهُ إحدَى عشر سنةً وثلاثةُ أشهرٍ.

وفي أيامِهِ قدِمَ أبو طاهرٍ القرمطِيُّ إلى مكَّةَ سنةَ سبعَ عشرةَ وثلاث مئةٍ، فقتَلَ الحجَّ يومَ التَّرويةِ، وقتَلَ في المطافِ ألفًا وسبعمئةِ طائفٍ مُحرِمٍ، وفتكَ بمكَّةَ فقتَلَ

---

(١) «بدمشق» من (خ).

(٢) في (ش): «ثامن الحجة».

أزيدَ من ثلاثينَ ألفًا، وسبى من النِّساءِ والصِّبيانِ مثل ذلكَ، وعادَ إلى هجرٍ، وخطبَ لعبيدِ اللهِ المهديِّ الفاطميِّ صاحبِ المغربِ.

فكتَبَ إليهِ: إن أعجَبَ العجَبِ إرسالُكَ بكتُبكَ إلينا ممتنًّا بما ارتكبْتَ في بلدِ اللهِ الأمينِ من انتهاكِ بيت اللهِ الحرامِ، الذي لم يزَل مُحترَمًا في الجاهليَّةِ والإسلامِ، وسفكْتَ فيهِ دماءَ المسلِمِينَ، وفتكْتَ[1] بالحجَّاجِ والمعتمِرينَ، وتعدَّيتَ وتجرَّأتَ على بيتِ اللهِ تعالى، وقلعْتَ الحجرَ الأسودَ الذي هو يمينُ اللهِ في أرضِهِ، يصافِحُ بها عبادِهِ[2]، وحملتَهُ إلى منزلِكَ، فرجَوْتَ أن أشكُرَكَ على ذلكَ! فلعنَكَ اللهُ، ثم لعنَكَ اللهُ، ثم لعنَكَ اللهُ، والسَّلامُ على مَن سَلِمَ المسلمونَ من لسانِه ويدِه، وقدَّمَ في يومِه ما ينجو بهِ في غدِه.

فلما وصلَ كتابُ المهديِّ للقرمطيِّ انحرَفَ عن طاعتِهِ[3].

وفي أيَّامهِ أيضًا ماتَ المهديُّ صاحبُ المغربِ، جدُّ الخلفاءِ المصريينَ الذينَ تسمِّيهم العامَّةُ بالفاطِميينَ، فإن المهديَّ هذا ادَّعى أنه علَويٌّ، وأنَّه ابنُ محمَّدِ بنِ إسماعيلَ بنِ جعفرٍ الصَّادقِ، قالَ المؤرِّخونَ: وإنَّما جدُّهُ مجوسيٌّ، وقيلَ: يهوديٌّ، وهوَ شرٌّ منهما، كانَ باطِنيًّا خبِيثًا حريصًا على إزالةِ ملَّةِ الإسلامِ، أعدَمَ العلماءَ والفقهاءَ ليتمكَّنَ من إغواءِ الخلقِ، وكانَتْ مدَّتهُ خمسًا وعشرينَ سنةً، وجاءَ أولادُهُ على أسلوبِهِ، لا سيَّما ابنه القائمُ، كانَ شرًّا من أبيهِ زنديقًا ملعُونًا، أظهرَ سبَّ الأنبياءِ، وكان منادِيه ينادِي: العَنوا الغارَ وما حَوا.

---

(١) في (خ): «فنكَّلْتَ».

(٢) ورد ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما: «الركن - يعني الحجر - يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه». رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٨٩١٩).

(٣) انظر: «تاريخ ابن خلدون» (٤/ ١٢٩).

[أبو القاسم ولد الإخشيد]

ثم تولَّى مصرَ أبو القاسمِ ولدُ الإخشيدِ وكانَ صغيرًا، فوسَّدَ الأمرَ للخادمِ كافورٍ، فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وعشرةَ أشهرٍ، وكان الكلامُ لكافورٍ الإخشيديِّ.

وفي أيَّامهِ سنةَ تسعٍ وثلاثينَ أُعيدَ الحجرُ الأسودُ إلى موضعِهِ، اشتراهُ الخليفةُ المطيعُ للهِ بثلاثين ألفَ دينارٍ بعد أن مكَثَ عند القرامطةِ اثنين وعشرينَ سنةً، ولَمَّا أخذَهُ القرمطِيُّ هلكَ تحتَهُ أربعونَ جملًا، وقيلَ: ثلاث مئةٍ، وقيلَ: خمس مئةٍ، ولَمَّا أُعيدَ إلى مكَّةَ حُمِلَ على قَعودٍ[1] أعجَفَ فسَمِنَ.

[أبو الحسن ولد الإخشيد]

ثـمَّ تولَّـى أبو الحسـنِ عليٌّ أخـو المذكورِ، والـكلامُ لكافـورٍ أكثرُ ممـا كانَ في دولـةِ أخيـهِ، فأقـامَ فيـهِ[2] خمسَ سـنينَ وشـهرين، وفي أيَّامِهِ سـنةَ إحدى وخمسـينَ غلَـبَ أمـرُ الشِّـيعةِ ببغدادَ حتى كتبُـوا على أبوابِ المسـاجدِ لعـنَ معاويةَ وغيـرِهِ من الصَّحابـةِ رضـي اللهُ عنهم.

[كافور الإخشيدي]

ثمَّ تولَّى كافورٌ الإخشيديُّ، عبدُ الإخشيدِ، المكنَّى بأبي المسكِ المخصِيُّ، كانَ حبشيًّا أسودَ، بيعَ بثمانيةَ عشر دينارًا، تسلطَنَ في صفرَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وثلاث مئةٍ، فأقامَ سنتينِ وأربعةَ أشهرٍ، فكانَ يُدعَى له على المنابرِ بمصرَ والشَّامِ

---

(١) القَعُـود: البعيـر الذلـول الـذي يرحـل ويقتعـد، وأقلـه سـنتان إلـى أن يثني فـإذا أثنى سـمي جملا ولا تكـون البكـرة قعـودا بـل قلوصًـا. انظـر: «غريـب الحديـث» للخطابـي (٣/ ٥٧)، و«مختـار الصحـاح» (مـادة: قعد).

(٢) «فيه» من (خ).

والحجازِ، وتوفيَ في العشرينَ من جمادى الأولى سنةَ سبعٍ وخمسينَ وثلاث مئةٍ، ودفِنَ بالقَرَافةِ، ولهُ مقامٌ مشهورٌ، ولهُ مآثرُ حميدةٌ.

وكان كافورٌ[١] خبيرًا بالسِّياسةِ، فطِنًا ذكيًّا، جيِّدَ العقلِ، يُدارِي ويخدَعُ، فكانَ يهادِي المعزَّ صاحبَ المغربِ، ويظهِرُ ميلَهُ إليهِ، ويذعِنُ الطَّاعةَ لبني العباسِ.

وكانَت جواسيسُ المعزِّ بمصرَ يكاتبوه: إذا زالَ الحجرُ الأسودُ ملكَ مولانا المعزُّ الدُّنيا كلَّها، ويعنونَ بالحجرِ الأسودِ كافورًا.

وقالَ بعضُهم: لم يبلُغ أحدٌ من الخِصيانِ ما بلغَ كافورٌ، ومدحَهُ المتنبِّي وغيرُهُ، وقالَ بعضُ الوعَّاظِ بمصرَ: من هوانِ الدُّنيا على اللهِ تعالى أنَّهُ أعطاها لخصيٍّ. فرُفعَ إلى كافورٍ ظنًّا أنَّه يعاقِبهُ، فرسَمَ له بخلعَةٍ ومئةِ دينارٍ.

ووقعَت في أيَّامِهِ زلزلةٌ عظيمةٌ، ففزِعَ النَّاسُ لها فأنشدَ بعضُ الشُّعراءِ بقوله[٢]:

ما زُلزِلَتْ مِصرُ مِن خوفٍ يُرادُ بها لكِنَّها رقَصَتْ مِن عَدلِكُم طَرَبا[٣]

فأجازَهُ كافورٌ بألفِ دينارٍ.

وكانَ سائرًا ذاتَ يومٍ وفي أصحابِهِ شريفٌ راكبٌ، فسقَطَ سوطُ كافورٍ من يدِهِ، فنزلَ الشَّريفُ وناولَهُ إيَّاهُ، فقالَ: أيُّها الشَّريفُ! أعوذُ باللهِ من بلوغِ الغايةِ، ما ظننْتُ أنَّ الزَّمانَ يُبلِّغُني هذا، ورسمَ له بهديَّةٍ يزيدُ ثمنُها على خمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ.

---

(١) «كافور» من (خ).

(٢) «بقوله» من (ش).

(٣) لمحمد بن عاصم المعروف بصناجة الدوح. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ١٠٣)، و«نهاية الأرب» للنويري (٢٨/ ٥٢).

[أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد]

ثمَّ تولَّى أبو الفوارِسِ أحمدُ بن عليٍّ بنِ الإخشيدِ، وعمرُه اثنتا عشرةَ سنةً، فأقامَ سنةً واحدةً، إلى أن جاءَ جوهر القائدُ، فانتزَعها منهم، وزالَتْ دولَتُهم، وفي أيَّامِهِ سنةَ سبعٍ وخمسينَ ملكَ القرامطَةُ دمشقَ، وعزموا على قصدِ مصرَ ليملِكُوها، فجاءَ العبيديُّونَ فأخذُوها، وقامَت دولةُ الرَّفضِ في الأقاليمِ المغربِ ومصرَ والعراقِ، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلَمُ.

* * *

[الدَّولةُ العبيديَّةُ الفاطميَّةُ]

ثـمَّ جـاءَتِ الدَّولـةُ العُبَيديَّـةُ الفاطميَّـةُ، نسـبةً لعُبيـدِ اللهِ المهـديِّ صاحـبِ المغـربِ، أو لفاطمـةَ الزَّهـراءِ رضـيَ الله عنهـا بحسـبِ دعواهـم الكاذبـةِ؛ لأن أكثرَ المؤرِّخيـنَ[1] قالـوا: إنَّهـم من أولادِ الحُسـينِ بن محمدِ بـنِ أحمدَ بن القـدَّاحِ، وكانَ مجوسِـيًّا وقيـلَ: يهودِيًّا كما مـرَّ، وارتفعَـتْ بهم النِّيابةُ العباسـيَّةُ من مصرَ سـنةَ ثمانٍ وخمسـينَ وثـلاث مئةٍ، وتسـمَّوا بالخلفـاءِ وأمـراءِ المؤمنيـنَ، وذلكَ باطـلٌ، بل هم متغلِّبـةٌ خـوارجُ، وإمامتهم باطلـةٌ؛ لأنهم قامُوا والخلافةُ العباسـيَّةُ قائمـةٌ ببغدادَ، ولا تصحُّ البيعـةُ بالخلافـةِ لإمامَينِ.

قالَ الفقهاءُ: لو بويعَ بالخلافةِ اثنانِ فالإمام الأوَّلُ، ومعًا أو جُهِلَ السَّابقُ[2]؛ فالإمامةُ باطلةٌ[3].

وقالَ صاحبُ «الأنوارِ» من الشَّافعيةِ: لا يجوزُ نصبُ إمامَينِ في وقتٍ واحدٍ[4].

ومبدأُ ظهورِ الفواطمِ بالمغربِ وأوَّلُهم:

المهديُّ باللهِ عبيدُ اللهِ: باني المهديَّةِ، تولى بالمغرِبِ خمسًا وعشرينَ سنةً وثلاثة أشهرٍ.

القائمُ بأمرِ الله محمدٌ: تولَّى بالمغربِ أيضًا اثني عشرةَ سنةً وسبعةَ أشهُرٍ.

---

(١) انظر: «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة (٢/ ٢١٤)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٩/ ٢٧٥).

(٢) في (ش): «الناس».

(٣) انظر: «الأحكام السلطانية» لأبي يعلى الفراء (ص٢٥)، «روضة الطالبين» للنووي (١٠/ ٤٧)، و«الذخيرة» للقرافي (١٠/ ٢٧).

(٤) انظر: «الأنوار لأعمال الأبرار» للأردبيلي (٢/ ٤٧٢).

المنصورُ إسماعيلُ: صاحِبُ إفريقيةَ، تولَّى بالمغربِ، فأقامَ اثنين وثلاثين عامًا.

إذا تقرَّرَ هذا فأوَّلُهم بمصر:

[المعزُّ لدين الله]

المعزُّ لدينِ اللهِ أبو تميمٍ مَعَدُّ بنُ المنصورِ إسماعيلَ بنِ القائمِ بنِ المهديِّ: صاحبِ المغربِ، بويعَ بالمغربِ بعد موتِ أبيهِ المنصورِ، فأقامَ أربعًا وعشرين سنةً، وتوفِّيَ بمصرَ سنة خمسٍ وستينَ كما سيأتي.

والمعزُّ هذا هو الَّذِي بُنِيَتْ لهُ القاهرةُ بنيَّةِ المفاخرةِ للعباسيِّينَ ببنائِهم بغدادَ، والجامعُ الأزهرُ على يدِ[1] جوهرِ القائدِ الخادمِ ووزيرِهِ، وهوَ من كبارِ الرافضةِ، دخلَها قبلَ المعزِّ في مئة ألفِ مقاتلٍ، فأخذَ مصرَ بلا قتالٍ؛ لأنَّه لَمَّا ماتَ كافورٌ لم يبقَ مَنْ تجتمعُ عليهِ القلوبُ، وأصابهم غلاءٌ شديدٌ فأضعفَهم، فكتبَ جماعةٌ إلى المعزِّ يطلبونَ منه عسكرًا ليسلِّموا إليهِ مصرَ؛ فأرسَلَ مولاه جوهرًا القائدَ، فاستولى عليها في خلافةِ المطيعِ للهِ العباسيِّ، وشرَعَ في بناءِ القاهرةِ ودارِ الإمارةِ المعروفةِ الآنَ بالقَصْرَينِ سنةَ ثمانٍ وخمسينَ، وخرجَتْ مصرُ والشَّامُ والحجازُ والمغرِبُ وصقليةُ عن بني العبَّاسِ من حينئذٍ.

وشرعَ في بناءِ الجامعِ الأزهرِ سنةَ تسعٍ وخمسينَ وثلاث مئةٍ، وكملَ بناؤه في سابعِ رمضانَ سنةَ إحدى وستِّينَ، وفي سنةِ تسعٍ أمرَ جوهرٌ القائدُ المؤذِّنينَ أن يؤذِّنوا بـ(حيَّ على خيرِ العملِ).

وفي سنةِ ستِّينَ أعلمَ[2] المؤذنونَ بدمشقَ بـ: (حيَّ على خيرِ العملِ) بأمرِ

---

(١) «يد» من (ش).

(٢) في (ش): «أعدل».

المعزِّ، بعدَ أنْ شقَّ ذلكَ على النَّاسِ، وأقرَّ جوهرٌ القضاةَ على حالِهم، غيرَ أنَّه ألزمَهم أن يحكُموا في المواريثِ وفي الطَّلاقِ والهلالِ بقولِ أهلِ البيتِ، وجعلَ الهلالَ شهرًا ثلاثينَ، وشهرًا تسعًا وعشرينَ.

وكانَ جدُّ المعزِّ عبيدُ الله المهديُّ المتغلِّبُ على المغربِ في سنةِ إحدى وثلاث مئةٍ قدِمَ في أربعينَ ألفًا ليأخُذَ مصرَ فعجزَ ورُدَّ خائبًا.

وفي سنةِ ستٍّ وثلاث مئةٍ أقبلَ القائمُ ابنُ المهديِّ في جيوشِهِ فأخذَ الإسكندريةَ وأكثرَ الصَّعيدِ ثم رجعَ، ثم بعدَ ذلكَ في عامِ ثمانٍ وخمسينَ جاءَ جوهرٌ القائدُ فأخذَها كما مرَّ.

ثم تولَّى المعزُّ لدينِ اللهِ في عامِ اثنينِ وستِّينَ وثلاث مئةٍ ومعَه ألفٌ وخمس مئةِ جملٍ موسوقةً ذهبَ عينٍ[1]، وأحضرَ صحبتَهُ توابيتَ آبائهِ ودفنَهم في قصرِه في القاهرةِ.

وامتدحَهُ شاعرُهُ محمدُ بنُ هانئ بقصيدَةٍ يقولُ فيها ـ شعرـ:

تقولُ بنو العبَّاسِ هل فُتِحتْ مصرُ ... فقلْ لبني العبَّاسِ قد قُضِيَ الأمرُ[2]

وكانَ المعزُّ شابًا خبيثًا، إلَّا أنهُ كانَ فاضِلًا عاقلًا أديبًا حاذِقًا جوَدًا ممدوحًا، وفيهِ عدلٌ للرَّعيةِ، حضرَتهُ امرأةُ كافورٍ الإخشيديُّ وادَّعَت على يهوديٍّ بثوبٍ منسوجٍ باللَّآلئِ اليَّتيمةِ، فأنكرَها، فأمرَ المعزُّ بتفتيشِ دارِ اليهوديِّ، فوجَدَ الثَّوبَ

(١) موسوقة ذهب عين: أي محملة بالذهب غير المضروب. وسقت البعير: حملت عليه. انظر: «مطالع الأنوار» لابن قرقول (٦/ ٢٤٤).

(٢) وهو مطلع قصيدة طويلة. انظر: «ديوان ابن هانئ» (ص١٣١)، وانظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٧/ ٣١٥)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٣٧٦).

فدفعَهُ لها، فعرضَتهُ على المعزِّ، فلَم يقبَلْهُ، فشكَرَهُ النَّاسُ على ذلكَ.

وفي أيَّامهِ سنةَ ستِّينَ وثلاث مئةٍ قاتلَتهُ القرامطَةُ قتالًا شدِيدًا، ثم غلبَهم بالمكيدةِ.

وفي سنةِ ثلاثٍ وستِّينَ أُقيمَتِ الخطبةُ والدَّعوةُ بالحرمينِ للمعزِّ وعلى الرَّفضِ، وزادَ بمصرَ والشَّامِ والغربِ والشَّرقِ، ونودِي بقطعِ صلاة التَّراويحِ من جهَةِ المعزِّ، فكانتِ الخطبةُ في سائرِ ممالك الشَّرقِ إلى أعمالِ الفراتِ وحلبَ باسمَ بني العباسِ، ومن حلبَ إلى بلاد المغربِ كانتِ الخطبةُ باسمِ الخلفاءِ الفواطمِ مع الحرمَينِ الشَّريفَينِ.

وفي سنةِ ثلاثٍ وستِّينَ أيضًا خرجَ بنو هلالٍ وطائفةٌ من العربِ على الحُجَّاجِ فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وعطَّلُوا الحجَّ، فلم يحُجَّ تلك السَّنةِ سِوى أهلُ دربِ العراقِ.

واستمرَّ المعزُّ إلى أن توفِّيَ سابعَ ربيعِ الآخرِ سنةَ خمسٍ وستِّينَ وثلاث مئةٍ، ودفِنَ بقصرِهِ في القاهرةِ عندَ آبائهِ، يلقَونَ من اللهِ ما يستحقُّونَ.

[العزيزُ باللهِ أبو نصرٍ]

ثم تولَّى العزيزُ باللهِ أبو نصرٍ نزارٌ: ولَدُ المعزِّ المذكورِ، فأقامَ إحدى وعشرينَ سنةً وخمسةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ بحمَّامِ بلبيسَ[1] في الثَّامنِ والعشرينَ من شهرِ[2] رمضانَ، سنةَ ستٍّ وثمانينَ وثلاث مئةٍ، وفتح له في أيَّامهِ زيادةً على آبائهِ حمصُ وحلبُ، وخطِبَ له بالموصلِ وباليمنِ.

---

(١) «بحمام بلبيس» من (ش). وبلبيس: مدينة قديمة، تتبع حاليًا لمحافظة الشرقية في مصر. انظر: «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» (٢/ ٢٣)

(٢) «شهر» من (خ).

وفي أيَّامِهِ كتبَ إلى الأمويِّ صاحبِ الأندلسِ كتابًا سبَّهُ فيهِ وهجاهُ، فكتَبَ إليهِ الأمويُّ: أما بعدُ؛ فإنكَ قد عرفتَنا فهجَوتنا، ولو عرفناكَ لأجبناكَ، فاشتدَّ ذلكَ على العزيزِ، وأفحمَهُ عن الجوابِ، يعني: أنه دعيٌّ لا تُعرَفُ قبيلتُهُ، وصعِدَ يومًا المنبرَ فرأى ورقةً مكتوبًا فيها ـ شعر ـ:

بالظُّلمِ والجورِ قد رَضِينا ليسَ بالكفرِ والحمَاقة

إن كُنتَ أُوتِيْتَ علمَ غَيبٍ بيِّن لنا كاتِبَ البِطاقَة[1]

لأنَّهم كانوا يدَّعونَ علمَ المغيَّباتِ، ومنَ العَجبِ أنَّهُ كانَ استوزَرَ نصرانيًّا وولَّاه على مصرَ، وآخرَ يهودِيًّا وولَّاهُ على الشَّامِ، فعزَّ بسبَبِهما اليهودُ والنَّصارَى على المسلمين[2]، فكتبَتْ إليهِ امرأةٌ تشتكِي: بالذي أعزَّ اليهودَ بميشا، والنَّصارَى بابنِ نسطَروسَ، وأذلَّ المسلمينَ بكَ إلا رفعتَ مظلَمتي، فرفعَها وعزَلهما، وأخذَ من النَّصرانيِّ ثلاثَ مئةِ ألفِ دينارٍ[3].

[الحاكم بأمر الله]

ثم تولَّى الحاكِمُ بأمر اللهِ أبو عليٍّ المنصورُ: ولدُ العزيزِ، فأقامَ خمسًا وعشرينَ سنةً وشهرًا، إلى أن قُتِلَ بمكيدَةِ أختِهِ بالجبلِ المقطَّمِ، سابعَ عشرَ شوالٍ سنةَ إحدى عشرة[4] وأربع مئةٍ، وسيرتُهُ القبيحَةُ وعقيدَتهُ الخبيثَةُ مشهورةٌ.

وهو الَّذي عملَ لجامعِ عَمرِو بن العاصِ تنُّورًا[5] من فضَّةٍ فيه مئةُ ألفِ

---

(١) انظر: «تاريخ الأنطاكي» (ص٣٣٧)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٣٧٤).

(٢) «على المسلمين» من (ش).

(٣) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٤/ ٣٨٦)، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٧/ ٤٧٥).

(٤) في (ش): «سنة إحدى وعشرين»، وفي (خ): «سنة إحدى عشرة سنة»، والمثبت هو الموافق لـ«الكامل في التاريخ» (٧/ ٦٥٨).

(٥) في (ش): «تنويرًا».

درهَـمٍ[١]، وأرسـلَ لـه مـن القصـرِ ألفًـا ومئتَيـنِ وتسـعينَ مصحفًـا، منهـا مـا هـو مكتـوبٌ كلُّـهُ بالذهبِ، وبنـى الجامعَ الحاكمـيَّ، ويقالُ لـهُ: الجامعُ الأنـورُ، الذي بيـنَ بـابِ النَّصـرِ وبـابِ[٢] والفتوحِ.

وكانَ قاضيهِ يكتُبُ على السِّجلِ: قاضي القضاةِ، قاضي عبدُ اللهِ الإمامُ الحاكِمُ أميرُ المؤمنينَ، صلواتُ اللهِ عليه وعلى آبائهِ الطَّاهرينَ، على القاهرَةِ الـمُعزِّيَّةِ[٣] ومصرَ والإسكندريةِ، وأجيادِ الشَّامِ والرَّحبةِ والرَّقَّةِ والمغرِبِ وأعمالِها، وما فتحَهُ اللهُ وما تيسَّرَ فتحُهُ لأميرِ المؤمنين.

قالَ أهلُ التَّاريخِ: لم يلِ مصرَ بعد فرعونَ شرٌّ من الحاكمِ، رامَ أن يدَّعيَ الألوهيَّةَ، وصارَ قومٌ من الجهَّالِ إذا رأَوهُ يقولونَ: يا واحدُ! يا أحدُ! يا محيي! يا مميتُ! وأمرَ الرَّعيةَ بالقيامِ لهُ عندَ ذكرِ الخطيبِ لهُ على المنبَرِ إعظامًا لهُ، وأمرهُم بالسُّجودِ إذا ذُكِرَ اسمُهُ في الخطبة وغيرِها في مواضعِ الاجتماعِ[٤].

وكانَ كثيرَ التلوُّنِ، هدمَ الكنائسَ، ثم أعادها وأسلمَ لذلك ناسٌ من أهلِ الذِّمَّةِ، ثمَّ أذِنَ لمن أسلَمَ أن يعودَ إلى دينِهِ، وبنى المدارِسَ، وجعلَ فيها الفقهاءَ والمشايخَ، ثم قتلَهم وخرَّبها، وأمرَ بقتلِ الكلابِ فقتَلَها كلَّها، وحرَّمَ أكلَ الملوخيةِ، وأمر بقطعِ الكرومِ التي بإقليمِ مصرَ والصَّعيدِ احترازًا من عصرِ الخمرِ.

وأمرَ النَّاسَ بغلقِ الأسواقِ نهارًا وفتحِها ليلًا، وكان يتولَّى الحسبَةَ بنفسِهِ؛ فمن

---

(١) في «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١٨/ ١٨٣)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٤/ ٢٢٣): «ووضع للجامع تَنُّورًا من فضةٍ تُوقد فيه ألفٌ ومئتا فتيلة».

(٢) «وباب» من (ش).

(٣) المعزية: نسبة إلى المعز لدين الله. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٢٢٧).

(٤) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٩/ ١٧٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ١٢).

وجدَهُ قد غشَّ أمرَ عبدًا أسود معهُ أن يعمَلَ فيه الفاحشةَ، ومنعَ النِّساءَ أن يخرُجنَ من البيوتِ، وأمرَ بسببِ ذلكَ بحرقِ مصرَ فاحترَقَ نحوُ ثلُثِها.

وفي أيامهِ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ أمرَ نائبَهُ بدمشقَ بمغربيٍّ فطيفَ بهِ على حمارٍ، ونودِيَ عليهِ: هذا جزاءُ من يحبُّ أبا بكرٍ وعمرَ، ثمَّ ضربَتْ عنقُهُ بالسَّيفِ.

وفي سنةِ خمسٍ وتسعينَ أمرَ بمصرَ بكتابةِ سبِّ الصحابةِ على أبوابِ المساجدِ والشَّوارعِ، وأمرَ العمَّالَ بالسَّبِّ.

[الظاهر لإعزاز دين الله]

ثم تولَّى الظاهرُ لإعزازِ دينِ اللهِ أبو الحسَنِ عليٌّ: ولَدُ الحاكمِ، فأقام[1] ستَّ عشرَةَ سنةً[2] وتسعَةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ سنةَ سبعٍ وعشرينَ وأربع مئةٍ.

وكانَت عمَّتُهُ قد قامَتْ بتدبيرِ ملكِهِ أحسنَ قيامٍ إلى أن كبرَ، وفي أيَّامه تضَعضَعَتْ دولةُ الفاطميينَ، فخرجَتْ عنهم حلبُ وأكثرُ الشَّامِ.

وفي أيَّامهِ أمرَ بجمعِ الجواري الحِسَانِ متزيِّناتٍ بالحُللِ والحُليِّ ليضَعَ لهنَّ يومًا حسنًا لم يُرَ مثلُهُ بمصرَ، فاجتمعَ ما يزيدُ على ألفَين وستِّ مئةِ جاريةٍ حسناءَ، فأمرَ ببناءِ المجلسِ، وسدِّهِ عليهنَّ حتَّى مِتْنَ جميعًا، ثم أمرَ بحرقِهنَّ وما عليهِنَّ بعد ستَّةِ أشهرٍ.

قالَ السيوطيُّ بعدَ هذهِ الحكايةِ: فلا رحمَهُ اللهُ ولا رحِمَ مَن خلَّفهُ[3].

---

(١) في (خ): «وعمره».

(٢) في (ش): «وعمره ستة عشرة سنة، فأقام خمس سنين وتسعة أشهر»، وهذا مخالف لما في المصادر من أن عمره لما توفي ثلاث وثلاثون سنة، وفي بعضها ثلاثون سنة. انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٥/ ٥٥)، و«الكامل» لابن الأثير (٨/ ٢١٩).

(٣) انظر: «حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ٢٨٦).

وقالَ غيرُ السيوطيِّ: كانَ الظَّاهرُ هذا سَمحًا عاقلًا جَودًا يميلُ إلى دينٍ وعِفَّةٍ وحلمٍ معَ تواضعٍ، أزالَ الرُّسومَ التي جُدِّدَت في أيامِ أبيه الحاكِمِ(١).

[المستنصرُ باللهِ أبو تميم بن الظَّاهر]

ثمَّ تولَّى المستنصِرُ باللهِ أبو تميمٍ بنُ الظَّاهرِ المذكورِ: وعمُره سبعُ سنينَ، فأقامَ ستِّينَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ، ولم يقُم هذه المدَّةَ خليفةٌ ولا ملِكٌ في الإسلامِ قبلَهُ ولا بعدَهُ، وتوفِّيَ ثامنَ عشرَ ذي الحجَّةِ سنةَ سبعٍ وثمانينَ وأربع مئةٍ، ولم يكُن من عهدِ المستنصِرِ هذا للفواطِمِ من الخلافةِ سوى الاسمُ؛ لاستيلاءِ وزرائهم على الأمورِ، وحجرِهم عليهم فيها؛ كخلفاءِ بغدادَ العباسيَّةِ معَ بني بويهٍ.

وفي أيَّامهِ سنةَ ثلاثينَ وأربعِ مئةٍ تعطَّلَ الحجُّ مِن سائرِ الأقاليمِ فلم يحُجَّ أحدٌ.

وفي أيَّامهِ سنةَ ثمانٍ وأربعينَ وأربعِ مئةٍ قُطعَتِ الخطبةُ للعبيديِّ بالمغربِ، وخُطِبَ لبني العبَّاسِ، وكذلِكَ فُعِلَ بمكةَ، وبَطَلَ من دمشقَ الأذانُ بـ(حيَّ على خيرِ العمَلِ).

وفي سنةِ خمسٍ وخمسينَ دُعِيَ للعبيديِّ بجامعِ المنصورِ ببغدادَ، وزِيدَ في الأذانِ: (حيَّ على خيرِ العملِ)، وخطِبَ له في كلِّ(٢) جوامعِ بغدادَ.

وفي سنةِ ستِّينَ وأربعِ مئةٍ وقعَ الغلاءُ الَّذي لم يُسمَعْ بمثلِه من عهدِ يوسفَ، واستمرَّ سبعَ سنينَ، بحيثُ بِيعَ الكلبُ بخمسةِ دنانيرَ، والهرُّ بثلاثةِ دنانيرَ(٣)، ولم يبقَ

---

(١) انظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١٨/ ٤٠٤)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٤/ ٢٤٨).

(٢) «كل» من (خ).

(٣) «دنانير» من (خ).

للخليفةِ سوى ثلاثةِ أفراسٍ، وبيعَ الرَّغيفُ بمئةِ دينارٍ، ثمَّ عُدِمَ القوتُ بالمرَّةِ بحيث إن امرأةً بذلَتْ مدَّ جوهَرٍ بمدِّ قمحٍ، فلم يلتفِتْ إليها أحدٌ، نعوذُ باللهِ من ذلكَ.

ويقالُ: لم يبقَ للخليفةِ سوى سجَّادةٍ وقُبقابٍ، وكانَ إذا نزلَ من القصرِ يستعيرُ بغلةَ الدِّيوانِ ليركَبَها.

[المستعلِي باللهِ أبو القاسمِ أحمدُ]

ثمَّ تولَّى المستعلِي باللهِ أبو القاسمِ أحمدُ: ولَدُ المستنصرِ المذكورِ، فأقامَ سبعَ سنينَ، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وتسعينَ وأربع مئةٍ، وكانَ الكلامُ في مملكتِهِ لوزيرِهِ الأفضلِ ابن أميرِ الجيوشِ بدرٍ الجمَّالي، وهو الَّذي بنى الجيوشَ بسطحِ الجبلِ المقطَّمِ، وجامعِ الجيزَةِ، وجامعِ العطَّارينَ بثغرِ إسكندريَّةَ، وسوقِ أميرِ الجيوشِ المسمَّى الآنَ بسوقِ مرجوشٍ.

وكانَ سُنيًّا، وتولَّى الوزارةَ للمستنصِرِ والمستعلِي وصَدرًا من ولايةِ الآمرِ، ثم قُتِلَ برمضانَ سنة خمسَ عشرةَ وخمس مئةٍ، ضربَهُ فِداوِيٌّ[1] وهو راكبٌ فقتلَهُ.

قالَ ابن خلِّكانَ: وتركَ من الأموالِ ما يفوقُ العدَّ؛ من الذَّهبِ ستَّ مئةِ ألفِ ألفِ دينارٍ، ومن الفضةِ مئتينِ وخمسينَ إردبًّا[2]، وسبعينَ ألفَ ثوبِ ديباجٍ أطلسٍ[3]، ودواةَ ذهبٍ فيها جوهرٌ باثني عشرَ ألفَ دينارٍ، وخمس مئة صندوقٍ

---

(١) فداوي: نسبة إلى الفداوية؛ فئة من الباطنية، سموا بذلك لأنهم يفادون أنفسهم بالمال على قتل من يسلطون. انظر: «تاريخ ابن خلدون» (٥/ ٣١).

(٢) الإردب: مكيال مصري ضخم، يسع أربعة وعشرين صاعًا. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: ردب).

(٣) أطلس: أملس. انظر: «التقفية في اللغة» للبندنيجي (ص٤٦٤). أو بمعنى الحرير، فارسي معرب. =

للبسِ بدنِهِ، وتركَ صندوقَين كبيرَين فيهما إبرُ ذهبٍ برسمِ النِّساءِ، ومن سائرِ الأنواعِ ما لا يعلمُه إلا الله(١).

ومن محاسِنهِ أن القاضِي كتبَ إليه رقعةً وهو في الوزارةِ يقولُ فيها: إنه وجدَ في حاصلِ المواريثِ(٢) مالًا يبلُغُ مئةَ ألفِ دينارٍ، وليسَ لها طالبٌ من عدَّةِ سنينَ، ورفعُهُ إلى بيتِ المالِ أولى، وأرادَ بذلكَ التقرُّبَ عندَهُ، فوقَّعَ فيها: إنَّما قلَّدناكَ قاضيًا ولم نجعَلْكَ ساعيًا، ولا أربَ لنا فيما لا نستحِقُّ قبضَهُ، فاترُكه على حالِهِ حتى يحضُرَ مستحِقُّهُ، ولا تراجِع في ذلكَ بعدَها(٣).

وفي أيَّامِ المستعلي ظهرتِ الفرنجُ على أرضِ الشَّامِ، فانزعجَتْ لهم الملوكُ والرعيَّةُ(٤) وعظُمَ الخطبُ.

قيلَ: إنَّ المستعلي لَمَّا رأى قوةَ دولةِ السلجوقيَّةِ واستيلاءَهم على الشَّامِ كاتبَ الفرنجَ يدعُوهم إلى الشَّامِ ليملكُوها، فقدِمتِ الفرنجُ في ألفِ ألفِ مقاتلٍ إلى بيتِ المقدسِ، فأخذُوه في صحوةِ يومِ الجمعةِ ثالثَ عشرَ شعبانَ عامَ اثنينِ وتسعينَ وأربع مئةٍ، وقتلوا بِهِ أكثرَ من سبعينَ ألفًا من العلماءِ والصُّلحاءِ وغيرِهم، وجمعُوا اليهودَ في الكنيسةِ وأحرَقُوها عليهِم، وأخذُوا حيفا وأرسوفَ(٥) وقَيسارِيَّةَ(٦)،

= انظر: «تاج العروس» (مادة: طلس)، «المعجم العربي لأسماء الملابس» (ص٣٠٥).

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٤٥١)، وذكر أنه نقله عن كتاب «الدول المنقطعة»، للوزير جمال الدين، أبي الحسن: علي بن أبي المنصور، ظافر الأزدي (ت ٦٢٣).

(٢) «المواريث» من (ش).

(٣) انظر: «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (ص٤٣٦).

(٤) «والرعية» من (ش).

(٥) أرسوف: بلدة في فلسطين قرب يافا، على البحر المتوسط، وحاليًا على مقربة منها مستوطنة رشف. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٤٢).

(٦) قيسارية: مدينة قديمة في فلسطين، على شاطئ المتوسط، فتحها معاوية بن أبي سفيان، تقع أطلال =

وتمكَّنَتِ الفرنجُ من الشَّامِ، ونقِلَ المصحَفُ العثمانيُّ من طبريَّةَ إلى دمشقَ خوفًا عليهِ، واستولَوا على غالبِ إقليم الشامِ.

[الآمر بأحكام الله]

ثم تولَّى الآمُر بأحكامِ اللهِ أبو النَّصرِ عليٌّ: ولَدُ المستعلي، وعمرُه خمسُ سنينَ، فأقامَ تسعًا وعشرينَ سنةً وسبعةَ أشهرٍ، إلى أن قُتلَ في الرَّوضةِ سنةَ أربعٍ وعشرينَ وخمس مئةٍ.

وفي أيَّامهِ بني الجامعُ الأقمرُ بالقاهرةِ.

قال الذَّهبيُّ: كانَ الآمرُ رافضيًّا خبيثًا فاسِقًا ظالمًا جبَّارًا، متظاهِرًا بالمنكرِ واللَّهوِ، ذا كبرٍ وجبروتٍ[1].

وفي أيَّامهِ قصَدَ بردَوِيلُ ملكُ الفِرَنجِ أخذَ مصرَ، فأهلكَهُ اللهُ قبلَ أن يصِلَ إلى العريشِ، فشقَّ أصحابُهُ بطنَهُ وأخرجوا حشوتَهُ، ورمَوا بها، فسمِّيَ ذلك المكانُ بسبخةِ بردَويلَ[2]، ثم دفنُوه بالقمامةِ بالقدسِ[3]، وكانَ هو الَّذي أخذَ بيتَ المقدسِ من المسلمينَ.

= المدينة على بعد ٤٠ كم جنوب حيفا. انظر: «الروض المعطار» للحميري (ص٤٨٦).

(١) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١١/ ٤٢٢).

(٢) سبخة بردويل: ويقال لها بحيرة بردويل، واقعة على شاطئ البحر المتوسط، تقع في الجنوب الغربي من مدينة العريش، وعلى بعد ٩٠ كم من بور سعيد، وهي موجودة إلى اليوم.

(٣) «بالقمامة» من (خ). والقمامة: بالضم: كنيسة للنصارى ببيت المقدس، في وسط البلد، فيها قبة تحتها قبر، يقولون: إن المسيح دفن فيه، ومنه قام، فلذلك تسميها النَّصارى القيامة. انظر: «مراصد الاطلاع» (٣/ ١١٢١).

[الحافظُ لدينِ اللهِ عبدُ المجيدِ محمَّدُ بن المستنصِرِ]

ثم تولَّى الحافظُ لدينِ اللهِ عبدُ المجيدِ محمدُ بن المستنصِرِ: ولَدُ عمِّ الآمر، فأقامَ تسعَ عشرَةَ سنةً وسبعةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ سنةَ أربعٍ وأربعينَ وخمس مئةٍ.

ومن العجَبِ أن الحافظَ ولَّى الوزارةَ لبهرامَ النَّصرانيِّ الأرمنيِّ، فأنكَرُوا عليهِ ذلكَ، وقالَ له بعضُ خواصهِ: النَّصرانيُّ لا يكونُ وزيرًا؛ لأن من وظِيفَتِه أن يصعَدَ مع الخليفةِ المنبرَ يومَ الجمعةِ، فأصرَّ على توليَتِه وأن ينوبَ عنهُ القاضي في ذلكَ.

قالَ ابنُ خَلِّكانَ: إن الحافظَ كانَ يعتَرِيه القَولنجُ[1]، فعمِلَ له الحكماءُ طَبلًا إذا ضربَهُ أحدٌ خرجَ الرِّيحُ من مخرَجِهِ، واستمرَّ بخزائنِهم إلى أيامِ صلاحِ الدِّينِ[2].

فأخذَهُ كرديٌّ ولا يدرِي ما هوَ، فضربَهُ فضرَطَ فخجِلَ وألقاهُ من يدِهِ[3].

وفي أيَّامهِ فتحَ الزِّنكي والِدُ نورِ الدِّينِ الشَّهيدِ الرُّهَا[4] من الفِرَنجِ، وسائرَ الأماكنِ التي كانَتْ بيدِ الفرنجِ شرقيَّ الفُراتِ.

---

(١) القولنج بفتح اللام: وجع في المعي المسمى قولن بضم اللام، وهو شدة المغص. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (القاف مع الواو وما يثلثهما).

(٢) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٢٣٧).

(٣) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٢٠١)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٦٠٨).

(٤) الرها: مدينة سريانية قديمة، وكانت عاصمة للملكة الرها قبل الميلاد، وعرفت باسم: إديسا، واليوم تقع في جنوب تركيا، واسمها شانلي أورفة، وهي مركز محافظة أورفة. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص١١٩)، وانظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ١٠٦)، «الروض المعطار» (ص٢٧٣).

وفي أَيَّامِهِ قصدَ نورُ الدِّينِ الشَّهيدُ محمودُ بنُ زِنكي حلبَ؛ فملكَها وأظهرَ بها السُّنَّةَ وغَيَّرَ البدعةَ التي كانَت لهم في التَّأذينِ، وقمعَ بها الرَّافضةَ، وبنى بها المدارِسَ، ووقَفَ الأوقافَ، وأظهَرَ العدلَ، وجدَّ في قتالِ الفِرَنجِ وفتحِ حصونِهم.

وملكَ الفِرَنجُ المهديَّةَ بإفريقِيَّةَ.

[الظَّافرُ بأعداءِ اللهِ إسماعيلُ بن الحافظِ]

ثمَّ تولَّى الظَّافرُ بأعداءِ اللهِ إسماعيلُ بن الحافظِ: فأقامَ أربعَ سنينَ وسبعةَ أشهُرٍ، وكانت أَيَّامُه مضطربةً؛ لحداثةِ سنهِ، واشتِغاله باللَّهوِ واللَّذاتِ، بحيثُ عشِقَ ابنَ وزيرِهِ العباسِ الصِّنْهاجِيِّ، فكانَ ذلكَ سببَ خنقِهِ، فقُتِلَ بدارِ الوزارَةِ المعروفةِ الآنَ بمدرسَةِ السُّيوفيَّةِ[1]، سنة تسعٍ وأربعينَ وخمس مئةٍ.

وبُنِيَ في أيامِه الجامعُ الفاكِهانيُّ[2] داخِلَ بابِ زُويلَةَ[3].

وفي سنةِ موتِهِ أخذَ نورُ الدِّينِ دمشقَ بعدَ أن استَعانوا على قتالِهِ بالفرنجِ، وطمِعَت الفِرَنجُ في أخذِ دمشقَ بعدَ أن ملكُوا في السَّنةِ الخاليةِ قبلَها عسقلانَ وقَوِيت شوكَتُهم، فأعانَ اللهُ دمشقَ وإقليمَها بنورِ الدِّينِ، فضبَطَ أمورَ دمشقَ، وحصَّنَ سورَها، وبنى بها المدارِسَ، وأبطَلَ المكُوسَ[4]، وعاقَبَ على شربِ الخَمرِ.

---

(١) المدرسة السيوفية: مدرسة بالقاهرة، وهي من جملة دار الوزير المأمون البطائجيّ، وقفها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي على الحنفية، وعرفت بالمدرسة السيوفية، من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٠٤).

(٢) الجامع الفاكهي أو جامع الفاكهيين: كان يقال له: الجامع الأفخر، وكان قبل ذلك زريبة تعرف بدار الكباش. «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٨٤).

(٣) باب زويلة: أحد أبواب القاهرة، بناه وزير المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالي، في سنة خمس وثمانين وأربع مئة. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٢/ ٢٤٠).

(٤) أصل المكس في اللغة: النَّقص والظُّلم، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السِّلع في الأسواق في =

[الفائز بنصر الله عيسى]

ثم تولَّى الفائزُ بنصرِ اللهِ عيسَى: ولَدُ الظَّافرِ، وعمرُهُ خمسُ سنينَ، فأقامَ ستَّ سنينَ ونصفًا، وماتَ في سابعَ عشرَ رجبٍ، سنةَ خمسٍ وخمسينَ وخمسِ مئةٍ، وبدولَتِه وَهَى أَمْرُ المصريِّينَ، فكتَبَ الخليفةُ المقتفِي عهدًا لنورِ الدِّينِ محمودِ بن زِنكي وولَّاهُ مصرَ، وأمرَهُ بالمسيرِ إليها كما سيأتي.

وفي أيامِهِ تولَّى الوزارةَ الملكُ الصَّالحُ طلائعُ بنُ رُزَّيكٍ[1] الصَّالحِيُّ[2]، الَّذي بنى الجامِعَ خارجَ بابِ زُوَيلَةَ، والمشهَدَ الحُسَينيَّ بالقاهرَةِ، وتولَّى الوزارةَ للفائزِ والعاضِدِ، وكانَ تحتَ حِجرِه إلى أن قُتِلَ برمضانَ سنةَ ستٍّ وخمسينَ في خلافةِ العاضدِ، وكانَ السَّببُ في قتلِهِ عمُّهُ العاضِدُ لاستيلائه على الأمورِ والدَّولةِ.

قالَ العمادُ: لما قُتِلَ الصَّالحُ كسفَتْ شمسُ الفضائلِ، ورخصَ شعر الشعرِ، وانخفَضَ علَمُ العلمِ ولم تزل مصرُ[3] بعدَهُ منحوسةَ الحظِّ، منكُوسةَ الرَّايةِ[4].

لم يكُن مجلِسُهُ يُقطَعُ إلَّا بالمذاكرةِ في أنواعِ العلومِ الشَّرعيةِ والأدبيَّةِ، وفي مذاكرَةِ وقائعِ الحروبِ معَ أمراءِ دولتِهِ، وكانَ شاعرًا يحبُّ الأدبَ وأهلَهُ، ولكنهُ كانَ مفرِطَ العصبيَّةِ لمذهبِ الإماميَّةِ.

= الجاهليـة، أو درهـم كان يأخـذه المصـدق بعـد فراغه مـن الصَّدقة، ويطلـق المكس ـ كذلـك ـ على الضريبـة يأخذهـا المكاس ممن يدخـل البلد من التجـار. انظـر: «القاموس المحيـط» للفيروزأبادي (مـادة: مكس).

(١) في بعض المصادر: «زريك».

(٢) «الصالحي» من (ش).

(٣) «مصر» من(خ).

(٤) انظر: «خريدة العصر ـ شعراء مصر» للعماد (١/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

ولَمَّا قُتلَ أقيمَ في الوزارةِ ابنُهُ رُزَّيك، فقُتِلَ بعد سنةٍ، فأقيمَ بعدَهُ شاوَرُ وهو الوزيرُ المشؤومُ على الفواطِمِ كالوزيرِ ابن العلقَميِّ على بني العباسِ، فإن هذا أطمَعَ الفِرَنجَ في أخذِ الدِّيارِ المصريَّةِ، فكان سببَ زوالِهم بالمرَّةِ، كما أن ابنَ العلقَميِّ أطمعَ التَّتارَ في أخذِ بغدادَ، وقتلِ الخليفةِ المستعصِمِ، فكانَ سببُ زوالِهم من بغدادَ وخرابِها، كما يأتي.

[العاضد لدين الله، عبد الله بن يوسف]

ثمَّ تولَّى العاضِدُ لدينِ اللهِ عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ بنِ الحافظِ: فأقامَ إحدى عشرةَ سنةً وستَّةَ أشهُرٍ، وكانَ وزيرُهُ شاورُ المذكورُ، ثمَّ قتلَهُ صلاحُ الدِّينِ لموالاتهِ الفِرَنجَ، فاستوزَرَ العاضِدُ أسدَ الدِّين، فأقامَ شهرَينِ وماتَ، ثم استوزَرَ صلاحَ الدِّينِ، فاستمرَّ في الوزارةِ إلى أن ماتَ العاضِدُ في الحادي والعشرينَ من محرَّمٍ سنةَ سبعٍ وستين وخمس مئةٍ بعدَ خلعِهِ من مُلكِهِ بأيَّامٍ.

وبموتِ العاضِدِ انقضَتْ دولةُ الفاطميِّينَ الَّذين أفنَوا أئمَّةَ مذاهِبِ السُّنَّةِ قتلًا ونفيًا وتشريدًا، وأقامُوا مذهَبَ الرَّفضِ والشِّيعةِ.

قالَ أبو شامةَ: وقد أفرَدْتُ كتابًا سمَّيتُه: «كشف ما كانَ عليهِ بنو عُبَيد من الكُفرِ والكَذِب والكيد»[1].

وكُتِبَ فيهم أيَّامَ الحاكمِ بأمرِ اللهِ محضَرٌ من علماءِ بغدادَ ورؤسائِها عامَ اثنينِ وأربع مئةٍ، وفيه: أنَّهُم ليسوا مِن ولدِ عليٍّ بن أبي طالبٍ، بل هُم كفَّارٌ وفُسَّاقٌ وملحِدُون، وزنادِقةٌ مُبطِلونَ، وللإسلامِ جاحِدُونَ، عطَّلوا الحدود،

(١) انظر: «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة (٢/ ٢٢٢).

وأباحُوا الفُروج، وسفكُوا الدِّماء، وسَبُّوا الأنبياء..، وفيه ألفاظٌ من هذا طويلةٌ[١].

قالَ الرُّعَينيُّ: أجمعَ العلماءُ بالقيروان على أنَّ حالَ بني عُبيدٍ حالُ المرتَدِّينَ والزَّنادِقةِ؛ لِـمَا أظهَرُوا من خلافِ الشَّريعةِ[٢].

وقالَ أبو الحسنِ القابسيُّ: إن الَّذينَ قتلَهُم عُبَيدُ اللهِ وبنوهُ من العلماءِ والعُبَّادِ أربعةُ آلافِ رجلٍ ليرُدُّوهم عن الترضِّي عن الصَّحابةِ، فاختارُوا الموتَ[٣].

ويا حبَّذَا لو كانَ رافضِيًّا فقط، ولكنَّهُ زنديقٌ[٤].

وقالَ شيخُ الإسلامِ تقيُّ الدِّينِ ابنُ تيميَّةَ في بعضِ تصانيفِهِ: إنَّ القاهرةَ بقِيَ ولاةُ أمورِها نحوَ مئتي سنةٍ على غير شريعةِ الإسلامِ، فكانوا يظهِرُونَ أنَّهم رافضَةٌ، وهم في الباطنِ إسماعِيليَّةٌ ونُصَيريَّةٌ وقرامِطَةٌ وباطنيَّةٌ، كما قالَ فيهم الإمامُ الغزاليُّ في كتابِه الذي صنَّفَه في الردِّ عليهم: ظاهرُ مذهبِهم الرَّفضُ، وباطِنُهُ الكفرُ المحضُ، والَّذينَ يوجدُونَ في بلادِ الإسلامِ من الإسماعيلِيَّةِ والنُّصَيريَّةِ والقدَريةِ وأمثالهم من أتباعِهم.

قالَ: ولَمَّا كانوا ملوكَ القاهرةِ كانَ وزيرُهم مرَّةً يهودِيًا، ومرَّةً نصرانِيًّا أرمنِيًّا، وقويَتِ النَّصارى بسببِ ذلك النَّصرانيِّ الأرمنيِّ، فبنَوا كنائسَ كثيرةً بأرضِ مصرَ في دولةِ أولئكَ الرَّافضَةِ والمنافقينَ، وكانوا ينادُون بينَ القَصرَينِ: من لعَنَ وسبَّ فلهُ دينارٌ وإردَبٌّ.

---

(١) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٥/ ٨٣)، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١٨/ ٢٠٠).

(٢) انظر: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٧/ ٢٧٧)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٩/ ٣٣٧).

(٣) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٧/ ٤٦٠)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٢/ ٢١٥).

(٤) انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص١١).

وكانوا من شرِّ الخلقِ فيهم قومٌ زنادِقةٌ دهريَّةٌ لا يؤمنونَ بالآخرةِ، ولا جنَّةٍ ولا نارٍ، ولا يعتَقِدونَ وجوبَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ والحجِّ، وخيرُ من كانَ فيهم من[1] الرَّافضَةِ، والرَّافضَةُ شرُّ الطوائفِ المنتَسِبينَ إلى القِبلةِ.

قالَ: فبهذا السَّببِ وأمثالِه كانَ إحداثُ الكنائسِ في القاهرةِ وغيرِها.

وقالَ: اتَّفقَ المسلِمونَ على أنَّ ما بناهُ المسلِمُونَ من المدائنِ لم يكُن لأهلِ الذِّمَّةِ أن يحدِثوا فيها كنيسةً.

وقالَ: من المعلومِ المتواترِ أنَّ القاهرةَ بُنِيتْ بعدَ عمرَ بنِ الخطابِ بثلاث مئةِ سنةٍ.

هذا كلهُ كلامُ ابنُ تيميَّةَ[2].

وإنَّما ذكرتُهُ لِمَا فيهِ مِنَ الفوائدِ الفقهيَّةِ مِن وجوبِ هدمِ كنائسِ القاهرةِ ونحوِها على ولاةِ الأمورِ، ألا إلى اللهِ تصيرُ الأمورُ.

وكانَت جملةُ مدَّةِ ولايتِهم بمصرَ خاصَّةً مئتي سنةٍ وستَّ سنينَ، وعدتُهم إحدى عشَر نفرًا، وكانَتِ ابتداء[3] دولتِهم بالمغربِ سنةَ سبعٍ وتسعينَ ومئتينِ، وانقراضُهم بمصرَ[4] سنةَ سبعٍ وستِّينَ وخمس مئةٍ، فمجموعُ مدَّتِهم نحو مئتينِ وإحدى وسبعينَ سنةً، وقد طهَّرَ اللهُ تعالى منهم البلادَ، وأراحَ منهم العبادَ.

* * *

---

(١) «من» من (خ).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٧/ ١٧٤) و(٢٨/ ٦٣٥)، و«مسألة في الكنائس» (ص١٠٦). وانظر كلام الغزالي الذي نقله عنه في: «فضائح الباطنية» (ص٣٧).

(٣) «ابتداء» من (ش).

(٤) «بمصر» من (خ).

[الدَّولة الأيوبيَّة]

ثـم جـاءتِ الدَّولةُ الأيوبيَّةُ الكُرديَّةُ السُّـنِّيَّةُ أصحابُ الفتوحـاتِ، الَّذين جدَّدُوا الخطبـةَ للعباسـيِّينَ بمصـرَ، وهـم أكـرادٌ رَوَادِيَّـةٌ[1]، وكانوا فـي خدمةِ زنكـيٍّ[2] بن أبـي آق سـنقُر، ثـم فـي خدمـةِ نـورِ الدِّيـن الشَّـهيدِ محمـودٍ صاحـبِ الشَّـامِ، وهو الَّـذي أرسـلَهم إلى مصـرَ، فأوَّلُهم:

[النَّاصرُ صلاحُ الدِّينِ]

الملكُ النَّاصرُ صلاحُ الدِّينِ يوسفُ بنُ أيُّوبَ رحمَهُ اللهُ تعالى: قدِمَ معَ الملك نورِ الدِّينِ محمودِ بن زنكي لَمَّا كتبَ لهُ الخليفةُ المقتفِي العهدَ على البلادِ الشَّاميةِ والمصريَّةِ، ولقَّبه بالملكِ العادلِ، وأمرَهُ بالمسيرِ إلى مصرَ لَمَّا بلغَهُ ضعفُ الدَّولةِ الفاطميَّةِ، ففتَحَ محمودٌ بلاد الشَّامِ وانتزَعَها من أيدي الفِرَنجِ، ثم أرسلَ محمودٌ أسدَ الدِّينِ شيركوه في ألفَي فارسٍ ومعَهُ ابنُ أخيهِ صلاحُ الدِّينِ إلى مصرَ، فحاصرَها نحوَ شهرينِ، فاستنجَدَ صاحبُها بالفرنجِ، وكانَ أسدُ الدِّينِ قد ملكَ إسكندريةَ، واستنابَ عليها صلاحَ الدِّينِ، ثم ملكَ الصَّعيدَ، ثم صالحَهُ شاورُ وزيرُ العاضِدِ الفاطميِّ عن الإسكندريَّةِ بخمسِينَ ألفَ دينارٍ؛ فأجابَهُ لذلكَ، فتركَها وعادَ للشَّامِ، فاستحوذَ الفِرَنجُ على القاهرةِ بحيثُ كادوا يخرِجُونَ المسلمينَ منها، وأخذُوا مدينة بلبيسَ[3]، وقتلُوا وأسَرُوا.

---

(١) في (خ): «دوادية». والأكراد الرَّواديَّة: بطن من الهذبانية، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٧/ ١٣٩).

(٢) في (ش) و(خ): «تركي»، والصواب المثبت، كما في كثير من المصادر: منها: «مورد اللطافة» لابن تغري بردي (٢/ ٣).

(٣) بلبيس: مدينة قديمة، تتبع حاليًا لمحافظة الشَّرقيَّة في مصر. انظر: «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» (٢/ ٢٣)

ثـمَّ رامـوا أخذَ القاهـرةِ، فأمرَ شـاورُ الوزيرُ بحرقِ مصـرَ، والنُّقلَةِ إلـى القاهرةِ، فالتهبتِ النَّارُ فيها أربعةً وخمسـينَ يومًا، فأرسَـلَ الخليفةُ العاضدُ الفاطميُّ يسـتغيثُ بنـورِ الدِّينِ علـى الفِرَنجِ، والتـزمَ له بثلثِ خَراجِ مصـرَ، فحضَرَ ومعهُ صـلاح الدِّينِ، فهـربَ الفِرَنـجُ لَمَّـا سـمِعُوا بوصولِـهِ، وقتَـلَ صـلاحُ الدِّيـنِ شـاورَ الوزيـرَ؛ لأنه هو الـذِي كانَ يمالـئ الفِرَنجَ على المسـلمِينَ، وأُقيمَ أسـدُ الدِّيـنِ مكانَهُ في الـوزارةِ، ثم مـاتَ بعـد شـهرينِ، فأقامَ العاضـدُ مقامَـهُ في الـوزارةِ صلاحَ الدِّيـنِ، ولقَّبـهُ بالملكِ النَّاصـرِ، فقـامَ بالسَّـلطنةِ أتـمَّ قيـامٍ، وأجلَى الفِرنـجَ عـن أرضِ مصرَ، واسـتمرَّ وزيرًا للعاضدِ إلـى أن ماتَ.

فتولَّى صلاحُ الدِّينِ السَّلطنةَ، وصارَ لمصرَ أميرًا بعدَ أن كان وزيرًا، فاستولَّى على القصرِ وخزائنِهِ، فوجدَ فيه من الأموالِ ما لا يحصَى؛ من ذلكَ سبع مئةِ يتيمةٍ من الجواهرِ، وقضيبُ زمرُّدٍ طولُهُ أكثرُ من شبرٍ، وسمكُهُ نحو الإبهامِ، إلى غيرِ ذلك من خزائنِ الفواطِمِ، ووجدَ خِزانةَ كتبٍ ليسَ في الإسلامِ نظيرُها، تشتمِلُ على ألفي ألفِ مجلَّدٍ، منها بخطوطِ مُصنِّفِيها مئةُ ألفِ مجلَّدٍ.

ثم أخذَ صلاحُ الدِّينِ في نصرِ السُّنَّةِ وإشاعَةِ الحقِّ وإهانةِ المبتدعةِ، والانتقامِ من الرَّوافضِ وكانوا كثيرًا بأرضِ مصرَ، وعزلَ قضاةَ مصرَ كلَّها، لأنَّهم كانوا كلُّهم شيعةً، وقطَعَ الأذانَ بـ(حيَّ على خيرِ العملِ)، وخطبَ للعباسيِّينَ بعد أن مهَّدَها لهم أوَّلَ جمعةٍ في محرَّمٍ سنةَ سبعٍ وستِّينَ للمستضيءِ بأمرِ اللهِ، ففرحَ المسلمونَ بذلكَ، ووهَتِ البدعةُ، وصفَتِ الشَّريعةُ، وأرسَلَ الخليفةُ المستضيءُ الخِلَعَ والألويةَ لصلاحِ الدِّينِ، ولقَّبهُ بخليلِ أميرِ المؤمنينَ.

ثم تجرَّدَتْ همةُ صلاحِ الدِّينِ للفِرنجِ وغزوِهم، فكانَ من أمرِه معهُم ما ضاقَتْ

بِهِ التَّواريخُ، فمكَّنَهُ اللهُ من الكفَّارِ، ويسَّرَ لهُ فتوحَ البلادِ، ففتحَ بلادَ الشَّامِ كلَّها، واستَنقذَها من أيدِي الفِرَنجِ.

وفتحَ بيتَ المقدسِ يومَ الجمعةِ في الثَّالثِ والعشرين من رجبٍ، سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وخمس مئةٍ، بعدَ أن استولى الفرنجُ عليهِ وعلى الخليلِ إحدَى وتسعينَ سنةً، وهدَمَ ما أحدثوهُ من الكنائسِ، وبنى موضِعَ كنيسةٍ منها مدرسةً للشَّافعيةِ، ولم يهدمِ القُمامةَ اقتداءً بعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ، وبنى خانَقاه[١] سعيدِ السُّعداءِ[٢] بالقاهرةِ في سنةِ ستٍّ وستِّينَ[٣]، كانَت دارًا لسعيدِ السُّعداءِ الفاطميِّ، وكذلكَ القمحيَّةُ[٤] والشَّريفيَّةُ[٥] بمصرَ.

---

(١) الخانقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاة والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، معرب: فانه كاه، قال المقريزي: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربع مئة، وجعلت لمتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. انظر: «تاج العروس» (مادة: خنق).

(٢) خانقاه سعيد السعداء: خانقاه مشهور، سكن فيه كثير من العلماء، ونسبوا إليه، كانت دارًا لرجل اسمه قنبر أو عنبر، ولقبه سعيد السعداء، عتيق المستنصر، ومن الذين خدموا في قصور الفاطميين، وكان له شأن في دولتهم، أنشأها صلاح الدين، وكان شيخها يلقب بشيخ الشيوخ. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٨٢).

(٣) في (خ): «وسبعين».

(٤) المدرسة القمحية: بجوار الجامع العتيق بمصر، كان موضعها يعرف بدار الغزل، وهو قيسارية يباع فيها الغزل، فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية، وهذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية، ويتحصل لهم من ضيعتهم التي بالفيوم قمح يفرّق فيهم، فلذلك صارت لا تعرف إلّا بالمدرسة القمحية. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٠١).

(٥) المدرسة الشريفية: بجوار جامع عمرو بن العاص وعرفت أخيراً بالمدرسة الشريفية، وهي أول مدرسة عمرت بمصر لإلقاء العلم. انظر: «اتعاظ الحنفا» للمقريزي (٣/ ٣١٩).

وبنى القلعةَ بالجبلِ، وبئرَ الحلزونِ، وسورَ بابِ الوزيرِ، والمدرسةَ الصَّلاحيةَ[1] بجوارِ الإمامِ الشَّافعيِّ رضي الله عنهُ، سنةَ تسعٍ وستِّينَ وخمس مئةٍ.

وقدَّمَ السَّادةَ الشافعيةَ على المذاهبِ، وبنى السُّورَ الأعظَمَ المحيطَ بالقاهرةِ سنةَ اثنين وسبعينَ، وسورَ بابِ البحرِ، وسورَ القلعةِ سنةَ ستٍّ وسبعينَ[2] وخمس مئةٍ، وأبطَلَ المكوسَ والمظالمَ، وأخلَى ما بينَ الشَّامِ ومصرَ من الفِرَنجِ، ثمَّ افتتَحَ الحجازَ واليمَنَ، وتسلَّمَ دمشقَ بعد موتِ نورِ الدِّينِ، وحاصَرَ الموصلَ، فدخلَتْ تحتَ طاعتِهِ، وفتحَ عسكرُهُ طرابلسَ الغربِ وبرقةَ وتونسَ، وخطَبَ بها لبني العبَّاسِ، فصارَ سلطانَ مصرَ والشَّامِ والحجازِ واليمنِ والمغربِ.

وما زالَ في الجهادِ ونشرِ العدلِ وإبطالِ المظالمِ، وإجراءِ البرِّ والمعروفِ إلى أن توفَّاهُ اللهُ إلى رضوانِه، ولهُ الخيراتُ الكثيرةُ إلى يومنا[3] هذا رحمَهُ الله تعالى؛ فلقَدْ[4] كانَ إمامًا عادِلًا، وسُلطانًا كامِلًا، لم يَلِ مصرَ بعدَ الصَّحابةِ مثلُهُ، لا قبلَهُ ولا بعدَهُ، كانَ إذا قالَ صدَقَ، وإذا وعدَ وفا، وإذا عاهدَ لم يخُنْ، وكانَت مجالِسُهُ منزَّهَةً عن الهزوِ والهزلِ، ومحافِلُه حافلةً بأهلِ العلمِ والفضلِ، وكانَ مَنْ جالسَهُ لا يعلَمُ أنَّه جالَسَ سلطانًا لتواضُعِهِ.

---

(١) المدرسة الصلاحية: وتعرف بالناصرية أيضًا أنشأها السلطان صلاح الدين بالقرب من البيمارستان النوري، وسماها ابن قاضي شهبة بالنورية، منطمسة الأثر لم يعلم مكانها، وفي «تنبيه الطالب»: أن الذي بناها نور الدين زنكي ونسبت إلى صلاح الدين. انظر: «منادمة الأطلال» (ص١١٢، وص: ٢٢٦).
المدارس المسماة بالصلاحية ثلاثة: إحداها هذه، وثانيتها بالقدس، وثالثهما بالكلاسة قرب الأموي.

(٢) «وسور باب البحر وسور القلعة سنة ستٍّ وسبعين» من (خ).

(٣) «يومنا» من (ش).

(٤) في (ش): «ولقد».

حسَنَ العقيدَةِ، كثيرَ الذِّكرِ، محافِظًا على الصَّلواتِ في الجماعاتِ، وما وجبَتْ عليهِ الزَّكاةُ لأنَّ صدقةَ التَّطوعِ استغرقَتْ أموالَهُ كلَّها، وكانَ يحبُّ سماعَ القرآنِ، شديدَ الحياءِ، خاشِعَ الطَّرفِ، رقيقَ القلبِ، سريعَ الدَّمعةِ، راغبًا في سماعِ الحديثِ، ورحَلَ بولدَيهِ الأفضَلِ والعزيزِ لسماعِ الحديثِ من السِّلَفيِّ[١] بالإسكندريةِ، وهذا لم يُعهَدْ لسلطانٍ من زمنِ هارونَ الرَّشيدِ، فإنَّهُ رحلَ بولدَيهِ الأمينِ والمأمونِ لسماعِ «الموطَّأ» من مالكٍ بالمدينةِ[٢].

وكانتْ مدةُ سلطنةِ صلاحِ الدِّينِ نحوُ أربعةٍ وعشرينَ سنةً، وتوفِّيَ سابعَ عشرَ صفرٍ سنةَ تسعٍ وثمانينَ وخمس مئةٍ بمحروسةِ دمشقَ، وعمرُهُ سبعٌ وخمسونَ سنةً، وقبرُه بها ظاهرٌ يُزارُ.

ماتَ عن سبعةَ عشرَ ولدًا ذكرًا، ولم يخلِّف في خزائنِهِ من الدَّراهمِ والدَّنانيرِ سوى سبعةٍ وأربعينَ درهمًا لا غيرُ، لا مِلكًا ولا بستانًا ولا قريةً، فاللهُ تعالى يرحمُهُ، فلو لم يكُن له من الفضلِ في الدُّنيا إلَّا فتحُ بيتِ المقدسِ، وقطعُ دابرِ الرَّافضةِ الفاطميينَ من أرضِ مصرَ، لكان كافيًا لهُ عندَ اللهِ تعالى في رفعِ درجاته في الآخرةِ.

---

(١) أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السِّلفي الأصبهاني: العلامة المحدث الحافظ، كتب تعاليق وأمالي كثيرة، وبنى له الامير العادل (وزير الظافر العبيدي) مدرسة في الإسكندرية، (سنة ٥٤٦هـ)، فأقام إلى أن توفي فيها، واشتهر بالإكثار من الشيوخ، وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ست وسبعين وخمس مئة، وقد تجاوز من العمر مئة سنة. انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢١/ ٥ ـ ٢٩).

(٢) في هامش (ش): هذه الصفات تدل على عدم النفاق؛ لما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، فرحم الله تعالى روحه، ونوَّر ضريحه، هكذا تكون الملوك والسلاطين، ونعوذ بالله تعالى [من] الأبالسة والشياطين، ولله در ابن دريد حيث قال:

وإنمـــا المـــرء حديـــث بعـــده فكن حديثًـــا حســـنًا لمـــن روى

وقد قلتُ في ذلكَ:

لعمْرِي رأيتُ المرءَ بعدَ زَوالِهِ ... حَدِيثًا بما قدْ كانَ يأتي ويَصنَعُ

فحَيثُ الفَتى لا بدَّ يُذكَرُ بعدَهُ ... فذِكراهُ بالحُسْنَى أجلُّ وأرفَعُ

وكانَ رحمَهُ اللهُ يعتمِدُ في أمورِهِ ومملكَتِهِ على بهاءِ الدِّينِ قراقوشَ، وهو الَّذي قامَ في تدبيرِ الأمرِ لصلاحِ الدِّينِ، وبنى السُّورَ المحيطَ بالقاهرةِ ومصرَ وما بينَهُما، وله آثارٌ دالةٌ على علوِّ الهمَّةِ، والنَّاسُ تنسِبُ إليه الأشياءَ موضوعةً لا أصل لها عنهُ[١]، رحمَهُ اللهُ تعالى[٢].

[العزيز عثمان]

ثمَّ تولَّى الملكُ العزيزُ عثمانُ ولدُ صلاحِ الدِّينِ: وأُعطِيَتْ دمشقُ لأخيهِ الملكِ الأفضَلِ عليٍّ، وحلَبُ لأخيهِ الملكِ[٣] الظَّاهِرِ غياثِ الدِّين غازي، فأقامَ عثمانُ خمسَ سنينَ وعشرةَ أشهرٍ، ووقَعَ له معَ إخوتِه أمورٌ يطولُ ذِكرُها لأنَّهُ كانَ أصغرَهم، وتوفِّيَ في المحرَّمِ سنةَ خمسٍ وتسعينَ وخمس مئةٍ، وعمرُه سبعٌ وعشرونَ سنةً، ودُفِنَ بدارِهِ بالقاهرةِ، ثمَّ نُقلَ لتربةِ الإمامِ الشافعيِّ قبل بناءِ القُبَّةِ.

---

(١) «عنه» من (ش).

(٢) قراقوش: أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، كان خادم صلاح الدين، وقيل: خادم أسد الدين شيركوه، كان رجلًا مسعوّدا وصاحب همة عالية، وقراقوش لفظ تركي تفسيره بالعربي: العقاب، الطائر المعروف
وللأسعد بن مماتي كراس سماه «الفاشوش في أحكام قراقوش» فيه أشياء مكذوبة عليه، وما كان صلاح الدين ليستنيبه لولا وثوقه بعقله ومعرفته. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٩١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٢/ ١١١٨).

(٣) «الأفضل علي وحلب لأخيه الملك» من (ش).

وكانَت سيرَتُه حسنةً.

جاءهُ رجلٌ يسعَى في قضاءِ الصَّعيدِ بمالٍ، فقالَ: واللهِ لا أبيعُ دماءَ المسلمينَ وأموالَهُم بملكِ الأرضِ. وسعى آخرُ في قضاءِ إسكندريةَ بأربعينَ ألفِ دينارٍ وحملَها إليهِ، فلم يقبَلْها.

[المنصورُ محمَّدٌ]

ثم تولَّى الملُك المنصورُ محمَّدٌ: ولدُ عثمانَ، وعمرُهُ تسعُ سنينَ، فأقامَ سنةً واحدةً وشهرينِ، وعُزِلَ لصغرهِ في حادِي عشرَ شوَّالٍ سنةَ ستٍّ وتسعينَ وخمس مئةٍ.

وكانَ الكلامُ للعادلِ عمِّ أبيهِ صاحبِ الموصِلِ، ووقعَ له معَهُ أمورٌ كثيرةٌ، وحاصلُهُ أنَّ العادِلَ خلعَ المنصورَ وتسلطَنَ عوضَهُ بعدَ أن جمَع الفقهاءَ وقالَ لهم: هل تجوزُ ولايةُ الصَّغيرِ؟ فقالوا: الصَّغيرُ مولًّى عليه، فقالَ: أتجوزُ نيابةُ الكبيرِ عنهُ؟ فقالوا: لا، لأنَّ الولايةَ من الأصلِ إذا كانَتْ غيرَ صحيحةٍ فكيفَ تصحُّ النيابةُ؟! فخلَعَهُ حينئذٍ، وتسلطَنَ مكانَهُ كما تقدَّمَ[1].

[العادِلُ سيفُ الدِّينِ]

ثمَّ تولى الملكُ العادِلُ سيفُ الدِّينِ أبو بكرِ بنُ أيُّوبَ: وكانَ يُدعَى له وولدِه الكاملِ معَهُ في الخطبةِ، إلى أن توفِّيَ في[2] سابعِ جمادى الآخرةِ سنةَ خمسَ عشرةَ وست مئةٍ، فكانَت مدَّتهُ نحو تسعةَ عشرَ سنةً.

وكانَ مسعودًا في حركاتِهِ، وكان يصيِّفُ بالشَّامِ ويُشتِّي في مصرَ، وكانَ

---

(١) «وتسلطن مكانه كما تقدم» من (خ).

(٢) «في» من (ش).

أكولًا يأكُلُ وحدَهُ خروفًا مشويًّا، ماتَ بالشَّامِ، فصبَرَهُ[(١)] ولدُهُ، ثمَّ حملَهُ لدمشقَ، فدفنَهُ بالقلعةِ.

وكانَ قد قسَمَ البلادَ بين أولادِهِ فجعلَ مصرَ للكاملِ محمَّدٍ، ودمشقَ للمعظَّمِ عيسى، وديارَ بكرٍ وممالكَ الشَّرقِ للأشرفِ موسَى، وباقي أولادِهِ كلَّ واحدٍ في مملكَةٍ.

وكانَ ملِكًا عظِيمًا ذا رأيٍ ومعرفَةٍ تامَّةٍ، قد حنَّكتهُ التَّجاربُ، حسَنَ السِّيرةِ، جميلَ الطَّويَّةِ، وافرَ العقلِ، حازِمًا صالِحًا، محافِظًا على الصَّلواتِ في أوقاتها، متَّبِعًا لأربابِ السُّنَّةِ، مائلًا للعلماءِ، صنَّفَ له الإمامُ فخرُ الدِّينِ الرَّازيُّ كتابَ «تأسيسِ التَّقديسِ»[(٢)]، وسيَّرَهُ إليه من بلادِ خراسانَ.

وفي أيَّامِهِ سنةَ سبعٍ وتسعينَ وخمس مئةٍ وقعَ غلاءٌ عظيمٌ، بحيثُ هربَ النَّاسُ للحجازِ واليمنِ والشَّامِ والمغربِ، وكانَ الرَّجلُ يذبَحُ ولدَهُ وتساعِدُهُ أمُّهُ على طبخِهِ وشيِّهِ، وأحرقَ السُّلطانُ جماعةً فعلُوا ذلك ولم ينتَهوا، وكانَ الرَّجلُ يدعو صديقَهُ ليُضيِّفَه، فيذبَحُه ويأكُلُه، وامتلأتِ الطُّرقاتُ برمَمِ الموتَى بحيثُ كفَّنَ السلطانُ في مدَّةٍ يسيرةٍ مئتي ألفٍ وعشرين ألفًا، وهلكَ أهلُ القرى قاطبةً بحيثُ إن المسافرَ يمرُّ بالقريةِ فيجِدُ أهلَها كلَّهم موتى، وبيعَ الرَّغيفُ بألفِ دينارٍ[(٣)].

---

(١) المراد: لم يدفنه، فأصل الصبر: الحبس، وكل من حبس شيئًا، فقد صبره. انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (١/ ٢٥٤).

(٢) في (ش): «التقدير». وكتاب «تأسيس التقديس» في الكلام لفخر الدين الرازي، وذكر اسم الملك العادل في خطبة الكتاب. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٧٦)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٣٣٣).

(٣) انظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (٢٢/ ٩٠)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردى (٦/ ١٧٣).

وفي أيَّامِهِ سنةَ تسعٍ وتسعينَ وخمس مئةٍ ماجتِ النُّجومُ في السَّماءِ شرقًا وغربًا، وتطايرَت كالجرادِ المنتَشرِ يمينًا وشمالًا، واستمرَّ ذلك إلى طلوعِ الفجرِ[1].

وفي سنةِ تسعٍ وتسعين أيضًا خرجَ أهلُ مكَّةَ على عادِتهم لعمرةٍ في سابعَ عشرَ رجبٍ، وكانَ ملوكُها يومئذٍ طائفةً من بني حسنٍ يقالُ لهم: الهواشِمُ، فاغتنَمَ الفرصةَ في ذلك اليومِ الشَّريفُ قَتادةُ بنُ إدريسَ صاحبُ اليَنبُعِ جدُّ حكَّامِ أشرافِ مكَّةَ الآنَ، ودخلَ مكَّةَ بجنودِه، وكانَت يومئذٍ مسوَّرةً، وتمكَّنَ قتادةُ منها، واستمرَّت بيدِه ويدِ ذُريتِهِ إلى يومنا هذا، ومضى أولئكَ لليمنِ.

وفي سنةِ أربعٍ وست مئةٍ انتقلَتِ السَّلطنةُ من دار الوزارةِ بالدَّربِ الأصفرِ إلى القلعةِ بالجبلِ، فأوَّلُ من سكَنها الكاملُ نائبًا عن أبيهِ إحدى عشرَ سنةً.

[الكاملُ محمَّد]

ثم تولَّى الملكُ الكاملُ محمَّدٌ: ولدُ العادِلِ، أبو الفتحِ، ناصرُ الدِّينِ، فأقامَ عشرينَ سنةً وشهرينِ، وتوفِّي في رجبٍ سنةَ خمسٍ وثلاثينَ وستِّ مئةٍ بدمشقَ.

قالَ الذَّهبيُّ: تملَّكَ الكاملُ مصرَ نحو أربعينَ سنةً شطرُها في حياةِ أبيهِ[2]، وهو الذي عمَّرَ قبَّةَ الإمامِ الشَّافعيِّ، وأجرى إليها الماءَ من بركةِ الحبشِ، والمدرسةَ بينَ القصرَينِ المعروفةَ بالكامليَّةِ، وهي دارُ الحديثِ، سنةَ إحدى وعشرينَ وست مئةٍ[3].

ولـهُ الأوقـافُ الجزيلـةُ على أنـواعِ البـرِّ، ولـه المواقـفُ المشـهورَةُ بدمياطَ،

---

(١) انظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (٢٢/ ١٢٧).

(٢) «شطرها في حياة أبيه» من (خ).

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٢/ ١٢٨).

وانتزَعهـا مـن أيدي الفِرَنجِ بعد أن اسـتولَوا عليهـا وجعلُوا جامِعَها كنيسـةً، وحضرَ لنُصرتِـهِ أخواهُ: المعظَّمُ عيسَـى، والأشـرفُ موسَـى، وبالَغـا في خِدمتِهِ، وأنشـدَ[1] بعـضُ الشُّـعراءِ قصيدةً، وفيهـا يقولُ[2]:

أَعُبَّـادَ عِيسَـى إن عِيسَـى بـزعـمِـكُم ومُوسَى جَمِيعًـا يخْدمـانِ محَمَّـدا[3]

وأرسلَ إليهِ الخليفَةُ المستنصرُ باللهِ بكتابٍ عظيمٍ فيهِ تقليدُه الملكَ معَ يوسفَ ابنِ الشَّيخِ أبي الفرجِ ابن الجوزيِّ، فاستولى على البلادِ، واتَّسعَت لهُ المملكَةُ، حتى قالَ خطيبُ مكَّةَ عندَ الدُّعاءِ لهُ: سلطانُ مكةَ وعَبِيدِها، واليمَنِ وزَبِيدها، ومصرَ وصَعيدِها، والشَّامِ وصَنادِيدها، والجزيرَةِ ووليدِها.

وكانَ معظِّمًا للسُّنَّةِ وأهلِها، وشهِدَ في حادثةٍ عندَ قاضيهِ ابنِ عينِ الدَّولةِ[4]، فردَّ شهادَتهُ وقالَ: كيفَ أقبَلُكَ وعجِيبةُ المغنِّيةُ تطلُعُ إليكَ بجنكِها[5]، فشتَمَ القاضي، فعزَلَ القاضي نفسَهُ، فقالَ الوزيرُ: منَ الرَّأي عودُهُ؛ لئلا يقالَ: لأيِّ شيءٍ عزلَ القاضي نفسَهُ؟ وتتطيَّرَ الأخبارُ إلى بغدادَ، ويشيعَ أمرُ عجيبةَ، فأعادَهُ[6].

---

(١) في (ش): «وأنشده».

(٢) «يقول» من (ش).

(٣) البيت لشرف الدين راجح الحلي من قصيدة يمدح فيها الكامل. انظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (٢٢/ ٢٥٩)، و«العبر» للذهبي (٣/ ١٧٧)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١/ ١٦٠).

(٤) ابن عين الدولة: قاضي القضاة شرف الدين أبو المكارم محمد الصفراوي الإسكندراني، ثم المصري، الشافعي، وله فقه وفضائل ونظم ونثر مع العفة والنزاهة، مات في ذي القعدة، سنة تسع وثلاثين وستمئة. انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٣/ ١٠٥).

(٥) الجنك: آلة يضرب بها كالعود، معرب. انظر: «تاج العروس» (مادة: جنك).

(٦) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٦٥)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١٦١).

[العادل أبو بكر]

ثم تولَّى الملكُ العادِلُ أبو بكرٍ: ولَدُ الكامِلِ، وعمرُهُ نحو ثماني عشرةَ سنةً، فأقامَ سنةً وشهرينِ وأيَّامًا، وقيلَ: أكثرَ، وكانَ أخوهُ الصَّالحُ أكبرَ منهُ، وكانَ ببلادِ المشرِقِ، فتحرَّكَ طالبًا للسَّلطنةِ منهُ، فقهَرَهُ بعدَ حروبٍ، وخلعَهُ وسجنَهُ، سنةَ سبعٍ وثلاثينَ وستِّ مئةٍ، وقتلَهُ بعدَ ذلكَ.

وفي هذهِ السَّنةِ أوفى النِّيلُ في خامسَ عشرَ أبيبَ[1]، ولم يقَع مثلُهُ.

[الصالح أيوب نجم الدين]

ثم تولَّى الملكُ الصَّالحُ أيُّوبُ نجمُ الدِّينِ: أخوهُ، ابنُ الملكِ الكاملِ، فأقامَ تسعَ سنينَ وعشرةَ أشهرٍ وأيَّامًا، إلى أن توفِّيَ بالمنصورةِ[2] في حربهِ مع الفِرَنجِ، في نصفِ شعبانَ، سنةَ سبعٍ وأربعينَ وستِّ مئةٍ، وحُمِلَ من المنصورةِ إلى القاهرةِ، ودفِنَ بقُبَّةٍ بُنِيت لهُ بجوارِ المدرستَينِ بخطِّ بينَ القصرَينِ[3]، وجرَت لهُ

---

(١) أبيب: هو الشهر الحادي عشر من السنة القبطية. انظر: «دائرة معارف القرن العشرين» محمد فريد وجدي (١/ ٣٨).

(٢) المنصورة: يوجد عدة مواضع بهذا الاسم، والمراد هنا: المنصورة في مصر، بلدة أنشأها الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة، ورابط بها في وجه الإفرنج لما ملكوا دمياط، وذلك في سنة ٦١٦، ولم يزل بها في عساكر حتى استنقذ دمياط. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٥/ ٢١٢).

وحاليًا المنصورة مدينة هي عاصمة الدقهلية في مصر. انظر: «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» لمحمد رمزي (٢/ ٢٦).

(٣) خط بين القصرين: هذا الخط أعمر أخطاط القاهرة وأنزهها، وقد كان في الدولة الفاطمية فضاء كبيرًا وبراحًا واسعًا، فلما نزل بها أمراء الدولة الأيوبية وغيروا معالمها، صار هذا الموضع سوقًا مبتذلًا بعد ما كان ملاذًا مبجَّلًا، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات، فصار متنزَّهًا تمرُّ فيه أعيان =

مـعَ الفِرَنجِ حـروبٌ يطولُ ذكرُهـا، وأخذَتِ الفرنجُ دميـاطَ في مرضِ موتـهِ، وأخفَتهُ شـجرَةُ درٍّ إلـى أن أرسـلَت إلـى ولـدِهِ المعـزِّ[1] خوفًـا علـى المسـلِمينَ، وساسـتِ النَّاسَ أحسـنَ سياسـةٍ.

والصَّالحُ هذا هو الذي بنى قلعَةَ الرَّوضةِ، وأقامَ بها جُندًا ألفًا من مماليكِهِ، سمَّاهم البحريَّةَ، وبنى قنطرَةَ السَّدِّ، والمدرستَينِ بينَ القصرَينِ سنةَ تسعٍ وثلاثينَ وستِّ مئةٍ.

وكانَ ملكًا مُهابًا[2]، عزيزَ النَّفسِ، طاهرَ اللِّسانِ والذَّيلِ، لا يرى الهزلَ والعبثَ، شديدَ الوقارِ، كثيرَ التحيُّلِ والغضَبِ والمؤاخذَةِ والسَّطوةِ والتجبُّرِ، ذا مهابةٍ عظيمَةٍ، وهمَّةٍ عاليةٍ، وآمالٍ بعيدةٍ، بحيثُ حدَّثته نفسُه بالاستيلاءِ على الدُّنيا بأسرِها والتغلُّبِ على الممالكِ، وانتزاعِها من يدِ ملوكِها.

وفـي أيَّامِـهِ قـدِمَ الشَّـيخُ عـزُّ الدِّيـن بـنُ عبـدِ السَّـلامِ[3] إلـى مصـرَ، وتولَّـى القضـاءَ، فأمـرَ ببيعِ الأمـراءِ وأكابـرِ الدَّولَةِ مُحتجًّـا بأنَّهُ لـم يثبُت حريَّتُهـم، فراجعَهُ السُّـلطانُ فـي ذلـك بالملاطفَـةِ، فصمَّمَ علـى بيعِهم، فغضِـبَ نائبُ السَّـلطنةِ وأتى

= الناس وأماثلهم في الليل مشاة، لرؤية ما هناك من السرج والقناديل الخارجة عن الحدّ في الكثرة، وكانت تعقد فيه عدّة حلق لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار، والتفنن في أنواع اللعب واللهو، فيصير مجمعا لا يمكن حكاية وصفه. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٣/ ٥٣).

(١) «إلى أن أرسلت إلى ولده المعزّ» من (ش).

(٢) في (ش): «مهيبًا».

(٣) العز بن عبد السلام: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم، أبو محمد عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي الإمام الفقيه، برع في الفقه والأصول، ودرس وأفتى وصنَّف، وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلابة في الدين، توفي سنة ستين وست مئة. انظر: «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (٢/ ١٧٤)، و«العبر» للذهبي (٣/ ٢٩٩).

فـي عسـكَرِه لبيتِ الشَّـيخِ مُجـرِّدًا سـيفَهُ ليقتُلَـهُ، فلمَّا وقعَ بصرُ الشَّـيخِ عليـهِ دُهِشَ ويبسَـتْ يـدُهُ، وبُهـتَ الحاضِـرونَ، حتـى تابُـوا واشـترَوا أنفُسَـهم بأعلـى[1] ثمـنٍ لبيتِ المـالِ[2].

وله معَ الملكِ الصَّالحِ وقائعُ، وتركَ بعدَ ذلكَ جميعَ المناصبِ والولاياتِ، فكانَ يحضُرُ السَّماعَ ويرقصُ رحمَهُ اللهُ تعالى.

[المعظَّمُ توران شاه]

ثمَّ تولَّى الملِكُ المعظَّمُ توران شاه: ولَدُ الصالحِ، أُحضِرَ من حصنِ كَيْفا[3]، بديارِ بكرٍ[4]، ودخلَ المنصورَةَ، سابعَ عشرَ ذي القعدَةِ، تسلطَنَ بعدَ موتِ أبيه بأربعةِ أشهرٍ، وقاتلَ الفِرنجَ وكسرَهم، وقتَلَ منهم ثلاثين ألفًا، وكانَ في عسكَرِه الشَّيخُ عزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلامِ، وكانَتِ النُّصرةُ للفرنجِ، فقالَ: يا ريحُ خُذِيهم، عدَّةَ مرارٍ، فعادَتِ الرِّيحُ على مراكبِ الفِرَنجِ فكسرَتها وغرِقَ أكثَرُهم[5].

ثم بعدَ ذلكَ أخذَ يتوعَّدُ شجرةَ الدُّرِّ بالمصادرةِ، ويهدِّدُ مماليكَ أبيهِ بالقتلِ،

---

(١) في (ش): «بأغلى».

(٢) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٢١٦).

وذكر نحو هذه القصة الصفدي في «الوافي بالوفيات» (١٨/ ٣١٩) قال: ويقال: إنه لما حضر بيعة الملك الظاهر، قال له: يا ركن الدين، أنا أعرفك مملوك البندقدار، فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن رقِّه إلى رق الملك الصالح وعتقه.

(٣) حصن كَيْفا: ويقال: كيبا، ولعلها أرمنية، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٢٦٥).

(٤) ديارُ بَكْرٍ: هي بلاد كبيرة واسعة، تنسب إلى بكر بن وائل، وحدّها ما غرّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطلّ على نصيبين إلى دجلة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٢٦٥).

(٥) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٢١٦).

فعندَ ذلكَ قتَلَ العسكرُ الملكَ المعظَّمَ بعدَ شهرَينِ، وداسُوهُ بأرجُلِهِم رحمَهُ اللهُ، وقيلَ: ملَكَ دونَ شهرَينِ، واللهُ أعلَمُ.

[شجرَةُ الدرِّ]

ثم تولَّتْ شجرَةُ الدرِّ: والدَةُ خليلٍ، سُرِّيَّةُ الملكِ الصَّالحِ، لحسنِ سيرَتها[1]، وجودَةِ تَدبِيرها، وكان يُدعَى لها على المنابرِ بعدَ الخليفَةِ، ويقولُونَ: اللهُمَّ احفظِ الجهةَ الصَّالحةَ ملكَةَ المسلمِينَ، وعصمةَ[2] الدُّنيا والدِّينِ أمَّ خليلٍ.

وكانَتْ خيِّرةً ديِّنةً، رئيسةً، عظيمةً في النُّفوسِ، ولها مآثرُ وأوقافٌ على وجوهِ البرِّ، فأقامَتْ ثلاثةَ أشهرٍ إلى أن خلعَتْ نفسَها في ربيعٍ الآخرةِ سنةَ ثمانٍ وأربعينَ وستِّ مئةٍ.

وكانَ الخليفةُ المستعصِمُ أرسَلَ يعاتِبُ أهل مصرَ في توليَتِها، وقالَ: إن كانَ ما بقِيَ عندَكم رجلٌ تولُّونَهُ، فقولُوا لنا نُرسِل إليكُم رجلًا تولُّونَه.

وما أحسَنَ ما قيلَ:

ولَو أنَّ النسَاءَ كمَن ذكَرْنا   لفُضِّلَتِ النِّسَاءُ علَى الرِّجالِ
فلا التَّأنيثُ لاسمِ الشَّمسِ عيبٌ   ولا التذكِيرُ فخرٌ للهلالِ[3]

---

(١) «سيرتها» من (خ).

(٢) في (ش): «وعصبة».

(٣) بيتا الشعر من (خ). وهما للمتنبي يرثي أم سيف الدولة، إلا أن الشطر الأول:

ولو كان النساء كمن فقدنا

انظر: «الحماسة المغربية» (٢/ ٨٦٦)، «نهاية الأرب» للنويري (٥/ ٢٢٠).

[الأشرفُ موسَى]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ موسَى: جدُّهُ الملكُ[1] الكاملُ، وعمرُهُ نحوُ ثمانِ سنينَ، بجمادَى الأولى سنةَ ثمانٍ وأربعينَ، وكانَ يُخطَبُ له وللمُعزِّ أيبكَ التُّركماني معًا على المنابرِ، لأنَّه كانَ تولَّى قبلَهُ بخمسَةِ أيامٍ، ثمَّ خلعَهُ المعزُّ عامَ اثنين وخمسِينَ وست مئةٍ.

وفي سنةِ خلعِهِ ظهرَت نارٌ في أرضِ عدنٍ، وكانَ يطيرُ شرَرُها في اللَّيلِ إلى البحرِ، ويصعَدُ منها دخانٌ عظيمٌ في النَّهارِ.

وكانَ هو آخرَ الدَّولةِ الكرديَّةِ، جملةُ مدَّةِ ولايتِهم إحدى وثمانونَ سنةً، رحمَهُ الله تعالى.

* * *

---

(١) «الملك» من (ش).

[الدَّولة التُّركيَّة]

ثم جاءَتِ الدَّولةُ التُّركيَّةُ مماليكُ الدَّولةِ الكردِيَّةِ، وذلكَ في حدودِ خمسينَ وستِّ مئةٍ، فأوَّلُهم:

[المعزُّ أيبك التُّركماني]

الملكُ المعزُّ عزُّ الدِّينِ أيبَكُ التركمانيُّ الصَّالحُ: فأقامَ نحو ستِّ سنينَ، وتزوَّجَ شجرةَ الدُّرِّ، ثم خطَبَ بنتَ صاحبِ الموصِلِ، فغارَت شجرَةُ الدرِّ، فقتلَتهُ في ربيعِ الأولِ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وستِّ مئةٍ، ثم حدَثت[١] أمورٌ أدَّت إلى قتلِها، فقُتِلَت بأيدي مماليكِ المعزِّ.

وهو الذي بنى المدرسَةَ المعزِّيةَ برحبةِ الحناءِ، وكان قد استوزرَ الأسعدَ هبةَ اللهِ، كانَ نصرانيًّا فأسلَمَ، فأحدثَ ما أماتَهُ صلاحُ الدِّينِ من المكوسِ والمظالمِ، فكانَ شؤمًا على التركِ[٢] حيثُ عدلُوا عن وزارةِ العلماءِ إلى وزارةِ القبطِ.

وفي أيَّامِهِ ظهرَت النَّارُ بالمدينةِ المنوَّرةِ ولها دويٌّ عظيمٌ، وصارَتِ الجبالُ تسيلُ نارًا، وسارَت هكَذا وهكَذا كأنها الجبالُ، وطارَ منها شررٌ كالقصرِ، إلى أن أُبصِرَ ضَوؤها من البلادِ جميعِها، واستمرَّتْ[٣] أكثرَ من شهرٍ، وأحرقتِ المسجدَ النَّبويَّ بجميعِ ما فيهِ من منبرٍ وشبابيكَ وخزائنَ وغيرِها، وهي الَّتي أخبرَنا بها النبيُّ ﷺ حيثُ قالَ: «لا تقومُ السَّاعةُ حتى تخرُجَ نارٌ من أرضِ الحجازِ تضيءُ لها أعناقُ الإبلِ في ضوئِها»[٤].

---

(١) في (ش): «أحدثت».

(٢) في (ش): «الأتراك».

(٣) في (ش): «فاستمرت».

(٤) رواه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لا تقوم =

[المنصورُ عليٌّ]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ عليٌّ: ولدُ المعزِّ، وعمرُه نحوُ[١] خمسَ عشرةَ سنةً، فأقامَ سنتَين وثمانيةَ أشهرٍ، ثم حبِسَ بأمرِ قطزَ المعزيِّ لصغَرِه وعدَمِ صلاحيَتِه لقتالِ التَّتارِ سنةَ سبعٍ وخمسين وستِّ مئةٍ.

وفيها أخذَ التَّتارُ بغدادَ بمكيدةِ الوزيرِ ابن العلقمِيِّ الرَّافضيِّ، وقُتلَ الخليفةُ المستعصِمُ، ولم يُدفَن بل ذهَبَ تحتَ حوافرِ الخيلِ، وقتلَ معه فوقَ ألفَي ألفٍ، واستمرَّ القتلُ ببغدادَ نحوَ[٢] أربعينَ يومًا، وانعدمَت[٣] الخلافةُ الإسلاميَّةُ منها، وأقامَ النَّاسُ بلا خليفةٍ ثلاثَ سنينَ ونصفَ سنةٍ إلى أيامِ الملكِ الظَّاهرِ بيبرسَ، ثم رامَ التَّتارُ أخذَ الشامِ ومصرَ، ولهم حكاياتٌ وأخبارٌ يطولُ شرحُها[٤].

[المظفر قطز]

ثم تولَّى الملكُ المظفَّرُ قُطزُ المعزِّيُّ: فأقامَ إحدى عشرَ شهرًا[٥] وسبعةَ عشرَ يومًا، والتَّتارُ قد أقبلُوا إلى حلبَ وبذلُوا السَّيفَ فيها، ثمَّ إلى دمشقَ، ووصلَتْ غاراتُهم إلى غزَّةَ، وظهرَ دينُ النَّصرانيَّةِ للشَّامِ، وذلَّ الإسلامُ[٦]، فلقِيَهم الملكُ المظفَّرُ بعينِ جالوت ومعهُ العساكرُ الشَّاميةُ والمصريَّةُ، وكانت وقعةً عظيمةً فكسَرَ

= الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى».

(١) «نحو» من (ش).

(٢) «نحو» من (خ).

(٣) في (خ): «وعدمت».

(٤) في (ش): «أخبار وحكايات تطول».

(٥) «إحدى عشر شهرًا» من (خ).

(٦) «وظهر دين النصرانيَّة للشام، وذلَّ الإسلام» من (خ).

جيشَ التَّتارِ، وهزمَهم شرَّ هزيمةٍ، ففرحَ المسلمونَ بذلكَ غايةَ الفرحِ، وأحبَّ النَّاسُ الملكَ المظفَّرَ غايةَ المحبةِ.

ثم قُتِلَ بالطَّريقِ بمكيدةِ الظَّاهرِ بيبرسَ ليتولَّى مكانَهُ، ودفنَ بالقصيرِ من أرضِ الشَّامِ، في خامسَ عشرَ ذي القعدَةِ، سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وستِّ مئةٍ رحمَهُ اللهُ، وعظُمَ على النَّاسِ قتلُهُ لأنَّه نصرَ الإسلامَ، وفيهِ قيلَ:

غَلَبَ التَّتارُ عَلَى البِلادِ فجاءَهم ... مِن مصْرَ تركِيٌّ يجودُ بنفسِهِ

بالشَّامِ أهلكَهُم وبدَّدَ شملَهُم ... ولكِلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسِهِ[١]

وكانَ بطلًا شجاعًا مِقدامًا حازِمًا حسَنَ التَّدبيرِ، عارفًا[٢]، وكانَ قبلَ خروجِهِ لقتالِ التَّتارِ طلَبَ الشَّيخَ عزَّ الدِّينِ بنَ عبد السَّلامِ بحضرَةِ الملكِ الظَّاهرِ بيبرسَ، والملكِ المنصورِ قلاوونَ، وغيرِهما من الأمراءِ، وحادَثَهُ في الخروجِ إلى لقاءِ التَّتارِ، فقالَ لهُ: اخرجُ وأنا أضمَنُ لكَ على اللهِ النَّصرَ، فقالَ: إن المالَ في خزائني قليلٌ، وأريدُ الاقتراضَ من التُّجارِ، فقالَ: إذا أحضرْتَ أنتَ وجميعُ العسكَرِ كلَّ ما[٣] في بيوتِكُم وعلى نسائكُم من الحليِّ الذَّهبِ والفضَّةِ[٤]، وضربتَهُ على السِّكَّةِ، وأنفقتَهُ في الجيشِ، وقصَّرَ عنِ القيامِ بكلفَتهم، فأنا أسألُ اللهَ لكُم في إظهارِ كنزٍ من الكنوزِ يكفيكُم ويفضُلُ عنكُم، وأمَّا أنَّكُم تأخذُونَ من[٥]

---

(١) بيتا الشعر من (خ). وهما للشيخ شهاب الدين أبو شامة. انظر: «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (١/ ٣٦٧)، «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردى (٧/ ٨٢).

(٢) «وكانَ بطلاً شجاعًا مقدامًا حازمًا حسن التدبير، عارفًا» من (ش).

(٣) في (ش): «وكلَّ شيء كان».

(٤) في (ش): «الحرام».

(٥) «من» من (خ).

أمـوالِ المسـلمينَ، وتخرُجـونَ إلى لقـاءِ العـدوِّ، وعليكُم المحرَّمـاتِ مِنَ الأطرزَةِ المزركشَـةِ، والمناطـقِ المحرَّمـةِ، وتطلُبـونَ مـن اللهِ النُّصـرةَ، فهـذا لا سـبيلَ إليـهِ، فوافَقُـوه وأخرَجُـوا مـا عندَهـم، ففرَّقَـهُ، وكفَـى[١]، وخرجُـوا وانتصـرُوا كما مـرَّ[٢]، وذلـكَ ببركـةِ التَّحلِّـي بالعبـادةِ والطَّاعـةِ والتَّخلِّي عـن المعصيةِ.

ولهذا أمراءُ زماننا هذا معَ كثرةِ عَددِهم وعُددِهم لا تراهم فَعلُوا في الجهادِ فضيلةً يخلِّدونَ لهم بها ذكرًا، ولو تركُوا المحرَّماتِ لرَفعَ اللهُ لهم قدرًا وأشدَّ لهم أزرًا، وكانوا يملكُون من بلادِ العدوِّ ما يفوقُ العَدَّ حصرًا، ولو لم يكُن إلَّا أنَّهم يؤذُونَ الرَّعايا في مسِيرِهم[٣] ومصيرِهم لكانَ كافيًا في الخذلانِ وسوءِ الحِرمانِ، وعن ذلكَ يُسألُ مولانا السُّلطانُ.

[الظَّاهر بيبرس]

ثـم تولَّى الملـكُ الظَّاهرُ، ركنُ الدُّنيـا والدِّين، بيبـرسُ العلائـيُّ البُنْدُقْداريُّ[٤] الصَّالحـيُّ، صاحبُ الفتوحاتِ، فأقامَ سـبعَ عشـرةَ سـنةً وشـهرين ونصفًـا، وتوفِّيَ بالقصرِ بدمشـقَ، سـابعَ عشـرَ محرَّمٍ، سنةَ ستٍّ وسـبعينَ وسـتِّ مئةٍ، وقبرُهُ بدمشقَ ظاهـرٌ يُزارُ.

---

(١) في (ش): «وكفاهم».

(٢) انظر: «تاريخ الخلفاء» (ص٣٣٤)، و«حسن المحاضرة» (٢/ ٣٨) كلاهما للسيوطي.

(٣) في (ش): «سيرهم».

(٤) البندقدار: هو الذي يحمل جراوة ـ أي: آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذي يرمى به عن القوس ـ البندق خلف السلطان أو الأمير، وهو مركّب من لفظتين فارسيتين؛ إحداهما (بندق)، واللفظة الثانية (دار) ومعناها ممسك، فيكون المعنى ممسك البندق. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٣١).

وكانَ ملكًا شُجاعًا مِقدامًا غازِيًا مُجاهِدًا مُرابطًا سريعَ الحركةِ يباشِرُ الحروبَ بنفسِهِ، له الوقعاتُ الهائلةُ معَ الفِرَنجِ، ثم التَّتارِ[1].

وهو الذي بنى المدرسَةَ بالقاهرةِ تجاهَ البيمارِستانِ، عامَ اثنينِ وستِّينَ وستِّ مئةٍ، والجامعَ الكبيرَ بالحُسينيةِ سنةَ خمسٍ وستِّينَ وستِّ مئةٍ، وتمَّ في سنةِ سبعٍ، وقناطِرَ[2] أبو منجا بالقليوبيَّةِ، وقناطِرَ السِّباعِ بطريقِ مصرَ، وغيرِ ذلكَ من قلاعٍ وحصونٍ وقناطِرَ وخاناتٍ بالشَّامِ وغيرِها.

وهو الَّذي أكمَلَ عمارةَ المسجِدِ النَّبويِّ من الحريقِ، وحجَّ سنةَ سبعٍ وستِّينَ، فغسَلَ[3] الكعبةَ بيدِهِ بماءِ الوردِ.

وله فتوحاتٌ كثيرةٌ، فتحَ النُّوبةَ[4] ودنقلَةَ[5]، ولم تُفتَحْ قبلَ ذلك في الإسلامِ معَ غزوِ كثيرٍ من الخلفاءِ والسَّلاطين لها قبلَهُ، وملكَ الرُّومَ، وجلَسَ بقيساريَّةَ، ولبسَ التَّاجَ، وضُرِبَ باسمِهِ الدِّينارُ والدِّرهمِ، وكانَ لهُ صدقاتٌ وأوقافٌ كثيرَةٌ، وجدَّدَ صلاةَ الجمعةِ بالجامعِ الأزهرِ وجامعِ الحاكمِ.

ووقعَ بينَهُ وبينَ الإمامِ النَّوويِّ رحمَهُ الله تعالى بعضَ شيءٍ فأمرَ بنفيِهِ من دمشقَ، ثم أمرَ بعودِهِ[6].

---

(١) في (ش): «التتار ثم الفرنج».

(٢) في (ت): «قناطر» دون واو.

(٣) في (ش): «وغسل».

(٤) في (ش): «المتوبة».

(٥) دنقلة: مدينة كبيرة، ممتدة على ساحل النيل، مقر بلاد النوبة، والنوبة: بلاد واسعة للسودان، بجنوب مصر. انظر: «آثار البلاد» للقزويني (ص٣٩)، «تاج العروس» (مادة: دنقل).

(٦) كتب الإمام النووي إلى الظاهر بيبرس غير مرة ينصحه ويعظه، انظر طرفًا من مكاتباته ونصحه في: =

وفي أيَّامِهِ طيفَ بالمحمَلِ[١] وكسوةِ الكعبةِ بالقاهرةِ.

وفي أيامِهِ قدِمَ خليفةٌ بغدادَ المستنصِرُ باللهِ ابنُ الظَّاهرِ بأمرِ اللهِ هارِبًا من التَّتارِ، فخرجَ السُّلطانُ الملكُ الظاهرُ للقائهِ، وكانَ يومًا مشهودًا.

وأوَّلُ من بايعَهُ بالخلافةِ عزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلامِ، ثم الملكُ الظَّاهرُ، ثم إنَّ الخليفَةَ قلَّدَ الملكَ الظَّاهرَ أمور البلادِ الإسلامِيَّة وما سيفتَحُهُ.

ثم طلَبَ الخليفةُ من الملكِ أن يجهِّزهُ إلى بغدادَ، فجهَّزهُ بأكثرَ من ألفِ ألفِ دينارٍ، وخرجَ لوداعِهِ إلى دمشقَ، ثم قتلَهُ التَّتارُ بعدَ مفارقَةِ الظَّاهرِ إيَّاهُ، فرجَعَ الخليفةُ الحاكمُ بأمرِ اللهِ ابنُ المسترشِدِ باللهِ إلى مصرَ، فتلقَّاهُ الملكُ الظَّاهرُ وأكرمَهُ.

وكانَ في الملكِ الظَّاهرِ محاسِنُ وغيرُها، ولقَّبهُ الخليفةُ بقسيمِ أميرِ المؤمنينَ، وهو أعلى الألقابِ، وقالَ: هذا الملِكُ الظَّاهرُ قد قام بنصرَةِ الإمامةِ عند قلَّةِ الأنصارِ، وشرَّد جيوش الكفر[٢] بعدَ أن جاسوا خلالَ الدِّيارِ[٣].

وفي أيَّامِهِ سنةَ ثلاثٍ وستِّينَ جعلَ القضاةَ أربعةً، من كلِّ مذهبٍ واحدٌ، ولم

= «حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ٩٧) وما بعدها.

(١) المحمل: لغة هو الهودج الكبير، والمراد هنا: محمل توضع فيه كسوة الكعبة، واهتم سلاطين المماليك بذلك اهتمامًا كبيرًا لحرصهم على الظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين. وأول من أدار المحمل بمصر السلطان الظاهر بيبرس، ويخرج موكب كبير في شهر شوال إلى طريق الحجاز على هذا الشكل يقوده أحد كبار أمراء المماليك، وفيه عدد من الأطباء والمؤذنين، والقاضي والشهود، والأمناء ومغسلو الموتى، ومن يريد الحج من الناس. وانظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٤/ ٥٧).

(٢) في (ش): «وشتت الجيوش».

(٣) انظر: «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (٢/ ١٨٩).

يكُن ذلكَ قبلَهُ في الإسلامِ، غيرَ أنَّهُ في بعضِ أيامِ الفواطمِ قرَّروا[١] معَ قاضِيهم أربعةً: قاضٍ مالكِيٌّ وشافعيٌّ وإسماعيليٌّ وإماميٌّ، ثم أبطلُوا تعدادَهم واقتصَرُوا على قاضٍ واحدٍ على مذهَبِ الإسماعيليَّةِ.

وكانَ مبدأُ تعدادِهم في أيَّامِ الظَّاهرِ، من قاضيهِ تاجِ الدِّينِ ابنِ بنتِ الأعزِّ، فإنَّه استنابَ عن نفسِهِ أربعَ نوَّابٍ من المذاهبِ الأربعةِ، بإذنِ الظَّاهرِ لهُ في ذلكَ، توسعةً على النَّاسِ، ثم بعدَ ذلكَ جعَلَ الظَّاهرُ الثَّلاثةَ الآخرينَ نُوَّابًا عنه معَ بقاءِ القاضي الكبيرِ ونائبِه، قالَ النَّاظِمُ:

وهْـوَ الَّـذي صيَّـرَ فـي مصـرَ القُضاة ... أربعَـةً كلٌّ دُعِـيْ قاضِـي القُضـاة[٢]

وسببُ ذلكَ توقُّفُ القاضي تاجُ الدِّينِ ابنُ بنتِ الأعزِّ عن تنفيذِ كثيرٍ من الأحكامِ، وتعطَّلت الأمورُ، ولَمَّا جعلَ القضاةَ أربعةً أنشَدَ بعضُهم ـ قيلَ: هوَ ناظمُ البردةِ البوصِيريُّ ـ:

لقَـدْ سَـرَّنا أن القُـضَاةَ ثَـلاثَةٌ ... لأنَّكَ تـاجَ الدِّيـنِ للقَـومِ رابِـعُ

بهـم بِنيَةُ الإسـلامِ صَحَّـتْ وكيـفَ لا ... تـصِـحُّ وهُـم أركـانُـهـا والطَّبائعُ

فكَـم رُخَـصٍ أبـدَوا لنـا وعَـزائـمًا ... هُـدِينا بهـا فهِـيَ النُّجـومُ الطَّوالِـعُ

فـلا تبتئـسْ إذ وسَّـعَ اللهُ فـي الهُدَى ... مَـذاهِـبَنـا بالعلـمِ[٣] واللهُ واسِـعُ

تفرَّقَـتِ الآراءُ والـدِّيـنُ واحِـدٌ ... وكلٌّ أتـى رأيًـا إلـى الحَـقِّ راجِـعُ

---

(١) في (خ): «قد رأوا».

(٢) دون نسبة في: «بدائع الزهور» لابن إياس (١/ ٣٢١).

(٣) في (ش): «في العلم».

فهذا اختِـلافٌ جرَّ للنَّـاسِ راحـةً كما اختلَفَت في الرَّاحتَيـنِ الأصابعُ[1]

ولَمَّـا مـاتَ تـاجُ الدِّيـنِ هـذا رآهُ الملِـكُ الظَّاهـرُ بيبـرسُ فـي نومِهِ بعـدَ موتِهِ، فسـألَهُ عـن حالـهِ فقـالَ: لـم أجِد عليَّ أشـدَّ مـن جعلـي القضـاةَ أربعةً، وقيـلَ لي: قـد فرَّقـتَ الكلمةَ.

ومـن حسـناتِ تـاجِ الدِّيـنِ ابـنِ بنـت الأعزِّ هـذا أنَّـهُ كانَتْ جـرَتِ العـادةُ من عهـدِ طـروقِ التَّتارِ البلادَ[2] أنـه يؤخَذُ من أملاكِ النَّاسِ في كلِّ سـنةٍ أجرةُ شـهرينِ، فقـامَ تـاجُ الدِّيـنِ فـي أيَّـامِ وزارَتـهِ في ذلـكَ حـقَّ القيـامِ حتَّى أبطلَـهُ، فبطـلَ[3] عن بـلادِ مصرَ إلـى الآنَ[4].

ومـن محاسِـنِ الظَّاهـرِ أنَّـه كانَ قـد أمـرَ بإراقةِ الخمـورِ وإبطـالِ المفسِـداتِ والخواطِـئ، وإسـقاطِ المكـوسِ، وشـدَّدَ فـي أمـرِ الخمـرِ، وهـدَّد مَـن يعصِرُهـا بالقتـلِ، وأسـقطَ الضَّمـانَ فـي ذلـكَ، وكان كلُّ يـومٍ بألـفِ[5] دينـارٍ بالقاهـرةِ وحدَهـا[6]، وسـارَت كتبُـهُ بذلـكَ فـي الأقاليـمِ[7].

---

(١) انظـر: «ديـوان البوصيـري» (ص٢٩٦)، وانظـر: «رفـع الإصـر عـن قضـاة مصـر» لابـن حجـر (ص٢٦٣).

(٢) «البلاد» من (خ).

(٣) «فبطل» من (خ).

(٤) انظر: «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (ص٢٥٩).

(٥) في (ش): «ألف».

(٦) أي: كان مـا يحصـل من بيـع الخمر والمنكر كل يـوم ألف دينار. فأبطلـه. انظر: «تاريـخ ابن الوردي (٢/ ٢١٨).

(٧) في (ش): «في الأوقاف».

قَالَ الذَّهبيُّ: كانَ الظَّاهرُ خليقًا بالملكِ، لولا ما كانَ فيهِ من الظُّلمِ، قالَ: واللهُ يرحمهُ فإنَّ لهُ يدًا بيضاءَ في الإسلامِ، ومواقفَ مشهودةً، وفتوحاتٍ معدودةً[1].

وكانَ قد أرادَ هدمَ أبنيةِ القَرافةِ كلِّها لكونها مدفنَ الموتى، وأفتاهُ العلماءُ على لسانٍ واحدٍ أنَّه يجِبُ على وليِّ الأمرِ هدمُ ذلكَ كلِّهِ، ثم شغلَهُ سفرُه بالشَّامِ للجهادِ، فماتَ بهِ رحمَهُ الله تعالى، وسيرَتُه ووقائعُهُ ممَّا تتحمَّلُ مجلداتٍ، سامحَهُ اللهُ تعالى.

[السَّعيد محمد ناصر الدِّين بركة الله]

ثم تولى الملكُ السَّعيدُ، محمَّدٌ ناصرُ الدِّينِ بركةُ اللهِ: ولَد الملكِ الظَّاهرِ، وعمرُهُ ثماني عشرةَ سنةً، إلى أن خُلِعَ وحبسَ بالكركِ، فماتَ بها سابعَ عشرَ ربيعٍ الآخرِ، سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وستِّ مئةٍ، وكانَت مدَّتُهُ سنتَينِ وثلاثةَ أشهرٍ.

وكانَ الأفرَمُ نائبه في أمورِهِ، وكانَ السَّعيدُ سلطانًا جليلًا كريمًا عادِلًا، مُحِسنًا لا يردُّ سائلًا، متواضِعًا بشوشًا حسَنِ الأخلاقِ، ليسَ في طبعِهِ عنفٌ ولا ظلمٌ، كثيرَ الشَّفقَةِ محبًّا لفعلِ الخيرِ، قليلَ الحُجَّابِ، يتصدَّى للأحكامِ بنفسِهِ.

ولَمَّا ماتَ بالكركِ سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وجدَ النَّاسُ عليهِ وجدًا كثيرًا، وعُمِلَ عزاؤه بسائرِ البلادِ، وخرجتِ الخونداتُ[2] حاسِراتٍ، وأسمَعنَ الملكَ المنصورَ

---

(١) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٣٠٦).

(٢) خوندات: جمع خوندة، أي: أميرة. انظر: «تكملة المعاجم العربية» لآنت دوزي (مادة: خوند) (٤/ ٢٤٤).

قلاوونَ الكلامَ القبيحَ من سبٍّ وغيرِهِ، وهو لا يتكلَّمُ، ونُسِبَ إليهِ أنه اغتالَهُ بالسمِّ، ووجدَت عليهِ زوجَتُهُ ابنةُ قلاوونَ وجدًا عظِيمًا، ولم تزَل باكيةً عليهِ حزينةً، لم تتزوَّج بعدَهُ إلى أن ماتَتْ سنةَ سبعٍ وثمانينَ.

[العادل بدر الدِّين سلامش]

ثمَّ تولَّى الملكُ العادلُ: أخوهُ، بدرُ الدِّين سلامشُ، وعمرُهُ نحو سبعِ سنينَ، وكانَ يُدعَى له ولقلاوونَ في الخطبةِ، فأقامَ مئةَ يومٍ، وعزِلَ في العشرينَ من رجبٍ في السَّنةِ المذكورةِ، وأرسَلَ للكرَكِ عندَ أخيهِ خضرٍ، ثم أحضرَهُ للقاهرةِ، وبقيَ بها خاملًا ذكرُهُ إلى أيَّامِ الملكِ الأشرفِ خليلٍ ولِدَ قلاوونُ، فجهَّزهُ معَ أخيهِ خضرٍ إلى قسطنطينيَّةَ إلى أن ماتَ بها.

* * *

[الدولة القلاوونية الصالحية]

ثـم جـاءَتِ الدَّولـةُ القلاوونيَّةُ الصَّالحيَّـةُ، وهيَ مـن الدَّولةِ التُّركيَّـةِ المتقدِّمةِ، فأوَّلهم:

[المنصورُ قلاوونُ]

الملـكُ المنصـورُ أبـو المعالـي قـلاوونُ: الصَّالحـيُّ النَّجمِـيُّ الألفِـيُّ، لأنَّـه اشـتُرِيَ بألـفِ دينـارٍ، فأقامَ إحدى عشـرةَ سـنةً وشـهرينِ ونصفًـا، وتوفِّـيَ بالقربِ مـن المَطريَّـةِ[1]، عنـدَ خروجِـهِ على نيَّةِ الجهادِ، في سـادسِ ذي القعدةِ، سـنةَ تسـعٍ وثمانيـنَ وسـتِّ مئةٍ.

وكانَ سلطانًا كريمًا حلِيمًا شُجاعًا مِقدامًا عادِلًا عَفِيفًا عن سفكِ الدِّماءِ، مائلًا إلى فعلِ الخيرِ والأمرِ بالمعروفِ.

وفي أوَّلِ أمرهِ خرَجَ عليهِ سنقُرُ الأشقرُ، وتسلطَنَ بدمشقَ، وخُطِبَ له بالشَّامِ، ثم وقعَ الصُّلحُ على التَّتارِ بعد أمورٍ طويلَةٍ.

وهـو الـذي بنـى البيمارِسـتانَ[2] في سـنةِ إحـدى وثمانيـنَ وسـتِّمئةٍ بالقاهرةِ، وجعلَـهُ مباحًـا للفقيـرِ والأميـرِ، والمدرسـةَ المنصوريَّـةَ والقبـةَ التي دُفِـنَ بها، وله المشـاهدُ الحسـنةُ والفتوحاتُ بسـاحلِ البحرِ الرُّومـيِّ[3]، منها طرابلـسُ كانتَ في

---

(١) المطرية: من قرى مصر عندها الموضع الذي به شجر البلسان الذي يستخرج منه الدّهن فيها، والخاصيّة في البئر، يقال إن المسيح اغتسل فيها، وفي جانبها الشمالي عين شمس القديمة مختلطة ببساتينها. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٥/ ١٤٩).

(٢) البيمارستان: المكان المعدُّ لمعالجة المرضى، كلمة دخيلة فارسية، مركّبة من (بيمار) بمعنى مريض، و(ستان) بمعنى مكان أو محلّ. انظر: «الألفاظ الفارسية المعرَّبة» (ص٣٣).

(٣) البحر الرومي: يعرف اليوم بالبحر الأبيض المتوسط.

أيـدِي الفرَنجِ من سـنةِ ثـلاثٍ وخمسِ مئـةٍ وعكا[١] وبيـروتَ وصيدا وغيـرَ ذلك[٢] رحمَـهُ اللهُ تعالـى، وبلغَـت مماليكُه اثني عشـرَ ألفًا.

وفي أيَّامِهِ وصلَ عسكرُ التَّتارِ إلى الشَّامِ، وحصلَ التَّرجيفُ والخوفُ، فالتقاهُم بعساكِرِهم، وهزمَهم شرَّ هزيمةٍ، وحصَلَ مقتلةٌ عظيمةٌ مشهُورةٌ[٣].

[الأشرف صلاح الدِّين]

ثمَّ تولَّى الملكُ الأشرَفُ صلاحُ الدِّينِ خليل[٤]: ولدُ قلاوونَ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وشهرَينِ، ثم خرَجَ للبحيرةِ للصيدِ، فقتلَهُ الجندُ بغتةً هناكَ شهيدًا، وأُدخِلَ السَّيفُ في دبُرهِ وشُقَّ إلى أعلاهُ، وتركَ طرِيحًا ثالثَ عشرَ شهرِ المحرَّمِ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ، ونقِلَ لتُربَتِهِ التي أنشأها بجوارِ المشهدِ النَّفيسِيِّ، قربَ السَّيدةِ نفيسَةَ، ثالثَ عشرَ صفرٍ سنةَ تاريخهِ.

وكانَ ملكًا شُجاعًا مقدامًا، لا يُعرَفُ من ملوكِ التُّركِ من يدانيهِ في الشَّجاعةِ، بديعَ الجمالِ، عليهِ رونَقُ الحُسنِ، وهَيبةُ السَّلطنةِ، صاحبَ سطوةٍ، قويَ البطشِ، تخافَهُ الملوكُ في أمصارِها، والوحوشُ الغاديةُ في آجامِها.

وفي أيَّامهِ توجَّهَ فحاصرَ عكا وفتحَها، وفتح غالبَ سواحلِ الشامِ، وافتتحَ قلعةَ الرُّومِ بَهَنسا[٥] ومَرْعَشَ[٦]، وفتحَ حصنَ صورٍ، وكانَ من أحصَنِ الأماكنِ، بحيثُ

---

(١) في (خ): «عكار».

(٢) «وغير ذلك» من (خ).

(٣) «مشهورة» من (خ).

(٤) «خليل» من (ش).

(٥) بهنسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل، يزعمون أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين، ينسب إليها جماعة من أهل العلم. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (١/ ٥١٦).

(٦) مرعش: من ثغور أرمينية. انظر: «معجم ما استعجم» (٤/ ١٢١٥).

عجزَ عنهُ السُّلطانُ صلاحُ الدِّينِ، ومِن يومئذٍ قُطِعَ دابرُ الفرنج من سواحل الشَّام، وصار أمرهم في إدبار، رحمه الله.

[النَّاصر محمد]

ثـمَّ تولـى الملـكُ النَّاصـرُ محمَّـدٌ: أخـوهُ، ابنُ قـلاوونَ، وعمرُه تسـعُ سـنينَ، فأقـامَ سـنةً واحـدةً، ثـم خلِعَ لصغرِهِ في شـهرِ المحرمِ، سـنةَ أربعٍ وتسـعينَ وسـت مئـةٍ، وأرسِـلَ للكركِ.

[العادلُ كَتْبُغا]

ثم تولى الملكُ العادلُ كَتْبُغا المنصوري: وأصلُه من سبيِ التَّتارِ، واستقرَّ بلاجينَ نائبًا[1]، فأقامَ سنتَينِ، ثم خُلِعَ[2] وهوَ بالشَّامِ، في شهرِ محرَّمٍ، سنةَ ستٍّ وتسعينَ وستِّ مئةٍ لَمَّا توجَّهَ لها ومهَّدَها، ثم رجعَ فلمَّا وصَلَ وادي فحمةٍ خرجَ عليهِ لاجينُ، فقتَلَ خواصَّ جماعتِهِ، فهربَ إلى دمشقَ، ودخلَ القلعةَ[3]، فأحاطَ لاجينُ على الخزائنِ والجيشِ.

وكانَ كتبغا ملكًا خيِّرًا ديِّنًا عاقلًا رحمَهُ الله تعالى.

[المنصورُ حسامُ الدِّينِ لاجينُ]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ حسامُ الدِّينِ لاجينُ المنصورُ: الذي كانَ نائبًا عن كَتْبُغا، وخلعَهُ، وولاه نيابةَ صَرْخَدَ[4] بالشَّامِ، فأقامَ لاجينُ في السَّلطنةِ سنتَينِ وسبعةً

---

(١) في (ش): «بلاجين باشا».

(٢) في (ش): «فخلع».

(٣) «ودخل القلعة» من (ش).

(٤) «صرخد» من (ش). وصرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٤٠١). وهي حاليًّا مدينة في =

وأربعينَ يومًا إلى أن قُتلَ ليلةَ الجمعةِ بعد العشاءِ بغتةً وهو يلعَبُ بالشَّطرنجِ[١]، حادي عشرَ ربيعِ الآخرِ، سنةَ ثمانٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ، ودفِنَ بالقَرافةِ.

وكان ملِكًا شُجاعًا مقدامًا عارِفًا عاقِلًا وقُورًا مُعظَّمًا في الدُّولِ.

وهو الذي وقفَ الأوقافَ على جامعِ طولونَ، وجعلَ فيهِ دروسَ تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ على المذاهبِ الأربعةِ وقراءاتٍ وميقاتٍ وطبٍّ، وهي مستمرَّةٌ إلى الآنَ.

وقد وليْتُ تدريسَهُ الفقهَ الحنبليَّ، فكُنْتُ أُظلَمُ في قبضِ الاستحقاقِ مِن بينِ سائرِ المدرِّسينَ بسببِ ظلمِ بعضِ المباشرينَ[٢]، مع أنَّ الواقفَ شرطَ التَّسويةَ بينهُم، هذا مع مزيدِ احتياجٍ، وتعدِّي نفعي افتاءً وتدريسًا وتصنيفًا، بخلافِ غيري.

وفي الحديثِ: «لا تقومُ الساعةُ حتى يكونَ أسعَدُ النَّاسِ بالدُّنيا لُكَعُ بنُ لُكَعَ[٣]». رواهُ إمامُنا أحمدُ والتِّرمذِيُّ[٤].

وكانَ قبلَ ذلكَ أمَرَ الأشرفُ خليلٌ بخنقِه، فخُنِقَ ثم عادَتْ روحُهُ فيهِ، حتى أرادَ الله له بما أرادَهُ ووعدَهُ به من الملكِ، وكانَ قد نذرَ إنْ نجَّاهُ اللهُ تعالى ليُعمرنَّ جامعَ طولونَ، وكانَ مختَفِيًا بمنارَتِهِ، فنجَّاهُ اللهُ تعالى وتسلطَنَ.

وفي أيَّامِهِ أُبطِلَ الثلجُ الذي كان ينقَلُ من الشامِ إلى مصرَ، وأبطل المكوسَ.

= محافظة السويداء جنوب سورية.

(١) في (ش): «الشطرنج».

(٢) في (ش): «مباشرة القاضي أحمد التوبي».

(٣) (لكع بن لكع) اللكع عند العرب: العبد، وقيل: هو اللئيم، وقيل: هو الوسِخ القذِر. انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (١٠/ ٣٩٤).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٣٠٣)، والترمذي (٢٢٠٩). وقال الترمذي: حديث حسن.

[النَّاصر محمَّد]

ثم تولَّى الملكُ النَّاصرُ محمَّدُ بن قلاوونَ: ثانيًا[١]، وعمرُهُ خمسَ عشرةَ سنةً[٢] للسَّلطنةِ ثانيًا، وتعطَّلتِ السَّلطنةُ إحدَى وأربعين يومًا إلى أن حضَرَ[٣] إلى القلعةِ، سادسَ جمادى الأوَّلِ، سنةَ ثمانٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ، فأقامَ عشرَ سنينَ وستَّةَ أشهرٍ.

وفي أوَّلِ ولايتِهِ سنةَ تسعٍ وتسعينَ وستِّمئةٍ قدمَ غازانُ ملكُ التَّتارِ في مئة ألفٍ إلى دمشقَ، فخرَجَ النَّاصرُ لقتالِهِ في نحوِ عشرينَ ألفًا، فانهزَمَ عسكَرُ النَّاصرِ، وقُتِلَ جماعةٌ من الأمراءِ، وملكَ غازانُ دمشقَ ما خلا قلعَتِها، وخُطِبَ له بدمشقَ، وجعلَ نيابةَ دمشقَ لقبجقَ، وقاسَى أهلُ دمشقَ شدائد من التَّتارِ، ثم أخذَ النَّاصرُ والأمراءُ[٤] في التَّجهيزِ لقتالِ التَّتارِ بعدَ أن جاءَهم الشَّيخُ ابنُ تيميةَ على البريدِ، وحثَّهم على ذلكَ، وجاءَ الخبرُ بعودِ غازانَ لبلادِه، وحضرَ قبجَقُ للنَّاصرِ طائعًا.

ثم بعدَ ذلكَ عادَ التَّتارُ ثانيًا، فخرجَ إليهم النَّاصرُ، وقاتلَهم فهزَمَهم أقبحَ هزيمةٍ، وقُتِلَ قطلوشاهُ مقدَّمُ التَّتارِ.

وكانَ في عسكرِ السُّلطانِ الشَّيخُ ابنُ تيميةَ، وظهرَ من شجاعَتِهِ ما لا يُوصَفُ، ولَمَّا اشتدَّ القتالُ قالَ السُّلطانُ: يا خالدُ بنَ الوليدِ! فقالَ لهُ الشيخُ: قل: يا مالكَ يومِ الدِّينِ، إيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نستَعينُ، فحصَلَ النَّصرُ للمُسلِمينَ[٥].

ومن يومئذٍ انكسَرَ شرُّ التَّتارِ، وصارَ أمرُهم في إدبارٍ.

---

(١) في (ش): «ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون».

(٢) «سنة» من (ش).

(٣) في (ش): «أحضر».

(٤) «والأمراء» من (خ).

(٥) انظر: «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٨).

وفي تلكَ الولايةِ في شعبانَ، سنةَ سبع مئةٍ، أُمِرَ بحمصَ[١] والشَّامِ اليهودُ بلبسِ العمائمِ الصُّفرِ والنَّصارَى بلبسِ الأزرَقِ.

ثم عوَّلَ النَّاصرُ على الحجِّ في شهرِ رمضانَ سنةَ ثمانٍ وسبعِ مئةٍ، ثم عرَّجَ على[٢] الكركِ، وأرسَلَ يخبرُ الأمراءَ أنَّه أقامَ بها، ورجَعَ عنِ السَّلطنةِ لَمَّا قصُرَتْ يدُهُ في مملكَتِه بوجودِ سلَّارَ[٣] وبيبرسَ؛ لأنَّه كان معهُما كالمحجورِ عليهِ، وكانَ ذلكَ تدبيرًا منهُ، وذلكَ في عاشرِ شوَّالَ، سنةَ ثمانٍ وسبعِ مئةٍ.

[المظفَّر ركن الدِّين بيبرس الجاشنكير]

فولَّوا الملكَ المظفَّرَ ركنَ الدِّينِ بيبرسَ الجاشنكِيرَ[٤] **المنصورَ**: إستادارَ[٥] النَّاصرِيِّ المذكورِ، ويعرَفُ بالعثمانيِّ، قلَّدَه الخليفةُ السَّلطنةَ، وألبسَهُ الخِلعة

---

(١) في (ش): «بمصر».

(٢) في (ش): «خرج إلى».

(٣) سلار البيري المنصوري كَبِير أُمَرَاء الصالحية والظاهرية، ثم صار نائبًا عن السلطان الناصر بالديار المصرية، وكان هو وبيبرس يتصرفان في شؤون الملك. انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٢/ ٣٢٩).

(٤) الجاشنكير: الذي يتذوَّق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفًا من أن يدسَّ عليه فيه سمٌّ ونحوه. وهو مركّب من لفظين فارسيين: (جاشنا) بجيم في أوّله قريبة في اللفظ من الشين، ومعناه الذّوق. والثاني (كير) وهو بمعنى المتعاطي لذلك، ويكون المعنى: الذي يذوق. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٣٢).

(٥) إستادار: لقبٌ على الذي يتولَّى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمتثل أوامره فيه. وهو مركّب من لفظتين فارسيتين: (إستذ)، ومعناها الأخذ. والثانية (دار)، ومعناها الممسك، فأدغمت الذال الأولى وهي المعجمة في الثانية وهي المهملة، فصار إستدار، والمعنى المتولِّي للأخذ. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٣٢).

السَّـوداءَ، والعِمامـةَ المـدوَّرةَ، وذلـك بإشـارةِ سـلَّار، وجلـسَ على تخـتِ الملكِ وهـو يبكِـي، فأقـامَ إحـدى عشـرَ شـهرًا، بعـد أن خلَعَ علـى الأمـراءِ ألفَيـن ومئتي خِلعـةٍ، وأرسـلَ يتعـرَّضُ للنَّاصـرِ ويُطالبُـه بمـا كانَ معـهُ مـن الأمـوالِ والذَّخائـرِ، والنَّاصـرُ يعتـذِرُ فـلا يَقبَـلُ منهُ، فضـاقَ صدرُهُ وأرسـلَ لمماليـكِ أبيهِ نائبِ دمشـقَ وحلـبَ وطرابلـسَ وصفـدٍ فأجابوهُ.

ثم طلبَ الملكُ النَّاصرُ السَّلطنةَ وبايعَهُ جماعةٌ من الأمراءِ، فاستدعى بيبرسُ بالشَّيخِ زين الدِّين ابنِ المرحِّلِ، والشَّيخِ شمسِ الدِّينِ ابن عَدلانَ، واستشارَهما فأشاروا عليهِ بتجديدِ العهدِ من الخليفةِ وتخليفِ الأمراءِ ففعلَ ذلكَ، وكتبَ الخليفةُ العهدَ وحثَّ فيهِ الجندَ على قتالِ الملكِ النَّاصرِ خوفَ المشقَّةِ[1] على المسلمِينَ وتفرُّقِ كلِمَتهم.

ثـمَّ إنَّ الملـكَ النَّاصـرَ صـارَ مـن الكركِ إلـى دمشـقَ، فانتظَـمَ أمرُهُ، ثـم توجَّهَ إلـى مصـرَ بالعسـاكرِ، فخلَـعَ بيبـرسُ نفسَـهُ، وهـرَبَ إلـى الصَّعيـدِ وأرسـلَ يقولُ للنَّاصـرِ: إنَّنـي خلعْـتُ نفسـي مـن الملكِ، فـإن حبَسـتَني عـددْتُ ذلك خلـوةً، أو نفيتَنـي عـددْتُ ذلـكَ سـياحةً، أو قتَلتَنـي كانَ ذلكَ شـهادةً. فعفَـى عنـهُ وولَّاهُ نيابةَ صِهْيونَ[2].

فخـرَجَ بيبـرسُ ولـم يحضُـر إلـى السُّـلطانِ، فشـقَّ ذلـك عليـه وأرسَـلَ النَّاصرُ خلفَـهُ مـن أحضـرَه مـن قـربِ غزَّةَ، ثـم أخـذَ يوبِّخهُ ويعـدِّدُ لـه ذنوبَـهُ، ثم أمـرَ بخنقِهِ

---

(١) في (ش): «شق العصا».

(٢) صهيون: موضع معروف بالبيت المقدس، محلة فيها كنيسة صهيون، وصهيون أيضًا: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشَّام من أعمال حمص. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٤٣٦).

بحضرَتِهِ[١] في سادسِ شهرِ رمضانَ، وقيلَ: بشوَّالٍ سنةَ تسعٍ وسبعِ مئةٍ، ويقالُ[٢]: ودفنَهُ بمدرسةِ البيبرسيَّةِ.

وبيبرسُ هذا[٣] هو الذي عمَّرَ المدرسةَ[٤] البيبرسيَّةَ بالدَّربِ الأصفرِ داخلَ بابِ النَّصرِ، موضعَ دارِ الوزارةِ، سنةَ سبعٍ وسبعِ مئةٍ، والشُّبَّاكُ الكبيرُ الذي بها كانَ بدارِ الخلافةِ ببغدادَ، وكانتِ الخلفاءُ تجلسُ إليهِ، وأمرَ النَّاصرُ بغلقِها، ثم أمرَ بفتحِها، وهو الذي جدَّدَ الجامعَ الحاكمَ بعدَ الزَّلزلةِ.

وأخذَ النَّاصرُ يعاقِبُ سلَّارَ ليظهِرَ مالَهُ ففتحَ سَربًا تحتَ الأرضِ، فأخرجَ منهُ سبائكَ ذهبٍ وفضةٍ وعدَّةَ جُربٍ، في كلِّ جرابٍ عشرةُ آلافِ دينارٍ، فحمَّلُوا من ذلكَ السِّربِ أكثرَ من خمسينَ بغلًا منَ الذَّهبِ والفضَّةِ، ثم أخرَجَ من موضعٍ آخرَ سبعًا وعشرينَ خابيةٍ من[٥] ذهبٍ، ومن الجواهرِ شيئًا كثيرًا، وأخرجَ ألفَي حياصةٍ[٦] مجوهرةٍ بالفُصوصِ، وألفَي قلادةٍ منَ الذَّهبِ.

ثم حبسَهُ النَّاصرُ حتى ماتَ جوعًا، فأكلَ ساقَ خفِّهِ، ووجِدَ عاضًّا على السَّرموجةِ[٧].

---

(١) «بحضرته» من (ش).

(٢) «ويقال» من (ش).

(٣) «هذا» من (خ).

(٤) «المدرسة» من (خ).

(٥) «من» من (خ).

(٦) الحياصة: المِنطقة، وهي ما يشد به الإنسان وسطه، يلبسها الملك للأمراء عند إلباسهم الخلع والتشاريف؛ وهي تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصّع بالفصوص، ومنها ما ليس كذلك. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٢/ ١٤٢).

(٧) السَّرموجة أو السَّرموزة: كلمة فارسية معربة؛ وأصلها في الفارسية: سَرْمُوزه؛ مركبة من: سَرْ بمعنى: =

وكانَ في شؤنتِه[١] يومَ موتِهِ من الغلالِ ما يزيدُ على أربعمئةِ ألفِ أردَبٍّ[٢].

قال ابن الجوزيُّ[٣]: وجِدَ لسلَّارَ بعد موتِهِ غيرُ ما أخِذَ منه في حياتِهِ من الذَّهبِ ثمانُ مئةِ ألفِ ألفِ دينارٍ، غيرَ الجواهرِ والحلي[٤] والخيلِ والسلاحِ، وأنكرَ الذَّهبيُّ ذلكَ[٥]، وقالَ: هذا كالمستَحيلِ[٦].

[الناصر محمد بن قلاوون]

ولما عادَ الملكُ النَّاصرُ محمدُ بنُ قلاوونَ: ثالثًا[٧] للسلطنةِ سنةَ تسعٍ واستقرَّ أمرُه بها شرَعَ يعاتِبُ النَّاسَ في أمرِه، فقالَ للخليفةِ: هل أنا خارجيٌّ وبيبرسُ من سلالةِ العبَّاسِ، وقالَ للقاضي علاءِ الدِّينِ الذي كتبَ العهدَ: يا أسودَ الوجهِ!

وقالَ للقاضي بدرِ الدِّينِ ابن جماعة: كيفَ تفتي المسلِمِينَ بقتالي؟ وعزلَهُ عن القضاءِ.

ووبَّخَ ابنَ المرحِّلِ، وجاءَ ابنُ عدلانَ يستأذنُ، فقالَ النَّاصرُ للدوادارِ[٨]:

= فوق، ومن مُوزَه بمعنى الخف؛ والمعنى الكلي: نوع من الأحذية يُلبس فوق الخف، أو الخف الواسع يلبس فوق الخف. انظر: «المعجم العربي لأسماء الملابس» لرجب إبراهيم (ص٢٣٢).

(١) الشونة: مخزن الغلة. مصرية. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شنن).

(٢) انظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٩/ ١٨).

(٣) في (ش): «الجزري».

(٤) في (ق): «والحلق».

(٥) انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٤٩١).

(٦) «وقال هذا كالمستحيل» من (ش).

(٧) في (ش): «ثانيًا».

(٨) في (ش): «للدويدار». والدوادارية: مهمتهم تبليغ الرسائل عن السلطان، وإبلاغ عادة الأمور، وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى الباب، وتقديم البريد هو وأمير جاندار وكاتب =

قل لهُ: أنتَ أفتيْتَ أنَّه خارجيٌّ وقتالُه جائزٌ، ما لكَ عندَهُ دخولٌ[١].

وأرسلَ أحضرَ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ من حبسِهِ بالإسكندريةِ، وكان قد سعَى فيهِ ابن عدلانَ وغيره[٢] فاستفتى النَّاصرُ ابنَ تيميةَ ليعمَلَ فيهم بفتياهُ، فنهاهُ ابن تيميةَ وقالَ لهُ: إنك إن عدمْتَ هؤلاءِ لم تلقَ خيرًا منهُم، مع أنهم كانوا قد[٣] سعَوا في حبسِ ابنِ تيميةَ عندَ بيبرسَ وسجَنوه[٤] بالقلعةِ، وبحبسِ الديلَمِ وبإسكندريةَ، فكانَ ابنُ عدلانَ يقولُ: لم نرَ أفتى من ابنِ تيميةَ، لم نبقِ ممكنًا في حقِّهِ، ولما قدرَ هو عفَى[٥].

ثم لَمَّا جلسَ[٦] السُّلطانُ وعندَهُ العلماءُ وقضاةُ مصرَ والشامِ دخلَ الوزيرُ وأنهى: أنَّ أهلَ الذِّمةِ بذلُوا للدِّيوانِ في كلِّ سنةٍ سبع مئةَ ألفِ دينارٍ على أن يعودُوا للبسِ العمائمِ البيضِ، فسأَلَ السُّلطانُ العلماءَ في ذلكَ فسكَتُوا، فقامَ ابن تيميةَ وردَّ على الوزيرِ مقالتَهُ[٧]، وزجرَ السُّلطانَ، فأصغَى إليهِ ولم يظفَر أهلُ الذِّمَّةِ بمرادِهم، ثم فعِلَ ذلك بهم في بغدادَ اقتداءً بالنَّاصرِ ملكِ مصرَ، وهذا من حسناتِ ابنِ تيميةَ[٨].

= السر، ويأخذ خط السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب. انظر: «مسالك الأبصار» لابن فضل الله القرشي (٣/ ٤٥٦).

(١) انظر: «السلوك» للمقريزي (٢/ ٤٤٤)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١١٤).

(٢) في (خ): «غيره».

(٣) «قد» من (خ).

(٤) في (ش): «وحبسوه».

(٥) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٦١).

(٦) في (ش): «حبسَ».

(٧) «مقالته» من (ش).

(٨) انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص٢٩٧)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٦٠).

واستمرَّ الملكُ النَّاصرُ في السَّلطنةِ، وتمكَّنَ منها، فعمَّرَ الجامعَ الجديدَ بمصرَ، عامَ اثني عشرَ وسبع مئةٍ، والقصرَ بالقلعةِ سنةَ أربعَ عشرةَ، وجامعَ القلعةِ سنةَ ثمانَ عشرةَ، والمدرسةَ التي[1] بين القصرَينِ سنةَ ثلاثٍ وسبع مئةٍ في سلطنَتهِ الثَّانيةِ.

وسافرَ إلى الحجازِ الشَّريفِ بالرَّكْبِ سنة تسعَ عشرةَ.

وحفرَ الخليجَ الحاكميَّ[2] النَّاصريَّ المتوصِّلِ إلى خانكاه[3] سَرْياقَوْس[4]، لَمَّا بنى بها الخانقاه سنةَ خمسٍ وعشرينَ وسبع مئةٍ، فحُفِرَ[5] في شهرينِ، وعمَّرَ عليه القناطرَ، وكذلك القناطر[6] بالجيزةِ وغيرَ ذلكَ من ميادينَ وقصورٍ وجوامعَ، وعزمَ على أن يجرِيَ النِّيلَ من تحتِ القلعةِ، فقيلَ لهُ: إنَّه يحتاجُ إلى ثلاثِ خزائنَ من المالِ، ولا يُدرَى هل يصحُّ أو لا، فرجَعَ عن ذلكَ.

وفي أيَّامِهِ كثرَتِ العمارةُ من قبَّةِ الشَّافعيِّ إلى بابِ القَرَافةِ، وزيدَ في مباني القاهرةِ مقدارُ نصفِها، وطالَتْ أيَّامُهُ وتمَّ سعدُهُ، وأطاعتهُ البلادُ والعبادُ، وسافرَ أيضًا بالرَّكبِ للحجازِ الشَّريفِ عامَ اثنينِ وثلاثينَ وسبع مئةٍ، وفي أيَّامِهِ حدثَ التَّذكيرُ يومَ الجمعةِ، ليتهيَّأَ النَّاسُ للصَّلاةِ.

---

(١) «التي» من (خ).

(٢) «الحاكمي» من (ش).

(٣) الخانقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاة والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، معرب: فانه كاه، قال المقريزي: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربع مئة، وجعلت لمتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. انظر: «تاج العروس» (مادة: خنق).

(٤) سرياقوس: بليدة في نواحي القاهرة بمصر. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٢١٨).

(٥) في (خ): «فحفره».

(٦) «وكذلك القناطر» من (خ).

وفي أيَّامِهِ انقطعَتِ الخطبةُ للخلفاءِ العباسيينَ، واكتُفِيَ بمجرَّدِ اسمِ السُّلطانِ إلى يومنا هذا، وذلكَ أنَّه في سنةِ ستٍّ وثلاثينَ وسبعِ مئةٍ قبَضَ على الخليفةِ، واعتقلَهُ بالبُرجِ، ومنعَهُ من الاجتماعِ بالنَّاسِ، ثم نفاهُ في سنةِ سبعٍ إلى قوصٍ[1] هو وأولادُهُ وعيالُهم، وكانوا قريبَ مئةِ نفرٍ، وسببُه أنَّه رُفِعَ إليه قصةٌ عليها خطُّ الخليفةِ: يحضِرُ السُّلطانَ لمجلسِ الشَّرعِ الشَّريفِ، وكانَ في طولِ مدَّةِ حبسِهِ ونفيِهِ يُخطَبُ له على المنابرِ، فلما ماتَ عهِدَ إلى ابنه أحمدَ بالخلافةِ، فلم يرضَ السُّلطانُ، وبايعَ إبراهيمَ ابنَ أخيهِ، وهو الذي كان يمشِي بين عمِّهِ الخليفةِ وبين السُّلطانِ بالنَّميمةِ، وكانَ غيرَ صالحٍ للخلافةِ لأمورٍ قبيحةٍ يتعاطاها، فقامَ قاضي القضاةِ ابنُ جماعةَ في صرفِ رأي السُّلطانِ عن إقامةِ الخطبةِ باسمِ إبراهيمَ فلم يفعَل، فاتَّفقَ الرَّأيانِ على تركِ الخطبةِ للاثنينِ، واكتفيَ فيها بمجردِ اسمِ السُّلطانِ. ومن هناكَ انقطعَتِ الخطبةُ للخلفاءِ والدُّعاءُ لهم على المنابرِ كافَّةً.

وكانَت وفاةُ النَّاصرِ محمَّدٍ يومَ الأربعاءِ، تاسعَ عشرَ ذي الحجَّةِ، سنةَ إحدى وأربعينَ وسبعِ مئةٍ، ودُفِنَ على والدِه بالقبَّةِ المنصوريَّةِ، فكانَت مدَّتهُ الأخيرةُ اثنينِ وثلاثينَ عامًا وسبعةَ أشهرٍ ونصفَ شهرٍ، فصارَت جملَةُ ولايتِهِ أربعًا وأربعينَ سنةً وخمسةَ عشرَ يومًا، ولم يبلُغ مدَّتهُ أحدٌ من السَّلاطينِ المتولِّينَ بمصرَ[2]، لا قبلَهُ ولا بعدَهُ.

وما ألطَفَ قول بعضِهم في موتِهِ:

---

(١) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٤١٤). وحاليًا هي مدينة تابعة إداريًّا لمحافظة قنا في مصر.

(٢) في (ش): «سلاطين مصر».

قلْـتُ لبـدرِ الأفـقِ[١] لمَّـا بدا ووَجـهُـــهُ منكسـفٌ باسـرْ[٢]
مالـكَ لا تُسـفِرُ عـن بـهـجَـةٍ فــقالَ مـاتَ الملـكُ النَّاصـرْ

وكانَ ملكًا عظيمًا مُطاعًا، ذا بطشٍ ودهاءٍ وحزمٍ شديدٍ، وكيدٍ مديدٍ، ذكيًّا عاقِلًا، كريمًا شُجاعًا[٣]، لا يحبُّ الظُّلمَ، ويتروَّى في الأمرِ إذا أرادَ فعلَهُ، وكانَ يصبِرُ الدَّهرَ الطَّويلَ على الإنسانِ، وهوَ يكرَهُهُ.

هادتهُ الملوكُ وراسلَتهُ، وكانَ كلَّما بَعُدَ الإنسانُ عن بلادِه وجدَ مهابَتَهُ أكثَرَ ومكانتَهُ أكبرَ، وعندَما انتهَت سعادَتهُ وخُطِبَ له بالرُّومِ، وضربَتِ الدَّراهمُ والدَّنانيرُ باسمِهِ ببغدادَ أدركَتهُ المنيَّةُ، فسبحانَ من لا يدومُ إلَّا ملكُهُ.

ويقالُ: وجِدَ بخَطِّه ما صورَتهُ: أرزاقُ الفقهاءِ صدقةٌ، أموالُ الظَّلمةِ مُكدَّرةٌ بشروطِ الواقفِينَ، منغَّصةٌ بمننِ النظَّارِ والمباشرِينَ، مَنْ باشرَها أكلَها صدقةً، ومَنْ لم يُباشِرها أكلَها حرامًا، وكتبهُ محمدُ بن قلاوونَ.

وتركَ عدَّةَ بنينَ تولوا السَّلطنَةَ بعدَهُ.

[المنصورُ أبو بكرٍ]

فتولَّى الملكُ المنصورُ أبو بكرٍ: ولدُهُ، وأنشدَه الشُّعراءُ:

إذا النَّاصِـرُ السُّـلطانُ راحَ لرَبِّـهِ فللَّـــهِ منـــهُ قائـــمٌ بمُهنَّـــدِ
وقَـد عقَـدَ الإسـلامُ إجماعَهُـم عَلَى أبـي بكْـرِ الصِّدِّيـقِ بعـدَ محمَّـدِ

---

(١) في (ش): «الدين».

(٢) في (ش): «منكسر ما يسر».

(٣) «كريمًا شجاعًا» من (ش).

فأقامَ شهرَين وأيَّامًا، وخُلعَ في العشرِ الأخيرِ من صفرٍ، عامَ اثنينِ وأربعينَ، لفسادِهِ وشربِهِ الخمورَ، حتى قيلَ: إنَّهُ جامعَ زوجةَ أبيهِ، ونفي هو وإخوتُهُ إلى قوصٍ، وتهتكَتْ[١] حريمُ أبيهِ النَّاصرِ، وكثُرَ البكاءُ والعويلُ بالقاهرةِ، ثم قُتِلَ بقُوصٍ، وكانَ ذلك مجازاةً لِمَا فعلَهُ والدُه بالخليفةِ.

[الأشرفُ كجك]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ كجك: أخوهُ، وعمرُهُ ستُّ سنينَ، فأقامَ ثمانيةَ أشهرٍ، والأمرُ في دولَتِهِ لقَوْصُونَ[٢] وبَشْتَكَ[٣]، فعزلوهُ، وتوفِّيَ بقُوصٍ بعدَ أربعِ سنينَ.

[النَّاصر أحمد]

ثمَّ تولَّى الملكُ[٤] النَّاصرُ أحمدُ: أخوهُ، وكانَ مُقِيمًا بالكركِ، فحضرَ إلى مصرَ في عاشرِ شوَّالٍ عامَ اثنينِ وأربعينَ وسبعِ مئةٍ، وكانَ الذي عقدَ المبايعةَ بينَهُ وبينَ الخليفةِ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ السُّبكيُّ، فأقامَ في الملكِ في مصرَ أربعينَ يومًا، وظلمَ النَّاسَ وعسفَ بهم، ثم بدا لهُ أن يترُكَ مصرَ ويقيمَ في الكركِ

---

(١) في (خ): «وانتهك».

(٢) قوصون: الأمير الكبير النائب سيف الدين الساقي الناصري، كان أميرًا وهو في عداد الملوك الكبار، كان أولًا من أكبر خواص الملك الناصر، وزوجه ابنته، ولما مات السلطان الملك الناصر قام هو في صف المنصور أبي بكر، وقام في صف الناصر أحمد الأمير سيف الدين بشتاك، واختلفا، وفي الآخر كان الأمر على ما أراده قوصون، ثم خلعه، وأجلس أخاه الأشرف كجك. ثم لما استلم الناصر الملك سجنه، ثم قتل في السجن. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٤/ ١٣٦).

(٣) في (ش): «ويشتك». بَشْتَك أو بَشْتاك: الأمير سيف الدين الناصري، قُتل في الحبس في أول سلطنة الأشرف كُجُك، سنة (٧٤٢هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (١/ ٦٩٠).

(٤) «الملك» من (ش).

ففعَلَ ذلكَ، وأخذَ الأموالَ والذَّخائرَ، ثم رجَعَ للكركِ، فاضطربَتْ أحوالُ النَّاسِ وكاتبوه في القدومِ، فأبى فأجمَعُوا على خلعِهِ، فخُلِعَ وهو[1] بها، ثمَّ قُتلَ سنةَ خمسٍ وأربعينَ وسبعِ مئةٍ[2].

ثم تولَّى الملكُ الصَّالحُ إسماعيلُ أبو الفدا أخوه، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وشهرَينِ وخمسةَ عشرَ يومًا، إلى أن توفِّيَ رابعَ شهرِ[3] ربيعٍ الآخرةِ، سنةَ ستٍّ وأربعينَ وسبعِ مئةٍ، وعمرُهُ نحو العشرينَ سنةً.

وفيه يقولُ الصَّلاحُ الصَّفديُّ[4]:

مضَى الصَّالحُ المرجُوُّ للبأسِ والنَّدَى ... ومَن لم يزَلْ يلقَى المُنَى بالمنائحِ

فيا مُلكَ مصرَ كيفَ حَالُكَ بعدَهُ ... إذا نحنُ أثنَينا عَليكَ بصالحِ[5]

وهوَ الذي وقفَ بيسوسَ وسَنْدَبِيسَ[6] على كسوةِ الكعبةِ.

وكانَ في أوَّلِ ولايتِهِ أرسلَ لمحاصرةِ أخيهِ بالكركِ، فجزَّ رأسهُ في سنةِ خمسٍ، وأُتِيَ بِهِ إليهِ[7].

---

(١) «وهو» من (ش).

(٢) «وسبع مئة» من (خ).

(٣) «شهر» من (ش).

(٤) انظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٠/ ٩٦)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١١٧).

(٥) من قوله: «سنة وفيه يقول الصلاح...» إلى هنا من (خ).

(٦) بيسوس: قرية بشرقي مصر. وسندبيس: قرية من عمل الشرقية بمصر. انظر: «تاج العروس» (١٥/ ٤٥٩)، و(١٦/ ١٥٤).

(٧) «إليه» من (خ).

[الكامل شعبان]

ثم تولَّى الملكُ[١] الكاملُ شعبان: أخوهُ، في ربيعِ الآخرِ، وفيهِ يقولُ ابنُ نباتةَ ـ شعر ـ[٢]:

جَبينُ سُلطانِنا المرَجَّى مُبارَكُ الطَّالِعِ البَدِيعِ

يا بهجَةَ الدَّهرِ إذ تَبدَّى هِلالُ شعبانَ في ربيعِ[٣]

فأقامَ سنةً وشهرًا وسبعةَ عشرَ يومًا، فأساءَ السِّيرةَ، ثم حبِسَ وخلِعَ ووضعُوهُ مكانَ أخيهِ أمير حاجي، وأُخرِجَ أمير حاجي وتسلطَنَ، فجلسَ على سماطِ[٤] شعبانَ، وتغذى شعبانُ ممَّا عمِلَ الأميرُ حاجي بالحبسِ، ثمَّ بعدَ ذلك قُتِلَ.

[الملك المظفر حاجي]

ثمَّ تولَّى الملكُ المظفَّرُ حاجي: أخوهُ، فأقامَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ وعشرةَ أيامٍ، ثم خُلِعَ وذُبحَ في ثاني عشرَ شهرِ رمضانَ سنة ثمانٍ وأربعينَ وسبع مئةٍ، وكانَ سيِّءَ التَّدبيرِ، قبيحَ السِّيرةِ، يؤثِرُ صحبةَ الأوباشِ[٥] على أربابِ الفضائلِ.

---

(١) «الملك» من (ش).

(٢) انظر: «ديوان ابن نباتة» (ص٣٢٠). وانظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٠/ ١١٦)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١١٧).

(٣) من قوله: «في ربيع الآخر...» إلى هنا من (خ).

(٤) السِّماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام. انظر «تاج العروس» للزبيدي، و«المعجم الوسيط» (مادة: سمط).

(٥) الأوباش: هم الأخلاط من الناس السَّفلة، مفردها: الوبش. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: وبش).

[الناصر حسن]

ثمَّ تولَّى الملكُ النَّاصرُ حسنٌ: أخوهُ، وعمرُهُ إحدَى عشر سنةً، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وتسعةً وخمسينَ يومًا ثم خُلعَ، وحُبِسَ بالقلعةِ.

[الصالح صالح]

ثم تولَّى الملكُ الصَّالحُ صالحٌ: أخوه، وهو الثَّامنُ ممَّن تسلطَن من أولادِ الملكِ النَّاصرِ محمَّد بن قلاوونَ، فأقامَ ثلاث سنينَ وثلاثةَ أشهرٍ، ثم خُلعَ وحُبسَ في شوالٍ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وسبعِمئةٍ، ولم يكُن له منَ السَّلطنةِ إلَّا الاسمُ لغلبةِ شيخو[1] وطازَ[2] وصرغتمش[3] على الأمرِ، فكانوا أهلَ حَلِّ المملكةِ وعَقدِها.

[الناصر حسن]

ثم عادَ الملكُ النَّاصرُ حسنٌ ثانيًا للسلطنةِ، فأقامَ ستَّ سنينَ وسبعةَ أشهرٍ وأيَّامًا، وجملَةُ مدَّتهِ عشرُ سنينَ وأربعةُ أشهرٍ وأيَّامًا.

---

(١) في (ش): «وشيخون». شيخو: هو الأمير الكبير الأتابك سيف الدين الناصري، توفي سنة (٧٥٨هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٥٣١).

(٢) طاز: ابن قُطْغاج، الأمير سيف الدين أمير مجلس، أول ما اشتهر ذكره في أيام الصالح إسماعيل، ولم يزل أميراً إلى أن خلع الكامل شعبان، وأقيم المظفر حاجي، فكان هو أحد الأمراء الستة أرباب الحل والعقد.
ولما خلع المظفر، وأقيم السلطان الملك الناصر حسن زادت وجاهته وحرمته. توفي بدمشق، سنة (٧٦٣ هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٥٦٧).

(٣) صرغتمش: الأمير سيف الدين الناصري، رأس نوبة، انفرد بتدبير الملك، وعظم أمره وزاد مكانة، وعزل القضاة بمصر والشام، وغير النواب الكبار، وخضع السلطان الناصر حسن له وصبر عليه وأرخى به طول الإمهال إلى أن أمسكه، سنة (٧٥٩هـ)، وكان ذلك آخر العهد به. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٥٥٧).

ثم حصلَتْ فتنةٌ بينَهُ وبينَ مملوكِه يلبُغا[١]، فتقابلا[٢]، فانكسَرَ السُّلطانُ منه[٣]، وهربَ يريدُ الشَّامَ، فمُسِكَ وقُتلَ عندَ مملوكِهِ يلبُغا[٤] النَّاصريِّ، في جمادى الأُولى عامَ اثنين وستِّينَ وسبعِ مئةٍ.

وفي أيَّامهِ بنيَ جامعُ شيخونَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ، وخانقاه شيخونَ سنةَ ستٍّ وخمسينَ وخانقاه صرغتمش سنةَ سبعٍ وخمسينَ، ومدرسَةُ السُّلطانِ حسنٍ بالرُّميلةِ[٥] سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وسبع مئةٍ.

قالَ المقريزيُّ: وليسَ ببلادِ الإسلامِ مسجدٌ[٦] يحكِيها في كبرِ قالبِها، وحسنِ هندامِها، وضخامةِ شكلِها، أقامَ بناؤها ثلاثَ سنينَ متواليةً، وأُرصِدَ لمصروفِها كلَّ يومٍ نحو ألفِ[٧] مثقالِ ذهبٍ[٨].

وسقطَت منارَتُها التي عندَ البابِ، فهلكَ بمكتبِها ثلاثُ مئةِ نفرٍ من الأيتامِ وغيرِهم، فلهَجَ النَّاسُ بزوالِ دولتِهِ، فقتِلَ بعدَ ذلكَ بثلاثةٍ وثلاثين يومًا كما مرَّ.

---

(١) في (خ): «كتبغا». يلبغا: الأمير الكبير سيف الدين اليحيوي الساقي الناصري نائب حماة وحلب ودمشق، ابن الأمير سيف الدين طابُطا، من أكبر الأمراء الخاصكية، ولم يكن عند أستاذه الملك الناصر محمد أعز منه. حبس وقتل خنقًا. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٥٨٤).

(٢) في (ش): «فتقاتلا».

(٣) «منه» من (ش).

(٤) في (خ): «كتبغا».

(٥) الرميلة: تحت قلعة الجبل. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٧٦).

(٦) في (ش): «معبد».

(٧) «نحو ألف» من (خ).

(٨) انظر: «حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ٢٦٩).

وقد وليْتُ مشيخةَ هذه المدرسةِ وباشرتُ فيها التَّدريسَ، فنازَعني فيها بالدُّنيا رجلٌ يقالُ لهُ: إبراهيمُ الميمونيُّ[1]، لهُ من الوظائفِ كلَّ يومٍ نحوُ ألفِ[2] عثمانيٍّ، ومن العجبِ أن بيدِه عدَّةَ تداريسَ في الفقهِ والفرائضِ والحديثِ، وهو لا يعرِفُ القديمَ من ذلكَ ولا الحديثَ، ولكِن مِنْ عيبِ الدُّنيا لا تعطِي كلَّ أحدٍ ما يستحِقُّهُ، وفي الحديثِ: «إذا وسِّدَ الأمرُ لغيرِ أهلِهِ فانتظروا السَّاعةَ»، رواهُ البخاريُّ[3].

وكانَ السُّلطانُ حسنٌ سلطانًا[4] شُجاعًا مِقدامًا كَريمًا عاقِلًا حازِمًا[5] مدبِّرًا سيوسًا كثيرَ[6] الصَّدقاتِ.

---

(١) قال المحبي في ترجمة المصنف: ثم تولى المشيخة بجامع السلطان حسن ثم أخذها عنه عصريه العلامة إبراهيم الميموني ووقع بينهما من المفاوضات ما يقع بين الأقران وألف كل منهما في الآخر رسائل. انظر: «خلاصة الأثر» (٤/ ٣٥٨). وترجم للشيخ إبراهيم الميموني فقال: الشيخ إبراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي الملقب برهان الدين الميموني الإمام العلامة الفهامة المحقق المدقق خاتمة الأساتذة المتبحرين، كان آية ظاهرة في علوم التفسير والعربية، أعجوبة باهرة في العلوم العقلية والنقلية، حافظًا متفننًا متضلعًا من الفنون، مشهورًا خصوصًا عند القضاة وأرباب الدَّولة، وأبلغ ما كان مشهورًا فيه علم المعاني والبيان حتى قل من يناظره فيهما...
وبالجملة فإنه مما اتفقت كلمة الكل على تفرده في عصره وتوحده في وقته، وتصانيفه كثيرة منها: «حاشية على المختصر»، و«حاشية على المواهب اللدنية»، و«حاشية على تفسير البيضاوي» وغيرها، وتوفي يوم الثلاثاء (١٠٧٩). انظر: «خلاصة الأثر» (١/ ٤٥).

(٢) في (ش): «خمس مئة».

(٣) رواه البخاري (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «سلطانًا» من (ش).

(٥) «حازمًا» من (ش).

(٦) في (ش): «ذا شهامة ووقار كثير البر و».

وفي أيَّامِهِ سنةَ ستٍّ وخمسينَ قالَ السيوطيُّ في «تاريخِهِ»: رسِمَ بضربِ فلوسٍ جددٍ على قدرِ الدِّينارِ ووزنِهِ، وجعِلَ كلُّ أربعةٍ وعشرينَ فلسًا بدرهمٍ، وكانَ قبلَ ذلك العتقِ كلُّ رِطلٍ ونصفٍ بدرهمٍ، قالَ: ومن هنا يُعرَفُ مقدارُ الدَّراهمِ النُّقْرةِ[1] التي جعَلَها شيخو وصرغتمش والسُّلطانُ حسنٌ لأربابِ الوظائفِ، قالَ: فالمرادُ بالدِّرهمِ ثلثا رطلٍ من الفلوسِ[2].

[المنصور محمَّد بن حاجي]

ثم تولى الملكُ المنصورُ محمَّدُ بن حاجي بنُ الناصرِ قلاوونَ: بعدَ عمِّهِ حسنٍ، فأقامَ سنتين وثلاثةَ أشهرٍ، ثم خلعَهُ يلبُغا سنةَ أربعٍ وستِّينَ، وحُبِسَ بالقلعةِ إلى أن ماتَ، في[3] سنةِ إحدى وثمانمئةٍ، وصلَّى عليه برقوقُ[4].

[الأشرف شعبان بن حسين]

ثم تولى الملكُ الأشرفُ شعبانُ بنُ حسينِ بنِ النَّاصرِ بنِ قلاوونَ، وعمرُهُ عشرُ سنينَ، فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وشهرينِ وخمسةَ عشرَ يومًا، وقتلَ يلبغا بعدَ أن عظمَ أمرُهُ حتى جاوزَ الحدَّ، ثم خُلعَ بمصرَ[5] بمخابرةِ الأمراءِ عندَ توجُّهِهِ للحجِّ.

ومن غريبِ الاتِّفاقِ أنَّ الأمراءَ الذين توجَّهوا معهُ قاموا عليهِ أيضًا في ذلكَ

---

(١) الدراهم النقرة: هي التي يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، وتطبع بدور الضرب بالسّكة السلطانية. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٣/ ٥٠٩).

(٢) انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص٣٥١).

(٣) «في» من (ش).

(٤) «وصلى عليه برقوق» من (ش).

(٥) «بمصر» من (خ).

اليومِ في عقبةِ إيلياءَ، فهربَ منهم إلى القاهرةِ، فوجدَ الفتنةَ، فاختفَى، ثم مُسِكَ، وقتلَ خامسَ شهرِ[1] ذي القعدةِ، سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وسبعِمئةٍ، وكانَ عمرُهُ أربعةً وعشرينَ سنةً.

ولَمَّا قتلُوه لم يدفِنُوه، بل وضعُوه في قُفَّةٍ مخيَّطةٍ، ورمَوه في بئرٍ حتى ظهرَت رائحَتهُ.

وكان رحمَهُ الله من أجلِّ الملوكِ سماحةً وشهامةً، هيِّنًا ليِّنًا محبًّا لأهلِ الخيرِ والعلماءِ، واقفًا عندَ الأمورِ الشَّرعيةِ، وهو الذي بنى الأشرفيَّةَ تجاهَ القلعةِ برأسِ الرُّميلَةِ، وهُدِمَ أكثرُها بعدَهُ، وكانَت من محاسِنِ الدُّنيا ضاهَى بها الملكُ الأشرفُ مدرسةَ عمِّهِ السُّلطانِ حسنٍ، والذي أمرَ بهدمِها فرجُ بن برقوقٍ، ومكانها الآنَ بيمارستانُ المؤيَّد شيخ.

وفي أيامهِ سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ وسبع مئةٍ أُحْدِثَتْ العِمامةُ الخضراءُ للأشرافِ، وفي ذلكَ قالَ بعضُ الشُّعراء:

جعَلُوا لأبناءِ الرَّسُولِ عَلامةً ... إنَّ العلامَةَ شأنُ مَن لم يُشْهَرِ
نورُ النبوَّةِ في كَريمِ وجُوهِهِمْ ... يُغنِي الشَّريفَ عن الطِّرازِ الأخضَرِ[2]

وفي تلكَ السَّنةِ كانَ ابتداءُ خروجِ الطَّاغيةِ تمرلنكَ[3] الذي أخرَبَ البلادَ، وأبادَ

---

(١) «شهر» من (ش).

(٢) للأديب شمس الدين محمد بن أحمد بن جابر الأندلسي. انظر: «السلوك» للمقريزي (٤/ ٣٤٨)، و«إنباء الغمر» لابن حجر (١/ ١١).

(٣) تمرلنك: اسمه تِيْمور، ونطقوا به: تمور، وتمرلنك، وهو بالتركي الحديد ابن ترغاي بن أبغاي، ولد في قرية تسمى خواجة إيلغار، من أعمال كش، مدينة من مدن ما وراء النهر، وأخباره مستفيضة وكثيرة، وللتوسع انظر: «كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور» لابن عربشاه.

العبادَ، وكان أصلُهُ من أبناءِ الفلاحينَ، ثم صارَ سرَّاقًا وقاطعَ طريقٍ، إلى أن وصَلَ ما وصَلَ، وحصلَ منه[١] ما حصَلَ.

[المنصور علي]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ عليٌّ: ولدُ الأشرفِ شعبانَ، وعمرُه نحوُ سبعِ سنينَ، فأقامَ خمسَ سنينَ وأربعةَ أشهرٍ، وكانَ محجوبًا لصغَرِ سنهِ، والكلامُ لبرقوقٍ، وتوفي يومَ الأحدِ ثالثَ عشرَ صفرٍ، سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وسبعِمئةٍ.

[الصَّالح حاجي]

ثم تولى الملكُ الصَّالحُ حاجِي: أخوهُ[٢]، ولدُ الأشرفِ شعبانَ، وعمرُهُ ستُّ سنينَ، فأقامَ سنةً وستَّةَ أشهرٍ وخمسةَ عشرَ يومًا، والأمرُ في ذلكَ لبرقوقٍ، ثم خُلعَ بمكيدَتهِ، في ثامنَ عشرَ رمضانَ[٣] سنةَ أربعٍ وثمانينَ وسبعِمئةٍ، وهو تمامُ الدَّولةِ القولونيَّةِ التُّركيةِ الكُرديَّةِ.

ومن العجيبِ أنه قد تولَّى مِن ذريَّةِ الملكِ[٤] النَّاصرِ اثنى عشرَ سُلطانًا، ولم تبلُغ سلطنَتُهم كلُّها مدةَ سلطنةِ النَّاصرِ، فإنهُ أقامَ أربعًا وأربعينَ سنةٍ ونصفَ شهرٍ كما مرَّ، ومدَّةُ هؤلاء[٥] ثلاثٌ وأربعونَ سنةً، فسبحانَ الفعَّالِ لما يريدُ.

***

---

(١) «منه» من (ش).

(٢) «أخوه» من (خ).

(٣) «في ثامن عشر رمضان» من (خ).

(٤) «الملك» من (ش).

(٥) «فإنه أقام أربعًا وأربعين سنة ونصف شهر كما مر، ومدة هؤلاء» من (ش).

[الدولة الجركسية]

ثـم جـاءَتِ الدَّولـةُ الجركسـيَّةُ، وكانَ ابتداؤها تاسـعَ عشـرَ رمضانَ سـنةَ أربعٍ وثمانينَ وسـبعِمئةٍ.

وهـم نـوعٌ مـن التُّركِ، وهـم تابعـونَ لملـكِ خـوارزمَ، وكانَ قلاوونُ قـد أكثرَ مـن شـرائِهم واتخاذِهـم مماليـكًا لـه، وكذلـكَ بنـوهُ بعـدَهُ، فكانوا سـببًا فـي زوالِ دولَتِهـم، فأوَّلُهم:

[الظَّاهر برقوق]

الملكُ الظَّاهرُ برقوقٌ: وكانَ اسمُه من قبلُ ألطُنْبُغا، فسمَّاهُ أستاذُه يلبُغا الكبيرُ: برقوقًا؛ لنتوءٍ في عينيهِ، وليسَ في الجراكسةِ مَنْ تسلطَنَ وأبوهُ مسلمٌ غيرُهُ، ولقِّبَ بالظَّاهرِ بإشارةِ السِّراجِ البُلقِينيِّ رضي اللهُ تعالى عنه.

فأقامَ ستَّ سنينَ وسبعةَ أشهرٍ ونصفًا، ثم تحرَّكَ عليهِ يلبُغا النَّاصريُّ من الشَّامِ، وقاتلَهُ بمصرَ، إلى أن خُلِعَ في جمادى الآخرةِ سنةَ إحدى وتسعِينَ، وسُجنَ بالكركِ، وكانَ قد بدأَ بعمارةِ البرقوقيَّةِ في سنةِ ثلاثٍ وثمانينَ، وتمَّت في سنةِ ثمانٍ وثمانينَ[1] وسبعمئةٍ في ولايَتِهِ، ثم انتهَتْ في ولايَتِهِ[2] الثَّانيةِ.

ثم عادَ الملكُ المنصورُ حاجي بنُ الأشرفِ شعبانَ، الملقَّبُ في الولايةِ الأولى بالملكِ الصَّالحِ، فأقامَ سبعةَ أشهرٍ إلى أن خَلعَ نفسَهُ من السَّلطنةِ عندَ ظهورِ برقوقٍ ثانيًا، في شهرِ المحرَّمِ، سنةَ اثنين وتسعينَ، بعدَ وقعاتٍ بينَهُما لم يُسمَع بمثلِها في سالفِ الدُّهورِ.

---

(١) «ثمان وثمانين» من (ش).

(٢) «ثم انتهت في ولايته» من (خ).

ثم عادَ برقوقٌ ثانيًا، ودخَلَ القاهرةَ، والمنصورُ حاجي عن يمينِهِ، والخليفةُ أمامَهُ، فأقامَ تسعَ سنين وتسعةَ أشهرٍ، فكانَت جملَةُ مدَّتهِ ستَّةَ عشرَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ وخمسةَ عشر يومًا، وتوفِّيَ في شوالٍ سنةَ إحدى وثمانمئةٍ، ودُفنَ بتربَتِهِ بالصَّحراءِ.

وخلَّفَ من الذَّهبِ العينِ ألفَي ألفِ دينارٍ وأربعمئةَ ألفِ دينارٍ، ومن الأثاثِ ما قيمَتُهُ ألفُ ألفِ دينارٍ وأربعمئةَ ألفِ دينارٍ، سوَى الخيولِ المسوَّمةِ، والبغالِ الفارهةِ، والجمالِ البُختيَّةِ[١]، وكانَ علفُ دوابهِ في كلِّ شهرٍ أحدَ عشرَ ألف أردبٍّ شعيرٍ.

وكانَ حازمًا مهابًا مِقدامًا، محبًّا لفعلِ الخيرِ وللعلماءِ، ويقومُ لهم، ولم يُعرَف أحدٌ من الملوكِ قبلَهُ قامَ لفقيهٍ.

وفي أيَّامهِ بني[٢] الجسرُ العظيمُ جسرُ المجامعِ على نهرِ الأردن بالشَّامِ[٣]، المعروفُ الآنَ بالشَّريعَةِ[٤]، وما ألطفَ قولَ بعضِهم:

بنى سُلطانُنا برقُوقُ جِسرًا ... بعَدْلٍ والأنامُ لهُ مُطيعة

مجَازًا في الحقِيقةِ للبَرايا ... وأمرًا بالسُّلوكِ على الشَّريعة[٥]

وفي أيَّامهِ أرادَ أن ينقُضَ هذه الأوقافَ كلَّها، وقالَ: إنَّها[٦] استغرقَتْ نصفَ أراضيهِ، وعقدَ لذلكَ مجلِسًا حافلًا حضرَهُ السِّراجُ البُلقِينيُّ وابنُ جَماعةٍ، والشَّيخُ

---

(١) البختية: الإبل الخراسانية من بين عربية وفالج. انظر: «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده (٥/ ١٥٥). والفالج: الجمل الضخم.

(٢) في (ش): «أراد أن ينقض بناء».

(٣) «بالشام» من (خ).

(٤) الشريعة: هو نهر الأردن، مصبه في البحر الميت. وانظر: «صبح الأعشى» (٤/ ٨٤).

(٥) لشمس الدين محمد المزين. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ١٧).

(٦) في (ش): «إنما أخذت من بيت المال وقد».

أكملُ الدِّينِ شيخُ الحنفيَّةِ، فقالَ البُلقِينيُّ: أما ما وُقِفَ على العلماءِ وطلبةِ العلمِ فلا سبيلَ إلى نقضِهِ؛ لأنَّ لهم في بيتِ المالِ أكثرَ من ذلك، وأما ما وُقِفَ على فاطمةَ وخديجةَ وعويشةَ فإنَّه يُنقَضُ، ووافقَهُ الحاضرونَ، وكانَ أوَّلُ مَن أحدثَ وقفَ أراضي بيتِ المالِ على جهاتِ الخيرِ كالمدارسِ نورُ الدِّينِ الشَّهيدُ، ثم صلاحُ الدِّينِ لَمَّا استفتى ابنَ أبي عصرونَ[١]، فأفتاهما بالجوازِ على معنى أَنَّهُ إرصاد وإفراز لبيتِ المالِ على بعضِ مستحِقِّيهِ ليصِلُوا إليه بسهولةٍ، لأنَّه وقفٌ حقيقيٌّ، إذ من شرطِ الوقفِ كونُه مملوكًا لواقفِهِ[٢]، والإمامُ ليس بمالكٍ لذلكَ، ووافقَ ابنَ أبي عصرونَ على فتياهُ ومرادِهُ جماعةٌ من أئمَّةِ المذاهبِ الأربعةِ في عصرِهِ[٣].

[الناصر فرج]

ثم تولَّى الملكُ النَّاصرُ فرجٌ، أبو السَّعاداتِ بنُ برقوقٍ: وعمرُه نحوُ عشرِ[٤] سنينَ، فأقامَ ستَّ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ وعشرةَ أيَّامٍ، ثم خُلعَ سنة ثمانٍ وثمانمئةٍ.

وفيهِ يقولُ أحمدُ المقرئ[٥]:

---

(١) ابن أبي عصرون: عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون بن أبي السري، قاضي القضاة شرف الدين أبو سعد التميمي، الحديثي، ثم الموصلي الفقيه، أحد الأعلام، ولي قضاء سنجار، وحران، وديار ربيعة، وتفقه عليه جماعة، وصنف التصانيف، وانتفع به خلق، وانتهت إليه رياسة المذهب، توفي في دمشق سنة: (٥٨٥ هـ).

(٢) في (ش): «كالواقفة» بدل «مملوكًا لواقفه».

(٣) انظر: «الحاوي للفتاوى» للسيوطي (١/ ١٤٨).

(٤) في (ش): «عشرين».

(٥) أحمد المقرئ: هو أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الله الشهاب الأوحدي، كان ضابطًا متقنًا ذاكرًا لكثير من القراءات وتوجيهها وعللها، حافظًا لكثير من التاريخ سيَّما أخبار المصريين، مع معرفة النحو والعروض والنظم الحسن والحفظ في الفقه لمذهب =

مَضَى الظَّاهرُ السُّلطانُ أكرَمُ مالِكٍ إلى ربِّهِ يرقَى إلى الخُلدِ في الدَّرَج
وقالوا ستَأتي شِدَّةٌ بعدَ موتِهِ فأكذَبهم ربي وما جا سِوى (فرَج)[1]

وفي أيَّامِهِ اختلفَتْ عليهِ أمراءُ الشَّامِ، فخرَجَ لقتالهم، فحصرَهم[2] واضطربَتِ الأحوالُ، فوصَلَ تمرلنكُ لبلادِ الشَّامِ والرُّومِ، فسفَكَ دماءَ المسلمينَ، وسبَى ذرارِيهم، ونهَبَ أموالَهم، وأحرقَ دورَهم، وأسرَ أميرَ الشَّامِ وقتلَهُ، فخرَجَ النَّاصرُ فرجٌ لقتالِهِ فوجدَهُ قد ترَكَ البلادَ وتوجَّهَ للرُّومِ، فرجعَ النَّاصرُ إلى مصرَ، وكثرَتِ الفتنُ وخربت بلادُ مصرَ، ووهيَ أمرُه، فهرَبَ واختفَى وخُلِعَ كما مرَّ.

[المنصور عبد العزيز]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ عبدُ العزيزِ: أخوهُ، فأقامَ سبعةً وأربعينَ يومًا، فتلاشَتْ أمورُ المملكةِ؛ لصغَرِ سنهِ واختلافِ دولَتِهِ، ثم ظهرَ النَّاصرُ فرجٌ، ومسكَهُ وحبسَهُ بالإسكندريةِ في ثالثَ عشرَ جمادى الأوَّلِ، وقُتِلَ بها عقِبُهُ في سنةِ ثمانٍ وثمانمئةٍ.

[الناصر فرج]

وعادَ النَّاصرُ فرجُ بنُ برقوقٍ: إلى السَّلطنةِ ثانيًا، وتخالفَتْ عليهِ الأمورُ، ووقعَتِ الفتنُ، فأقامَ ستَّ سنينَ وتسعةَ أشهرٍ، وكان منهُ ما كانَ من ذبحِ جُندِهِ وغيرِ ذلكَ، ثم

= الشَّافعي، وكثرة التعصب للدولة التركية. انظر: «الضوء اللامع» للسخاوي (١/ ٣٥٨).

(١) في (خ): «الفرج». انظر: «السلوك» للمقريزي (٥/ ٤٤٩)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٢/ ١٦٨).

(٢) في (ش): «فهزمهم».

قُتلَ شرَّ قِتلةٍ بدمشقَ في حادِي عشرَ صفرٍ سنةَ خمسَ عشرةَ وثمانمئةٍ، وألقيَ على مزبلةٍ، ثم دفِنَ في ثالثِ يومٍ وعمرُهُ دونَ الأربعِ وعشرينَ سنةٍ.

وكانَ أفرسَ ملوكِ التُّركِ بعدَ الأشرفِ خليلٍ، تجهزَ سبَّعَ مراتٍ للخروجِ للشَّامِ وتهديدِها وقهرِ مُتغلِّبيها كالمؤيَّدِ شيخ وغيرِه.

وفي أيَّامِهِ أحدثَ المؤذِّنونَ عقِبَ الأذانِ الصَّلاةَ والتَّسليمَ على النَّبيِّ ﷺ بأمرِ المحتسبِ نجمِ الدِّينِ الطُّنْبُذِيِّ[١].

[المستعين بالله أبو الفضل العباس]

ثم تولى أميرُ المؤمنينَ الخليفةُ المستعينُ باللهِ الملكُ العادلُ أبو الفضلِ العبَّاسُ بنُ المتوكِّلِ العباسيُّ، وفيهِ يقولُ الحافظُ ابنُ حجرٍ:

المُلْكُ أصبَحَ ثابتَ الأساسِ ... بالمستَعِينِ العادِلِ العبَّاسِي

رجَعتْ مكَانةُ آلِ عمِّ المصطَفَى ... لمحَلِّها من بعدِ طُولِ تَناس[٢]

وهيَ طويلةٌ، فأقامَ ستةَ أشهرٍ وأيامًا، ثم خُلعَ من السَّلطنةِ في مستهلِّ شهرِ شعبانَ من سنتِهِ، وكانَ قد استنابَ المؤيدَ شيخ وشاركَهُ في الخطبةِ، والأمرُ لشيخٍ فتغلَّبَ على السَّلطنَةِ، وخلعَ المستعينَ من الخلافةِ، وبايعَ بالخلافةِ أخاهُ داودَ سنةَ خمس عشرةَ وثمان مئةٍ.

---

(١) نجم الدِّين محمَّد بن عمر بن محمد الطنبذي: وكيل بيت المال، ثم محتسب القاهرة، توفي سنة (٧٩٨هـ). انظر: «السلوك» للمقريزي (٥/ ٤٢٣). وفي «سلك الدرر» لأبي الفضل الحسيني (٣/ ١٥٧): نجم الدين الطنبذي: كان شيخاً جهولاً وبلهانًا مهولًا سيء السيرة في الحسبة والقضاء متهافتاً على الدرهم ولو قاده إلى البلاء.

(٢) انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص٥٠٦).

[المؤيَّد أبو النَّصر شيخٌ المحمودِيّ]

ثم تولَّى الملكُ المؤيَّدُ أبو النَّصرِ شيخٌ المحمودِيّ، الظَّاهري برقوقٌ: وأقامَ الخليفةَ في القلعةِ محبوسًا إلى أن أرسلَهُ إلى الإسكندريةِ، ثم في شهرِ المحرَّمِ سنةَ تسعَ عشرةَ وثمان مئةٍ، وصحبتُهُ أولادُ النَّاصرِ فرجٍ، فأقامَ المؤيَّدُ ثمانَ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ يومَ الثُّلاثاء من شهرِ المحرَّمِ سنةَ أربعٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ.

وخرجَتْ عنهُ الشَّامُ، فتجهَّزَ للقتالِ إلى أن مهَّدَها، ثم خرجَتْ ثانيًا فتجرَّدَ[1] ثانيًا وقتلَ أمراءَها ومهَّدَها، ثم تجرَّدَ مرَّة ثالثةً إلى بلادِ الشَّامِ، وافتتحَ قلاعًا كثيرةً، ثم قامَ في أرغدِ عيشٍ، فاعتراهُ وجعُ المفاصِلِ، حتى أُقعِدَ، فصارَ يحملُ على الأكتافِ إلى أن ماتَ.

وكانَ سلطانًا شُجَاعًا مِقدامًا مُهابًا، عارفًا بأنواعِ الفروسيَّةِ ومكرِ الحروبِ، معظِّمًا للشَّريعةِ محبًّا للفقهاءِ والعلماءِ.

وفي أيَّامهِ بُنيَتِ المدرسةُ المؤيديَّةُ، بَدأ فيها سنةَ سبعَ عشرةَ، وكملَتْ في سنةِ عشرينَ وثمان مِئةٍ.

وفي سنةِ ثماني عشرةَ أرسلَ المؤيَّدُ مِنبرًا حَسنًا للمسجدِ الحرامِ، ودرجةً يُصعدُ عليها للكعبةِ.

وفيها عمَّرَ شريفُ مكَّةَ حسنُ بن عجلانَ جدُّ أشرافِ مكةَ الآنَ البيمارستانَ وقفَ المستنصرِ العباسيِّ بعدَ دثورِهِ[2].

---

(١) في (ش): «فتجهز».

(٢) «البيمارستان العباسي بعد دثوره» سقط من (خ).

[المظفر أحمد أبو السعادات]

ثم تولَّى الملكُ المظفَّرُ أحمد[١] **أبو السَّعاداتِ ولدُ المؤيَّدِ**: وعمرُهُ دون سنتينِ، والأمرَ لططرَ فأقامَ سبعةَ أشهرٍ وأيَّامًا، ثم خُلِعَ بالشَّامِ بعدَ فتنٍ وحروبٍ وقعَت بأرضِ مصرَ والشَّامِ.

وسبب كونِ الأمرِ كان[٢] لططرَ ما ذكرَ بعضُ فقهاءِ الحنفيَّةِ له أنَّ في فروعِ المذهبِ أن السلطانَ إذا كان صغيرًا وأجمعَ أهلُ الشَّوكةِ على إقامةِ رجلٍ للتَّحدثِ عنهُ في أمورِ الرَّعيَّةِ حتى يبلُغَ رشدَهُ نفذَتْ أحكامُه.

[الظَّاهرُ طَطَرُ أبو الفتحِ]

ثم تولى الملكُ الظَّاهرُ طَطَرُ أبو الفتحِ: تاسعَ عشري شعبانَ، بدمشقَ سنةَ أربعٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ، فأقامَ ثلاثةً وتسعينَ يومًا، وتوفِّيَ في خامسِ ذي الحجَّةِ سنةَ تاريخهِ، ودفِنَ بجوارِ الإمامِ اللَّيثِ بالقَرافَةِ.

وكانَ ملكًا جليلًا، عاليَ الهمَّةِ، يحبُّ مجالسة العلماء أهل الفضل.

[الملك الصَّالح محمَّد]

ثم تولَّى الملكُ الصَّالحُ محمَّدٌ: ولدُهُ، وعمرُه نحو عشر سنينَ، فأقامَ أربعةَ أشهرٍ ويومينِ، وخُلِعَ في ثامنِ ربيعِ الآخرِ، سنةَ خمسٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ، وأقامَ إلى أن ماتَ في الطَّاعونِ، سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وثمان مئةٍ[٣].

---

(١) «أحمد» من (خ).

(٢) «كان» من (خ).

(٣) من قوله: «ثم تولَّى الملكُ الصالحُ محمدٌ...» إلى هنا من (ش).

[الأشرف أبو النصر بُرُسْبايْ]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ أبو النَّصرِ[١] بُرُسْبايْ الدّقمَاقيُّ: سنةَ خمسٍ وعشرينَ، وهو ثامنُ ملوكِ الجراكسةِ، فأقامَ سلطانًا ستَّ عشرةَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ وخمسةَ أيّامٍ.

وتوفِّيَ في[٢] نهارِ السَّبتِ ثالثَ عشر ذي الحجَّةِ الحرامِ، سنةَ إحدى وأربعينَ وثمان مئةٍ، ويقالُ: قتلَهُ ابنه يوسفُ[٣]، ودفنَ بتربتِهِ التي أنشأها خارجَ بابِ النَّصرِ، بجوارِ تربةِ الظَّاهرِ برقوق رحمه اللهُ تعالى.

وكانَ سلطانًا جليلًا شهمًا[٤] مدبِّرًا عاقِلًا، يميلُ إلى الخيرِ وسماعِ القرآنِ، ويصومُ الخميسَ والإثنينِ، وأيَّامَ البيضِ وأوَّلَ الشَّهرِ وآخرَهُ، ويجلُّ أهلَ الصَّلاحِ.

وفي أيَّامِهِ بنى المدرسَةَ الأشرفيَّةَ التي بالعنبرانيينَ بالقاهرةِ المحروسةِ، والتُّربةَ خارجَ بابِ النَّصرِ، والمدرسةَ بالخانكاه السّرياقُوسيَّةِ.

وفُتحَتْ جزيرةُ قبرصَ[٥] في أيَّامِهِ سنةَ تسعٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ، وهو في تختِ مملكتِهِ بمصرَ لم يتحرَّكْ؛ لحسنِ تدبيرِهِ وسياسَتِهِ[٦] بعدَ أن وجَّهَ لها نحوَ الخمسينَ مركبًا، وأُحضِرَ ملِكُها أسيرًا، ومنَّ عليهِ وأعادَهُ إلى بلدِهِ بمن شاءَ من جماعتِهِ، وصارَ يرسِلُ الجزيةَ في كلِّ سنةٍ، وأمرَ بعمارةِ أماكنَ متعددةٍ بالمسجدِ الحرامِ، وكانَت سفرَتهُ المشهورَةُ إلى آمدَ وديارِ بكرٍ، سنةَ ستٍّ وثلاثينَ وثمان مئةٍ.

---

(١) «أبو النصر» من (ش).

(٢) «في» من (ش).

(٣) «ويقال قتله ابنه يوسف» من (ش).

(٤) «شهمًا» من (ش).

(٥) في (ش): «قبرس».

(٦) «وسياسته» من (ش).

ولـهُ الأوقـافُ العظيمـةُ علـى أنـواعِ الخيـراتِ والقُربِ، فـاللهُ تعالـى يرحمُهُ ويسامحُهُ.

[العزيز أبو المحاسن يوسف]

ثم تولَّى الملكُ عبدُ العزيزِ[١] **أبو المحاسِنِ يوسفُ**: ولدُهُ[٢] فأقامَ ثلاثةَ أشهرٍ وستةَ أيامٍ، وخلِعَ تاسعَ عشرَ ربيعٍ الأولِ عامَ اثنينِ وأربعينَ، وأقامَ أيَّامًا، وجهَّزَ للإسكندريَّةِ، وأقامَ بها، وماتَ بها في أيَّامِ الظَّاهرِ خشقدم.

[الظاهر أبو سعيد جقمق]

ثم تولَّى الملكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ جَقمَقُ العلائيُّ عليُّ بنُ إينالَ: فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وعشرةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ ليلةَ الثُّلاثاءِ، ثالثَ صفرٍ سنةَ سبعٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ، بعدَ أن فوَّضَ أمرَ السَّلطنةِ لولَدِهِ في حادي عشرَ شهرِ المحرَّمِ في ابتداءِ توعُّكِهِ، ودُفنَ بتربةِ الأميرِ قايتباي الجركسِيِّ.

وكانَ قد خرَجَ عن طاعتِهِ نائبُ حلبَ ونائبُ دمشقَ، فجرَّدَ لهما العساكِرَ وقتلَهما، ثم صفَا لهُ الوقتُ، وغزا في أيامِهِ رُودِسَ[٣] ولم يفتَحها.

وعُمِّرَ في أيَّامِهِ أشياءُ كثيرةٌ من مساجدَ وجوامِعَ وقناطرَ وجسورٍ وغيرِ ذلكَ ممَّا فعلَهُ هو وأربابُ دولَتِه، وعمَّرَ عينَ حنينٍ، وأصلَحَ مجاريَها، وعمرَ مسجدَ

---

(١) كذا في النسختين: «عبد العزيز»، والمشهور في كتب التاريخ: «العزيز». انظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٦/ ٣٢٦)، و«نظم العقيان» للسيوطي (ص١٧٩).

(٢) في (خ): «ابنه يوسف» بدل «يوسف ولده».

(٣) رودس: جزيرة في البحر المتوسط، مقابل الإسكندرية على ليلة منها في البحر، فتحها السلطان سليمان القانوني. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٧٨)، و«المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٢٧٨).

الخَيفِ بمنى، وجدَّدَ في الحرمِ الشَّريفِ مواضعَ، ورمَّمَ الكعبةَ، وصرفَ مالًا عظيمًا في جهاتِ الخيرِ، وله مآثرُ حميدةٌ.

وكانَ مغرَمًا بحبِّ الأيتامِ والإحسانِ إليهم وإلى غيرِهم، متواضِعًا، محبًّا للفقراءِ[1] والعلماءِ والصَّالحينَ، جوادًا برًّا طاهرَ الفمِ والذَّيلِ[2]، فقيهًا[3] فاضلًا شُجاعًا، عارفًا بأنواعِ الفروسيَّةِ، وكانَ يقومُ لمن يدخُلُ عليهِ من الفقهاءِ والفقراءِ رحمَهُ الله تعالى.

[المنصور عثمان أبو السعادات]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ ولدُهُ عثمانُ أبو السَّعاداتِ: فأقامَ أربعينَ يومًا، وخُلعَ في مستهلِّ ربيعِ الأولِ سنةَ سبعٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ بعدَ حروبٍ كثيرةٍ، ثم جُهِّزَ للإسكندريةِ.

[الأشرف أبو النصر إينال]

ثم تولَّى الملكُ الأشرَفُ أبو النَّصرِ إينالُ العلائيُّ النَّاصريُّ: ثامنَ شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ، فأقامَ ثمانَ سنينَ وشهرَينِ وستَّةَ أيَّامٍ، وتوفِّيَ يومَ الخميسِ، خامسَ عشرَ جمادى الأُولى، سنةَ خمسٍ وستِّينَ وثمان مئةٍ، بعدَ أن فوَّضَ لولدِهِ السَّلطنةَ، ودُفنَ بتُربتِهِ التي أنشأها في الصَّحراءِ في القبَّةِ بجوارِ مدرسَتهِ.

وكانَ قليلَ السَّماعِ للكلامِ في النَّاسِ، قليلَ سفكِ الدِّماءِ، مُتجاوزًا عن الخطأِ والتَّقصيرِ، إلَّا أن مماليكَهُ ساءَت سيرَتُهم في النَّاسِ، وكانَ أمِّيًّا لا يحسِنُ الكتابةَ ولا القراءةَ.

---

(١) في (ش): «للفقهاء».

(٢) طاهر الذيل: كناية عن العفة. انظر: «رسائل الثعالبي» (ص٧٥).

(٣) «فقيها» من (خ).

[المؤيَّد أحمد أبو الفتح]

ثم تولَّى الملكُ المؤيَّدُ أحمدُ أبو الفتحِ: ولدُهُ، فأقامَ خمسةَ أشهرٍ وأربعة أيَّامٍ، وخُلِعَ يومَ الأحدِ، تاسعَ عشرَ رمضانَ، سنةَ خمسٍ وستِّينَ وثمان مئةٍ.

وكانَ قد ساسَ النَّاسَ أحسنَ سياسةٍ، وأُمِّنتِ السُّبُلُ في أيَّامِهِ، وقمعَ مماليكَ أبيهِ، فانكفؤوا، وكانَ أحسنَ ملوكِ مصرَ وجهًا ومعرفةً، وتدبيرًا وسياسةً، إلَّا أنَّه لم يجِدْ له مُعينًا ولا مُنصفًا، بل تحامَلُوا عليهِ وخلعُوهُ من غيرِ موجبٍ؛ لأنَّ الدَّهرَ لا ينصِفُ مثل هذا ولا يرفَعُ إلَّا ناقصًا[1].

[الظَّاهر أبو سعيد خشقدم]

ثم تولَّى الملكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ خشقدمُ: النَّاصريُّ ثم المؤيديُّ، فأقامَ ستَّ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ واثنينِ وعشرينَ يومًا، وتوفِّيَ يوم السَّبتِ، عاشرَ ربيعِ الأوَّلِ، عامَ اثنينِ وسبعينَ وثمان مئةٍ، ودفنَ بتربتِهِ التي أنشأها بالصَّحراءِ.

قالوا: وهوَ السُّلطانُ الأوَّلُ من الأروامِ[2] بالدِّيارِ المصريةِ، إن لم يكُنِ المعزُّ أيبكُ التُّركمانيُّ ولاجينُ من الأروامِ.

وكانَ له معرفةٌ بفنونِ الفروسيَّةِ، وله حذقٌ ومعرفةٌ، وعندهُ مشاركةٌ في علمِ القراءةِ، وفيهِ محاسنُ لولا طمعٌ وشحٌّ كانَ فيهِ، وأفعالُ مماليكه[3] الأجلابِ في النَّاسِ، ولذلك طلبَ النَّاسُ زوالَهُ.

---

(١) من قوله: «ثم تولى الملك المؤيد» إلى هنا من (ش).

(٢) الأروام: جمع رومي. انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: روم).

(٣) في (خ): «مماليك أبيه».

[الظاهر أبو سعيد يلباي]

ثم تولَّى الملكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ يلباي العلائيُّ المؤيدِيُّ[١] **الجركسيُّ** يومَ وفاةِ الظَّاهرِ خشقدم، فأقامَ سبعةً وخمسينَ يومًا، وليسَ له من السَّلطنَةِ إلَّا مجرَّدُ الاسمِ، وخُلعَ يومَ السَّبتِ سابعَ جمادى الأولى، وجهزَ للإسكندريةِ، وأقام بها إلى أن ماتَ.

[الظَّاهرُ أبو سعيدٍ تمربُغا]

ثم تولَّى الملِكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ تمربُغا[٢] **الظَّاهريُّ** يومَ خَلْعِ يلباي، فأقامَ ثمانيةً وخمسينَ يومًا، وخلِعَ يومَ الإثنينِ ثالثَ رجبٍ، عامَ اثنينِ وسبعينَ وثمان مئةٍ، وجُهِّزَ مكرمًا على أحسنِ حالٍ إلى ثغرِ دمياطَ، ثم أُعيدَ إلى إسكندريَّةَ ليسكُن بها في أيِّ مكانٍ شاءَ، فأقامَ بها[٣] إلى أن ماتَ.

وكانَ جامعًا بين فنونِ العلمِ والفروسيَّةِ والذَّكاءِ، والفصاحةِ وفنونِ السِّياسةِ وأنواعِ الكمالِ، قالوا: لم يلِ مصرَ مَنْ يُشبِهُهُ، بل ولا يقارِبهُ، إلا أنَّ الدَّهرَ غيرُ مُنصِفٍ.

[الأشرفُ قايتباي]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ قايتباي الظاهريُّ المحموديُّ نسبةً للخواجا محمود جالبِهِ، وللظَّاهرِ جقمقَ مُعتقِهِ، وهو السَّادسَ عشرَ من ملوكِ الجراكسةِ، والحادي والأربعونَ من ملوك التُّركِ.

بويعَ يومَ خَلْعِ الظَّاهر تمربُغا، وذلكَ يومَ إثنين ثالثَ رجبٍ، عامَ اثنينِ وسبعينَ

---

(١) «المؤيدي» من (خ).

(٢) تمربغا: اسم تركي مركب من كلمتين: (تمر) بمعنى الفحل، (بغا) بمعنى الحديد، فيكون معناه: فحل الحديد. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٠١).

(٣) «بها» من (خ).

وثمان مئةٍ، فأقامَ[1] في السَّلطنةِ تسعًا وعشرينَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ وعشرينَ يومًا، وتوفِّيَ آخرَ نهارِ الأحدِ، ودفنَ يومَ الإثنين ذي القعدةِ، سنةَ إحدى وتسع مئةٍ، بقُبَّةٍ بناها بتربته بالصَّحراءِ شرقي القاهرةِ، وقبرُهُ ظاهرٌ يزارُ، رحمهُ الله تعالى.

وكانَ ملكًا جليلًا[2] وسُلطانًا نبيلًا[3]، لهُ اليدُ الطُّولى في الخيراتِ، والطَّولُ الكاملُ في إسداء المبرَّاتِ، وكانَت أيَّامهُ كالطِّرازِ المذْهَبِ، وهوَ واسطةُ عقدِ ملوكِ الجراكسةِ وأطولُهم مدةً، واستقرَّ له الملكُ في أيَّامِهِ.

وسارَ في المملكةِ بشهامةٍ ما سارَها ملكٌ قبلَهُ من عهدِ النَّاصر محمَّدِ بنِ قلاوونَ، بحيثُ إنَّه سافرَ من مصرَ إلى الفراتِ في طائفةٍ يسيرةٍ من الجندِ، ولم يولِّ بمصرَ صاحبَ وظيفةٍ دينيَّةٍ كالقضاةِ والمشايخِ والمدرِّسينَ إلَّا أصلَحَ الموجودِين لها بعدَ طولِ تروِّيهِ وتمهُّلِه.

وسافرَ إلى الحجازِ برسمِ الحجِّ سنةَ أربعٍ وثمانينَ قبلَ حريقِ المسجدِ النَّبويِّ، فبدأ بزيارةِ المدينةِ، وفرَّقَ بها ستَّةَ آلافِ دينارٍ، ثم قدِمَ مكَّةَ وفرَّق بها خمسةَ آلافِ دينارٍ.

وحجَّ وعادَ، وزُيِّنتِ البلدُ لقدُومهِ، وأنشأَ بمكَّةَ عندَ بابِ السَّلامِ مدرسةً لطيفةً، وقرَّر بها شيخًا وصوفيَّةً، وبجانِبها رباطًا للفقراءِ، وعمِلَ بالمدينةِ المنوَّرةِ مدرسةً، وجدَّدَ المنبرَ والحُجرةَ، ورتَّبَ لأهلِ المدينةِ والوارِدينَ لها ما يكفِيهم، وعملَ أيضًا ببيتِ المقدسِ مدرسةً، وبغزَّةَ مدرسةً، ولهُ بصالحية قَطْيَا[4] جامعٌ، وجدَّدَ من جامعِ

---

(١) في (ش): «وبقي».

(٢) في (خ): «جميلاً».

(٣) «وسلطانًا نبيلاً» من (ش).

(٤) في (ش): «قطيه». وقطيا: منزل على الحدود المصرية، بها توخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم =

عمرِو بن العاصِ بعضَ جِهاتِهِ، وأنشأ مِيضأةَ الجامعِ الأزهرِ، والفِسقِيَّةَ[1] المعتبرةَ، والسَّبيلَ، والمكتَبَ ببابِهِ، والمقامَ الأحمديَّ، والمقامَ الدُّسُوقيَّ، ومدرسةً عظيمةً بثغرِ دمياطَ.

واجتهدَ في بناءِ المشاعرِ العظامِ، كعمارةِ مسجِدِ الخيفِ بمنى، ومسجِدِ نَمِرةَ بعرفةَ، وعمَّرَ بِرْكةَ خُلَيْصٍ[2]، وأجرى العينَ إليها، وعمَّرَ عينَ عرفةَ بعدَ انقطاعِها نحوَ مئةٍ وخمسينَ سنةً، وسقايةَ العبَّاسِ، وأصلَحَ ما بينَ زمزمَ والمقامِ، وأرسلَ للمسجدِ الحرامِ مِنبرًا عظيمًا، ولهُ بمصرَ عدَّةُ مساجدَ وسقاياتٌ وعمائرُ نفيسةٌ، ومسجِدٌ بالرَّوضةِ، كانَ في الأصلِ مسجدًا للفخرِ كاتبِ المماليكِ البحريَّةِ.

وفي أيَّامِهِ سنةَ ستٍّ وثمانينَ وثمان مئةٍ نزلَتْ صاعقةٌ على المئذنةِ بالحرمِ النَّبويِّ فأحرَقتها، واحترَقتْ سقوفُ المسجدِ الشَّريفِ وما فيهِ من خزائنَ وكتبٍ، ولم يبقَ سوى الجُدرانِ، وكانَ أمرًا مهولًا، وفي أيَّامِهِ خرجَ يشبَكُ الدَّوادارُ إلى جهةِ العراقِ بعسكرِ مصرَ، فالتقَوا مع عسكرِ يعقوب شاه بقربِ الرُّها، فكسِرَ المصريُّونَ، وأُسرَ الدَّوادارُ، وكان يكرَهُ قاضي الحنفيَّةِ الأمشاطِيَّ، وكلٌّ منهُما يودُّ زوالَ الآخرِ، فكانَ قتلُ الدَّوادارِ بشاطئِ الفراتِ وموتُ الأمشاطيِّ بمصرَ في يومٍ واحدٍ.

= ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود. انظر: «رحلة ابن بطوطة» (١/ ٢٣٢).

(١) الفسقية: حوض ماء من رخام، وقد تتوسطه نافورة ماء. انظر: «المعجم الوسيط» (مادة: فسق).

(٢) خليص: حصن بين مكة والمدينة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٣٨٦).

[النَّاصر محمَّد أبو السَّعادات]

ثـم تولَّـى الملـكُ النَّاصـرُ محمَّـدٌ[١] أبـو السَّـعاداتِ: ولَـدُ قايتبـاي، بويـعَ بالسَّـلطنةِ بمـرضِ والـدِهِ، قبـلَ موتـهِ بيومٍ، وهو في سـنِّ البلوغِ، في سـادسَ عشـرَ ذي القعـدةِ سـنةِ إحـدى وتسـع مئـةٍ، فأقامَ سـتَّةَ أشـهرٍ ويومينِ، ثـم خُلعَ فـي ثامنَ عشـرَ جمـادى الأولـى بعدَ ثبـوتِ عجزِهِ عـن السَّـلطنةِ بحضـرةِ القضـاةِ والخليفةِ المتـوكِّلِ علـى اللهِ، وأركانِ الدَّولـةِ.

[الأشرف قانصوه]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ قانصوَه: مملوكُ قايتباي رأسُ العساكرِ، فأقامَ نحوَ إحدى عشر يومًا، وحاصرَ القلعةَ ليدخُلَها، فلم يحصُل له الغرضُ، وحصلَ لهُ ضربةٌ في وجهِهِ، ثم تحرَّكَ عليهِ العسكرُ، فهرَبَ إلى غزَّةَ، ثم فُقِدَ في وقعةِ خان يونسَ، ولم يُعرَف موتُهُ ولا حياتُهُ.

[النَّاصر محمَّد أبو السَّعادات]

ثم عادَ الملكُ النَّاصرُ محمدُ بن قايتباي للسَّلطنةِ بعدَ ثبوتِ رُشدِهِ، فأقامَ سنةً وستَّةَ أشهرٍ ونصفٍ، ثم شرَعَ في اللَّهوِ واللَّعبِ والشَّعبذَةِ ومخالطةِ الأوباشِ وارتكابِ الفواحشِ، وأمورٍ لا يليقُ ذكرُها، وصدقَ عليه قولُ القائلِ:

مـا المَـوتُ فاعلَمـهُ التَّلَـف ... لكِنَّـــهُ سُـــوءُ الخَلَـــف

فقُتِـلَ شـرَّ قِتلـةٍ يـومَ الأربعاءِ قُبيـلَ غروبِ الشَّـمسِ، خامسَ عشـرَ ربيعٍ سـنةَ أربـعٍ وتسـع مئةٍ.

---

(١) «محمد» من (ش).

[الظَّاهر أبو سعيد قانصوه]

ثم تولَّى الملكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ قانصوه الأشرَفيُّ القايتباي، خالُ النَّاصرِ، أقامتهُ أختُهُ مُقامَ ولدِها، وبذلَت لهُ الأموالَ والخزائنَ، بويعَ بالسَّلطنةِ بحضرَةِ الخليفةِ والقضاةِ، وقتَ صلاةِ الجمعةِ، سابعَ عشرَ ربيعِ الأوَّلِ سنةَ أربعٍ وتسع مئةٍ، وعمرُهُ فوقَ العشرينَ سنةً، فأقامَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ واثني عشرَ يومًا، ثم قامَ العسكرُ عليه، فاختفَى.

وكانَ قد حصَلَ في أيَّامهِ العدلُ والأمنُ، ورتَّبَ للجامعِ الأزهرِ في أيام رمضانَ الخبزَ والحرمزةَ[1]، فصارَت سُنَّةً ماضيةً إلى يومنا، وضاعفَ الغوريُّ ذلكَ في أيَّامهِ أضعافًا كثيرةً.

[الأشرف جانبلاط]

ثم تولَّى الملكُ الأشرَفُ جانبلاطُ[2]: ثاني الحجَّةِ سنةَ خمسٍ وتسع مئةٍ، فاستقرَّ في السَّلطنةِ، وجلسَ على سريرِ الملكِ، فأقامَ نصفَ سنةٍ وستَّةَ عشر يومًا، وبنى المدرسَةَ الجنبلاطيَّةَ خارجَ بابِ النَّصرِ، ثم خلِعَ، ونفي للإسكندريَّةِ.

[العادل طومان باي سيف الدِّين]

ثم تولَّى الملكُ العادِلُ طومان باي[3] **سيفُ الدِّينِ**: وكانَ من أعيانِ مماليكِ قايتباي، بويعَ بالسَّلطنةِ بالشَّامِ، وجلسَ على السَّريرِ بعدَ ظهرِ يومِ السَّبتِ، ثامنَ عشرَ جمادى الآخرةِ، سنةَ خمسٍ وتسع مئةٍ، وكانَت مدَّتهُ من حينِ تغلُّبهِ

---

(١) في (خ): «الجرمزة». والحرمزة: طعام معروف زمن المماليك. انظر: «زبدة كشف الممالك» لغرس الدين بن شاهين (ص١٢٥).

(٢) في (ش): «جنبلاط».

(٣) «باي» من (ش).

بالشَّـامِ أربعةَ أشـهرٍ وخمسـةَ عشـرَ يومًا، ومن حينِ بويـعَ بقلعةِ الجبلِ ثلاثةَ أشـهرٍ وثلاثةً وعشـرينَ يومًا.

وبنى مدرسَةَ العادليةَ، وتربةً خارجَ بابِ النَّصرِ، ثم هجَمَ عليهِ العسكرُ، وقتلُوهُ.

[الأشرف أبو النَّصر قانصوه الغوري]

ثم تولَّى الملكُ الأشرَفُ أبو النَّصرِ قانصوه الغوريُّ: يومَ الإثنينِ عيدَ الفطرِ، مستهَلَّ شوَّالٍ، سنةَ ستٍّ وتسع مئةٍ بعدَ أن هابَ الأمراءُ الجلوسَ على تختِ الملكِ، وجعلَ بعضُهم يحيلُ على بعضٍ في[1] الجلوسِ عليهِ، فاتَّفقُوا على الغوريِّ؛ لأنَّهم رأوهُ ليِّنَ العريكةِ، سهلَ الإزالةِ أيَّ وقتٍ أرادُوهُ، وليسَ الأمرُ كما ظنُّوهُ، فقالَ لهم: أقبلُ ذلكَ بشرطِ أن لا تقتُلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتُكم، فاستوثَقَ منهم.

وبويعَ بالقلعةِ[2] بحضرةِ الخليفةِ المستنصرِ باللهِ، والقضاةِ الأربعِ، وأصحابِ الحلِّ والعقدِ، فأقام سلطانًا خمس عشرةَ سنةً وتسعةَ أشهرٍ وخمسةً وعشرينَ يومًا.

وكان ذا رأيٍ وفطنةٍ، كثيرَ الدَّهاءِ والعسفِ، قمعَ الأمراءَ، وأذلَّ المعاندينَ، حتى اشتدَّ ملكُهُ وهيبَتُه، فهادَتهُ الملوكُ، وأرسلَت قصَّادها إليهِ، كملِكِ الهندِ واليمنِ والمغربِ والرُّومِ والمشرقِ والعبدِ والفِرَنجِ، وفكَّ الأسرى منهم.

وكان لـهُ المواكـبُ الهائلةُ، ومهَّـدَ طريقَ الحجِّ، بحيثُ كانَ يسـافرُ إليهِ من مصرَ النَّفـرُ القليـلُ، وكانَ فيـه خصالٌ حسـنَةٌ، وكانَ يصـرِفُ لمطبخِ الجامعِ فـي الأزهرِ في رمضـانَ سـتَّ مئةٍ وسـبعينَ دينارًا، ومئةَ قنطارِ عسـلٍ، وخمس مئـةِ أردبٍّ قمحٍ للخبزِ المفرَّقِ فيهِ.

---

(١) «في» من (ش).

(٢) في (ش): «بقلعة الجبل».

وفي أيَّامِهِ بنى دائرةَ الحجرةِ الشَّريفةِ، وبعضَ أروقةِ المسجدِ الحرامِ، وبابَ إبراهيمَ، وجعَلَ علوَّهُ قصرًا شاهقًا، وتحتَهُ ميضأةٌ، وبنى عدَّةَ خاناتٍ وآبارٍ في طريقِ الحاجِّ المصريِّ، منها خانٌ في العقبةِ والأزلم[١]، وأنشأَ مدرسةً بسوقِ الجملونِ بالقاهرةِ، والتُّربةِ المقابلةِ لها، والمئذنةِ المعتبرةِ بالجامعِ الأزهرِ، والبستانِ تحتَ القلعةِ، والمتنزَّهِ العجيبِ بالملقةِ، وأنشأ مجرَى الماءِ من مصرَ العتيقةِ إلى القلعةِ، وعمَّرَ بعضَ أبراجِ الإسكندريةِ، وغيرَ ذلكَ من جوامعَ وقصورٍ ومتنزَهاتٍ.

إلَّا أنَّهُ يقالُ: كانَ شديدَ الطَّمعِ، كثيرَ الظُّلمِ والعَسْفِ، مُصادِرًا للنَّاسِ في أخذِ أموالهم، وبطلَ الميراثُ في أيَّامِهِ، بحيثُ كانَ إذا ماتَ أحدٌ أُخِذَ مالُهُ جميعُهُ، كذا قالَ القطبيُّ[٢]، فجمَعَ أموالًا عظيمةً، وخزائنَ واسعةً.

وافتتَحَ اليمنَ، واتخذَ مماليكَ لنفسِهِ، فصارُوا يظلِمونَ النَّاسَ، وأظهَرُوا الفسادَ، وأضرُّوا العبادَ، وصارَ يُغضي عنهُم ويُسامحُهم.

ويحكَى أن بعضَ مماليكِهِ اشترَى متاعًا[٣]، ولم يُرض صاحبَهُ في قيمتِهِ، فقالَ لهُ: شرعَ اللهِ، فضربَهُ بالدَّبُّوسِ[٤] فشجَّ رأسَهُ وقالَ: هذا شرعُ اللهِ، فسقَطَ مغشِيًّا عليهِ، ومضَى بالمتاعِ ولم يقدِرْ أحدٌ يتكلَّمُ، فرفَعَ بعضُ الصَّالحينَ يدَيْهِ ودعا على الجندِ وعلى سلطانِهِ بالزَّوالِ، ثم قالَت لهُ نفسُهُ: كيفَ يزولُ ملكُ هذا السُّلطانِ العظيمِ

---

(١) في (ش): «والألزام». والأزلم: ما بين عقبة أيلة والمدينة، أحد مناهل الحاج المصري، سمي به لأنه لا ينبت به نبات كأنه من الزلم، وهو السهم الذي لا ريش له. كان يقال له قديمًا: الأزنم. انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: زنم).

(٢) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (١٠/ ١٦١).

(٣) في (ش): «شيئًا».

(٤) الدبوس: عَمُود على شكل هراوة مدملكة الرَّأس. انظر: «المعجم الوسيط» (مادة: دبس).

الذي ملأت جنودُهُ وسطوتُه[1] الأرضَ، فلم يمضِ إلَّا القليلُ، ثم وقعَت فتنةٌ بينَهُ وبينَ السُّلطانِ سليمٍ ملكِ الرُّومِ بسببِ إسماعيل شاه، كما سيأتي عندَ ذكرِ السُّلطانِ سليمٍ، فقصدَ كلٌّ منهما الآخرَ في عسكَرَينِ عظِيمَين فالتقَيا بموضعٍ يسمَّى: مرجَ دابق، شمالي حلبَ بمرحلةٍ، في خامسَ عشرَ رجبٍ عامَ اثنينِ وعشرينَ وتسع مئةٍ، فانهزَمَ عسكَرُ الغوريِّ بمكيدَةِ خير بك والغزاليِّ من جماعَتهِ، وفُقِدَ الغوريُّ تحتَ سنابكِ الخيلِ في مرجِ دابق.

ويقالُ: إنه قتلَ في تلكَ الوقعةِ رحمَهُ اللهُ تعالى، وأقامَ السُّلطانُ سليمٌ بعدَ الوقعةِ في بلاد الشَّامِ أشهرًا[2]، وأمرَ بعمارةٍ على قبرِ الشَّيخِ محي الدِّينِ ابن عربي بصالحِيَّةِ دمشقَ.

[الأشرف طومان باي]

ثم تولَّى تلكَ المدة بمصرَ الملكُ الأشرفُ طومان باي الجركسِيُّ: ابن أخ الغوريِّ[3] ووقَعَ بينَهُ وبينَ السُّلطانِ سليمٍ حروبٌ يطولُ ذكرُها، ثم سلَّمَ نفسَهُ طائعًا، فقُتِلَ ببابِ زويلةَ، وأمرَ سليمٌ بدفنِهِ بجانبِ مدفنِ الغوريِّ المشهورِ.

وفي آخرِ أيامِ الغوريِّ في حدودِ العشرينَ ظهرَتِ الفِرَنجُ البُرتقانُ[4] على بنادِرِ[5] الهندِ، استطرَقُوا بها من بحرِ الظُّلماتِ من وراءِ جبالِ القمرِ منبعِ النِّيلِ، فغاصُوا في أرضِ الهندِ، ووصَلَ أذاهُم وفسادُهم إلى جزيرةِ العربِ وبنادرِ اليمنِ

---

(١) في (خ): «وسلطنته».

(٢) في (ش): «شهر».

(٣) في (خ): «هو للغوريِّ ابن أخيه».

(٤) البرتقان: أو البرتقال، يقصد بهم البرتغال.

(٥) بنادِرُ: مركز إداري تتبعه عدة قرى. انظر: «معجم اللغة العربية المعاصرة» لأحمد عمر (مادة: بندر).

وجُدَّةَ، فلمَّا بلَغَ السُّلطانَ الغوريَّ ذلك جهَّزَ إليهم خمسينَ غُرابًا[١] معَ الأميرِ حسينٍ الكرديِّ، وأرسلَ معه فيها عسكرًا عظيمًا من التُّركِ والمغاربةِ واللُّوندِ[٢]، وجعلَ لهُ جُدَّةَ إقطاعًا وأمرَهُ بتحصِينها، فلمَّا وصلَها حسين الكرديُّ شرعَ في بناءِ سورِها وإحكامِ أبراجِها، وهدمَ كثيرًا من بيوتِ النَّاسِ مع عَسْفٍ وشدَّةِ ظلمٍ، بحيثُ بنى السُّورَ جميعَهُ في دونِ عامٍ.

ثم توجَّهَ بعساكرِهِ إلى الهندِ في حدودِ إحدى وعشرينَ وتسع مئةٍ، فاجتمَعَ بسلطانِ كجراتٍ[٣] خليل شاه، فأكرمَهُ وعظَّمهُ، وهرَبَ الفِرَنجُ عن البنادرِ لَمَّا سمِعوا بوصولِهِ، ثم عادَ حسين الكرديُّ على اليمنِ فافتَتحها من بني طاهرٍ ملوكِها، وقتلَ سلاطِينَها في عامِ اثنين وعشرينَ وتسع مئةٍ، وترك بها نائبًا في زبيدٍ، اسمُه بُرُسْبايُ الجركسيُّ، وتمَّ الأمرُ الذي لا مزيدَ عليهِ لهُ وللسُّلطانِ الغوريِّ، وإذا تم شيءٌ بدا نقصُهُ، ثم عادَ حسينٌ إلى جُدَّةَ وقدِمَ مكَّةَ، فبلغَهُ زوالُ دولةِ الغوريِّ، وورد أمرُ السُّلطانِ سليمٍ بقتلِ حسينٍ الكرديِّ، فأخذَهُ شريفُ مكَّةَ بغتةً وقيَّدهُ وشمِتَ بهِ، وأرسلَهُ لبحرِ جُدَّةَ فغرَّقَهُ فيهِ.

وبطومان باي انقرضَتْ دولةُ الجراكسَةِ، وارتفعَتِ السَّلطنةُ من مصرَ، وعادتْ للنيابةِ كما كانت في صدرِ الإسلامِ، وأوَّلُ نوابِها بعَد سلطنةِ الجراكسةِ: خير بك،

---

(١) غراب: سفينة شراعية صغيرة. انظر: «تكملة المعاجم العربية» (مادة: غرب).

(٢) اللوند: طائفة من العسكر، عبارة عن مجموع أفراد من أقوام وأجناس وعناصر مختلفة، وكان مقدمهم يختار من ذوي الجسارة والهمة والإقدام والنجدة، ومن يتوسم فيهم الذب والمدافعة عن حقوق الدولة. انظر: «مجلة لغة العرب العراقية» (٣/ ٦٠٧).

(٣) كجرات: أحد أقاليم الهند، فقد كانت الهند تقسم إلى ثلاثة وعشرين إقليمًا. وتعرف بنهر والة، وبأحمد آباد. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٧٤)، و«تاج العروس» للزبيدي (مادة: كجرت).

أقامَهُ السُّلطانُ سليمٌ نائبًا بها، واستمرَّ إلى أن ماتَ ودفِنَ بمدرسةِ الخيربكيَّةِ تحتَ القلعةِ بدربِ الوزيرِ، ثم مصطفى باشا، ثم أحمد باشا، وقُتِلَ بعدَ أن تسلطَنَ كما يأتي، وهلُمَّ جرًّا.

فائدةٌ

تولَّى مصرَ اثنانِ وعشرونَ سلطانًا مسَّهمُ الرِّقُّ: أيبكُ التركُمانيُّ، وقطزُ المعزِيُّ، وبيبرسُ الظَّاهرُ، وقلاوونُ، وكتُبغا، ولاجِينُ، وبيبرسُ الجاشنكِيرُ، وبرقوق، والمؤيَّدُ شيخ، وطَطرُ، وبُرُسْبايُ، وجقمَقُ، وإينالُ، وخشقدمُ، وبلبايُ، وتمربُغا، وقايتبايُ، وقانصوه، وطومان باي، وجنبلاطُ، والغوريُّ، وطومان باي ابنُ أخيهِ، آخرُ الدَّولةِ المصريَّةِ الجركسيَّةِ.

قالَ النَّاظمُ فيهِ:

وكانَ شَخْصًا حسَنَ المجالسَة ... وهوَ انتهاءُ مدَّةِ الجراكِسَة[1]

وعدةُ سلاطينِ الجراكسةِ اثنان وعشرونَ، ومدَّتهُم مئةٌ وثمانيةٌ وأربعونَ سنةً.

* * *

(١) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (١٠/ ١٦٢).

[الدَّولة العثمانيَّة]

ثم جاءَتِ الدَّولةُ الرُّوميَّةُ العثمانيَّةُ، ألبسَها اللهُ تعالى لباسَ العزِّ المقرونِ بالدَّوامِ، وحلَّاها بحِلْيةِ النَّصرِ المستمرِّ بمرورِ اللَّيالي والأيَّامِ.

[السُّلطان سليم]

فأوَّلُهم بمصر السُّلطانُ سليمٌ، تولَّى مصرَ مُستهلَّ سنة ثلاثٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ، وله عدَّةُ جدودٍ تولَّوا كلُّهم السَّلطنةَ بالرومِ ثم بالقسطنطينيَّةِ العُظمى، ولم يتولَّوا مصرَ، ولا بأسَ بذكرِهم كُلِّهم هنا استِطرادًا لتتمَّ الفائدةُ فأوَّلُهم:

[السُّلطان عثمان]

السُّلطانُ عثمانُ الغازِي بنُ طغريلَ بنِ سليمان شاه، تولَّى سنةَ تسعٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ في أيَّامِ الملكِ النَّاصر محمَّدِ بن قلاوونَ صاحبِ مصرَ، فأقامَ ستًّا وعشرين سنةً، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وعشرينَ وسبع مئةٍ، وكانَ سليمان شاه جدُّهُ سلطانًا بالمشرقِ في بلادِ ماهانَ قربَ بلخٍ، وأصلُهُ من التُّركمانِ الرَّحالةُ النَّزَّالةُ من طائفةِ التَّتارِ، ويتصل نسَبُهُ إلى يافِثَ بن نوحٍ، كذا قالَ القطبيُّ[1].

ونقلَ صاحِبُ «دُررِ الأثمانِ» أنَّ أصلَ منبعِ ملوكِ بني عثمانَ من صميمِ عربِ الحجازِ، وزادَ جماعةٌ من أهلِ التَّاريخِ: أنَّهُ من المدينةِ المشرَّفةِ، واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ الحالِ.

فلمَّا ظهرَ جنكز خان أخربَ بلادَ بلخٍ، فخرَجَ سليمان شاه بخمسينَ ألفًا إلى أرضِ الرُّومِ، فغرِقَ بالفراتِ، فدخَلَ ولدُهُ طغريلُ الرُّومَ، فأكرَمهُ السُّلطانُ علاءُ الدِّينِ السَّلجوقيُّ سلطانُ الرُّومِ.

---

(١) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ١٢٢).

فلمَّا ماتَ طغريلُ خلَّفَ أولادًا أمجادًا، أشدُّهم بأسًا وأعلاهُم همَّةً عثمانُ، فنشأ مولَعًا بالقتالِ والجهادِ في الكفَّارِ، فلمَّا أعجَبَ السُّلطانَ علاءَ الدِّينِ السَّلجوقيَّ ذلكَ منهُ أرسلَ إليهِ الرَّايةَ السُّلطانيَّةَ والطَّبلَ والزَّمرَ، فلمَّا ضُرِبَتِ النَّوبةُ[١] بينَ يديهِ قامَ على قدَميهِ تعظِيمًا لذلكَ، فصارَ قانونًا مستمرًا لآلِ عثمانَ إلى الآنَ، يقومونَ عندَ ضربِ النَّوبةِ، ثم بعدَ ذلكَ تمكَّنَ من السَّلطنةِ، وافتتحَ من الكفَّارِ عدَّةَ قلاعٍ وحصونٍ، رحمَه اللهُ تعالى.

[السلطان أورخان]

ثم تولى السُّلطانُ أورخانُ، ولدُهُ، سنةَ ستٍّ وعشرينَ وسبعمئةٍ، فأقامَ خمسًا وثلاثين سنةً، وتوفيَ سنةَ إحدى وستِّينَ وسبعمئةٍ في أيَّامِ السُّلطانِ حسنٍ صاحبِ مصرَ، وكان شديدًا على الكفَّارِ، ففاقَ والدَهُ في الجهادِ وفتح البلادِ، فافتتحَ قلاعًا كثيرةً، وحصونًا منيعةً، وفتحَ بُرسَا[٢]، وجعلَها مقرَّ سلطنتِه، هذا كلُّهُ ما ذكرَهُ الشيخُ القطبيُّ[٣].

وذكرَ صاحبُ الدُّررِ الثمان في أصلِ منبعِ آلِ عثمانَ: أنَّ عثمانَ جدُّهُ الأعلى من عربِ الحجازِ، وأنَّه هاجرَ من الغلاءِ إلى بلادِ قزمانَ، واتَّصلَ بأتباعِ سلطانها في سنةِ خمسٍ وستِّينَ وستِّمئةٍ، وتزوَّجَ من قونيا، فوُلِدَ لهُ سليمانُ، فاشتهَرَ أمرُهُ بعد عثمانَ، ثم تسلطَنَ سُليمانُ، وهوَ الذي فتَحَ بُرسَا في حدودِ ثلاثينَ وسبعمئةٍ، ثم تسلطَنَ[٤]

---

(١) النوبة: غناء مصحوب بالآلات أشبه بلحن أوركسترالي. انظر: «موجز دائرة المعارف الإسلامية» (٢٤/ ٧٦٤٠).

(٢) برسا: هي بروسة وبورسة أو بورصة، مدينة في تركيا الآسيوية، بنيت على سفح جبل. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص١٥٧).

(٣) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ١٩٠).

(٤) «سليمان، وهو الذي فتح برسا في حدود ثلاثين وسبع مئة، ثم تسلطن» سقط من (ش).

بعدَ سليمانَ ولدُه عثمانُ جواي الأصغرُ، ويقالُ: هو الذي افتتَح بُرسَا وأنَّهُ أولُ ملوكِ بني عثمانَ، فإنَّهُ استقلَّ بنفسِهِ، واتخذَ لهُ مُلكًا بقائمِ سيفِهِ عن اتِّباعِ السَّلاجقةِ، بخلافِ أبوَيهِ، فإنهما كانا تابِعَين للملوكِ السَّلاجقةِ.

ثم تسلطنَ بعدَ عثمانَ ولدُهُ آران عليٌّ، فعظُمَ أمرُهُ، ونبُلَ قدرُهُ، ثم تسلطَنَ بعدَهُ ولدُه أورخانُ يعني: المتقدِّمُ ذكرُه، انتَهى واللهُ أعلَمُ.

[السُّلطان مراد الأوَّل]

ثم تولَّى السُّلطانُ مرادٌ، ولدُ أورخانَ، سنةَ إحدَى وستِّينَ وسبع مئةٍ، فأقامَ إحدَى وثلاثينَ سنةً- وتوفِّيَ سنةَ اثنينِ وتسعينَ وسبعمئةٍ في أيامِ الظَّاهر برقوقٍ صاحبِ مصرَ، وكانَ شديدَ البطشِ والفَتْكِ في الكفَّارِ، وافتتحَ كثيرًا من البلادِ، ومنها أَدْرِنةُ[1] فُتِحتْ سنةَ إحدى وستِّينَ وسبعمئةٍ، فلما ضاقَ الكفَّارُ ذَرعًا أظهرَ واحدٌ من ملوكِهم الطَّاعةَ لهُ، وقدِمَ يقبِّلُ يدهُ، فضرَبَ السُّلطانَ بخنجرٍ كانَ في يدهِ، فاستُشهِدَ رحمَهُ اللهُ تعالى.

[السلطان بايزيد الأول]

ثم تولَّى السُّلطانُ بُلْدرتمر[2] بايزيدُ، ولدُهُ، سنةَ اثنينِ وسبعينَ وسبع مئةٍ، فأقامَ ثمانًا وعشرينَ سنةً، وتوفِّيَ سنةَ عشرينَ وثمان مئةٍ في أيَّامِ المؤيَّدِ شيخٍ صاحبِ مصرَ.

---

(١) أدرنة: مدينة في تركية الأوربية، قريبًا من الحدود اليونانية، كانت العاصمة الأوربية للدولة العثمانية حتى تم فتح القسطنطينية. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٣٦).

(٢) كذا في (خ)، وفي (ش): «يلزم». وفي بعض المراجع: «ييلدرم» وهو لقب له، ويعني البرق. انظر: «تاريخ الدولة العثمانية العلية» (ص١٣٣، ١٦١). وفي كثير من المراجع: (يلدريم)، انظر: «السلوك» للمقريزي (٧/ ٣٢٣).

وكانَ ملِكًا شَهمًا[1] شُجاعًا، استولى على كثيرٍ من قلاعِ النَّصارى وحصونهم.

ولم يزَل بايزيدُ شأنُهُ في العلا يزيدُ، إلى أن جرَّدَ له[2] الحَيفُ سيفَ[3] العناءِ والقهرِ، وطافَ في جِنانِ مُلكِه سمُّ تيمور، الَّذي كانَ من نوائبِ الدَّهرِ، ووافاهُ من رُوَّادِ الرَّدى من لا يغفُلُ عن بايزيدَ ولا عَمرو[4]، وذلكَ لأنَّه[5] لَمَّا رامَ أن يستوليَ على ملوكِ الطَّوائفِ، وضيَّقَ على جماعَتِهم، فهربَ منهم جماعةٌ، واستَعانوا عليهِ[6] بتيمورلنكَ الباغي، وحسَّنوا له الوصولَ لبلادِ الرُّومِ، فوصلَ إلى البلادِ الحلبيَّةِ والشَّاميةِ، وقتلَ وسفَكَ الدِّماءَ، وسبَى الذَّراري، ثم توجَّهَ للرُّومِ فالتقَى مع بايزيدَ، وكانَتْ وقعةً عظيمةً، ثم إنَّ بايزيدَ خدعَهُ عسكرُهُ وانهزَمُوا عنهُ، فثبتَ هوَ وقليلٌ ممَّن معه، مجرِّدًا سيفَهُ لا يطاقُ، فرمَوا عليهِ بساطًا ومسكُوهُ بعدَ أن قاربَ الوصولَ إلى تيمورَ، ثم جعلُوهُ في الحبسِ، فحصَلَ له حمًّى غضبيَّةٌ[7]،........................

(١) «شهمًا» من (خ).

(٢) «له» من (ش).

(٣) «سيف» من (خ).

(٤) في (خ): «عمر».

(٥) «لأنه» من (خ).

(٦) «عليه» من (ش).

(٧) حمى غضبية: أي التي سببها شدة الغضب. قال ابن سينا في «القانون» (٣/ ١٣): فصل في حمى يوم غضبية: قد يعرض لفرط حركة الروح إلى خارج في حال الغضب سخونة مفرطة، ويتشبث بالروح حمى. العلامة: احمرار الوجه إلا أن يخالطه فزع فيصفر، وانتفاخ الوجه شبيه بما ينتفخ في الرقبة، وتكون العينان محمرتين جاحظتين لشدة حركة الروح إلى خارج، وربما عرض لبعضهم رعدة بحركة خلط أو لضعف طباع، ويكون الماء أحمر حادًّا يحس بحدته، وله أدنى بصيص، ويكون النبض ضخمًا ممتلئًا شاهقًا متواترًا. المعالجات: هو تسكينهم وشغلهم بالمفرحات من =

فماتَ رحمه اللهُ، فتنازعَ بنوهُ السَّلطنةَ من بعدِهِ، ودامَ القتالُ بينهُم مدةً مديدةً.

[السُّلطان محمَّد الأوَّل]

ثم تولى السُّلطانُ محمَّدٌ، ولدُهُ، سنةَ عشرينَ وثمان مئةٍ، فأقامَ تسع سنينَ، وتوفِّي سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ في أيَّام الأشرفِ بُرُسْباي.

وكانَ شجاعًا مِقدامًا مجاهِدًا، فتحَ عدَّةَ قلاعٍ وبلادٍ، وبنى المدارسَ، وعمَّرَ العمائرَ، وهو أوَّلُ من عمِلَ الصَّرَّ[1] للحرمَينِ الشَّريفَينِ مِن آلِ عثمانَ.

[السُّلطان مراد الثَّاني]

ثمَّ تولَّى السُّلطانُ مرادٌ، ولدُهُ، سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ، فأقامَ ثمانًا وعشرين سنةً، ثم خَلَعَ نفسَهُ من المُلكِ لولدِهِ محمَّدٍ السُّلطانِ سنةَ ستٍّ وخمسينَ وثمان مئةٍ[2]، وتوفِّيَ سنةَ أربعٍ وستِّينَ وثمان مئةٍ في أيام الأشرَفِ إينالَ صاحبِ مصرَ.

وكانَ ملِكًا شجاعًا، وله الفتوحاتُ العديدةُ ببلادِ الرُّومِ والصَّدقاتُ الجزيلةُ، وكانَ يرسِلُ الصَّرَّ للحرمَينِ في كلِّ سنةٍ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ وخمس مِئةِ دينارٍ[3].

= الحكايات والسماع الطيب واللعب والمناظر العجيبة، وإدخالهم الحمام في ماء فاتر غير كثير الحرارة، وتمرخهم تمريخًا كثيرًا بدهن كثير، فذلك أوفق لهم من الماء الحار، وتغذيتهم بما يبرد ويرطب، ومنعهم الشراب أصلًا، فلا سبيل لهم إليه.

(١) الصَّرُّ عند التجار: ما يُصَرُّ من الدراهم أو الدنانير فيرسل إلى الجهات. انظر: «تكملة المعاجم العربية» لرينهارت (مادة: صرر).

(٢) «وثمان مئة» من (ش).

(٣) «دينار» من (ش).

[السلطان محمد الثاني (الفاتح)]

ثـم تولَّـى السُّـلطانُ محمَّـدٌ، ولدُهُ، فـي حياةِ والدِهِ[١]، سـنةَ سـتٍّ وخمسـينَ، فأقـامَ إحـدى وثلاثينَ سـنةً وتوفِّيَ سـنةَ ثمانٍ وثمانيـنَ وثمان مئةٍ في أيَّامِ الأشـرفِ قايتباي.

وكانَ مـن أعظـمِ الملـوكِ جِهـادًا، وأقواهـم إقدامًـا واجتِهـادًا، وكان مـن أعظَـمِ سـلاطينِ آلِ عثمـانَ، وهـوَ الَّـذي سـنَّ لهـم القوانيـنَ الخاصَّـةَ بهـم إلى[٢] الآنَ.

وفي أيَّامِهِ افتتَحَ القسطنطينيَّةَ الكبرى، وساقَ إليها العساكرَ برًّا وبحرًا، وأقامَ في حِصَارها خمسينَ يومًا، ثم افتتَحها نهارَ الأربعاءِ في جمادى الآخرةِ، سنةَ سبعٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ، وصلَّى الجمعةَ في آياصوفيةَ، ثم جعلَها مقرَّ السَّلطنةِ، وبنى بها المدارِسَ، ورتَّبَ الرَّواتبَ[٣].

[بايزيد الثاني]

ثـم تولَّـى السُّـلطانُ بايزيـدُ، ولـدُهُ، سـنةَ سـبعٍ وثمانيـنَ وثمـان مئـةٍ، فأقـامَ إحـدى وثلاثيـنَ سـنةً، وتوفـي سـنة سـبعَ عشـرةَ وتسـع مئـةٍ فـي أيـامِ الأشـرَفِ الغـوريِّ بطريـقِ أدرنـةَ، بعـدَ أن خلـعَ نفسَـهُ لولَـدِهِ سـليمٍ، وكانَ محبًّـا للعلمـاءِ والمشـايخِ والأوليـاءِ.

وفي أيامِهِ تزايدَ الفتحُ ببلادِ الرُّومِ، وفتحَ عدَّةَ قِلاعٍ وحُصونٍ، وبنى المدارِسَ

(١) «في حياة والده» من (خ).

(٢) «إلى» من (ش).

(٣) «ورتب الرواتب» من (ش).

والجوامِعَ والتَّكايا[١] والزَّوايا والخوانِقَ[٢]، ودارَ الشِّفاءِ للمرضَى، والحماماتِ والجسورَ، ورتَّبَ للمفتي الأعظَمِ ومَن في مرتبَتِه من العلماءِ لكلِّ واحدٍ في كلِّ عام عشرةُ آلافِ عثمانيٍّ[٣]، وكانَ يرسِلُ للحرمَينِ في كلِّ سنةٍ أربعةَ عشرَ ألفَ دينارٍ نصفُها لمكَّةَ، ونصفُها للمدينةِ.

وفي أيَّامِهِ قاتلَهُ أخوه السُّلطانُ جم على السَّلطنَةِ، ثم انهزَمَ جم إلى مصرَ، وحجَّ في زمنِ السُّلطانِ قايتباي، ثم عادَ فأكرمَهُ قايتباي إكرامًا عظِيمًا، ثم رجعَ للرُّومِ[٤] وقاتلَ أخاهُ ثانيًا، فهزَمه، فهربَ جم إلى بلادِ النَّصارَى، فأرسلَ بايزيدُ إليهِ من يُسمُّهُ، فحُلِقَ رأسهُ بموسٍ مسمومٍ، فماتَ.

وفي أيَّامه كانَ ظهورُ إسماعيل شاه، فاستَولى على ملوكِ العجَمِ، وأظهَرَ مذهبَ الإلحادِ والرَّفضِ، وغيَّرَ اعتقادَ أهلِ العجَمِ إلى يومنا هذا.

وفي أيَّامِهِ قدِمَ عليهِ خطيبُ مكَّةَ الشَّيخُ محيي الدِّينِ بنُ عبدِ القادرِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ العراقيُّ، والشَّيخُ شهابُ الدِّينِ بنُ الحسينِ شاعرُ البطحاءَ وامتدحَهُ بقصيدةٍ، ولا بأسَ بذكرِ بعضِها لحُسنِ ألفاظِها وعُذُوبتِها ومطلَعُها:

---

(١) التكايا جمع تكية، وهي بالتركي مرادفة لكلمة خانقاه بالفارسي، ومرادفة لكلمة زاوية في أفريقيا. انظر: «موجز دائرة المعارف الإسلامية» (٢٢/ ٦٨٤٨). وتطلق كلمة تكية أيضًا على المكان الذي يأوي إليه فقراء المسافرين. انظر: «تكملة المعاجم العربية» (مادة: تكية).

(٢) الخوانق: جمع خانقاه؛ بقعة يسكنها أهل الصلاة والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، معرب: فانه كاه، قال المقريزي: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربع مئة، وجعلت لمتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: خنق).

(٣) عثماني: وعثمانية، تجمع على عَثامنة: قطعة نقد تركية. انظر: «تكملة المعاجم العربية» (مادة: عثم).

(٤) «للروم» من (ش).

خُذُوا من ثنائي مُوجِبَ الحمدِ والشُّكرِ ... ومن دُرِّ لفْظِي طِيبَ النَّظمِ والنَّثرِ
فيا راكِبًا يسري عَلَى بَطنِ ضَامِرٍ ... إلى الرُّومِ يُهدِي نحْوَها طَيِّبَ النَّشرِ
لكَ الخَيرُ إن وافيتِ برُسَّا فسِرْ بها ... رُويدَكَ لإستَنبُولَ سَامِيةِ الذِّكرِ
لذي مَلِكٍ لا يَبلُغُ الوَصْفُ كُنْهَهُ ... شَرِيفِ المسَاعي نافِذِ النَّهيِ والأمرِ
إلى بايَزيدَ الخَيرِ والمَلِكِ الذِي ... حمَى بيْضَةَ الإسْلامِ بالبِيْضِ والسُّمرِ
وجرَّدَ للدِّينِ الحنيفِ صَارِمًا ... أبادَ بهِ جميعَ الطَّواغِيتِ والكُفرِ
وجاهَدَهُم في اللهِ حقَّ جِهادِهِ ... رجاءً بما يبقَى مِن الفوزِ والأجرِ
لهُ هَيبةٌ مِلءُ الصُّدورِ وصولَةٌ ... مُقسَّمةٌ بينَ المخافَةِ والذُّعرِ
أطاعَ لهُ ما بينَ رُومٍ وفارِسٍ ... ودانَ لهُ ما بَينَ بُصرَى إلى مِصرِ
هوَ البحرُ إلَّا أنَّهُ دائمُ العَطَا ... وذلكَ لا يخْلُو منَ المدِّ والجزرِ
هوَ البدرُ إلَّا أنهُ كامِلُ الضِّيا ... وذاكَ حَلِيفُ النَّقصِ في كامِلِ[1] الشَّهرِ
هو الغيثُ إلَّا أنَّ للغَيثِ مُسْكَةً ... وذا لا يَزالُ الدَّهرَ يَنهَلُّ بالقَطرِ
هو السَّيفُ إلَّا أنَّ للسَّيفِ نَبوةً ... وفَلًّا وذا مَاضِي العَزِيمةِ في الأمرِ
سَلِيلُ بني عُثمانَ والسَّادةِ[2] الأُولى ... عَلَى مجدِهِم فوقَ السِّمَاكَينِ والنَّسرِ
مُلوكٌ كِرامُ الأصلِ طَابَتْ فُروعُهُم ... وهَلْ يُنسَبُ الدِّينارُ إلَّا إلى التِّبرِ
محَوا أثرَ الكُفَّارِ بالسَّيفِ فاغْتدَت ... بهِم حَوزَةُ الإسْلامِ سَامِيةَ القَدرِ
فيا مَلِكًا فاقَ الملُوكَ مَكارِمًا ... فكُلٌّ إلى أدْنى مَكارِمِهِ يجْري

(١) في (ش): «معظم».
(٢) في (ش): «وأنسابه».

لئن فُقتَهم في رُتبَةِ المُلْكِ والعُلا فإنَّ اللَّيالي بَعضُها لَيلَةُ القَدرِ

فدَتْكَ مُلوكُ الأرضِ طُرًّا لأنَّها سِرارٌ وأنتَ البدرُ في غُرَّةِ الشَّهرِ

تعالَيتَ عَنهُم رِفعَةً ومَكانَةً وذاتًا وأوْصافًا تجِلُّ عنِ الحَصْرِ

سمَوْتَ عُلُوًّا إذ دَنوتَ تَواضُعًا وقُمْتَ بحَقِّ اللهِ في السِّرِّ والجَهْرِ

غدَتْ بكَ أرْضُ الرُّومِ تَزهُو ملامةً وترفِلُ في ثَوبِ الجَلالةِ والفَخرِ

ألسْتَ ابنَ عُثمانَ الذِي سارَ ذِكرُهُ مَسِيرَ ضِياءِ الشَّمسِ في البَرِّ والبَحرِ

يمِينُكَ يروِي عَن عَطاءٍ ونائلٍ ووجهُكَ يروِي في البشَائرِ عَن بِشْرِ

وإني لصَوَّانٌ لدُرِّ قَلائدِي عنِ البَذْلِ[1] إلَّا فيكَ يا مَلِكَ العَصرِ

فقابِلْ رعَاكَ اللهُ شُكرِي بمِثلِهِ فإنَّكَ للمَعرُوفِ مِن أكرَمِ الذُّخرِ

فلا زِلتَ محرُوسَ الجَنابِ مُؤيَّدًا مِنَ اللهِ بالتَّوفيقِ والعِزِّ والنَّصرِ

فأجازهُ عليها بألف دينارٍ، ورتَّبَ لهُ في دفترِ الصَّرِّ كلَّ سنةٍ مئةَ دينارٍ، فكانَت تصلُ إليهِ ثم إلى أولادِهِ من بعدِهِ، وهيَ جديرةٌ بذلكَ، فقد مدحَ بعضُ الشُّعراءِ الخليفةَ المأمونَ بقصيدةٍ فأجازَهُ عليها بخمسينَ ألفَ دينارٍ.

وكانَ للسُّلطانِ بايزيدُ عدَّةُ أولادٍ، وكانَ يتوقعُ العهدَ بالسَّلطنةِ لأكبرِ أولادِهِ أحمدَ، فمالَ العسكرُ إلى ولدِهِ سليمٍ، فتحارَبَ سليمٌ مع والدِهِ ووقعَ بينهما القتالُ، ثمَّ لَمَّا رأى ميلَ العسكرِ إلى ولَدِه سليمٍ عهِدَ إليهِ بالسَّلطنةِ، وانتقلَ بايزيدُ إلى رحمةِ اللهِ تعالى، ودُفنَ بالقسطنطينيةِ، وعلى قبرِهِ الأُنسُ والجلالةُ.

---

(١) في (خ): «الذر».

[السُّلطان سليم]

ثم تولَّى السُّلطأن الأعظمُ سليمٌ، ولدُهُ، فاتحُ مصرَ والشَّام، وسائرِ مماليكِ العربِ، في سنةِ سبعَ عشرةَ وتسع مئةٍ، فأقامَ تسعَ سنينَ وثمانيةَ أشهُرٍ، وتوفي سنة ستٍّ وعشرينَ وتسع مئةٍ.

وكانَ سلطانًا قهَّارًا، وملكًا جبَّارًا، كثيرَ السَّفكِ، قويَّ البَطْشِ، كثيرَ الفَحْصِ عن أخبارِ النَّاسِ، ولما فرغَ من دفنِ والدِهِ خرجَ لقتالِ أخيهِ أحمدَ فهزَمَ عسكرَهُ وأسرَهُ، ثم أمرَ بخنقِهِ، ثم قتلَ إخوتَهُ جميعًا وأولادَهم حتى تمَّ أمرُه.

وفي أيَّامِهِ تزايدَ ظهورُ شأنِ إسماعيل شاه، واستولى على سائرِ ملوكِ العجمِ، وملكَ خراسانَ وأذربيجانَ وتبريزَ[1] وبغدادَ وعراقِ العجَمِ[2]، وقهرَ ملوكَهم، وقتَلَ عساكِرَهم، بحيثُ قتلَ ما يزيدُ على ألفِ ألفٍ، وكان عسكرُهُ يسجدُونَ لهُ ويأتمِرونَ بأمرِهِ، وكان يدَّعِي الرُّبوبيَّةَ، وقتلَ العلماءَ، وأحرَق كتُبَهم ومصاحِفَهم، ونبشَ قبورَ المشايخِ من أهلِ السُّنَّةِ، وأخرجَ عِظامَهم وأحرَقَها، وكانَ إذا قتلَ أميرًا أباحَ زوجَتهُ وأموالَهُ لشخصٍ آخرَ.

---

(١) تبريز: أشهر مدن أذربيجان: وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجصّ، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها، والفواكه بها رخيصة. وقد جعلها هولاكو مقر حكمه. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ١٣)، و«تقويم البلدان» لأبي الفداء (ص٤٠٠).

(٢) «وملك خراسان وأذربيجان وتبريز وبغداد وعراق العجم» من (خ). وعراق العجم: وكانت تعرف ببلاد الجبل، أو بلاد الجبال، وهي سلطنة تلاصق العراق، ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان، ومن جهة الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ومن جهة الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن جهة الشّمال بلاد الدّيلم وقزوين، وأعظم من توارث السلطان فيها بنو بويه، من أهم مدنها: أصبهان، وإربل، وشهرزور. انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ١٦٥)، و«صبح الأعشى» للقلقشندي (٤/ ٣٦٦).

ومما يُنسَبُ إليهِ:

نحْــنُ أنــاسٌ غَــلا طبْعُنــا حُــبُّ عَلـيٍّ بــنِ أبـي طالِــبِ
يعِيبُنــا النَّــاسُ عَلــى حبِّــهِ فلعنَــةُ اللهِ علــى العَائــبِ

فأجابَهُ بعضُ علماءِ أهلِ السُّنَّةِ:

مـا عَيــبكُم هَــذا ولـكنَّــهُ بُغضُ الـذي لُقِّبَ بالصَّاحِـبِ
وكذِبكُــم عَنــهُ وعَــن بَـيتِـهِ فــلَعنَةُ اللهِ علــى الــكاذِبِ[١]

فلما بلَغَ السُّلطانُ سليمٌ قُبحَ فعالِهِ[٢] تحرَّكت همَّتُه لقتالِه، وعدَّ ذلكَ من أفضَلِ الجهادِ فالتقَى معهُ بقربِ تبريزَ بعسكَرٍ جرَّارٍ، وكانت وقعةً عظيمةً، فانهزَمَ جيشُ إسماعيل شاه، واستولى سليمٌ على خيامِهِ وسائرِ ما فيها، وأعطى الرَّعيةَ الأمانَ، ثم أرادَ الإقامةَ بالعجمِ للتَّمكُّنِ من الاستيلاءِ عليها، فما أمكنَهُ ذلكَ لشدَّةِ القَحطِ بحيثُ، بيعَتِ العليقةُ[٣] بمئتي[٤] درهمٍ، والرَّغيفُ بمئةِ[٥] درهمٍ.

وسببُهُ تخلُّفُ قوافِلِ الميرةِ[٦] التي كانَ أعدَّها السُّلطانُ سليمٌ لتتبعَهُ في مكانِ

---

(١) الشعر من (خ). وينسب بيتا الإجابة إلى المولى أبي السعود. انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (١٠/ ٥٨٥).

(٢) في (ش): «ذلك» بدل «قبح فعاله».

(٣) كذا في النسختين «العليقة»، وهي: البعير أو الناقة يوجهه الرجل مع القوم إذا خرجوا ممتارين ويدفع إليهم دراهم يمتارون له عليها. ولعل المراد: «العلقة» أو «العلاقة»، وهي: ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغذاء. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: علق).

(٤) في (ش): «بمئة».

(٥) في (خ): «بمئتي».

(٦) الميرة: جلب الطعام. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مير).

الحاجةِ، وما وجدَ في تبريزَ شيئًا؛ لأن إسماعيل شاه عندَ انهزامِهِ أمرَ بإحراقِ أجرانِ[1] الحَبِّ والشَّعيرِ، فاضطرَّ سليمٌ للعودِ إلى بلادِ الرُّومِ.

وفي أيَّامِهِ كانت وقعةُ السُّلطانِ الغوريِّ، وذلكَ أن السُّلطانَ سليمًا لَمَّا رجَعَ من غزوِ إسماعيلَ شاه وقتالِهِ من شدَّةَ القحطِ، تفحَّصَ عن سببِ انقطاعِ قوافِلِ الميرةِ وتخلُّفِها عنهُم، فأُخْبِرَ أنَّ سببَهُ سلطانُ مصرَ قانصوه الغوريُّ، فإنَّهُ كانَ بينَهُ وبينَ إسماعيل شاه محبَّةٌ ومراسلاتٌ وهدايا.

فلمَّا تحقَّقَ سليمٌ ذلكَ صمَّمَ على قتالِ الغورِيِّ أوَّلًا، ثم بعدَهُ يتوجَّهُ إلى قتالِ إسماعيل شاه[2]، فتجهَّزَ السُّلطانُ سليمٌ وتهيَّأَ لقتالِ الغوريِّ، وتوجَّهَ بعسكرِهِ إلى جهةِ حلبَ، عامَ اثنين وعشرينَ وتسع مئةٍ، فخرجَ قانصوه الغوريُّ من مصرَ بعساكرَ عظيمةٍ لقتالِهِ، فوقعَ المصافُّ بمرجِ دابقٍ شمالي حلبٍ، ورمَى عسكرُ سليمٍ[3] عسكرَ الغوريِّ بالبُندقِ[4]، ولم يكُن في عسكَرِ الغوريِّ شيءٌ منهُ، فكانَتْ الهزيمةُ على عسكَرِ الغورِيِّ بعدَ أن كانَتِ النُّصرةُ لهُ أوَّلًا واستيلاؤه على الخيامِ، وفُقِدَ الغوريُّ تحت سنابكِ الخيلِ كما مرَّ عندَ ذِكْرِهِ، وكانَ ذلكَ بمخامرَةِ خير بك نائبِ حلبَ والغزاليِّ نائبِ الشَّامِ، بعدَ أن عهِدَ إليهِما السُّلطانُ سليمٌ بتوليتِهما مِصرَ والشَّامِ.

ثم بعدَ الوقعةِ أخلَيا لهُ حلبَ لأنَّهما معَهُ في الباطِنِ، فأقبلَ سليمٌ إلى حلبَ فخرجُوا إلى لقائهِ يطلبونَ الأمانَ ومعهُم المصاحِفُ يتلونَ جهارًا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ

---

(١) أجران: جمع جرن، وهي رقعة من الأرض تُكَدَّس فيها الغلال وغيرها من حصيلة الزِّراعة. انظر: «معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٣٦٦)، وتطلق أيضًا على البيدر.

(٢) «شاه» من (خ).

(٣) في (ش): «ورمي» بدل «ورمى عسكر سليم».

(٤) البندق: الذي يُرمى به، الواحدة بندقة، والجمع البنادق. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: بندق).

﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فقابلَهم بالإجلالِ والإكرامِ، ثم حضرَتْ صلاةُ الجمعةُ، فلمَّا سمِعَ الخطيبُ خطبَ باسمِهِ وقالَ: خادمُ الحرمَين الشَّريفَينِ سجدَ للهِ شُكرًا على أنْ أهَّلَهُ لذلكَ.

ثم ارتحلَ للشَّامِ بعدَ أن أخلاها له خير بك والغزاليُّ فخرَجُوا للقائهِ، ودعَوا لهُ، فأكرمَهم وأقامَ بها لتمهيدِ أمرِ المملكةِ، وأمر بعمارةِ قبةٍ على الشَّيخِ محيي الدِّينِ بن عربيٍّ بصالحيَّةِ دمشقَ، ورتَّبَ عليهِ أوقافًا كثيرةً، ثم توجَّهَ إلى مصرَ، فلمَّا وصلَ إلى[١] خانَ يونسَ بقربِ غَزَّةَ قتلَ فيهِ وزيرَهُ حسام باشا، ثم لَمَّا دخَلَ مصرَ وقعَ بينَهُ وبينَ طومان باي سلطانِ الجراكسةِ حروبٌ يطولُ ذكرُها، وقُتِلَ بها وزيرُ سليمٍ: يوسف سنان باشا، وكانَ مِقدامًا ذا رأيٍ وتدبيرٍ[٢]، فأسفَ سليمٌ عليهِ بحيثُ قالَ السُّلطانُ سليمٌ: أيُّ فائدةٍ في مِصرَ بلا يوسُفَ؟

وقاتلَ طومان باي ومَن معَهُ من الأمراءِ قتالًا شدِيدًا، وظهرَ لطومان باي شجاعةٌ عظيمةٌ[٣] عُرِفَ بها، وشهدَ له بها الفريقانِ، وأوقعَ الفَتْكَ بعسكرِ السُّلطانِ سليمٍ، قالوا: ولولا شدُّ عضدِه بخير بك والغزاليِّ ومكيدَتهِ ما شربَ سليمٌ من نيلِ مصرَ، لكن لكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسِهِ، ثمَّ لَمَّا ظفرَ بطومان باي أرادَ سليمٌ أنْ يكرِمَهُ، ويجعلَهُ نائبًا عنه بمصرَ، فعارضَهُ خير بك، وخافَ عاقبةَ فعلِهِ، وقال للسُّلطانِ سليمٍ: إنَّكَ[٤] إنْ فعلْتَ ذلكَ استولى على السَّلطنةِ ثانيًا، وحسَّنَ له قتلَه، فقتَلَهُ وصلَبَهُ على بابِ زويلةَ، ودفنَهَ، كما أسلفناهُ.

---

(١) «إلى» من (خ).

(٢) «وتدبير» من (ش).

(٣) في (ش): «قوية».

(٤) «إنك» من (ش).

ونزلَ السُّلطانُ سليمٌ في المقياسِ[1] مدةَ إقامَتِهِ بمصرَ؛ بعدًا عن روائحِ القتلى، وحَذَرًا من المكيدةِ إلى أن مهَّدَها.

ثم تولَّى خير بك أميرُ الأمراءِ بمصرَ، وولَّى الغزاليَّ على الشَّامِ، وولَّى بمصرَ القضاةَ الأربع، وهم قاضي القضاةِ كمالُ الدِّينِ الشَّافعيُّ، وقاضي القضاةِ نورُ الدِّينِ عليُّ بن ياسينَ الطَّرابلسيُّ الحنفيُّ، وقاضي القضاةِ الدَّميريُّ المالكيُّ، وقاضي القضاةِ شهابِ الدِّين[2] أحمدِ بنِ النَّجارِ الحنبليِّ، واستولى على الأرضِ الحجازيَّةِ وغيرِها، ورتَّبَ الرَّواتبَ، وأبقَى الأوقافَ على حالها، ورتَّبَ لأهلِ الحرمَينِ في كلِّ سنةٍ سبعةَ آلافِ إردبِّ حبٍّ.

ثم عادَ للقسطنطينيَّةِ، وقد صرَفَ غالبَ خزائنِهِ، فأخَّرَ السَّفرَ عن بلادِ العجمِ ليجمَعَ ما يستعينُ بهِ على القتالِ، فظهرَ له في أثناءِ ظهرِهِ جراحة فعجزَت عن علاجِهِ الأطباءُ، واتَّسعَ الجرحُ بحيثُ كان توضَعُ الدَّجاجة فيه فتذوبُ، وشُوهِدَت معاليقُ أكبادِهِ من خلفِ ظهرِهِ، إلى أن توفِّيَ سنةَ ستٍّ وعشرينَ وتسعِ مئةٍ كما مرَّ، سامحَهُ الله تعالى.

[السلطان سليمان القانوني]

ثم تولَّى السُّلطانُ سليمانُ بنُ السُّلطانِ سليمٍ، سنةَ ستٍّ وعشرينَ وتسع مئةٍ، وعمرُه نحو ستٍّ وعشرينَ سنةً، فأقامَ تسعًا وأربعينَ سنةً، وتوفيَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ

---

(١) دار المقياس: دار كبيرة في جزيرة وسط النيل، يحيط بها من داخلها في كل وجه أقبية دائرة على عمد، وفي وسط الدار فسقية كبيرة عميقة ينزل إليها بدرج رخام، يجتاز إليها على جسر من السفن فيه ثلاثون سفينة وكان بها قلعة عظيمة فخربت، وبها المقياس الذي يقيس ارتفاع الماء في النيل. انظر: «نزهة المشتاق» للإدريسي (ص٣٢٥)، و«خريدة العجائب» لأبي حفص ابن الوردي (ص٨٨).

(٢) «شهاب الدين» من (ش).

وتسع مئةٍ، وكانَ سلطانًا سعيدًا عادِلًا فاضِلًا جوادًا ممدُوحًا، مجاهِدًا في سبيلِ اللهِ تعالى، ناظِرًا إلى الرَّعيةِ بالعدلِ، لم يلِ من بني عثمانَ مثلَهُ، لا قبلَهُ ولا بعدَهُ.

وصلَتْ سراياهُ إلى أقصى الشَّرقِ والغربِ، وغزا بنفسِهِ ثلاثَ عشرةَ غزوةً عظيمةً، وكانَ أيَّانَ سلكَ ملك، وأنَّى توجَّهَ فتحَ وفتك، مؤيَّدًا في حروبه، مُسدَّدًا في آرائه، مَسعُودًا في وقائعِه، وما زالَ منذُ وليَ قائمًا بنصرِ الدِّينِ وإظهارِ العدلِ، وتأييدِ الشَّريعةِ وتجديدِ دينِ هذهِ الأمَّةِ في القرنِ العاشرِ، إلى أن توفَّاهُ اللهُ تعالى، وكانَتْ أيَّامُهُ مِن غُرَرِ الزَّمانِ.

وشرعَ أولَ توليتهِ في قتلِ أولادِه خوفَ الفِتنِ والخروجِ عليهِ، فأرسلَ أمرَ إحضارِ ولدِهِ مصطفى بعدَ توجُّهِهِ إلى تبريزَ لأخذِ العجمِ، فأمرَ بخنقِهِ، ثم تحيَّلَ على تحصيلِ ولدِه بايزيدَ بعدَ أن وقعَتْ فتنٌ قُتِلَ فيها نحو خمسينَ ألفًا، وعلى تحصيلِ بقيَّةِ أولادِهِ أورخانَ ومحمودٍ وعبدِ اللهِ وعثمانَ، وبذلَ المالَ الجزيلَ على ذلكَ حتى ظفرَ بهم، وخنقَهم وخنقَ أولادَهم.

وفي أيَّامِهِ[١] أوَّلَ توليَته سنةَ سبعٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ عصَى الغزاليُّ الجركسيُّ أميرُ الأمراءِ بالشَّامِ وادَّعى السَّلطنةَ، وخُطِبَ له بالشَّامِ، وتوجَّهَ لمحاصرةِ حلبَ، فحاصرَها، ثم أدركَهُ الشِّتاءُ فرجَعَ للشَّامِ، فجهزَ السُّلطانُ سليمانُ إليهِ العساكِرَ، فقُتِلَ وحُمِلَ رأسُهُ إليهِ، ثم ماتَ أميرُ الأمراءِ بمصرَ خير بك بعدَهُ بسنةٍ بفرخِ جَمْرٍ[٢]، ودفِنَ بمدرسةِ الخيربَكيَّةِ بدربِ الوزيرِ، ويقالُ: مكثَ أيامٌ يُسمَعُ صُراخُهُ بالقبرِ.

وفي سنةِ ثلاثينَ وتسع مئةٍ وردَ مرسومُ السُّلطانِ لأمراءِ مصرَ سرًّا بقتلِ أحمد

---

(١) «أيامه» من (ش).

(٢) فرخ جمر: خراج كبير. انظر: «تكملة المعاجم العربية» لرينهات (مادة: جمر).

باشا نائبِ مصرَ، وذلكَ بإغراءِ الوزيرِ الأعظمِ إبراهيم باشا؛ لعداوةٍ كانَتْ بينَهُما، فوقعَ المرسومُ بالقدَرِ في يدِ أحمد باشا، فأخفَاهُ، وأحضرَ الأمراءَ المكتوبَ لهم ذلكَ، وذكرَ لهم أنَّ أمرَ السُّلطانِ وردَ بقتلِهم، فأذعَنُوا قهرًا للأمرِ، فقتَلَهم، ثمَّ ادَّعى السَّلطنةَ لنفسهِ، فأمرَ أن يخطبَ باسمِهِ على المنابرِ، وضرِبَت باسمِهِ السِّكةُ على الدَّراهمِ والدَّنانيرِ، وصادرَ النَّاسَ وجمعَ الأموالِ.

وكان ممَّن حبسَهُ للمُصادَرةِ جانمُ الحمزاوِيُّ ومحمود بيك، فذهبَ أحمد باشا يومًا للحمَّامِ فكسرا الحبسَ، وبرزا ونصبَا صنجقًا[١] سلطانيًّا، ونَاديا: مَنْ أطاعَ السُّلطانَ فليقِفْ تحتَ لوائِهِ. فاجتمَعَ خلائقُ، وهجَمُوا على أحمد باشا في الحمَّامِ[٢]، فتسلَّقَ من السطوحِ، وهربَ إلى شيخِ عربِ الشَّرقيَّةِ ابنِ بقر، فخوَّفوهُ العاقبةَ، فسلَّمهَ لهم، فقَطعُوا رأسَهُ، وعُلِّقَ ببابِ زُويلةَ، ثم بُعِثَ بهِ للسُّلطانِ.

وفي سنة ثمانٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ كانَت غزوةُ رُوْدِسَ[٣] توجَّهَ لها السُّلطانُ بنفسِهِ، وأخذَ ما حولَها من قلاعٍ وحصونٍ، وأحاط بها برًّا وبحرًا، وكانَ حِصنُها في غايةِ الاستحكامِ، يعجَزُ الواصفُ عنهُ، فما استطاعَ المسلمونَ قُربَها من المدافِعِ، فتأخَّرتْ عساكرُ البرِّ قليلًا، وأُمِروا بسوقِ الرَّملِ والتُّرابِ أمثالَ الجبالِ، وتترَّسُوا بهِ، وصاروا يقدِّمُونَهُ قليلًا قليلًا، إلى أن وصَلَ التُّرابُ إلى الخندقِ وصارَ الكفَّارُ

---

(١) الصنجق أو السنجق: الراية. والسُّنجق باللغة التركية معناه الطعن؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح؛ والرمح هو آلة الطعن يسمّى بذلك مجازًا. ومنه السّنجقدار، وهو الذي يحمل السّنجق خلف السلطان. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٢/ ١٤٢) (٥/ ٤٣٠).

(٢) «في الحمام» من (ش).

(٣) رودس: جزيرة في البحر المتوسط، مقابل الإسكندرية. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٧٨)، و«المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٢٧٨).

تحتَ المسلمينَ فرمَوهم بالنَّارِ، فاستغاثوا وطلَبُوا الأمانَ، وشَرطُوا الخروجَ منها، فاستولى عليها السُّلطانُ.

وخرجَ الكفَّارُ منها، فعمِلُوا قلعةَ مالطةَ[١]، وجعلُوها في غايةِ الحصارِ، وصاروا يؤذُونَ المسلِمينَ إلى الآنَ، وندِمَ السُّلطانُ سليمانُ حيثُ أعطاهُمُ الأمانَ، وأرسلَ إليهم عمارةً عظيمةً وعساكرَ، فوقعَتْ مخالفةٌ أدَّتْ لانكِسَارهم، ولم يظفَرُوا بالمرادِ، وكانَ في نفسِ المرحومِ تدارُكُ هذا الأمرِ، وإرسالُ عسكرٍ آخرَ لأخذِ مالطةَ، فما أمهلَهُ الأجلُ.

وفي سنةِ تسعٍ وأربعينَ خرجَ السُّلطانُ سليمانُ لغزوِ العجمِ، فوصَلَ إلى تبريزَ وأخذَها، ثمَّ لَمَّا دخلَ الشِّتاءُ رجعَ لجهةِ بغدادَ، فأخذَها وما حولَها من جميعِ البلادِ والجزائرِ، وواسطَ، وبنى على قبرِ أبي حنيفةَ الإمامِ قُبَّةً ومدرسةً، ثم توجَّهَ في الصَّيفِ للعجمِ، فهرَبَ الشَّاهُ، وأرسلَ يطلبُ الصلحَ، فعقدَهُ له بعدَ أن فتحَ عراقَ العجمِ.

وفي آخرِ أيامهِ حدثتْهُ نفسُهُ بغزوِ مدينةِ سَكْتَوارَ[٢] ببلادِ النَّصارى، وكانَ به مرضٌ مؤلمٌ، فنهاهُ الطَّبيبُ عن الخروجِ فلم يُطِعهُ، وقالَ: أريدُ أن أموتَ غازيًّا فتوجَّهَ لها، وكانَتْ غزوةً عظيمةً، ووقعةً مشهورةً، ولَمَّا اشتَدَّ الحصارُ والقتالُ اشتدَّ على السُّلطانِ مرضُهُ، وأخذَتهُ غمرَاتُ الموتِ، وصارَ يبتَهِلُ إلى اللهِ بتعجِيلِ الفتحِ، فوقعَتِ النَّارُ في خزانةِ بارودِ الكفَّارَ، فحصَلَ أمرٌ مهولٌ من خسفِ قلعَتِهم، فتزاحَمَ المسلمونَ واغتَنموا الفرصةَ، فأخذُوا القلعةَ واستولَوا على المدينةِ، ووضعوا

---

(١) مالطة: جزيرة بقرب جزيرة الأندلس، عظيمة الخيرات كثيرة البركات. انظر: «آثار البلاد» للقزويني (ص٥٥٧).

(٢) سكتوار: (سكودرا، سكوتاري، شقودرا) مدينة في تركيا الأوربية، في ألبانيا العليا، جنوب البحيرة التي تحمل الاسم نفسه. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٧٣).

السَّيفَ في الكفَّارِ، فجاءَ البشيرُ للسُّلطانِ سليمانَ ففرِحَ، وقالَ: قد طابَ الموتُ الآنَ، فتوفَّاهُ اللهُ تعالى إلى الرَّحمةِ والرُّضوانِ.

وأخفَى الوزيرُ الأعظَمُ محمَّد باشا[1] موتَهُ، وقامَ بالأمرِ أتمَّ قيامٍ، وأرسَلَ سرًّا أحضرَ ولدَهُ السُّلطانَ سليمًا من مسيرةِ ستِّينَ يومًا، وأجلسَهُ على التَّختِ، ولم يقَع لحسنِ تدبيرِهِ شيءٌ من الاختلافِ، وانتظمَتْ بحسنِ سياسَتِهِ الأحوالُ، ولم يلِ الوزارةَ لبني عثمانَ مثلُهُ، ولهُ خيراتٌ ومآثرُ.

ولَمَّا ماتَ السُّلطانُ سليمانُ رثاهُ الشُّعراءُ بكلِّ لسانٍ، فمن ذلكَ ما رثاه بِهِ المفتي الأعظَمُ أبو السُّعودِ صاحِبُ «التَّفسيرِ»، وهيَ طويلةٌ:

أصَوتُ صَاعقَةٍ أم نَفخَةُ الصُّورِ ... فالأرْضُ قد مُلئَتْ مِن نَقرِ ناقورِ
أصابَ منها الورَى دَهياءُ داهِيةٌ ... وذاقَ منها البرايا زَعقَةَ الطُّورِ
تهدَّمَتْ وقْعَةُ الدُّنيَا لوَقعَتِها ... وانهَدَّ ما كانَ من دُورٍ ومِن سُورِ
فمِن كئيبٍ وملهُوفٍ ومِن دنِفٍ ... عانٍ بسلسِلَةِ الأحزانِ مأسورِ
فيا لهُ من حدِيثٍ مُوحِشٍ نكرٍ ... يَعافُهُ السَّمعُ مَكرُوهٍ ومَنفورِ
تاهَتْ عيونُ الورَى مِن هولِ وحشَتِهِ ... فأصبَحوا مثلَ مجنونٍ ومَسحُورِ
تقطَّعَت قَطعًا منهُ القلُوبُ فلا ... يكادُ يوجَدُ قلبٌ غيرُ مكسُورِ
أجفَانُهم سفُنٌ مشحُونةٌ بدَمٍ ... تجْري ببَحرٍ من العَبراتِ مسجُورِ
أتى بوجهِ نهارٍ لا ضِياءَ لهُ ... كأنَّهُ غارَةٌ شُنَّتْ بديجُورِ[2]

---

(١) «محمد باشا» من (ش).

(٢) ديجور: ليلة ديجور: مظلمة. انظر: «الصحاح» للجواهري (مادة: دجر).

أم ذاكَ نَعيُ سُليمانَ الزَّمانِ ومَنْ ... قضَتْ أوامِرُهُ في كلِّ مأمورِ

ومَنْ[١] ومَنْ ملأَ الدُّنيا مهابَتُهُ ... وسخَّرتْ كلَّ جبَّارٍ وتَيمورِ

لهُ وقائعُ في الأكنافِ شائعَةٌ ... أخبارها زُبِرَت في كلِّ طامُورِ

ورايةٌ رُفِعتْ للمَجدِ خافقَةً ... تجرِي على عَلَمٍ بالنَّصْرِ منشُورِ

يا نفسُ مالَكِ في الدُّنيا مخلَّفةً ... مِن بعدِ رِحلَتهِ عَن هذِهِ الدُّورِ

وكيفَ تمشِينَ فوقَ الأرضِ غافِلَةً ... أليسَ جُثمَانُهُ فيها بمقْبُورِ

فللمَنايا مَواقِيتٌ مُقدَّرةٌ ... تأتي عَلَى قدَرٍ في اللَّوحِ مَسطورِ

وليسَ في شأنِها للنَّاسِ مِن قِصَرٍ ... ومدخَلٍ ما بتقدِيمٍ وتأخِيرِ

يا نفسُ فاتَّئدِي لا تهلِكِي أسَفًا ... فأنتِ مَنظُومةٌ في سِلكِ مَغدورِ

إذ لَسْتِ مَأمورةً بالمستَحِيلِ ولا ... بما سِوى بذْلِ مجهُودٍ وميسُورِ

إنَّ المنَايا وإن عَمَّتْ محرَّمةٌ ... على شَهيدٍ جميلِ الحالِ مَبرورِ

مرابطٍ في سَبيلِ اللهِ مُقتَحِمٍ ... مُعارِكِ الحتفِ بالرِّضوانِ مأجُورِ

ما ماتَ بلْ نالَ عَيشًا باقِيًا أبدًا ... عَن عيشٍ فانٍ بكلِّ الشرِّ مَغمُورِ[٢]

* * *

---

(١) في «سمط النجوم العوالي»: «حقًّا».

(٢) انظر: «الشقائق النعمانية» لطاشكبري زاده (ص٣٧٨)، و«سمط النجوم العوالي» للعاصمي (٤/ ١٠٥).

ذِكرُ وزراءِ السُّلطانِ سُليمانَ بمصرَ

وهم خمسةَ عشرَ:

أوَّلُهم: **مصطفَى باشا**، تولَّى سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ تسعةَ أشهرٍ وخمسةً وعشرينَ يومًا.

ثم **أحمدُ باشا**، فأقامَ سنةً، ثم تسلطَنَ وقُتلَ كما مرَّ.

ثم **قاسمُ باشا**، تولَّى سنةَ إحدَى وثلاثينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ نحوَ تسعةِ[1] أشهرٍ وأربعةٍ وعشرينَ يومًا.

ثم **إبراهيمُ باشا**، عامَ اثنينِ وثلاثينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ نحوَ ثلاثةِ أشهرٍ، فأحاطَ بأحوالِ مصرَ، ورتَّبَ الدِّيوانَ.

ثم **سليمانُ باشا**، سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ تسعَ سنينَ وإحدى عشرَ شهرًا، وله عدَّةُ عماراتٍ بمصرَ، وبنى جامِعَ ساريةٍ بالقلعةِ، وتوجَّهَ بعد ذلكَ لفتحِ الهندِ.

ثم **خُسرُف باشا**، سنةَ إحدَى وأربعينَ وتسعِ مئةٍ، فأقامَ سنةً وعشرةَ أشهُرٍ.

ثم **سليمانُ باشا**، المتقدِّمُ ذكرُهُ بعدَ عودِهِ من الهندِ، فأقامَ سنةً واحدةً وخمسةَ أشهُرٍ.

ثم **داودُ باشا**، سنةَ خمسٍ وأربعينَ، فأقامَ إحدى عشرةَ سنةً وثمانية أشهر، ودفن بحضرة الإمام اللَّيْثِ بمصر.

ثم **عليّ باشا**، سنةَ ستٍّ وخمسينَ، فأقامَ نحوَ ثلاثِ سنينَ.

---

(١) في (ش): «سبعة».

ثم **محمَّدُ باشا**، سنةَ إحدى وستِّينَ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ.

ثم **إسكندرُ باشا**، سنةَ ثلاثٍ وستينَ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وثلاثةَ أشهرٍ ونصفًا.

ثم **عليّ باشا الخادِمُ**، سنةَ ستٍّ وستينَ، فأقامَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ.

ثم **مصطفى باشا**، سنةَ سبعٍ وستينَ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وأربعةَ أشهرٍ.

ثم **عليٌّ باشا**، سنةَ إحدى وسبعِينَ فأقامَ سنتَينِ وثلاثةَ أشهُرٍ.

ثم **محمود باشا**، سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ فأقامَ سنةً ونحوَ ثمانيةِ أشهرٍ، وهوَ آخرُ وزراءِ السُّلطانِ سليمانَ بمصرَ.

[من مآثر السلطان سليمان]

وللسُّلطانِ سليمانَ مآثرُ محمودةٌ وآثارٌ باقيةٌ، وخيراتٌ جزيلَةٌ، فمنها: صدقاتُ الجوالي[1]، وما يُؤخَذُ من أهلِ الذِّمَّةِ على سبيلِ الجزيةِ، ولحِلِّها جعلَها وظائفَ للعلماءِ والصُّلَحاءِ، وكانَ يخرُجُ منها شيءٌ قليلٌ جدًّا في أيَّامِ الجراكسَةِ لبعضِ المشايخِ.

ومنها: حصونُ ثغورُ الإسلامِ ومفازاتُهم، والأماكِنُ الشَّريفةُ كسُورِ القدسِ، وسُورِ[2] المدينَةِ، وقلعَةِ العريشِ[3]، وغيرِ ذلك من أبراجٍ وحصونٍ.

---

(١) الجوالي: جمع جالية، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر رضي الله عنه عن جزيرة العرب: جالية، ثم نقلت الجالية إلى الجزية التي أخذت منهم، ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه، فيقال: استعمل فلان على الجالية. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: جلو).

(٢) «ثغور الإسلام ومفازاتهم، والأماكن الشريفة كسور القدس وسور» من (ش).

(٣) العريش: مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط، قرب نهاية الحد الشرقي لمصر، بينها =

ومنها: إجراءُ العيونِ، ومن أعظَمِها عينُ عرفاتٍ إلى مكَّةَ المشرَّفةِ بعدَ انقطاعِ عينِ حُنَينٍ التي أجرَتها زُبيدَةُ زوجَةُ هاونَ الرَّشيدِ، وبلغَتْ نفقَتُها فيها ألفَ ألفٍ وسبع مئةَ ألفِ مثقالِ ذهبٍ، فلمَّا تمَّ عمَلُها اجتمَعَ المباشرونَ والعمَّالُ لدَيها، وأخرَجُوا دفاتِرَهم للحسابِ؛ ليَخرُجوا من عُهدةِ ما تسلَّموهُ من خزائنِ الأموالِ، وكانَت في قصرٍ مشرفٍ على الدِّجلَةِ، فأخذَتْ منهمُ الدَّفاترَ ورمَتْها في البحرِ وقالَت: تركْتُ الحسابَ ليومِ الحسابِ، فمَنْ فضَلَ عندَهُ شيءٌ مِن بقيَّةِ المالِ فهو لهُ، ومن بقِيَ له عندَنا شيءٌ أعطيناهُ، وألبَستهم الخِلَعَ والتَّشارِيفَ.

وأمرَتْ أيضًا بإجراءِ عينِ وادِي نُعمانَ إلى عرفةَ، ثم منهُ إلى مُزدَلِفةَ، ثم منهُ إلى جبَلٍ خلفَ منى، ثم ينصَبُّ إلى بئرٍ عظيمةٍ مطويَّةٍ بالأشجارِ، تسمَّى عينَ زُبيدَةَ، إليها ينتَهي عملُ هذهِ العينِ، ثم تهدَّمَت قناةُ عينِ حُنَينٍ، وعينِ[1] عرفاتٍ لطولِ الزَّمانِ، فكانَتِ الملوكُ تجدِّدُهما.

وممَّن جدَّدَ عينَ حُنَينٍ شريفُ مكَّةَ حسنُ بنُ عجلانَ، ثم انقطعَتْ، فجهَدَ النَّاسُ من[2] العطشِ، فجدَّدها صاحِبُ مصرَ المؤيَّدُ شيخٌ، ثم جدَّدَها بعدَ ذلكَ السُّلطانُ قايتباي، وجدَّدَ أيضًا عينَ عرفةَ، وعمَّرَ عينَ خليصٍ، ثم بعدَ ذلِكَ جدَّدَ السُّلطانُ الغوريُّ عينَ حُنَينٍ، سنةَ ستَّ عشرةَ وتسع مئةٍ.

ثم انقطعَتْ في أوائلِ الدَّولةِ العثمانيَّةِ، وانقطعَتْ عينُ عرفاتٍ أيضًا، وجهدَ

= وبين رفح ٤٥ كم، وهي اليوم مركز محافظة سينا. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ١١٣)، و«القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» لمحمد رمزي (٤/ ٢٦٣).

(١) «وعين» من (ش).

(٢) «من» من (ش).

النَّاسَ بمكَّةَ العطشُ، وكانَ الحُجَّاجُ يحمِلونَ المياهَ من الأماكنِ البعيدَةِ إلى عرفاتٍ، بحيثُ كانَتِ القِربةُ الصغِيرةُ تباعُ في بعضِ الأحيانِ بدينارٍ.

فأمرَ السُّلطانُ سُلَيمانُ في سنةِ إحدَى وثلاثينَ وتسع مئةٍ بتجديدِ عينِ حُنَينٍ وعرفاتٍ فجُدِّدا، وكثُرَ الماءُ بعدَ ذلكَ بعرفاتٍ وبمكَّةَ.

واستمرَّتْ عينُ حنينٍ جاريةً إلى مكَّةَ، لكنَّها تقلُّ تارةً وتكثُرُ أُخرَى، بحسبِ قلَّةِ الأمطارِ وكثرَتها، وعينُ عرفاتٍ تجرِي من نعمانَ إلى عرفاتٍ بكثرةٍ إلى أن صارَتْ عرفاتٌ بساتينَ.

ثم قلَّتِ الأمطارُ في سنةِ ستينَ وتسع مئةٍ، وانقطعَتِ العيونُ إلَّا عينَ عرفاتٍ، وحصَلَ لأهلِ مكَّةَ الجهدُ، فلمَّا بلغَ السُّلطانَ سليمانَ ذلك، أرسَلَ يفحَصُ عن إجراءِ العيونِ إلى مكَّةَ، فاجتمَعَ الرَّأيُ أنَّ أقوَى العيونِ عينُ عرفاتٍ، وأن أعلاها ظاهرةً إلى بئرِ زُبَيدةَ خلفَ منى، وغلَبَ على ظنِّهم أنها مَبنيَّةٌ أيضًا إلى مكَّةَ لكنَّها درسَتْ ونُسِيت استغناءً عنها بعينِ حُنَينٍ، ثم حزَروا بعدَ أن ذرَّعوا الأرضَ ووجَدُوها خمسةً وأربعينَ ألفَ ذراعٍ وأربعينَ ألفَ ذراعٍ بذراعِ البنَّائين، وحزَروا أنَّ المصروفَ على ذلكَ يبلغُ ثلاثينَ ألفَ دينارٍ، ثم عرضُوا ذلكَ وأرسلُوه إلى حضرةِ السُّلطانِ سليمانَ[1]، في سنةِ تسعٍ وستينَ وتسع مئةٍ.

فطلبَـت بنـتُ السُّـلطانِ أن يكـونَ المصرُوفُ مِـن عندِها؛ تتشَـبَّهُ بزبيـدةَ زوجةِ هارونَ الرَّشـيدِ فأُجيبَتْ، وأرسـلَت خمسـينَ ألـفَ دينارٍ بزيادةِ عشـرينَ ألفًـا، وعُيِّنَ لهـذهِ الخدمـةِ دفتـدارُ مصـرَ إبراهيـمُ بـنُ تغـرِي وردي، فتوجَّـهَ إلـى مكَّـةَ، وكانَتْ مماليكُـهُ القائمـونَ بخدمَتـهِ نحوُ أربعمئةِ مملـوكٍ في غايةِ الحسـنِ والجمالِ، وكتبَ

(١) «سليمان» من (خ).

نحوَ ألفِ نفسٍ من العمَّالِ والبنَّائينَ والمهندسِينَ والحدَّادينَ، وأرسلَ أخذَ من مصرَ وبلادِ الصَّعيدِ ومن الشَّامِ وحلبَ والرُّومِ واليمَنِ طوائفَ بعدَ طوائفَ منَ المهندِسينَ وخُدَّامِ العيونِ والآبارِ، والحدَّادينَ والقطَّاعِينَ، وقدَّمَ على ذلكَ بعزمٍ وهمَّةٍ ظنًّا منهُ أنه يفرُغُ من ذلكَ فيما دون سنةٍ، ويرجِعُ للسُّلطانِ لينالَ بذلكَ أعلى المناصِبِ، وليسَ الأمرُ كما ظنَّ.

فشرعَ إلى أن اتَّصلَ عملُهُ بعملِ زُبيدَةَ إلى البئرِ التي انتهى عمَلُها إليها، ثم لم يُوجَد بعدَ ذلِكَ للقناةِ رسمٌ ولا أثرٌ، بل وجدَ الأرضَ صخرًا في غايةِ الصَّلابةِ فضاقَ ذرعًا، وعلِمَ أن زُبيدَةَ إنَّما تركَتْ ذلكَ اضطرارًا لا اختِيارًا، وعدَلَت إلى عينِ حُنينٍ؛ لصلابةِ الحجَرِ، وطولِ مسافةِ ما يجِبُ قطعُهُ، فإنَّهُ يحتَاجُ من بئرِ زُبيدَةَ إلى[1] نقرٍ تحتَ الأرضِ في الحجرِ الصوَّانِ طولُهُ فوقَ الألفِ ذراعٍ بذِراعِ البنَّائينَ حتى يتَّصِلَ إلى عينِ حُنَينٍ، ثم يتَّصِلُ إلى مكَّةَ، ولا يمكِنُ نقبُ ذلكَ الحجَرِ تحتَ الأرضِ، فإنَّهُ يحتاجُ في النزولِ إلى خمسِينَ ذِراعًا في العمقِ، وصارَ لا يمكِنُ تركُ ذلكَ بعدَ الشروعِ منهُ حفظًا لناموسِ السَّلطنةِ، وما وجَدَ حيلةً غيرَ أن يحفِرَ وجهَ الأرضِ إلى أن يصِلُوا للحجرِ الصوَّانِ، ثم يوقَدُ عليهِ بالنَّارِ بمقدارِ مئةِ حملٍ من الحطَبِ الجزل ليلة كاملةً في مقدارِ سبعةِ أذرعٍ في عرضِ خمسةٍ من وجهِ الأرضِ، والنَّارُ لا تعمَلُ إلَّا في العلوِّ لكنَّها تعمَلُ عملًا يسيرًا من جانبِ السُّفلِ فيلِينُ الحجرُ فيكسِرُونه بالحديدِ إلى أن يصِلُوا للحجرِ الصَّلبِ فيوقَدُ عليهِ كذلكَ.

فاستمرُّوا إلى فرغِ الحطبِ من جميعِ جبالِ مكةَ، فصارَ يجلَبُ من المسافاتِ البعيدةِ، فغلا سعرُ الحطبِ، وضاقَ النَّاسُ لذلكَ، وصارَ كلما فرغَ المصروفُ يرسِلُ

---

(١) «إلى» من (ش).

يطلبُ آخرَ إلى أن صرَفَ أكثرَ من خمس مئةِ ألفِ دينارٍ من خزائنِ السَّلطنةِ، وتعِبَ إبراهيمُ الدَّفتردارُ لذلكَ، وذهبَتْ أموالُهُ وخُدَّامهُ ومماليكُه وأولادُهُ وهو يتجلَّدُ، وغرِقَ لهُ مركبٌ فيهِ ما يساوي مئةَ ألفِ دينارٍ، ثم ماتَ له طفلٌ نجيبٌ كانَ خلَّفَهُ بمصرَ، فاحترَقَ عليهِ كثيرًا، ثم ماتَ لهُ ولدانِ مراهقانِ نجيبانِ، فأخذَ بمجامعِ قلبهِ، وما زالَ في العملِ إلى أن ذهَبَ قواهُ وظهرَ بلاهُ، وتوفَّاهُ اللهُ رحمَهُ الله.

فأقيمَ مُقامَهُ الأميرُ قاسمٌ، أميرُ جُدَّةَ، قائمٌ مقامَ إقامةِ السَّيدِ حسنٍ صاحبِ مكَّةَ، ثم أرسَلَ يعرِضُ ذلكَ على حضرةِ السُّلطانِ سليمانَ، فوجدُوه قد ماتَ، وتولَّى ولدَهُ السُّلطانُ سليمٌ، فعيَّنَ لخِدمتِها محمد بيك دفتردارِ مصرَ، وكانَ من أعيانِ الصَّناجقِ لهُ خبرةٌ وعقلٌ تامٌّ، فبذلَ في ذلكَ نفسَهُ ومالَهُ، ثم بعدَ مدَّةٍ ماتَ، فأقيمَ مُقامهُ أميرُ جُدَّةَ المذكورُ، ثم عرِضَ ذلك على السُّلطانِ سليمٍ، فوردَ الأمرُ باستمرارِهِ ومُباشرَتهِ العملَ، وأن يكونَ القاضي حسينٌ ناظِرَ المسجدِ الحرامِ ناظرًا على ما بقِيَ من العملِ.

ثم ماتَ الأميرُ قاسمٌ سنةَ تسعٍ وسبعينَ وتسع مئةٍ، ثم عرضُوا الأمرَ على السُّلطانِ فوردَ الأمرُ بأن القاضي حسينًا المذكورَ يباشِرُ هذا العملَ، فشرعَ فيهِ بجدٍّ واجتهادٍ وحُسنِ رأيٍ وتدبيرٍ، وساعدَتهُ السَّعادةُ والإقبالُ، فكمُلَ لهُ المقصودُ فيما دونَ خمسَةِ أشهرٍ بعدَ أن عجَزوا عن إتمامهِ قريبًا من عشرةِ أعوامٍ، ووصلَ الماءُ إلى مكَّةَ في شهرِ ذي القعدةِ سنةَ تسعٍ وسبعينَ وتسعمئةٍ، ففرحَ النَّاسُ بذلكَ وأرسلُوا البشائرَ للسلطانِ سليمٍ، فأنعمَ بمزيدِ الإنعاماتِ والتَّرقياتِ لسائرِ المباشِرينَ لهذه الخدمةِ، وحصلَ للقاضي حسينٍ التَّرقياتُ العظيمةُ، وجهِّزَت إليه أنواعُ الخِلَعِ الشَّريفةِ الفاخرَةِ، وخوطِبَ من قبَلِ السَّلطنةِ بالخطابِ السامي المتضمِّنِ للشكرِ، وأنهُ داخلٌ في جملةِ خواصِّ السَّلطنةِ الشَّريفةِ، فصارَت هذهِ العينُ العامَّةُ النَّفعِ بمكَّةَ من حسناتِ المرحومِ السُّلطانِ سُلَيمانَ.

وبنى أربعَ مدارسَ بمكَّةَ المشرَّفةِ على فقهاءِ أئمةِ المذاهبِ الأربعةِ، غير أنَّها لم تكمُل إلَّا في أيَّامِ ولدِهِ السُّلطانِ سليمٍ، فقرَّرَ في المدرسةِ السُّليمانيةِ المالكيَّةِ القاضي حسينٌ بمئتَي عثمانيٍّ، وفي الحنفيَّةِ الشيخُ القطبيُّ، وفي الشَّافعيةِ بعضُ علماءِ الشَّافعيَّةِ، ولم يوجَد في الحنبليَّةِ مَن يكونُ نائبَها في مذهبِ الإمامِ أحمدَ، فعدِلَ عنهُ إلى علمِ الحديثِ، وجعِلَت مدرسةُ الحنابلةِ دارَ الحديثِ، كلُّ مدرسةٍ مِن المدارسِ الثلاثِ بخمسينَ عُثمانيًّا كلَّ يومٍ.

[السُّلطان سليم الثَّاني]

ثم تولَّى السُّلطانُ سليمُ بنُ السُّلطانِ سليمانَ، سنةَ أربعٍ وسبعينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ ثمانَ سنينَ وشهرًا واحدًا(١) وأربعةَ عشرَ يومًا.

وتوفِّيَ برمضانَ سنةَ اثنينِ وثمانينَ وتسعِ مئةٍ، وكانَ ملكًا عظيمًا، وسلطانًا حليمًا، شَهمًا مُطاعًا، أحيا سنَّةَ الجهادِ، وجدَّدَ في فتوحِ البلادِ.

وفي أيَّامهِ افتتَحَ جزيرةَ قبرصَ، وكانَ أوَّلُ مَن افتتَحها أميرُ المؤمنينَ معاويةُ في خلافتِهِ، ثم افتتَحَها الملكُ الأشرفُ بُرُسْباي صاحِبُ مصرَ كما مرَّ عند ذكرِهِ، وما زالوا يؤدُّونَ الجزيَّةَ من حينئذٍ إلى أن أخَذوا في المكرِ والخداعِ، وصاروا يقطَعونَ الطَّريقَ في البحرِ على المسلمينَ، ويساعدونَ أهل الحربِ عليهم، فاستفتَى السُّلطانُ سليمٌ فيهم المفتي أبا السُّعودِ، فأفتاهُ بنقضِ عهدِهم وجوازِ قتالِهم، فجهَّزَ إليها مصطفى باشا بعساكرَ عديدةٍ.

وكانت غزوةً عظيمةً، فظفَرَ الباشا بملِكها، فركِبَ وحمَّلهُ غاشيةَ السَّرجِ، وأمرَهُ أن يمشيَ قُدَّامه كالخادمِ، ثم أمرَ بضربِ عنقِهِ.

---

(١) «واحدًا» من (ش).

وفي أيَّامِهِ استُرجِعَ اليمنُ من العصاةِ الذين استولَوا عليها بعد أن كانَتْ في يدِ والدِهِ السُّلطانِ سليمانَ، فجهَّزَ السُّلطانُ سليمٌ إليها العساكرَ العظيمةَ صحبةَ سنان باشا، وكانَ ذا رأيٍ وتدبيرٍ وإقدامٍ، فاستنقَذَها من أيدِيهم بعدَ وقائعَ وأمورٍ طويلةٍ[1]، وفي ذلكَ يقولُ بعضُهم ـ أبياتٌ ـ:

وما يَمَنٌ إلَّا ممالِكُ تُبَّعٍ ... وناهِيكَ من مُلكٍ قدِيمٍ ومِن فَخْرِ

وقَدْ مَلَكَها آلُ عُثمانَ إذ مَضَتْ ... بنو ظَاهرٍ أهلُ الشَّهَامَة والذِّكرِ

فهَلْ يطمَعُ الزَّيديُّ في مُلكِ تُبَّعٍ ... ويأخُذُهُ من آلِ عُثمانَ بالمكْرِ

أبى اللهُ والإسلامُ والسَّيفُ والقَنا ... وسيرُ أميرِ المؤمنينَ أبي بكرِ[2]

وفي أيَّامِهِ كانَ فتحُ حلقِ الوادي ببلادِ تونسَ الغربِ بعدَ استيلاءِ النَّصارَى عليها بسببِ الاختلافِ الواقعِ بينَ سلاطينِ الغربِ من آلِ حفصٍ، فصارَ بعضُهم يتقوَّى على بعضٍ بالفرَنجِ، وأطمَعُوهم في بلادِ المسلمينَ، فاستولَوا عليها وتمكَّنوا منها، وحصَّنوا الحصونَ وأحكَموا القلاعَ، بحيثُ أيِسَ المسلمونَ من فتحِها، وصاروا تحتَ حكمِ الفِرَنجِ، وأخذوا مملكةَ تونسَ، ووضعوا السَّيفَ في أهلِها، فقتَلُوا الرِّجالَ وسبَوا النِّساءَ والأولادَ، فلمَّا بلغَ السُّلطانَ سليمًا ذلكَ أرسَلَ مِئتي[3] غرابٍ مشحونةٍ بالأبطالِ والمدافعِ وآلةِ الحربِ، وصحبَةُ ذلكَ سنان باشا، وقلج علي باشا، وكانتْ غزوةً مشهودةً، ووقعةً معدودةً من أعظَمِ غزواتِ بني عثمانَ، يحتاجُ إلى تفصيلِها لمؤلَّفٍ، فنصرَ اللهُ المسلمين بعدَ أن

---

(١) في (ش): «يطول ذكرها».

(٢) انظر: «خلاصة الأثر» للمحبي (٢/ ٢١٥).

(٣) في (ش): «مئة».

قُتِلَ منهم نحوُ[1] عشرةِ آلافٍ معَ الحصارِ المديدِ والقتالِ الشَّديدِ.

ومن العجبِ أن الفِرَنجَ كانت بَنَتْ هناكَ حِصارًا حصِينًا، وقلعةً منيعةً، أقاموا في استِحكَامِها وإتقانِ بنائها ثلاثًا وأربعينَ سنةً، فاقتحَمها[2] المسلمونَ صحبةَ الوزيرِ المذكورِ في ثلاثٍ وأربعينَ يومًا من أيَّامِ محاصَرَتها، وذلكَ في سنةِ إحدى وثمانينَ وتسع مئةٍ، ثم أخرَبَ الوزيرُ القلاعَ والحصونَ ولم يبقِ لها رسمًا، ووصلَتِ البشائرُ للسُّلطانِ سليمٍ، وكان في نفسِه فتوحَ إقليمِ الأندلس في ثاني سنة ـ فلم يمهلْه الأجلُ، رحمه الله تعالى.

وفي أيَّامِهِ جُدِّدَ عمارةُ المسجدِ الحرامِ، وأمرَ أن يُزادَ لأهلِ الحرمَينِ في كلِّ سنةٍ سبعةُ آلافِ إردَبٍّ من الحبِّ.

وغير ذلكَ من الصَّدقاتِ الجاريةِ[3] والمآثرِ، رحمَهُ اللهُ تعالى.

ذكرُ وزراءِ السُّلطانِ سليمٍ بمصرَ

وهم أربعٌ أوَّلهم:

سنان باشا، تولَّى مصرَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ نحوَ تسعةِ أشهُرٍ، وتوجَّهَ بعدَها لفتحِ اليمنِ، كما مرَّ.

ثم جركس إسكندر باشا، سنةَ ستٍّ وسبعينَ، فأقامَ سنتَينِ وستَّةَ أشهرٍ وسبعَةَ أيامٍ.

ثم سنان باشا، بعدَ رجوعِهِ من اليمنِ سنةَ تسعٍ وسبعينَ، فأقامَ سنةً واحدةً وعشرةَ أشهُرٍ، وله عدةُ مساجدَ وعمائرَ لم تكُن لأحدٍ من بني عثمانَ.

ثم تولَّى حسين باشا، سنةَ إحدى وثمانينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ سنةً وتسعةَ أشهُرٍ.

---

(١) «نحو» من (ش).

(٢) في (ش): «فافتتحها».

(٣) «الجارية» من (خ).

[السُّلطان مراد الثَّالث]

ثم تولَّى السلطانُ مرادُ بن السُّلطانِ سليمٍ، سنةَ اثنينِ وثمانينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ إحدى وعشرينَ سنةً.

وتوفِّيَ سنةَ ثلاثٍ وألفٍ، وكانَ ملِكًا مِقدامًا، وسُلطانًا درغامًا، عاليَ الهمَّةِ، عظيمَ الشَّأنِ، وبعُدَ صيتُهُ في العالَمِ، وكان من أعظَمِ سلاطين خفقَتْ عليه البُنودُ[١]، وأكبرَ ملكٍ جنَّدَ الجنودَ.

وفـي أيَّامِهِ تحركت عسـاكرُ النَّصارى[٢] المجـرِ، فجهَّزَ لها الجيـوشَ الكثيرةَ، وفتحَ منها المـدن الكثيرةَ.

ذِكرُ وزرائهِ بمصرَ

وهم ستٌّ أوَّلُهم:

مسـيح باشـا، تولَّـى مصـرَ سـنةَ اثنيـنِ وثمانينَ وتسـعمئةٍ، فأقـامَ خمسَ سـنينَ وخمسـةَ أشـهرٍ ونصفًا، وكان سـفَّاكًا للدِّماءِ، قطَعَ دابرَ المفسِـدينَ مـن أرضِ مصرَ، وكانَ لا يقبَـلُ الرِّشـوةَ، وعمَّرَ المدرسـةَ المسـيحيَّةَ ببـابِ القرافَةِ.

ثم **حسن باشا**، تولَّى مصرَ سنةَ ثمانٍ وثمانينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ سنتَينِ وعشرةَ أشهرٍ، وكانَ جمَّاعًا للمالِ، أحيى الرِّشوةَ بعدَ موتِها.

ثم **إبراهيم باشا**، تولَّى مصرَ سنةَ إحدى وتسعينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ سنةً وخمسةَ أشهرٍ، ولَمَّا قدِمَ مصرَ فتَّشَ على حسن باشا، ونصَّبَ عنهُ وكيلًا في الدَّعاوى عليهِ،

---

(١) البنود: جمع بند، والبند: كل علم من أعلام الروم، يكون للقائد، تحت كل علم عشرة آلاف رجل. انظر: «المحكم» لابن سيده (مادة: بند).

(٢) «النصارى» من (خ).

ثمَّ ذهبَ بنفسِهِ إلى جميع[1] أقاليمِ مصرَ، حتى أتى إلى الصَّعيدِ الأقصى، ثم عادَ إلى مصرَ وهو[2] بغايةِ العزَّةِ.

ثم سنان باشا الدَّفتردارُ، تولَّى مصرَ عامَ اثنين وتسعينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ ستَّةَ شهورٍ وعشرينَ يومًا.

ثم أويس باشا، تولَّى مصرَ سنةَ أربعٍ وتسعينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ خمسَ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ وعشرةَ أيامٍ، ثم قامَ عليهِ العسكَرُ وقتلوا جماعتَهُ، وتمرَّدَ العسكرُ غايةَ التمرُّدِ، وهو أول باشا قامَ عليهِ العسكَرُ بمصرَ[3].

ثم حافظ أحمد باشا، تولَّى مصرَ سنةَ تسعٍ وتسعينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ أربعَ سنينَ، وكان مُحبًّا للعلماءِ والفقراءِ، صاحبَ رأيٍ وتدبيرٍ.

[السُّلطان محمَّد الثَّالث]

ثم تولَّى السُّلطانُ محمَّدُ بنُ السُّلطانِ مرادٍ، في شهرٍ رمضانَ سنةَ ثلاثٍ بعدَ الألفِ، فأقامَ تسعَ سنينَ إلَّا شهرًا، وتوفِّيَ سادسَ رجبٍ عامَ اثني عشرَ وألفٍ.

وأمرَ في[4] يومِ ولايتِهِ بقتلِ جميعِ إخوتِهِ، وكانوا تسعةَ عشرَ.

وفي أيَّامِهِ فتح مدينة أكري[5] بعدَ قتالٍ شديدٍ،........................

(١) «جميع» من (ش).

(٢) «وهو» من (خ).

(٣) «وهو أول باشا قام عليه العسكر بمصر» من (خ).

(٤) «في» من (ش).

(٥) أكري: أكري بوجاق: مدينة في تركية الأوربية، في ولاية روم إيلي، لواء مناستر، حاليًا في اليونان. ويوجد بلدة اسمها أكري دره، أو أكري بلنقه، في تركية الأوربية، في ولاية أسكوب، على نهر كريفاريكا، حاليًا في مقدونية. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» =

وانهزَمتْ عساكرُ المسلمينَ، ثم تدارَكَ اللهُ بلطفِهِ، وفتحَها وكانَتْ غزوةً عظيمةً.

وفي أيَّامِهِ أيضًا ظهرتِ الخوارجُ بجهاتِ حلبٍ، وما زالتِ الأمورُ في التَّخبيطِ إلى أن ظهرَ ابنُ جنبلاطٍ، وكانَ يدَّعي السَّلطنةَ، ونهبَ حمصَ وحماةَ والشَّامَ، واضطربَتِ الأحوالُ.

ذكرُ وزرائِهِ بمصرَ

وهم أربعٌ أوَّلُهم:

قرط باشا، تولَّى مصرَ سنةَ ثلاثٍ وألفٍ، فأقامَ سنةً واحدةً وثمانيةَ أيَّامٍ.

ثم **السَّيِّدُ محمَّد باشا**، تولَّى مصرَ في شوالٍ سنةَ أربعٍ وألفٍ، فأقامَ سنتينِ وشهرين وعشرين يومًا، وكانَ كثيرَ النوالِ، وفي أيَّامِهِ جُدِّدَ عمارةُ الجامعِ الأزهرِ، ورتَّبَ له العدَسَ يُطبَخُ في كلِّ يومٍ للفقراءِ، ثم عمَّرَ المشهدَ الحُسينيَّ، ثم قامَ عليه العسكرُ، وطلبُوا قتلَهُ، وقتلوا جماعةً من الأكابرِ.

ثم **خضر باشا**، تولَّى مصرَ سابعَ عشرَ الحجَّة، سنةَ ستٍّ وألفٍ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ، واثني عشرَ يومًا، ثم قامَ عليهِ العسكرُ وقتلوا جماعةً من الأكابرِ.

ثم **علي باشا**، تولَّى مصرَ في صفرٍ[1]، سنةَ عشرٍ وألفٍ، فأقامَ سنتَيْن ونحو شهرَيْنِ، وكانَ شُجاعًا كريمًا، سفَّاكًا للدِّماءِ، وفي أيَّامِهِ كانَ الغلاءُ الشَّديدُ بحيثُ بِيْعَتْ وَيْبَةُ[2] ....

= لموستراس (ص٨٧).

(١) «في صفر» من (خ).

(٢) والويبة: اثنان وعشرون أو أربع وعشرون مدًّا بمدِّ النَّبيِّ ﷺ. مكيال قدره خمسة ونصف صاع، وهي تساوي عند الحنفية ٩٣، ١٧ لترًا، وعند غيرهم ١٢٥، ١٥ لترًا صاع. انظر: =

القمحِ بستَّةٍ وثلاثين نصفًا[١]، ثم وقعَ بعدَهُ الطَّاعونُ العظيمُ، ثم قامَ عليهِ العسكرُ بمقامِ سيدي أحمدَ البدويِّ، ثم سلَّمَ الله تعالى.

[السُّلطان أحمد الأوَّل]

ثم تولَّى السُّلطانُ أحمدُ بن السُّلطانِ محمَّدٍ، يومَ الأحدِ رابعَ عشرَ رجبٍ، عامَ اثني عشرَ وألفٍ، فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ في ذي القعدةِ، سنةَ ستٍّ وعشرينَ وألفٍ، وبلغَ من العمرِ نحو ثمانٍ وعشرينَ سنةً.

وخلَّفَ كما قيلَ[٢] أربعةَ أولادٍ[٣] ذكورٍ: عثمانَ ومحمَّدًا ومرادًا وبايزيدَ، وكانَ رحمَهُ اللهُ ملكًا عظيمًا، وسلطانًا جَسِيمًا، صاحبَ قوَّةٍ مفرطةٍ، وشجاعةٍ عظيمةٍ، عاليَ الهمَّةِ، عظيمَ[٤] الشَّأنِ، وكان من أجلِّ ملوكِ[٥] بني عثمانَ.

قتلَ من الوزراءَ الصُّدورِ[٦] أربعةَ عشرَ وزيرًا.

وشرعَ في قطعِ دابرِ الخوارجِ، فقطَعَهم عن آخرِهم، وانتزعَ حلبَ من يدِ[٧] ابنِ

= «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مكو)، و«معجم لغة الفقهاء» لمحمد روَّاس قلعجي (مادة: ويب).

(١) نصفًا: أي نصف فضة، وهو البارة، أي: الدرهم. انظر: «تكملة المعاجم العربية» لرينهات (مادة: فض).

(٢) «كما قيل» ليس في (ش).

(٣) «أولاد» ليس في (ش).

(٤) «عالي الهمة عظيم» ليس في (ش).

(٥) «ملوك» من (ش).

(٦) «الصدور» ليس في (ش).

(٧) «يد» من (ش).

جنبلاطَ، وحُمِلَ إليهِ أسيرًا، وأرسَلَ وزيرَهُ الأعظَمَ علي باشا إلى المجرِ بالعساكرِ الإسلاميَّةِ، فماتَ متوجِّهًا، فأُقيمَ مراد باشا مقامَهُ، فأوقعَ الصُّلحَ بينَ السُّلطانِ وبينَ المجرِ لمدَّةِ عشرين سنةً[١].

وكانَ السُّلطانُ أحمدُ هذا[٢] محِبًّا لعمارةِ الحرمَينِ الشَّريفينِ، وأنشأ أوقافًا من قرى[٣] مصرَ على خُدَّامِ الحرمِ الشَّريفِ، وجعلَ مناطِقَ من الفضَّةِ المحلَّاةِ بالذَّهبِ للكعبةِ المشرَّفةِ صونًا لها عن الهدمِ، وأرسَلَ شبابيكَ فضَّةٍ محلَّاةٍ بالذَّهبِ للحُجرةِ الشَّريفةِ، وفصًّا من الألماسِ يساوِي ثمانينَ ألفَ دينارٍ، ليجعلَ فوقَ الكوكبِ الدُّرِّي[٤]، ثم عزَمَ على عِمارةِ الحرمِ النَّبويِّ على حكمِ الحرمِ المكِّيِّ، وأرسَلَ البَنَّائينَ والمهندِسينَ لذلكَ، فلم يُمهِلهُ الأجَلُ رحمَهُ الله تعالى.

وفي أيَّامِهِ بنى بالقسطنطينيَّةِ جامعًا عظِيمًا لم يُرَ كمثلِهِ، ولا حسنِ شكلِهِ، وهادَتهُ ملوكُ الأقاليمِ بالتُّحفِ من قناديلِ الذَّهبِ وغيرِها لتُعلَّقَ فيهِ، وبلغَتْ مصاريفُ نفقتِهِ نحوَ نفقةِ عمارةِ جامعِ بني أميَّةَ بدمشقَ، فإنهُ يقالُ: إنَّ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ الخليفةَ الأمويَّ أنفقَ عليهِ أربع مئةَ صندوقٍ من الذَّهبِ، في كلِّ صندوقٍ أحدَ عشرَ ألفَ مثقالٍ من الذَّهبِ.

---

(١) في (خ): «فأوقع السلطان الحرب بينه وبين المجر الحروب لمدة عشرين سنة».

(٢) «هذا» من (خ).

(٣) «قرى» من (ش).

(٤) الكوكب الدري: تجاه الوجه الشريف في الجدار، وهو مسمار من الفضة مموه بالذهب في رخامة حمراء، من استقبله كان مستقبل الوجه الشريف. انظر: «خلاصة الأثر» للمحبي (١/ ٢٨٩).

ذكرُ وزرائه بمصرَ

وهمُ ستَّةٌ أوَّلُهم:

إبراهيم باشا الشَّهيدُ، المستولي[(١)] على مصرَ، رابعَ عشرَ الحجَّة، عامَ اثني عشرَ وألفٍ، فأقامَ أربعةَ أشهرٍ وسبعةَ أيَّامٍ، ثم قامَ عليهِ العسكرُ لَمَّا توجَّهَ لقطعِ جسرِ أبي المنجَّا بعدَ أن تحالَفُوا عليهِ بالقَرافَةِ، ثم هجَمُوا عليهِ وهوَ في قريةِ[(٢)] شبرا، فضربَهُ شخصٌ منهم بالسَّيفِ على وجهِهِ، ثم قطعُوا رأسَهُ، وطيفَ بهِ في القاهرةِ، ثم عُلِّقَ ببابِ زُويلَةَ، وكانَ أمرًا مهولًا لم يُعهَدْ لوزيرٍ بمصرَ قبلَهُ ولا بعدَهُ[(٣)].

ثم **محمَّد باشا الكرجيُّ**، استولَى على مصرَ في رجبٍ سنةَ ثلاثةَ عشرَ وألفٍ، فأقامَ سبعةَ أشهرٍ واثني عشرَ يومًا، وكانَ عندَهُ حسنُ سياسةٍ وتدبيرٍ، وجدَّ في الفتكِ بقتلةِ إبراهيمَ الوزيرِ، فقتَلَ منهم نحوَ مئتي شخصٍ، ولو طالَتْ أيَّامُهُ لاستأصلَهم.

ثم **حسن باشا**، استَولى على مصرَ مستهلَّ ربيعٍ الأوَّلِ بعدَ عزلِهِ عن اليمنِ سنةَ أربعَ عشرةَ وألفٍ، فأقامَ سنتينِ إلَّا شهرًا، وجدَّدَ صحنَ الجامعِ الأزهرِ، وبنى رِواقًا لطيفا تجاهَ رواقِ اليمن.

ثم **محمَّد باشا**، قاتلُ الجندِ، استولى على مصرَ، في صفرٍ سنةَ ستَّ عشرةَ وألفٍ، فأقام أربعَ سنينَ وأربعةَ أشهرٍ واثني عشرَ يومًا، ثم لَمَّا[(٤)] جدَّ في شأنِ قتلةِ إبراهيم باشا وإبطالِ ظُلمِهم قاموا عليهِ، وتحالَفُوا بمقامِ سيدي أحمدَ البدويِّ،

---

(١) في (ش): «استولى» بدل «الشهيد المستولي».

(٢) «قرية» من (خ).

(٣) «ولا بعده» من (خ).

(٤) «لما» من (خ).

وارتفعَتْ كلِمَتُهم، ولولا جودةُ تدبيرِهِ لفتكُوا بهِ، فجرَّدَ لهم العساكرَ والعربان، فظفَروا بهم وقتلُوا منهم نحو الخمسينَ، وأسرُوا الباقين، ودخلُوا بهم القاهرةَ، وكانَ يومًا مشهودًا.

ثم أمرَ الباشا بقتلِ أكابرِهم نحوَ ثلاثٍ وعشرينَ، وقتلَ منهم أيضًا نحو الخمسينَ، وأمرَ بنفيِ الباقينَ إلى اليمنِ، ثم أمرَ بقطعِ الأرضِ التي كانوا يمشونَ عليها، فقطَعَ من أرضِ أزقَّةِ مصرَ نحوُ ذراعٍ.

ثم **محمَّد باشا الصُّوفيُّ**، استولى على مصرَ ثاني[١] عشرَ شعبانَ، سنةَ عشرينَ وألفٍ، فأقامَ نحوَ[٢] أربعِ سنينَ.

ثم **أحمد باشا الدَّفتردارُ**، تولَّى مصَر سادسَ ربيعِ الثَّاني، سنةَ أربعٍ وعشرينَ، فأقامَ سنتينِ وعشرةَ أشهرٍ واثني عشر يومًا، وكانَ سَيوسًا، قليلَ السَّفكِ للدماءِ، وكانَ يحبُّ الفقراءَ[٣].

[السُّلطان مصطفى الأوَّل]

ثم تولَّى **السُّلطانُ مصطفَى**: أخو السُّلطانِ أحمدَ، ثاني يومِ موتِه، ثالثَ عشرَ القعدةِ الحرامِ، سنةَ ستٍّ وعشرينَ وألفٍ، فأقامَ ثلاثةَ أشهرٍ وعشرةَ أيامٍ، ثم خُلِعَ من الملكِ ليلًا، يقالُ: وهو نائمٌ عندَ والدَتِه ليلةَ الأربعاءِ، ثالثَ ربيعِ الأوَّلِ، سنةَ سبعٍ وعشرينَ وألفٍ، بعدَ أن استبشَرَ النَّاسُ بولايتِهِ؛ لِمَا كانَ يُحكَى عنهُ من الصَّلاحِ وتحرِّي العدلَ.

---

(١) «ثاني» من (ش).

(٢) «نحو» من (ش).

(٣) في (ش): «جمع المال».

وانخرَمت بِهِ قاعدةُ سلطنةِ بني عثمانَ من ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ كلَّ مَن تولَّى منهم السَّلطنةَ فإنَّما هوَ ابنُ السُّلطانِ الَّذي قبلَهُ، وهذا أخوهُ.

ثانيها: أنَّ مَن تولَّى منهمُ السَّلطنةَ لم يُعهَد خلعُهُ إلَّا بموتِه، وهذا خُلِعَ قهرًا في حياتهِ.

ثالثُها: أنَّ كلَّ مَن تولَّى منهم تطولُ مدَّتُهُ، وأقلُّها ثمان سنينَ وشيءٌ، وهذا لم تطُل مدَّةُ ولايتِهِ.

وكانَ قد ولَّى مصرَ **لمصطفى باشا**، سنةَ سبعٍ وعشرينَ، غير أنَّه لم يدخُل مصرَ إلَّا بعدَ خلعِهِ، وتوليةِ السُّلطانِ عثمانَ الآتي ذكرُهُ، فأقامَ بمصرَ نحوَ ستَّةِ أشهرٍ، ثمَّ قامَ عليهِ العسكرُ، وعلى جماعةٍ آخرينَ معهُ، فقتلُوا بعضَهم، واختفَى الباقونَ في ساعةٍ واحدةٍ بعدَ أن كانوا في غايةِ المنعَةِ والعزَّةِ والنَّعيمِ، يتذكَّرُ بهم المتفكِّرُ قولَ ربِّ العالمين: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥].

ثم عُزِلَ مصطفى باشا ثالثَ محرَّمٍ سنةَ ثمانٍ وعشرينَ بجعفر باشا الآتي ذِكرُه[١].

[السُّلطان عثمان الثَّاني]

ثم تولَّى **السُّلطانُ عثمانُ بنُ السُّلطانِ أحمدَ**، سادسَ عشرَ سلاطينِ بني عثمانَ، وهو مراهقٌ، جلسَ على تختِ الملكِ في سادسِ ساعةٍ من ليلةِ

---

(١) «ثم عزل مصطفى باشا ثالث محرَّم سنة ثمان وعشرين بجعفر باشا الآتي ذكره» من (خ).

الأربعاءِ، بعدَ خَلْعِ عمِّهِ مصطفى، ثم أمرَ بوضعِهِ في مكانٍ حسنٍ، وأمرَ بإكرامِ والدَتِهِ، ووضعِ إخوَتِهِ هوَ في موضعٍ لا يدخُلُ عليهم فيه أحدٌ، فأقامَ أربعَ سنينَ ونحو أربعةِ أشهرٍ.

ثم بعدَ عودِهِ من الجهادِ في سنةِ إحدى وثلاثينَ وألفٍ عزمَ على الحجِّ الشَّريفِ، وأخرجَ خيامهُ للحج[1] في أوائلِ رجبٍ من تلك السَّنةِ، فوقعَتْ بينَ عسكَرِهِ بسببِ خروجِهِ للحجِّ فتنةٌ راحَ فيها إلى اللهِ مظلُومًا شهيدًا وسلطانًا حميدًا، وكان ذلكَ أمرًا مهولًا غريبًا لم يُعهَد مثلُهُ في سالفِ الزَّمانِ لأحدٍ من سلاطين بني عثمانَ، فتقطَّعتْ عليهِ القلوبُ حسراتٍ، وانسكبَتْ لمصابِهِ العبراتُ، وعظُمَ ذلكَ على كافةِ الرَّعايا، وكانَ ذلكَ من أعظمِ المصائبِ والرَّزايا، وقد أشبهَ في مصابِهِ السلطانُ عثمانُ مولانَا أميرَ المؤمنينَ عثمانَ[2].

وكانَ رحمَهُ اللهُ ملكًا مِقدامًا، وسُلطانًا هُمامًا، ذا همَّةٍ عاليةٍ، ورِفعةٍ ساميةٍ، شُجاعًا مهابًا، عاقِلًا وقورًا، مُعظَّمًا فاضلًا، مِن خيرِ ملوكِ الزَّمانِ، ومن أجَلِّ سلاطينِ بني عثمانَ، عليهم الرَّحمةُ والرُّضوانُ.

وفي أيَّامِهِ أواخرَ سنةِ سبعٍ وعشرينَ طلعَ في السَّماءِ قُبيلَ طلوعِ الفجرِ عمودٌ أبيضُ مستطِيلٌ، طولُ منارةٍ مدَّةَ ليالي، ثم طلعَ بعدَهُ فورًا نجمٌ لهُ ذنَبٌ يضيءُ مستطيلٌ جدًّا، وأرجفَ المنجِّمونَ بأراجيفَ، وزعمُوا وقوعَ أمورٍ مَهولةٍ، وكذبُوا واللهِ، وصدقَ القائلُ:

أَطُلَّابَ النُّجومِ أحلتُمُونا ... عَلَى علمٍ أرقَّ من الهبَاءِ

---

(١) «للحج» من (ش).

(٢) «وقد أشبه في مصابه السلطان عثمان مولانا أمير المؤمنين عثمان» من (ش).

كنوزُ الأرضِ قد خَفِيَتْ عَلَيكُم فــكَيفَ وصَلتُمْ علمَ السَّـمَاءِ[١]

وفي أيَّامِهِ سنةَ ثلاثينَ وألفٍ خرجَ السُّلطانُ عثمانُ بنفسِهِ لقتالِ النَّصارى بعساكرَ عظيمةٍ تبلُغُ مِئينَ ألوفٍ، وغابَ فوقَ سبعةِ أشهرٍ، ودخلَتْ سنةُ إحدى وثلاثينَ وما جاءَ عنه خبرٌ صحيحٌ، ثم في ربيعٍ الأوَّلِ أواخرَ شهرِ كانونَ وَطُوبه[٢] وردَ الخَبَرُ بأنَّ السُّلطانَ انتصرَ واستولى على كثيرٍ من بلادِ النصَارى، بعدَ أن قُتِلَ من الفريقَينِ ألوفٌ كثيرةٌ، وزيِّنتِ الأمصارُ بورودِ هذه البشرى العظيمةِ والمسرَّةِ الجسيمَةِ، وزُيِّنت مصرُ وكانَ بها[٣] حينئذٍ الطَّاعونُ، فاجتمَعَ بها ضِدانِ غريبانِ؛ وهما الحزنُ بسببِ الطَّاعونِ، والسُّرورُ بزينةِ السُّلطانِ المأمونِ[٤].

وهذهِ الزِّينةُ لا أعلَمُ أوَّلَ مَن أحدَثها في الإسلامِ وأظهرَها بينَ الأنامِ، وهيَ في الحقيقةِ مضرَّةٌ على المتسبِّبين لِمَا فيها من المغرمِ والكسادِ، مسرَّةٌ لأهلِ الخلاعةِ والتَّمزيقِ والفسادِ.

ذكرُ وزرائهِ بمصرَ

وهُم خمسةٌ أوَّلُهم:

مصطفى باشا، المتقدِّمُ ذكرُهُ.

ثم جعفر باشا، دخَلَ مصرَ ضحوةَ نهارِ الإثنَينِ، عاشرَ ربيعٍ الأوَّلِ، فأقامَ ستَّةَ

---

(١) البيتان لابن عبد البر. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٢٩/ ١٠٠)، ولفظه:

أمنتحلــي النجــوم أحلتمــونا على علــم أرق مــن الهبــاء

علــوم الأرض مــا أحكمــتمــوها فكيف بكــم إلــى علــم السماء

(٢) طوبه: هو شهر كانون الثاني عند القبط. انظر: «مروج الذهب» للمسعودي (١/ ٢٤٦).

(٣) «بها» من (خ).

(٤) «المأمون» من (خ).

أشهرٍ، ثمَّ عُزِلَ في أواخرِ شعبانَ سنةَ ثمانٍ وعشرين، وفي أيَّامِه وقعَ الطَّاعونُ العظيمُ، ودامَ بمصرَ نحو ثلاثةِ أشهرٍ، وبلغَتِ الموتى بالقاهرةِ كلَّ يومٍ نحوَ خمسةِ آلافٍ، ثم امتدَّ بإقليمِ الشَّامِ.

ثم **مصطفَى باشا**، دخَلَ مصرَ، يومَ السَّبتِ، ثامِنَ عشرَ رمضانَ، سنةَ ثمانٍ وعشرينَ، فأقامَ سنةً إلَّا قليلًا، ثم عُزِلَ في عاشرِ رمضانَ سنةَ تسعٍ وعشرينَ.

وكانَ قد قتلَ مصطفى الصُّنجقَ رأسَ عساكرِ مصرَ، بعدَ أن عظُمَ أمرُهُ، وخيفَ على السَّلطنةِ من خروجِهِ واستيلائِهِ على مصرَ، ولم يَنتَطِح في قتلِهِ شاتانِ؛ لحسنِ تدبيرِه في قتلِهِ.

ثم **حسن باشا**، دخلَ مصرَ ضحوةَ نهارِ الأربعاءِ في العشرينَ من رمضانَ، ولم يعهَد باشا[1] أسرعُ مجيئًا منهُ، لأنه ليسَ بينَ ورودِ خبرِهِ ودخولِهِ مصرَ[2] سوَى عشرةِ أيامٍ، وأمرَ بالترسيمِ على مصطفَى باشا في القلعةِ، وعمِلَ حسابُهُ وأخذَ منهُ للسَّلطنةِ مالًا جزيلًا، فأقامَ سنةً ونحوَ ثمانيةِ أشهرٍ، ثم عزِلَ في العشرينَ من ربيعِ الثَّاني سنةَ إحدى وثلاثينَ.

وفي أيامهِ زادَ النِّيلُ زيادةً عظيمةً قريبًا من ثلاثةٍ وعشرينَ ذراعًا، ثم بعدَ أن نقَصَ في أوانِ نقصِهِ زادَ زيادةً عظيمةً، وأتلَفَ بعضَ زروعٍ للنَّاسِ، واستمرَّ الخليجُ يجرِي بالقاهرةِ فوقَ المئةِ يومٍ، وهذا لم يُعهَدْ مثلُهُ، وحصَلَ غلاءٌ عظيمٌ بحيثُ بيعَتْ وَيبةُ القمحِ بنحو أربعينَ نصفًا، ومعَ ذلكَ فالقوتُ موجودٌ بكثرَةٍ، والقلوبُ مطمئنةٌ بسببِ زيادةِ النِّيلِ وعمومِهِ لجميعِ أرضِ مصرَ.

---

(١) «باشا» من (خ).

(٢) «مصر» من (خ).

ووقعَ الطَّاعونُ لكنَّ أكثرَهُ كانَ في الغرباءِ والرَّقيقِ، ودامَ نحوَ ثلاثةِ أشهرٍ[١].

ثم **محمَّد باشا**، دخلَ مصرَ، ضحوةَ يومِ الإثنينِ، رابعَ عشرَ جمادى الثَّاني، سنةَ إحدى وثلاثينَ وألفٍ.

وفي أيَّامِهِ وردَ الخبرُ إلى مصرَ بزوالِ السُّلطانِ عثمانَ[٢]، وعودِ السُّلطانِ مُصطَفى للسَّلطنةِ، فأقامَ محمَّدُ باشا المذكورُ[٣] نحو خمسةٍ وسبعينَ يومًا، ثم عُزِلَ في أواخرِ شعبانَ، سنةَ إحدى وثلاثينَ وألفٍ.

***

[السُّلطان مصطفى الأوَّل ـ مرَّة ثانية]

ثم عادَ السُّلطانُ مُصطفَى عمُّ السُّلطانِ عثمانَ الشَّهيدِ إلى السَّلطنةِ، في ثامنِ رجبٍ سنةَ إحدى وثلاثينَ وألفٍ.

ذكرُ وزرائِهِ في مصرَ

أوَّلُهم: **إبراهيمُ باشا**، دخلَ مصرَ يومَ السَّبتِ، السَّابعِ من رمضانَ، سنةَ إحدى وثلاثينَ وألفٍ.

واللهَ تعالى أسألُ أن يُصلِحَ حالَ ولاةِ المسلمينَ، وأن يُعلِيَ كلمةَ الإيمانِ، وأن

---

(١) في (خ): «واللهَ تعالى أسألُ أن يصلِحَ حالَ ولاة أمورِ المسلمينَ، وأن يُعلِيَ كلمةَ الإيمانِ، وأن يصلِحَ حالَ مولانا السلطانِ، وحال رعيَّتِهِ، وأن يجعَلَ السلطنةَ الإسلاميةَ في هذا البيتِ بدوامِ الملةِ المحمديَّةِ والشريعةِ الأحمديَّةِ جددَ اللهُ لهم نصرًا، ورفَعَ لهم قدرًا، وأعلَى لهم مقامًا وذِكرًا، آمينَ».

(٢) «عثمان» من (خ).

(٣) «باشا المذكور» من (ش).

يصلِحَ مولانا السُّلطانَ، وحالَ رعيَّتِهِ، وأن يجعَلَ السَّلطنةَ الإسلاميَّةَ في هذا البيتِ بدوامِ الملَّةِ المحمَّدِيَّةِ والشَّريعةِ الأحمديَّةِ، جدَّدَ اللهُ لهم نصرًا، ورفعَ لهم قدرًا، وأعلا لهم مَقامًا وذِكرًا، آمينَ[١].

***

خاتمةٌ

[موعظة ونصيحة]

قد أحببتُ أن أذكُرَ هنا موعظَةً ونصيحةً؛ عمَلًا بقولِ النَّبيِّ ﷺ الواردِ في «الصَّحيحِ»: «الدِّينُ النَّصيحةُ، الدِّينُ النَّصيحةُ، الدِّينُ النَّصيحةُ» قالوا: لمن يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «للهِ ولكتابهِ ولرسُولهِ ولأئمَّةِ المسلِمينَ ولعامَّتِهم»[٢].

وفي «مسلمٍ» قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يرضَى لكم ثلاثًا؛ أن تعبُدُوهُ ولا تشرِكُوا به شيئًا، وأن تعتَصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تفرَّقُوا، وأن تناصِحُوا مَنْ ولَّاه اللهُ أمرَكُم»[٣].

وقالَ ابن عقيلٍ في «الفنونِ»: من أعظَمِ منافعِ الإسلامِ، وآكدِ قواعدِ الأديانِ[٤]:

---

(١) من قوله: «وألف، ذكر وزرائه في مصر» إلى هنا من (ش).

(٢) رواه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه. لكن دون تكرار قوله: «الدين النصيحة»، وتكراراها هو في رواية أبي داود (٤٩٤٤).

(٣) رواه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وليس فيه: «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»، ورواه بلفظ الأصل الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٠)، وأبو عوانة في «المستخرج» (٦٣٨٧).

(٤) في (خ): «الإيمان».

الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ والتَّناصُحُ، فهذا أشقُّ ما يحمِلُهُ المكلَّفُ؛ لأنَّهُ مقامُ الرُّسُلِ، حيثُ يثقلُ صاحبُهُ عن الطِّباعِ، وتنفِرُ عنه نفوسُ أهلِ اللذَّاتِ، وتمقتُهُ أهلُ الخلاعةِ[١].

[لا يجوز تعدد الإمام]

إذا تقرَّرَ هذا فاعلَم أنَّهُ لا يجوزُ تعدُّدُ الإمامِ، فلا يحلُّ نصبُ[٢] إمامَينِ في وقتٍ واحدٍ، وإن تباعَدَ إقليمُهما؛ لما يترتَّبُ على ذلكَ عندَ منازعَتِهما من الفتنِ، بخلافِ تعدُّدِ الرُّسلِ؛ لعصمَتِهم عليهم السَّلامُ.

قلْتُ: فلو تغلَّبَ كلُّ سلطانٍ على ناحيةٍ من البلادِ كزمانِنا هذا، فحكمُهُ كالإمامِ في الأحكامِ الآتيةِ، وهيَ أنَّهُ يلزَمُ الإمامَ حفظُ الدِّينِ، وتنفيذُ الأحكامِ، وحفظُ الرعيَّةِ، وإنصافُ بعضِهم من بعضٍ، وإقامةُ الحدودِ، وتحصينُ الثُّغورِ، وجهادُ مَنْ عاندَ الإسلامَ، وجبايةُ الفيءِ والصَّدقاتِ على ما أوجبَهُ الشَّرعُ، وتقديرُ العطاءِ لمستحقِّهِ في بيتِ المالِ بلا سَرَفٍ، واستكتابُ الأمناءِ، وتقليدُ النُّصحاءِ، فيما يفوِّضُهم إليهم من الأعمالِ، وأن يُباشِرَ بنفسِه مشارفةَ الأمورِ وتصفُّحَ الأحوالِ، ولا يعوِّلَ على التَّفويضِ، فقد يخونُ الأمينُ، ويغشُّ النَّاصِحُ.

[وجوب الطاعة وحرمة الخروج على الإمام]

فإذا قامَ بحقوقِ الأمَّةِ وجبَ له عليهمُ الطَّاعةُ والنُّصرةُ إجماعًا، ويحرُمُ الخروجُ عليهِ وخَلعُهُ، ولو غيرَ عدلٍ، خِلافًا لطائفةٍ من العلماءِ؛ محتَجِّينَ بخروجِ الحسينِ على يزيدَ بنِ مُعاويةَ، والصَّحيحُ التَّحريمُ؛ لما يترتَّبُ على ذلكَ من سفكِ الدِّماءِ،

---

(١) انظر: «الفروع» لابن مفلح (٢/ ٩٥).

(٢) «نصب» من (خ).

ونهبِ الذَّرارِي والأموالِ، وإخافةِ السَّبيلِ، وحرقِ الزَّرعِ والأشجارِ وغيرِ ذلكَ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»: «مَن أتاكُم وأمرُكم على رجلٍ واحدٍ يريدُ أن يشُقَّ عصاكُم أو يفرِّقَ جماعتكُم فاقتلُوه»(١).

وفي روايةٍ: «فمن أرادَ أن يفرِّقَ أمرَ هذه الأُمَّةِ وهي جميعٌ فاضربوهُ بالسَّيفِ كائنًا من كانَ»(٢).

بل طاعتُهُ مطلوبةٌ، قالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، فافتتحَ سبحانَهُ وتعالى هذهِ الآيةَ بإيجابِ طاعَتِهِ على الخلقِ، وثنَّى بإيجابِ طاعةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وثلَّثَ بطاعةِ أولي الأمرِ، والمرادُ بهم الأئمَّةُ الَّذين إليهِم أمورُ هذهِ الأمَّةِ هكذا.

قالَ أنسُ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه حينَ سُئِلَ عن تفسيرِ قولِه: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ فقالَ: هم الأئمَّةُ الرَّاشِدُونَ، فمنهم أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ، ومن يَلِي أمورَ هذهِ الأمَّةِ إلى قيامِ السَّاعةِ، هكَذا سمعْتُ نبيَّكُم ﷺ يقولُ(٣).

فيجِبُ طاعَتُهم إلَّا أن يأمُرُوا بمعصيةٍ، فإن أمروا بها فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ، ويجِبُ على السُّلطانِ أن يستَنيبَ ويستَعمِلَ أصلحَ من يجِدُهُ، وقد لا يجِدُ الأصلحَ لِتلكَ الولايةِ، فيختارُ الأمثَلَ فالأمثَلَ.

ففي الحديثِ: «إن اللهَ يحِبُّ البصيرَ النَّاقدَ عندَ ورودِ الشُّبهاتِ، ويحبُّ العقلَ الكاملَ عندَ حلولِ الشَّهواتِ»(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٢/ ٦٠) من حديث عرفجة بن شريح رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٨٥٢/ ٥٩).

(٣) لم أقف على هذا الحديث.

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٨٠، ١٠٨١) من =

وإذا وجدَ رجلينِ؛ أحدُهما أعظَمُ أمانةً، والآخرُ أعظَمُ قوَّةً، قدَّمَ أنفعَهُما لتلكَ الولايةِ[1]، فيقدِّمُ في إمارةِ الحربِ القويَّ الشُّجاعَ وإن كانَ فيهِ فجورٌ على الضَّعيفِ العاجزِ وإن كانَ أمِينًا، فقد سُئلَ الإمامُ أحمدُ عن أميرَينِ في الغزوِ؛ أحدُهما قويٌّ فاجرٌ، والآخرُ صالحٌ ضعيفٌ، مع أيِّهما يغزو؟ قالَ: أمَّا الفاجِرُ القويُّ فقوَّته للمسلِمينَ وفجورُه على نفسِهِ، وأمَّا الصَّالحُ الضَّعيفُ فصلاحُهُ لنفسِهِ وضعفُهُ على المسلمينَ، يُغزَى مع القويِّ الفاجرِ[2].

وفي الحديثِ: «إن اللهَ يؤيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجرِ»[3].

ورويَ: «بأقوامٍ لا خَلاقَ لهم»[4].

وإذا كانَ السُّلطانُ شديدًا استنابَ ليِّنًا، وإن كانَ ليِّنًا استنابَ شديدًا ليكونَ أمرُهُ معتدِلًا، ولذلكَ كانَ أبو بكرٍ الصِّديقُ يؤثِرُ استنابةَ خالدِ بن الوليدِ، وعمرُ يؤثرُ عزلَهُ وتولِّي أبا عبيدةَ بن الجراحِ؛ لأنَّ خالدًا كان شديدًا كعمرَ، وأبا بكرٍ كانَ ليِّنًا كأبي عبيدةَ.

= حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٧٧٤): وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور.

(١) من قوله: «عند حلول الشهوات» إلى هنا سقط من (خ).

(٢) انظر: «المغني» لابن قدامة (٩/ ٢٠١).

(٣) رواه البخاري (٤٢٠٣)، ومسلم (١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٤٥٤) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ورواه البزار في «مسنده» (٦٦٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥١٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[الإمام العادل أفضل المجاهدين]

فإذا اجتهدَ السُّلطانُ في صلاحِ رعيَّتِهِ كانَ أفضلَ أهلِ زمانِهِ، وكانَ من أفضلِ المجاهِدِينَ.

فقد روِيَ: «يومٌ من أيَّامِ الإمامِ العادلِ أفضَلُ من عبادةِ ستِّينَ سنةً»[١].

وفي الحديثِ: «أحبُّ الخلقِ إلى اللهِ تعالى إمامٌ عادِلٌ، وأبغضُهم إليهِ إمامٌ جائرٌ»[٢].

وقالَ الإمامُ عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ[٣]: لا ينبَغِي للملِكِ أنْ يَظلِمَ وبهِ يُدفَعُ الظُّلمُ، ولا يَبخلَ وبهِ يتوقَّعُ الجودُ، وليقاتل ليكونَ الدِّينُ كلُّهُ للهِ[٤].

ففي «الصحيحينِ»: قيلَ للنَّبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ! الرَّجلُ يقاتلُ شجاعةً، ويقاتِلُ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٣٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٦٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٧): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه سعد أبو غيلان الشيباني ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (١١١٧٤)، والترمذي (١٣٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن غريب». وفي سنده عطية العوفي. قال الذهبي في «الكاشف» (٢/ ٢٧): ضعفوه.

(٣) عبد الله بن طاهر: أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين، أحد الأجواد السمحاء، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، ولاه الشام حربًا وخراجًا، فخرج من بغداد إليها، واحتوى عليها، وبلغ إلى مصر، ثم عاد، فولاه المأمون إمارة خراسان، فخرج إليها، وأقام بها حتَّى مات، وتوفي سنة ٢٣٠هـ. انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١١/ ١٦٢)، «الوافي بالوفيات» للصفدي (٣/ ٨٣).

(٤) انظر: «الإعجاز والإيجاز» للثعالبي (ص٨٢).

حميةً، ويقاتلُ رياءً، فأيُّ ذلكَ في سبيلِ اللهِ، فقالَ: «مَنْ يُقاتِلُ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا فهوَ في سبيلِ اللهِ»(١).

وكلمةُ اللهِ: اسمٌ جامعٌ لكلماتِهِ، التي تضمَّنَها كتابُهُ، فمن عدَلَ عن الكتابِ قوِّمَ بالحديد، ففيه منافعُ للنَّاسِ، فقوامُ الدِّينِ بالمصحَفِ والسَّيفِ.

فعن جابرٍ: أمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نضرِبَ بهذا ـ يعني: السَّيفَ ـ من عدَلَ عن هذا، ـ يعني: المصحفَ ـ (٢).

[لا يحتجب الإمام عن الناس]

ولا يحتَجِب السلطان عنِ النَّاسِ، فقد روَى إمامُنا أحمدُ بنُ حنبلٍ في «مسنَدِه»، والتِّرمذِيُّ في «جامعِهِ»، عن عَمرِو بن مُرَّةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «ما مِنْ إمامٍ أو والٍ يغلِقُ بابَهُ دونَ ذِي الخَلَّةِ والحاجةِ والـمَسْكَنَةِ إلَّا أغلَقَ اللهُ أبوابَ السَّماءِ دونَ خَلَّتِهِ وحاجَتِهِ ومَسْكَنتِهِ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٢/ ٢٧٩)، ولفظه: «عن عمرو بن دينار قال: رأيت جابر بن عبد الله وبيده السيف والمصحف وهو يقول: أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا من خالف ما في هذا».

وروى نحوه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٩٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٥٨٤٢)، وصححه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي. ولفظ سعيد بن منصور: «قال جابر بن عبد الله: بعثنا عثمان في خمسين راكبًا، وأميرنا محمد بن مسلمة، فلما انتهينا إلى ذي خشب استقبلنا رجل في عنقه مصحف، متقلد سيفه، تذرف عيناه، فقال: إن هذا يأمرنا أن نضرب بهذا ـ يعني السيف ـ على ما في هذا، فقال له محمد: اجلس فنحن قد ضربنا بهذا على ما في هذا قبلك أو قبل أن تولد. قال: فلم يزل يكلمهم حتى رجعوا».

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٠٣٣)، والترمذي (١٣٣٢) وقال: غريب، وكذا رواه أبو داود =

ولهذا كانَ بعضُ الحكَّامِ لا يغيبُ من بيتِهِ، ولا يسكُنُ إلَّا في دهليزٍ[١].

ورَوَى أبـو داودُ والحاكِـمُ وصحَّـحَ إسـنادَهُ: «مـن وليَ مـن أمورِ النَّاسِ شـيئًا فاحتجَـبَ عنهُم حجَبَـه اللهُ يـومَ القيامةِ»[٢].

ورواهُ الطَّبرانيُّ بلفظِ: «أيما أميرٍ احتجَبَ عن النَّاسِ حاجَتَهم احتجَبَ اللهُ عنه يومَ القيامةِ»[٣].

[الرفق بالرعية والنصح لهم]

وليرفُق برعيَّتِهِ ويجتَهِدْ في النُّصحِ لهم. ففي «مسلمٍ» عن عائشَةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ في بيتي هذا: «اللَّهمَّ مَنْ وليَ مِنْ أمورِ أُمَّتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقُقِ اللَّهمَّ عليهِ، ومَنْ وليَ مِنْ أمرِ أُمَّتي شيئًا فرَفقَ بهم فارفُقْ بهِ»[٤].

= (٢٩٤٨) وهو الحديث الآتي.

(١) دهليـز: مـا بيـن الباب والدَّار، فارسـيٌّ معـرّب. والجمـع الدهاليز. انظـر: «الصحـاح» للجواهري (مـادة: دهلز).

(٢) رواه أبو داود (٢٩٤٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٠٢٧) من حديث أبي مريم الأزدي، وصححه ووافقه الذهبي.

وفرق الحاكم بين حديث أبي مريم الأزدي وحديث عمرو بن مرة، فجعل حديث عمرو شاهدًا لحديث أبي مريم، وقال الترمذي بعد روايته للحديث: وعمرو بن مرة الجهني يكنى أبا مريم. وذكر التّرمذيُّ ـ عن البخاريّ ـ أن صاحب هذا الحديث هو عمرو بن مرة الجهنيِّ، وقد جزم غير واحد بأنه غيره. انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٧/ ٣٠٧).

(٣) من قوله: «وروى أبو داود والحاكم» إلى هنا ليس في (ش). وروى الطبراني في «معجمه» حديثين بمعناه؛ الأول (٢٠/ ١٥٢) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، والثاني (٢٢/ ٣٣١) من حديث أبي مريم رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (١٨٢٨).

وفي «الصَّحيحَينِ» عن مَعقلِ بن يَسارٍ رضيَ اللهُ عنه يقولُ: «ما مِنْ عَبْدٍ يَسْترعيهِ اللهُ رَعِيةً يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌ لرَعيَّتِهِ إلَّا حرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّةَ»[١].

وفي رواية لمسلمٍ: «ما من أميرٍ يلي أمورَ المسلمينَ ثم لا يجهِدُ لهم وينصَحُ لهم إلَّا[٢] لم يدخُلْ معهم[٣] الجنَّةَ»[٤].

[كيف يتعامل الإمام مع المال]

وعلى السُّلطانِ أن يأخُذَ المالَ من حلِّهِ[٥]، ويضعَهُ في حقِّهِ، ولا يمنعُه من مستحقِّهِ، فتُحمَلُ إليهِ الأموالُ، ويبارِكُ اللهُ له فيها، وجاءَ[٦] إلى الإمامِ عمرَ بن الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ مالٌ عظيمٌ من الخُمسِ فقالَ: إنَّ قومًا أدَّوا الأمانةَ في هذا لأمناءُ، فقالَ له[٧] بعضُ الحاضرينَ: إنَّك أدَّيْتَ الأمانةَ إلى اللهِ فأدَّوا إليكَ الأمانةَ، ولو رتعْتَ رتَعُوا[٨].

وما أُخِذَ نوَّابُهُ من مالِ المسلمينَ بغير حقٍّ كالهدايا والرِّشوةِ فعليهِ أخذُهُ منهم، ودفعُهُ لأربابِهِ، فإنْ جُهِلوا وضعَهُ في بيتِ المالِ، ففي الحديثِ: «هدايا الأمراءِ غُلولٌ»[٩].

---

(١) رواه البخاري (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢).

(٢) «إلا» من (ش).

(٣) «معهم» من (خ).

(٤) رواه مسلم (١٤٢/ ٢٢٩).

(٥) «وعلى السلطان أن يأخذ المال من حلّه» سقط من (ش).

(٦) في (ش): «حمل مرة».

(٧) «له» من (ش).

(٨) رواه البيهقي في «سننه» (١٣٠٣٣).

(٩) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٦٠١)، والبزار في «مسنده» (٣٧٢٣) من حديث أبي حميد =

وفي حديثِ أحمدَ وأبي داودَ: «من شفَعَ لأخيهِ شفاعةً فأهدَى له عَلَيها هديةً فقبِلَها، فقد أتى بابًا عظِيمًا من أبوابِ[1] الرِّبا»[2].

وعنِ ابن مسعودٍ قالَ: السُّحْتُ أنْ يطلُبَ الرَّجلُ للرَّجلِ، فيقضيَ لهُ فيها، فيهدِيَ إليهِ هديةً فيقبَلَها[3].

ونُقِلَ عن عمرَ وعليٍّ وابنِ مسعودٍ وابنِ عبَّاسٍ ومسروقٍ في قولِهِ تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]: نزلَت في اليهودِ، كانوا يسمَعُونَ لمن يكذِبُ عندَهم، ويأخذُونَ الرِّشوةَ ممَّن يحكُمونَ لهُ، والهديةَ ممَّن يشفَعونَ لهُ[4].

وكانَ ﷺ يقولُ: «أبلغُوني حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغَها، فإنَّهُ مَنْ أبلَغَ ذا سلطانٍ حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ إبلاغَها ثبَّتَ اللهُ قدميهِ على الصِّراطِ يومَ تزِلُّ الأقدامُ»[5].

= الساعدي رضي الله عنه. وروي من حديث أبي هريرة وجابر وابن عباس رضي الله عنهم. وفيها كلها ضعف. انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٤/ ١٥١)، و«التلخيص الحبير» لابن حجر (٤/ ٣٤٨).

(١) «أبواب» من (خ).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٥١)، وأبو داود (٣٥٤١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) عزاه ابن تيمية في «السياسة الشراعية» (ص٤١)، والموصلي في «حسن السلوك» (ص١٣٩) لإبراهيم الحربي.

(٤) من قوله: «ونقل عن عمر» إلى هنا ليس في (ش). وانظر الآثار عنهم بمعناه في «تفسير الطبري» (٨/ ٤٢٨)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٨٠).

(٥) رواه البزار في «مسنده» (٤١٢١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٠): رواه البزار في حديث طويل، وفيه سعيد البراد، وبقية رجاله ثقات.
ورواه الآجري في «الشريعة» (١٠٢٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ١٥٥) من حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٧٥): فيه من لم يسمَّ.

[إقامة الحدود من واجبات الإمام]

ويجبُ على السُّلطانِ إقامةُ الحدودِ على المشروفِ والشَّريفِ، والقويِّ والضَّعيفِ، ويكونُ السُّلطانُ شديدًا في إقامةِ الحدِّ، لا تأخذُهُ رأفةٌ في دينِ اللهِ فيعطِّلهُ، ويكونُ قصدُهُ رحمةَ الخلقِ بكفِّ النَّاسِ عن المنكراتِ، لا شفاءَ غيظِهِ، وإرادةَ العلوِّ؛ فإنَّ إقامةَ الحدِّ رحمةٌ مِنَ اللهِ لعبادِه، ولا يحلُّ تعطيلُه بعدَ بلوغِهِ إليه لا بشفاعةٍ ولا هديةٍ ولا غيرِهما، ولا تحلُّ الشَّفاعةُ فيهِ، ومن عطَّلهُ لذلكَ فعلَيه لعنةُ اللهِ.

وفي حديثِ أبي داودَ: «مَنْ حالَتْ شفاعتُهُ دونَ حدٍّ مِنْ حدودِ اللهِ فقد ضادَّ اللهَ في أمرِهِ، ومَنْ خاصَمَ في باطلٍ وهو يعلَمُ لم يزَل في غضَبِ[1] اللهِ حتَّى ينزِعَ»[2].

ولَمَّا شفعُوا عندَ النَّبيِّ ﷺ في المخزوميَّةِ الَّتي أرادَ قَطْعَ يدِها، غضِبَ وقالَ لأسامةَ: «أتشفَعُ في حدٍّ مِنْ حُدودِ اللهِ؟ إنَّما هلَكَ بنو إسرائيلَ أنَّهم كانُوا إذا سرَقَ فيهم الشَّريفُ تركُوهُ، وإذا سرَقَ فيهم الضَّعيفُ أقاموا عليهِ الحدَّ، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لو أن فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ سرقَتْ لقطعْتُ يدَها»[3].

وروى الإمامُ مالكٌ في «الموطَّأ»: أنَّ جماعةً أمسَكُوا لصًّا ليرفعُوهُ إلى عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ، فتلقَّاهمُ الزُّبيرُ، فكلَّمَهُم الزُّبيرُ فيهِ، فقالوا: إذا رُفِعَ إلى عثمانَ فاشفَع فيه عندَهُ، فارتفَعُوا إلى عثمانَ فقالَ: إذا بلغَتِ الحدودُ السُّلطانَ، فلعنَ اللهُ الشَّافِعَ والمشفَّعَ[4]. يعني: الَّذي يقبَلُ الشَّفاعةَ.

---

(١) في (ش): «سخط».

(٢) رواه أبو داود (٣٥٩٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٣٥).

وسرقَ لصٌّ(١) رداءَ صفوانَ بنَ أميَّةَ، فأمسَكَهُ، وأتى بهِ للنَّبيِّ ﷺ، فأمرَ بقطعِ يده، فقالَ: يا رسولَ اللهِ! على ردائي تقطَعُ يداهُ؟ أنا أهبُه لهُ، فقالَ: «فهلَّا قبلَ أن تأتِيَني به(٢) غفرْتَ»، ثم قُطِعَتْ يدُه. رواهُ أهلُ السُّننِ(٣).

وليسَ في حسنِ السِّياسةِ والإحسانِ للرَّعيةِ أن يفعَلَ ما يَهْوُونَه، ويترُكَ ما يكرَهُونَهُ، فقد قالَ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وفي سننِ النَّسَائيِّ وابنِ ماجه عن أبي هُرَيرةَ مرفوعًا: «حدٌّ يُعمَلُ بهِ في الأرضِ خيرٌ لأهلِ الأرضِ مِنْ أنْ تُمطِرَ أربعينَ صَباحًا»(٤).

وهذا لأنَّ المعاصي سببٌ لنقصِ الرِّزقِ والخوفِ، فإذا أقيمَتِ الحدودُ نقصَتِ المعاصي، فيحصُلُ الرِّزقُ والنَّصرُ، فلا يجوزُ أن يُؤخَذَ من الزَّاني أو السَّارقِ أو الشَّاربِ أو قاطعِ الطَّريقِ ونحوِه مالٌ يعطِّلُ به الحدَّ، لا لبيتِ المالِ، ولا لغيرِه، فإنْ فعلَ السُّلطانُ ذلكَ عطَّلَ الحدَّ وأكلَ السُّحْتَ، وأشبهَ اليهودَ الذينَ قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الرِّشوةِ التي تسمَّى البِرطيلَ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: قد أجمَعَ المسلمونَ على أن تعطيلَ الحدِّ بمالٍ يؤخَذُ منهُ أو غيرُه لا يجوزُ، وأجمعُوا على أنَّه مالُ سحتٍ خبيثٌ، وأنَّ ذلكَ سببُ سقوطِ حُرمةِ السُّلطانِ وسقوطِ قَدرِهِ منَ القلوبِ وانحلالِ أمرِهِ.

---

(١) «لص» من (ش).

(٢) «به» من (ش).

(٣) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٣٤)، وأبو داود (٤٣٩٤)، والنسائي (٤٨٨٤)، وابن ماجه (٢٥٩٥).

(٤) رواه النسائي (٤٩٠٤)، وابن ماجه (٢٥٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالَ: وأصلُ البرطيلِ هوَ الحجرُ المستطيلُ، سمِّيتْ بهِ الرِّشوةُ لأنها تلقِمُ المرتَشِي عن التَّكلُّمِ بالحقِّ كما يلقِمُهُ الحجرُ الطَّويلُ[1].

وفي الأثرِ: إذا دخلَتِ الرِّشوةُ من البابِ خرجَتِ الأمانةُ من الكُوَّةِ[2].

وأنشَدُوا في ذلكَ[3]:

إذا أتَتِ الهَدِيَّةُ دارَ قَومٍ ... تطَايرَتِ الأمَانةُ مِن كُواهَا[4]

فإذا تركَ السُّلطانُ إنكارَ المنكَراتِ وإقامةَ الحدودِ لمالٍ يأخذُهُ، قالَ ابنُ تيميةَ: كانَ بمنزلةِ مقدَّمِ الحراميَّةِ الَّذي يقاسِمُ المحارِبينَ على النَّهبِ، وبمنزلَةِ القوَّادِ الذي يأخذُ ما يأخذُهُ ليجمَعَ بين اثنينِ على فاحشةٍ، وكانَتْ حالتُهُ شبيهًا بحالةِ عجوزِ السُّوءِ[5].

وأيضًا فغايةُ مريدِ الرِّئاسةِ أنْ يكونَ كفرعونَ، وجامعِ المالِ أن يكونَ[6] كقارونَ، وقد بيَّنَ اللهُ في كتابهِ حالَهُما.

وقد زعمَ ذو الجهالةِ أنَّ السُّلطانَ لا يقومُ إلَّا بعطاءٍ، والعطاءُ لا يكونُ إلَّا بالمالِ، والمالُ لا يحصُلُ إلَّا باستخراجِهِ من حلِّهِ وغيرِ حلِّهِ، فصارُوا نهَّابين وهَّابينَ[7].

---

(١) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص٦١).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (١٦٧٠) من قول الحسن.

(٣) البيت لمحمد بن عبد الله بن عيشون. انظر: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٢/ ١٢٠).

(٤) من قوله: «وأنشدوا في ذلك» إلى هنا من (خ).

(٥) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص٦٣)، وعجوز السوء هي امرأة لوط عليه السلام.

(٦) «أن يكون» من (خ).

(٧) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص٥١).

ويقولـونَ: لا يمكِـنُ أنْ يتولَّى على النَّـاسِ إلَّا مَنْ يأكُلُ ويُطعِـمُ، أولئكَ هم[١] الكاذبونَ.

والعلماءُ الَّذينَ يقرِّونهم على ذلكَ كاليهودِ الَّذينَ قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

وقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ: إني سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ النَّاسَ إذا رأَوا المنكرَ فلم يغيِّروه أوشكَ أنَّ يعمَّهم الله بعذابٍ منهُ»[٢].

وفي حديثٍ آخر: «إنَّ المعصَيةَ إذا أُخفيَتْ لم تضرَّ إلَّا صاحِبَها، ولكنْ إذا ظهرَتْ فلم تُنكَرْ ضرَّتِ العامَّةَ»[٣].

وإذا طلَبَ السُّلطانُ أحدًا لإقامةِ الحدِّ عليهِ فاحتمَى بأحدٍ فمَن حماهُ فهو ممَّنْ لعنَهُ اللهُ ورسولُهُ؛ ففي «مسلمٍ»: «لعنَ اللهُ من أحدَثَ حدَثًا، أو آوَى محدِثًا»[٤]، فكلُّ من آوَى محدِثًا من هؤلاءِ المحدِثينَ فقد لعنَهُ اللهُ ورسولُهُ.

قالَ ابنُ تيميةَ: وإذا طلبَهم السُّلطانُ أو نوَّابهُ لإقامةِ الحدِّ فامتنَعوا وجبَ على المسلمينَ قتالُهم باتِّفاقِ العلماءِ، وقتالُ مَنْ يحميهم ويعينُهم[٥].

---

(١) «هم» من (ش).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥). وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦٨): فيه مروان بن سالم الغفاري وهو متروك.

ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٥٠)، وابن وضاح في «البدع» (٢٨٨) موقوفًا من قول بلال بن سعد.

(٤) رواه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص٧٢).

قالَ: وعلى السُّلطانِ قتالُ كلِّ طائفةٍ ممتنعةٍ من التزامِ شريعةٍ من شرائعِ الإسلامِ الظَّاهرةِ المتواترَةِ كالصَّلاةِ أو الزَّكاةِ أو الصِّيامِ، أو كانت مستحلَّةً ما كان من المحرَّماتِ الظَّاهرةِ المجمَعِ عليها كنكاحِ ذواتِ[1] المحارمِ والفسادِ في الأرضِ، فيجِبُ جهادُها حتى يكونَ الدِّينُ كلُّهُ للهِ باتِّفاقِ العلماءِ، كما قاتَلَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وسائرُ الصَّحابَةِ مانعِي الزَّكاةِ، وكان قد توقَّفَ في قتالِهم بعضُ الصَّحابةِ ثم اتَّفقُوا على قتالِهم[2].

[ولاية أمور النَّاس من واجبات الدِّين]

ثم ليعلَمِ السُّلطانُ أن ولايةَ أمورِ النَّاسِ من أعظمِ واجباتِ الدِّينِ، بل لا قيامَ للدِّينِ والدُّنيا إلَّا بها، فإنَّ بني آدمَ لا تتمُّ مصلحَتُهم إلَّا بالاجتماعِ لحاجةِ بعضِهم إلى بعضٍ، ولا بدَّ لهم عند الاجتماعِ من رأسٍ؛ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إذا خرجَ ثلاثةٌ في سفرٍ فليؤمِّروا أحدَهم». رواه أبو داودَ[3].

وروى أحمدُ في «مسنَدِه» عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يحلُّ لثلاثةٍ يكونونَ بفلاةٍ من الأرضِ إلَّا أمَّرُوا عليهم أحدَهم»[4].

ولهذا رويَ أنَّ «السُّلطانَ ظلُّ اللهِ في الأرضِ»[5].

---

(١) «المحرَّمات الظاهرة المجمع عليها لنكاح ذوات» ليس في (ش).

(٢) «بعض الصَّحابة ثم اتَّفقوا على قتالهم» من (ش). انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص١٠٦).

(٣) رواه أبو داود (٢٦٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٦٤٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٧٢٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٨١): رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) رواه البزار في «مسنده» (٥٣٨٣)، وتمام في «فوائده» (٥٠٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» =

ويقالُ: ستُّونَ سنةً من إمامٍ جائرٍ أصلَحُ من ليلةٍ واحدةٍ بلا سلطانٍ[1].

ولهـذا كان السَّـلفُ الصَّالـحُ كالفُضيلِ بن عيـاضٍ وأحمدَ بنِ حنبـلٍ وغيرِهما يقولـونَ: لـو كان لنا دعوةٌ مُسـتجابةٌ لدعَونا بها للسُّـلطانِ؛ لأنَّ فـي صلاحِهِ صلاحَ المسلمينَ[2].

[لا يقصِدُ السُّلطانُ بسلطنَتِهِ العلوَّ والفسادَ]

ولا يقصِدُ السُّلطانُ بسلطنَتِهِ العلوَّ والفسادَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: النَّاسُ في ذلكَ أربعةُ أقسامٍ:

قسمٌ يريدونَ العلوَّ على النَّاسِ، والفسادَ في الأرضِ، وهوَ معصيةُ اللهِ، وهؤلاءِ الملوكُ ورؤساءُ المفسِدينَ كفرعونَ وحِزبِهِ، وهؤلاءِ شرُّ الخلقِ.

= (٣٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠١٣) من حديث أبي عبيدة رضي الله عنه.

ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٦٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ورواه قـوام السـنة الأصبهانـي فـي «الترغيـب والترهيب» (٢٠٨٧) مـن حديث عمر بـن الخطاب رضـي الله عنـه.

وله طرق أخرى، وقد جمعها السخاوي في جزء وسماه: «رفع الشكوك في مفاخرة الملوك»، وللسيوطي أيضًا جزء فيه.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٣٩١).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩١) عن الفضيل بن عياض. وانظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٣٩١).

وقسمٌ يريدونَ الفسادَ بلا علوٍّ، كالسرَّاقِ والمجرمِينَ من سَفِلَةِ النَّاسِ ونحوِهم.

وقسمٌ يريدُونَ[(١)] العلوَّ بلا فسادٍ، كالَّذينَ عندَهم دينٌ[(٢)] يريدونَ أن يعلوا بهِ على غيرِهم مِن النَّاسِ.

وقسمٌ هم أهلُ الجنَّةِ الَّذين لا يريدُونَ علوًّا في الأرضِ ولا فسادًا[(٣)].

وفي «مسلمٍ» قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ في قَلبِهِ مِثْقالُ ذرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، ولا يدخُلُ النَّارَ مَنْ في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمانٍ» فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللهِ! إنِّي أحبُّ أنْ يكونَ ثَوْبي حَسَنًا، أفمِنَ الكِبْرِ ذاكَ؟ قالَ: «لا؛ إنَّ اللهَ جَميلٌ يحبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»[(٤)].

فبطَرُ الحقِّ: جَحْدُهُ، وغَمْطُ النَّاسِ: احتقارُهم وازدِراؤهم، وهذهِ حالُ مَن يريدُ العلوَّ والفسادَ.

[تحريم السجود للسلطان وتقبيل الأرض بين يديه]

ومِن أقبَحِ البدعِ المحرَّمةِ تقبيلُ الأرضِ بين يدَي الملوكِ، وحبُّهم لذلكَ، ورِضاهم بهِ، فإن كانَ سجودًا بأن يلاقي بجبهَتِهِ الأرضَ؛ قالَ الإمامُ النَّوويُّ رحمَهُ اللهُ: فسواءٌ كانَ إلى القبلَةِ أو غيرِها، وسواءٌ قصدَ السُّجودَ للهِ أو غفَلَ، هو حرامٌ، وفي بعضِ صوَره ما يقتَضِي الكفرَ أو يُقاوِمهُ[(٥)].

---

(١) «الفساد بلا علو كالسراق والمجرمين من سفلة الناس ونحوهم وقسم يريدون» سقط من (ش).

(٢) «دين» من (ش).

(٣) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص١٣٨).

(٤) رواه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) انظر: «روضة الطالبين» للإمام النووي (١/ ٣٢٦)، وكلامه هذا لمن يسجد بين يدي المشايخ من الجهلة.

وسُئِلَ ابنُ الصَّلاحِ عن هذا السُّجودِ فقالَ: هو من عظائمِ الذُّنوبِ، ويُخشَى أن يكونَ كُفرًا[١].

وفي بعضِ كتبِ السَّادةِ الحنفيَّةِ: أنَّهُ[٢] يكفُرُ مُطلَقًا. وبعضُهم قالَ: إنْ أرادَ التَّحيةَ فهوَ حرامٌ، وإن لم تكُن له نيَّةٌ كفرَ عند أكثرِهم[٣].

[العدل أساس الملك]

فشأنُكَ أيُّها الملكُ من هذه[٤] الأمورِ إنَّما هو العدلُ، الَّذِي تُوازَنُ الأشياءُ بميزانِهِ، وهوَ الغرضُ الَّذي الرِّفقُ من شروطِهِ، والإنابةُ من أركانِهِ، وجُعِلَ يومهُ كعبادةِ سبعينَ عامًا في فضلِهِ وإحسانِهِ[٥].

---

(١) انظر: «فتاوى ابن الصلاح» (ص٢٥٦). وجوابه جاء لسؤال نصه: مسألة: طائفة من الفقراء يسجدون بعضهم لبعض ويزعمون أن ذلك تواضع لله وتذلل للنفس ويستشهدون بقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فهل يجوز أو يحرم؟ وهل يختلف بما إذا كان يسجد مستقبل القبلة أم لا؟ وهل الآية في ذلك منسوخة في مثل ذلك أم لا؟ وتتمة جوابه: والسجود في الآية منسوخ أو يُتأوَّل.

(٢) «أنه» من (خ).

(٣) تكرر هذا في أكثر من كتاب من كتبهم، وفي المسألة تفصيل عندهم؛ إن أراد التحية لا يكفر، وإن أراد التعظيم يكفر. وقال العيني: في هذا الزمان لا يسجدون لسلطان إلا تعظيمًا وإجلالًا فلا يشك في كفرهم. انظر: «البناية» (١٢/ ١٩٩). وانظر: «المبسوط» للسرخسي (٢٤/ ١٣٠)، و«تبيين الحقائق» للزيلعي (٦/ ٢٥)، و«مجمع الأنهر» لداما أفندي (٢/ ٥٤٢).

(٤) «هذه» من (ش).

(٥) يشير إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»، رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٣٢)، و«المعجم الأوسط» (٤٧٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٧٩). وقال المنذري: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناد الكبير حسن.

وَمِن العدلِ إقامةُ حدودِ اللهِ الَّذي أقامَ بها وجه[١] الرَّبيعِ حنيفًا[٢]، وحدٌّ منها يُقامُ في الأرضِ خيرٌ لها مِن أنْ تُمطِرَ أربعينَ خرِيفًا[٣].

وممَّا يُؤكِّدُ عليكَ الوصيَّةُ أنْ تُنزِلَ النَّاسَ مَنازِلَهم، فتُقيلَ ذوي الهيئاتِ[٤] عثراتِهم[٥] إذا خطُروا في مذهبِ ريبةٍ، فاسحَبْ ذيلَ التَّجاوُزِ على خطواتهم إلَّا ما كانَ من حدودِ اللهِ، فإنَّه يُقامُ على الشَّريفِ كما يُقامُ على المشروفِ، فلا معروفَ إلَّا في التَّسويةِ بين أوامرِ المعروفِ.

[على السلطان مشاورةُ العلماء]

وعليكَ أيها السُّلطانُ بمشورةِ العلماءِ غيرِ المداهِنِينَ، وكن معهم حيثُ حلُّوا، وإلَّا اتَّخذَ النَّاسُ رؤساءَ جهالًا فضلُّوا وأضلُّوا[٦]، فاتخِذهم لمجلسِكَ جَمالًا، ولحِملكَ مقالًا، ولسِهامكَ نِصالًا، وما استعجَمَ عليكَ من حكمٍ فاكشِف منهم خبرَهُ، واعمَل فيهِ بأمرِ الشَّرعِ، فإن المعروفَ ما عرَّفَهُ والمنكَرَ ما أنكرَهُ، فامشِ أيُّها الملكُ على إثرِ أقوالِهم، وإذا سُئِلْتَ غدًا فاجعَلِ الحوالةَ على سؤالِهمْ.

---

(١) «وجه» من (خ).

(٢) في (خ): «خريفًا».

(٣) يشير إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم: «حدٌّ يُعمَلُ بِهِ في الأرضِ خيرٌ لأهلِ الأرضِ مِنْ أنْ تُمطِرَ أربعينَ صَباحًا». رواه النسائي (٤٩٠٤)، وابن ماجه (٢٥٣٨).

(٤) **هنا تنتهي النسخة الخطية المرموز لها بـ(ش).**

(٥) يشير إلى حديث رواه أبو داود (٤٣٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود».

(٦) مقتبس من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يرفعه: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهَّالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»، رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

وقد قيلَ: ينبَغِي للملكِ أن يتَّخذَ العلماءَ شعارًا، والصُّلحاءَ دثارًا، حتَّى تدُورَ مملكَتهُ بينَ نصائحِ العلماءِ ودعواتِ الصُّلَحاءِ(١).

ولا يتَّبِعْ ما أحدثهُ من القوانينِ ملوكُ هذه الأيَّامِ، ورأَوا أنَّها أنفَعُ ولو أضرَّتْ بالأنامِ، فإنَّ إثمَها أكبرُ من نفعِها، كيفَ لا وقد قدَّمُوها على ما جاءَ بهِ بينَهم، فأماتوا بذلكَ سُننًا وأحيَوا بِدَعًا، وتفرَّقوا فيما أحدثوهُ من الأحداثِ شِيَعًا، وهوَ رأيُ مَنِ اتَّبعَ النَّظَرَ، وتركَ الآيَةَ والخبرَ، فحِكمةُ اللهِ مطويَّةٌ فيما يأمرُ بهِ على ألسنةِ رسُلهِ، وليسَتْ ممَّا يَستَنبِطُه ذو العلمِ بعلمِهِ، أو يَستدِلُّ عليهِ ذو العقلِ بعَقلِهِ، إلَّا وأنَّها ممَّا تخفِّفُ موازينَ الأعمالِ، وأنَّها لا تربُو عندَ اللهِ وإنْ ربَتْ عندَ النَّاسِ، وصاحِبُها وإنْ أثرَتْ يدهُ فهو في غدٍ من ذوِي الإفلاسِ، فهذه كلُّها خبيثاتُ المطاعمِ، وبيلاتُ المظالمِ، ثقيلاتُ المغارمِ.

ألَا وإنَّ الزَّادَ من الحلالِ ممَّا يزيدُ القلوبَ تنويرًا، ومِن سُنَّةِ اللهِ أن يُبارِكَ في القليلِ حتى يصيرَ كثيرًا.

وقد قيلَ: إذا ظفرَتِ البطونُ بطيبِ اللُّقمةِ تفجَّرتْ على الألسنةِ ينابيعُ الحكمةِ(٢).

فينبَغِي للسُّلطانِ الحازمِ أن يضرِبَ أعناقَ هذه الحوادثِ بسيوفِ الأبطالِ، ويقبلَ الحوالةَ فيها على خزائنِ رحمةِ اللهِ التي لا يُنقِصُها كثرةُ الإفضالِ، فإنَّه يجزي الحسنةَ بعشرِ أمثالها، ويُعرِضَ عن قليلِ حرامِ الدُّنيا بكثيرِ حلالِها.

وليُفضِ العدلَ على الرَّعيَّةِ إفاضةَ اللِّباسِ، ويطهِّر أرجاءَهم مِن الظُّلمِ تطهيرَ

---

(١) انظر: «سراج الملوك» للطرطوشي (ص٥٢).

(٢) نحوه في «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٣٢١).

الأرجاسِ، فخيرُ سننِ الخيرِ ما بقِيَ عمرَهُ مخلَّدًا، وعملَ بهِ حتَّى يكونَ أجرُهُ على تردُّدِ الأيَّامِ مُردَّدًا، أو ليندبْ جهدَ سيرَتِهِ الحسنةِ، ليكُونَ ممَّن سَنَّ سُنَّةً حسنةً.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ مَنْ تقدَّمَكَ عجَزَ عن هذهِ الحسنَةِ، فقلْ: كلُّ شاةٍ برجلِها ستُناطُ[1]، وكلُّ حسنةٍ وسيئةٍ بصاحِبها ستُحاطُ، فنقُولُ بعدَها: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ [فصلت: ٢٩].

وحكَى ابنُ السُّبْكيِّ وغيرُه: أنَّ الشَّيخَ عزَّ الدِّينِ بنَ عبدِ السَّلامِ حضرَ عندَ السُّلطانِ الملكِ الصَّالحِ أيوبَ، وكانَ قد اطَّلعَ على حانةٍ يُباعُ فيها الخمرُ، ويُفعَلُ فيها المنكرَاتُ، فقالَ: يا أيُّوبُ! كيفَ يسعُكَ في دينِكَ أن تكونَ الحانةُ الفلانيَّةُ في سلطانِكَ؟ فقالَ: يا مولانا، أنا ما علِمْتُ هذا، هل هو من زماني؟ قالَ: أفتَرْضى أن تكونَ ممَّنْ تقولُ يومَ القيامةِ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فما وسِعَهُ إلَّا أن أمرَ بإبطالِ ذلكَ.

وسُئِلَ الشَّيخُ بعدَ أنْ انفصَلَ المجلِسُ: كيفَ تجاسرْتَ على هذا السُّلطانُ معَ شدَّةِ سطوَتهِ؟ فقالَ: رأيتُهُ قد تعاظَمَ في موكبِهِ، فأردْتُ أن أُهِينَهُ.

فقيلَ له: فما خِفتَهُ؟ فقالَ: استحضَرْتُ هيبةَ اللهِ في قلبي، فصرتُ أراهُ كالقطِّ[2].

هكذا يكونُ العلماءُ العاملُونَ، جعلَنا اللهُ منهم آمينَ.

* * *

(١) كل شاة برجلها ستناط: النَّوْطُ: التَّعليق، أي: كلُّ جانٍ يؤخذ بجنايته، قال الأصمعي: أي لا ينبغي لأحد أن يأخذ بالذنب غير المذنب. انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ١٣٣).

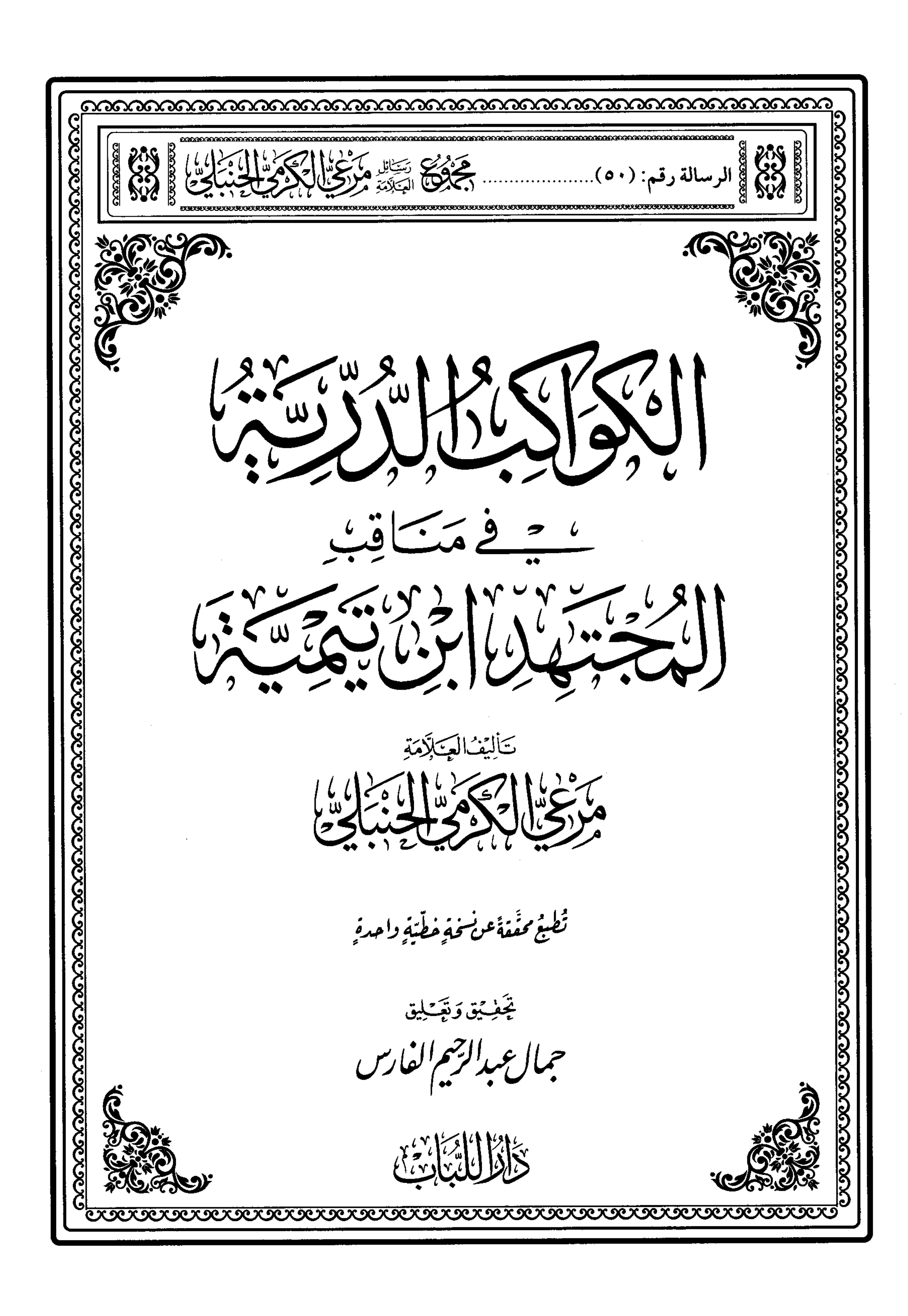
(٢) انظر: «طبقات الشافعية» للسبكي (٨/ ٢٠٩).

وكانَ الفـراغُ مِـنْ تعليـقِ هـذا التَّاريـخِ العظيـمِ بمصـرَ، يـومَ التَّاسـعِ مِـن ذي الحجَّـةِ الحـرامِ، مِـنْ شـهورِ سـنةِ تسـعٍ وعشـرينَ وألـفٍ، وكُتِـبَ برسـمِ حدقـةِ الوجـودِ، وحديقـةِ الجـودِ، الرَّافـلِ فـي أبـوابِ السَّـعادةِ، والمترسِّـلِ بُـردَا الفخـرِ والسِّـيادةِ، مَـنْ هـوَ درَّةٌ فـي يتيمةِ الدَّهرِ، والواسـطةُ في قـلادةِ النَّحرِ، مَـنْ أطلَعَ اللهُ شـموسَ سـعادَتِهِ مشـرقَ الأنوارِ، وألبسَ الدُّنيا من حُللِ سـعادَتِهِ ملابسَ الافتخارِ، مولانـا وأولانـا رئيـسِ الدِّيـارِ الشَّـاميَّةِ ومزيِّنِ الدِّيـارِ المصريَّـةِ، المحـروسِ بخيرِ البريَّـةِ، ومـن تسـمَّى بأفضلِ البرايـا بعدَ الرَّسـولِ، واللهُ وكيـلٌ على ما أقـولُ، أعني بذلـكَ سـيِّدَنا ومولانـا الحجكِـيَّ الخدومـيَّ، سـيِّدي أبـو بكـرِ الشَّـابيُّ الحنبلـيُّ، الموفَّـقُ بفضـلِ اللهِ، والمحبـوبُ لوجـهِ اللهِ، خلَّـدَ اللهُ عليـهِ سـوابغَ نعَمِهِ، وأسـكنَهُ فسـيحَ جنتـهِ بمحمَّـدٍ وصحابتِـهِ، آمينَ[1].

* * *

(١) وجـاء فـي خاتمة النسـخة (خ): «وكانَ الفراغُ مِـنْ رَقمِهِ: يومَ الأربعاءِ المباركِ، ثامنَ عشـر شـوَّالٍ، مـن شـهور سـنة (١١٦٥) ألـفٍ ومئـةٍ وخمسٍ وسـتِّينَ مـن الهجـرةِ النَّبويَّةِ، علـى صاحبِهـا أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّـلامِ».





مجموع رسائل العلامة مرعي الكرمي الحنبلي .... الرسالة رقم: (٥٠)

الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية

تأليف العلامة

مرعي الكرمي الحنبلي

تطبع محققة عن نسخة خطية واحدة

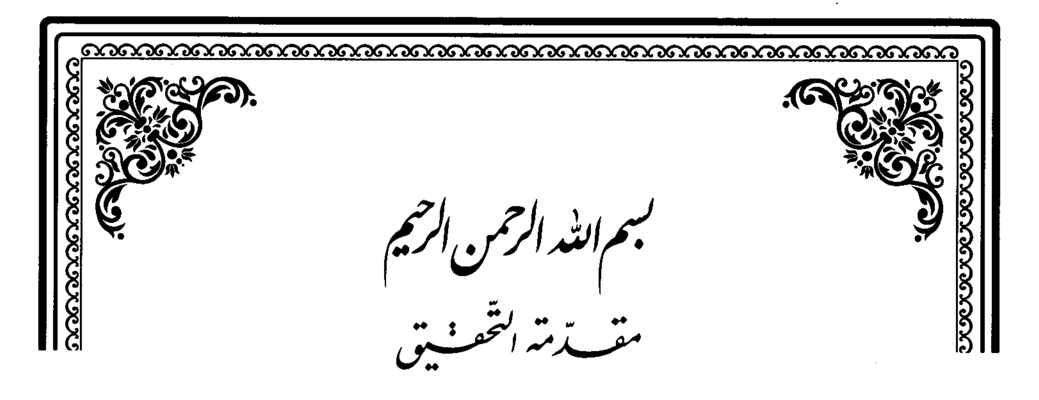
تحقيق وتعليق

جمال عبد الرحيم الفارس

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
قال العبد الفقير الى الله تعالى مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله
وصحبه اجمعين ورضي الله تعالى عن العلما العاملين
والايمة المجتهدين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين
وبعد فهذه فوايد لطيفة وفرايد شريفة في
مناقب شيخ الاسلام وبحر العلوم ومفتي الفرق المجتهد
احمد تقي الدين بن تيمية لخصتها من مناقبه للشيخ
الحافظ الامام شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد
بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي
بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي ومن مناقبه
للشيخ الامام العالم الاوحد الحافظ سراج الدين
ابي حفص عمر بن علي بن موسى البزار ومن مناقبه
للشيخ الامام العالم اوحد الادبا وشيخ الفضلا شهاب
الدين احمد بن فضل الله القاضي محيي الدين يحيى
بن فضل الله العمري الشافعي فاقول وبالله
التوفيق بن تيمية هو الشيخ الامام العالم العامل
الرباني امام الايمة وعلامة الامة ومفتي الفرق وبحر
العلوم

العلوم وسيد الحفاظ وفارس المعاني والالفاظ فريد
العصر ووحيد الدهر شيخ الاسلام بركة الانام علامة
الزمان وترجمان القرآن علم الزهاد واوحد العباد
قامع المبتدعين واخر المجتهدين تقي الدين ابو
العباس احمد بن الشيخ الامام العلامه شهاب
الدين ابي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ الامام
العلامه شهاب الدين شيخ الاسلام مجد الدين
ابي البركات عبد السلام بن ابي محمد عبد الله بن ابي
القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله
بن تيمية الحراني نزيل دمشق وصاحب التصانيف
التي لم يسبق الى مثلها كذا ترجمه بهذه الترجمة
بن قدامة المتقدم واختلف لما قيل بن تيمية فقيل
ان جده محمد بن الخضر حج على درب تيما فرأى
هناك طفلة فلما رجع وجد امراته قد ولدت له
بنتا فقال يا تيميه يا تيميه فلقب بذلك
وقيل ان جده محمدا كانت امه تسمى تيمية



الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ

وبعدُ:

فإنَّ الاطِّلاعَ على تاريخِ الأعلامِ الكِبارِ الَّذين كانَ لهم تأثيرٌ واضحٌ في الأُمَّةِ ودراسةَ سِيرِهم مِن أهمِّ الأمور الَّتي يجب أن يُعتنى بها، وذلك لِمَا لَهُ مِن أثرٍ في إحياء النُّفوسِ ومدِّها بنماذجَ تنيرُ لها السَّبيل، وتبثُّ فيها الرُّوحَ، وتعيدُ لها الأملَ، وترسمُ لها الطَّريق، لا سيَّما في زمنِنا هذا الَّذي يشعرُ المسلمُ فيه بالغربةِ والضَّعفِ.

وهذا كتابٌ تناولَ مصنِّفُهُ فيه سيرةَ عَلَمٍ مِن أولئكَ الأعلامِ، ونجمٍ مِن تلك النُّجومِ السَّاطعةِ في تاريخِنا المجيد هو: **شيخُ الإسلامِ أحمدُ بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن تيميةَ النُّميريُّ الحرَّانيُّ الدِّمشقيُّ**.

وسيرته هذه تعدُّ أنموذجًا عن حياةِ العالِم المجاهدِ الصَّابر، الجامعِ بينَ العلمِ والعملِ، والجهادِ والإصلاحِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ، معَ العزَّةِ والأَنَفَةِ، وكريمِ السَّجايا وجميلِ الصِّفاتِ ومكارم الأخلاق.

وبعد قراءَتِكَ للكتابِ لا بُدَّ وأنْ تُعْجَبَ بهذه الشَّخصيَّة الفذَّة، وتقرَّ لها بالتَّقدُّم والسَّبق، والشُّموليَّة والعطاء، سواءٌ اتَّفقْتَ معه في بعضِ الأمورِ أو اختلفْتَ.

والعجبُ مِن أناسٍ يصدرونَ الأحكامَ قبلَ سماع الدَّعوى، فيحكمون على الشَّخص دون قراءةِ سيرتِه، وما هذا سوى تعصُّبٍ مقيتٍ، وهوًى أعمى.

بدأ الشَّيخُ مرعي الكرميُّ الحنبليُّ مصنِّفُ هذا الكتاب بِذِكْرِ ولادةِ شيخ الإسلام ابن تيميةَ ونسبِه ونشأتِه وشيوخِه، ثم نقلَ ثَناءَ الأئمَّةِ الأعلامِ عليه، ثم سردَ عددًا مِن مصنَّفات الشَّيخ الكثيرة، ثم تكلَّم عَن صفاتِ الشَّيخ الجليلة ومآثره الحميدة، وتوسَّع في الكلام عن محنتِه، وفصَّل القول في المجالس والمناقشات الَّتي جرَتْ معه، ونقلَ أجوبةَ عددٍ مِن العلماء في الانتصار لشيخ الإسلام في محنتِه، ثم ذكَرَ وفاتَه وجنازتَه المهيبة، ثمَّ تغنَّى بأشعارٍ كثيرةٍ في الثَّناء على الشَّيخ ورثائِه، وختمَ الكتاب بنصيحةٍ وموعظةٍ في عقوبة الافتراء على العلماء والتَّطاول عليهم.

وقد اعتمد المصنِّفُ في جمع مادَّة هذا الكتاب على ثلاثة كتب لثلاثة مؤلِّفين، عاصروا شيخَ الإسلام ابنَ تيمية، وشاهدوا بأعينهم جوانِبَ من سيرتِه وأحداثًا مِن حياتِه، ورَوَوا بعضَها الآخر عمَّن شاهدها، وهذه الكتب هي:

١ ـ «العقود الدُّرِّيَّة مِن مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية»، للحافظ أبي عبد الله ابن عبد الهادي، المتوفى سنة (٧٤٤هـ). وكان جلُّ اعتماد المصنِّف عليه.

٢ ـ «الأعلام العليَّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية»، للحافظ أبي حفص، عمر بن علي البغدادي البزَّار، المتوفى سنة (٧٤٩هـ).

٣ ـ ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية من «كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» للقاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي، المتوفى سنة (٧٤٩هـ)، وهذا الكتاب موسوعة تاريخية أدبية كبيرة، طبع في (٢٧)

مجلـدًا، واهتـمَّ مؤلِّفُـه بسـيرة شـيخ الإسـلام ابـن تيمية وخصَّهـا بمزيد بسـط، في المجلـد الخامس، مـن (ص٦٨٧) إلـى (ص٧٠٩).

ولـم يقتصر دور المصنف على مجرَّد النَّقل، بل ظهرَ أثرُه بزياداتِه وإضافاتِه وتنبيهاتِه، وكان يتصرَّفُ في العبارة؛ فيقدِّم ويؤخِّر، ويزيد ويُنقص فيها، مع تصريحه في بعض المواضع بالكتاب النَّاقل عنه، وإغفالِه لذلك في مواضعَ أخرى.

وقد اعتمدنا في إخراجِ هذا الكتاب على نُسخةِ الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة المصورة عن مكتبة الدولة ببرلين برقم (١٥٨)، ورمزنا لها بـ (ج)، وهي نسخةٌ تامةٌ كُتبت بخط واضح، ذكر ناسخُها أحمدُ بنُ عُبيد الحجَّاوي الحنبلي أنَّه نقلَها مِن نسخةٍ قُوبِلَتْ على أصلِه.

وقـد طُبـع هـذا الكتـابُ سـابقاً بتحقيـقِ الدكتـور نجـم عبـد الرحمـن خلف طبعـةً جيـدة، واعتمـد محققُه جـزاه الله خيراً على نسـخةٍ وحيـدةٍ أيضـاً غلَب على ظنِّـه أنهـا بخـطِّ المؤلفِ وهـي مـن محفوظات جامعـة لانديبـرج، وقد أفدنـا منها فـي غيرما موضـع هنا وأشـرنا إليهـا بـ(ط).

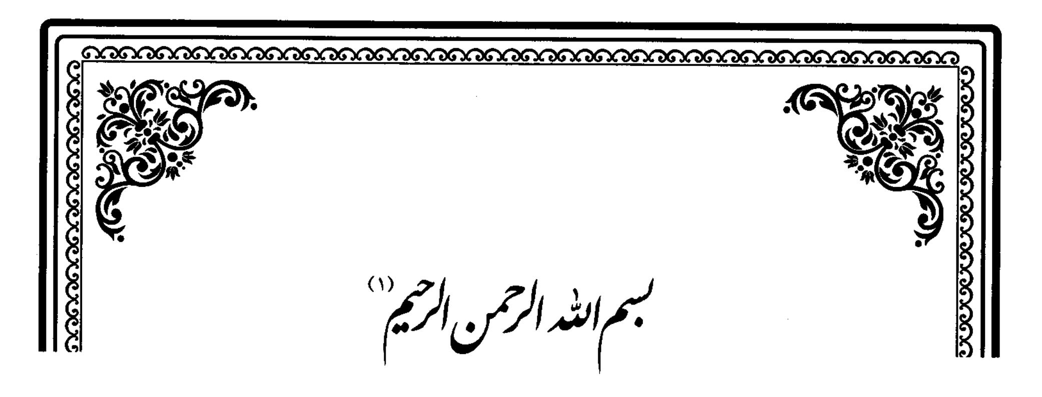
نسأل الله تعالى دوام التَّوفيق والهداية، إنه سميعٌ مجيبٌ

والحمدُ لله ربِّ العالمين

المحقق

* * *





قالَ العبدُ الفقيرُ إلى اللهِ تعالى مرعيُّ بنُ يوسفَ الحنبليُّ المقدسيُّ:

الحمدُ للهِ ربِّ العالَميْنَ، وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّينَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ إلى يومِ الدِّيْنِ.

وبعدُ:

فهذِهِ فوائدُ لطيفَةٌ، وفرائدُ شريفةٌ، في مناقِبِ شيخِ الإسلامِ، وبحرِ العلومِ، ومُفتي الفِرَقِ، المجتهدِ تقيِّ الدِّينِ ابنِ تَيْمِيَةَ، لخَّصتُها مِنْ مناقِبِهِ للشَّيخِ الحافظِ الإمامِ شمسِ الدِّينِ أبي عبدِ اللهِ محمَّدِ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ الهادي بنِ عبدِ الحميدِ بن عبدِ الهادي بنِ يوسفَ بنِ محمَّدِ بنِ قُدامَةَ المقدِسيِّ[2]، ومِنْ مَناقِبِ شيخِ الإسلامِ

---

(١) جاء على غلاف النسخة الخطية (ج): للشَّيخِ مرعيٍّ مدحًا في شيخِ الإسلامِ:

إمــامُ المعالــي والمعانــي أم يَعيبُــهُ	عَلى فضلِه مَـنْ كانَ فـي الرُّتبـةِ الدُّنيا
ومَـنْ ذا يَعيْـبُ البَدْرَ والبَحْـرَ والهُدَى	ومَـنْ كانَ فـذًّا بالفَضَائِـلِ فـي الدُّنيـا
ومـا ضـرَّ نـورَ الشَّـمسِ أنْ كانَ ناظرًا	إليـهِ عيـونٌ لـم تـزَلْ دَهرَهـا عُمْيـا
وهَـلْ جـاءَ فـي الدُّنيـا كأحمـدَ بعـدَهُ	وهـلْ حـلَّ بـدرٌ فـي منازِلِـهِ العُلْيـا

(٢) محمد بن أحمد بن عبد الهادي ابن العماد عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة: الفقيه البارع المقرئ المجود المحدث الحافظ النحوي الحاذق، صاحب الفنون، شمس الدين، أبو =

العلَمِ الأوحَدِ الحافظِ سِراجِ الدِّينِ أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ عليٍّ بنِ موسى البزَّارِ(١)، ومن مناقبِه للشيخِ الإمامِ العالم أوحدِ الأُدباءِ وشيخِ الفُضلاءِ شهابِ الدين أحمدَ بن القاضي محيي الدِّينِ، يحيى بن فضلِ اللهِ العُمَريِّ الشَّافعيِّ(٢).

فأقولُ ـ وباللهِ التَّوفيقُ ـ:

ابنُ تَيْمِيَةَ هو الشَّيخُ الإمامُ، الفاضلُ العامِلُ الرَّبانيُّ، إمامُ الأئمَّةِ وعلَّامةُ الأُمَّةِ، ومُفتي الفِرَق وبحرُ العلومِ، وسيِّدُ الحفَّاظِ، وفارسُ المعاني والألفاظِ، فريدُ العصرِ، ووحيدُ الدَّهرِ، شيخُ الإسلامِ، وبركةُ الأنامِ، وعلَّامةُ الزَّمانِ، وتُرجُمانُ القرآنِ، علَمُ الزُّهَّادِ، وأوحدُ العبَّادِ، قامِعُ المبتَدِعينَ، وآخرُ المجتهِدينَ، تقيُّ الدِّينِ أبو العباسِ

= عبد الله المقدسي، الجماعيلي الأصل الصالحي الحنبلي، عني بفنون الحديث ومعرفة رجاله وذهنه مليح، وله عدة محفوظات وتواليف وتعاليق مفيدة. توفي سنة (٧٤٤هـ). واسم كتابه: «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» مطبوع. انظر: «المعجم المختص بالمحدثين» للذهبي (ص٢١٥)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٥/ ٦١).

(١) عمر بن علي بن موسى بن الخليل البغدادي، الأزجي، البزار، الفقيه المحدث، قاضي الحنابلة، سراج الدين أبو حفص، أخذ عن الشيخ ابن تيمية، صنف كثيرا في الحديث وعلومه، وفي الفقه والرقائق، توفي بالطاعون في طريقه للحج سنة (٧٤٩هـ). واسم كتابه: «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» مطبوع. انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» (٥/ ١٤٦)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢١١).

(٢) وظاهر كلام المصنف أنه أفرد كتابًا في مناقب الشيخ ابن تيمية، ولكن لم نجد أنهم ذكروا ذلك في مصنفاته، ولعل مقصود المصنف ترجمة الشيخ ابن تيمية من كتاب «مسالك الأبصار»، فإنه ترجم له ترجمة حافلة، ويؤيد ذلك ما قاله ابن ناصر الدين في «الرد الوافر» (ص٨٢): عمل للشيخ تقي الدين ابن تيمية ترجمة أنيقة مرضيَّة نثرًا ونظمًا أوسعها فوائد وعلمًا وذلك في كتابه «مسالك الأبصار».

أحمدُ بنُ الشَّيخِ الإمامِ العلَّامةِ شهابِ الدِّينِ أبي المحاسن عبد الحليم بنِ الشَّيخِ الإمامِ العلَّامة شهاب الدِّين شيخِ الإسلامِ مجدِ الدِّينِ أبي البركاتِ عبدِ السَّلام بنِ أبي محمَّدٍ عبدِ اللهِ بنِ أبي القاسمِ الخَضِرِ بنِ محمَّدِ بنِ الخَضِرِ بن عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ تَيْمِيَةَ الحرَّانيُّ، نزيلُ دمشقَ، وصاحبُ التَّصانيفِ الَّتي لم يُسبَقْ إلى مِثلِها. كذا ترجَمهُ بهذه التَّرجمَةِ ابنُ قُدامةَ المقدِسيُّ المتقدِّم[1].

واختُلِفَ لِمَ قِيْلَ: ابنُ تَيْمِيَةَ؛ فقيلَ: إنَّ جدَّهُ محمَّدُ بن الخضِرِ حجَّ على دربِ تَيماءَ[2]، فرأى هناكَ طفلةً، فلمَّا رجعَ وجدَ امرأتَهُ قد ولدَتْ لهُ بنتًا فقالَ: تا[3] تَيْمِيَةُ، يا تَيْمِيَةُ، فلقِّبَ بذلكَ.

وقيلَ: إنَّ جدَّهُ محمَّدًا كانَتْ أمُّهُ تسمَّى تَيْمِيَةَ، وكانَت واعظةً فنُسِبَ إليها، وعُرِفَ بها.

ولدَ رحمَهُ الله بحرَّانَ[4]، يومَ الإثنَينِ عاشرَ، وقيلَ: ثاني عشَرَ ربيعٍ الأوَّلِ،

---

(١) انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص١٨).

(٢) تيماء: في الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاجّ الشام ودمشق، وحاليًّا هي محافظة تتبع منطقة تبوك في السعودية. وانظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٦٧)، و«الروض المعطار» للحميري (ص١٤٦)، و«أطلس التاريخ الإسلامي» لشوقي أبو خليل (ص١٣٨).

(٣) تا: اسمٌ يُشار به إلى المؤنَّث، مثل ذا للمذكر، يقال: تا فلانة في موضع: هذه فلانة. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري، «والصحاح» للجواهري (مادة: تا).

(٤) حران: من ديار مضر في الجزيرة قرب الرها ونهر الفرات، مدينة قديمة يقال: بناها هاران أخو إبراهيم عليه السلام، وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، فتحت في أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، على يد عياض بن غنم، كانت مجمع الصابئين، وبقي فيها بعضهم، وينسب لها كثير من العلماء، تقع حاليًّا في جنوب تركيا قرب الحدود السوريَّة، تتبع إداريًّا لمحافظة =

سنةَ إحدى وستِّينَ وستِّ مئةٍ، وبقيَ بحرَّانَ إلى أن بلَغَ سبعَ سنينَ، ثمَّ بعدَ ذلكَ هاجرَ والدُه بإخوَتِه إلى الشَّامِ عندَ ظهورِ التَّترِ، فساروا باللَّيلِ ومعهُم الكتبُ على عَجَلَةٍ[١] لعدَمِ الدَّوابِ، فكادَ العدوُّ يلحَقُهم، ووقفَتِ العَجَلَةُ، فابتهلُوا إلى اللهِ تعالى واستغاثُوا به، فنجَوا وسلِمُوا، وقدِمُوا دمشقَ في أثناءِ سنةِ سبعٍ وستِّينَ، فنشَأَ بدمشقَ أتمَّ إنشاءٍ وأزكاهُ، وأنبتَهُ اللهُ أحسنَ النَّباتِ وأوفاهُ.

وكانت مخائلُ النَّجابةِ عليهِ في صغَرِهِ لائحةً، ودلائلُ العنايةِ فيه واضحةً، ولم يزَل منذُ إبَّانِ صِغَرِهِ مُستغرِقَ الأوقاتِ في الجدِّ والاجتهادِ، وختمَ القرآنَ صغيرًا، ثمَّ اشتغَلَ بحفظِ الحديثِ والفقهِ والعربيَّةِ حتى برَعَ في ذلكَ، معَ مُلازمَتِه مجالسَ الذِّكرِ، وسماعَ الأحاديثِ والآثارِ.

ولقَد سمِعَ غيرَ كتابٍ على غيرِ ذي شيخٍ مِنْ ذَوِي الرِّواياتِ الصَّحيحَةِ العاليةِ، أمَّا دَواوينُ الإسلامِ الكبارِ، كمُسنَدِ الإمامِ أحمدَ، وصحِيحَي البُخاريِّ ومسلمٍ، وجامِعِ التِّرمذِيِّ، وسُننِ أبي داودَ السَّجِستانيِّ والنَّسائيِّ وابنِ ماجَه والدَّارَقُطنيِّ، فإنَّهُ سمِعَ كلًّا منهما مرَّاتٍ عِدَّةً.

وأوَّلُ كتابٍ حفِظَه في الحديثِ «الجمعُ بين الصَّحِيحَين» للإمامِ الحُمَيديِّ، كذا قالَ الشَّيخُ الحافظُ سراجُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمرُ[٢].

= أورفة. وانظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٢٣٥)، و«الروض المعطار» للحميري (١/ ١٩١)، و«أطلس التاريخ الإسلامي» لشوقي أبو خليل (ص٨٨).

(١) العَجَلَةُ: الآلة التي يجرها الثور، وأيضًا: خُشُب تُؤلَّف تُحمَل عليها الأثقال. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي، و«تاج العروس» للزبيدي (مادة: عجل).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص١٨).

وسَمِعَ مِن مشايخَ كابنِ عبدِ الدَّائمِ المقدسيِّ[١] وطبقَتِهِ، وطلَبَ بنفسِهِ قراءةً وسماعًا مِنْ خَلقٍ كثيرٍ، وقرأ الكتُبَ، الطِّباقَ والأثباتِ، ولازمَ السَّماعَ منذُ سنينَ، واشتغَلَ بالعلومِ.

قالَ ابنُ عبدِ الهادي ابنِ قُدامةَ: وشيوخُهُ الَّذين سمِعَ منهم أكثَرُ مِن مِئَتي شيخٍ، وسمِعَ «مسنَدَ الإمامِ أحمدَ بن حنبلٍ» مرَّاتٍ، وسمِعَ الكتبَ الكبارَ والأجزاءَ، ومِن مسمُوعاتِهِ: «مُعجَمُ الطَّبرانيِّ الكبيرُ»، وعُني بالحديثِ، وقرأ ونسخَ وانتقَى، وتعلَّمَ الخطَّ والحسابَ في المكتبِ، وحفِظَ القرآنَ، وأقبلَ على الفِقهِ، وقرأَ في العربيَّةِ، وأخذَ يَتأمَّلُ «كتابَ سيبويهِ» حتَّى فهِمَهُ، وبرعَ في النَّحوِ، وأقبَلَ على التَّفسيرِ إقبالًا كُلِّيًا حتَّى حازَ فيهِ قصَبَ السَّبْقِ، وأحكَمَ أصولَ الفِقْهِ وغيرَ ذلكَ.

هذا كلُّهُ وهو بعدُ ابنُ بِضْعَ عشرةَ سنةً، فأبهَرَ الفُضلاءَ مِنْ فَرْطِ ذَكائِهِ، وسَيلانِ ذِهنِه، وقوَّةِ حافظَتِهِ، وسُرعَةِ إدراكِهِ. انتَهى[٢].

***

---

(١) زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة بن أحمد، أبو العباس المقدسي الحنبلي، مسند الوقت، المعمر، العالم، تفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ، وكان فاضلًا يكتب سريعًا، توفي سنة (٦٦٨هـ). انظر: «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (٢/ ٤٣٦)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ٢٩٩)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ١٥١)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٧/ ٢٢).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص١٩).

فصلٌ في ثناءِ[1] الأئمَّةِ على ابنِ تَيْمِيَةَ

قد أكثَرَ أئمَّةُ الإسلامِ مِن الثَّناءِ على هذا الإمامِ، كالحافظِ المِزيِّ، وابنِ دَقيقِ العيدِ، وابنِ حيَّانَ النَّحويِّ، والحافظِ ابن سيِّدِ النَّاسِ، والعلَّامةِ كمالِ الدِّينِ ابن الزَّمَلكانيِّ، والحافظِ الذَّهبيِّ، وغيرِهم من أئمَّةِ العلماءِ.

قالَ جمالُ الدِّينِ أبو الحجَّاجِ المِزِّيُّ عن ابنِ تَيْمِيَةَ: ما رأيْتُ مثلَهُ، ولا رأى هو مثلَ نفسِهِ، وما رأيْتُ أحدًا أعلَمَ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، ولا أتبَعَ لهما منهُ[2].

وقالَ القاضي أبو الفَتْحِ ابنُ دقيقِ العيدِ: لَمَّا اجتمَعْتُ بابنِ تَيْمِيَةَ رأيْتُ رجُلًا كلُّ العلومِ بينَ عينيهِ، يأخُذُ ما يريدُ، وقلْتُ له: ما كنْتُ أظنُّ أنَّ اللهَ بقي يخلُقُ مثلَكَ[3].

وقالَ الشَّيخُ إبراهيمُ الرَّقيُّ[4]: الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ يؤخَذُ عنهُ، ويُقلَّدُ في العلومِ، فإنْ طالَ عمُرُهُ مَلأَ الأرضَ علمًا، وهو على الحقِّ، ولا بدَّ ما يعاديهِ النَّاسُ، فإنَّه وارِثُ علمِ النُّبوَّةِ[5].

---

(١) في (ج): «إثناء».

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣)، و«مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٨).

(٤) إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معالي بن محمد، الإمام العلامة الزاهد العابد القدوة شيخ الإسلام أبو إسحاق الرقي، نزيل دمشق، كان ممن برز في العلم والعمل، عني بتفسير القرآن وبالفقه وتقدم في علم الطب وشارك في علوم الإسلام وبرع في التذكير، توفي سنة (٧٠٣هـ). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٥٢)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٥/ ٢٠٦).

(٥) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٧).

وقالَ قاضي القضاةِ أبو عبدِ الله ابنُ الحريريِّ[١]: إنْ لم يكُنِ ابنُ تَيْمِيَةَ شيخَ الإسلامِ فمن هوَ[٢]؟!

قالَ أبو حيَّان شيخُ النُّحاةِ لَمَّا اجتمَعَ بابنِ تَيْمِيَةَ: ما رأَتْ عيناي مثلَهُ، ثم مدحَهُ أبو حيَّانَ على البدِيهةِ في المجلِسِ فقالَ:

لَمَّا أتَيْنا تَقيَّ الدِّينِ لَاحَ لَنَا … داعٍ إلى اللهِ فَرْدٌ مَا لَهُ وَزَرُ

عَلى مُحيَّاهُ مِن سِيما الأُولَى صَحِبوا … خَيرَ البريَّةِ نورٌ دونَهُ القمَرُ

حَبْرٌ تَسَرْبَلَ منه دَهرُهُ حِبرًا … بحرٌ تقاذَفُ[٣] مِنْ أمْواجِهِ الدُّرَرُ

قامَ ابنُ تيميةٍ في نصْرِ شِرعَتِنا … مقامَ سيِّدِ تَيْمٍ[٤] إذْ عَصَتْ مُضَرُ

فأظهَرَ الحقَّ إذْ آثارُهُ درَسَتْ … وأخمَدَ الشَّرَّ إذْ طارَتْ لهُ الشَّرَرُ

كنَّا نحَدَّثُ عن حَبرٍ يجيءُ فها … أنتَ الإمامُ الَّذي قَدْ كانَ يُنتَظَرُ[٥]

---

(١) شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الحسن الدمشقي الحريري قاضي القضاة. كان عادلاً، مهيبًا، صارمًا، ديِّنًا، قوَّالًا بالحق، حميد الأحكام، رأسًا في المذهب، توفي سنة (٧٢٨هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٤/ ٦٧)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٤٧٨)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ١٥٣).

(٢) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٠).

(٣) في (ج): «تقارن»، والمثبت من مصادر التخريج.

(٤) سيد تيم: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، شبهه به. وانظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن الكلبي (ص١٥)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٦٩).

(٥) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٨)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٦٣)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ١٧٧). وانظر الأبيات في «ديوان أبي حيان» (ص٤٤٧).

وقالَ العلَّامةُ ابنُ الورديِّ[١] ناظِمُ «البهجَةِ»[٢] في رحلَتِه لَمَّا ذكَرَ علماءَ دمشقَ: وتركْتُ التعصُّبَ والحميَّةَ، وحضرْتُ مجالسَ ابنَ تيميةَ، فإذا هو بيتُ القصيدَةِ[٣]، وأوَّلُ الخَريدَةِ[٤]، علماءُ زمانِهِ فَلَكٌ هو قُطبُه، وجسمٌ هو قَلبُه، يزيدُ عليهم زيادةَ الشَّمسِ على البدرِ، والبَحرِ على القَطرِ، بحثْتُ بين يديهِ يومًا فأصبتُ المعنَى فكناني، وقبَّلَ بينَ عيني اليمنى[٥]، فقلْتُ:

---

(١) عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، القاضي الأجل، الإمام الفقيه، الأديب الشاعر، زين الدين ابن الوردي المعرِّي الشَّافعي، أحد فضلاء العصر وفقهائه، وأدبائه وشعرائه، تفنن في العلوم، وأجاد في المنثور والمنظوم، نظمه جيد إلى الغاية، وفضله بلغ النهاية، توفي بحلب بالطاعون، سنة (٧٤٩هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٣/ ٦٧٥)، و«طبقات الشافية الكبرى» للسبكي (١٠/ ٣٧٣).

(٢) «البهجة الوردية» أو «بهجة الحاوي» نظم «الحاوي الصغير»، والحاوي للشيخ نجم الدين عبد الغفار القزويني، خمسة آلاف بيت. انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٦٢٦)، و«معجم المطبوعات العربية» (١/ ٢٨٣).

ولها عدة شروح، وقد شرحها الشيخ زكريا الأنصاري، وقال في مقدمة شرحه: إن «البهجة الوردية» في الفقه... كانت من أبدع كتاب في الفقه صُنِّف، وأجمع موضع فيه على مقدار حجمه أُلِّف. انظر: «الغرر البهية في شرح البهجة الوردية» (١/ ٩).

(٣) (بيت القصيدة) يضرب مثلًا في تفضيل بعض الشيء على كله. انظر: «ثمار القلوب» للثعالبي (ص٦٥٩).

(٤) كذا في الأصل، وفي بعض كتب الأدب، والخريدة: الدرة التي لم تثقب، والبكر التي لم تمس، ولعل الصواب: أول الجريدة، لأن من معاني الجريدة المجازية: الجيش لا رجالة فيه، فهي أنسب لأنها تدل على التصدر والسبق، وأوفق للسياق. انظر: «سحر البلاغة» للثعالبي (ص٦٨)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٣/ ٦٣٥)، و«معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (مادة: خرد)، و«تاج العروس» للزبيدي (مادة: جرد).

(٥) انظر: «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٩).

إنَّ ابــنَ تَـيـمـيــةَ فــي كـــلِّ العلُــومِ أوحَــدْ
أَحَيـــيْتَ ديــنَ أحـمَــد وشَـرعَـــهُ يـــا أحمَــدْ[1]

وقالَ الحافظُ فتحُ الدِّينِ أبو الفتحِ ابنُ سيِّدِ النَّاسِ اليَعمَريُّ المصرِيُّ[2] ـ بعد أنْ ذكرَ ترجمةَ الحافظِ المزيِّ ـ: وهو الَّذي حداني على رؤيةِ الشَّيخِ الإمامِ شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ أبي العباسِ أحمدَ بنِ عبدِ الحليم بنِ عبدِ السَّلامِ ابنِ تيميةَ، فألفَيتُه ممَّنْ أدرَكَ مِنَ العلومِ حَظًّا، وكادَ يستوعِبُ السُّننَ والآثارَ حِفظًا، إنْ تكلَّمَ في التَّفسيرِ فهو حاملُ رايتِه، أو أفتى في الفقهِ فهو مُدرِكُ غايتِه، أو حاضرَ بالنِّحَلِ والمِلَلِ لم يُرَ أوسَعُ مِن نِحلَتِه في ذلكَ، ولا أرفَعُ مِن درايتِه.

برَّزَ في كلِّ فنٍّ على أبناءِ جنسِه، ولم تَرَ عينُ مَن رآهُ مثلَهُ، ولا رأَتْ عينُه مثلَ نفسِه، كان يتكلَّمُ في التَّفسيرِ فيحضُرُ مجلِسَهُ الجمُّ الغفير، ويرِدُون مِن بحرِ علمِه العذبِ النَّمير، ويرتعونَ مِن ربيعِ فضلِه في روضةٍ وغدير، إلى أن دبَّ إليه من أهلِ بلَدِه داءُ الحسدِ، وأكبَّ أهلُ النَّظرِ منهم على ما يُنتَقَدُ عليه مِن أمورِ المعتقَدِ، فحفِظُوا عنه في ذلك كلامًا، أوسعُوه بسببِه ملامًا، وفوَّقُوا لتبدِيعِه سِهامًا، وزعَموا أنَّهُ خالفَ طريقَهم، وفرَّقَ فريقَهم، يسومُونَه ريبَ المنونِ، ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩].

ولم يزَل بمحبسِه إلى حينِ ذهابِه إلى رحمةِ اللهِ، وإلى اللهِ تُرجَعُ الأمورُ، وهو المطَّلعُ على خائنةِ الأعينِ وما تخفي الصُّدورُ.

---

(١) وانظر: «الشهادة الزكية» (ص٥٧)، وله مرثية في ابن تيمية ستأتي في نهاية الكتاب.

(٢) العلامة المحدث الحافظ الأديب البارع فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ابن سيد الناس اليعمري، لأندلسي الأصل المصري، صاحب التصانيف، توفي سنة (٧٣٤هـ). انظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٩٧)، و«أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٢٠١).

ثم قالَ: قرأتُ على الشَّيخِ الإمامِ، حاملِ رايةِ العلومِ، ومُدرِكِ غايةِ المفهومِ، تقيِّ الدينِ أبي العباسِ أحمدِ بن عبدِ الحليمِ بن عبدِ السَّلامِ ابن تيميةَ رحمَهُ الله بالقاهرةِ، قدِمَ علينا، ثم ذكرَ حَدِيثًا من «جُزء ابنِ عرفةَ»[1].

وقالَ الشَّيخُ علَمُ الدِّين البِرزاليُّ[2] في «معجَمِ شُيوخِه»[3]: أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أبي القاسمِ بن محمَّدِ ابنِ تيميةَ، الحرَّانيُّ، الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ أبو العباسِ، الإمامُ الـمُجْمَعُ على فضلِه ونُبلِه ودينِه، قرأَ القرآنَ وبَرَعَ فيهِ، والعربيَّةَ والأصولَ، ومَهَرَ في علمَي التفسيرِ والحديثِ، وكانَ إمامًا لا يُلحَقُ غُبارُه في كلِّ شيءٍ، وبلغَ رتبةَ الاجتهادِ، واجتمعَتْ فيهِ شُروطُ المجتهدِينَ، وكانَ إذا ذَكَرَ التَّفسيرَ أبهَتَ النَّاسَ مِن كثرةِ محفُوظِهِ، وحسنِ إيرادِه، وإعطائِهِ كلَّ قولٍ ما يستحقُّهُ مِن التَّرجيحِ والتَّضعيفِ والإبطالِ، وخوضِه في كلِّ علمٍ.

كان الحاضرونَ يقضُونَ منهُ العجَبَ، هذا معَ انقطاعِهِ إلى الزُّهدِ والعبادَةِ، والاشتغالِ باللهِ تعالى، والتَّجرُّدِ مِن أسبابِ الدُّنيا، ودعاءِ الخلقِ إلى اللهِ تعالى.

وكان يجلِسُ في صبيحَةِ كلِّ جمعةٍ يفسِّرُ القرآنَ العظيمَ، فانتفَعَ بمجلسِهِ، وبركَةِ دُعائِهِ، وطهارَةِ أنفاسِهِ، وصِدقِ نيَّتِه، وصفاءِ ظاهِرِهِ وباطِنِهِ، وموافقَةِ قولِه

(١) انظر: «أجوبة ابن سيد الناس على سؤالات ابن أيبك الدمياطي» (٢/ ٢٢١)، و«العقود الدرية» (ص٢٦)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٢٦)، و«الدرر الكامنة» (١/ ١٨٢).

(٢) الحافظ المحدث المتقن الإمام مؤرخ الشام، علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف بن الحافظ زكي الدين محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي ثم الدمشقي الشافعي، وسمع كثيرًا ورحل وأمعن في طلب الحديث مع الإتقان والفضيلة، توفي محرمًا سنة (٧٣٩). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٧٧)، و«أعيان العصر» (٤/ ٤٩).

(٣) جمع فيه أسماء مشايخه، وبلغ عدد مشايخه بالسماع ألفي شيخ وبالإجازة أكثر من ألف. انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢٧٧).

لعمَلِه، وأنابَ إلى اللهِ خلقٌ كثيرٌ، وجرى على طريقَةٍ واحدةٍ من اختيارِ الفقرِ والتَّقلُّلِ مِن الدُّنيا، رحمَهُ اللهُ تعالى[1].

وقال العلَّامةُ ابنُ الزَّملكانيِّ[2] أحدُ الأئمَّةِ الأعلامِ مِن الشَّافعيَّةِ: لقد أُعطِيَ ابنُ تيميةَ اليدَ الطُّولى في حسنِ التَّصنيفِ، وجَودةِ العبارةِ والتَّرتيبِ والتَّقسيمِ والتَّبيينِ، وقد ألانَ اللهُ له العلومَ كما ألانَ لداودَ ـ عليه السَّلام ـ الحديدَ، كان إذا سُئِلَ عنْ فنٍّ مِنَ العلمِ ظنَّ الرَّائي والسَّامعُ أنَّه لا يعرِفُ غير ذلك الفنِّ، وحكَمَ أنَّ أحدًا لا يعرِفُه مثلَهُ، وكان الفقهاءُ مِن سائرِ الطَّوائفِ إذا جلَسُوا معَه استفادوا في مذاهِبِهم منهُ ما لم يكونُوا عرَفُوه قبلَ ذلكَ، ولا يُعرَفُ أنَّه ناظَرَ أحدًا فانقطَعَ معهُ، ولا تكلَّمَ في علمٍ مِن العلومِ سواءٌ كان مِنْ عُلومِ الشَّرعِ أو غيرِها إلَّا فاقَ فيه أهلَهُ والمنسوبينَ إليهِ.

وكانَت لهُ اليدُ الطُّولى في حسنِ التَّصنيفِ، ووقعَت مسألةٌ فرعيَّةٌ في قِسمَةٍ جرى فيها اختلافٌ بينَ المفتين في العصرِ، فكتَبَ فيها مجلَّدةً كبيرةً، وكذلك وقعَت مسألةٌ في حدٍّ مِنَ الحدودِ، فكتَبَ فيها مجلَّدةً كبيرةً أيضًا، ولم يخرُجْ في كلِّ واحدةٍ عن المسألةِ، ولا طوَّلَ بتخليطِ الكلامِ، والدُّخولِ في شيءٍ والخروجِ مِن شيءٍ، وأتى في كلِّ واحدةٍ بما لم يكُنْ يجرِي في الأوهامِ والخواطرِ، واجتمعَت فيهِ شروطُ الاجتهادِ على وجهِها[3].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٨)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص١٢١).

(٢) محمد بن علي بن عبد الواحد ابن خطيب زملكا، كمال الدين أبو المعالي الأنصاري السَّمَّاكي الزَّمَلْكاني، قاضي القضاة بحلب، شيخ الشافعية في عصره، توفي سنة (٧٢٧هـ). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٢٤٦)، و«أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٦٢٤).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٩)، و«مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٧)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٥٨).

وقالَ عن «كتابِ بيانِ الدَّليلِ على بطلانِ التَّحليلِ»[١]: من مصنَّفاتِ سيِّدِنا وشيخِنا وقُدوَتِنا، الشَّيخِ السَّيِّدِ الإمامِ، العالمِ العلَّامةِ، الأوحَدِ البارِعِ، الحافظِ الزَّاهدِ الورعِ، القدوَةِ الكاملِ العارِفِ، تقيِّ الدِّينِ، شيخِ الإسلامِ، مُفتي الأنامِ، سيِّدِ العُلماءِ، قُدوةِ الأئمةِ الفُضَلاءِ، ناصرِ السُّنَّةِ، قامِعِ البدعَةِ، حجَّةِ اللهِ على العبادِ، رادِّ أهلِ الزَّيغِ والعِنادِ، أوحَدِ العلماءِ العامِلينَ، آخرِ الأئمَّةِ المجتهدِينَ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ تيميةَ، حفِظَ اللهُ على المسلمين طولَ حياتِهِ، وأعادَ عليهم مِن بركاتِهِ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وقالَ عن «كتابِ رَفْعِ الـمَلامِ عَنِ الأئمَّةِ الأعلامِ»: تأليفُ الشَّيخِ الإمامِ العالمِ العلَّامةِ الأوحدِ الحافظِ المجتهِدِ، الزَّاهدِ العابدِ القدوَةِ، إمام الأئمَّةِ، وقُدوةِ الأمَّةِ، علَّامةِ العلماءِ، وارثِ الأنبياءِ، آخرِ المجتهِدِينَ، أوحدِ علماءِ الدِّينِ، بركةِ الإسلامِ، حجَّةِ الأعلامِ، برهانِ المتكلِّمينَ، قامعِ المبتدِعين، محيي السُّنَّةِ، ومَنْ عظمَت بهِ للهِ علينا الـمِنَّةُ، وقامَتْ بهِ على أعدائهِ الحجَّةُ، واستبانَتْ ببركتِهِ وهديِهِ الـمَحَجَّةُ، تقيِّ الدِّينِ أحمدَ بنِ تيميةَ، أعلى اللهُ مَنارَهُ، وشيَّدَ به من الدِّينِ أركانَه، ثمَّ قالَ:

ماذا يقولُ الواصِفونَ لهُ ... وصِفاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الحَصْرِ
هُوَ حُجَّةٌ للهِ قاهِرَةٌ ... هوَ بَيْنَنا أعجوبَةُ الدَّهْرِ
هو آيةٌ في الخَلْقِ ظاهِرةٌ ... أنوارُها أربَتْ على الفَجْرِ[٢]

وقالَ الشَّيخُ الإمامُ القُدوَةُ الزَّاهدُ عمادُ الدِّين أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٤)، و«الرد الوافر» (ص٥٧)، وذكر محققه الشيخ زهير شاويش أنه رأى خط ابن الزملكاني بتقريظ الكتاب المذكور.

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٥)، و«تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٨)، و«الرد الوافر» (ص٥٧).

إبراهيمَ الواسطيُّ[١]: شيخُنا السَّيِّدُ إمام الأُمَّةِ، الهُمامُ محيي السُّنَّةِ وقامعُ البدعةِ، ناصرُ الحديثِ، مُفتي الفِرَقِ، الفاتقُ عنِ الحقائقِ، ومؤصِّلُها بالأصولِ الشَّرعيةِ للطالبِ الذَّائقِ، الجامعُ بين الظَّاهرِ والباطنِ، فهو يقضِي بالحقِّ ظاهرًا وقلبُه في العُلى قاطِنٌ، أنموذَجُ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ، والأئمَّةِ المهديينَ، الَّذين غابَت عنِ القلوبِ سِيَرُهم، ونَسيَتِ الأُمَّةُ حَذوَهم وسُبُلَهُم، فكانَ في دارسِ نهجِهم سالكًا، ولأعنَّةِ قواعِدِهم مالكًا[٢]، الشَّيخُ الإمامُ تقيُّ الدِّينِ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ ابنِ تيميةَ.

فواللهِ، ثمَّ واللهِ، ثمَّ واللهِ، لم يُرَ تحتَ أديمِ السَّماءِ مثلُه؛ عِلمًا وحالًا وخُلُقًا واتِّباعًا وكرَمًا وحِلمًا في حقِّ نفسِهِ، وقيامِهِ في حقِّ الله عندَ انتهاكِ حُرماتِهِ، أصدقُ النَّاسِ عَقدًا، وأصحُّهم عِلمًا وعَزمًا، وأعلاهم في انتصارِ الحقِّ وقيامِهِ همَّةً، وأسخاهُم كفًّا، وأكملُهم اتِّباعًا لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ... وأطالَ في ترجمةِ الشَّيخِ[٣].

وقالَ الحافظُ النَّاقدُ أبو عبدِ اللهِ شمسُ الدِّينِ الذَّهبيُّ: نَشَأَ ـ يعني الشَّيخَ

---

(١) الشيخ القدوة أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن شيخ الحزَّامين، الواسطي الشافعي الصوفي، نزيل دمشق، اختصر دلائل النبوة، والسيرة لابن إسحاق، توفي سنة (٧١١هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (١/ ١٥٤)، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٣٨٠)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ١٠٣).

(٢) في (ج): «سالكًا».

(٣) هذا النقل من ضمن رسالة كتبها الشيخ أحمد بن إبراهيم الواسطي، ووجهها إلى جماعة من أصحاب الشيخ ابن تيمية، وأوصاهم فيها بملازمة الشيخ والحث على اتباع طريقه، وأثنى فيها على الشيخ ثناءً عظيماً، وسماها: «التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار»، وقد طبعت مفردة، وانظر: «العقود الدرية» (ص٣٠٧)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٧٢).

تقـيَّ الدِّيـنِ رحمَهُ اللهُ ـ في تصـوُّنٍ تامٍ، وعفـافٍ وتألُّهٍ وتعبُّدٍ، واقتصـادٍ في الملبَسِ والمـأكَلِ، وكان يحضُـرُ المـدارسَ والمحافـلَ في صغَـرِه، ويناظِرُ ويُفحِـمُ الكبارَ، ويأتـي بمـا يتحيَّـرُ منه أعيـانُ البلدِ في العلمِ، فأفتى وله تسـعَ عشـرةَ سـنةً بـل أقلُّ، وشـرعَ فـي الجمـعِ والتَّأليفِ مِـن ذلك الوقـتِ، وأكبَّ على الاشـتغالِ.

وماتَ والِدُه، وكانَ مِن كبارِ الحنابلةِ وأئمَّتِهم، فدرَّسَ بعدَهُ بوظائِفِهِ وله إحدَى وعشرونَ سنةً، واشتهَرَ أمرُه، وبعُدَ صِيتُه في العالَمِ، وأخذَ في تفسيرِ الكتابِ العزيزِ أيَّامَ الجُمَعِ على كرسيٍّ مِن حفظِهِ، فكانَ يورِدُ المجلسَ ولا يتلَعثَمُ، وكانَ يورِدُ الدَّرسَ بتؤدةٍ وصوتٍ جَهْوَرِيٍّ فصيحٍ[1].

وكانَ آيةً من الذَّكاءِ وسرعةِ الإدراكِ، رأسًا في معرفةِ الكتابِ والسُّنَّةِ والاختلافِ، بحرًا في النَّقليَّاتِ، هو في زمانِهِ فريدُ عصرِهِ علمًا وزُهدًا، وشجاعةً وسخاءً، وأمرًا بالمعروفِ ونهيًا عن المنكَرِ، وكثرةِ تصانيفِه، وقرأ وحصَّلَ، وبرَعَ في الحديثِ والفِقهِ، وتأهَّلَ للتَّدريسِ والفتوى وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً، وتقدَّمَ في علمِ التَّفسيرِ والأصولِ وجميعِ علومِ الإسلامِ، وأصولِها وفروعِها، ودِقِّها وجُلِّها.

فإنْ ذُكِرَ التَّفسيرُ فهو حامِلُ لوائِهِ، وإن عُدَّ الفُقهاءُ فهو مجتهِدُهم المطلَقُ، وإنْ حضرَ الحفَّاظُ نطَقَ وخَرِسوا، وسرَدَ وأبلَسُوا، واستَغنى وأفلَسُوا، وإنْ سُمِّيَ المتكلِّمون فهو فردُهم، وإليهِ مرجِعُهم، وإنْ لاحَ ابنُ سِينا يقدِمُ الفلاسِفةَ فلَّسَهُم وتيَّسَهُم، وهَتَكَ أستارَهم، وكشَفَ عُوارَهم، ولهُ يَدٌ طُولى في معرفةِ العربيَّةِ والصَّرفِ واللُّغةِ، وهو أعظَمُ مِنْ أن تصِفَه كلِمي، أو ينبِّهَ على شأوِهِ قَلَمي، فإنَّ سِيرَتَه وعلومَهُ ومعارِفَه ومحَنَهُ وتنقُّلاتِهِ يحتمِلُ أن توضعَ في مجلَّدَينِ.

---

(١) انظر: «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» للذهبي (مطبوع ضمن تكملة الجامع لسيرة شيخ الإسلام) (ص٣٩). وانظر: «العقود الدرية» (ص٢٠).

فاللهُ تعالى يغفِرُ له، ويسكِنُه أعلى جنَّتِهِ، فإنَّه كانَ ربانيَّ الأمَّةِ، وفريدَ الزَّمانِ، وحامِلَ لواءِ الشَّريعةِ، وصاحِبَ معضلاتِ[1] المسلمينَ، رأسًا في العلمِ، يبالِغُ في إطراءِ قيامِهِ[2] في الحقِّ والجهادِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ مُبالغةً ما رأيتُها ولا شاهَدتُها مِن أحدٍ، ولا لحَظتُها مِن فقيهٍ[3].

قالَ: وكان لهُ باعٌ طويلٌ في معرفةِ مذاهِبِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وقلَّ أنْ يتكلَّمَ في مسألةٍ إلَّا ويذكُرَ فيها مَذاهبَ الأربعةَ، وقدْ خالَفَ الأربعةَ في مسائلَ معروفةٍ، وصنَّفَ فيها، واحتجَّ لها بالكتابِ والسُّنَّةِ.

ولَمَّا كان مُعتَقلًا بالإسكندريَّةِ[4] التمَسَ منهُ صاحبُ سَبْتَةَ[5] أنْ يجيزَ له مرويَّاتِه، وينصَّ على أسماءِ جملةٍ منها، فكتَبَ في عشرِ ورقاتٍ جملةً مِن ذلكَ بأسانيدِها مِن حِفظِهِ، بحيثُ يعجَزُ أنْ يعمَلَ بعضَه أكبرُ محدِّثٍ يكونُ.

---

(١) في (ج): «مفضلات»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) في «الشهادة الزكية»: «أمر قيامه».

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٩ـ ٤٠).

(٤) ابتدأ سجن شيخ الإسلام بالإسكندرية سنة (٧٠٩هـ) شهر صفر، وأقام فيه ثمانية أشهر. انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٥٦).

(٥) سبتة: بفتح السين وقيل: بكسرها، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس، والبحر يحيط بسبتة من جميع جهاتها إلا من جهة الغرب. وحاليًا تقع سبتة أقصى شمال المغرب العربي مقابل جبل طارق، وهي مدينة مغربية تحتلها إسبانيا، وهي ذاتية الحكم. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ١٨٢)، و«أطلس التاريخ الإسلامي» لشوقي أبو خليل (ص٨٥)، و«مدن وشعوب إسلامية» لحسان حلاق (ص١٤٢).
وغالب الظن أن صاحب سبتة في ذلك الوقت: يحيى بن أبي طالب، الذي عقد له على سبتة سلطان بني مرين أبو الربيع بعد أن سيطر عليها قائد جيوشه تاشفين بن يعقوب الوطاسي من بني الأحمر، سنة (٧٠٩هـ). انظر: «تاريخ ابن خلدون» (٧/ ٣١٧، ٣٢٦).

ولـه الآنَ عـدَّةُ سـنينَ لا يُفتي بمذهـبٍ معينٍ، بـل بما قـامَ الدَّليلُ عليـهِ عندَهُ، ولقـد نصـرَ السُّـنَّةَ المحضَـةَ والطَّريقـةَ السَّـلفيَّةَ، واحتـجَّ لهـا ببراهيـنَ ومقدِّمـاتٍ وأمـورٍ لـم يُسـبَقْ إليها، وأطلَـقَ عباراتٍ أحجَـمَ عنها الأوَّلـونَ والآخِـرون وهابُوا، وجسَـرَ هـو علَيها، حتى قـامَ عليهِ خلقٌ مِن علماءِ مصرَ والشَّـامِ قيامًـا لا مَزيدَ عليهِ، وبدَّعـوه وناظَـرُوه وكابَرُوه، وهـو ثابتٌ لا يُداهِـنُ ولا يُحابي، بل يقـولُ الحقَّ المرَّ الَّـذي أدَّاهُ إليـه اجتهـادُه، وحِـدَّةُ ذِهنِـه، وسَـعَةُ دائرَتِه فـي السُّـنَّةِ والأقـوالِ، معَ ما اشـتَهَرَ عنـهُ مِن الورَعِ، وكمـالِ الفِكَرِ، وسُـرعةِ الإدراكِ، والخوفِ مـن اللهِ العظيمِ، والتَّعظيـمِ لحُرماتِ اللهِ.

فجرَى بينَهُ وبينَهُمْ حملاتٌ حربيَّةٌ، ووقَعاتٌ شاميَّةٌ ومصريَّةٌ، وكَم مِن نوبةٍ قد رمَوهُ عن قوسٍ واحدَةٍ فيُنجِّيهِ اللهُ، فإنَّه دائِمُ الابتهالِ، كثيرُ الاستغاثَةِ، قويُّ التَّوكُّلِ، ثابتُ الجأشِ، له أورادٌ وأذكارٌ يُدمِنُها بكيفيَّةٍ[1] وجَمْعيَّةٍ.

ولـه مِـنَ الطَّـرفِ الآخـرِ محبُّـونَ مِـن العلمـاءِ والصُّلَحـاءِ، ومِـن الجنـدِ والأمـراءِ، ومِـن التجَّـارِ والكُبَـراءِ، وسـائرُ العامَّـةِ تحبُّهُ لأنَّـه مُنتَصِـبٌ لنفعِهم ليلًا ونهـارًا بلسَـانِهِ وقلمِـهِ.

وأمَّـا شـجاعتُهُ فبهـا تُضـرَبُ الأمثـالُ، وببعضِهـا يتشـبَّهُ أكابـرُ الأبطـالِ، فلقَد أقامَـهُ اللهُ نوبـةَ غـازانَ[2]، والتقَـى أعبـاءَ الأمرِ بنفسِـهِ، وقـامَ وقعَدَ، وطلَـعَ وخرَجَ،

---

(١) في (ج): «بكفيه»، والمثبت من مصادر التخريج.

(٢) غازان: أو قازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكيزخان، واسمه بالعربي محمود، أحد ملوك التتار، غزا بلاد الشام، وأسلم سنة (٦٩٤هـ)، وهزم في وقعة شقحب قرب دمشق، ومات على إثرها سنة (٧٠٣هـ). انظر: «العبر» (٤/ ٨)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٦٩٠)، و«فوات الوفيات» لابن شاكر (٤/ ٩٧)، و«أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٨ ـ ١٣).

واجتمَعَ بالملكِ مرَّتينِ، وبخطلوشاه[١] وببولاي[٢]، وكانَ قَبْجَقُ[٣] يتعجَّبُ مِن إقدامِهِ وجُرأتِهِ على المغولِ.

ولَهُ حِدَّةٌ قويَّةٌ تعترِيهِ في البحثِ حتَّى كأنَّهُ ليثُ حربٍ، وهو أكبرُ مِنْ أن ينبِّهَ مِثلي على نُعُوتِهِ، فلو حلَفْتُ بينَ الرُّكْنِ والمقامِ لحلَفْتُ أنِّي ما رأيْتُ بعينيَّ مثلَهُ، ولا واللهِ ما رأى هو مثلَ نفسِهِ[٤].

وقالَ في مكانٍ آخرَ في ترجمةٍ طويلةٍ: ولهُ خِبرةٌ تامَّةٌ بالرِّجالِ وجرحِهم وتعديلِهم وطبقاتِهم، ومعرفةٌ بفنونِ الحديثِ، وبالعالي والنَّازِلِ، وبالصَّحيحِ والسَّقيمِ معَ حفظِهِ لمتونِه الَّذي انفردَ بهِ، فلا يبلُغُ أحدٌ في العصرِ رُتبتَهُ ولا يقارِبُه، وهو عجيبٌ في استحضارِهِ واستخراجِ الحجَجِ منهُ، وإليهِ المنتَهى في عزوِهِ إلى الكتبِ السِّتَّةِ والمسنَدِ بحيثُ يصدُقُ عليهِ أن يُقالَ: كلُّ حديثٍ لا يعرِفُه ابنُ تيميةَ فليسَ بحديثٍ، ولكنَّ الإحاطةَ للهِ، غيرَ أنَّه يغترِفُ فيه مِن بحرٍ، وغيرُه مِن الأئمَّةِ يغترِفون مِن السَّواقي.

---

(١) خطلوشاه: أو قطلو شاه، نائب قازان، كان كافرًا داهية، فعل بدمشق الأفاعيل، ثم كان مقدمهم في وقعة شقحب فعاد مكسورًا، ثم جهزه غازان إلى كيلان ففتكوا به وقتلوه سنة (٧٠٧هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٣٢١)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٢/ ٢٠٥).

(٢) بولاي النوين: مِن أمراء التتار، الذين قدموا مع غازان، خرج إليه ابن تيمية واستوهبه بعض الأسرى فأطلقهم. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٧١)، و«تاريخ ابن خلدون» (٥/ ٤٧٤).

(٣) قبجق: الأمير الكبير سيف الدين نائب دمشق وحماة وحلب، كان بطلاً شجاعًا عارفًا جيِّد الرأي قليل الطمع والظلم، توفي بحلب وهو نائبها سنة (٧١٠هـ)، ونقل إلى حماة ودفن في تربته المشهورة. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٦١ ـ ٦٥)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤).

(٤) انظر: «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» للذهبي (مطبوع ضمن تكملة الجامع لسيرة شيخ الإسلام) (ص٤٢ ـ ٤٤). وانظر: «العقود الدرية» (ص١٣٢ ـ ١٣٣).

وأمَّا التَّفسيرُ فمسلَّمٌ إليهِ، وله في استحضارِ الآياتِ مِن القرآنِ وقتَ إقامةِ الدَّليلِ لها على المسألةِ قوَّةٌ عجيبةٌ، وإذا رآهُ المقرِئُ تحيَّرَ فيهِ، ولِفَرطِ إمامَتِهِ في التَّفسيرِ وعظمَةِ اطِّلاعهِ يُبيِّنُ خطأَ كثيرٍ مِن أقوالِ المفسِّرينَ، ويوهِّي أقوالًا عديدةً، وينصُرُ قولًا واحدًا مُوافقًا لِمَا دلَّ عليه القرآنُ والحديثُ، ويكتُبُ في اليومِ واللَّيلَةِ مِن التَّفسيرِ، أو مِن الفقهِ، أو مِنَ الأصلَينِ، أو مِن الردِّ على الفلاسفةِ والأوائلِ نحوًا مِن أربعةِ كراريسَ أو أزيدَ، وما أُبْعِدُ أنَّ تصانيفَه إلى الآن تبلُغُ خمس مئةِ مجلدٍ، وله في غيرِ مسألةٍ مصنَّفٌ مفرَدٌ في مجلَّدةٍ، ثمَّ ذكرَ بعضَ تصانيفِه رحمَهُ اللهُ[١].

وكتبَ الذَّهبيُّ طبقَتَه[٢] بخطِّهِ يقولُ فيها: سمعَ جميعَ هذا الكتابَ على مؤلِّفهِ شيخِنا الإمامِ العالمِ العلامةِ الأوحَدِ شيخِ الإسلامِ، مُفتي الفرَقِ قُدوةِ الأمةِ، أُعجوبةِ الزمانِ، بحرِ العلومِ، حبرِ القُرآنِ، تقيِّ الدِّينِ سيِّدِ العُبَّادِ أبي العبَّاسِ أحمدَ ابن تيميةَ الحرَّاني رضيَ الله عنه[٣].

وقالَ الشَّيخُ علمُ الدِّينِ: رأيْتُ إجازةً[٤] بخطِّ الشَّيخِ تقيِّ الدِّين، وقد كَتبَ تحتَه الشَّيخُ شمسُ الدِّينِ الذَّهبي: هذا خطُّ شيخِنا الإمامِ شيخِ الإسلامِ، فردِ الزَّمانِ، وبحرِ العلومِ، تقيِّ الدِّين، مولِدُه عاشرَ ربيعِ الأوَّلِ، سنةَ إحدى وستِّينَ وستِّمئةٍ، وقرأَ القرآنَ والفقهَ، وناظَرَ واستدلَّ وهو دونَ البلوغِ، وبرَعَ في العلمِ والتَّفسيرِ، وأفتى

---

(١) انظر: «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» للذهبي (ص٤١). وانظر: «العقود الدرية» (ص٤٠).

(٢) الطبقة والطباق: ما يكتب في أول الكتاب أو آخره من تقييد السماع، وتاريخه، والإجازة، وما يتبع ذلك. انظر: «فتح المغيث» للسخاوي (٣/ ١١٤)، و«تدريب الراوي» للسيوطي (١/ ٤٤٣).

والطبقة المقصودة هنا: طبقة كتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» كما في مصدري التخريج.

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٥)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٣٣).

(٤) وهي إجازته لابن الشهرزوري. كما في «العقود الدرية» و«الرد الوافر».

ودرَّسَ وله نحوُ العشرينَ سنةً، وصنَّفَ التَّصانيفَ، وصار مِن كبارِ العلماءِ في حياةِ شيوخِهِ، وله المصنَّفاتُ الكبارُ الَّتي سارَتْ بها الرُّكبانُ، ولعلَّ تصانِيفَه في هذا الوقتِ تكونُ أربعةَ آلافِ كرَّاسٍ وأكثرَ.

وفسَّرَ كتابَ اللهِ مدَّةَ سنينَ مِن صدرِهِ أيَّامَ الجُمعِ، وكانَ يتوقَّدُ ذكاءً، وسماعاتُهُ مِن الحديثِ كثيرةٌ، وشيوخُهُ أكثرُ مِن مئتَي شيخٍ، ومعرفَتُه بالتَّفسيرِ إليها المُنتَهى، وحفظُهُ للحديثِ ورجالِهِ وصحَّتِهِ وسُقمِه فما يُلحَقُ فيهِ.

وأمَّا نقلُهُ للفقهِ ومذاهبِ الصَّحابةِ والتَّابعِينَ، فضلًا عن مذاهبِ الأربعةِ، فليسَ له فيهِ نظيرٌ.

وأمَّا معرِفَتُه بالملَلِ والنِّحَلِ والأصولِ والكلامِ فلا أعلَمُ له فيه نظيرًا، وعربيَّتُه قويَّةٌ جدًّا، ومعرِفتُهُ بالتَّاريخِ والسِّيَرِ فعجَبٌ عجِيبٌ.

وأمَّا شجاعتُه وجِهادُه وإقدامُه فأمرٌ يتجاوَزُ الوصفَ ويفوقُ النَّعتَ، وهو أحدُ الأجوادِ الأسخياءِ الَّذين يُضرَبُ بهم المثلُ، وفيه زهدٌ وقناعةٌ باليسيرِ بالمأكلِ والملبَسِ. انتهى كلامُ الذَّهبيِّ[1]، ولقد أنصَفَ رحمهُ الله.

وقالَ بعض قدماءِ أصحابِ الشَّيخِ ابن تيميةَ، وقد ذكرَ نبذةً مِن سيرَتهِ: أمَّا مبدأُ أمرِه ونشأتُهُ فإنَّه نشأَ مِن حينِ نشأَ في حجورِ العلماءِ، راشِفًا كؤوسَ الفهومِ، راتعًا في رياضِ التَّفقُّهِ، ودوحاتِ الكتبِ الجامعةِ لكلِّ فنٍ مِن الفنونِ، لا يلوي إلى غيرِ المطالعةِ والاشتغالِ، والأخذِ بمعالي الأمورِ، وخصوصًا الكتابَ العزيزَ والسُّنَّةَ النَّبويَّةَ ولوازِمَها، ولم يزَل على ذلكَ خَلَفًا صالحًا سلفيًّا مُتألهًا عن الدُّنيا، صيِّنًا تقيًّا،

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٩)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٣٣)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ١٨٥).

برًّا بأمِّهِ، ورِعًا عفيفًا، عابِدًا ناسِكًا، صوَّامًا قوَّامًا، ذاكِرًا للهِ تعالى في كل أمرٍ وعلى كلِّ حالٍ، راجعًا إلى اللهِ تعالى في سائرِ الأحوالِ والقضايا، وقَّافًا عندَ حدودِ اللهِ تعالى، وأوامِره ونواهيهِ، آمرًا بالمعروفِ، ناهيًا عنِ المنكَرِ بالمعروفِ، لا تكادُ نفسُهُ تشبَعُ مِن العلمِ، ولا تُروَى مِن المطالعةِ، ولا تملُّ مِن الاشتغالِ، ولا تَكلُّ مِن البحثِ، وقلَّ أنْ يدخُلَ في علمٍ من العلومِ مِن بابٍ من أبوابِهِ إلَّا ويُفتَحَ له مِن ذلك البابِ أبوابٌ، ويَستدرِكَ مستدركاتٍ في ذلكَ العلمِ على حُذَّاقِ أهلِه، معضودةً بالكتابِ والسُّنَّةِ.

ولقد سمعتُه في مبادئ أمرِه يقولُ: إنَّه ليقِفُ خاطِري في المسألةِ أو الشَّيءِ أو الحالةِ الَّتي تُشكِلُ عليَّ، فأستغفِرُ اللهَ تعالى ألفَ مرَّةٍ أو أكثرَ أو أقلَّ، وأظلُّ حتى ينشرِحَ الصدرُ، وينحَلَّ إشكالُ ما أشكَلَ.

وقالَ: وأكونُ إذ ذاكَ في السُّوقِ أو المسجدِ أو الدَّربِ أو المدرسةِ لا يمنَعُني ذلك مِن الذِّكْرِ والاستغفارِ إلى أنْ أنالَ مطلوبي.

قالَ: ولقد كنتُ في تلكَ المُدَّةِ، وأوَّلِ النَّشأةِ إذا اجتمعْتُ بالشَّيخِ ابنِ تيميةَ في خَتمةٍ، أو مجلسِ ذِكْرٍ خاصٍّ مع المشايخِ وتذاكَروا، وتكلَّمَ مع حداثةِ سنِّهِ أجدُ لكلامِهِ صَولَةً على القلوبِ، وتأثيرًا في النّفوسِ، وهيمنةً مقبولةً، ونفعًا يظهَرُ أثرُهُ، وتنفعِلُ له النُّفوسُ، الَّتي سمعَتْهُ أيَّامًا كثيرةً حتَّى كانَ مقالُهُ بلسانِ حالِه، وحالُهُ ظاهرٌ في مقالِهِ، ولقد شهِدتُهُ منه غيرَ مرَّةٍ[١].

وقالَ الشَّيخُ الإمامُ الحافظُ شمسُ الدِّينِ محمَّدُ بن أحمدَ عبد الهادي ابن قدامةَ المقدسيُّ في كتابِه «المناقبِ»: لم يبرَح شيخُنا ـ يعني ابنَ تيميةَ ـ في ازديادٍ مِن

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢١).

العلومِ، وملازمةٍ للاشتغالِ، وبثِّ العلمِ ونشرِه، والاجتهادِ في سبيلِ الخيرِ، حتَّى انتهَتْ إليهِ الإمامةُ في العلمِ والعملِ، والزُّهدِ والورعِ، والشَّجاعةِ والكرمِ، والتَّواضُعِ والحلمِ، والإنابةِ والجلالةِ والمهابةِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، وسائرِ أنواعِ الجهادِ؛ مع الصِّدقِ والأمانةِ، والعفَّةِ والصِّيانةِ، وحُسْنِ الصِّدقِ والإخلاصِ، والابتهالِ إلى اللهِ، وكثرةِ الخوفِ منهُ، وكثرةِ المراقبَةِ له، وشدَّةِ التَّمسُّكِ بالأثرِ، وكثرةِ الدُّعاءِ إلى اللهِ، وحسنِ الأخلاقِ، ونفعِ الخلقِ، والإحسانِ إليهم، والصَّبرِ على مَنْ آذاهُ، والصَّفحِ عنهُ، والدُّعاءِ لهُ، وسائرِ أنواعِ الخيرِ.

وكانَ رحمَه اللهُ سيفًا مسلولًا على المخالِفينَ، وشَجًى[١] في حلوقِ أهلِ الأهواءِ والمبتدِعينَ، وإمامًا قائمًا ببيانِ الحقِّ ونُصرةِ الدِّينِ، وكانَ بحرًا لا تكدِّرُه الدِّلاءُ، وحَبرًا يقتدي بهِ الأخيارُ الألِبَّاءُ، طنَّتْ بذكرِه الأمصارُ، وضنَّتْ بمثلِهِ الأعصارُ[٢].

واشتغَلَ بالعلومِ، وكان ذكيًّا كثيرَ المحفوظِ، إمامًا في التَّفسيرِ وما يتعلَّقُ بهِ، عارفًا بالفقهِ واختلافِ العلماءِ، والأصلَينِ والنَّحوِ واللُّغةِ، وغيرِ ذلكَ مِن العلومِ النَّقليَّةِ والعقليَّةِ، وما تكلَّمَ معه فاضلٌ في فنٍّ إلَّا ظنَّ أنَّ ذلكَ الفنَّ فنُّهُ، ورآهُ عارفًا بهِ مُتقِنًا له.

وأمَّا الحديثُ فكانَ حافظًا له، مميِّزًا بين صحيحِهِ وسقيمِهِ، عارفًا برجالِهِ، مُضطَّلِعًا[٣] من ذلكَ، وله تصانيفُ كثيرةٌ، وتعاليقُ مفيدةٌ في الفروعِ والأصولِ، وأثنى عليهِ وعلى فضائلِه جماعةٌ من علماءِ عصرِه.

---

(١) الشَّجى: مَا نَشَبَ فِي الحلق من غُصَّةِ هَمٍّ أَوْ عُودٍ. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: شجو).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣).

(٣) في (ج): «متظلعًا».

وقالَ الشيخُ الإمامُ الفاضلُ الأديبُ أحمدُ شهابُ الدِّينِ بن فضلِ اللهِ العمريُّ الشَّافعيُّ في تاريخِه المسمَّى بـ«مسالكِ الأبصارِ في ممالكِ الأمصارِ» في ترجمةِ الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ ابن تيميةَ، وهي طويلةٌ تبلُغُ كراسةً فأكثرَ:

ومنهُم أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بن عبدِ السَّلامِ بن عبدِ اللهِ بن أبي القاسمِ الحرَّانيُّ العلَّامةُ الحافظُ الحجَّةُ المجتهِدُ المفسِّرُ شيخُ الإسلامِ نادرةُ العصرِ، علَمُ الزهَّادِ، تقيُّ الدِّينِ أبو العبَّاسِ أحمدُ ابنُ تيميةَ رحمَهُ اللهُ تعالى:

هوَ البحرُ من أيِّ النَّواحِي جِئتَهُ والبَدرُ من أيِّ الضَّواحِي رأيتَهُ

رضَعَ ثديَ العلمِ منذ فُطِمَ، وطلَعَ وجهُ الصَّباحِ ليُحاكِيَه فلُطِمَ، وقطَعَ اللَّيلَ والنَّهارَ دائبَينِ، واتَّخذَ العلمَ والعملَ صاحبَيْنِ، إلى أنْ أنسَى السَّلفَ بهداهُ، وأنأى الخلفَ عن بلوغِ مَداهُ.

على أنَّهُ مِن بيتٍ نشأَتْ منهُ علماءُ في سالفِ الدُّهورِ، ونشأَتْ منهُ عظَماءُ على المشاهيرِ الشُّهورُ، فأحيى معالَم بيتِه القديمِ إذ درَسَ، وجنى مِن فنَنِه الرَّطيبِ ما غرَسَ، وأصبحَ في فضلِهِ آيةً، إلَّا أنَّه آيةُ الحَرَسِ[1]، عرضَتْ له الكُدَى[2] فزَحْزَحَها[3]، وعارضَتهُ البحارُ فضَحضَحها، ثم كان أُمَّةً وحدَهُ، وفردًا حتى نزلَ لحدَهُ.

جاء في عصرٍ مأهولٍ بالعلماءِ، مشحونٍ بنجومِ السَّماءِ، تموجُ في جانِبيه

---

(١) الحرس: الدهر. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: حرس).

(٢) الكدى: جمع كدية، وهي الأرض الصلبة. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: كدى).

(٣) في (ج): «فزحزها»، والتصويب من «مسالك الأبصار».

بحورٌ خضارِمُ[١]، وتطيرُ بينَ خافِقَيه نسورٌ قشاعِمُ[٢]، وتشرقُ في أندِيَتِه بدورُ دُجُنَّةٍ[٣]، وصُدورُ أسِنَّةٍ، إلَّا أنَّ صباحَهُ[٤] طمسَ تلكَ النُّجومَ، وبحرَهُ طمَّ على تلك الغُيومِ، ففاءَتْ سُمرتُه على تلكِ التِّلاعِ[٥]، وأطلَّتْ قَسوَرَتُه على تلكَ السِّباعِ، ثم عُبِّئَتْ له الكتائبُ فحطَّمَ صُفوفَها، وخطَمَ أُنوفَها، وابتلَعُ غديرُه المطمئِنُّ جدَاوِلَها، واقتلَع طَودُهُ المُرْجَحِنُّ[٦] جنادِلَها، وأخمَدَتْ أنفاسَهُم ريحُهُ، وأكمدَتْ شرارَتَهم مصابِيحُهُ.

تقَدَّمَ راكِبًا فيهِم إمَامًا ولولاهُ لَمَا رَكِبوا وراءَهُ

فجمَعَ أشتاتَ المذاهبِ، وشَتَاتَ الذَّاهبِ، ونقَلَ عن أئمَّةِ الإجماعِ فمَنْ سواهُم مذاهِبَهم المختلِفَةَ واستحضَرَها، ومثَّلَ صُورَهم الذَّاهبَةَ وأحضَرَها، فلو شعرَ أبو حنيفَةَ بزمانِه، وملَكَ أمرَهُ، لأدنى عصرَهُ إليه مُقترِبًا، أو مالكٌ لأجرَى وراءَهُ أشهَبَهُ[٧] وكوكبًا، أو الشَّافعيُّ لقالَ: ليتَ هذا كان للأمِّ ولدًا، أو ليتَني كنْتُ له أبًا، أو الشَّيبانيُّ

(١) في (ج): «خضاره»، والتصويب من «مسالك الأبصار»، والخضارم: جمع خضرم، وهو الواسع الكثير من كل شيء. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: خضرم).

(٢) قشاعم: المسن الضخم. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: قشعم).

(٣) في (ج): «جنه»، والتصويب من «مسالك الأبصار»، وبدورُ دجنةٍ: البدور في شدة الظلام، والدجنة: الظلمة. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: دجن).

(٤) في (ج): «صاحبه»، والتصويب من «مسالك الأبصار».

(٥) التِّلاعُ: مجاري أعلى الأرض إلى بطون الأودية، واحدتها تَلْعَةٌ. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: تلع).

(٦) المرجحن: الثقيل. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: رجحن).

(٧) في (ج): «أشبهه»، والتصويب من «مسالك الأبصار».

ابنُ حنبلَ لَمَا لامَ عذارَه إذ غدا منهُ لفرطِ العجبِ أشيَبًا، لا بل داودُ الظَّاهِرِيُّ وسنانُ الباطنيُّ[1] لظنَّا تحقيقَه مِن مُنْتحِلِه، وابنُ حزمٍ والشَّهرِستانيُّ لحشَرَ كلٌّ منهما ذِكْرَهُ في نِحَلِه، أو الحاكِمُ النَّيسابورِيُّ والحافِظُ السِّلَفيُّ[2]، لأضافه هذا إلى «مستدرَكِه»، وهذا إلى رَحلِهِ، تردُ إليه الفتاوى ولا يرُدُّها، وتفِدُ عليهِ فيجيبُ عنها بأجوبةٍ كأنَّه كانَ قاعِدًا لها يُعِدُّها[3].

أبــدًا علــى طَــرَفِ اللِّســانِ جَوابُه فكأنَّمــا هــيَ دَفعَــةٌ مِــن صَيِّــبِ[4]

وكانَ مِنْ أذكياءِ النَّاسِ، كثيرَ الحِفظِ، قليلَ النِّسيانِ، قلَّما حفِظَ شيئًا فنَسِيهُ، وكان إمامًا في التَّفسيرِ وعلومِ القرآنِ، عارفًا بالفِقهِ، واختلافِ الفقهاءِ والأصولِيِّينَ، والنَّحوِ وما يتعلَّقُ به، واللُّغةِ، والمنطِقِ، وعلمِ الهيئةِ، والجبرِ والمقابَلةِ، وعلمِ الحسابِ، وعِلْمِ أهلِ الكِتابَينِ، وأهلِ البِدَعِ، وغيرِ ذلك مِنَ العلومِ النَّقليَّةِ والعقليَّةِ، وما تكلَّمَ معهُ فاضلٌ في فنٍّ مِنَ الفنونِ إلَّا ظنَّ أنَّ ذلكَ الفنَّ فنُّهُ.

وكانَ حُفَظَةً للحديثِ، مميِّزًا بينَ صحيحِهِ وسقِيمِه، عارفًا برجالِهِ، مُتضلِّعًا مِن ذلكَ، وله تصانيفُ كثيرةٌ، وتعاليقُ مُفيدةٌ، وفتاوى مُشبعةٌ في الفروعِ والأصولِ

---

(١) سنان الباطني: أبو الحسن سنان بن سلمان بن محمد البصري الباطني، راشد الدين، كبير الإسماعيلية وصاحب الدعوة النزارية، كان أديبًا فاضلًا عارفًا بالفلسفة وشيئًا من الكلام والشعر والأخبار، أحل لقومه وطء المحرمات من أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم، وأسقط عنهم صوم رمضان، مات سنة (٥٨٩هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢١/ ١٨٢ ـ ١٨٩)، و«الوافي بالوفيات» (١٥/ ٢٨٢).

(٢) في (ج): «النسفي»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٣) في (ج): «كان قاعدًا لها أبدًا»، والتصويب من «مسالك الأبصار».

(٤) البيت ليعلى بن إبراهيم الأربسي. كما في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٦/ ٢٤٧٦).

والحديثِ وردِّ البِدَعِ بالكتابِ والسُّنَّةِ. وأطالَ في ترجمةِ الشَّيخِ فاقتصَرنا على ذلكَ خوفَ التَّطويلِ[1].

قالَ الشَّيخُ الإمامُ الحافظُ سراجُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمرُ بن عليٍّ بن موسَى البزَّارُ في كتابِهِ: «الأعلامِ العليَّةِ في مناقبِ ابن تيميةَ»: أمَّا غزارَةُ علومِهِ، فمعرفَتُه بعلومِ القرآنِ المجيدِ، واستنباطُهُ لدقائِقِهِ، ونقلُهُ لأقوالِ العلماءِ في تفسيرِهِ، واستشهادُهُ بدلائلِهِ، وما أودَعهُ اللهُ تعالى فيه مِن عجائبِهِ، وفنونِ حِكَمِهِ وغرائبِ نوادرِهِ، وباهرِ فصاحتِهِ، وظاهرِ ملاحتِهِ، فإنَّه فيهِ مِن الغايةِ الَّتي يُنتَهى إليها، والنِّهايةِ الَّتي يعوَّلُ عليها، ولقد كانَ إذا قُرِئَ في مجلِسِهِ آياتٌ مِن القرآنِ العظيمِ يشرَعُ في تفسيرِها فينقَضِي المجلِسُ بجُملَتِه، والدَّرسُ برُمَّتِهِ وهو في تفسيرِ بعضِ آيةٍ منها[2].

وأمَّا معرِفَتُهُ وبصرُهُ بسُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ وأقوالِه وأفعالِه وقضاياهُ ووقائعِه وغزواتِه وسراياهُ وبعوثِه، وما خصَّهُ اللهُ تعالى مِن كراماتِه ومعجِزاتِه، ومعرِفَته بصحيحِ المنقولِ عنه وسقيمِه، والمنقولِ عن الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم في أقوالِهم وأفعالِهم وقضاياهُم وفتاويهِم، وأحوالِهم وأحوالِ مجاهدَاتِهم في دينِ اللهِ، وما خُصُّوا به مِن بينِ الأمَّةِ، فإنَّه كانَ رضي اللهُ عنه مِن أضبَطِ النَّاسِ لذلكَ وأعرَفِهم فيه، وأسرَعِهم استحضارًا لِمَا يريدُه منهُ، فإنَّه قلَّ أنْ ذكَرَ حديثًا في مُصنَّفٍ، أو فتوى، أو استشهَدَ بِهِ، أو استدلَّ بهِ، إلَّا وعزاه في أيِّ دواوينِ الإسلامِ هو، ومن أيِّ قسمٍ مِن الصَّحيحِ أو الحسَنِ أو غيرِهما، وذكرَ اسمَ راويهِ مِن الصَّحابةِ، وقلَّ أن يُسألَ عَن أثرٍ إلَّا وبيَّنَ في الحالِ حالَه، وحالَ أمرِه[3] وذاكرِهِ[4].

---

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٨٧ ـ ٦٩٦).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٠).

(٣) في (ج): «أثره».

(٤) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٣).

ولا واللهِ ما رأيْتُ أحدًا أشدَّ تعظيمًا لرسولِ اللهِ ﷺ، ولا أحرَصَ على اتِّباعِه ونصرِ ما جاءَ به منهُ، حتى كانَ إذا أورَدَ شيئًا مِن حديثِهِ في مسألةٍ، ويرى أَنَّهُ لم ينسخْهُ شيءٌ غيرُه مِن حديثِه يعمَلُ ويقضِي ويُفتي بمقتضاهُ، ولا يلتفِتُ إلى قولِ غيرِه مِن المخلوقينَ كائنًا مَن كانَ[1].

ومنحَهُ الله تعالى مِن معرفةِ اختلافِ العلماءِ ونصوصِهم، وكثرةِ أقوالِهم واجتِهادِهم في المسائلِ، وما رُويَ عن كلٍّ منهم مِن راجحٍ ومرجوحٍ، ومَقبولٍ ومَردودٍ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ونظرِه الصَّحيحِ الثَّاقبِ الصَّائبِ للحقِّ ممَّا قالُوه ونقلُوه، وعزَوِهِ ذلكَ إلى الأماكِنِ الَّتي بها أودَعُوهُ.

حتَّى كانَ إذا سُئِلَ عن شيءٍ مِن ذلكَ كانَ كأنَّ جميعَ المنقولِ فيهِ عنِ الرَّسولِ وأصحابِه والعلماءِ مِنَ الأوَّلِين والآخِرينَ مُتَصوَّرٌ ومسطُورٌ بإزائِهِ، يقولُ منه ما يشاءُ، ويذَرُ ما يشاءُ، وهذا قد اتَّفقَ عليهِ كلُّ من رآهُ[2].

وقلَّ كتابٌ مِن فنونِ العلمِ إلَّا وقفَ عليهِ، وكانَ اللهُ قد خصَّهُ بسرعةِ الحفظِ وإبطاءِ النِّسيانِ، لم يكُن يقِفُ على شَيءٍ أو يستَمِعُ لشيءٍ غالبًا إلَّا ويبقَى على خاطرِهِ؛ إمَّا بلفظِهِ أو بمعناهُ، وكان العلمُ كأَنَّهُ قد اختلَطَ بلحمِهِ ودمِهِ وسائرِهِ، فإنَّه لم يكُنْ لهُ مستعارًا، بل كانَ له شِعارًا ودِثارًا، جمَعَ اللهُ له ما فرَّقَ بمثلِه العادةَ، ووفَّقهُ في جميعِ عمرِهِ لأعلامِ السَّعادةِ، وجعَلَ مآثِرَه لإمامَتِه[3] مِن أكبرِ شهادةٍ، حتَّى اتَّفقَ كلُّ ذي عقلٍ سليمٍ أَنَّه ممَّنْ عنى نبيُّنا المصطفى ﷺ بقولِه: «إنَّ اللهَ

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٩).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٣).

(٣) في (ج): «لأمانته»، والمثبت من «الأعلام العلية».

يبعَثُ على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يجدِّدُ لهذه الأمةِ أمرَ دينِها»[1]، فلقدْ أحيا اللهُ به ما كانَ قدْ درسَ مِنْ شرائعِ الدِّينِ، وجعلَهُ حجَّةً على أهلِ عصرِه أجمعين، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين[2].

وبالجملةِ فكلامُ الأئمَّةِ بالثَّناءِ عليهِ ممَّا يطولُ، وفيما ذكرناه كفايةٌ، تدلُّ على علوِّ رُتبتِه، ورفيعِ شأنِهِ ومرتبتِه، رضيَ اللهُ تعالى عنه.

وأثنى عليهِ كثيرٌ مِنَ الفُضلاءِ بالقصائدِ في حالَةِ حياتِه، فمِنْ ذلك قصيدةُ نجمِ الدِّينِ إسحاقَ بنِ أبي بكرٍ التُّركيِّ[3]، وهي قصيدةٌ، سبعةٌ وستُّونَ بيتًا:

ذَرَاني مِنْ ذِكْرَى سُعادٍ وزينَبِ ... ومِنْ نَدْبِ أطلالِ اللِّوَى والـمُحصَّبِ

ومِنْ مَدحِ آرامٍ سنَحْنَ[4] بِرامَةٍ ... ومِنْ غَزَلٍ في وَصْفِ سِرْبٍ ورَبْرَبِ

ولا تُنشِداني غيرَ شِعْرٍ إلى العُلا ... يَظَلُّ ارتياحًا يزدَهِيني ويُطْنِبِ

وإنْ أنتُما طارَحتُمانيَ فليَكُنْ ... حَدِيثُكُما في ذكْرِ مَجْدٍ ومَنْصِبٍ

بحبِّ المعالي لا بحُبِّ أمِّ جُنْدُبٍ ... أُقَضِّي لُبَاناتِ[5] الفُؤادِ المعذَّبِ

خُلِقْتُ امرءًا جَلدًا على حَملِ الهَوى ... فلسْتُ أُبالي بالقِلَى والتَّجنُّبِ

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص١٨).

(٣) إسحاق بن أبي بكر بن أَلْمَى بن أطز التركي المصري نجم الدين أصله من سنجار، أحب الطَّلب وسمع الحديث، وكان له شعر حسن، قال الذهبي في ترجمته: أخذت عنه، وهو من أقراني. دخل العراق والعجم سنة (٧٠٥هـ) ففقد خبره بعد (٧٢٠هـ). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٧٢)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ٤٢٤).

(٤) في (ج): «سجن»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٥) في (ج): «نهايات»، والمثبت من «العقود الدرية».

سواءٌ أرَى بالوصْلِ تَعريضَ جُؤذَرٍ[١] وإعراضَ ظبيٍ ألعَسِ[٢] الثَّغرِ أشنَبِ
ولم أصْبُ في عَصْرِ الشَّبِيبَةِ والصِّبا فهَلْ أصبُونْ[٣] كَهْلًا بِلِمَّةِ أشيَبِ
يُعنِّفُني في بُغيَتي رُتَبَ العُلا جَهولٌ أُرَاهُ راكِبًا غيرَ مَركَبِ
لَهُ هِمَّةٌ دونَ الحضِيضِ محَلُّها ولي هِمَّةٌ تسمُو على كُلِّ كوكَبِ
فلو كانَ ذا جَهْلٍ بسيطٍ عَذَرْتُهُ ولكنَّهُ يُدلي[٤] بجَهلٍ مركَّبِ
يقولُ: عَلامَ اخترْتَ مَذهبَ أحمدٍ فقلتُ لهُ: إذْ كانَ أحمَدَ مَذهَبِ
وهلْ في ابنِ شَيبانَ مَقالٌ لقائلٍ وهلْ فيهِ مِنْ طَعْنٍ لصَاحِبِ مضرَبِ؟
أليسَ الَّذي قد طارَ في الأرْضِ ذِكْرُهُ فطبَّقَها ما بينَ شَرْقٍ ومَغرِبِ؟
إمامُ الهُدَى الدَّاعي إلى سُنَنِ الهُدى وقد فاضَتِ الأهْواءُ مِنْ كلِّ مُشْعَبِ
وَأَصْحَابُهُ أهلُ الهُدَى لَا يضرُّهُم على دينِهِمْ[٥] طَعْنُ امْرِئٍ جَاهِلٍ غَبِيْ[٦]
هُمُ الظَّاهرونَ القائِمونَ بدينِهِم إِلَى الحَشْرِ لم يَغْلِبهُمُ ذُو تَغَلُّبِ
لنا مِنْهُمُ فِي كُلِّ عَصْرٍ أَئِمَّةٌ هُدَاةٌ إِلَى العَلْيَا مَصابيحُ مَرْقَبِ

---

(١) في (ج): «جوذره»، والمثبت من «العقود الدرية»، والجؤذر: ولد البقرة الوحشية، والجمع: جآذر. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: جأذر).

(٢) في (ج): «أنعس»، والمثبت من «العقود الدرية»، وألعس: من اللَّعَسُ: لونُ الشَّفة إذا كانت تضرب إلى السَّواد قليلاً، وذلك يُستملَح. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: لعس).

(٣) في (ج): «أصبوا»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٤) في (ج): «يدنى»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٥) في (ج): «طعنهم»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٦) في (ج): «عنب»، والمثبت من «العقود الدرية».

فأَيَّدَهُـمْ رَبُّ العُـلَا مِـنْ عِصَابَـةٍ لإظْهـارِ دِيْـنِ اللهِ أهـلِ تَعَصُّـبِ
وَقـدْ علِـمَ الرَّحْمَـنُ أَنَّ زَمَانَنَـا تشَـعَّبَ فِيْـهِ الـرَّأْيُ أَيَّ تَشَـعُّبِ
فجـاءَ بِحَبْـرٍ عَالِـمٍ مِـنْ سَـرَاتِهِمْ لِسَـبْعِ مِئَيْـنِ بعْـدَ هِجْـرَةِ يَثْـرِبِ
يُقيْـمُ قَنـاةَ الدِّيْـنِ بعـدَ اعْوِجاجِهـا وينقذُهـا مِـنْ قَبْضَـةِ المُتَعَصِّـبِ[1]
فَـذَاكَ فَتـى تَيْمِيَّـةٍ خيـرُ سَـيِّدٍ نجيـبٌ أَتَانَـا مِـنْ سُـلالَةِ مُنْجِـبِ
عليـمٌ بـأدواءِ النُّفُـوْسِ يَسُوْسُـها بِحِكْمَتِـهِ فعـلَ الطَّبِيْـبِ المُجَـرِّبِ
بعيـدٌ مِـنْ الفَحْشَـاءِ وَالبَغْـيِ والأذَى قريـبٌ إِلـى أهْـلِ التُّقَـى ذُو تَحَبُّـبِ
يغيْـبُ وَلَكِـنْ عَـنْ مَسَـاوٍ وغِيْبَـةٍ وَعَـنْ مَشْـهَدِ الإِحْسَـانِ لَـمْ يَتَغَيَّـبِ
حَلِيْـمٌ كريْـمٌ مُشْـفِقٌ بَيْـدَ أنَّـهُ إذا لَـمْ يُطَـعْ فِـي اللهِ، للهِ يَغْضَـبِ
يـرى نُصْـرَةَ الإِسْـلَامِ أكْـرَمَ مَغْنَـمٍ وإِظْهَـارَ ديْـنِ اللهِ أَرْبَـحَ مَكْسَـبِ
وَكَـمْ قَـدْ غَدا بالقَـوْلِ وَالفِعْـلِ مُبْطِلًا ضَلَالَـةَ كَـذَّابٍ ورأيَ مُكَـذِّبِ
لقَـدْ حاولـوا مِنْـهُ الَّـذِيْ كَانَ رامَـهُ مِن الْمُصْطَفى قِدْمًا حُيَيُّ بنُ أَخْطَبِ
وَلَكِنْ رأى مِنْ بـأسِـهِ مِـثْـلَـمَـا رأى مِنَ المُرْتَضَى فِي حَرْبِهِ رَأْسُ مَرْحَبِ[2]
تمسَّـكْ أَبَا العَبَّاسِ بِالدِّيْـنِ واعْتَصِمْ بِحَبْـلِ الهُـدَى تَقْهَـرْ عِـداكَ وتَغْلِبِ
وَلَا تخشَ مِنْ كَيْدِ الأعـادي فَمَا هُمُ سِـوَى حَائـرٍ فِـي أمـرِهِ ومُذَبْـذَبِ
جنودُهُـمُ مِـنْ طامِـعٍ ومُذَلَّـلٍ مُسَـيْلَمَةُ مِنْهُـم يَلُـوذُ بأشْـعَبِ

---

(١) في «العقود الدرية»: «المغتصب»، ولعلها أنسب.

(٢) مرحب: من فرسان يهود خيبر وأبطالهم، وأمر مبارزته مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه مشهور. انظر: «صحيح مسلم» (١٨٠٧).

وجُنْدُكَ مِنْ أهلِ السَّمَاءِ مَلائِكٌ ... يُمِدُّكَ مِنْهُمْ مَوْكِبٌ بَعْدَ مَوْكِبِ
وكلُّ امرئٍ قَدْ بَاعَ للهِ نَفْسَهُ ... فَلَيْسَ إذًا يُصْغِي لقَوْلِ مُؤَنِّبِ
لَئِنْ جَحَدَتْ عَليَاءَ فَضْلِكَ حُسَّدٌ ... لَعَمْرُ أبي قَدْ زَادَ مِنْهُم تَعَجُّبِي
وَهَلْ مُمْكِنٌ فِي العَقْلِ أَنْ يُجْحَدَ السَّنا ... ضُحًى وَضِياءُ الشَّمْسِ لَمْ يَتَحَجَّبِ؟
أَيَا مَطْلَبًا حُزْنَاهُ مِنْ غيرِ مَهْلَكٍ ... وَكَمْ مَهْلَكٍ صَدَّ الوَرَى دونَ مَطْلَبِ
رَبِيْبُ المعالي يافِعُ الجُودِ والنَّدَى ... فتى العِلمِ كَهْلُ الحِلْمِ شَيْخُ التَّأَدُّبِ
بسيطُ مَعانٍ في وَجِيْزِ عِبارَةٍ ... بِتَهذِيْبِهِ تَعْجِيْزُ كُلِّ مُهَذَّبِ
وليسَ لَهُ في الزُّهْدِ والعِلْمِ مُشْبِهٌ ... سِوى الحسَنِ البَصرِيِّ وابنِ المسَيَّبِ
ومَنْ رَامَ حَبرًا دُوْنَهُ اليومَ في الورَى ... فَذَاكَ الَّذي قَدْ رامَ عَنقاءَ مُغْرِبِ[1]
أليسَ هو الحبرُ الَّذي بانتِصَارِه ... حَبَا الدِّين حتَّى بالإمامَةِ قَدْ حُبي
وجاهَدَ في ذاتِ الإِلَهِ بنفسِهِ ... وبالمالِ والأهلِيْنَ والأمِّ والأَبِ
وما جئتُ في مَدحِي لهُ مُتطلِّبًا ... بهِ عَرَضًا يَفْنَى ولا نَيلَ مَنصِبِ
ولكِنَّني أبغِي رِضَا اللهِ خَالقِي ... وأرجُو بهِ غُفرانَ زلَّةِ مُذْنِبِ[2]

وقالَ القاسمُ بنُ محمودِ بنِ عساكرَ[3]:

---

(١) في (ج): «مضرب». والعرب إذا أخبرت عن بطلان شيء واستبعدته قالت: عنقاء مغرب. انظر: «الحيوان» للجاحظ (٧/ ٧٢)، و«ثمار القلوب» للثعالبي (ص٤٥١).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٩٢ـ٣٩٩).

(٣) بهاء الدين القاسم بن مظفر بن النجم محمود بن تاج الأمناء ابن عساكر، مسند الشام، كان طبيبًا يعالج الناس بغير أجرة، كان يحفظ كثيراً من الأحاديث والحكايات والأشعار، وله نظم. توفي سنة (٧٢٣هـ). انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٢٤)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ١١٠).

تَقِيُّ الدِّينِ أضحَى بحرَ عِلمٍ   يجِيبُ السَّائِلينَ بلا قُنوطِ
أحاطَ بكلِّ علمٍ فيهِ نفعٌ   فقُلْ ما شئْتَ في البحرِ المحيطِ[1]

وقصائدُ مدحِهِ في حياتِهِ كثيرةٌ، وكذلكَ بعدَ وفاتِه، كما سيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى.

* * *

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٤١٢).

فصلٌ في تصانيفِ ابنِ تيميةَ

وسَعَةِ حفظِهِ وقوَّةِ ملكَته

قد مرَّتِ الإشارةُ لذلكَ في كلامِ الأئمَّةِ، وقولِ العلَّامةِ ابنِ الزَّملكَانيِّ: لقد أُعطِيَ ابنُ تيميةَ اليدَ الطُّولى في حسنِ التَّصنيفِ، وجودةِ العبارةِ والتَّرتيبِ، والتَّقسيمِ والتَّبيينِ، وقد ألانَ اللهُ له العلومَ كما ألانَ لداودَ الحديدَ.

وتقدَّمَ قولُ الحافظِ الذَّهبيِّ: وما أُبعِدُ أنَّ تصانيفَه إلى الآنَ تبلُغُ خمس مئةِ مجلَّدٍ.

وقالَ الشَّيخُ ابنُ عبد الهادي ابنُ قدامَةَ: وللشَّيخِ رحمَهُ اللهُ مِنَ المصنَّفاتِ والفتاوى والقواعِدِ والأجوبَةِ والرَّسائلِ وغير ذلكَ مِنَ الفوائدِ ما لا ينضَبِطُ[1].

قالَ: ولا أعلَمُ أحدًا مِن مُتقدِّمي الأئمَّةِ ولا مُتأخِّريها جمعَ مثلَ ما جمعَ، ولا صنَّفَ نحو ما صنَّفَ، ولا قريبًا من ذلك، معَ أنَّ أكثَرَ تصانيفِهِ إنَّما أملاها مِن حفظِهِ، وكثيرٌ منها صنَّفهُ في الحبسِ، وليسَ عندَهُ ما يحتاجُ إليهِ من الكُتبِ.

فمِن ذلك ما جمعَهُ في تفسيرِ القرآنِ العظيمِ، وما جمعَهُ مِن أقوالِ مفسِّري السَّلَفِ الَّذين يذكُرونَ الأسانيدَ في كتُبِهم، وذلك في أكثرَ مِن ثلاثينَ مجلَّدًا، وقد بيَّضَ أصحابُه بعضَ ذلكَ، وكثيرٌ منه لم يكتُبوه، ولو كُتِبَ كلُّهُ لبلَغَ خمسينَ مجلَّدًا.

وكانَ رحمَـهُ اللهُ يقـولُ: ربَّمـا طالعْـتُ على الآيـةِ الواحدةِ نحوَ مئةِ تفسـيرٍ، ثمَّ أسـألُ اللهَ الفَهْمَ وأقـولُ: يا معلِّمَ إبراهيـمَ علِّمني.

وكنْتُ أذهبُ إلى المساجِدِ المهجورَةِ ونحوِها وأمرِّغُ وجهي في التُّرابِ، وأسألُ اللهَ تعالى، وأقولُ: يا معلِّمَ إبراهيمَ فهِّمني[2].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٤٢).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٤٢ ـ ٤٣).

وقالَ أبو حفصٍ عمرُ البزَّارُ في «المناقبِ»: وأمَّا مؤلَّفاتُه ومصنَّفاتهُ فإنَّها أكثرُ[١] مِنْ أنْ أقدِرَ على إحصائِها، بل هذا لا يَقدِرُ عليه غالبًا[٢] أحدٌ؛ لأنَّها كثيرةٌ جدًّا، كِبارًا وصِغارًا، وهي مُنتشِرةٌ في البلدانِ، فقلَّ بلدٌ نزلتُهُ إلَّا ورأيْتُ فيه مِنْ تصانيفِه.

فمنها ما يبلغُ عشرينَ مجلَّدًا[٣] كـ«تخليصِ التَّلبيسِ مِن تأسيسِ التَّقديسِ».

وما يبلُغُ سبعَ مجلَّداتٍ كـ«الجمعِ بين العقلِ والنَّقلِ».

وما يبلُغُ ستَّ مجلَّداتٍ ككتابِ «بيانِ تلبيسِ الجهميَّةِ في تأسيسِ بدَعِهم الكلاميَّةِ»[٤].

وما يبلغُ خمسَ مجلَّداتٍ كـ«منهاجِ الاستقامةِ والاعتدالِ».

وما يبلُغُ أربعَ مجلَّداتٍ ككتابِ «الردِّ على طوائفِ الشِّيعَةِ والقدريَّةِ»؛ ردَّ على ابن مطهَّرٍ الرَّافِضِيِّ، وبيَّن جهلَ الرَّافضَةِ وضلالتَهم وكُفرهم[٥].

وما يبلُغُ ثلاثَ[٦] مجلَّداتٍ كـ«الردِّ على النَّصارَى».

ومجلَّدينِ كـ«نكاحِ المحلِّلِ وإبطالِ الحيَلِ» و«شرحِ عقيدَةِ الأصبهانيَّةِ».

وما يبلُغُ مجلدًا فكثيرٌ جدًّا، فكتابُ «تفسيرِ سورةِ الإخلاصِ» مجلدٌ،

---

(١) «أكثر» سقط من (ج).

(٢) «غالبًا» سقط من (ج).

(٣) في «الأعلام العلية»: «اثنى عشر».

(٤) «وما يبلغ ستَّ مجلَّدات ككتاب «بيانِ تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» ليس في المطبوع من «الأعلام العلية».

(٥) وهذا الكتاب يعرف بـ«منهاج السنة النبوية»، رد فيه ابن تيمية رحمه الله على ابن مطهر المتوفى سنة (٧٢٦هـ) في كتابه «منهاج الكرامة».

(٦) في (ج): «خمس».

وكتابُ «الكلامِ على قولِه سبحانَه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾» مجلدٌ نحو خمسٍ وثلاثينَ كرَّاسَةً، و«الصَّارمِ المسلولِ على شاتمِ الرَّسولِ» مجلدٌ، وكتابِ «المسائلِ الإسكندريَّةِ في الردِّ على الملاحدَةِ الاتحاديَّةِ[1]»[2].

وله في الرَّدِّ على الفلاسفَةِ مجلداتٌ.

وقالَ: الفروعُ أمرها قريبٌ، فمن قلَّدَ أحدًا مِنَ الأئمةِ جازَ له العملُ بقولِهِ، ما لم يتيقَّنْ خطأَهُ، وأمَّا الأصولُ فقد رأيْتُ أهلَ البدَعِ والضَّلالاتِ تجاذَبوا فيها، وأوقعُوا النَّاسَ في التَّشكيكِ في أصولِ دينِهم، ولذلكَ أكثرْتُ مِن التَّصنيفِ في الرَّدِّ عليهِم[3].

وبالجملةِ فذكرُ أسماءِ كتبِهِ ممَّا يطولُ.

وله مِنَ الرَّسائلِ والقواعدِ والتَّعاليقِ ممَّا لا يمكِنُ حصرُهُ.

وقد ذكرَ كثيرًا منها الحافظُ ابنُ عبدِ الهادي ابنُ قدامةَ، وقالَ: منَّ اللهُ على الشَّيخِ بسرعةِ الكتابَةِ، ويكتُبُ مِن حفظِهِ مِن غيرِ نقلٍ.

وقالَ: أخبرَني غيرُ واحدٍ أنَّه كتبَ مجلدًا لطيفًا في يومٍ، وكتبَ غيرَ مرَّةٍ أربعينَ ورقةً في جلسةٍ وأكثرَ، وأحصيْتُ ما كتبَهُ في يومٍ وبيَّضتُه فكانَ ثماني كراريسَ في مسألةٍ مِن أشكَلِ المسائلِ، وكان يكتُبُ على السُّؤالِ الواحدِ مجلدًا.

وأمَّا جوابٌ يكتُبُ فيهِ خمسينَ ورقةً وستِّينَ فكثيرًا جدًّا[4].

وأمَّا فتاويهِ ونصوصُهُ وأجوبَتُه على الملَلِ فهيَ أكثرُ مِن أن تُحصَى، لكِن دوَّنَ

(١) «المسائل الإسكندرية في الرد على الملاحدة الاتحادية» ليس في «الأعلام العلية».

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٣ ـ ٢٥).

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٣٣).

(٤) انظر: «العقود الدرية» (ص٨٠).

منها بمصرَ على أبوابِ الفقهِ سبعةَ عشرَ مجلدًا، وهذا ظاهرٌ مشهورٌ، وقلَّ أنْ وقعَتْ واقعةٌ وسُئِلَ عنها إلَّا وأجابَ فيها بديهةً بما بهَرَ واشتهرَ، وصارَ ذلك الجوابُ كالمصنَّفِ الَّذي يحتاجُ فيهِ غيرُه إلى زمنٍ طويلٍ، ومُطالعةِ كتبٍ، وقد لا يقدِرُ مع ذلكَ على إبراز مثلِه[١].

وقالَ الشَّيخُ الصَّالحُ تاجُ الدِّين محمَّدٌ: حضرْتُ مجلِسَ الشَّيخِ رضي الله عنهُ، وقد سألَه يهوديٌّ عن مسألةٍ في القدرِ، قد نظمَها شعرًا في ثمانيةِ أبياتٍ، فلمَّا وقفَ عليها فكَّرَ لحظةً يسيرةً، وأنشأَ يكتُبُ جوابَها، وجعلَ يكتُبُ ونحنُ نظنُّ أنَّه يكتُبُ نثرًا، فلمَّا فرَغَ تأمَّلهُ مَنْ حضَرَ مِن أصحابِه، وإذْ هو نظمٌ مِن بحرِ أبياتِ السُّؤالِ وقافِيَتُها تقربُ مِن مئةٍ وأربعةٍ وثمانين بيتًا. وقدْ أبرزَ فيها مِنَ العُلومِ ما لو شُرِحَ لبلغَ مجلَّدَين كبيرَيْن، وهذا مِنْ جُمْلةِ بواهرِه، وكم له مِنْ جوابِ فَتوى لم يُسبَق إلى مثلِه[٢].

[سَعةُ حفظِ ابنِ تيميةَ وقوَّةُ ملكَتِه]

وأمَّا سَعةُ حفظِهِ وقوَّةُ ملكَتِه فقد تقدَّمَ التَّنبيهُ عليه كثيرًا في كلامِ الأئمَّةِ، وقد أذعَنَ له بذلكَ المخالِفُ والموافقُ.

وقالَ ابنُ عبد الهادي ابن قدامةَ: بلغَني أنَّ بعضَ مشايخِ حلبَ قدِمَ إلى دمشقَ ـ يعني وابنُ تيميةَ صبيٌّ ـ وقالَ: سمعْتُ في البلادِ بصبيٍّ يقالُ لهُ: أحمدُ ابنُ تيميةَ، وأنَّه سريعُ الحفظِ، وقد جئْتُ قاصِدًا لعَلِّي أراه.

فقالَ له خيَّاطٌ: هذهِ طريقُ كُتَّابِه، وهو إلى الآنَ ما جاءَ، فاقعُد عندنا

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٦).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٧).

السَّاعةَ يمرُّ ذاهبًا إلى الكُتَّابِ. فلمَّا مرَّ قيلَ له: ها هو الَّذي معَهُ اللَّوحُ الكبيرُ.

فناداه الشَّيخُ، وأخذَ منه اللَّوحَ، وكتبَ مِن متونِ الحديثِ أحدَ عشرَ أو ثلاثةَ عشرَ حديثًا، وقالَ: اقرأ هذا، فلم يزِدْ على أنْ نظَرَ فيه مرَّةً بعدَ كتابتِه إيَّاهُ، ثمَّ قالَ: أسمِعْهُ عليَّ، فقرأهُ عليه عَرضًا كأحسنِ ما يكونُ، ثم كتَبَ عدَّةَ أسانيدَ انتخَبها، فنظرَ فيهِ كما فعلَ أوَّلَ مرَّةٍ فحفِظَها، فقامَ الشَّيخُ وهو يقولُ: إنْ عاشَ هذا الصَّبيُّ ليكونَنَّ له شأنٌ عظيمٌ، فإنَّ هذا لم يُرَ مثلُه[١]. فكانَ كما قالَ.

وقالَ الحافظُ أبو حفصٍ: كان ابن تيميةَ إذا شرعَ في الدَّرسِ يفتَحُ الله عليهِ إيرادَ العلومِ، وغوامِضَ ولطائفَ، ودَقائقَ وفُنونٍ ونُقُولٍ، واستدلالاتٍ بآياتٍ وأحاديثَ وأقوالِ العلماءِ، ونصرِ بعضِها وتبيينِ صحَّتِها، وتزييفِ بعضِها، وإيضاحِ حجَّتِه، واستشهادٍ بأشعارِ العرَبِ، وربَّما ذكرَ اسمَ ناظمِها، وهو مع ذلكَ يجري كما يجرِي السَّيلُ، ويفيضُ كما يفيضُ البحرُ، ويصيرُ منذُ يتكلَّمُ إلى أن يفرُغَ كالغائبِ عن الحاضرينَ مُغمِضًا عينيه، ويقعُ عليهِ إذ ذاكَ مِن المهابةِ ما يُرْعِدُ القلوبَ، ويحيِّرُ الأبصارَ والعقولَ[٢].

ومِن أعجَبِ الأشياءِ في حفظِه أنَّه لَمَّا سُجِنَ صنَّفَ كُتُبًا كثيرة، وذكرَ فيها الأحاديثَ والآثارَ وأقوالَ العلماءِ، وأسماءَ المحدِّثينَ والمؤلِّفينَ ومؤلَّفاتهم[٣]، وعزا[٤] كلَّ شيءٍ مِن ذلكَ إلى ناقليهِ وقائليه بأسمائِهم، وذكَرَ أسماءَ الكتبِ الَّتي

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٠).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٧ ـ ٢٨).

(٣) في (ج): «ومن لغاتهم»، والتصويب من «الأعلام العلية».

(٤) في (ج): «وعن»، والتصويب من «الأعلام العلية».

ذكَرَ ذلك فيها، وفي أيِّ موضعٍ هو منها، كلُّ ذلك بديهةً مِن حِفظِه؛ لأنَّه لم يكُن عندَهُ حينئذٍ كتابٌ يطالِعُهُ، ونُقِّبَتْ[1] واعتُبِرَتْ فلم يوجَد فيها ـ بحمدِ اللهِ ـ خَللٌ ولا تغيُّرٌ[2].

[معرفتُهُ بصحيحِ المنقولِ وسقيمِه، وبالمتصوَّر والمفهوم والمعقول]

وأمَّا معرِفَتُه بصحيحِ المنقولِ وسقيمِه فإنَّهُ في ذلكَ مِن الجبالِ الَّتي لا تُرتقى ذِروَتُها[3]، ولا يُنالُ سنامُها، وقلَّ إن ذُكِرَ له قَولٌ إلَّا وقد أحاطَ علمُه بمبتكرِهِ وذاكرِهِ وناقلِه، أو راوٍ إلَّا وقد عرَفَ حالَهُ من جَرحٍ وتَعديلٍ بإجمالٍ وتفصيلٍ.

وأمَّا ما وهبَهُ الله تعالى ومنحَهُ به مِن استنباطِ المعاني مِنَ الألفاظِ النَّبويَّةِ والأخبارِ المرويَّةِ، وإبرازِ الدَّلائلِ منها على المسائلِ، وتبيينِ مفهومِ اللَّفظِ ومنطوقِه، وإيضاحِ المخصِّصِ للعامِ، والمقيِّدِ للمطلَقِ، والنَّاسِخِ للمنسوخِ، وتبيينِ ضوابطِها ولوازِمِها وملزوماتِها، وما يترتَّبُ عليها، وما يُحتاجُ فيه إليها فإنَّه لا يوصَفُ، حتَّى كانَ إذا ذَكَرَ آيةً أو حديثًا وبيَّنَ معانيهِ وما أُريدَ بهِ، يعجَبُ العالم الفطِنُ مِنْ حُسْنِ استنباطِهِ، ويدهِشُه ما سمِعَه، أو وقفَ عليه منه.

ولقد سُئل يومًا عن حديثٍ: «لعنَ الله المحلِّلَ والمحلَّلَ لهُ»[4]، فلم يزَل يورِدُ فيهِ وعليه، حتى بلَغَ كلامُه فيهِ مجلَّدًا كبيرًا.

---

(١) في (ج): «نقيت»، والتصويب من «الأعلام العلية».

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٢٢).

(٣) في (ج): «ذروها»، والمثبت من «الأعلام العلية».

(٤) رواه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩) وأعله، وابن ماجه (١٩٣٥) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورواه الترمذي (١١٢٠) وصححه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وروي عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

وقلَّ أن كان يُذكَرُ له حديثٌ أو حُكمٌ فيشاءُ أنْ يتكلَّمَ عليهِ يومَه أجمعَ إلَّا فعلَ، أو يُقرَأُ بحضرَتِهِ آيةٌ مِن كتابِ اللهِ تعالى ويَشرَعُ في تفسيرِها، إلَّا وقطعَ المجلِسَ كلَّهُ فيها.

وأمَّا ما خصَّه اللهُ تعالى به من مُعارضةِ أهلِ البدَعِ في بدَعِهم، وأهلِ الأهواءِ في أهوائهم، وما ألَّفهُ في ذلكَ مِن نقضِ أقوالِهم، وتزييفِ أمثالِهم وأشكالِهم، وإظهارِ عُوارِهم وانتحالِهم، وتبديدِ شملِهم وقطعِ أوصالِهم، وأجوبَتِه عن شُبَهِهم الشَّيطانيةِ، ومعارَضتهم النَّفسانيةِ، بما منحَهُ اللهُ تعالى بهِ مِنَ البَصائرِ الرَّحمانيَّةِ، والدَّلائلِ النَّقليَّةِ، والتَّوضيحاتِ العقليَّةِ فمِنَ العجَبِ العجيبِ.

ذكرَ هذا كلَّهُ الحافظُ أبو حفصٍ عمرُ البزَّارُ، وقالَ: الحمدُ للهِ الذي مَنَّ علينا بمحبَّتِه، واعتقادِ أنَّه ممَّن تمسَّكَ بالكتابِ والسُّنَّةِ، والقيامِ بنصرِهما، والذَّبِّ عنهُما، فاللهُ تعالى يرحَمُه رحمةً واسعةً، وينفَعُنا بِهِ، آمين[1].

***

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٣٠ ـ ٣٥).

فصلٌ في بعضِ مآثرِهِ الحميدَةِ على سبيلِ التَّلخيصِ وإلَّا فبسطُها يستدعِي طولًا

أمَّا تعبُّدُه رضيَ اللهُ عنه ـ كما قالَ الأئمَّةُ النَّاقلون عنهُ ـ قلَّ أن سُمِعَ بمثلِه؛ لأنَّه كانَ قد قطَعَ جُلَّ وقتِهِ وزمانِهِ في العبادةِ، حتَّى إنَّه لم يجعَل لنفسِه شاغلةً تشغلُهُ عنِ اللهِ، وما يرادُ لهُ، لا مِن أهلٍ ولا مِن مالٍ، وكانَ في ليلِهِ مُنفردًا عنِ النَّاسِ كلِّهم، خاليًا بربِّهِ عزَّ وجلَّ ضارِعًا إليه، مُواظِبًا على تلاوةِ القرآنِ العظيمِ، مُكرِّرًا لأنواعِ التَّعبُّداتِ اللَّيليَّةِ والنَّهاريَّةِ.

وكان إذا دخَلَ في الصَّلاةِ ترعدُ أعضاؤُهُ حتَّى يميلَ يَمنةً ويَسرةً[1].

وكان إذا رأى في طريقِه مُنكرًا أزالَهُ، أو سمعَ بجنازةٍ سارعَ إليها للصَّلاةِ عليها، أو تأسَّفَ على فواتِها، ولا يزالُ تارةً في إفتاءِ النَّاسِ، وتارةً في قضاءِ حوائجِهم حتى يُصلِّيَ الظُّهرَ مع الجماعةِ، ثمَّ كذلكَ بقيَّةَ يومِه.

وكانَ مجلسُهُ عامًّا للكبيرِ والصَّغيرِ، والجليلِ والحقيرِ، ويرَى كلٌّ منهم في نفسِه أنَّه لم يكرِم أحدًا بقدرِه.

ثمَّ يصلِّي المغربَ، وتُقرَأُ عليه الدُّروسُ، ثمَّ يصلِّي العشاءَ، ثم يقبِلُ على العلومِ إلى أن يذهَبَ هَوِيٌّ[2] مِن اللَّيلِ، وهو في خِلالِ ذلكَ كلِّهِ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يزالُ يذكُرُ اللهَ تعالى ويوحِّدُه ويستغفِرُه[3].

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٣٦).

(٢) في (ج): «طويلاً»، والمثبت من «الأعلام العلية»، يقال: مر هوي من الليل؛ أي: قطعة منه. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: هوي).

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٣٩ ـ ٤٠).

وأمَّا ورعُه: فكانَ في(١) الغايةِ الَّتي يُنتَهى إليها في الورعِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أجراهُ مدَّةَ عمرِهِ كلِّها على الورعِ، فإنَّه ما خالطَ النَّاسَ في بيعٍ ولا شراءٍ، ولا مُعاملةٍ ولا تجارةٍ، ولا مشاركةٍ ولا مُزارَعةٍ ولا عِمارةٍ، ولا كان ناظِرًا أو مباشرًا لمالِ وَقْفٍ، ولم يقبَل جِرايةً ولا صِلةً لنفسهِ مِن سلطانٍ ولا أميرٍ ولا تاجرٍ، ولا كانَ مدَّخرًا دينارًا ولا درهمًا، ولا مَتاعًا ولا طعامًا.

وإنَّما كانَت بِضاعتُه مدَّةَ حياتِه، وميراثُه بعدَ وفاتِه ـ رضيَ الله عنه ـ العلمَ، اقتداءً بسيِّدِ المرسلِينَ ﷺ، فإنَّه قالَ: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكن ورَّثوا العلمَ، فمَنْ أخذَ بِهِ فقد أخذَ بحظٍّ وافرٍ»(٢).

وأمَّا زهدُه: فقد جعلَهُ اللهُ لهُ شِعارًا مِنْ صِغَره، ولقد اتَّفقَ كلُّ مَن رآه ـ خصوصًا مَن أطالَ مُلازمَتَه ـ أنَّه ما رأى مثلَهُ في الزُّهدِ في الدُّنيا، واشتُهرَ عنه ذلكَ، حتَّى لو سئلَ عاميٌّ مِن أهلِ بلدٍ بعيدٍ: مَن أزهَدُ أهلِ هذا العصرِ، وأكمَلُهم في رفضِ فضولِ الدُّنيا، وأحرَصُهم على طلبِ الآخرَةِ؟ لقالَ: ما سمعْتُ بمثلِ ابنِ تيميةَ.

وما اشتهرَ له ذلكَ إلَّا لمبالغتِهِ في الزُّهدِ، مع تصحيحِ النيَّةِ، لم يُسمَع أنَّه رغِبَ في زوجةٍ حسناءَ، ولا سريَّةٍ حوراءَ، ولا شدَّ على دينارٍ ولا درهَمٍ، ولا رغبَ في دوابٍّ ولا نَعَمٍ، ولا ثيابٍ فاخرةٍ ولا حَشَمٍ، ولا زاحَمَ في طلبِ الرِّئاساتِ، ولا رُئِيَ ساعيًا في تحصيلِ المباحاتِ، مع أنَّ الملوكَ والأمراءَ والتُّجَّارَ والكبراءَ كانوا طوعَ

---

(١) في (ج): «من»، والمثبت من «الأعلام العلية».

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٤٢)، والحديث رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٢٨)، وابن ماجه (٢٢٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه. وفي إسناد الحديث مقال، فصححه بعض العلماء وضعفه آخرون. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ٧)، و«البدر المنير» لابن الملقن (٧/ ٥٨٧).

أمرِه، خاضعِينَ لقولِه، وادِّينَ أنْ يتقرَّبوا إلى قلبِه مهما أمكَنهم، مظهِرينَ لإجلالِه.

فأينَ حالُه هذهِ مِن حالِ مَن أغراهُم الشيَّطانُ بالوقيعةِ فيه؟! أَمَا نظروا ببصائرِهم إلى صفاتِهم وصفاتِه، وسماتِهم وسماتِه، وتحاسُدِهم في طلبِ الدُّنيا، وفراغِه عنها ومبالغتِه في الهربِ منها، وخدمَتِهم للأمراءِ واختلافِهم إلى أبوابِهم، وذلِّ الأمراءِ بين يديهِ، وعدمِ اكتراثِه بهم، وقوَّةِ جأشِه في محاوراتهم؟!

بلى واللهِ؛ ولكِن قتلَتْهُم الحالقَةُ، حالقةُ الدِّينِ لا حالقَةُ الشَّعر[١].

وأمَّا إيثارُهُ مع فقرِه: فكان رضيَ الله عنه مع رفضِه للدُّنيا، وتقلُّلِه منها، مؤثرًا بما عساهُ يجِدُه منها، قليلًا كانَ أو كثيرًا، لا يحتقِرُ القليلَ فيمنعُه ذلكَ عن التَّصدُّقِ به، ولا الكثيرَ فيصرِفُه النَّظرُ إليهِ إلى الإسعافِ به، فقد كان يتصدَّقُ حتى إذا لم يجِد شيئًا نزَعَ بعضَ ثيابِه فيصِلُ به الفقراءَ، وكان يَسْتَفْضِلُ مِن قُوْتِهِ الرَّغيفَ والرَّغيفَيْن، فيؤثِرُ بذلك على نفسِه[٢].

وذكرَ الشَّيخُ الصَّالحُ زينُ الدِّين عليٌّ الواسطِيُّ: أنَّه أقامَ بحضرةِ الشَّيخِ مدَّةً طويلةً، قالَ: فكانَ قُوْتُنا أنَّه يأتِيني بكرةَ النَّهارِ ومعهُ قُرْصٌ قَدْرُه نصفُ رطلٍ بالعراقيِّ، فيكسِرُه بيدِه لُقَمًا، ونأكلُ، ثم يرفَعُ يدَه قبلي، ولا يَفْرغُ باقي القُرْصِ مِن بينِ يديَّ حتَّى أشبعَ إلى اللَّيلِ، وكنْتُ أرى ذلكَ مِن بركَةِ الشَّيخِ، ثم بعدَ عشاءِ الآخرةِ يأتي بعشائِنا فيأكُلُ هو معي لُقيماتٍ، ثم يؤثِرُني بالباقي، وكنْتُ أسألُه أنْ يزيدَ على أكلِه

---

(١) يعني الحسد، كما جاء في حديث الزبير بن العوام عن النبي ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين». رواه الترمذي (٢٥١٠)، والحديث فيه مولى ابن الزبير مجهول، لكن له شواهد.

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٤٦ ـ ٤٨).

فلا يفعَلُ، حتَّى إنِّي كنْتُ في نفسي أتوجَّعُ له مِن قلَّةِ أكلِه، وكان هذا دأبُنا في غالبِ مدَّةِ إقامَتي عندَه، وما رأيْتُ نفسي أغنى منها في تلكَ المدَّةِ، ولا رأيتُني أجمعَ همًّا منِّي فيها.

وحكَى غيرُ واحدٍ ما اشتهرَ عنه مِن كثرةِ الإيثارِ، وتفقُّدِ المحتاجِينَ والغُرباءِ، واجتهادِه في مصالحِهم وصِلاتِهم ومساعَدتِه لهم، بل ولكلِّ أحدٍ مِن العامَّةِ والخاصَّةِ ممَّنْ يمكِنُه فعلُ الخيرِ معَه، وإسداءُ المعروفِ إليه بقولِه وفعلِه، وجهدِه وجاهِه[1].

وأمَّا كرَمُه: فكانَ رضي الله عنه مجبولًا على الكرمِ، ولا يتطبَّعُه، ولا يتصنَّعُه، بل هو لهُ سَجيَّةٌ، وكان لا يردُّ مَن يسألُه شيئًا يقدِرُ عليهِ مِن دراهمَ ودنانيرَ وثيابٍ وكتبٍ[2].

وقالَ الحافظُ ابنُ فضلِ اللهِ العمريُّ: كانت تأتيهِ القناطيرُ المقنطرَةُ مِن الذَّهبِ والفضَّةِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ، فيهَبُ ذلك بأجمَعِه، ويضعُه عندَ أهلِ الحاجةِ في موضعِه، لا يأخُذُ منه شيئًا إلَّا ليَهبَهُ، ولا يحفَظُه إلَّا ليُذهِبَه[3].

وقالَ في موضعٍ آخر: كان يجيئُهُ مِن المالِ في كلِّ سنةٍ ما لا يكادُ يُحصى، فينفِقُهُ جميعَهُ آلافًا ومئينَ، لا يلتَمِسُ منه درهمًا، ولا ينفِقُه في حاجَتِه. بلْ كانَ إنْ لم يقدرْ يعمدُ إلى شيءٍ مِن لباسِهِ فيدفعُهُ إلى السَّائل، وذلك مشهورٌ عندَ النَّاسِ مِن حالِه.

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٤٩).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٦٣).

(٣) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٥).

حكَـى مَـنْ يوثَقُ بِـهِ[١] قالَ: كنْتُ يومًا جالسًـا بحضرَةِ شـيخِ الإسـلامِ ابن تيميةَ رضـي الله عنـه، فجاءَ إنسـانٌ فسـلَّمَ عليهِ، فرآه الشَّـيخُ محتاجًـا إلى ما يعتَمُّ بـه، فنزَعَ الشَّـيخُ عِمامَتُـه مـن غيرِ أن يسـأَله الرَّجـلُ، فقطَعَهـا نصفَيـنِ، واعتمَّ بنصفِهـا، ودفع النِّصـفَ الآخرَ لذلـك الرَّجلِ، ولم يحتشِـم للحاضرِين عنـدَهُ[٢].

وحدَّثَ مَن يوثَقُ به: أنَّ الشَّيخَ رضي اللهُ عنه كانَ مارًّا في بعضِ الأزقَّةِ، فدعا له بعضُ الفقراءِ، وعرَفَ الشَّيخُ حاجَتَهُ، ولم يكُن معَ الشَّيخِ ما يعطِيهِ فنزَعَ ثوبًا من على جلدِهِ ودفعَهُ إليهِ، وقالَ: بعْهُ بما تيسَّرَ وأنفِقهُ، واعتذَرَ إليه مِن كونِه لم يحضُر عندَهُ شيءٌ مِن النَّفقَةِ[٣].

وسـأَلَهُ إنسـانٌ كتابًـا ينتفِـعُ بـهِ، فقـالَ: خُذ ما تختـارُ، فـرأى ذلكَ الرَّجـلُ بين كتِـبِ الشَّـيخِ مُصحَفًـا قـد اشـتُرِيَ بدراهـمَ كثيـرةٍ، فأخـذَهُ ومضَـى، فـلامَ بعـضُ الجماعـةِ الشَّـيخَ فـي ذلـك، فقـالَ: أكانَ يحسُـنُ بـي أنْ أمنعَهُ بعـدَ ما سـأَلَهُ؟! دعْهُ فلينتَفِـع بهِ.

وكانَ رضي اللهُ عنه ينكِرُ إنكارًا شديدًا على مَنْ يُسأَلُ شيئًا مِن كتبِ العلمِ الَّتي يملِكُها ويمنَعُها مِن السَّائلِ، ويقولُ: ما ينبغي أن يُمنَعَ العلمُ ممَّنْ يطلُبُه[٤].

وأمَّا لباسُه: فكانَ رضيَ اللهُ عنه متوسِّطًا في لباسِهِ، لا يلبَسُ فاخرَ الثِّيابِ بحيثُ

---

(١) هو الشيخ العالم الفاضل المقرئ أبو محمد عبد الله ابن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد، كما في «الأعلام العلية» (ص٦٣).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٦٣).

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٦٥).

(٤) انظر: «الأعلام العلية» (ص٦٦).

يُرمَقُ ويمَدُّ النَّظرُ إليهِ، ولا أطمارًا[١]، ولا غليظةً تُشهِرُ لابِسَها مِن عالمٍ وعابدٍ، بل كانَ لباسُهُ وهيئتُهُ كغالبِ النَّاسِ ومتوسِّطِهم.

ولم يكُن يلزَمُ نوعًا واحدًا مِن اللِّباسِ، بل يلبَسُ ما اتَّفقَ وحصل، ويأكُلُ ما حضرَ، وكانَتْ بَذاذَةُ الإيمانِ عليه ظاهرةً، لا يُرَى مُتصنِّعًا[٢] في عِمامةٍ، ولا لباسٍ، ولا مِشيةٍ، ولا قِيامٍ، ولا جلوسٍ.

ولم يُسمَع أنَّه أمرَ أنْ يُتَّخذَ له ثوبٌ بعينِهِ، بل كانَ أهلُه يأتونَه بلباسِهِ وقتَ حاجتِهِ ليبدِّلَ ثيابَه الَّتي عليهِ، وربما اتَّسخَتْ ولا يأمُرُ بغسلِها، حتى يسألَهُ أهلُه ذلكَ[٣].

وكذا كانَ في المأكَلِ، فمَا سُمعَ أنَّه طلبَ طعامًا قطُّ، ولا عشاءً، ولا غداءً، ولو بقِي مهما بقيَ؛ لشدَّةِ اشتغالِه بما هو فيهِ مِن العلمِ والعملِ، بل كانَ ربما يُؤتى بالطَّعامِ، وربما يُترَكُ عندَه فيبقى زمانًا حتى يلتَفِتَ إليهِ، وإذا أكلَ يأكُلُ شيئًا يسِيرًا.

وما ذَكَرَ شيئًا مِن ملاذِّ الدُّنيا ونعِيمها، ولا كانَ يخوضُ في شيءٍ مِن حديثِها، ولا يسألُ عن شيءٍ مِن معيشَتِها، بل جلُّ همَّتِهِ وحديثِه في طلبِ الآخرةِ، وما يقرِّبُ إلى اللهِ تعالى[٤].

وأمَّا تواضعُه: فما سُمعَ بأحدٍ مِن أهلِ عصرِهِ مثلُه في ذلكَ رحمَهُ الله، فكانَ يتواضَعُ للكبيرِ والصَّغيرِ، والجليلِ والحقيرِ، والفقيرِ ويُدنيه ويُكرِمُه، ويتآنسُ بحديثِه زيادةً على الغنيِّ، حتى إنَّه ربَّما خدمَهُ بنفسِهِ، وأعانَهُ بحملِ حاجَتِه جبرًا لقلبِهِ.

---

(١) أطمار: جمع طِمرٍ، وهو الثَّوب الخَلَقُ، أو الكساء البالي من غير الصُّوف. انظر: «الصحاح» للجوهري، و«القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: طمر).

(٢) في (ج): «منصفًا»، والمثبت من «الأعلام العلية».

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٥٣ ـ ٥٤).

(٤) انظر: «الأعلام العلية» (ص٥٤).

وكانَ لا يسأمُ ممَّنْ يستفتِيهِ أو يسألُه، بل يُقبِلُ عليهِ ببشاشَةِ وجهٍ، ولينِ عَرِيكةٍ[١]، ويقفُ معَه حتَّى يكونَ هو الَّذي يفارقُهُ، ولا يجبهُهُ ولا ينفِّرُهُ بكلامٍ يوحِشُهُ، بل يجيبُهُ ويُفهِمُه، ويعرِّفُه الخطأَ مِن الصَّوابِ بلطفٍ وانبساطٍ.

وكانَ يلزمُ التَّواضعَ في حضورِه مع النَّاسِ ومغيبِه عنهُم، في قيامِهِ وقعودِه، ومشيِهِ ومجلسِهِ ومجلسِ غيرِه[٢].

وأمَّا كرامَتُه وفراسَتُه: فقالَ الشَّيخُ الحافظُ أبو حفصٍ عمرُ: جرى بيني وبينَ بعضِ الفضلاءِ مُنازعةٌ في عدَّةِ مسائلَ، وطالَ كلامُنا فيها، وجعَلنا الشَّيخَ المرجِعَ، فلما حضَرَ هممنا لسؤالِهِ عنها، فسبقَنا هو وشرعَ يذكُرُ لنا مسألةً مسألةً كما كنَّا فيهِ، ويذكُرُ أقوالَ العلماءِ فيها، ثم يرجِّحُ فيها ما رجَّحهُ الدَّليلُ، حتى أتى على آخرِ ما أردنا، فبقِينا ومَن حَضَرَنا مبهوتِينَ متعجِّبينَ.

وكنْتُ في صحبَتي له إذا خطَرَ لي بحثٌ يشرَعُ يورِدُه، ويذكُرُ الجوابَ عنه مِن عدَّةِ وجوهٍ، فما سُمِعَ بأحدٍ من أهلِ عصرِه مثلُه في ذلكَ رحمَه اللهُ[٣].

قالَ: وحدَّثني الشَّيخُ الصَّالحُ المقرئ أحمدُ؛ قال: لَمَّا قدِمْتُ دمشقَ لم يكُن معي شيءٌ مِن النَّفقةِ البتَّة، وأنا لا أعرِفُ أحدًا مِن أهلِها، فجعلْتُ أمشي في زقاقٍ كالحائر، وإذا بالشَّيخِ أقبَلَ نحوي مُسرعًا، فسلَّمَ وهشَّ في وجهي، ووضعَ في يدي صُرَّةً فيها دراهمُ، وقال لي: أنفِق هذه الآن، وخلِّي[٤] خاطرَكَ ممَّا أنتَ فيهِ، فإنَّ اللهَ لا يُضيِّعُكَ، ثمَّ انصرفَ، فسألْتُ: مَنْ هذا؟ فقيلَ: ابن تيمِيَةَ، وله مدَّةٌ ما اجتازَ بهذا

---

(١) في (ج): «معركة»، والتصويب من «الأعلام العلية».

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٤٩ ـ ٥٠).

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٥٦).

(٤) في (ج): «واجلي»، والمثبت من «الأعلام العلية».

الدَّربِ، وكان جلُّ قصدي من سفرِي إلى دمشقَ لقاءَهُ، فتحقَّقْتُ أنَّ اللهَ أظهرَهُ عليَّ، وعلى حالي، فما احتجْتُ بعدها إلى أحدٍ مدَّةَ إقامَتي بدمشقَ، بل فتحَ اللهُ عليَّ مِن حيثُ لم أحتسِبْ(١).

وقالَ: وحدثني الشَّيخُ العالمُ المقرِي تقيُّ الدِّينِ عبدُ اللهِ قالَ: لَمَّا سافرْتُ إلى مصرَ حين كان الشَّيخُ مقيمًا بها، فقدِمتُها ليلًا وأنا مريضٌ مثقَلٌ، فأُنزِلْتُ في بعضِ الأمكِنةِ، فلم ألبَثْ أنْ سمعْتُ مَن ينادِيني باسمي وكُنيَتي، فأجبتُهُ وأنا ضعيفٌ، فدخَلَ إليَّ جماعةٌ مِن أصحابِ الشَّيخِ؛ فقلْتُ: كيفَ عرفتُم بقدُومي هذه السَّاعةَ؟، قالوا: أخبرَنا الشَّيخُ أنَّك قدِمْتَ وأنتَ مريضٌ، فأمرَنا أنْ نُسرِعَ بنقلِكَ، وما رأينا أحدًا جاءَهُ، ولا أخبرَهُ بشيءٍ.

قالَ: ومرضتُ بدمشقَ، فلم أشعُر إلَّا والشيَّخُ عندَ رأسي، وأنا مُثقَلٌ بالحمَّى والمرضِ، فدعا لي، وقالَ: جاءَتِ العافيةُ، فما هو إلَّا أن فارَقَني وجاءَتِ العافيةُ، وشُفِيْتُ مِن وقتي(٢).

وقالَ الشيخُ عمادُ الدِّينِ المقرئ المطرِّزُ: قدمْتُ على الشيخِ ومعي حينئذٍ نفقةٌ، فسلَّمْتُ عليهِ، فردَّ عليَّ، ورحَّبَ بي وأدناني، ولم يسألْني: هل معكَ نفقةٌ أم لا؟ فلمَّا كانَ بعد أيامٍ وقد نفِدَت نفقَتي أردْتُ أن أخرُجَ مِن مجلِسهِ بعد أن صلَّيْتُ معَ النَّاسِ وراءَهُ، فمنَعني وأجلَسَني دونَهم، فلمَّا خلا دفعَ إليَّ جُملَةَ دراهمَ، وقالَ: الآنَ، أنتَ الآنَ بغيرِ نفقةٍ، فعجِبْتُ مِن ذلكَ(٣).

ولما نزَلَ المُغْل بالشَّامِ لأخذِ دمشقَ، رجفَ أهلُها، وجاءَ إليه جماعةٌ منهم،

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٥٧).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٥٨).

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٥٩).

وسألُوهُ الدُّعاءَ للمسلمينَ، فتوجَّهَ إلى اللهِ تعالى، ثمَّ قالَ: أبشِروا فإنَّ اللهَ يأتيكُم بالنَّصرِ في اليومِ الفلانيِّ، بعدَ ثالثةٍ ترونَ الرُّؤوسَ معبَّأةً بعضُها فوقَ بعضٍ.

قالَ الذي حدَّثَ: فوالذي نفسِي بيدِه ما مضَى إلَّا ثلاثٌ منذُ قولِه حتَّى رأينا رؤوسَهم كما قالَ الشَّيخُ على ظاهرِ دمشقَ معبَّأةً بعضُها فوقَ بعض[1].

وكانَ الشَّيخُ يعودُ المرضى بالبيمارستانِ بدمشقَ في كلِّ قليلِ أيَّامٍ، فجاءَ يومًا لشابٍ فدعا لهُ فشُفِيَ سريعًا، وقالَ له: عاهِدِ اللهَ أن تعجِّلَ[2] الرُّجوعَ إلى بلدِكَ، أيجوزُ أن تترُكَ زوجتَكَ وبناتِك ضيعةً وتقيمَ هاهنا؟! قالَ الشَّابُ: فقبَّلتُ يدَهُ، وقلْتُ: يا سيِّدِي! إنِّي تائبٌ إلى اللهِ، وعجِبْتُ ممَّا كاشَفني به، وكنتُ قد تركتُهنَّ بلا نفقةٍ، ولم يكن عرفَ بحالي أحدٌ مِن أهلِ دمشقَ.

ومضَى بعضُ القضاةِ متوجِّهًا إلى مصرَ المحروسةِ ليُقلَّدَ القضاءَ، وعزمَ على قتلِ رجلٍ صالحٍ بها إذا وصلَ، فلمَّا بلغَ ذلك الشَّيخَ قالَ: إنَّ اللهَ لا يمكِّنُه ما قصدَ، ولا يصِلُ إلى مصرَ حيًّا، فبقيَ بين القاضي وبينَ مصرَ قدرٌ يسيرٌ وأدركَهُ الموتُ[3].

وذكرَ الحافظُ ابن عبدِ الهادي ابن قدامةَ: أنَّ الشَّيخَ لَمَّا أفتى بمسألةِ شدِّ الرِّحالِ للقبورِ، اجتمَعَ جماعةٌ معروفونَ بدمشقَ، وضربوا مَشورةً في حقِّ الشَّيخِ، فقال أحدُهم: يُنفَى، فنُفِيَ القائلُ، وقال آخرُ: يُقطَعُ لسانُه، فقُطِعَ لسانُ القائلِ، وقالَ آخرُ: يُعزَّرُ، فعُزِّرَ القائلُ، وقالَ آخرُ: يُحبَسُ، فحُبِسَ القائلُ، قالَ: وأخبرني بذلكَ مَن حضرَ هذه المشورَةَ وهو كارهٌ لها[4].

---

(١) من قوله: «قال الذي حدث» إلى هنا من (ط).

(٢) في (ج): «تجعل».

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٦٠ ـ ٦١).

(٤) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٤٤).

بالجملةِ فكراماتُ الشَّيخِ رحمَهُ اللهُ تعالى كثيرةٌ جدًّا، قالوا: ومِن أظهرِ كراماتِه أَنَّهُ ما سمِعَ بأحدٍ عاداهُ أو تنقَّصهُ إلَّا وابتُلِيَ بعدَّة بلايا غالِبُها في دِينِه. قالوا: وهذا ظاهرٌ مشهورٌ لا يُحتاجُ فيهِ إلى شرحِ صِفَته، واللهُ أعلمُ[1].

قالوا: ومَنْ أمعنَ النَّظرَ ببصيرَته[2] لم يرَ عالمًا مِن أهلِ أيِّ بلدٍ شاءَ، موافقًا له، مُثنيًا عليه، إلَّا ورآه مِن أتبَعِ علماءِ بلدِهِ للكتابِ والسُّنَّةِ، وأشغَلِهم بطلبِ الآخرةِ والرَّغبةِ فيها، وأبلَغِهم في الإعراضِ عن الدُّنيا والإهمالِ لها، ولا يَرى عالمًا مُخالفًا له مُنحرفًا عنه، إلَّا وهوَ مِن أكبرِهم نهمةً في جمعِ الدُّنيا، وأكثرِهم رياءً وسمعةً، واللهُ تعالى أعلم.

وأمَّا شجاعَتُه وجهادُه: فأمرٌ يتجاوزُ الوصفَ، فكانَ رضي الله عنه ـ كما قالَ الحافظُ سراجُ الدِّين أبو حفصٍ في «مناقبِه» ـ مِنْ أشجَعِ النَّاسِ وأقواهم قلبًا، ما رأيْتُ أحدًا أثبتَ جأشًا منه، ولا أعظَمَ في جهادِ العدوِّ منهُ، كان يجاهِدُ في سبيلِ الله بقلبِهِ ولسانِهِ ويدِه، ولا يخافُ في الله لومةَ لائمٍ.

وأخبرَ غير[3] واحدٍ أنَّ الشَّيخَ كان إذا حضَرَ مع عسكرِ المسلمينَ في جهادٍ يكونُ بينَهُم واقيَتَهم[4] وقُطْبَ ثباتِهم، إنْ رأى مِن بعضِهم هلعًا أو جُبنًا شجَّعَه وثبَّته وبشَّرَهُ ووعدَهُ بالنَّصرِ والظَّفرِ والغنيمةِ، وبيَّنَ له فضلَ الجهادِ والمجاهدِينَ.

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٦٢).

(٢) في (ج): «إلى بصيرته»، والمثبت من «الأعلام العلية».

(٣) في (ج): «عن»، والمثبت من «الأعلام العلية».

(٤) في (ج): «أوقيتهم»، والمثبت من «الأعلام العلية».

وكان إذا ركبَ الخيلَ يتحنَّكُ[١] ويجولُ في العدوِّ كأعظمِ الشُّجعانِ، ويقومُ كأثبتِ الفرسان، ويُكبِّرُ تكبيرًا أنكى في العدوِّ مِن كثير[٢] مِنَ الفَتكِ بهم، ويخوضُ فيهم خوضَ رجلٍ لا يخافُ الموتَ.

وحدَّثوا: أنَّهم رأوا منهُ في فتحِ عكَّةَ أمورًا مِن الشَّجاعةِ يعجَزُ الواصفُ عن وصفِها.

قالوا: ولقد كانَ السَّببَ في تملُّكِ المسلمينَ إيَّاها، بفعلِه ومشورَتِه وحسنِ نظرِه.

ولَمَّا ظهرَ السُّلطانُ غازانُ على دمشقَ المحروسةِ جاءَهُ ملكُ الكَرَجِ[٣]، وبذَلَ له أموالًا جزيلةً على أن يمكِّنَهُ مِنَ الفَتْكِ بالمسلمينَ مِن أهلِ دمشقَ، فوصَلَ الخبرُ إلى الشَّيخِ فقامَ مِن فورِه وشجَّعَ المسلمينَ ورغَّبهم في الشَّهادةِ، ووعدَهم على قيامِهم بالنَّصرِ والظَّفَرِ والأمنِ، وزوالِ الخوفِ، فانتدبَ منهم رجالٌ مِن وجوهِهم وكبرائِهم وذوي أحلامِهم، فخرجُوا معهُ إلى حضرةِ السُّلطانِ غازانَ، فلمَّا أنْ رأى الشَّيخَ أوقَعَ اللهُ له في قلبِه هيبةً عظيمةً، حتَّى أدناهُ وأجلسَهُ، وأخذَ الشَّيخُ في الكلامِ معه في عكسِ رأيِه مِن تسليطِ المخذولِ ملكِ الكَرَجِ على المسلِمينَ، وأخبرَهُ بحرمةِ

---

(١) التحنك: أن تدير العمامة من تحت الحنك. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: حنك).

(٢) في (ج): «وينكيء العدو من كثر» بدل «ويكبر تكبيرًا أنكى في العدو من كثير»، والمثبت من «الأعلام العلية».

(٣) الكرج: مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب، أول من مصَّرها أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي وجعلها وطنه، والكرج أيضا: أكبر بلدة في ناحية روذراور بالقرب من همذان من نواحي الجبال بين همذان ونهاوند. وحاليًا تعرف بجورجيا. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٤٤٦)، و«أطلس التاريخ الإسلامي» لشوقي أبو خليل (ص١٥٩).

دماءِ المسلِمينَ، وذكَّرهُ ووعظَهُ، فأجابَهُ إلى ذلكَ طائعًا، وحُقنَتْ دماءُ المسلمينَ، وحُميَتْ ذراريهم، وصِينَ حريمُهم(١).

وقالَ الشَّيخُ كمالُ الدِّين(٢) بنُ المُنَجَّا قدَّسَ اللهُ روحَهُ(٣): كنتُ حاضِرًا معَ الشَّيخِ، فجعَلَ يحدِّثُ السُّلطانَ بقولِ(٤) اللهِ ورسولِه في العدلِ وغيرِه، ويرفَعُ صوتَهُ على السُّلطانِ ويقربُ منه في أثناءِ حديثِه، حتى لقد قرُبَ أن يلاصِقَ بركبَتِه ركبةَ السُّلطانِ، والسُّلطانُ معَ ذلك مقبلٌ عليه بكليَّتِهِ، مصغٍ لِمَا يقولُ، شاخِصٌ إليه لا يُعرِضُ عنه.

وإنَّ السُّلطانَ مِن شدَّةِ ما أوقعَ اللهُ له في قلبِه مِن المحبَّةِ والهيبةِ سألَ: مَن هذا الشَّيخُ؟ فإنِّي لم أرَ مثلَهُ، ولا أثْبَتَ قلبًا منهُ، ولا أوقعَ مِن حديثِه في قَلبي، ولا رأيتُني أعظَمَ انقيادًا لأحدٍ منهُ، فأُخبِرَ بحالِه، وما هو عليهِ من العِلمِ والعمَلِ(٥).

فقالَ الشَّيخُ للتُّرجمانِ: قلْ للسُّلطانِ: أنتَ تزعُمُ أنَّك مسلمٌ، ومعكَ قاضٍ وإمامٌ

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٦٩).

(٢) كذا في (ج) وفي «الأعلام العلية»، ولعل الصواب: «وجيه الدين»، كما في «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٧٠٢)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٨/ ١٢٣)، و«ذيل مرآة الزمان» لليونيني (١/ ٢٥٥).

(٣) محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل التنوخي وجيه الدين، تفقه ودرس وكان كثير المال والبر أنشأ دار القرآن بدمشق ورباطًا بالقدس، وباشر نظر الجامع الأموي متبرعًا، مع الدين والصيانة والمهابة والحرمة والمسارعة إلى الخير والشهامة، توفي سنة (٧٠١هـ). انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٣٣٣)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٥/ ٢٨٩).

(٤) في (ج): «ويقول»، والمثبت من «الأعلام العلية».

(٥) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٠).

وشيخٌ ومؤذِّنٌ على ما بلغَنا، فغزوْتَنا، وأبوكَ وجدُّكَ هولاكو[١] كانا كافِرَين وما عَمِلا الَّذي عملْتَ، عاهدا فوفَيا، وأنتَ عاهدْتَ فغدَرْتَ، وقُلْتَ فَمَا وفيْتَ وجُرْتَ.

ثم خرجَ من بينِ يديهِ مكرَّمًا معزَّزًا بحسنِ نيَّتِهِ الصَّالحةِ مِن بذلِ نفسِهِ في طلبِ حقنِ دماءِ المسلمينَ، فبلَّغَهُ اللهُ تعالى ما أرادَه، وكانَ أيضًا سببًا لتخليصِ غالبِ أسارى المسلمِينَ مِن أيديهم، وردِّهم على أهلِيهم، وحفِظِ حريمِهم، وهذا مِن أعظمِ الشَّجاعةِ والثَّباتِ وقوةِ الجأشِ، وكان يقولُ: لن يخافَ الرَّجُلُ غيرَ اللهِ إلَّا لمرضٍ في قلبِهِ.

قالَ: إنَّ رجلًا شكى إلى أحمدَ بن حنبلٍ خوفَهُ مِن بعضِ الولاةِ، فقالَ: لو صحَّحْتَ لم تخَفْ أحدًا؛ أي: خوفُكَ مِن أجلِ زوالِ الصِّحةِ من قلبِكَ[٢].

وأخبرَ قاضي القضاةِ أبو العباسِ بن حصري أنَّهم لَمَّا حضروا مجلسَ غازانَ قُدِّمَ لهم طعامٌ فأكلُوا منه إلَّا ابنَ تيميةَ، فقيلَ لهُ: لِمَ لا تأكلُ؟ فقالَ: كيفَ آكلُ مِن طعامِكم، وكلُّهُ ممَّا نهبتُم من أغنامِ[٣] النَّاسِ، وطبختمُوه بما قطعتُم مِن أشجارِ النَّاسِ[٤]؟!

ثم إنَّ غازانَ طلَبَ منه الدُّعاءَ، فقالَ في دعائِهِ: اللهمَّ إنْ كنْتَ تعلَمُ أنَّه إنَّما قاتَلَ لتكُونَ كلمةُ اللهِ هي العليا، وجهادًا في سبيلِكَ فأنْ تؤيِّدَهُ وتنصُرَهُ، وإنْ كانَ للمُلكِ والدُّنيا والتَّكاثُرِ، فأنْ تفعلَ به وتصنَعَ، يدعو عليهِ، وغازانُ يؤمِّنُ على دعائِهِ، ونحنُ نجمَعُ ثيابَنا خوفًا أنْ يُقتَلَ فنطرَتشُ بدمِهِ.

---

(١) في (ج): «هلكوا»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧١ ـ ٧٢).

(٣) في (ج): «غنائم»، والمثبت من مصدري التخريج.

(٤) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٩)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ١٠٢).

ثـمَّ لَمَّـا خرجنَـا قلْنـا لـه: كـدْتَ أنْ تهلِكَنـا معَـك، ونحـنُ مـا نصحبُـكَ مِـنْ هنـا. فقـالَ: وأنا لا أصحبُكـم، فانطلَقْنا عصبـةً، وتأخَّرَ، فتسـامَعَتْ بـه الخواقينُ[1] والأمـراءُ، فأتَـوه مِـن كلِّ فـجٍّ عميقٍ، وصـاروا يتلاحقـونَ بـهِ ليتبرَّكوا برؤيتـهِ، فما وصـلَ إلَّا فـي نحـوِ ثلاثمئِـة فـارسٍ فـي ركابِـه، وأمَّـا نحـنُ فخـرجَ علينـا جماعةٌ فشـلَّحُونا[2].

فانظُرْ ـ كما قالَ الحافظُ ابنُ فضلِ اللهِ العمَريُّ ـ إلى قيامِه في رفعِ حجَّةِ التَّتارِ، واقتحامِهِ، وسيوفُهم تتدفَّقُ لجَّةَ البحارِ، حتى جلسَ إلى السُّلطانِ محمودِ غازانَ حيثُ تَجِمَ[3] الأُسدُ في آجامِها[4]، وتسقُطُ القلوبُ في دواخِلِ أجسامِها؛ خوفًا من ذلكَ السَّبُعِ القتَّال[5]، والنُّمرودِ المختالِ، والأجلِ الذي لا يُدفَع بحيلةِ محتالٍ، فجلسَ إليهِ وأومأ بيدِه إلى صدرِه، وواجهَهُ ودرأه في نحرِه[6]، وطلبَ منه الدُّعاءَ، فرفَعَ يديهِ ودعا دعاءَ منصفٍ، أكثَرُه عليهِ، وغازانُ يؤمِّنُ على دعائهِ وهو مقبلٌ إليهِ[7]، ثم كانَ على هذه المواجهةِ القبيحةِ والمشاتمةِ الصَّريحةِ أعظَمَ في صدرِ غازانَ والمُغْلِ مِن كلِّ مَن طلَعَ معه مِن سلفِ العلماءِ في ذلك الصَّدرِ، وأهلِ الاستحقاقِ لرفعَةِ القَدْرِ.

---

(١) الخاقان: الرئيس أو الزعيم عند التتر، ويختصر إلى خان أو قان. انظر: «معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي» لمحمد دهمان (ص٦٦).

(٢) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٩)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ١٠٢).

(٣) في (ج): «لجم»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٤) الآجام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثيف الملتف. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: أجم).

(٥) في «مسالك الأبصار»: «المغتال».

(٦) في «مسالك الأبصار»: «ودرا في بحره».

(٧) في (ج): «عليه».

هذا مع ما لَهُ مِن جهادٍ في اللهِ، لم يُفزِعْهُ فيهِ طَلَلُ الوشيجِ[١]، ولم يُجزِعْهُ فيهِ ارتفاعُ النَّشيجِ، مواقفُ حروبٍ باشرَها، وطوائفُ ضروبٍ عاشرَها، وبوارقُ صفاحٍ كاشرَها، ومضائقُ رماحٍ حاشرَها، وأصنافُ خصومٍ لو قطَعَ جدالها قوَّى لسانَه، وجِلادُها سبَا سِنانَه[٢].

وجرَتْ له مع غازانَ وقطلوشاه وبولاي أمورٌ ونُوَبٌ، قامَ فيها كلِّها للهِ، وقالَ الحقَّ ولم يخشَ إلَّا اللهَ.

ولَمَّا قدِمَ بعد ذلكَ عامَ سبعَمئةٍ التَّتارُ مع غازانَ لفتحِ الشَّامِ والاستيلاءِ على مَن بها مِن المؤمنينَ، ركِبَ الشَّيخُ البريدَ إلى الجيشِ المصريِّ، فدخلَ القاهرةَ في ثامنِ يومٍ حاديَ عشرَ جمادى الأولى، فاجتمعَ بأركانِ الدَّولةِ وحرضَّهم على الجهادِ، وتلا عليهم الآياتِ والأحاديثَ، وأخبرَهم بما أعدَّ اللهُ للمجاهدينَ مِن الثَّوابِ فاستفاقُوا، وقويَتْ هممُهم، وأبدوا لهُ عذرَ المطرِ والبردِ، ونودِيَ بالغَزاةِ، وقويَ العزمُ، وعظَّمُوه وأكرَمُوه، وتردَّدَ الأعيانُ إلى زيارَتهِ، واجتمعَ به في هذه السَّنةِ ابنُ دقيقِ العيدِ[٣].

ثمَّ في اليومِ السَّابعِ والعشرينَ مِن جمادى الأولى المذكورِ، وصلَ الشَّيخُ إلى دمشقَ على البريدِ، وأرسلَ اللهُ على العدو مِن الثَّلجِ العظيمِ، والبردِ الشَّديدِ، والرِّيحِ العاصفِ، والجوعِ المزعجِ، ما اللهُ به عليمٌ، فأصابَ غازانَ وجنودَهُ وأهلكَهم، وكانَ سببَ رحيلِهم، وفرَّقَ اللهُ بينَ قلوبِ العدوِّ المُغْلِ والكرجِ والفرسِ والمستعرِبةِ،

---

(١) في (ج): «الوشيح». والوشيج: الرماح، واحدتها وشيجة. انظر: «السلاح» لأبي عبيد (ص١٩).

(٢) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٢).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص١٣٥).

وألقى بينَهم تعادِيًا وتباغُضًا، كما ألقَى سبحانَهُ عامَ الأحزابِ بينَ قريشٍ وغَطَفانَ وبينَ اليهودِ[1].

وأرسلَ الشَّيخُ كتابًا مطوَّلًا يقولُ فيهِ: لَمَّا ثبَّتَ اللهُ قلوبَ المسلمينَ صرفَ العدوَّ، وجزاءً منه بيانًا أنَّ النيَّةَ الخالصةَ والهمَّةَ الصَّادقةَ ينصرُ الله بها، وإنْ لم يقَعِ الفعلُ، وإنْ تباعدَتِ الدِّيارُ[2].

وحكِيَ مِن شجاعةِ الشَّيخِ في مواقفِ الحروبِ نوبةَ شَقْحَبٍ[3] سنةَ اثنتين وسبعِمئةٍ، ونوبةَ كسروان[4] ما لم يُسمَع إلَّا عن صناديدِ الرِّجالِ وشجعانِ الأبطالِ، فكانَ تارةً يباشرُ القتالَ، وتارةً يحرِّضُ عليهِ[5].

قائمًا بظهورِهِ وجهادِهِ شاكًّا في سلاحِهِ ولَأْمَةِ حربِه، يوصي النَّاسَ بالثَّباتِ، ويعدُهم بالنَّصرِ، ويبشِّرُهم بالغنيمةِ[6].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص١٨٧).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص١٨٧)، وانظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٤٦٣).

(٣) وقعة شقحب: معركة سنة (٧٠٢هـ) بين المغول في عهد محمود غازان، وبين المماليك في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان مقدم المغول قطلوشاه، وقتل فيها، وانهزم عسكر المغول. انظر: «كنز الدرر» للدوداري (٩/ ٨٢)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٢٩).
وشقحب: قرية جنوب غرب دمشق، قرب الكسوة وزاكية. انظر: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» لمحمد حسن شراب (ص٢٤٨).

(٤) وقعة كسروان: معركة بين نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم وبين أهل كسروان، سنة (٦٩٩هـ). انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٤). وكسروان حاليًا إحدى أقضية محافظة جبل لبنان الستة، ومركزه مدينة جونيه.

(٥) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠١).

(٦) انظر: «العقود الدرية» (ص١٩٣).

وركبَ البريدَ إلى مُهنَّا بن عيسَى[١] واستحضَرَه إلى الجهادِ.

وركِبَ بعدَها إلى السُّلطانِ واستنفَرَهُ، وواجهَهُ بالكلامِ الغليظِ، وواجَهَ أمراءَهُ وعسكَرَهُ.

ولَمَّا جاءَ السُّلطانُ الملكُ النَّاصِرُ[٢] بجيوشِ الإسلامِ إلى لقاءِ التَّتارِ وشقحبٍ، جعلَ الشَّيخُ يشجِّعُ السُّلطانَ ويُثبِّتُه، فلمَّا رأى السُّلطانُ كثرةَ التَّتارِ قالَ: يا خالدَ بنَ الوليدِ، فقالَ له: لا تقُلْ هذا، بل قُلْ: يا اللهُ! واستغِث باللهِ ربِّكَ، ووحِّدْه تُنصَرْ، وقُل: يا مالكَ يومِ الدِّينِ، إيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نستعِينُ[٣].

ثم صارَ تارةً يُقبِلُ على الخليفةِ وتارةً على السُّلطانِ ويهدِّئهما ويربِطُ جأشَهما، حتى جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ.

وحكِيَ أنَّه قالَ للسُّلطانِ: اثبُت فإنَّك منصورٌ، فقالَ له بعضُ الأمراءِ: قلْ: إنْ شاءَ اللهُ، فقالَ: إنْ شاءَ اللهُ تحقِيقًا لا تعلِيقًا، فكانَ كما قالَ[٤].

وحكى بعضُ حجَّابِ الأمراءِ قالَ: قال لي الشَّيخُ يومَ اللِّقاءِ وقد تراءَى الجَمْعان: يا فلانُ! أوقِفني موقِفَ الموتِ، قالَ: فسُقْتُه إلى مقابلةِ العدوِّ وهم

---

(١) الأمير سلطان العرب حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا، أمير العرب بالشام، كان كبير القدر محترمًا عند الملوك كلهم، بالشام ومصر والعراق، وكان ديِّنًا خيِّرًا متحيِّزًا للحق، وكان يحب الشيخ تقي ابن تيمية حبًّا زائدًا. مات في ذي القعدة سنة (٧٣٥هـ). انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٢٠٠)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٦/ ١٣٣).

(٢) الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، توفي سنة (٧٤١هـ). انظر: «العبر» للذهبي (٤/ ١٢٤)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ٢٣٣).

(٣) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠١).

(٤) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٢).

منحَدِرونَ كالسَّيلِ، تلوحُ أسلِحَتُهم مِن تحتِ الغُبارِ، وقلْتُ له: هذا موقفُ الموتِ، فدونَكَ وما تريدُ.

قال: فرفَعَ طرفَهُ إلى السَّماءِ، وأشخَصَ بصرَهُ، وحرَّكَ شفتَيهِ طويلًا، ثم انبعَثَ، وأقدَمَ على القتالِ، وقد خُيِّلَ لي أنَّه دعا عليهم، وأنَّ دعاءَهُ استُجيبَ منهُ في تلكَ السَّاعةِ، قالَ: ثم حالَ القتالُ بينَنا والالتحامُ، وما عدْتُ رأيتُه حتَّى فتحَ اللهُ ونصَرَ[١].

ودخلَ جيشُ الإسلامِ إلى دمشقَ المحروسةِ، والشيخُ في أصحابِه شاكًّا في سلاحِه، عاليةً كلمَتُه، قائمةً حجَّتُه، ظاهرةً ولايتُه، مقبولةً شفاعتُه، مجابةً دعوتُه، ملتمسةً بركتُه، مكرَّمًا معظَّمًا ذا سلطانٍ وكلمةٍ نافذةٍ، وهو معَ ذلك يقولُ للمادحِين له: أنا رجلُ مِلَّةٍ لا رجل دولةٍ[٢].

قالَ بعضُ أصحابِه ـ وقد ذكرَ هذه الواقعةَ وكثرةَ مَن حضرَها مِن جيوشِ المسلمِينَ ـ: وقد اتفقَت كلمةُ إجماعِهم على تعظيمِ الشَّيخِ تقي الدِّينِ، ومحبَّتِه، وسماعِ كلامِه ونصيحَتِه، واتَّعظُوا بمواعظِه، ولم يبقَ مِن ملوكِ الشامِ تركيٌّ ولا عربيٌّ إلَّا واجتمَعَ بالشَّيخِ في تلك المدَّةِ، واعتقَدَ خيرَهُ وصلاحَهُ، ونُصْحَهُ للهِ ولرسولِه والمؤمنينَ[٣].

ثم لم يزَلِ الشَّيخُ رحمَهُ الله قائمًا أتمَّ قيامٍ على قتالِ جبلِ كسروانَ، وكتبَ إلى أطرافِ الشَّامِ في الحثِّ على قتالِهم، وأنَّها غَزاةٌ في سبيلِ اللهِ، ثم توجَّهَ هو بمَنْ

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص١٩٤).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص١٩٣).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص١٩٢).

معَهُ لغزوِهم بالجبلِ صُحبتُه وليُّ الأمرِ[١] نائبُ المملكةِ، وما زالَ مع وليِّ الأمرِ في حصارِهم حتَّى فتَحَ اللهُ الجبَلَ وأجلَى أهلَهُ[٢].

وكانَ توجَّهَ الشَّيخُ إلى الكسروانيينَ أوَّلَ ذي الحجَّةِ سنةَ أربعٍ وسبعِمئةٍ، وردَّ على شيوخِ روافضِهم في دعواهُم عصمةَ عليٍّ، وقالَ: إنَّ عليًّا وعبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ اختلَفا في مسائلَ وقعَتْ وفتاوى أفتيا بها، وعُرِضَ ذلك على النَّبيِّ ﷺ فصوَّبَ فيها قولَ ابن مسعودٍ[٣].

ثم كتبَ الشَّيخُ للسُّلطانِ يخبرُه بأمرِ الفتحِ وعن عقائدِهم، وهي: أنَّهم يعتقِدُون كفرَ الصَّحابةِ، وكفرَ مَن ترضَّى عنهم، أو حرَّمَ المتعةَ، أو مسَحَ على الخُفَّين، ولا يقرونَ بصلاةٍ ولا صومٍ، ولا جنَّةٍ ولا نارٍ، ولا يحرِّمونَ الدَّمَ والميتةَ ولحمَ الخنزيرِ، ويشتملُونَ على إسماعيليَّةٍ ونُصَيريَّةٍ، وحاكميَّةٍ، وباطنيَّةٍ، وهم كفارٌ أكفَرُ مِن اليهودِ والنَّصارى.

ثم قالَ: وتمامُ هذا الفتحِ أمرَ السُّلطانُ بحسمِ مادَّةِ أهلِ الفسادِ مِن مشايخِهم الَّذين يُضلِّونَهم، ويتقدَّمُ إلى قراهُم بأعمالِ دمشقَ وصفدٍ وطرابُلسَ وحمصَ وحماةَ وحلبَ، بأن تُقامَ فيهم شرائعُ الإسلامِ الجمعةُ والجماعةُ وقراءةُ القرآنِ، وتكونَ لهم خطباءُ ومؤذِّنونَ، ويُقرأُ فيهم الأحاديثُ النَّبويَّةُ، وتُنشَرَ فيهم المعالمُ الإسلاميةُ، وأطالَ الكلامَ في كتابِه، وحرَّضَ السُّلطانَ على ذلكَ[٤].

---

(١) في (ج): «الأمراء»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص١٩٥).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص١٩٥).

(٤) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٠٨ ـ ٢٠٩).

وقالَ: إنَّ غزوَهُم اقتداءٌ بسيرةِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ في قتالِه للحروريَّةِ المارقِينَ، الَّذين تواترَ عن النَّبيِّ ﷺ الأمرُ بقتالِهم، ونعتُ حالِهم، وقالَ ﷺ فيهم: «يحقِرُ أحدُكم صلاتَهُ معَ صلاتِهم، وصيامَه معَ صيامِه، وقراءَته معَ قراءتهم، يقرؤون القرآنَ لا يجاوِزُ حناجِرَهم، يمرُقون من الإسلامِ كما يمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لئِنْ أدركتُهم لأقتُلنَّهم قتلَ عادٍ، لو يعلَمُ الَّذينَ يقاتِلُونَهم ماذا لهم علَى لسانِ محمَّدٍ لاتَّكلوا عَنِ العملِ، يَقْتُلونَ أهلَ الإسلامِ، ويَدَعُوْنَ أهلَ الأوثانِ، يقرؤونَ القرآنَ، يحسَبُونَ أنَّه لهم، وهوَ عليهِم، شرُّ قتلَى تحتَ أديمِ السَّماءِ، خيرُ قَتلى مَنْ قتَلوهُ»[1].

وكانَ رضي الله عنه قائمًا في نصرِ الدِّينِ، وإظهارِ الحقِّ بأدلَّةٍ أقطعَ مِن السُّيوفِ، وأجمعَ مِن السُّجُوفِ، وأجلَى مِن فَلَقِ الإصباحِ، وأجلَبَ مِن فِلَقِ الرِّماحِ.

إذا وثبَتْ في وَجْهِ خَطْبٌ تَمَزَّقَتْ على كَتِفَيْهِ الدِّرْعُ[2] وانْتَثَرَ السَّرْدُ[3]

ولقد نافَسَتْ[4] ملوكُ جنكِزخان عليهِ، ووجَّهَتْ دسائسَ رسُلِها إليه[5].

---

(١) هذا الحديث مجموع من عدة أحاديث: فروى البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أكثره نحوه. عدا قوله: «لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لاتكلوا عن العمل» وقوله: «يقرؤونَ القرآنَ، يحسَبُونَ أنَّه لهم، وهوَ عليهِم»، رواه مسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ قريب.

وقوله: «شرُّ قتلَى تحتَ أديمِ السَّماءِ، خيرُ قَتلى مَنْ قتَلوهُ»، رواه الترمذي (٣٠٠٠) وحسنه، وابن ماجه (١٧٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) في (ج): «الدروع».

(٣) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٤).

(٤) في (ج): «ناقشت»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٥) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٦).

ولَمَّا وشَوا به إلى السُّلطانِ الأعظمِ الملكِ النَّاصرِ لدينِ اللهِ وأحضرَهُ بين يديهِ، قالَ مِن جُمْلَةِ كلامِهِ: إنني أُخبِرتُ أنَّكَ قد أطاعَكَ النَّاسُ، وأنَّ في نفسِكَ أخذَ المُلكِ. فلم يكترِث بهِ، بل قالَ بنفسٍ مطمئنةٍ، وقلبٍ ثابتٍ، وصوتٍ عالٍ سمِعَهُ كثيرٌ ممَّن حضَرَ: أنا أفعلُ ذلكَ؟! واللهِ إنَّ ملكَكَ وملكَ المُغْلِ لا يساوِي عندي فلسَيْنِ. فتبسَّمَ السُّلطانُ لذلكَ، وأجابَه في مقابلَتِه بما أوقعَ اللهُ لهُ في قلبِه مِن الهيبةِ العظيمةِ: إنَّك واللهِ لصادقٌ، وإنَّ الَّذي وشَى بك إليَّ لكاذبٌ، واستقرَّ له في قلبِه مِن المحبَّةِ الدِّينيَّةِ ما لولاهُ لكانَ قد فتَكَ به منذُ دهرٍ طويلٍ؛ من كثرَةِ ما يُلقَى إليه في حقِّهِ مِن الأقاويلِ الزُّورِ والبُهتانِ، ممَّن ظاهِرُ حالِه العَدالَةُ، وباطنُهُ مَشحونٌ بالفسقِ والجهالَةِ[1].

* * *

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٢).

فصلٌ في تمسُّكِ ابن تيميةَ بالكتابِ والسنةِ

قالَ الشَّيخُ الإمامُ العالمُ العامِلُ الأوحَدُ الفاضلُ الحافظُ سراجُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمَرُ بنُ عليٍّ بن موسى البزَّارِ رحمَهُ اللهُ تعالى: كانَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ ابنُ تيميةَ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ مِن أعظَمِ أهلِ عصرِهِ قوَّةً ومقامًا، وثبوتًا على الحقِّ، وتقريرًا لِتَحقيقِ توحيدِ الحقِّ، لا يصدُّه عَن ذلكَ لومةُ لائمٍ، ولا قولُ قائلٍ، ولا يرجِعُ عنه بحجَّةِ محتجٍّ، بل كان إذا وضَحَ له الحقُّ يعضُّ عليه بالنَّواجذِ(١).

قالَ: وإذا نظرَ الـمُنْصِفُ إليهِ بعينِ العَدْلِ يراهُ واقفًا معَ الكتابِ والسُّنَّةِ، لا يميلُه عنها قولُ أحدٍ كائنًا مَن كانَ، ولا يراقبُ في الأخذِ بمعلومِها أحدًا، ولا يخافُ في ذلكَ أميرًا ولا سُلطانًا ولا سَوطًا ولا سَيفًا، ولا يرجِعُ عنها لقولِ أحدٍ، وهو متمسِّكٌ بالعُرْوةِ الوُثْقى، واليدِ الطُّولى، وعاملٌ بقولِه تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الآيةَ، وبقولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وما سمِعنا أنَّه اشتَهرَ عن أحدٍ منذُ دهرٍ طويلٍ ما اشتَهرَ عنهُ مِن كثرةِ المتابعةِ للكتابِ والسُّنَّةِ، والإمعانِ في تتبُّعِ معانيهما والعملِ بمقتضاهما، ولهذا لا يَرى في مسألةٍ أقوالَ العلماءِ، إلَّا وقد أفتَى بأبلَغِها موافقةً للكتابِ والسُّنَّةِ، وتحرَّى الأخذَ بأقوَمِها مِن جهةِ المنقولِ والمعقولِ(٢).

قالَ: وهذا أمرٌ قد اشْتَهرَ وظَهرَ، فإنَّه رضي الله عنهُ ليسَ له مؤلَّفٌ مصنَّفٌ،

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٥).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٩).

ولا نصَّ في مسألةٍ ولا أفتى، إلَّا وقدِ اختارَ فيهِ ما رجَّحهُ الدَّليلُ النَّقليُّ والعقليُّ على غيرِه، وتحرَّى قولَ الحقِّ المحضِ، وبرهَنَ عليهِ بالبراهينِ القاطعةِ الواضحَةِ الظَّاهرةِ، بحيثُ إذا سمِعَ ذلك ذو الفِطرةِ السَّليمةِ يثلجُ قلبُه عليها، ويجزِمُ بأنَّها الحقُّ المبينُ، وتراهُ في جميعِ مؤلَّفاتِه إذا صحَّ الحديثُ عندَهُ يأخذُ بهِ، ويعمَلُ بمقتضاهُ، ويقدِّمُه على قولِ كلِّ قائلٍ مِن عالمٍ ومجتهدٍ[1].

وقد سبقَهُ الإمامُ الشَّافعي رحمَه الله إلى ذلكَ، حيثُ قالَ: إذا صحَّ الحديثُ فهوَ مذهبي[2].

ولما منَّ اللهُ عليهِ بذلكَ، جعلَهُ حجَّةً في عصرِه لأهلِه، حتَّى إنَّ أهلَ البلادِ البعيدةِ كانوا يرسِلُونَ إليه بالاستفتاءِ عن وقائعِهم، ويعوِّلونَ عليهِ في كشفِ ما التبسَ عليهم حكمُهُ، فيشفِي غليلَهم بأجوبَتِهِ المسدَّدةِ، ويُبرهنُ على الحقِّ مِنْ أقوالِ العلماءِ المتعدِّدةِ، حتَّى إذا وقفَ عليها كلُّ محقٍّ ذي بصيرةٍ أذعَن بقَبولِها، وبانَ له حقُّ مدلولِها[3].

* * *

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٨).

(٢) رواه عنه ابن حبان في «صحيحه» بعد حديث (٢١٢٥). وانظر: «المجموع» للنووي (١/ ٦٣).

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٩).

فصلٌ في محنةِ ابن تيميةَ رحمَهُ اللهُ تعالى

وتمسُّكِه بطريقِ السَّلفِ

قَلَّ مَنْ أهلِ الفضلِ والدينِ في هذه الدُّنيا بلا محنةٍ وابتلاءٍ وخوضٍ فيهِ، حيثُ لم يُداهن الناسَ ويصانِعهم، وإلَّا قَلَّ صديقُه على حدِّ قولِه: ما ترَكَ الحقُّ مِنْ صديقٍ لِعُمَرَ[(١)].

وقالَ سفيانُ الثَّوريُّ رحمَه اللهُ: إذا رأيْتَ الرَّجُلَ يُثني عليهِ جيرانُه فاعلَم أنَّه مداهِنٌ[(٢)].

وما وقعَ مِنَ المحنةِ للأئمَّةِ كأبي حنيفَةَ ومالكٍ والشَّافعيِّ وأحمدَ والبخاريِّ مشهورٌ، كما بيَّنتُه في كتابِنا: «تنويرُ بصائرِ المقلِّدينَ في مناقبِ الأئمَّةِ المجتهدِينَ».

وأكثَروا مِن الخوضِ في أبي حنيفةَ رحمَهُ اللهُ، حتَّى إنَّه رُؤي بعدَ موتِه في المنامِ، فقيلَ لهُ: ما فعَلَ اللهُ بكَ؟ قالَ: غفَرَ لي بكلامِ النَّاسِ فيَّ ما ليسَ فيَّ.

هذا وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ امتُحِنَ بمِحَنٍ، وخاضَ فيه أقوامٌ، ونسبُوهُ للبِدَعِ والتَّجسيمِ، وهوَ مِن ذلك بريءٌ.

فأوَّلُ محنَتِهِ كما نَقَلَ الثِّقاتُ في شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ، سنةَ ثمانٍ وتسعينَ وستِّمئةٍ، بسببِ عقيدَتِه «الحمويَّةِ الكُبرى»، وهي جوابُ سؤالٍ وردَ مِن حماةَ، فوضَعها ما

---

(١) يروى نحوه مرفوعًا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولفظه: «رحم الله عمر، يقول الحق وإن كان مرًّا، تركه الحق وما له صديق»، رواه الترمذي (٣٧١٤)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ١٢٣)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٧٨).

بينَ الظُّهرِ والعصرِ في ستِّ كراريسَ بقطعِ نصفِ البلَدِيِّ[1]، فجرى لهُ بسببِ تأليفِها أمورٌ ومحَنٌ، رجَّحَ مذهبَ السَّلفِ على مذهبِ المتكلِّمينَ، وشنَّعَ عليهم.

فمِن بعضِ قولِه في مقدِّمَتِها: ما قالَهُ اللهُ سبحانَهُ وتَعالى ورسولُه ﷺ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وما قالَهُ أئمَّةُ الهدى بعدَ هؤلاءِ الَّذينَ أجمعَ المسلمونَ على هِدايتِهم ودرايتِهم، هو الواجبُ على جميعِ الخلقِ في هذا البابِ، وفي غيرِه.

ومِنَ المحالِ أن يكونَ خيرُ أمَّتِه قدوتُها قصَّروا في هذا البابِ، زائدين فيهِ أو ناقصِينَ عنهُ.

ثمَّ مِن المحالِ أيضًا أن تكونَ القُرونُ الفاضلةُ كانوا غيرَ عالمينَ، وغيرَ قائلِينَ في هذا البابِ بالحقِّ المبينِ، فلا يجوزُ أن يكونَ الخلَفُ أعلَمَ مِن السالِفِينَ، كما يقولُهُ بعضُ الأغبياءِ ـ ممَّنْ لم يَقْدُرْ قَدْرَ السَّلفِ، بل ولا عرَفَ اللهَ ورسولَهُ والمؤمنينَ بهِ حقيقةَ المعرفةِ ـ: مِن أنَّ طريقَةَ السَّلفِ هي مجرَّدُ الإيمانِ بألفاظِ القرآنِ والحديثِ مِن غيرِ فِقْهٍ لذلكَ، بمنزلةِ الأمِّيِّينَ، وأنَّ طريقةَ الخلفِ هي استخراجُ معاني النُّصوصِ المصروفَةِ عَن حقائقِها بأنواعِ المجازاتِ، وغرائبِ اللُّغاتِ.

فهذا الظنُّ الفاسدُ أوجَبَ اعتقادَ أنَّهم كانوا أُمِّيِّينَ، بمنزلَةِ الصَّالحينَ مِن العامَّةِ، لم يتبَحَّروا في حقائقِ العلمِ باللهِ، ولم يتفطَّنوا لدقيقِ العلمِ الإلهيِّ، وأنَّ الخلفَ الفضلاءَ حازُوا قَصَبَ السَّبقِ في هذا كلِّهِ.

وهذا القولُ إذا تدبَّرَهُ الإنسانُ وجدَهُ في غايةِ الجهالةِ، بلْ في غايةِ الضَّلالةِ، كيفَ يكونُ هؤلاء المتأخرونَ ـ لا سيَّما والإشارةُ بالخلَفِ إلى ضربٍ مِن المتكلِّمينَ

---

(١) مقياس ورق معروف عندهم.

الذين كبُرَ في بابِ الدِّينِ اضطرابُهم، وغلظَ عنْ معرفةِ اللهِ حجابُهم، وأخبرَ[١] الواقفُ على نهاياتِ إقدامِهم[٢] بما انتهى إليهِ مِن أمرهم[٣]، حيثُ يقولُ:

لعَمرِي لقَد طُفْتُ المعَاهِدَ كلَّها ... وسيَّرتُ طَرفي بينَ تلكَ المعَالِمِ

فلَمْ أرَ إلَّا واضِعًا كفَّ حَائرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أو قارِعًا سِنَّ نادِمِ[٤]

وأقرُّوا على أنفسِهم بما قالُوه، متمثِّلينَ بهِ، أو منشِئِينَ لهُ فِيْما[٥] صنَّفوهُ، كقولِ بعضِ رؤسائِهم[٦]:

---

(١) في (ج): «وأخبروا»، والمثبت من «الفتوى الحموية».

(٢) يشير إلى الشهرستاني فإنه ذكر هذين البيتين في مقدمة كتابه «نهاية الإقدام» (ص٧)، وقد نسبهما إليه صراحة في أكثر من موضع في كتبه، منها: «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٥٩)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٧٣).

(٣) في «الفتوى الحموية»: «مرامهم».

(٤) اختلف في نسبة البيتين، فنسبا لابن سينا كما في «أمالي ابن سمعون» (٢/ ٢٤)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ١٦١)، ونسبا لابن الصائغ الأندلسي محمد بن باجة. كما في «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٢٧٤)، ونسبا للشهرستاني كما في «آثار البلاد وأخبار العباد» للقزويني (ص٣٩٨)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص٢٢٨)، و«إيثار الحق» لابن الوزير (ص١٤٠). وهما في «ديوان الأبيوردي» محمد بن أحمد القرشي الأموي المتوفى سنة (٥٥٧هـ).
وجاء الشطر الأول في أغلب هذه المصادر:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها

(٥) «صنفوه» من «الفتوى الحموية».

(٦) يقصد الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي، المتوفى سنة (٦٠٦هـ)، كما صرح باسمه ابن تيمية في أكثر من موضع من كتبه، منها: «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٦٠)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٧٣). والأبيات نسبت له في «طبقات الفقهاء» للشيرازي (ص٢٦٣)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٢٥٠).

نهايَـةُ إقْـدَامِ العُقُـولِ عِقَـالُ ... وأكثَـرُ سَـعيِ العَالَـمِينَ ضَـلالُ
وأرواحُنَـا فـي وَحشَـةٍ مِن جُسُـومِنَا ... وحَاصِـلُ دُنيانـا أذىً ووَبـالُ
ولـمْ نَسـتَفِد مِـن بحْثِنَـا طُـولَ عُمرِنا ... سِـوى أن جَمعْنـا فيـهِ قيـلَ وقـالُ

لقد تأمَّلْتُ الطُّرُقَ الكلاميَّةَ، والمناهِجَ الفلسفيَّةِ، فما رأيتُها تشفي عليلًا[1]، ولا تروي غليلًا، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقةَ القرآنِ، اقرأ في الإثباتِ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، واقرأ في النَّفيِ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

قالَ: ومن جرَّبَ مثلَ تجرِبَتي عرفَ مثلَ مَعرِفتي.

ويقولُ الآخرُ منهم[2]: لقد خضْتُ البحرَ الخِضَمَّ، وتركْتُ أهلَ الإسلامِ وعلومَهم، وخُضْتُ في الَّذي نهوني عنهُ، والآن إن لم يتدارَكني ربي برحمَتهِ فالويلُ لفلانٍ، وها أنذا أموتُ على عقيدَةِ أمِّي.

ويقولُ الآخرُ منهم[3]: أكثرُ النَّاسِ شكًّا عندَ الموتِ أصحابُ الكلامِ.

ثم هؤلاءِ المتكلِّمونَ المخالفونَ للسَّلفِ إذا حُقِّقَ عليهم الأمرُ لم يوجَد

---

(١) «عليلًا» من «الفتوى الحموية».

(٢) هو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني. انظر: «المنتظم» (١٦/ ٢٤٥)، و«تلبيس إبليس» (ص١٠٤) كلاهما لابن الجوزي.
وقد صرح باسمه ابن تيمية في «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٦١٦)، و«بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٤٠٧)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٧٣)، و«منهاج السنة النبوية» (٥/ ٢٦٩).

(٣) هو أبو حامد الغزالي، كما صرح باسمه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨)، و«نقض المنطق» (ص٢٥).

عندَهم مِن حقيقةِ العلمِ باللهِ، وخالصِ معرفَتِه خبرٌ، ولم يقعوا مِن ذلكَ على عينٍ ولا أثرٍ، كيفَ يكونُ هؤلاء المحجوبونَ المنقوصونَ المسبوقونَ المفضولونَ الحيارَى أعلَمَ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأحكَمَ من بابِ ذاتِهِ وآياتِهِ مِن السَّابقينَ الأوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، والذين اتبعوهُم بإحسانٍ مِن ورثَةِ الأنبياءِ، وخُلفاءِ الرُّسلِ، وأعلامِ الهُدَى، ومصابيحِ الدُّجى، الَّذين بهم قامَ الكتابُ، وبِهِ قاموا، وبهم نطقَ الكتابُ وبِهِ نطَقوا، الَّذين وهبَهم اللهُ مِن العلمِ والحكمةِ، وأحاطوا مِن حقائقِ المعارفِ، وبواطِنِ الحقائقِ بما لو جُمِعَتِ حكمةُ غيرِهم إليها لاستحيى مَنْ يطلُبُ المقابلةَ؟!

ثم كيفَ يكونُ خيرُ قرونِ الأمَّةِ أنقصَ في العلمِ والحكمةِ، لا سيَّما العلمِ باللهِ وأحكامِ أسمائِه وآياتِهِ مِن هؤلاءِ الأصاغرِ بالنِّسبةِ إليهم؟!

أم كيفَ يكونُ أفواجُ[1] المتفلسِفَةِ وأتباعُ الهندِ واليونانِ، وورثَةُ المجوسِ والمشرِكينَ، وضلَّالِ اليهودِ والنَّصارى والصَّابئينَ وأشكالِهم وأشباهِهم أعلَمَ باللهِ مِن ورثةِ الأنبياءِ وأهلِ القُرآنِ والإيمانِ؟!

وإنَّما قدَّمْتُ هذهِ المقدِّمةِ لأنَّ مَنِ استقرَّتْ عندَهُ عَلِمُ طريقَ الهدى أينَ هوَ في هذا البابِ وغيرِه؟ وأطالَ الكلامَ[2].

ثم قالَ: إنْ كانَ الحقُّ فيما يقولُ هؤلاءِ السَّالبونَ النَّافونَ للصِّفاتِ الثَّابتةِ بالكتابِ والسُّنَّةِ، دونَ ما يُفهَمُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ، إمَّا نصًّا وإمَّا ظاهرًا، فكيفَ يجوزُ على اللهِ تعالى ثم على رسولِه، ثم على خيرِ الأمَّةِ أنَّهم يتكلَّمونَ دائمًا بما هو نصٌّ أو ظاهرٌ

---

(١) في (ج): «أفواج»، والمثبت من «الفتوى الحموية».

(٢) انظر: «الفتوى الحموية الكبرى» (ص١٧٧ ـ ٢٠٢).

في خلافِ الحقِّ، ثم الحقُّ الذي يجِبُ اعتقادُه لا يبوحونَ بِهِ قط، ولا يدلُّونَ عليهِ لا نصًّا ولا ظاهِرًا حتى يجيءَ أنباطُ الفرسِ والرُّومِ وفُرُوخُ اليهودِ والفلاسفةِ يبيِّنونَ للأمَّةِ العقيدةَ الصَّحيحةَ، فإنَّ كانَ الحقُّ ما يقولُهُ هؤلاءِ المتكلِّمونَ المتكلِّفونَ لقد كانَ تَرْكُ النَّاسِ بلا كتابٍ ولا سُنَّةٍ أهدى لهم وأنفعَ، بل كانَ وجودُ الكتابِ والسُّنَّةِ ضررًا محضًا في أصلِ الدِّينِ! فإنَّ حقيقةَ الأمرِ على ما يقولُهُ هؤلاءِ: إنَّكم يا معشَرَ العبادِ لا تطلُبونَ معرفةَ اللهِ وما يستحقُّهُ مِن الصِّفاتِ نفيًا وإثباتًا، لا مِن الكتابِ ولا مِن السُّنَّةِ، ولا[1] مِن طريقِ سلَفِ الأمَّةِ، ولكن انظُروا أنتُم، فما وجدتمُوهُ مُستحِقًا له مِن الصِّفاتِ في عقولِكم فصِفُوه بِهِ، سواءٌ كانَ موجودًا في الكتابِ والسُّنَّةِ أو لم يكُن، وما لم تجِدُوه مُستحِقًا له في عقولِكُم فلا تصِفُوه بِهِ[2].

وقد صرَّحَ طائفةٌ منهم بما مضمُونهُ: أنَّ كتابَ اللهِ لا يُهْتَدَى به في معرفةِ اللهِ، وأنَّ الرَّسولَ معزولٌ عن التَّعليمِ والإخبارِ بصفاتِ مَن أرسلَهُ. وأطالَ الكلامَ.

ثم قالَ: يا سبحانَ اللهِ! كيفَ لم يقلِ الرَّسولُ يومًا مِن الدَّهرِ، ولا أحدٌ مِن سلَفِ الأمَّةِ: هذه الآياتُ والأحاديثُ لا تعتقِدوا ما دلَّت عليهِ، ولكِنِ اعتقِدوا الَّذي تقتَضِيه مقاييسُكُم.

ثم الرَّسولُ أخبرَ أنَّ أُمَّتَهُ ستفتَرِق ثلاثًا وسبعينَ فرقةً[3]، فقدْ علِمَ ما سيكُونُ، ثم قالَ: «إني تارِكٌ فيكم ما تمسَّكتُم به لن تضِلُّوا؛ كتابَ اللهِ»[4].

---

(١) «لا» من «الفتوى الحموية».

(٢) انظر: «الفتوى الحموية الكبرى» (ص٢٢١ ـ ٢٢٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

وقالَ في صفةِ الفرقةِ النَّاجيةِ: «هو مَن كانَ على مثلِ ما أنا عليهِ اليومَ، وأصحابي»[١].

فهل قالَ: إنَّما الهُدى رجوعُكم إلى مقاييسِ عُقولِكُم، وما يحدِثُهُ المتكلِّمونَ منكُم بعدَ القرونِ الثَّلاثةِ! وإنْ كانَ قد نَبَغَ[٢] أصلُ هذهِ المقالةِ في أواخرِ عصرِ التَّابعينَ.

ثم أصلُ مقالةِ التَّعطيلِ للصِّفات، إنَّما هوَ مأخوذٌ عن تلامذةِ اليهودِ والنَّصارى، فإنَّ أوَّلَ مَنْ قالَها في الإسلامِ: الجعدُ بنُ دِرهَم، وأخذَها عنه جَهْمُ بنُ صفوانَ، والجعدُ أخذَ مقالتَهُ عن أبانَ بن سمعانَ، وأبانُ عن طالوتَ، وطالوتُ عن خالِهِ لبيدِ بن الأعصَمِ اليهوديِّ السَّاحرِ، الَّذي سحَرَ النَّبيَّ ﷺ[٣].

قالَ: ثم القولُ الشَّاملُ في جميعِ هذا البابِ: أنْ يُوْصَفَ اللهُ بما وَصَفَ به نفسَهُ، أو وَصفَهُ بِهِ رسولُهُ، وبما وَصفَهُ به السَّابقونَ الأوَّلونَ، لا نتجاوزُ القرآنَ والحديثَ.

ومذهبُ السَّلفِ أنهم يصِفونَ اللهَ بما وصفَ به نفسَه وبما وصفَه به رسولُه من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، من غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ[٤].

ثم ذكرَ الشيخُ رحمَهُ اللهُ جمَلًا نافعةً، وأصولًا جامعةً في إثباتِ الصِّفاتِ، والردِّ على الجهميَّةِ، وذكرَ مِن النُّقُولِ عن سلفِ الأمَّةِ ما يطولُ ذِكْرُهُ.

---

(١) روى نحوه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه.

(٢) في (ج): «تبع»، وفي (ط): «نبع»، والمثبت من «الفتوى الحموية».

(٣) انظر: «الفتوى الحموية الكبرى» (ص٢٢٨ ـ ٢٣٥).

(٤) انظر: «الفتوى الحموية الكبرى» (ص٢٦٥).

ثم قالَ في آخرِ كلامِهِ: وجِماعُ الأمرِ أنَّ الأقسامَ الممكنةَ في آياتِ الصِّفاتِ وأحادِيثِها ستَّةُ أقسامٍ، كلُّ قسمٍ عليهِ طائفةٌ مِن أهلِ القِبلةِ:

قسمانِ يقولونَ: تُجرَى على ظواهرِها.

وقسمانِ يقولونَ: هي[1] على خلافِ ظواهرِها.

وقسمانِ يسكُتونَ.

أمَّا الأوَّلونَ فقسمانِ:

أحدُهما: مَن يجرِيها على ظاهرِها مِن جنسِ صفاتِ المخلوقِينَ، فهؤلاءِ المشبِّهةُ، ومذهبُهم باطلٌ أنكرَهُ السَّلفُ، وإليهم توجَّهَ الردُّ بالحقِّ.

الثَّاني: مَن يجرِيها على ظاهرِها الَّلائقِ بجلالِ اللهِ تعالى، كما يُجرِي اسمَ العليمِ والقديرِ والرَّبِّ والإلهِ والموجودِ والذَّاتِ ونحوِ ذلكَ على ظاهرِه الَّلائقِ بجلالِ اللهِ تعالى، فإنَّ ظواهرَ هذهِ الصِّفاتِ في حقِّ المخلوقِينَ إمَّا جوهرٌ محدَثٌ، وإمَّا عرَضٌ قائمٌ بهِ.

فالعِلمُ والقدرَةُ والكلامُ والمشيئةُ والرَّحمةُ والرِّضَا والغضبُ ونحوُ ذلكَ في حقِّ العبدِ أعراضٌ، والوجهُ واليدُ والعينُ في حقِّهِ أجسامٌ، فإذا كانَ اللهُ تعالى موصوفًا عندَ عامَّةِ أهلِ الإثباتِ بأنَّ له عِلْمًا وقُدْرةً وكلامًا ومشيئةً، وإن لم تكُن أعراضًا يجوزُ عليها ما يجوزُ على صفاتِ المخلوقِينَ، فكذلكَ الوجهُ واليدُ والعينُ صفاتٌ له تَعالى لا كصفاتِ المخلوقينَ.

وهذا هو المذهَبُ الذي حكاهُ الخطَّابيُّ وغيرُه عن السَّلفِ، وعليهِ يدلُّ كلامُ جمهورِهم، وكلامُ الباقينَ لا يخالِفُه، وهو أمرٌ واضِحٌ، فإنَّ الصِّفاتِ كالذَّاتِ، فكما

---

(١) «هي» من «الفتوى الحموية».

أنَّ ذاتَ اللهِ ثابتةٌ حقيقةً مِن غيرِ أن تكونَ مِن جنسِ ذواتِ المخلوقِينَ فكذلكَ صفاتُه ثابتةٌ مِن غيرِ أن تكونَ مِن جنسِ صفاتِ المخلوقِينَ.

فمَنْ قالَ: لا أعقِلُ علمًا ويدًا إلَّا مِن جنسِ العلمِ واليدِ المعهودَتينِ.

قيلَ لهُ: فكيفَ تعقِلُ ذاتًا من غيرِ جنسِ ذواتِ المخلوقِينَ.

ومِنَ المعلومِ أنَّ صفاتِ كلِّ موصوفٍ تُناسِبُ ذاتهُ وتلائِمُ حقيقتَهُ، فمَنْ لم يفهَم مِن صفاتِ الربِّ الَّذي ليسَ كمثلِه شيءٌ إلَّا ما يُناسِبُ المخلوقَ فقد ضلَّ في عقلِهِ ودينِهِ.

وما أحسَنَ ما قالَ بعضُهم: إذا قالَ لك الجهميُّ: كيفَ استوى؟ أو كيفَ ينزِلُ إلى سماءِ الدُّنيا؟ أو كيفَ يداهُ؟ ونحوِ ذلكَ.

فقل له: كيفَ هو في نفسِه؟

فإذا قالَ: لا يعلَمُ ما هو إلَّا هوَ، وكُنْهُ الباري غيرُ معلومٍ للبشرِ.

فقلْ لهُ: فالعلمُ بكيفيَّةِ الصِّفةِ يستلزِمُ العلمَ بكيفيَّةِ الموصوفِ، فكيفَ يمكِنُ أن تعلَمَ كيفيَّةَ صفةٍ لموصوفٍ لم تعلَم كيفيَّتَهُ، وإنَّما تُعلَمُ الذَّاتُ والصِّفاتُ مِن حيثُ الجملةُ على الوجهِ الَّذي ينبَغي لَه(١).

بل هذهِ المخلوقاتُ في الجنَّةِ قد ثبتَ عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّه قالَ: ليسَ في الدُّنيا ممَّا في الجنَّةِ إلَّا الأسماءُ(٢).

وقد أخبرَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

---

(١) في (ج): «لك»، والمثبت من «الفتوى الحموية».

(٢) رواه هناد بن السري في «الزهد» (٨)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٣٩٢).

فإذا كانَ نعيمُ الجنَّةِ ـ وهو خلقٌ من خلقِ اللهِ كذلك ـ فمَا الظنُّ بالخالقِ سُبحانَهُ.

وهذهِ الرُّوحُ قد علِمَ العاقلُ اضطرابَ النَّاسِ فيها، وإمساكَ النُّصوصِ عن بيانِ كيفيَّتِها، أفلا يعتبرُ العاقِلُ بها[1] عن الكلامِ في كيفيَّةِ اللهِ تعالى؟

مع أنَّا نقطَعُ بأنَّ الرُّوحَ في البدنِ، وأنَّها تخرُجُ منه، وتعرُجُ إلى السَّماءِ، وأنَّها تُسَلُّ منهُ وقتَ النَّزْعِ، كما نطقَتْ بذلكَ النُّصوصُ الصَّحيحةُ، لا نغالي في تجريدِها غلوَّ المتفلسِفةِ، ومَن وافقَهم؛ حيثُ نفَوا عنها الصُّعودَ والنُّزولَ، والاتِّصالَ بالبدنِ والانفصالَ عنهُ، وتخبَّطوا فيها حيثُ رأوها مِن غيرِ جنسِ البدنِ وصفاتِهِ، فعدَمُ مماثلَتِها للبدنِ لا ينفِي أن تكونَ هذه الصِّفاتُ ثابتةً لها بحسبِها.

وأمَّا القسمانِ اللَّذانِ يقولون: هي على خلافِ ظواهِرِها، فقسمانِ:

قسمٌ يتأولُّونها، ويعيِّنونَ المرادَ، مثلُ قولهم: ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ بمعنى: استولى؛ أو بمعنى: علوِّ المكانةِ والقُدرةِ؛ أو بمعنى: ظهورِ نورِهِ للعرشِ؛ أو بمعنى: انتهاءِ الخلقِ إليهِ؛ إلى غيرِ ذلكَ مِن معاني المتكلِّفينَ.

وقسمٌ يقولونَ: اللهُ أعلَمُ بما أرادَ بها؛ لكنَّا نعلَمُ أنَّه لم يرِد بها إثباتَ صفةٍ خارجةٍ عمَّا علمناه.

وأمَّا القسمانِ الواقفانِ:

فقسمٌ يقولونَ: يجوزُ أن يكونَ المرادُ ظاهِرَها اللَّائقَ باللهِ تعالى، ويجوزُ أن لا يكونَ صفةً للهِ، وهذهِ طريقةُ كثيرٍ من الفقهاءِ وغيرِهم.

وقسمٌ يمسكُونَ عن هذا كلِّهِ، ولا يزيدُونَ على تلاوةِ القرآنِ وقراءةِ الحديثِ، مُعرِضين بقلوبهم وألسنَتِهم عنْ هذه التَّقديراتِ.

---

(١) «بها» من «الفتوى الحموية».

فهذهِ الأقسامُ السِّتَّةِ لا يمكِنُ أن يخرُجَ الرَّجلُ عن قسمٍ منها.

والصَّوابُ في كثيرٍ مِن آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثِها القَطعُ بالطَّريقةِ الثَّانيةِ[1].

ثم قالَ: فأمَّا المتوسِّطُ مِن المتكلِّمينَ: فيُخافُ عليه ما لا يُخافُ على مَن لم يدخُل فيهِ، وعلى مَن قد أنهاهُ نهايته، فإنَّ مَن لم يدخُل فيهِ هو في عافيةٍ، ومَن أنهاهُ فقد عرَفَ الغايةَ، فما بقيَ يَخافُ مِن شيءٍ آخرَ، فإذا ظهرَ له الحقُّ وهو عطشانُ اطمأنَّ إليهِ قلبُه.

وأمَّا المتوسِّطُ فمتوهِّمٌ بما تلقَّاهُ مِن المقالاتِ المأخوذَةِ تقليدًا، وقد قالَ النَّاسُ: أكثَرُ ما يفسِدُ الدُّنيا: نصفُ متكلِّمٍ، ونصفُ متفقِّهٍ، ونصفُ متطبِّبٍ، ونصفُ نحويٍّ؛ هذا يفسِدُ الأديانَ، وهذا يفسِدُ البلدانَ، وهذا يفسِدُ الأبدانَ، وهذا يفسِدُ اللِّسانَ.

ومن علِمَ أنَّ المتكلِّمينَ مِن المتفلسفَةِ وغيرِهم في الغالبِ في ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨-٩]، يعلَمُ الذَّكِيُّ منهم العاقلُ: أنَّه ليسَ هو فيما يقولهُ على بصيرةٍ، وأنَّ حجَّتهُ ليسَتْ بيِّنةً، وإنَّما هي كما قيلَ فيها:

حُجَجٌ تهافَتُ كالزُّجَاجِ تَخَالُها حَقًّا وكلُّ كاسِرٍ مكسُورُ[2]

ويعلَمُ البصيرُ العالمُ أنَّهم مِن وجهٍ مستحقُّونَ ما قالَ الشَّافعيُّ رضي الله تعالى عنه حيثُ قالَ: حكمِي في أهلِ الكلامِ أن يُضرَبوا بالجريدِ والنِّعالِ،

---

(١) انظر: «الفتاوى الحموية الكبرى» (ص٥٤١-٥٥١).

(٢) البيت بلا نسبة في «الغنية عن الكلام» للخطابي (ص٤١)، و«الانتصار لأهل الحديث» لأبي المظفر السمعاني (ص٧٢)، و«الأنساب» لأبي سعيد السمعاني (٣/ ٣٨٨).

ويُطافَ بهم في القبائلِ والعشائرِ، ويُقالَ: هذا جزاءُ مَنْ تركَ الكتابَ والسنةَ، وأقبَلَ على الكلامِ(١).

ومِن وجهٍ آخرَ إذا نظرْتَ إليهم بعينِ القَدَرِ ـ والحيرةُ مستوليةٌ عليهم، والشَّيطانُ مُستحوِذٌ عليهم ـ رحمْتَهم ورققْتَ لهم، أُوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأعطوا فُهومًا وما أعطوا عُلومًا، وأعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدةً، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ومَن كانَ عالمًا بهذِه الأمورِ تبيَّنَ لهُ بذلكَ حِذْقُ السَّلَفِ وعلمُهم وخبرَتُهم، حيثُ حذَّروا عن الكلامِ ونَهوا عنه، وذمُّوا أهلَه وعابُوهم، وعلِمَ أنَّ مَنِ ابتغَى الهدى في غيرِ الكتابِ والسُّنَّةِ لم يزدَدْ إلَّا بُعدًا.

فنسألُ اللهَ العظيمَ: أنْ يهدِيَنا الصِّراطَ المستقيمَ، صراطَ الَّذين أنعمَ عليهِم، غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالين، آمينَ(٢).

هذا آخرُ «الحمويَّةِ الكُبرى» ألَّفَها الشَّيخُ رحمهُ اللهُ وعمرُه دون الأربعينَ سنةً، ثم انفتَحَ له بعد ذلكَ مِن الردِّ على الفلاسفةِ والجهميَّةِ وسائرِ أهلِ الأهواءِ والبِدَعِ ما لا يوصَفُ ولا يعبَّرُ عنه، وجرى له مِن المناظراتِ العجيبةِ والمباحثاتِ الدقيقةِ

---

(١) رواه الجرجاني في «تاريخ جرجان» (ص١٣٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١١٦)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص٧٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٧٩٤).

(٢) انظر: «الفتاوى الحموية الكبرى» (ص٥٥٤ ـ ٥٥٦).

مع أقرانِه وغيرِهم في سائرِ أنواعِ العلومِ ما تضيقُ عنه العبارةُ، ولا يُعرَفُ[1] أنه ناظَرَ أحدًا فانقطَعَ معَهُ[2].

قالَ الحافظُ الذَّهبيُّ في أثناءِ كلامِهِ في ترجمةِ الشَّيخِ ابن تيميةَ: ولَمَّا صنَّفَ «المسألةَ الحمويَّةَ» في الصِّفاتِ، سنةَ ثمانٍ وتسعينَ، تحزَّبوا له، وآلَ بهم الأمرُ إلى أن طافوا بها على قصبةٍ مِن جهةِ القاضي الحنفيِّ، ونودِيَ عليه: بأن لا يُستَفتى، ثم قامَ بنُصرَتِه طائفةٌ آخرونَ، وسلَّمَ اللهُ.

فلمَّا كانَ سنة خمسٍ وسبعِ مئةٍ جاءَ الأمرُ مِن مصرَ: بأن يُسأَلَ عَن معتقَدِهِ، فجُمِعَ له القضاةُ والعلماءُ بمجلسِ نائبِ دمشقَ الأفرمِ، ثم وقعَ الاتِّفاقُ على أنَّ هذا المعتقَدَ سلفيٌّ جيِّدٌ، انتهى[3].

وقالَ الشَّيخُ عَلَمُ الدِّينِ: وفي شهرِ ربيعِ الأوَّلِ مِن سنةَ ثمانٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ، وقعَ بدمشقَ محنةٌ للشَّيخِ الإمامِ تقيِّ الدِّينِ ابن تيميةَ، وكانَ الشُّروعُ فيها مِن أوَّلِ الشَّهرِ، واستمرَّت إلى آخرِ الشَّهرِ.

وملخَّصُها: أنَّه كتبَ جوابًا سُئلَ عنه مِن حماةَ في الصِّفاتِ، فذَكَرَ فيهِ مذهبَ السَّلَفِ ورجَّحهُ على مذهبِ المتكلِّمين، وكان قبل ذلكَ بقليلٍ أنكرَ أمرَ المنجِّمينَ، واجتمعَ به سيفُ الدِّينِ جاغان[4] في حالِ نيابتِهِ بدمشقَ وقيامِه مقامَ نائب السَّلطنَةِ،

---

(١) «ولا يعرف» من «العقود الدرية».

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص١١١).

(٣) انظر: «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» للذهبي (ص٣٩).

(٤) سيف الدين جاغان، الأمير الكبير، كان مملوك السلطان حسام الدين لاجين المنصور، كان فيه دين وعقل، توفي في أرض البلقان سنة (٦٦٩هـ). انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٩٠٢)، و«أعيان العصر» للصفدي (٢/ ١٥٠).

وامتثَلَ أمرَهُ، وقَبِلَ قولَهُ، والتمَسَ منه كثرةَ الاجتماعِ به، فحصَلَ بسببِ ذلكَ ضيقٌ لجماعةٍ، معَ ما كان عندَهم قبلَ ذلك مِن كراهيةِ الشَّيخِ، وتألُّمهم لظُهورِه وذكرِه الحسَنِ، فانضافَ شيءٌ إلى أشياءَ، ولم يجدُوا مساغًا إلى الكلامِ فيه لزهدِهِ، وعدمِ إقبالِه على الدُّنيا، وتركِ المزاحمَةِ على المناصبِ، وكثرةِ علمِهِ، وجودَةِ أجوبَتِه وفتاويهِ، وما يظهَرُ فيها مِن غزارةِ العلمِ وجودَةِ الفهمِ، فعمَدُوا إلى الكلامِ في العقيدةِ؛ لكونهم يرجِّحونَ مذهبَ المتكلِّمينَ في الصِّفاتِ والقرآنِ على مذهَبِ السَّلفِ، ويعتقِدُونَه[1] الصَّوابَ.

فأخذُوا الجوابَ الَّذي كتَبَهُ، ثم سعَوا السَّعي الشَّديدَ إلى القضاةِ والفقهاءِ واحِدًا واحِدًا، وأغرَوا خواطِرَهم، وحرَّفوا الكلامَ، وكذَّبوا الكذبَ الفاحشَ، وجعلوهُ يقولُ بالتَّجسيمِ، وحاشاهُ من ذلكَ، ووافقَهم على ذلكَ جلالُ الدِّينِ الحنفيُّ، قاضي الحنفيَّةِ يومئذٍ، ومشى معهُم إلى دارِ الحديثِ الأشرفيَّةِ، وطلبَ حضورَهُ، فأرسَلَ إليه فلم يحضُر.

وأرسلَ إليه في الجوابِ: إنَّ العقائدَ ليسَ أمرُها إليكَ، وإنَّ السُّلطانَ إنَّما ولَّاكَ لتحكُمَ بينَ النَّاسِ، وإنَّ إنكارَ المنكراتِ ليسَ ممَّا يختصُّ به القاضِي.

فوصلَت إليهِ هذه الرِّسالةُ، فأوغرُوا خاطرَه، وشوَّشوا قلبَه وقالوا: لم يحضُرْ، وردَّ عليكَ!

فأمرَ بالنِّداءِ على بطلانِ عقيدَتهِ في البلدةِ، فنودي في بعضِ البَلَدِ، ثم بادَرَ سيفُ الدِّينِ جاغانُ وأرسَلَ طائفةً، فضُرِبَ المنادي وجماعةٌ ممَّن حولَه، وأخرقَ بهم، فرجعوا مضروبِينَ في غايةِ الإهانةِ.

---

(١) في (ح): «يعتقدون»، والمثبت من «العقود الدرية».

ثـم طلَبَ سـيفُ الدِّينِ مَن قامَ في ذلك، وسـعى فيـه، فدارَتِ الرُّسـلُ والأعوانُ عليهم في البلـدِ فاختفَوا.

ثم اجتمَعَ الشَّيخُ ابنُ تيميةَ بالقاضي إمامِ الدِّين الشَّافعيِّ[1] وواعدَهُ لقراءَةِ «العقيدةِ الحمويَّةِ»، فاجتمعُوا يومَ السَّبتِ رابعَ عشرَ الشَّهرِ مِن بكرةِ النَّهارِ إلى نحو الثُّلُثِ مِن ليلةِ الأحدِ ميعادًا طويلًا، وقرئَتْ فيهِ جميعُ العقيدَةِ، وتبيَّنَ مُرادُه مِن مواضِعَ أشكلَتْ، ولم يحصُل إنكارٌ عليه مِنَ الحاكِمِ، ولا ممَّنْ حضَرَ المجلسَ، بحيثُ انفصَلُوا والقاضي يقولُ: كلُّ مَنْ تكلَّمَ في الشَّيخِ فأنا خصمُهُ. وقالَ أخوه جلالُ الدِّينِ[2] بعد هذا الميعادِ: كلُّ من تكلَّمَ في الشَّيخِ نعزِّرُه.

وخرجَ والنَّاسُ ينتظِرونَ ما يسمَعونَ مِن طِيبِ أخبارِه، فوصلَ إلى دارِه في ملأٍ كثيرٍ مِن النَّاسِ، وعندهُم استبشارٌ وسرورٌ بهِ.

وكان سـعيُهم فـي حقِّـهِ أتمَّ السَّـعيِ، وتكلَّموا في حقِّـهِ بأنـواعِ الأذى، وبأمورٍ يَسـتحِي الإنسـانُ مِـن اللهِ تعالـى أن يحكِيَهـا، فضـلًا عـن أن يختَلِقَهـا ويُلفِّقَها، فلا حـولَ ولا قـوَّةَ إلَّا باللهِ.

---

(١) عمر بن عبد الرحمن بن أحمد، قاضي القضاة إمام الدين أبو المعالي القزويني الشافعي، قاضي القضاة بدمشق، ابن القاضي سعد الدين، ابن القاضي إمام الدين، كان حسن الأخلاق متواضعًا فاضلًا عاقلًا، توفي سنة (٦٩٩هـ) عن ست وأربعين سنة. انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٩٠٠)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٢٢/ ٣١٠)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٥).

(٢) جـلال الديـن القزوينـي محمد بـن عبد الرحمـن بن عمر قاضـي القضاة، الشيخ الإمـام العلامة، ذو الفنـون، أبـو عبـد الله القزوينـي الشـافعي، وعظم شـأنه وبلغ من العـز والوجاهة مـا لا يوصف، توفـي سـنة (٧٣٩هـ). انظـر: «الوافـي بالوفيـات» للصفـدي (٣/ ١٩٩)، و«البدايـة والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٢١٦).

ورأى جماعةٌ مِنَ الصَّالحينَ في هذهِ الواقعَةِ وعقيبَها للشَّيخِ مرائيَ حسنةً جليلةً، لو ضُبِطَتْ لكانَت مجلَّدًا تامًّا، انتَهى[١].

ثم سكنَتْ هذهِ الفِتْنةُ، ثم بعدَ ذلكَ بمدَّةٍ طويلةٍ ظهرَ الشَّيخُ نَصْرُ الـمَنْبِجيُّ[٢] بمصرَ، واستولى على أربابِ الدَّولةِ القاهرَةِ، وشاعَ أمرُه وانتشَرَ، فقيلَ لابن تيميةَ: إنَّه اتحاديٌّ، وإنَّه ينصُرُ مذهبَ ابنَ العربيِّ وابن سبعِينَ[٣]، فكتبَ إليه نحوَ ثلاث مئةِ سطرٍ يُنكِرُ عليهِ، فتكلَّمَ نصرُ المنبجيُّ مع قضاةِ مصرَ في أمرِه، وقالَ: هذا مبتدعٌ، وأخافُ على النَّاسِ مِنْ شرِّهِ.

وقامَ معه في ذلكَ القاضي ابنُ مخلوفٍ المالكِيُّ[٤]، واستعانوا بركنِ الدِّينِ[٥]

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢١٤ ـ ٢١٨).

(٢) الشيخ الصالح العابد أبو الفتح نصر بن سليمان بن عمر المنبجي الحنفي، له زاوية بالحسينية يزار فيها ولا يخرج منها إلا إلى الجمعة، سمع الحديث، وكان له حظوة عند السلطان بيبرس. توفي سنة (٧١٩هـ). انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٠٩)، و«الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية» للقرشي (٢/ ١٩٤)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن (ص٤٧٧).

(٣) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين، القرشي، المخزومي، الشيخ قطب الدين، أبو محمد المرسي، الرُّقُوطي، الصوفي. كان صوفيًّا على قاعدة زُهد الفلاسفة وتصوفهم، وله كلام كثير في العرفان على طريق الاتّحاد والزندقة، نسأل الله السلامة في الدين، توفي سنة: (٦٦٩ هـ). انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ١٦٨)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٨/ ٣٧)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ٣٠٣).

(٤) علي بن مخلوف، قاضي القضاة زين الدين أبو الحسن المالكي، حكم بالديار المصرية نيفاً وثلاثين سنة، كان مشكور السيرة كثير الاحتمال والإحسان للطلبة، توفي سنة (٧١٨هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٣/ ٥٤٢)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٠٣)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ١٥٢).

(٥) الملك المظفر ركن الدين بيبرس البرجي الجاشنكير المنصوري، أصله من مماليك الملك المنصور =

الجاشنكيرِ[(١)]، فحسَّنَ القضاةُ للأمراءِ طلبَهُ إلى القاهرةِ، وأنْ يُعقَدَ[(٢)] له مجلسٌ بدمشقَ، فلم يرضَ نصر المنبجيُّ[(٣)]، وقال لابن مخلوفٍ: قلْ للأمراءِ: إنَّ هذا يُخشَى على الدَّولةِ منه كما جرَى لابن تومرتَ[(٤)] في بلادِ المغربِ[(٥)].

فوردَ مكتوبُ السُّلطانِ إلى دمشقَ بسؤالِ الشَّيخِ عن عقيدَتهِ، فلمَّا كانَ ثامن رجبٍ مِن سنةِ خمسٍ وسبع مئةٍ طُلِبَ القضاةُ والفقهاءُ، وطُلِبَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّين

= قلاوون، وتأمَّر في أيامه إلى أن تسلطن، وهو السلطان الحادي عشر من ملوك الترك والسابع ممن مسّهم الرّقّ، والأوّل من الجراكسة، توفي سنة (٧٠٩هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٧١)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٥٤)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٨/ ٢٣٢).

(١) الجاشنكير: الذي يتصدى لتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفًا من أن يدس عليه فيه سم، ويتألف اللفظ من كلمتين فارسيتين: جاشا ومعناها الذوق، وكير أي المتعاطي. انظر: «معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي» لمحمد دهمان (ص٥٠).

(٢) «يعقد» من «مسالك الأبصار».

(٣) في (ج): «المنيحي».

(٤) محمد بن عبد الله بن تومرت العلوي الحسيني من قبيلة المصامدة، طلب العلم في المشرق، ولما عاد إلى المغرب أخذ في الإنكار على الناس وإلزامهم بإقامة الصلوات وغير ذلك من أحكام الشريعة، وتغيير المنكرات، واتصل به عبد المؤمن بن علي الكومي، وسار معه، وتلقب ابن تومرت بالمهدي، وكثرت أتباعه، وحسنت ظنون الناس به، ثم لحق بالجبل واجتمع عليه الناس وعرفهم أنه هو المهدي الذي وعد النبي ﷺ بخروجه، فكثرت أتباعه واشتدت شوكته، وأقبلت إليه القبائل يبايعونه وعظم أمره، وسموا أنفسهم بالموحدين، ولم يزل أمر ابن تومرت المهدي يعلو، إلى سنة أربع وعشرين وخمس مائة فجهز جيشاً يبلغون أربعين ألفاً فيهم الونشريسي وعبد المؤمن إلى مراكش، فحصروا أمير المسلمين بمراكش عشرين يوماً، وهزم عسكره، وتوفي سنة (٥٢٤هـ). وللتوسع في أخبار ابن تومرت انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٨/ ٦٥٤)، و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للتميمي (ص١٣٦)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١١/ ٤٠٨).

(٥) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٠).

إلى القصرِ إلى مجلسِ نائبِ السَّلطنَةِ الأفرمِ، فلمَّا اجتمعوا عندَهُ، سأَلَ الشَّيخَ تقيَّ الدِّين وحدَه عن عقيدَتِه، وقالَ: هذا المجلسُ عُقِدَ لك وقد ورَدَ مرسومُ السُّلطانِ؛ أن أسأَلَكَ عن اعتقادِكَ، فأحضَرَ الشَّيخُ عقيدَتَهُ الواسطيةَ، وقال: هذِه كتبتُها من نحوِ سبعِ سنينَ، قبل مجيءِ التَّتارِ إلى الشَّامِ. فقرِئت في المجلسِ، وبحِثَ فيها، وبقيَتْ مواضعُ أُخِّرت إلى مجلسٍ آخرَ.

ثم اجتمَعوا يومَ الجمعةِ بعد الصَّلاةِ ثاني عشرَ رجبٍ المذكورِ، وحضَرَ المخالفونَ، ومعهم الشَّيخُ صفيُّ الدِّينِ الهنديُّ[1]، واتَّفقُوا على أن يتولَّى المناظرةَ مع الشيخِ تقيِّ الدينِ، فتكلَّمَ معه.

ثم إنَّهم رجَعُوا عنه واتَّفقُوا على الشَّيخ كمالِ الدِّينِ ابن الزَّملكانيِّ، فناظَرَ الشَّيخَ وبحثَ معهُ، وطالَ الكلامُ، وخرَجُوا من هناكَ والأمرُ قد انفصَلَ، وقد أظهرَ اللهُ مِن قيامِ الحجَّةِ ما أعزَّ به الشَّيخَ ابنَ تيميةَ.

واختلفَت نقولُ المخالِفينَ للمجلسِ وحرَّفوهُ، ووضعوا مقالةَ الشَّيخِ على غيرِ موضِعها، وشنَّعَ ابنُ الوكيلِ[2]......................................

---

(١) محمد بن عبد الرحيم بن محمد العلامة الأصولي البارع الشيخ صفي الدين الهندي الشافعي مدرس الظاهرية، له مصنفات في الأصول والكلام، متوفي سنة (٧١٥هـ). انظر: «معجم الشيوخ» للذهبي (٢/ ٢١٦)، و«البداية والنهاية» لابن الأثير (١٤/ ٨٥).

(٢) صدر الدين محمد بن عمر بن مكي، أبو عبد الله الشافعي الأشعري، المعروف بابن الوكيل وبابن المرحّل وبابن الخطيب، شيخ الشافعية، أفتى وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، كان ذكياً نظّاراً حافظاً، يسرد في كل فن أسفاراً، لا يقوم أحد لجداله، ولا يُرى في عصره أحد من رجاله، مكثراً من جميع الفنون، يستحضر الأسانيد والمتون. ولم يكن يقوم بمناظرة العلامة تقي الدين بن تيمية سواه، توفي سنة (٧١٦هـ). انظر: «العبر» للذهبي (٤/ ٤٥)، و«أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ٣٩٠).

وأصحابُه بأنَّ الشَّيخَ قد رجعَ عن عقيدَتِه، فاللهُ المستعان[١].

ثم بعدَ ذلك عزَّرَ بعضُ القضاةِ بدمشقَ شخصًا يلوذُ بالشَّيخِ، وطُلِبَ جماعةٌ ثم أطلِقُوا، ووقعَ هرجٌ في البلدِ، وكان الأميرُ نائبُ السَّلطنةِ قد خرجَ للصَّيدِ، وغابَ نحو جمعةٍ ثم رجَعَ، فحضرَ عندَهُ الشَّيخُ، وذكرَ له ما وقَعَ في غيبَتِهِ في حقِّ بعضِ أصحابِهِ مِن الأذى، فرسَمَ بحبسِ جماعةٍ مِن أصحابِ[٢] ابنِ الوكيلِ، وأمرَ فنودِيَ في البلدِ: أنَّه مَن تكلَّمَ في العقائدِ حلَّ مالُه ودمُه، ونُهبَت دارُهُ وحانوتُهُ، وقصَدَ بذلكَ تسكِينَ الفتنةِ.

وفي يومِ الثلاثاء سابعَ شعبانَ عُقِدَ للشَّيخِ مجلسٌ ثالثٌ بالقصرِ، ورضيَ الجماعةُ بالعقيدةِ.

وفي هذا اليومِ عزَلَ قاضي القضاةِ نجمُ الدِّينِ ابن صَصْري[٣] نفسَهُ عن الحكمِ بسبَبِ كلامٍ سمِعَه مِن الشَّيخِ كمالِ الدِّينِ ابن الزَّمْلكَانيِّ.

وفي اليومِ السَّادسِ والعشرينَ مِن شعبانَ وردَ كتابُ السُّلطانِ إلى القاضِي بإعادَتِه إلى الحكمِ، وفيهِ: إنَّا كنَّا رسَمْنا بعقدِ مجلسٍ للشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ، وقد بلَغنا ما عُقِدَ له من المجالسِ، وأنَّه على مذهَبِ السَّلَفِ، وما قصَدنا بذلكَ إلَّا براءةَ ساحتِهِ[٤].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢١٩ ـ ٢٢١).

(٢) «من أصحاب» من «العقود الدرية».

(٣) أحمد بن محمد بن سالم بن الحافظ أبي المواهب بن صصري، الشيخ الإمام العالم قاضي القضاة، نجم الدين أبو العباس الربعي التغلبي الدمشقي الشافعي، نظم ونثر، وشارك في فنون، وكان ذا رياسة وسؤدد حكم بدمشق نيفاً وعشرين سنة، توفي سنة (٧٢٣هـ). انظر: «فوات الوفيات» لابن شاكر (١/ ١٢٥)، و«أعيان العصر» للصفدي (١/ ٣٢٧)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ٢٠).

(٤) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٢١ ـ ٢٢٢).

ذكرُ بعضِ ألفاظِ ما وقعَ في المناظرَةِ

قالَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ ابنُ تيميةَ يحكِي عن نفسِهِ: فأمرَ الأميرُ بجمعِ القضاةِ والمشايخِ وقالَ لي: هذا المجلِسُ عُقِدَ لك، فقد ورَدَ مرسومُ السُّلطانِ أن أسألَكَ عن اعتقادِكَ، وعمَّا كتبْتَ بهِ إلى الدِّيارِ المصريَّةِ مِنَ الكتبِ الَّتي تدعو النَّاسَ إلى الاعتقادِ.

فقلْتُ: أمَّا الاعتقادُ فلا يؤخَذُ عنِّي ولا عمَّنْ هو أكبرُ منِّي، بل يؤخَذُ عنِ اللهِ ورسولِه وما أجمعَ عليهِ سلَفُ الأمةِ.

وأمَّا الكتبُ فما كتبْتُ إلى أحدٍ كتابًا ابتداءً أدعوه إلى شيءٍ مِن ذلكَ، ولكنِّي كتبْتُ أجوبةً أجبْتُ بها مَن يسألَني مِن أهلِ الدِّيارِ المصريَّةِ وغيرِهم، وكانَ قد بلغَني أنَّه زُوِّرَ عليَّ كتابٌ إلى الأميرِ ركنِ الدِّين الجاشنكِيرِ إستدَّارِ[1] السُّلطانِ، يتضمَّنُ ذكرَ عقيدةٍ محرَّفةٍ، ولم أعلَم بحقيقَتِه، لكنْ علمْتُ أنَّ هذا مكذوبٌ.

---

(١) الإستدّار: هو لقب على الذي يتولّى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمتثل أوامره فيه. وهو مركّب من لفظتين فارسيتين: إحداهما إستذ، ومعناها الأخذ، والثانية دار، ومعناها الممسك، فأدغمت الذال الأولى المعجمة في الثانية المهملة فصار: إستدّار. والمعنى المتولّي للأخذ. ويقال فيه أيضًا: سِتدَّار، والمتشدّقون يقولون: «أُستادَّار» وربما قالوا: «أستاذ الدَّار» ظنًّا منهم أن المراد حقيقة الدَّار في اللفظ العربيّ، وأن أستاذ بمعنى السيِّد أو الكبير، ولذلك يقولون: «أستادّار العالية» أو «أستاذ الدّار العالية» وهو خطأ صريح.

على أن العامة تنطق به على الصواب، من كسر الهمزة وحذف الألف بعد التاء، ثم قد يزاد في هذا اللقب لفظ الصّحبة، فيصير «إستدّار الصّحبة»، ويكون لقبا على متولّي أمر المطبخ. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٣٠).

وكانَ يَرِدُ عليَّ مِن مصرَ وغيرِها مَن يسألُني عن مسائلَ في الاعتقادِ وغيرِه، فأجبتُه بالكتابِ والسُّنَّةِ وما كانَ عليهِ سلفُ الأمَّةِ[1].

ثم قلْتُ للأميرِ والحاضرينَ: أنا أعلَمُ أنَّ أقوامًا كذَبوا عليَّ غيرَ مرَّةٍ، وقالوا للسُّلطانِ أشياءَ، وتكلَّمْتُ بكلامٍ احتجْتُ إليه، مثل أنْ قلْتُ: مَنْ قامَ بالإسلامِ أوقاتَ الحاجةِ غيري؟ ومَنِ الَّذي أوضحَ دلائلَهُ وبيَّنَهُ، وجاهدَ أعداءَهُ، وأقامَه لَمَّا مالَ، حين تخلَّى عنه كلُّ أحدٍ، فلا أحدٌ ينطِقُ بحجَّتِه، ولا أحدٌ يجاهِدُ عنه، وقمْتُ مُظهِرًا بحجَّته، مجاهدًا عنهُ، مرغِّبًا فيهِ؟!

وقلْتُ: كلُّ مَنْ خالفَني في شيءٍ مما كتبتُهُ فأنا أعلَمُ بمذهبِهِ منه[2].

ثم أرسلْتُ فحضرَتِ «العقيدةُ الواسطِيَّةُ»، وقلْتُ: كانَ سببُ كتابَتِها بعضُ قضاةِ واسطَ من أهلِ الخيرِ والدِّينِ، شكَى ما النَّاسُ فيه ببلادِهم في دولَةِ التَّترِ مِن غلَبةِ الجهلِ والظُّلمِ، ودروسِ الدِّينِ والعلمِ، وسألَني أن أكتُبَ له عقيدةً، فقلْتُ له: قد كتبَ النَّاسُ عقائدَ أئمَّةِ السُّنَّةِ، فألحَّ في السُّؤالِ، وقالَ: ما أحبُّ إلَّا عقيدةً تكتُبها أنتَ، فكتبْتُ له هذهِ العقيدةَ، وأنا قاعدٌ بعدَ العصرِ، فأشارَ الأميرُ لكاتبِه فقرَأها على الحاضرينَ حرفًا حرفًا، فاعترَضَ بعضُهم على قولي فيها: ومِن الإيمانِ باللهِ الإيمانُ بما وصفَ بهِ نفسَهُ، ووصفَهُ به رسولُه من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ[3].

ومقصودُه أنَّ هذا ينفِي التَّأويلَ، الَّذي هو صَرْفُ اللَّفظِ عن ظاهرِه إمَّا وجوبًا وإمَّا جوازًا.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٢٣ـ ٢٢٤).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٢٥ـ ٢٢٦).

(٣) انظر: «العقيدة الواسطية» (ص٥٧).

فقلْتُ: إنِّي عدلْتُ عن لفظِ (التَّأويلِ) إلى لفظِ (التَّحريفِ)؛ لأنَّ (التَّحريفَ) جاءَ القرآنُ بذمِّهِ، وأنا تحرَّيتُ في هذه العقيدةِ اتِّباعَ الكتابِ والسُّنَّةِ، فبيَّنْتُ ما ذمَّهُ اللهُ مِن التَّحريفِ، ولم أذكُر فيها لفظَ (التَّأويلِ)؛ لأنَّه لفظٌ له عدَّةُ معانٍ، فما بيَّنتُه في موضعِهِ مِن القواعدِ، فإنَّ معنى لفظِ (التَّأويلِ) في كتابِ اللهِ غير لفظِ (التَّأويلِ) في اصطلاحِ المتأخِّرينَ من أهلِ الأصولِ والفقهِ، وغير معنى لفظِ (التَّأويلِ) في اصطلاحِ كثيرٍ من أهلِ التَّفسيرِ والسَّلفِ.

وقلْتُ لهم: ذكرْتُ في النَّفيِ (التَّمثيلَ) ولم أذكرِ (التَّشبيهَ)؛ لأنَّ التَّمثيلَ نفاهُ اللهُ بنصِّ كتابِه، حيْثُ قالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١][(١)].

وأخذوا يذكُرونَ نفيَ التَّشبيهِ والتَّجسيمِ، ويُطنِبون[(٢)] في هذا، ويعرِضون بما ينسبُه بعضُ النَّاسِ إلينا مِن ذلكَ.

فقلْتُ: قولي: (مِن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ) ينفي كلَّ باطلٍ، وإنَّما اخترْتُ هذينِ الاسمَين؛ لأنَّ التَّكييفَ مأثورٌ نفيه عن السَّلفِ، كما قالَ ربيعةُ ومالكٌ وابنُ عُيينَةَ وغيرُهم المقالةَ الَّتي تلقَّاها العلماءُ بالقَبولِ: (الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدعةٌ)[(٣)].

فاتَّفقَ هؤلاء السَّلفُ على: أنَّ الكيفَ غيرُ معلومٍ لنا، فنفَيْتُ ذلك اتِّباعًا لسلفِ الأمَّةِ، وهو أيضًا منفيٌّ بالنَّصِّ، فإنَّ تأويلَ آياتِ الصِّفاتِ يدخُلُ فيها حقيقةُ

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٢٦ ـ ٢٣١).

(٢) في (ج): «ويظنون».

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣٢)، ورواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٠٤)، وابن المقرئ في «معجمه» (٣/ ٥٧)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٦٦٤) عن الإمام مالك. ورواه اللالكائي في «الاعتقاد» (٦٦٥) عن ابن عيينة عن ربيعة.

الموصوفِ، وحقيقَةُ صفاتِه غيرُ معلومةٍ، وهذا مِن التَّأويلِ الَّذي لا يعلَمهُ إلَّا اللهُ، كما قد قرَّرتُ ذلكَ في قاعدةٍ مفردَةٍ ذكرتُها في التَّأويلِ والمعنى، والفرقُ بين عِلمنا بمعنى الكلامِ وبينَ عِلمنا بتأويلِه.

وكذلكَ التَّمثيلُ منفيٌّ بالنَّصِّ والإجماعِ القديمِ، مع دلالةِ العقلِ على نفيهِ ونفيِ التَّكييفِ؛ إذ كنهُ البارِي غيرُ معلومٍ للبشرِ.

وذكرْتُ في ضمْنِ ذلكَ كلامَ الخطابيِّ الَّذي نقَلَ أنَّهُ مذهَبُ السَّلفِ، وهو إجراءُ آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثِها على ظاهرِها معَ نفي الكيفيَّةِ والتَّشبيهِ عنها؛ إذ الكلامُ في الصِّفاتِ فرعٌ على الكلامِ في الذَّاتِ يحتذِي حذوَهُ، ويُتبَعُ فيه مثالُه، فإذا كانَ إثباتُ الذَّاتِ إثباتَ وجودٍ لا إثباتَ تكييفٍ، فكذلكَ إثباتُ الصِّفاتِ إثباتُ وجودٍ لا إثباتُ تكييفٍ.

فقالَ أحدُ كبراءِ المخالِفينَ: فحينئذٍ يجوزُ أن يُقالَ: هو جسمٌ، لا كالأجسامِ؟

فقلْتُ له أنا وبعضُ الفضلاء: إنَّما قيلَ: إنَّه يوصَفُ اللهُ بما وصَفَ به نفسَهُ، وبما وصفَهُ به رسولُهُ، وليسَ في الكتابِ والسُّنَّةِ أنَّ اللهَ جسمٌ حتى يلزَمَ هذا، وأوَّلُ مَن قالَ: (إنَّ اللهَ جسمٌ) هشامُ بن الحَكَمِ الرَّافضيُّ[1].

وأمَّا قولنا: فهو فهمُ الوسطِ في فِرَقِ الأمَّةِ؛ كما أنَّ الأمَّةَ هي الوسطُ في الأممِ، فهم وسطٌ في بابِ صفاتِ اللهِ بين أهلِ التَّعطِيلِ الجهميَّةِ وأهلِ التَّمثيلِ المشبِّهةِ.

فقيلَ لي: أنت صنَّفْتَ اعتقادَ الإمام أحمدَ. وأرادوا قطعَ النِّزاعِ لكونِه مذهَبًا متبُوعًا.

---

(١) هشام بن الحكم الكوفي، الرافضي الخزاز الضال المشبّه، المتكلم البارع، أحد رؤوس الرفض والجدل، له نظر وتواليف كثيرة، توفي سنة (٢٣٠هـ). انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٥/ ٧١٧).

فقلْتُ: ما خرَّجْتُ إلَّا عقيدَةَ السَّلفِ الصَّالحِ جميعِهم، وليسَ للإمامِ أحمدَ اختصاصٌ بهذا.

وقلْتُ: قد أمهلْتُ مَنْ خالفَني في شيءٍ منها ثلاثَ سنينَ، فإذا جاءَ بحرفٍ واحدٍ عن القرونِ الثَّلاثةِ يخالِفُ ما ذكرتُهُ، فأنا أرجعُ عن ذلك، وعليَّ أنْ آتي بُنُقولِ جميعِ الطَّوائفِ مِنَ القرونِ الثَّلاثةِ يوافِقُ ما ذكرتُهُ؛ من الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنبليَّةِ، والأشعريَّةِ، وأهلِ الحديثِ، وغيرِهم[1].

ثم طلبَ المنازِعُ الكلامَ في مسألةِ الحرفِ والصَّوتِ.

فقلْتُ: هذا الذي يُحكَى عن أحمدَ وأصحابِه: أنَّ صوتَ القارئينَ، ومدادَ المصاحِفِ قديمٌ أزليٌّ كذبٌ مُفترَى، لم يقُل ذلكَ أحمدُ ولا أحدٌ مِن علماءِ المسلِمينَ.

وأخرجتُ كرَّاسًا وفيه ما ذكرَهُ أبو بكرٍ الخلَّالُ في «كتابِ السُّنَّةِ» عن الإمامِ أحمدَ؛ وما جمعَهُ صاحبُه أبو بكرٍ المرُّوذِيُّ من كلامِ أحمدَ، وكلامِ أئمَّةِ زمانِهِ في أنَّ مَنْ قالَ: لفظِي بالقرآنِ مخلوقٌ فهو جَهميٌّ، ومَن قالَ: غيرُ مخلوقٍ فهو مبتدِعٌ.

قلْتُ: فكيفَ بمن يقولُ لفظِي قديمٌ أزليٌّ؟ فكيفَ بمن يقولُ: صوتي قديمٌ[2]؟!

فقالَ المنازِعُ: إنَّه انتسَبَ إلى أحمدَ أناسٌ مِنَ الحشويَّةِ والمشبِّهةِ، ونحو هذا الكلامِ.

فقلتُ: المشبِّهةُ والمجسِّمةُ في غيرِ أصحابِ الإمامِ أحمدَ أكثرُ منهم فيهم، هؤلاء أصنافُ الأكرادِ كلُّهم شافعيةٌ وفيهم مِن التَّشبيهِ والتَّجسيمِ ما لا يوجَدُ في

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣٣ ـ ٢٣٥).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣٧ ـ ٢٣٨).

صنفٍ آخرَ، وأهلُ جِيلانَ فيهم شافعيَّةٌ وحنبليَّةٌ، وأمَّا الحنبليَّةُ المحضَةُ فليس فيهم مِن ذلكَ ما في غيرِهم، والكُرَّامِيَّةُ المجسِّمةُ كلُّهم حنفيَّةٌ.

وقلْتُ له: مَنْ في أصحابِنا حشويٌّ بالمعنى الَّذي تريدُه؟! الأثرَمُ؟! أبو داودَ؟! المروزِيُّ؟! الخلَّالُ؟! أبو بكرِ بن عبدِ العزيزِ؟! أبو الحسنِ التَّيميُّ؟! ابنُ حامدٍ القاضِي؟! أبو يعلَى؟! أبو الخطَّابِ؟! ابن عقيلٍ؟!

ورفعتُ صوتي وقلْتُ: سمِّهم، قلْ لي: مَنْ هُم؟! أَبِكذبِ ابنِ الخطيبِ[1] وافترائِهِ على النَّاسِ في مذاهبُهم تبطُلُ الشَّريعةُ، وتندَرِسُ معالم الدِّينِ؟!

كما نقَلَ هو وغيرُهُ عنهم أنَّهم يقولونَ: القرآنُ القديمُ هو أصواتُ القارئينَ ومدادُ الكاتبينَ، وأنَّ الصَّوتَ والمدادَ قديمٌ أزليٌّ[2].

مَنْ قالَ هذا؟ وفي أيِّ كتابٍ وجِدَ عنهُم هذا؟ قلْ لي.

وكما نَقِلَ عنهم أنَّ اللهَ لا يُرَى في الآخرةِ باللُّزومِ الَّذي ادَّعاه، والمقدِّمة الَّتي نقلَها عنهم[3].

ولَمَّا جاءَتْ مسألةُ القرآنِ، وأنَّه كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ وإليهِ يعودُ، نازعَ بعضُهم في كونِه منهُ بدأ وإليهِ يعود، وطلبُوا تفسيرَ ذلكَ.

فقلتُ: أمَّا هذا القولُ فهو المأثورُ والثَّابتُ عن السَّلفِ، مثلُه ما نقلَهُ عمرُو بن

---

(١) يقصد: الإمام فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، صاحب «التفسير الكبير»، و«المحصول»، وله كتاب في الفرق اسمه: «اعتقادات فرق المسلمين»، وآخر في الاعتقاد واسمه: «معالم أصول الدين»، توفي سنة (٦٠٦هـ). انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٢٤٩)، و«مسالك الأبصار» (٩/ ١١٠).

(٢) ذكر ذلك الفخر الرازي في «معالم أصول الدين» (ص٦٧).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٥٤ ـ ٢٥٥). وانظر: «معالم أصول الدين» (ص٧٣).

دينارٍ قالَ: أدركتُ النَّاسَ منذ سبعينَ سنةً يقولون: اللهُ الخالقُ، وما سواهُ مخلوقٌ إلَّا القرآنَ، فإنَّه كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، منهُ بدأ وإليهِ يعودُ[1].

ومعنى: (منهُ بدأ)؛ أي: هو المتكلِّمُ بهِ، وهو الَّذي أنزلَهُ من لدُنهُ، ليسَ هو كما تقولُ الجهميَّةُ: إنَّه خُلِقَ في الهواءِ أو غيرِه، وبدأَ مِن عندِ غيرِه.

وأمَّا (إليهِ يعودُ): فإنَّه يُسرَى به في آخرِ الزمانِ مِن المصاحِفِ والصُّدورِ، فلا يبقَى في الصُّدورِ منهُ كلمةٌ، ولا في المصاحفِ منه حرفٌ.

ووافَقَ على ذلكَ غالبُ الحاضرِينَ.

فقلْتُ: هكذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «ما تقرَّبَ العبادُ إلى اللهِ بمثلِ ما خرَجَ منهُ»؛ يعني: القرآنَ[2].

وقالَ خبَّابُ بنُ الأرَتِّ: يا هَنَتاه! تقرَّبْ إلى اللهِ بما استطَعتَ، فلن يُتقرَّبَ إلى اللهِ بشيءٍ أحبَّ إليه ممَّا خرَجَ منه[3].

وقلْتُ: وإنَّ اللهَ تكلَّمَ به حقيقةً، وإنَّ هذا القرآنَ الَّذي أنزلَهُ اللهُ على محمَّدٍ ﷺ هو كلامُ اللهِ حقيقةً، لا كلامُ غيرِهِ، ولا يجوزُ إطلاقُ القولِ بأنَّهُ حكايةٌ عن كلامِ اللهِ

(١) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٣٤٤)، وابن جرير الطبري في «صريح السنة» (١٦)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٣٨١).

(٢) رواه الترمذي (٢٩١١)، وقال: غريب، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره، وقد روي هذا الحديث عن زيد بن أرطاة، عن جبير بن نفير، عن النبي ﷺ مرسل. وهذا المرسل أخرجه الترمذي (٢٩١٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٠٩٨)، والمروزي في «قيام الليل» (ص١٧٢) بلفظ: «أحب إليه من كلامه».

أو عبارةٌ عنه[١]، بل إذا قرأ النَّاسُ القرآنَ، أو كتبوهُ في المصاحفِ، لم يخرُجْ بذلك عن أن يكونَ كلامَ اللهِ، فإنَّ الكلامَ إنما يُضافُ حقيقةً إلى مَن قالَهُ مبتدئًا، لا إلى مَن قالَه[٢] مبلِّغًا مؤدِّيًا[٣].

فامتعضَ بعضُهم مِن إثباتِ كونِه كلامَ اللهِ حقيقةً بعدَ تسليمِهِ أنَّ اللهَ تكلَّمَ بِهِ حقيقةً، ثم إنَّه سلَّمَ ذلك لَمَّا بُيِّنَ لَهُ أنَّ المجازَ يصحُّ نفيهُ، وهذا لا يصحُّ نفيهُ، وأنَّ أقوالَ المتقدمِينَ المأثورةَ عنهم، وشعرَ الشُّعراءِ المضافَ إليهم هو كلامُهم حقيقةً.

ولما ذُكِرَ فيها (أنَّ الكلامَ إنَّما يُضافُ حقيقةً إلى مَنْ قالَهُ مُبتدئًا لا إلى مَن قالهُ مُبلِّغًا) استحسَنوا هذا الكلامَ وعظَّموه[٤].

وذكرْتُ ما أجمعَ عليهِ سلفُ الأمَّةِ مِن أنَّه سبحانَهُ فوقَ العرشِ، وأنَّهُ معنا حقٌّ، على حقيقَتِه، لا يحتاجُ إلى تحريفٍ، ولكن يُصانُ عن الظُّنونِ الكاذبَةِ.

وليسَ معنى قولِه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أنَّهُ مختلِطٌ بالخلقِ، فإنَّ هذا لا تُوجِبُه اللُّغةُ، وهو خلافُ ما أجمعَ عليه سلفُ الأمَّةِ، وخلافُ ما فطَرَ اللهُ عليهِ الخَلْقَ، بل القمرُ آيةٌ مِن آياتِ اللهِ مِن أصغَرِ مخلوقاتِه، وهو موضوعٌ في السَّماءِ، وهو معَ المسافرِ أينما كانَ[٥].

ولَمَّا ذكرْتَ أنَّ جميعَ أسماءِ اللهِ الَّتي يُسمَّى بها المخلوقُ، كلفظِ الوجودِ الَّذي

---

(١) «عنه» من «العقيدة الواسطية».

(٢) «مبتدئًا، لا إلى مَن قاله» من «العقيدة الواسطية».

(٣) انظر: «العقيدة الواسطية» (ص٩٠).

(٤) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣٩ ـ ٢٤٢).

(٥) انظر: «العقيدة الواسطية» (ص٨٣ ـ ٨٤).

هو مَقولٌ بالحقيقةِ على الواجبِ[١] والممكنِ تنازعَ كبيرانِ: هل هوَ مقولٌ بالاشتراكِ، أو بالتَّواطُؤ؟

فقالَ أحدُهما: هو متواطِئٌ، وقال الآخرُ: هو مشترَكٌ؛ لئلا يلزَمَ التَّركيبُ، وقالَ هذا: قد ذكرَ فخرُ الدِّينِ: أنَّ هذا النِّزاعَ مبنيٌّ على أنَّ وجودَهُ هل هوَ عينُ ماهيَّتِه، أم لا؟

فمَنْ قالَ: إنَّ وجودَ كلِّ شيءٍ عينُ ماهيَّتِه، قالَ: إنَّه مَقولٌ بالاشتراكِ.

ومَنْ قالَ: إنَّ وجودَه قَدرٌ زائدٌ على ماهيَّتِه، قالَ: إنَّه مَقولٌ بالتَّواطُؤ.

فأخذَ الأولُ يرجِّحُ قولَ مَنْ يقولُ: إنَّ الوجودَ زائدٌ على الماهيَّةِ، لينصُرَ أنَّه مقولٌ بالتَّواطُؤ.

فقالَ الثَّاني: مذهَبُ الأشعريِّ وأهلِ السُّنَّةِ: إنَّ وجودَهُ عينُ ماهيَّتِه، فأنكرَ الأوَّلُ ذلكَ.

فقلْتُ: أمَّا متكلِّمو أهلِ السُّنَّةِ فعندَهم: أنَّ وجودَ كلِّ شيءٍ عينُ ماهيَّتِه، وأمَّا القولُ الآخرُ فهو قولُ المعتزلَةِ: إنَّ وجودَ كلِّ شيءٍ قدرٌ زائدٌ على ماهيتِه، وكلٌّ منهما أصابَ مِنْ وَجهٍ، فإنَّ الصَّوابَ أنَّ هذهِ الأسماءَ مقولةٌ بالتَّواطُؤ، كما قد قرَّرْتُه في غيرِ هذا الموضِعِ[٢].

وأمَّا بناءُ[٣] ذلكَ على كونِ وجودِ الشَّيءِ عينَ ماهيتِه، أو ليسَ عينها[٤]، فهوَ

---

(١) في (ج): «الجواب».

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٥٨ ـ ٢٦٠).

(٣) في (ج): «وأما بناء».

(٤) «عينها» من «العقود الدرية».

مِنَ الغلَطِ المضافِ إلى ابن الخطيبِ؛ فإنَّا وإنْ قلْنا: إنَّ وجودَ الشَّيءِ عينُ ماهيَّتِه لا يجِبُ أنْ يكونَ الاسمُ مقولًا عليه وعلى نظيرِهِ بالاشتراكِ اللَّفظيِّ فقط، كما في جميعِ أسماءِ الأجناسِ، فإنَّ اسمَ (السَّوادِ) مقولٌ على هذا السَّوادِ، وهذا السَّوادِ بالتَّواطُؤ، وليسَ عينُ هذا السَّوادِ عينَ هذا السَّوادِ؛ إذِ الاسمُ دالٌّ على القَدْرِ المشترَكِ بينَهُما، وهو المطلَقُ الكليُّ، لكنَّهُ لا يوجَدُ مطلقًا بشرطِ الإطلاقِ إلَّا في الذِّهنِ، ولا يلزَمُ مِن ذلكَ نفيُ القَدْرِ المشترَكِ بينَ الأعيانِ الموجودَةِ في الخارجِ، فإنَّه على ذلِكَ تنتَفِي الأسماءُ المتواطِئةُ، وهي جمهورُ الأسماءِ الموجودَةِ في اللُّغاتِ، وهي أسماءُ الأجناسِ اللُّغويَّةِ، وهو الاسمُ المعلَّقُ على الشَّيءِ وما أشبَهَهُ، سواءٌ كانَ اسمَ عينٍ أو اسمَ صفةٍ، جامِدًا أو مشتقًّا، وسواءٌ كانَ جِنسًا مَنطقيًّا أو فقهيًّا، أو لم يكُن.

بل اسمُ الجنسِ في اللُّغةِ يدخُلُ فيه الأجناسُ والأصنافُ والأنواعُ ونحوُ ذلكَ، وكلُّها أسماءٌ متواطِئةٌ، وأعيانُ مسمَّياتها في الخارجِ مُتميِّزةٌ[1].

هذا آخرُ بعضِ ما علَّقهُ الشيخُ فيما يتعلَّقُ بالمناظرةِ بحضرَةِ نائبِ السَّلطنةِ والقضاةِ والفقهاءِ وغيرِهم.

قالَ الحافظُ الذهبيُّ: ثم وقعَ الاتِّفاقُ على أن هذا معتقدٌ سلفِيٌّ جيدٌ[2].

* * *

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٦٠ ـ ٢٦١).

(٢) انظر: «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» للذهبي (ص٤٥). وانظر: «العقود الدرية» (ص٢١٢).

فصلٌ في توجُّهِ الشيخِ إلى مصرَ، ومحنَتِه بها

وسببُ محنَتِه وابتلائِه وقيامُهُ في اللهِ والرَّدُّ على أهلِ البدعِ والعقائدِ الفاسدَةِ، فقد حثَّ على غزوِ الكسروانيِّينَ الرَّوافضِ وغيرِهم مِن الدُّروزِ والنُّصيريَّةِ، وغزاهُم بمَنْ معَهُ مِن المسلِمينَ، وفتحَ بلادَهم، وكاتبَ السُّلطانَ فيهِم بحسمِ مادَّةِ شُيوخِهم الَّذينَ يُضلُّونهم، والأمرِ بإقامةِ شعائرِ الإسلامِ، وقراءَةِ الأحاديثِ ونشرِ السُّنَّةِ ببلادِهم، كما مرَّ ذِكْرُهُ.

كان استئصالُهم في المحرَّمِ، سنةَ خمسٍ وسبع مئةٍ.

ولَمَّا كان تاسعُ جمادى الأولى مِن سنةِ خمسٍ بالغَ الشَّيخُ في الرَّدِّ على الفقراءِ الأحمديَّةِ والرِّفاعيَّةِ بسببِ خروجِهم عنِ الشَّريعَةِ، بعد أن حضَروا لنائبِ السَّلطنةِ، وشكَوا مِن الشَّيخِ، وطلَبوا أن يسلِّمَ لهم حالَهم، وأن لا يُعارِضَهم، ولا ينكِرَ عليهم، وطلَبُوا حضورَ الشَّيخِ، فلمَّا حضَرَ وقعَ بينَهُم كلامٌ كثيرٌ.

فقالَ الشَّيخُ في كلامٍ طويلٍ: إنَّهم وإنْ كانوا منتَسِبِيْنَ إلى الإسلامِ، وطريقةِ الفقرِ والسُّلوكِ، ويوجَدُ في بعضِهم مِنَ التَّعبُّدِ والتَّألُّهِ والوَجْدِ، والمحبَّةِ والزُّهدِ والفقرِ، والتَّواضعِ ولينِ الجانبِ، والملاطفَةِ في المخاطَبةِ والمعاشرَةِ، والكَشْفِ والتَّصرُّفِ، فيوجَدُ أيضًا في بعضِهم مِنَ الشِّركِ وغيرِه مِنْ أنواعِ الكُفْرِ والبِدَعِ في الإسلامِ، والإعراضِ عَنْ كثيرٍ ممَّا جاءَ بِهِ الرَّسولُ، والكذِبِ والتَّلبيسِ، وإظهارِ المخارِقِ الكاذِبةِ، مثلَ ملامسَةِ النَّارِ والحيَّاتِ، وإظهارِ الدَّمِ واللَّادنِ[1] والزَّعفرانِ

---

(١) اللاذن: رطوبة تتعلق بشعر المعزى ولحاها، إذا رعت نباتا يعرف بقلسوس أو قستوس، وما علق بشعرها، جيد مسخن ملين مفتح للسدد وأفواه العروق، مدر نافع للنزلات، والسعال، ووجع الأذن، وما علق بأظلافها رديء. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: لذن). =

وماءِ الوردِ والعسَلِ وغيرِ ذلكَ، وأنَّ عامَّةَ ذلك منْ حيلٍ معروفةٍ وأسبابٍ مصنوعةٍ، كطليِ أجسامِهم لدخولِ النَّارِ بدُهنِ الضَّفادِعِ، وباطنِ قشرِ النَّارنجِ، وحجرِ الطَّلقِ[١]، وغيرِ ذلكَ مِنَ الحيَلِ.

وقالَ لهم بحضرةِ نائبِ السَّلطنَةِ: أدخُلُ أنا وهمُ النَّارَ، ومَنِ احترَقَ فعليهِ لعنةُ اللهِ، ولكِنْ بعدَ أنْ نغسِلَ جُسومَنا بالخلِّ والماءِ الحارِّ بالحمَّامِ. فلمَّا زيَّفَهم الشَّيخُ، وأظهَرَ تلبيسَهم قالَ: حتَّى ولو دخلتُم النَّارَ وخرجتُم منها سالمينَ، وطرتُم في الهواءِ، ومَشيتُم على الماءِ، لا عبرةَ بذلكَ مع مخالفَةِ الشَّرعِ، فإنَّ الدَّجَّالَ الأكبَرَ يقولُ للسَّماءِ: أمطِري، فتمطِرُ، وللأرض: أنبِتي، فتُنبِتُ، وللخَرِبَةِ: أخرِجي كنوزَكِ فتُخرِجُ[٢]. ومعَ هذا فهو دجَّالٌ كذَّابٌ ملعونٌ، وليس لأحدٍ الخروجُ عنِ الشَّريعةِ، ولا عنْ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ.

وذكَرَ لهم قولَ أبي يزيدَ البِسطاميِّ[٣]: لو رأيتُمُ الرَّجُلَ يطيرُ في الهواءِ

= واللاذن: من العلوم أو هو دواء بالفارسية أو هو ندي يسقط علي الغنم في بعض جزر البحر فيعلق بشعرها ولحاها وبأظلافها. انظر: «معجم متن اللغة» لأحمد رضا (٥/ ١٧١).

(١) حجر الطلق: ويسمى أيضًا حجر الفتيلة، وهو شيء يشبه البردي، والعامة تظنُّه ريش طائر، لا تحرقه النار، يوضع في الدهن ثم يشعل بالنَّار، فيقد كما تقد الفتيلة، فإذا اشتعل الدهن بقي على ما كان لم يتغير شيء من صفته، وكذلك أبدًا كلما وضع في الدهن واشتعل، وإذا ألقي في النار المتأججة لا تحرقه، وينسج منه مناديل غلظ للخوان، فإذا اتسخت وأريد غسلها ألقيت في النار، فيحترق ما عليها من الدرن، وتخلص، وتطلع نقية كأن لم يكن بها درن قط. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (١/ ٣٦٠)، و«الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» لابن البيطار (٣/ ١٣٩).

(٢) كما جاء هذا في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، رواه مسلم (٢٩٣٧).

(٣) أبو يزيد البسطامي: طيفور بن عيسى بن سروشان، وكان جدُّه سَروشان هذا مجوسيًا، فأسلم، وهم ثلاثة إخوة: آدم، وطيفور، وعليٌّ، وكلُّهم كانوا زهَّادًا عبَّادًا، توفي سنة (٢٦١هـ)، وقيل: (٢٣٤هـ). =

ويمشي على الماءِ فلا تغترُّوا بِهِ، حتى تنظُروا وقوفَهُ عند الأمرِ والنَّهي[١].

وقولَ الإمامِ اللَّيثِ: لو رأيْتَ صاحِبَ هوىً يطيرُ في الهواءِ فلا تغترَّ بهِ[٢].

وأطالَ الكلامَ في ذلك بحيثُ انفصَلَ الأمرُ مِن عندِ نائبِ السَّلطنَةِ: أنَّ كلَّ مَن خرَجَ منهم عنْ الكتابِ والسُّنَّةِ ضُربَتْ عنقُهُ.

ثم ظهرَ الشَّيخُ نصرٌ المنبجِيُّ بمصرَ وشاعَ أمرُه، فقيلَ للشَّيخِ ابن تيميةَ: إنَّه اتحاديٌّ، فكتَبَ إليهِ الشيَّخُ نحو ثلاث مِئةِ سطرٍ بالإنكارِ عليهِ، فأغرَى الشيَّخُ نصرٌ قضاةَ مصرَ وعلماءَها على ابنِ تيميةَ، وقالَ: إنَّه سيءُ العقيدةِ مبتدِعٌ معارِضٌ للفقراءِ وغيرِهم، وطعنُوا فيهِ عندَ السُّلطانِ، فورَدَ مرسومُ السُّلطانِ لدمشقَ بسؤالِ الشَّيخِ عن عقيدَتِه، فعُقِدَ المجلسُ للمناظرَةِ ثامنَ رجبٍ سنةَ خمسٍ وسبعِ مئةٍ بحضرةِ العلماءِ والقضاةِ كما مرَّ.

ولا يبعُدُ أن يكونَ الرَّوافضُ وغيرُهم قد برطَلُوا عليهِ.

ثم لم يُقنِعْ ذلكَ الشَّيخَ نصرًا، بل اجتمَعَ مع طائفةٍ مِن علماءِ مصرَ للجاشنكِيرِ الذي تسلطَنَ بمصرَ، فأوهمَه الشَّيخُ نصرٌ أن ابنَ تيميةَ يخرِجُهم مِن الملكِ ويقيمُ غيرَهم، وأنَّه مُبتدِعٌ.

فورَدَ مرسومُ السُّلطانِ إلى دمشقَ بإحضارِ ابنِ تيميةَ إلى مصرَ خامسَ شهرِ رمضانَ، سنةَ خمسٍ وسبعِمئةٍ، فلما طُلِبَ إلى الدِّيارِ المصريةِ مانعَ نائبُ الشَّامِ، وقالَ: قد عقِدَ له مجلسَانِ بحضرَتي، وحضرَهُ القضاةُ، والفقهاءُ، وما ظهرَ عليهِ شيءٌ!

= انظر: «طبقات الصوفية» للأزدي (ص٦٧)، و«الرسالة القشيرية» (ص٣٧).

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٨٦٠).

(٢) روى نحوه ابن أبي حاتم في «مناقب الشافعي» (ص١٤١)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٦٦٢)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٢٩٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١١٦).

فقالَ الرَّسولُ لنائبِ دمشقَ: أنا ناصحٌ لك، وقد قيلَ: إنَّه يجمَعُ النَّاسَ عليكَ، وعقَدَ لهم بيعةً، فجزَعَ من ذلكَ، وأرسلَه إلى القاهرةِ على البريدِ[١].

***

ذِكْرُ خروجِه إلى مصرَ

قالوا: ولما توجَّهَ الشيخُ من دمشقَ المحروسةِ لمحروسةِ مصرَ في يومِ الإثنينِ ثاني عشرَ رمضانَ سنةَ خمسٍ وسبعِ مئةٍ، وكان يومًا مشهودًا، غريبَ المثلِ في كثرةِ ازدحامِ النَّاسِ لوداعِهِ ورُؤيتِه، حتى انتشَروا من بابِ دارِهِ إلى قريبِ الجسورَةِ، فيما بينَ دمشقَ والكُسْوةِ[٢]، التي هي أولُ منزلةٍ منها، وهم ما بينَ باكٍ وحزينٍ، ومتعجِّبٍ ومُتنزهٍ، ومُزاحمٍ مُتغالٍ فيهِ، ودخلَ الشَّيخُ مدينةَ غزةَ يوم السَّبتِ، وعمِلَ في جامعِها مجلسًا عظيمًا.

وفي يومِ الخميسِ الثاني والعشرين من رمضانَ وصَلَ الشَّيخُ والقاضي إلى القاهرةِ.

وفي ثاني يومٍ بعدَ صلاةِ الجمعةِ، جمعَ القضاةَ وأكابرَ الدَّولةِ بالقلعةِ لمحفَلِ الشَّيخِ، وأرادَ الشَّيخُ أن يتكلَّمَ فلم يمكَّن من البحثِ والكلامِ على عادَتِه، وانتَدَبَ له الشَّمسُ ابن عدلانَ[٣] خصمًا احتسابًا، وادَّعى عليهِ عندَ القاضي ابنِ مخلوفٍ

---

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٠ـ٧٠١).

(٢) الكسوة: قرية جنوبي دمشق، تبعد عنها اثنا عشر ميلاً، أول المنازل للحاج ولمن يريد مصر إذا خرجوا من دمشق، سميت بذلك لأن غسان قتلت بها رسل ملك الروم لما أتوا إليهم لأخذ الجزية منهم واقتسمت كسوتهم. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٤٦١)، و«مراصد الاطلاع» للقطيعي (٣/ ١١٦٦).

(٣) محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان، الشيخ الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله =

المالكيِّ أنَّه يقولُ: إنَّ اللهَ فوقَ العرشِ حقيقةً، وإنَّ اللهَ يتكلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ[1].

زادَ الحافظُ الذهبيُّ: وأنَّ اللهَ يُشارُ إليهِ بالإشارةِ الحسيَّةِ.

وقالَ: أطلُبُ عقوبَتَه على ذلكَ.

فقالَ القاضي: ما تقولُ؟

فأخذَ الشيخُ في حمدِ اللهِ والثَّناءِ عليه.

فقالَ له القاضي: أجِبْ، ما جئْنَا بك لتخطُبَ.

فقالَ: ومن الحاكِمُ فيَّ؟

قيلَ له: القاضي المالكيُّ.

قالَ: كيفَ يحكُمُ فيَّ وهو خصمِي؟! وغضِبَ غضبًا شديدًا وانزعَجَ.

فأقيمَ مُرسَّمًا عليه، وحبِسَ في برجٍ أيَّامًا، ثم نُقِلَ منه ليلةَ عيدِ الفطرِ إلى الحبسِ المعروفِ بالجُبِّ، هو وأخواهُ: شرفُ الدِّينِ عبدُ اللهِ، وزينُ الدِّينِ عبدُ الرحمنِ[2].

ثم إنَّ نائبَ السَّلطنَةِ سيفَ الدِّينِ سلَّار[3] بعدَ أكثرَ من سنةٍ، وذلك ليلةَ

= الكناني المصري الشافعي، المعروف بابن عدلان، كان إمامًا عارفًا بالمذهب مشارًا إليه بالتقدم بين أهل العلم، توفي سنة (٧٤٩هـ) في طاعون القاهرة. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٢٩٧)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ٩٧).

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٦٦)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٤٣).

(٣) سلار البيري المنصوري كبير أمراء الصالحية والظاهرية، ثم صار نائبًا عن السلطان الناصر بالديار المصرية، وكان هو وبيبرس يتصرفان في شؤون الملك، كان عاقلاً تاركاً للشر، ينطوي على دهاء وخبرة بالأمور، وفيه دين بالجملة، اعتقله السلطان الناصر ومنعه الزاد حتى مات جوعًا سنة (٧١٠هـ). انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٢/ ٣٢٩)، و«فوات الوفيات» (٢/ ٨٦).

عيدِ الفطرِ مِن سنةِ ستٍّ وسبعِ مئةٍ، أحضَرَ القضاةَ الثَّلاثةَ الشَّافعيَّ والمالكِيَّ والحنفيَّ، ومِن الفقهاءِ الباجيَّ[١] والجَزَريَّ[٢] والنَّمراويَّ[٣]، وتكلَّمَ في إخراجِ الشَّيخِ من الحبسِ.

فاتَّفقُوا على أنَّه يُشترَطَ عليهِ أمورٌ، ويُلزَمَ بالرُّجوعِ عن بعضِ العقيدةِ، فأرسلُوا إليه مَن يُحضِرُه ليتكلَّمُوا معهُ في ذلك، فلم يجِبْ إلى الحضورِ، وتكرَّرَ الرَّسولُ إليهِ في ذلكَ ستَّ مرَّاتٍ، وصمَّمَ على عدمِ الحضورِ، فطالَ عليهم المجلسُ وانصرَفوا مِن غيرِ شيءٍ[٤].

وفي شهرِ ذي الحجَّةِ سنةَ ستٍّ وسبعِ مئةٍ طُلِبَ أخوا الشَّيخِ تقيِّ الدِّين: شرفُ الدِّينِ، وزينُ الدِّينِ مِن الحبسِ إلى مجلسِ نائبِ السَّلطنَةِ، وحضَرَ القاضي زينُ الدِّينِ بنُ مخلوفٍ المالكيُّ، وجرَى بينهم كلامٌ كثيرٌ، وأُعِيدا إلى مواضِعهما بعدَ أن بحثَ الشَّيخُ شرفُ الدِّين مع القاضي المالكيِّ، وظهَرَ عليه في النَّقلِ، وخطَّأَهُ في مواضِعَ.

---

(١) علاء الدين علي بن محمد بن خطاب المغربي الباجي المصري الأصولي، اختصر كتاب المحرر وكتاب علوم الحديث والمحصول في أصول الفقه والأربعين وكان عمدة في الفتوى، توفي سنة (٧١٤ هـ). انظر: «فوات الوفيات» (٣/ ٧٣)، و«الوافي بالوفيات» (٢١/ ٢٩٩).

(٢) في (ج): «الجوزي»، والتصويب من «العقود الدرية». وهو محمد بن يوسف شمس الدين الجزري الخطيب، كان عالمًا بالأصول وصنف فيه، وله شرح لطيف على ألفية ابن مالك، توفي بمصر سنة (٧١١هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» (٥/ ١٧٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ٢٧٦).

(٣) عبد العزيز بن عبد الجليل، الشيخ الإمام الفقيه عز الدِّين النمراوي الشافعي، كان من فقهاء القاهرة المشهورين، أفتى ودرس وصحب الأمير سيف الدين سلار مدة، وترقى بسببه، توفي سنة (٧١٠هـ). انظر: «أعيان العصر» (٣/ ٩٩)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٦٨).

(٤) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٦٧).

وفي ثاني يومٍ أُحضِرَ الشَّيخُ شرفُ الدِّينِ وحدَهُ إلى مجلسِ نائبِ السَّلطنةِ، وحضَرَ ابنُ عدلانَ وتكلَّمَ معهُ الشَّيخُ شرفُ الدينِ، وناظرَهُ وبحثَ معهُ، وظهَرَ عليهِ.

وفي صفرٍ سنةَ سبعٍ وسبعِ مئةٍ اجتمَعَ القاضي بدرُ الدِّينِ ابن جماعةَ[1] بالشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ في دارِ الأوحديِّ بالقلعةِ بُكرةَ الجمعةِ، وتفرَّقا قبلَ الصَّلاةِ، وطالَ بينَهُما الكلامُ.

وفي ربيعٍ الأوَّلِ من سنةِ سبعٍ دخَلَ الأميرُ حسامُ الدِّين مُهنَّا بن عيسى ملكُ العربِ إلى مصرَ، وحضَرَ بنفسِهِ إلى الجُبِّ، فأخرجَ الشَّيخَ تقيَّ الدِّينِ يومَ الجمعةِ إلى دارِ نائبِ السَّلطنَةِ بالقلعةِ، وحضرَ بعضُ الفقهاءِ، وحصلَ بينهم بحثٌ كثيرٌ، وفرَّقت بينهم صلاةُ الجمعةِ، ثم اجتمعوا إلى المغربِ ولم ينفصِلِ الأمرُ.

ثم اجتمَعُوا يومَ الأحدِ بمرسومِ السُّلطانِ، وحضَرَ جماعةٌ مِن الفقهاءِ، كنجمِ الدِّينِ ابنِ الرِّفعةِ[2]، وعلاءِ الدِّينِ الباجيِّ، وفخرِ الدِّينِ ابنِ بنتِ أبي سعدٍ[3]، وعزِّ الدِّين النَّمراويِّ، وشمسِ الدِّين ابن عَدلانَ، ولم يحضُرِ القضاةُ

---

(١) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، قاضي القضاة شيخ الإسلام بدر الدين أبو عبد الله الكناني الحموي الشافعي، صنف وروى الكثير، توفي سنة (٧٣٣هـ). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٢٠٩)، و«أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٢٠٨).

(٢) أحمد بن محمد ابن الرفعة، نجم الدين، شيخ الشافعية في عصره بمصر، كان إمامًا عالمًا قيمًا بمذهب الشَّافعي، شرح «التنبيه» في خمسة عشر مجلدًا، وشرح «الوسيط»، توفي سنة (٧١٠هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٧/ ٢٥٧)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ٢٥).

(٣) فخر الدين ابن بنت أبي سعد الشافعي عثمان بن علي العلامة المفتي فخر الدين الأنصاري الشافعي المصري ابن بنت أبي سعد من كبار الفقهاء ناب في الحكم ودرس بجامع ابن طولون. توفي سنة (٧١٩هـ) في القاهرة. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٢٠/ ٣٤)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (١٠/ ١٢٥).

وطُلِبوا، واعتذَرَ بعضُهم بالمرضِ، وبعضُهم بغيرِه[١]، وانفصَلَ المجلسُ على خيرٍ، وباتَ الشَّيخُ عندَ نائبِ السَّلطَنةِ.

وكتبَ كتابًا إلى دمشقَ بكرةَ الإثنين يتضمَّنُ خروجَهُ، وأنَّه أقامَ بدارِ شُقَيرٍ بالقاهرةِ، وأنَّ الأميرَ سيفَ الدِّينِ سلَّارَ رسمَ بتأخُّرِه عن الأميرِ مُهنَّا أيَّامًا ليرَى النَّاسُ فضلَهُ، ويحصُلَ لهم الاجتماعُ بهِ.

وكانَ مدَّةُ مقامِ الشَّيخِ في الجبِّ ثمانيةَ عشرَ شهرًا، وفرِحَ خلقٌ كثيرٌ بخروجِهِ، وسُرُّوا سرورًا عظيمًا، وحزِنَ آخرون[٢].

وامتدَحهُ الشيَّخُ الإمامُ نجمُ الدِّينِ سليمانُ بنُ عبدِ القويِّ الطُّوفيُّ[٣] بقصيدةٍ منها:

فاصبِرْ ففي الغَيبِ ما يُغنِيْكَ عن حِيَلٍ ... وكلُّ صَعبٍ إذا صَابَرتَهُ هانا

ولسْتَ تَعدَمُ مِنْ خَطْبٍ رُمِيْتَ بِهِ ... إحدَى اثنَتَين فأيقِنْ ذاكَ إيقَانا

تمحِيْصُ ذَنْبٍ لتَلقَى اللهَ خالِصَةً ... أو امتِحَانًا بهِ تَزدَادُ قُربانا

يا سعدُ، إنَّا لنَرجُو أن تَكُونَ لنا ... سَعْدًا ومَرعاكَ للزوَّارِ سعدانا

وأنْ يضرَّ بكَ الرَّحمنُ طائفَةً ... ولَّتْ وينفَعُ مَنْ بالودِّ والانا

---

(١) وذلك لمعرفتهم بما ابن تيمية منطوي عليه من العلوم والأدلة، وأن أحدًا من الحاضرين لا يطيقه. انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٥٠).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٦٨-٢٦٩).

(٣) سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم بن سعيد الطوفي، كان فقيهًا حنبليًّا، شاعراً أديبًا، فاضلاً لبيبًا، توفي سنة (٧١٠هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٤٤٦)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٢/ ٢٩٥).

يـا أهـلَ تيميـةَ العالِـينَ مَرتبَـةً ... ومَنصِبًـا فـرَعَ الأفـلاكَ تِبيانـا
جَواهـرُ الكَـونِ أنتُـم غَـيرَ أنَّكُـمُ ... في معـشَرٍ أُشرِبـوا في العَقـلِ نُقصَانـا
لا يَعرِفـون لكُـم فَضـلًا ولـو عَقَلـوا ... لصَـيَّروا لكُـم الأجفـانَ أوطانـا
يا مَنْ حوى مِن عُلومِ الخَلْقِ ما قصَرَت ... عنـهُ الأوائـلُ مُـذ كانـوا إلى الآنـا
إنْ تُبتَـلَى بلئـامِ النَّـاسِ يرفَعُهـم ... عليـكَ دهـرٌ لأهـلِ الفضلِ قـد خَانا
إنِّي لأقسِـمُ والإسـلامُ مُعتَقَـدِي ... وأنَّنـي مِـن ذَوِي الإيـمانِ إيمانـا
لم ألـقَ قبلَـكَ إنسَـانًا أُسَرُّ بـهِ ... فـلا برِحْـتَ لعَـينِ المجـدِ إنسَـانا

في أبياتٍ كثيرةٍ غيرِ هذه، يمدَحُ فيها الشيخَ، ويذمُّ أعداءَهُ(١).

وفي يـوم الجمعـةِ صلَّـى الشـيخُ فـي جامـعِ الحاكـمِ، وجلـسَ فاجتمَـعَ إليه خلـقٌ عظيمٌ، فسُـئِلَ الوعظَ، فاسـتعاذَ وقـرأَ الفاتحةَ، وتكلَّم في تفسـيرِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحـة: ٥]، وفـي معنـى العبادَةِ والاسـتعانَةِ، إلـى العصرِ(٢).

ثم لم يزَل الشَّيخُ رحمَهُ الله بمصرَ يعلِّمُ الناسَ ويفتِيهم، ويذكِّرُ باللهِ ويدعو إليهِ، ويتكلَّمُ في الجوامعِ على المنابرِ بتفسيرِ القرآنِ وغيرِهِ مِن بعدِ صلاة الجمعةِ إلى العصرِ، إلى أن ضاقَ منهُ خلقٌ كثيرٌ(٣).

وقـالَ الحافـظُ الذَّهبـيُّ: أقـام بمصـرَ يقـرِئُ العلـمَ، واجتمَـعَ خلقٌ عنـدَه إلى

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٧٠).
(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٧١).
(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٨٣).

أن تكلَّمَ في الاتحاديَّةِ القائلينَ بوحدَةِ الوجودِ[١]، وهم: ابنُ سبعِينَ وابن عربي والقونَويُّ[٢] وأشباهُهم.

فتحزَّبَ عليهِ صوفيَّةٌ وفقراءُ وسعَوا فيهِ، واجتمَعَ خلائقُ من أهلِ الخوانقِ[٣] والرُّبَطِ والزَّوايا، واتَّفقُوا على أن يشكُوا الشَّيخَ للسُّلطانِ.

فطلعَ منهم خلقٌ إلى القلعةِ، وخلقٌ تحتَ القلعَةِ، وكانَت لهم ضجَّةٌ شديدةٌ، حتَّى قالَ السُّلطانُ: ما لهؤلاءِ؟ فقيلَ لهُ: جاؤوا من أجلِ الشَّيخِ ابن تيميةَ يشكُونَ منهُ، ويقولونَ: إنهُ يسبُّ مشايِخَهم، ويضَعُ مِن قدرِهم عندَ النَّاسِ، واستغاثوا فيهِ، وجلَبُوا عليهِ، ودخلُوا على الأمراءِ في أمرِهِ، ولم يبقُوا ممكنًا[٤].

وأمرَ أن يُعقَدَ له مجلِسٌ بدارِ العدلِ، فعُقِدَ له يوم الثُّلاثاءِ في عشرِ شوَّالَ سنةِ سبعٍ وسبعِمئةٍ، وظهرَ في ذلكَ المجلسِ مِن علمِ الشَّيخِ، وشجاعتِهِ وقوَّةِ قلبِهِ، وصدقِ توكُّلِه، وبيانِ حُجَّتهِ ما يتجاوَزُ الوصفَ، وكانَ وقتًا مشهودًا.

---

(١) انظر: «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» للذهبي (ص٣٩).

(٢) محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرّومي، صدر الدّين، صوفي من كبار تلامذة الشيخ محيي الدّين ابن العربي، تزوّج ابن عربي أمّه، وربّاه، له مصنّفات في التصوف. توفي سنة (٦٧٣هـ) وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة. انظر: «الوافي بالوفيات» (٢/ ١٤١)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٤٥).

(٣) خوانق: جمع خانقاه، وهي محل التعبد والتزهد والبعد عن الناس، يسكنها أهل الصلاة والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، معرب: فانه كاه، قال المقريزي: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربع مئة، وجعلت لمتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. انظر: «تاج العروس» (مادة: خنق)، و«معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي» لمحمد دهمان (ص٦٦).

(٤) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٨٣).

وقالَ لـهُ كبيرٌ مـنَ المخالِفيـنَ: مـن أينَ لـكَ هذا؟ فقـالَ لهُ الشيـخُ: مـن أينَ لـكَ لا تعلَمُه[١].

وذكرَ الشَّيخُ البرزاليُّ وغيرُهُ: أنَّ في شوالٍ مِن سنةِ سبعٍ وسبعِ مئةٍ شكَا شيخُ الصُّوفيَّةِ بالقاهرةِ كريمُ الدِّينِ الآمِليُّ[٢] وابنُ عطاءٍ[٣] وجماعةٌ نحوُ الخمس مِئةٍ مِن الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ وكلامِه في ابنِ عربيٍّ وغيرِه إلى الدَّولةِ، فخيَّرُوه بينَ الإقامةِ بدمشقَ والإسكندريةِ بشروطٍ، أو الحبسِ، فاختارَ الحبسَ، فدخلَ عليهِ جماعةٌ في السَّفرِ إلى دمشقَ مُلتزِمًا ما شُرِطَ فأجابهم، فأركبُوه خيلَ البريدِ ليلةَ ثامنَ عشرَ شوالٍ.

ثـم أُرسِـلَ خلفَـهُ مـن الغـدِ بريـدٌ آخـرُ فـردَّهُ علـى مرحلـةٍ مِـن مصـرَ، ورأوا مصلحتَهـم فـي اعتقالِـهِ، وحضَـرَ عندَ قاضـي القضاةِ بحضـورِ جماعةٍ مِـن الفقهاءِ فقـالَ بعضُهـم لـهُ: مـا ترضَـى الدَّولـةُ إلَّا بالحبسِ فقـالَ قاضـي القضـاةِ: وفيـه مصلحـةٌ لـهُ، واسـتنابَ شـمسَ الدِّيـنِ التُّونسِـيَّ المالكِـيَّ[٤]، وأذنَ لـهُ أن يحكُـمَ

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٨٤).

(٢) كريم الدين الآملي: عبد الكريم بن حسن، شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، تعانى الاشتغال بالتصوف وخاض تلك الغمرات، قام عليه الصوفية مرة فاثبتوا فسقه من ستة عشر وجهًا، فأخرج من الخانقاه، ثم أعيد، توفي سنة (٧١٠هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (١٩/ ٥٤)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٣/ ١٩٧).

(٣) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، الشيخ العارف تاج الدين، أبو الفضل الإسكندري، كان رجلًا صالحًا، يتكلَّم على كرسي في الجامع بكلام حسن، وله ذوق ومعرفة بكلام الصوفية وآثار السلف، وله عبارة عذبة لها وقع في القلوب، وكانت له مشاركة في الفضائل، توفي سنة (٧٠٩هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٨/ ٣٨)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ٢٣).

(٤) محمد بن أبي القاسم بن جميل، الشيخ الإمام العالم الفاضل المفتي شمس الدين أبو عبد الله الربعي المالكي التونسي، ولي قضاء الإسكندرية، وله اختصار تفسير ابن الخطيب وقواعد القرافي وغير =

عليه بالحبسِ، فامتنَعَ وقالَ: ما ثبَتَ عليهِ شيءٌ، فأذِنَ لنورِ الدِّين[1] الزَّواويِّ المالكِيِّ[2] فتحيَّرَ.

فقالَ الشَّيخُ: أنا أمضي إلى الحبسِ، وأتَّبعُ ما تقتضِيهِ المصلحَةُ.

فقالَ نور الدِّينِ: فيكونُ في موضعٍ يصلُحُ لمثلِهِ.

فقيلَ له: ما ترضَى الدَّولةُ إلَّا بمسمَّى الحبسِ.

فأرسِلَ إلى حبسِ القضاةِ بحارةِ الدَّيلَمِ، وأُجلِسَ في الموضعِ الذي جلسَ[3] فيهِ القاضي تقيُّ الدِّين ابنُ بنتِ الأعزِّ[4] لَمَّا حبسَ، وأذِنَ أنْ يكونَ

= ذلك، توفي سنة (٧١٥هـ) بالقاهرة. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٧٠)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٥/ ٤١٠).

(١) كذا في (ج)، و«العقود الدرية» و«البداية والنهاية»، وفي مصادر ترجمته: «شرف الدين»، ونور الدين هو لقب ابنه واسمه علي ولا يصح أن يكون المقصود في النص فإنه ولد سنة (٧١٣هـ) وتوفي سنة (٧٦٩هـ)، أو لعله غيره، والله أعلم. انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ١١١).

(٢) عيسى بن مسعود بن منصور بن يحيى شرف الدين الزواوي الفقيه المالكي، انتهت إليه معرفة مذهب مالك رضي الله عنه بالديار المصرية، صنف تصانيف: منها «إكمال الإكمال شرح مسلم» جمع فيه بين المعلم وإكماله وشرح النووي، وزاد فيه فوائد ومسائل من كلام الباجي وابن عبد البر، وأبدى فيه سؤالات مفيدة وأجوبة عنها، وشرح كتاب ابن الحاجب في الفقه ولم يكمل، وتاريخًا في مجلدات، ودارت عليه الفتيا، توفي سنة (٧٤٤هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٣/ ٧٢٣)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ١١١)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٤٥٩).

(٣) في (ج): «أجلس».

(٤) عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف بن بدر، قاضي القضاة، تقي الدين، أبو القاسم ابن قاضي القضاة تاج الدين العَلَامي، المصري، الشافعي، المعروف بابن بنت الأعز، وكان فقيهًا، إمامًا، مناظرًا، بصيرًا بالأحكام، جيد العربية، ذكيًّا، نبيلًا، شاعرًا، محسنًا، فصيحًا، مفوهًا، وافر العقل، =

عنـدَهُ مَـن يخدُمـه، وكانَ جميـعُ ذلكَ بإشـارةِ الشَّـيخِ نصـرٍ المنبِجـيِّ ووجاهَتِه في الدَّولةِ[1].

ولَمَّا دخَلَ الحبسَ وجدَ المحابيسَ مشتغِلِينَ بأنواعٍ مِن اللَّعبِ يلتهُونَ بها عمَّا هُم فيه كالشَّطرنجِ والنَّردِ، مع تضييعِ الصَّلواتِ، فأنكَرَ الشيخُ ذلك عليهم، وأمرَهم بملازمةِ الصَّلاةِ، والتَّوجُّهِ إلى اللهِ بالأعمالِ الصَّالحةِ والتَّسبيحِ والاستغفارِ والدُّعاءِ، وعلَّمَهم مِنَ السُّنَنِ ما يحتاجُونَ إليهِ، ورغَّبَهم في أعمالِ الخيرِ، وحضَّهم على ذلكَ، حتَّى صارَ الحبسُ بالاشتغالِ بالعلمِ والدِّينِ خيرًا مِن كثيرٍ من الزَّوايا والرُّبطِ والخوانقِ والمدارِسِ، وصارَ خلقٌ مِنَ المحابيسِ إذا أُطلِقوا يختارونَ الإقامةَ عندَهُ، وكثُرَ المترددونَ إليهِ حتَّى كانَ الحبسُ يمتلئُ منهم.

واستمرَّ الشَّيخُ في الحبسِ يُستَفتى، ويقصِدُه النَّاسُ ويزورُونَه، وتأتيهِ الفتاوى المشكِلةُ مِن الأمراءِ وأعيانِ النَّاسِ.

فلمَّا كثُرَ اجتماعُ الناس بِهِ وتردُّدهم إليه ساءَ ذلك أعداءَهُ، وحُصِرَتْ صدورُهم، فسألوا نقلَهُ إلى الإسكندريةِ، فنُقِلَ إليها معَ أميرٍ مقدَّمٍ على البريدِ، ولم يمكَّن أحدٌ مِن جماعَتِه مِن السَّفرِ معهُ[2].

وحُبِسَ ببرجٍ منها، وشِيعَ بأنَّه قُتِلَ، وأنَّه غُرِّقَ غيرَ مرَّةٍ، ووصلَ الخبرُ إلى دمشقَ بعدَ عشرةِ أيَّامٍ فحصلَ التَّألُمُ وضاقَتِ الصُّدورُ، وتضاعَفَ الدُّعاءُ له.

= كامل السؤدد، عالي الهمة، عزيز النفس، وامتحن في الدولة الأشرفية على يد الصاحب شمس الدين ابن السلعوس ثم نجاه الله تعالى منه، توفي سنة: (٦٩٥ هـ). انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٢٨٠)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٨/ ١٠٥).

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٨٦ ـ ٢٨٧)، وانظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٥١).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٨٥ ـ ٢٨٦).

واستمرَّ الشيخُ بثغرِ الإسكندريةِ ثمانيةَ أشهرٍ مُقيمًا ببرجٍ مليحٍ نظيفٍ له شبَّاكانِ، أحدهما إلى جهةِ البحرِ، يدخُلُ إليه مَن شاءَ، ويتردَّدُ الأكابرُ والأعيانُ والفقهاءُ يقرؤونَ عليهِ ويبحَثُونَ معهُ ويستفِيدونَ منهُ[١]. وأرسَلَ صاحبُ سبتةَ إلى الشَّيخِ يطلُبُ منه الإجازةَ[٢].

فلمَّا دخَلَ السُّلطانُ الملكُ النَّاصِرُ إلى مصرَ بعد خروجِهِ من الكَركِ، وقدومِهِ إلى دمشقَ، وتوجَّهَ منها إلى مصرَ سنةَ تسعٍ وسبعِ مئةٍ بادرَ لإحضارِ الشَّيخِ مِن الإسكندريةِ في اليومِ الثَّامنِ مِن شوَّالٍ، فخرَجَ الشيخُ منها متوجِّهًا إلى مصرَ ومعهُ خلقٌ مِن أهلِها يودِّعونَهُ، ويسألونَ اللهَ أن يرُدَّهُ إليهِم، وكانَ وقتًا مشهُودًا.

ووصَلَ إلى القاهرةِ ثامنَ عشرَ الشَّهرِ، واجتمَعَ بالسُّلطانِ في يومِ الجمعةِ الرَّابعِ والعشرين منهُ، وأكرمَهُ وتلقَّاهُ في مجلسٍ حفِلٍ حضَرَ فيه قضاةُ مصرَ والشَّامِ والفُقهاءُ، وأصلَحَ بينَهُ وبينَهُم[٣].

قالَ الحافظُ ابنُ عبدِ الهادي ابن قدامةَ: أخبرني بعضُ أصحابِنا قالَ: أخبرَني القاضي جمالُ الدِّينِ ابنُ القلانسِيِّ قاضي العساكرِ المنصورةِ ذاتَ ليلةٍ، وقد أشاعَ الجهلَةُ والمبغِضونَ بأخبارٍ مختلفةٍ، فقلْتُ لهُ: إنَّ النَّاسَ يقولونَ: كيتَ وكيتَ، وإن الشيخَ ربما يخرُجُ من القلعةِ ويُدعَى عليهِ، ويعزَّرُ ويُطافُ بهِ، فقالَ: يا فلانُ! هذا لا يقَعُ، ولا يسمَحُ السُّلطانُ بشيءٍ من ذلكَ، وهو أعلَمُ بالشَّيخِ وبعلمِهِ ودينِهِ.

ثم قالَ: أخبِرُكَ بأمرٍ عجيبٍ وقعَ من السُّلطانِ في حقِّ الشيخِ، وهو: أنه حينَ توجَّهَ السلطانُ إلى الدِّيارِ المصريَّةِ، وهربَ سلَّارٌ والجاشَنكِيرُ، واستقرَّ أمرُ

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٩٣).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص١٣٣)، وقد تقدم التعريف بسبتة وصاحبها.

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٩٤).

السُّلطانِ، جلسَ يومًا في دستِ السَّلطنَةِ وأُبَّهةِ الملكِ، وأعيانُ الأمراءِ مِن الشَّاميِّينَ والمصريِّينَ حضورٌ عندَهُ، وقضاةُ مصرَ عن يمينِهِ، وقضاةُ الشَّامِ عن يسارِهِ، وذكرَ لي كيفيَّةَ جلوسِهم منهُ بحسبِ منازِلهم.

قالَ: وكانَ جملة من هناكَ: ابنُ صَصْري عن يسارِ السُّلطانِ، وتحتَهُ الصَّدرُ عليٌّ قاضي الحنفيةِ، ثم بعدَهُ الخطيبُ جلالُ الدِّينِ، ثم بعدَهُ ابنُ الزَّملكَانيِّ قالَ: وأنا إلى جانبِ ابن الزَّملكانيِّ، والنَّاسُ جلوسٌ خلفَهُ، والسُّلطانُ على مقعَدٍ مُرتفعٍ، فبينَما النَّاسُ كذلكَ جلوسٌ إذ نهَضَ السُّلطانُ قائمًا، فقامَ النَّاسُ، ثم مشَى السُّلطانُ فنزَلَ عن تلكَ المقعدَةِ ولا يُدرَى ما به، وإذا بالشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ مقبلٌ من البابِ، والسُّلطانُ قاصِدٌ إليه، فنزَلَ السُّلطانُ عن الإيوانِ والنَّاسُ قيامٌ، والقضاةُ والأمراءُ والدَّولةُ، فتسالمَ هو والسُّلطانُ، وذهبا إلى صُفَّةٍ في ذلكَ المكانِ، فيها شبَّاكٌ إلى بستانٍ، ويدُ الشَّيخُ في يدِ السُّلطانِ، فقامَ النَّاسُ.

وكانَ قد جاءَ في غيبةِ السُّلطانِ تلكَ الوزيرُ فخرُ الدِّينِ ابن الخليليِّ(١)، فجلسَ عن يسارِ السُّلطانِ، فوقَ ابن صَصْرَي، وقعَدَ السُّلطانُ على مقعَدِهِ مُتربِّعًا، وشرَعَ يُثني على الشَّيخِ عندَ الأمراءِ بثناءٍ ما سمِعتُهُ من غيرِهِ قطُّ، وقالَ كلامًا كثيرًا، والنَّاسُ يقولونَ معَهُ، ومثلَهُ الأمراءُ والقضاةُ، وكان وقتًا عجِيبًا، وذلكَ ممَّا يسوءُ كثيرًا مِن الحاضرينَ مِن أبناءِ جنسِهِ، وقالَ في الشَّيخِ مِن الثَّناءِ والمبالغَةِ ما لا يقدِرُ عليهِ أحدٌ مِن أخصِّ أصحابِهِ يقولُه.

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن الحسين بن الحسن بن إبراهيم الخليلي الداري الصاحب فخر الدين، كان خبيرًا بالأمور، شهمًا، مقدامًا، فيه كرم وسؤدد، ولي نظر الصحبة وديوان الصالح علي بن المنصور، ثم ولي الوزارة في دولة كتبغا وبعدها. توفي سنة (٧١٠هـ). انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢٠٠)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ٥١).

ثم إنَّ الوزيرَ أنهى إلى السُّلطانِ أنَّ أهلَ الذِّمَّةِ قد بذلُوا للدِّيوانِ في كلِّ سنةٍ سبع مئةَ ألفِ درهمٍ زيادةً على الجاليةِ إلى أن يعودُوا إلى لبسِ العمائمِ البيضِ، وأن يعفَوا مِن هذهِ العمائمِ المصبَّغةِ الَّتي ألزمَهم بها ركنُ الدِّينِ الجاشنكِيرُ

فقالَ السُّلطانُ للقضاةِ ومَن هناكَ: ما تقولونَ؟ فسكَتَ النَّاسُ، فلمَّا رآهُم الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ سكَتُوا جثا على رُكبَتيهِ، وشرعَ يتكلَّمُ مع السُّلطانِ في ذلكَ بكلامٍ غليظٍ، ويردُّ ما عرضَهُ الوزيرُ ردًّا عنِيفًا، والسُّلطانُ يسكِتُهُ برفقٍ وتؤدةٍ وتوقيرٍ، وبالغَ الشَّيخُ في الكلامِ، وقالَ ما لا يستطيعُ أحدٌ أن يقولَ بمثلِهِ ولا بقريبٍ منهُ، حتى رجَعَ السُّلطانُ عن ذلك، وألزمَهم بما هم عليهِ، واستمرُّوا على هذه الصِّفةِ، فهذا مِن حسناتِ الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ ابن تيميةَ رحمَهُ اللهُ[1].

قالَ: وسمعتُ الشَّيخَ تقيَّ الدِّين يذكُرُ: أنَّ[2] السُّلطانَ لَمَّا جلَسَا بالشبَّاكِ، أخرجَ فتاوى لبعضِ الحاضرينَ في قتلِه، واستفتاني في قتلِ بعضِهم، ففهمْتُ مقصُودَه، وأنَّ عندَهُ حَنَقًا شدِيدًا عليهم لما خلَعوهُ، وبايعوا الملكَ المظفَّرَ ركنَ الدِّين بيبرسَ الجاشنكِيرَ، فشرعتُ في مدِحهم، والثَّناءِ عليهم، وشكرِهم، وأنَّ هؤلاءِ لو ذهبُوا لم تجِدْ في دولتِكَ مثلَهم، وأما أنا فهم في حلٍّ مِن حقِّي ومِن جِهَتي، وسكَّنتُ ما عندَهُ عليهِم.

قالَ: فكان القاضي زينُ الدِّينِ ابن مخلوفٍ قاضي المالكيَّةِ يقولُ بعدَ ذلك: ما رأينا أفتى[3] مِن ابنِ تيميةَ، لم نُبقِ ممكِنًا في السَّعي فيهِ، ولَمَّا قدرَ علينا عفا.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٩٥ ـ ٢٩٧).

(٢) في (ج): «يذاكر» بدل «يذكر أن»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٣) أفتى: صيغة تفضيل من الفتوَّة، يقال: فتوت القوم أفتوهم: غلبتهم بالفتوَّة. انظر: «التكملة» للصغاني (مادة: فتى).

ثم إنَّ الشَّيخَ بعد اجتماعِهِ بالسُّلطانِ نزَلَ إلى القاهرةِ، وسكَنَ بالقربِ مِن مشهَدِ الحسينِ[١].

قالَ الذَّهبيُّ: ولم يكنِ الشَّيخُ مِن رجالِ الدَّولةِ، ولا يسلُكُ معهَم تلك النَّواميسَ، فلم يعدِ السُّلطانُ يجتَمِعُ به، وعادَ إلى بثِّ العلمِ ونشرِه، والخلقُ يشتغِلونَ عليهِ ويقرؤونَ، ويستفتُونَه ويجيبُهم بالكلامِ والكتابةِ، والأمراءُ والأكابرُ والنَّاسُ يتردَّدونَ إليهِ، وفيهم مَن يعتذِرُ إليهِ ممَّا وقعَ، فقالَ: قد جعلْتُ الكلَّ في حلٍّ ممَّا جرى[٢].

ولم يزَلِ الشَّيخُ مُستمرًّا على عادَتِهِ مِن نفعِ النَّاسِ وموعِظَتِهم والاجتهادِ في سبيلِ الخيرِ، فلمَّا كانَ في شهرِ رجبٍ سنةَ إحدى عشرةَ وسبعِ مئةٍ أُشيعَ أنَّ جماعةً بجامعِ مصرَ قد تعصَّبوا على الشَّيخِ وتفرَّدوا به وضرَبوهُ.

قالَ الشَّيخُ علمُ الدِّينِ: ظفَرَ بِهِ بعضُ المبغضِينَ لهُ في مكانٍ خالٍ، وأساءَ عليهِ الأدبَ، وحضَرَ جماعةٌ كثيرةٌ مِن الجندِ وغيرِهم إلى الشَّيخِ بعدَ ذلك لأجلِ الانتصارِ لهُ، فلم يُجِب إلى ذلكَ وقالَ: أنا ما أنتصِرُ لنفسي[٣].

ولَمَّا أُشيعَ ذلك قالَ بعضُ أصحابِهِ: فجئْتُ إلى مصرَ فوجدْتُ خَلقًا كثيرًا من الحسينيَّةِ وغيرِها رجالًا وفُرسانًا يسألوه عن الشَّيخِ، فجئتُ فوجدتُهُ بمسجِدِ الفخرِ كاتبِ الممالكِ على البحرِ، واجتمَعَ عندَهُ جماعةٌ وتشايعَ النَّاسُ.

وقالَ له بعضُهم: يا سيِّدِي قد جاءَ خلقٌ من الحسينيَّةِ لو أمرتهم أن يهدِمُوا مصرَ كلَّها لفعلوا.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٩٦ ـ ٢٩٩).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٩٩)، وانظر: «البداية والنهاية» (١٤/ ٦٠).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٠٥).

فقالَ لهم الشَّيخُ: لأيِّ شيءٍ؟

قالوا: لأجلِكَ.

فقالَ لهم: هذا شيء ما يجوزُ.

قالوا: فنحنُ نذهَبُ إلى بيوتِ هؤلاءِ الَّذين آذَوكَ فنقتُلُهم، ونخرِبُ دورَهم، فإنهم شوَّشُوا على الخلقِ، وأثاروا هذهِ الفتنةَ على الناسِ.

فقالَ لهم: هذا ما يحِلُّ.

قالوا: فهذا الذي فعلُوهُ معكَ يحلُّ؟ هذا شيءٌ لا نصبرُ عليهِ، ولا بدَّ أن نروحَ إليهم ونُقاتِلَهم على ما فعلُوا، والشَّيخُ ينهاهُم ويزجُرُهم.

فلمَّا أكثرُوا في القولِ قال لهم: إمَّا أن يكونَ الحقُّ لي، أو لكم، أو للهِ، فإن كانَ الحقُّ لي فهم في حلٍّ، وإن كانَ لكُم فإنْ لم تسمَعُوا منِّي فلا تستَفتُوني، وافعلُوا ما شِئتم، وإنْ كانَ الحقُّ للهِ فاللهُ يأخُذُ حقَّهُ كما يشاءُ، إن شاءَ[1].

وأقامَ الشَّيخُ بعدَ هذا مدَّةً في الدِّيارِ المصريةِ، ثم إنَّه توجَّهَ إلى الشَّامِ صحبةَ الجيشِ المصريِّ قاصدًا الغَزاةَ، فلما وصَلَ معهم إلى عسقلانَ توجَّهَ إلى بيتِ المقدسِ، وتوجَّه منهُ إلى دمشقَ، وجعَلَ طريقَه على عجلونَ، ووصَلَ دمشقَ أوَّلَ يومٍ من ذي القعدَةِ سنةَ اثنتي عشرةَ وسبعِ مئةٍ، ومعَهُ أخواهُ وجماعةٌ مِن أصحابِه، وخرَجَ خلقٌ كثيرٌ لتلقِّيهِ، وسرُّوا سرورًا عظيمًا بمقدَمِه وسلامَتِه.

وكانَ مجموعُ غيبَتِه عن دمشقَ سبعَ سنينَ وسبعَ جُمعٍ[2].

* * *

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٠٢-٣٠٣).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٠٥-٣٠٦).

ذكرُ ما وقعَ للشيخِ ابن تيميةَ بعدَ عودِهِ لدمشقَ المحروسَةِ

قالَ الحافظُ ابنُ عبدُ الهادِي ابن قدامةَ: ثم إنَّ الشَّيخَ رحمه اللهُ بعد وصولِهِ مِن مصرَ إلى دمشقَ واستقرارِه بها، لم يزَل مُلازِمًا للاشتغالِ، ونشرِ العلمِ، وتصنيفِ الكتبِ، وإفتاءِ النَّاسِ بالكلامِ والكتابةِ المطوَّلةِ، ونفعِ الخلقِ والإحسانِ إليهم، والاجتهادِ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ.

ففي بعضِ الأحكامِ يُفتي بما أدَّى إليهِ اجتِهادُه مِن موافقَةِ أئمَّةِ المذاهبِ الأربعَةِ، وفي بعضِها قد يُفتي بخلافِهم، أو بخلافِ المشهورِ في مذاهبِهم[١].

وتقدَّم قولُ الذَّهبيِّ في حقِّهِ: وله الآنَ عدةُ سنينَ لا يُفتي بمذهبٍ معيَّنٍ، بل بما قامَ الدَّليلُ عليهِ عندَه.

ومِن اختياراتِه الَّتي خالَفَهم فيها، أو خالَفَ المشهورَ مِن أقوالِهم:

ـ القولُ بقصرِ الصَّلاةِ في كلِّ ما يُسمَّى سفرًا طويلًا كانَ أو قصيرًا، كما هو مذهَبُ الظَّاهريَّةِ، وقولُ بعضِ الصَّحابةِ[٢].

ـ والقولُ بأنَّ البكرَ لا تُستَبْرأُ وإنْ كانَت كبيرةً، كما هوَ قولُ ابنِ عمرَ[٣]، واختارَه البخاريُّ صاحِبُ «الصَّحيحِ»[٤].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٤٣)، (٢٤/ ١٢).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٩٠٦)، وعلقه البخاري في «صحيحه» (باب هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٧٠)، وانظر: «صحيح البخاري» (باب هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها).

- والقولُ بأنَّ سجودَ التِّلاوةِ لا يُشترَطُ له وضوءٌ، كما هوَ مذهَبُ ابنِ عمرَ[١]، واختارَهُ البخاريُّ أيضًا[٢].

- والقولُ بأنَّ مَنْ أكَلَ في شهرِ رمضانَ مُعتقدًا أنَّه ليلٌ فبانَ نهارًا لا قضاءَ عليهِ، كما هو في «الصَّحيحِ» عن عمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي اللهُ عنه[٣]، وإليهِ ذهبَ بعضُ التَّابعينَ، وبعضُ الفقهاءِ بعدَهم[٤].

- والقولُ بأنَّ مَن أفطَرَ في رمضانَ عمدًا، أو تركَ الصَّلاةَ بلا عذرٍ لا قضاءَ عليهِ، وقالَ به بعضُ الظَّاهريةِ، وحكِيَ عن ابنِ بنتِ الشَّافعيِّ[٥]، وفي البخاريِّ عَن أبي هُريرَةَ: «مَن أفطَرَ يومًا مِن رمضانَ مِن غيرِ عذرٍ ولا مرضٍ لم يقضِهِ صِيامُ الدَّهرِ وإنْ صامَهُ»[٦]، وبهِ قالَ ابن مسعودٍ. وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ،

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» (باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٦٥)، وانظر: «صحيح البخاري» (باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء).

(٣) أخرج الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٣٠٣): عن خالد بن أسلم، أنَّ عمر بن الخطاب أفطر ذات يوم في رمضان في يوم ذي غيم، ورأى أنه قد أمسى وغابت الشمس، فجاءه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، طلعت الشمس، فقال عمر: «الخطب يسير وقد اجتهدنا».

(٤) انظر: «الفتاوى» (٢٥/ ٢١٦).

(٥) ابن بنت الشافعي: أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد، المطلبي الشافعي نسبًا ومذهبًا، أبو محمد، أمه زينب بنت الإمام الشافعي، كان جليلًا فاضلًا واسع العلم، لم يكن في آل شافع بعد الشافعي مثله. انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٢/ ٢٩٦)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ١٨٦).

(٦) رواه أبو داود (٢٣٩٦)، والترمذي (٧٢٣)، وابن ماجه (١٦٧٢). قال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وسمعت محمدًا يقول: أبو المطوس: اسمه يزيد بن المطوس ولا أعرف له غير هذا =

والشَّعبيُّ، وابنُ جُبيرٍ، وإبراهيمُ، وقتادَةُ، وحمَّادٌ: يقضِي يومًا مكانَهُ[١].

ـ والقولُ بأنَّ المتمَتِّعَ يكفيهِ سعيٌ واحدٌ بين الصَّفا والمروةَ، كما في حقِّ القارنِ والمفردِ، وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنه، وروايةٌ عن الإمامِ أحمدَ بن حنبلٍ، رواها عنهُ ابنهُ عبدُ اللهِ[٢]، وكثيرٌ مِن أصحابِ الإمامِ أحمدَ لا يعرِفُونها[٣].

ـ والقولُ بجوازِ المسابقَةِ بلا محلِّلٍ، وإنْ أخرجَ المتسابقانِ[٤].

ـ والقولُ باستبراءِ المختلعةِ بحيضَةٍ، وكذلكَ الموطوءةِ بشُبهةٍ، والمطلقةِ آخر ثلاثِ تطليقاتٍ[٥].

ـ والقولُ بإباحةِ وطءِ الوثنيَّاتِ بملكِ اليمينِ[٦].

ـ والقولُ بجوازِ عقد الرِّداءِ في الإحرامِ، ولا فديةَ في ذلكَ[٧].

ـ وجوازِ طوافِ الحائضِ، ولا شيءَ عليها إذا لم يمكِنها أن تطوفَ طاهِرًا[٨].

= الحديث. وعلقه البخاري في «صحيحه» قبل حديث رقم (١٩٣٥) بصيغة التضعيف.

(١) انظر: «صحيح البخاري» قبل حديث رقم (١٩٣٥). وانظر: «منهاج السنة النبوية» لابن تيمة (٥/ ٢٢٤).

(٢) انظر: «مسائل الإمام أحمد ـ رواية ابنه عبد الله» رقم: (٧٤٨)، و(٨٢٤)، و«مسائل ابن هانئ» (٨٦٠).

(٣) انظر: «الفتاوى» (٢٦/ ١٣٨)، والمشهور في المذهب أن عليه سعيين، انظر: «المبدع» (٣/ ٢٤٨)، و«الإقناع» (١/ ٣٩٢).

(٤) انظر: «الفتاوى» (٢٨/ ٢٢).

(٥) انظر: «الفتاوى» (٣٣/ ١٠).

(٦) انظر: «الفتاوى» (٣٢/ ١٨٢).

(٧) انظر: «الفتاوى» (٢٦/ ١١١).

(٨) انظر: «الفتاوى» (٢٦/ ٢١٤).

- والقولُ بجوازُ بيعِ الأصلِ بفرعِه، كالزَّيتونِ بالزَّيتِ، والسِّمسِمِ بالشَّيرَجِ[١].

- والقولُ بجوازِ بيعِ[٢] ما يُتخَذُ مِن الفضَّةِ للتَّحلِّي وغيرِهِ بالفضَّةِ مُتفاضِلًا، وجعلِ الزَّائدِ مِن الثَّمنِ في مقابلَةِ الصَّنعَةِ[٣].

- والقولُ بأنَّ المائعَ لا ينجُسُ بوقوعِ النَّجاسةِ فيهِ إلَّا أنْ يتغيَّرَ، قليلًا كانَ أو كثيرًا[٤].

- والقولُ بجوازِ التَّيمُّمِ لمن خافَ فواتَ العيدِ أو الجمعةِ باستعمالِ الماءِ[٥].

- والقولُ بجوازِ التَّيمُّمِ في مواضعَ معروفةٍ[٦]، والجمعِ بينَ صلاتَينِ في أماكنَ مشهورةٍ[٧].

وغيرِ ذلكَ مِن الأحكامِ المعروفةِ مِن أقوالِه.

- وكانَ يميلُ أخيرًا إلى القولِ بتوريثِ المسلِمِ مِن الكافرِ الذِّمِّيِّ، وله في ذلكَ مصنَّفٌ وبحثٌ طويلٌ[٨].

- ومِن أقوالِه المشهورةِ الَّتي جرَى بسببِ الإفتاءِ بها محنٌ وقلاقِلُ قولُهُ:

---

(١) الشيرج معرب من شيره وهو دهن السمسم وربما قيل للدهن الأبيض وللعصير قبل أن يتغير شيرج تشبيها به لصفائه. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: شرج).

(٢) «بيع» من «العقود الدرية».

(٣) انظر: «الاختيارات» للبعلي (ص١٨٨).

(٤) انظر: «الفتاوى» (٢١/ ١٩).

(٥) انظر: «الفتاوى» (٢١/ ٤٥٦).

(٦) انظر: «الفتاوى» (٥/ ٣٠٩).

(٧) انظر: «الفتاوى» (٢/ ٣١).

(٨) انظر: «الفتاوى» (٥/ ٤٤٥).

بالتَّكفيرِ بالحلِفِ بالطَّلاقِ، وأنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ لا يقعُ إلَّا واحدةً، وأنَّ الطَّلاقَ المحرَّمَ لا يقَعُ، وله في ذلكَ مصنَّفاتٌ ومؤلفاتٌ كثيرةٌ منها:

قاعدَةٌ كبيرةٌ سمَّاها: «تحقيق الفرقانِ بينَ التَّطليقِ والأيمانِ» نحوُ أربعين كراسَةً.

وقاعدةٌ سمَّاها: «الفرق المبينُ بين الطلاقِ واليمينِ» بقدرِ النِّصفِ من ذلكَ.

وقاعدةٌ في أنَّ جميعَ أيمانِ المسلمينَ مُكفَّرةٌ، مجلدٌ لطيفٌ.

وقاعدةٌ في تقريرِ أنَّ الحلِفَ بالطَّلاقِ مِن الأيمانِ حقيقةً.

وقواعدُ وأجوبةٌ غيرُ ذلكَ مَّما لا ينضَبطُ ولا ينحصِرُ.

ولهُ جوابُ اعتراضٍ وردَ عليهِ مِن الدِّيارِ المصريَّةِ، وهو جوابٌ طويلٌ في ثلاثِ مجلَّداتٍ، بقطعِ نصفِ البلدِيِّ[1].

ثم اجتمَعَ في الشَّيخِ نصفَ ربيعٍ الآخرِ سنةَ ثمان عشرةَ وسبعِمئةٍ القاضي شمسُ الدِّينِ ابنُ مُسَلَّمٍ الحنبليُّ[2]، وأشارَ عليهِ بتركِ الإفتاءِ في مسألةِ الحلفِ بالطَّلاقِ، فقبِلَ إشارَتهُ، وعرَفَ نصيحَتَهُ، وأجابَ إلى ذلكَ.

فلمَّا كانَ يومُ السَّبتِ، مستهلَّ جمادى الأولى مِن هذهِ السنةِ، وردَ البريدُ إلى دمشقَ، ومعهُ كتابُ السُّلطانِ بالمنعِ مِن الفتوى في مسألةِ الحلِفِ بالطَّلاقِ، الَّتي رآها الشَّيخُ تقيُّ الدينِ، والأمرِ بعقدِ مجلسٍ في ذلكَ، فعقِدَ يومَ الإثنين ثالثَ الشَّهرِ

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٣٧ ـ ٣٤١).

(٢) محمد بن مسلم بن مالك قاضي القضاة بركة الأئمة شمس الدين أبو عبد الله الزيني الصالحي الحنبلي النحوي، برع في المذهب والعربية، على ورع وعفاف ومحاسن جمة، أدركه الأجل بالحضرة النبوية، وتأسف الناس لفقده. توفي سنة (٧٢٦هـ). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٣٦٤)، و«أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٢٦٣).

المذكورِ بدارِ السَّعادَةِ، وانفصَلَ الأمرُ على ما أمرَ به السُّلطانُ، ونودِيَ بذلك في البلدِ بعدَ يومِ الثُّلاثاءِ رابعَ الشَّهرِ المذكورِ.

ثم إنَّ الشيخَ عادَ إلى الإفتاءِ بذلكَ، وقالَ: لا يسعُني كتمانُ العلمِ[١].

فلمَّا كانَ يومُ الثُّلاثاءَ تاسِعَ عشرَ رمضانَ سنةَ تسعَ عشرةَ جُمِعَ القضاةُ والفقهاءُ عندَ نائب السَّلطنةِ بدارِ السَّعادةِ، وقُرِئَ عليهِم كتابُ السُّلطانِ، وفيهِ فصلٌ يتعلَّقُ بالشَّيخِ بسببِ الفتوَى في هذِه المسألةِ، وأُحضِرَ وعوتِبَ على فُتياهُ بعدَ المنعِ، وأُكِّدَ عليه في المنعِ من ذلك.

فلمَّا كانَ بعدَ ذلكَ بمدَّةٍ، ثانيَ عشرَ رجبٍ سنةَ عشرينَ، عُقِدَ مجلسٌ بدارِ السَّعادةِ، وحضرَهُ النَّائبُ والقضاةُ وجماعةٌ من المفتِينَ، وحضرَ الشَّيخُ، وعاودوهُ في الإفتاءِ في مسألةِ الطَّلاقِ، وعاتبُوه على ذلكَ، وحُبِسَ في القلعةِ، فبقي فيها خمسةَ أشهرٍ وثمانيةَ عشرَ يومًا، ثم وردَ مرسومُ السُّلطانِ بإخراجِهِ، فأُخرِجَ يومَ الإثنينِ يومَ عاشوراءَ من سنةِ إحدى وعشرينَ، وتوجَّهَ إلى دارِهِ، ثم لم يزَل بعدَ ذلكَ يعلِّمُ النَّاسَ ويلقِي الدُّروسَ في أنواعِ العلمِ[٢].

* * *

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٤١).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٤١_٣٤٣).

ذكرُ حبسِ الشَّيخِ بقلعَةِ دمشقَ إلى أن ماتَ بها

قالوا: لَمَّا كانَ سنةُ ستٍّ وعشرينَ وسبعِ مئةٍ وقعَ الكلامُ في مسألةِ شدِّ الرِّحالِ، وإعمالِ المطيِّ إلى قبورِ الأنبياء والصالحينَ، وكثُرَ القيلُ والقالُ بسببِ العثورِ[1] على جوابِ الشَّيخِ الآتي، وعظُمَ التَّشنيعُ على الشَّيخِ وحرِّفَ عليهِ، ونقِلَ عنه ما لم يقلهُ، وحصلَتْ فتنةٌ طارَ شرَرُها في الآفاقِ، واشتدَّ الأمرُ، وخِيفَ على الشَّيخِ مِن كيدِ القائمينَ في هذه القضيَّةِ بالدِّيارِ الشَّاميَّةِ والمصريَّةِ، فضعُفَ مِن أصحابِ الشَّيخِ مَن كانَ عندَهُ قوَّةٌ، وجبُنَ منهم مَن كانَتْ له همَّةٌ.

وأمَّا الشَّيخُ رحمَهُ الله فكانَ ثابِتَ الجأشِ، قويَّ القلبِ، وظهرَ صدقُ توكُّلِه واعتمادِهِ على ربِّه.

ولقد اجتمَعَ جماعةٌ معروفونَ بدمشقَ وضربوا مشورةً في حقِّ الشَّيخِ:

فقالَ أحدُهم: يُنفى. فنُفِيَ القائلُ.

وقالَ آخرُ: يُقطَعُ لسانُه. فقُطِعَ لسانُ القائلِ.

وقالَ آخرُ: يعزَّرُ. فعُزِّرَ القائلُ.

وقالَ آخرُ: يُحبَسُ. فحُبِسَ القائلُ.

أخبرَ بذلك من حضرَ هذه المشورَةَ وهو كارِهٌ لها.

واجتمَعَ جماعةٌ آخرونَ بمصرَ، وقاموا في هذهِ القضيَّةِ قيامًا عظيمًا، واجتمَعُوا بالسُّلطانِ، وأجمَعُوا أمرَهُم على قتلِ الشَّيخِ، فلم يوافِقْهمُ السُّلطانُ على ذلكَ، وأرضَى خاطِرَهم السُّلطانُ بالأمرِ بحبسِهِ[2].

---

(١) في (ج): «القبور»، والتصويب من (ط).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٤٤ ـ ٣٤٥).

فلمَّا كانَ يومُ الإثنَين، سادسَ شعبانَ مِن السَّنةِ المذكورَةِ، ورَدَ مرسومُ السُّلطانِ بأن يكونَ في القلعةِ، وأُحضِرَ للشَّيخِ مركوبٌ، فأظهَرَ السُّرورَ بذلكَ وقال: أنا كنْتُ مُنتَظِرًا ذلك، وهذا فيه خيرٌ عظيمٌ.

فركِبَ إلى القلعةِ، وأُخلِيَتْ له قاعةٌ حسنَةٌ، وأجرِيَ إليها الماءُ، ورُسِمَ له بالإقامةِ فيها، وأقامَ معَهُ أخوهُ زينُ الدِّينِ يخدِمُه بإذنِ السُّلطانِ، ورُسِمَ له بما يقُومُ بكفايَتِه.

وفي يومِ الجمعةِ عاشرَ الشَّهرِ المذكورِ قُرِئَ بجامعِ دمشقَ الكتابُ السُّلطانيُّ الوارِدُ بذلك، وبمنعِهِ مِن الفُتيا.

وليسَ بعجيبٍ فقد وقَعَ لأبي حنيفَةَ مثلُه مِن المنعِ والحبسِ، ووقعَ للإمامِ أحمدَ كذلكَ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفي يومِ الأربعاءِ مُنتصفَ شعبان أمرَ القاضي الشَّافعيُّ بحبسِ جماعةٍ مِن أصحابِ الشَّيخِ بسجنِ الحُكمِ، وأوذِيَ جماعةٌ مِن أصحابِهِ، واختفَى آخرونَ، وعزِّرَ جماعةٌ، ونودِيَ عليهم، ثم أُطلِقوا، سوى الإمامِ شمسِ الدِّينِ محمَّدِ بن أبي بكرٍ إمامِ الجوزيَّةِ فإنَّه حُبِسَ بالقلعةِ، وسكنَتِ القضيَّةُ[1].

وهذا صورةُ السُّؤالِ وجوابِ الشَّيخِ عنهُ:

ما تقولُ السَّادةُ أئمَّةِ الدِّينِ نفَعَ الله بهم المسلمينَ: في رجلٍ نوَى زيارةَ قبورِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، مثلَ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ وغيرِه، فهَل يجوزُ له في سفرِهِ أن يقصُرَ الصَّلاةَ، وهل هذهِ الزِّيارةُ شرعيَّةٌ أم لا؟

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٤٤ـ٣٤٦).

وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «مَنْ حجَّ ولم يزُرني فقد جفَاني»، و«مَنْ زارَني بعد موتي كانَ كمَنْ زارَني في حياتي».

وقد روِيَ عنهُ ﷺ أنَّهُ قالَ: «لا تشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ: المسجِدِ الحرامِ، ومسجِدي هذا، والمسجِدِ الأقصى»، أفتُونا مأجورِينَ.

الجوابُ:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، أمَّا مَنْ سافرَ لمجرَّدِ زيارةِ قبورِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، فهل يجوزُ له قصرُ الصلاةِ؟ على قولَينِ معروفَين:

أحدُهما: وهو قولُ مُتقدِّمي العلماءِ الَّذين لا يجوِّزُون القصرَ في سفرِ المعصيةِ كأبي عبدِ اللهِ ابن بطةَ، وأبي الوفاءِ ابن عقيلٍ، وطوائفَ كثيرةٍ من العلماءِ المتقدِّمينَ: أنَّه لا يجوزُ القصرُ في مثلِ هذا السَّفرِ؛ لأنَّهُ سفرٌ منهيٌّ عنهُ[1] في الشَّريعةِ فلا يُقصَرُ فيه.

والقولُ الثَّاني: أنَّه يقصُرُ، وهذا يقولُه مَنْ يجوِّزُ القصرَ في السَّفرِ المحرَّمِ، كأبي حنيفةَ، ويقولُه بعضُ المتأخِّرينَ مِن أصحابِ الشَّافعيِّ وأحمدَ ممَّن يجوِّزُ السَّفرَ لزيارةِ قبورِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، كأبي حامدٍ الغزاليِّ، وأبي الحسَنِ بن عَبدُوسَ الحرَّانيِّ، وأبي محمَّدٍ ابن قُدامةَ المقدسيِّ.

وهؤلاءِ يقولونَ: إنَّ هذا السَّفرَ ليسَ بمحرَّمٍ؛ لعمومِ قولِهِ ﷺ: «زوروا القبورَ»[2]، وقد يحتجُّ بعضُ مَن لا يعرِفُ الحديثَ بالأحاديثِ المرويَّةِ في زيارَةِ قبرِ النَّبيِّ ﷺ،

---

(١) في «العقود الدرية» (ص٣٤٩): «لأنه سفر منهى عنه ومذهب مالك والشافعي وأحمد أن السفر المنهى عنه في الشريعة لا يقصر فيه».

(٢) رواه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة رضي الله عنه، ولفظه: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها».

كقولِه: «مَنْ زارَني بعدَ مماتي فكأنَّما زارَني في حَياتِي»، رواهُ الدَّارَقُطنيُّ[١].

وأمَّا ما يذكرُهُ بعضُ الناسِ من قولِه: «من حجَّ ولم يزُرني فقَد جفاني»[٢]، فهذا لم يروِهِ أحدٌ من العلماءِ، وهو مثلُ قولِه: «مَن زارَني وزارَ أبي إبراهيمَ في عامٍ واحدٍ ضمِنْتُ له على اللهِ الجنَّةَ»[٣]، فإنَّ هذا أيضًا باطلٌ باتِّفاقِ العلماءِ، لم يرْوِهِ أحدٌ ولم يحتجَّ بِهِ أحدٌ، وإنَّما يحتجُّ بعضُهم بحديثِ الدَّارَقطنيِّ.

وقدِ احتجَّ أبو محمَّدٍ المقدسيُّ على جوازِ السَّفرِ لزيارةِ القبورِ بأنَّه ﷺ كانَ يزورُ مسجِدَ قباءٍ، وأجابَ عن حديثِ: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ» بأنَّ ذلك محمولٌ على نفي الاستحبابِ[٤].

وأمَّا الأوَّلونَ فإنَّهم يحتجُّونَ بما في «الصَّحِيحَينِ» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ؛ المسجِدِ الحرامِ، ومسجِدِي هذا، والمسجِدِ الأقصى»[٥]، وهذا الحديثُ اتَّفقَ الأئمَّةُ على صحَّتِهِ، والعملِ بِهِ، فلو نذرَ بشدِّ الرَّحلِ أن يصلِّيَ بمسجدٍ أو بمشهدٍ، أو يعتكِفَ فيهِ، ويسافرَ إليهِ، غيرَ هذه الثَّلاثةِ لم يجِب عليهِ ذلك باتِّفاقِ الأئمَّةِ، ولو نذَرَ أن يسافِرَ ويأتيَ[٦]

---

(١) رواه الدارقطني في «سننه» (٢٦٩٤)، وكذا البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨٥٥)، من حديث حاطب رضي الله عنه، وفي إسناده رجل مجهول.

(٢) رواه ابن حبان في «المجروحين» (٣/ ٧٣)، وقال: النعمان بن شبل يأتي على الثقات بالطامات، وعن الأثبات بالمقلوبات.

(٣) قال الإمام النووي في «المجموع» (٨/ ٢٧٧): وهذا باطل ليس هو مرويًا عن النبي ﷺ، ولا يعرف في كتاب صحيح ولا ضعيف، بل وضعه بعض الفجرة.

(٤) انظر: «المغني» (٣/ ١١٧).

(٥) رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (ج): «ويأتي أتى».

المسجِدَ الحرامَ بحجٍّ أو عمرةٍ وجَبَ عليهِ ذلك باتِّفاقِ العلماءِ.

ولو نذَرَ أن يأتيَ مسجِدَ النَّبيِّ ﷺ أو المسجِدَ الأقصَى لصلاةٍ أو اعتكافٍ وجبَ عليهِ الوفاءُ بهذا النَّذرِ، عندَ مالكٍ والشَّافعيِّ ـ في أحدِ قولَيهِ ـ وأحمدَ، ولم يجِبْ عند أبي حنيفةَ؛ لأنَّه لا يجِبُ عندَهُ بالنَّذرِ إلَّا ما كانَ مِن جنسِهِ واجِبًا.

وأمَّا الجمهورُ فيوجبونَ الوفاءَ بكلِّ طاعةٍ، كما ثبتَ في «صحيحِ البخاريِّ» عنْ عائشةَ رضيَ الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ نذَرَ أن يطيعَ اللهَ فليُطِعْهُ، ومَنْ نذرَ أن يعصِيَ اللهَ فلا يعصِهِ»[1]، والسَّفرُ إلى المسجِدَينِ طاعةٌ، فلهذا وجَبَ الوفاءُ بهِ.

وأمَّا السَّفرُ إلى بقعةٍ غيرِ المساجِدِ الثَّلاثةِ فلم يوجِبْ أحدٌ مِن العلماءِ السَّفرَ إليهِ إذا نذرَهُ، حتى نصَّ العلماءُ: على أنَّهُ لا يسافِرُ إلى مسجِدِ قباءٍ، لأنَّهُ ليسَ مِن الثَّلاثةِ معَ أن مسجِدَ قباءٍ تُستحَبُّ زيارَتهُ لمن كانَ في المدينةِ؛ لأن ذلكَ ليسَ بشدِّ رحلٍ، كما في الحديثِ الصَّحيحِ: «مَنْ تطهَّرَ في بيتِهِ ثم أتى مسجدَ قُباءٍ لا يريدُ إلَّا الصَّلاةَ فيهِ كانَ كعُمرَةٍ»[2].

قالوا: ولأنَّ السَّفرَ إلى زيارةِ قبورِ الأنبياءِ والصَّالحِينَ بدعةٌ، لم يفعَلها أحدٌ مِن الصَّحابةِ ولا التَّابعِينَ، ولا أمرَ بها رسولُ اللهِ ﷺ، ولا استحبَّ ذلكَ أحدٌ مِن أئمَّةِ المسلِمينَ، فمَن اعتقدَ ذلك عبادةً وفعلَهُ فهوَ مخالفٌ للسُّنَّةِ، ولإجماعِ الأئمَّةِ، وهذا ممَّا ذكرَهُ أبو عبدِ اللهِ ابنُ بطَّةَ في «الإبانةِ الصُّغرى»[3] مِنَ البِدعِ المخالفَةِ للسُّنَّةِ والإجماعِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٩٦).

(٢) رواه النسائي (٦٩٩)، وابن ماجه (١٤١٢)، من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه، وفي سنده محمد بن سليمان الكرماني، لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات، وله شاهد من حديث أسيد رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الإبانة الصغرى» (ص٢٤٣).

وبهذا يظهَرُ ضعفُ حجَّةُ أبي محمَّدٍ؛ لأنَّ زيارَةَ النَّبيِّ ﷺ لمسجدِ قُباءٍ لم تكُنْ بشدِّ رحلٍ؛ لأنَّ السَّفَرَ إليهِ لا يجِبُ بالنَّذرِ.

وقولُهُ: «لا تشدُّ الرِّحالُ» محمولٌ على نفيِ الاستحبابِ، عنهُ جوابانِ:

أحدُهما: أنَّ هذا - إن سُلِّمَ - فيه أنَّ هذا السَّفرَ ليسَ بعملٍ صالحٍ، ولا قُربَةٍ ولا طاعةٍ، ولا هو مِن الحسناتِ فإذًا مَن اعتقدَ أنَّ السَّفرَ لزيارةِ قبورِ الأنبياءِ والصَّالحينَ قُربةٌ وعبادةٌ وطاعةٌ، فقد خالَفَ الإجماعَ، وإذا سافرَ لاعتقادِهِ أنَّها طاعةٌ كانَ ذلك محرَّمًا بإجماعِ المسلمينَ، ومعلومٌ أنَّ أحدًا لا يُسافِرُ إليها إلَّا لذلكَ، وأمَّا إذا نذَرَ الرَّجلُ أن يسافِرُ إليها لغرضٍ مباحٍ، فهذا جائزٌ، وليسَ مِن هذا البابِ.

الوجهُ الثاني: أنَّ الحديثَ يقتَضِي النَّهيَ، والنَّهيُ يقتَضِي التَّحريمَ، وما ذكرَهُ مِن الأحاديثِ في زيارةِ قبرِ النَّبيِّ ﷺ فكلُّها ضعيفةٌ باتِّفاقِ أهلِ العلمِ بالحديثِ، بل هيَ موضوعةٌ، لم يروِ أحدٌ مِن أهلِ السُّننِ المعتمَدَةِ شيئًا منها، بل مالكٌ إمامُ أهلِ المدينةِ الَّذين هم أعلَمُ النَّاسِ بحكمِ هذه المسألةِ كرِهَ أنْ يقولَ الرَّجلُ: زُرْتُ قبرَ النَّبيِّ ﷺ، ولو كانَ هذا اللَّفظُ معرُوفًا عندَهم، أو مشروعًا، أو مأثورًا عن النَّبيِّ ﷺ لم يكرَهْهُ عالمُ أهلِ المدينةِ.

والإمامُ أحمدُ أعلَمُ النَّاسِ في زمانِه بالسُّنةِ لَمَّا سُئِلَ عن ذلكَ لم يكُن عندَهُ ما يُعتمَدُ عليهِ في ذلكَ مِن الأحاديثِ، إلَّا حديثَ أبي هُريرَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «ما من رجلٍ يُسلِّمُ عليَّ، إلَّا ردَّ اللهُ عليَّ روحِي، حتى أردَّ عليهِ السلامَ»[1]، وعلى هذا اعتمَدَ أبو داودَ في «سنَنِه».

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك مالكٌ في «الموطَّأ» روى[١] عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ: أنَّه كانَ إذا دخَلَ المسجِدَ قالَ: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ! السَّلامُ عليكَ يا أبا بكرٍ! السَّلامُ عليكَ يا أبتِ! ثم ينصرِفُ[٢].

وفي «سننِ أبي داودَ» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «لا تتَّخِذُوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ[٣] فإنَّ صلاتَكُم تبلُغُني حيثُما كُنْتُمْ»[٤].

وفي «سننِ سعيدِ بنِ منصورٍ»: أنَّ عبدَ اللهِ بنَ حسنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رأى رجُلًا يختَلِفُ إلى قبرِ النَّبيِّ ﷺ، فقالَ له: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا تتخِذُوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ، فإن صلاتَكُم تبلُغُني حيثُ ما كنتُم»، فما أنتَ ورجلٌ بالأندلسِ منه إلَّا سواءٌ[٥].

وفي «الصَّحيحَينِ» عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ في مرضِ موتِه: «لعنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارَى، اتخَذُوا قبورَ أنبيائِهم مساجَدَ»، يحذِّرُ ما فعلوا. قالَتْ عائشةُ: ولولا ذلكَ لأُبرِزَ قبرُه، ولكِن كرِهَ أن يُتخَّذَ مَسجِدًا[٦].

وهم دفنُوه في حجرةِ عائشةَ، خلافَ ما اعتادُوهُ مِن الدَّفنِ في الصحراءِ، لئلا يصلِّي أحدٌ عندَ قبرِه ويتَّخِذَه مسجِدًا، فيُتخذَ قبرُهُ وثنًا.

---

(١) في (ج): «وروى»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) روى نحوه الإمام ملك في «الموطأ» (١/ ١٦٦)، ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٧٢٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١٧٩٣).

(٣) «علي» سقط من (ج).

(٤) رواه أبو داود (٢٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) عزاه ابن تيمية إلى سعيد بن منصور وساق سنده في «الفتاوى» (٢/ ٤٣١)، وروى نحوه الأزدي في «تحقيق فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٣٠)، وليس فيه: «فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء».

(٦) رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكانَ الصَّحابةُ والتَّابعونَ لَمَّا كانتِ الحجرةُ النَّبويَّةُ مُنفصلَةً عن المسجدِ إلى زمنِ الوليدِ بن عبدِ الملكِ لا يدخُلُ أحدٌ إليهِ، لا لصلاةٍ هُناكَ، ولا تمسُّحٍ بالقبرِ، ولا دعاءٍ هنالِكَ، بل هذا جميعُهُ إنَّما كانوا يفعلُونَهُ في المسجِدِ.

وكانَ السَّلَفُ مِن الصَّحابةِ والتَّابعِينَ إذا سلَّموا عليهِ، وأرادوا الدُّعاءَ دعَوا مُستَقبِلي القِبلَةِ، ولم يستَقبِلُوا القبرَ.

وأما الوقوفُ للسَّلامِ عليهِ:

فقالَ أبو حنيفَةَ: يستقبِلُ القِبلَةَ أيضًا، ولا يستقبِلُ القبرَ[1].

وقالَ أكثرُ الأئمَّةِ: يستقبِلُ القبرَ عندَ السَّلامِ خاصَّةً، ولم يقُل أحدٌ مِنَ الأئمَّةِ: إنَّهُ يستقبِلُ القبرَ عندَ الدُّعاءِ، وليسَ في ذلكَ إلَّا حكايةٌ مكذوبَةٌ تُروى عن مالكٍ، ومذهَبُهُ بخلافِها[2].

واتَّفقَ الأئمةُ على أنه لا يمسُّ قبرَ النَّبيِّ ﷺ ولا يُقبِّلُهُ[3].

وهذا كلُّهُ محافظةً على التَّوحيدِ؛ فإنَّ مِن أصولِ الشِّركِ باللهِ تعالى اتِّخاذَ القبورِ مساجِدَ، كما قالَ طائفةٌ مِن السَّلفِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قالوا: هؤلاءِ كانوا قومًا صالِحينَ في قومِ نوحٍ، فلمَّا ماتوا عكَفُوا على قبورِهم، ثم صوَّروا على صوَرِهم تماثيلَ، ثم طالَ عليهِمُ الأمَدُ فعبَدُوها.

---

(١) انظر: «الاختيار» (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) انظر: «النوادر والزيادات على ما في المدونة» للقيرواني (٢/ ٤٣٨)، و«المغني» لابن قدامة (٣/ ٤٧٨).

(٣) انظر: «المغني» لابن قدامة (٣/ ٤٧٩)، و«الشرح الكبير على المقنع» لابن أبي عمر (٩/ ٢٧٧)، و«الاختيار» لابن مودود (١/ ١٧٦)، و«المدخل» لابن الحاج (١/ ٢٦٢)، و«المبدع في شرح المقنع» لابن مفلح (٣/ ٢٣٧).

وقد ذكرَ هذا المعنى البُخاريُّ في «صحِيحه» عن ابنِ عبَّاسٍ[١]، وذكرَهُ محمَّدُ بنُ جريرٍ الطَّبريُّ وغيرُه في «التَّفسِيرِ» عن غيرِ واحدٍ مِن السَّلَفِ[٢].

وقد بسطْتُ الكلامَ على أصولِ هذه المسائلِ في غيرِ هذا الموضِعِ.

وأوَّلُ مَن وضَعَ هذه الأحاديثَ في السَّفرِ لزيارةِ المشاهدِ الَّتي على القبورِ هم أهلُ البِدَعِ من الرَّافضَةِ ونحوِهم، الَّذينَ يعطِّلونَ المساجدَ، ويُعظِّمونَ المشاهدَ، الَّتي يُشرَكُ فيها، ويُكذَبُ فيها، ويُبتدَعُ فيها دينٌ لم ينزِّلِ اللهُ به سلطانًا، فإنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ إنَّما فيهما ذكرُ المساجدِ دونَ المشاهدِ، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ﴾ [التوبة: ١٨]، وقالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤].

وقد ثبَتَ عنهُ في «الصَّحيحِ» أنَّهُ كان يقولُ: «إنَّ مَن كانَ قبلَكُم كانوا يتَّخذُونَ القبورَ مساجِدَ، فإنِّي أنهاكُم عن ذلكَ»[٣].

هذا آخرُ ما أجابَ بِهِ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ، واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلَمُ.

وكانَ للشَّيخِ في هذه المسألةِ كلامٌ متقدِّمٌ، أقدَمُ من هذا الجوابِ المذكورِ، وفيهِ ما هو أبلَغُ من هذا الجوابِ[٤]، كما أشارَ إليهِ[٥] في الجوابِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٣٩).

(٣) رواه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب رضي الله عنه.

(٤) «المذكور وفيه ما هو أبلغ من هذا الجواب» من (ط).

(٥) «إليه» من (ط).

ولما ظفروا في دمشقَ بجوابِه هذا كتبُوهُ، وبعثُوا بِهِ إلى الدِّيارِ المصريَّةِ، وكتبَ عليهِ قاضي الشافعيَّةِ: قابلْتُ الجوابَ عَن هذا السُّؤالِ المكتوبَ على خطِّ ابنِ تيميةَ فصحَّ، إلى أن قالَ[١]: وإنَّما الـمَحَزُّ[٢] جعلُهُ زيارةَ قبرِ النَّبيِّ ﷺ وقبورَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم معصيةً بالإجماعِ مقطُوعًا بها.

هذا كلامُهُ، فانظُر إلى هذا التَّحريفِ على شيخِ الإسلامِ!

والجوابُ ليسَ فيهِ المنعُ مِن زيارةِ قبورِ الأنبياءِ والصَّالِحينَ، وإنَّما فيهِ ذِكْرُ قولَينِ في شدِّ الرَّحلِ للسَّفرِ إلى مجرَّدِ زيارةِ القبورِ، وزيارةٌ مِن غيرِ شدِّ رحلٍ إليها مسألةٌ، وشدُّ الرَّحلِ لمجرَّدِ الزِّيارةِ مسألةٌ أُخرى.

والشَّيخُ لا يمنَعُ الزِّيارةَ الخاليةَ عن شدٍّ، بل يستحِبُّها، ويندُبُ إليها، وكتبُهُ ومناسِكُه تشهَدُ بذلكَ، ولم يتعرَّضِ الشَّيخُ إلى هذهِ الزِّيارةِ في الفُتيا؛ لأنَّ السَّائلَ لم يسألْ عنها، ولا قالَ: إنَّها معصيةٌ، ولا حكَى الإجماعَ على المنعِ منها؛ لأنَّ العامَةَ فضلًا عن العلماءِ يعرِفونَ أنَّ زيارةَ القبورِ سنَّةٌ، فكيفَ يُظَنُّ الجهلُ بذلكَ ممَّن سُلِّمَ لهُ الاجتهادُ المطلَقُ؟! واللهُ سبحانَهُ لا تخفَى عليهِ خافيةٌ[٣].

ولَمَّا وصَلَ خطُّ القاضي المذكورِ إلى الدِّيارِ المصريَّةِ كثُرَ الكلامُ، وعظُمَتِ الفتنةِ، وطُلِبَ القضاةُ بها، فاجتمَعُوا وتكلَّموا، وأشارَ بعضُهم بحبسِ الشَّيخِ، فرسمَ السلطانُ بِهِ، وجرى ما تقدَّمَ ذِكْرُه، ثم جرى بعدَ ذلك أمورٌ على القائمينَ في هذهِ القضيَّةِ، لا يمكِنُ ذكرُها في هذا الموضعِ.

* * *

---

(١) في (ج): «فصح لي أن أقال»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) في (ج): «المجز»، وفي «العقود الدرية»: «المحرف»، والمثبت من «البداية والنهاية» (١٤/ ١٤٣).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٤٨ ـ ٣٥٧).

ذكرُ انتصارِ علماءِ بغدادَ للشيخِ

قالوا: لَمَّا وصَلَ ما أجابَ بهِ الشَّيخُ في هذه المسألةِ إلى علماءِ بغدادَ قاموا في انتصارِ الشَّيخِ، وكتبوا بموافقَتِه.

قالَ الحافظُ ابن عبدِ الهادي ابن قدامةَ: ورأيتُ خُطوطَهم بذلكَ، وينبغِي ذكرُ شيءٍ منها هنا:

هذا صورةُ جوابِ الشَّيخِ الإمامِ العلَّامةِ جمالِ الدِّينِ يوسُفَ بن عبدِ المحمودِ ابن عبدِ السَّلامِ بن السَّبتيِّ الحنبليِّ[1]، ومن خطِّهِ نُقِلَ:

قالَ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، بعدَ حمدِ اللهِ، الَّذي هو فاتحةُ كلِّ كلامٍ، والصَّلاةِ والسَّلامِ على رسولِهِ محمَّدٍ خيرِ الأنامِ، وعلى آلِهِ وأصحابِه البررَةِ الكرامِ، أعلامِ الهُدى ومصابيحِ الظَّلامِ.

يقولُ أفقَرُ عبادِ اللهِ وأحوجُهم إلى عفوِه: ما حكاهُ الشَّيخُ الإمامُ، البارعُ الهمامُ، افتخارُ الأنامِ، جمالُ الإسلامِ، ركنُ الشَّريعةِ، ناصرُ السُّنَّةِ، قامعُ البدعةِ، جامعُ شتاتِ الفضائلِ، قدوةُ العلماءِ الأماثلِ، في هذا الجوابِ مِن أقوالِ العلماءِ والأئمةِ والنُّبلاءِ، بيِّنٌ لا يُدفَعُ، ومكشوفٌ لا يُتقنَّعُ، بل أوضحُ من النَّيِّرينِ، وأظهرُ مِن فَرَقِ الصُّبحِ لذي عينَينِ.

---

(١) يوسف بن عبد المحمود بن عبد السلام، الشيخ الإمام العالم جمال الدين البتّي الحنبلي، المقرئ الفقيه، الأديب النحوي، المتفنن، كان من فضلاء العراق ببغداد، وإليه المرجع في القراءات والعربية، ونالته في آخر عمره محنة، واعتقل بسبب موافقته الشيخ ابن تيمية في مسألة الزيارة، وكاتبه عليها مع جماعة من علماء بغداد، توفي سنة (٧٢٦هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٦٥٨)، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٤٦٣).

والعمدةُ في هذه المسألةِ: الحديثُ المتَّفقُ على صحَّتِهِ، ومنشأُ الخلافِ بينَ العلماءِ مِن احتمالي صيغَتِه، وذلكَ أنَّ صيغةَ قولِهِ ﷺ: «لا تشدُّ الرحالُ» ذاتُ وجهَينِ؛ نفيٍ ونهيٍ، لاحتمالِها لهما، فإن لُحِظَ معنى النَّفيِ فمعناهُ: نفيُ فضيلةِ واستحبابِ شدِّ الرحلِ وإعمالِ المطيِّ إلى غيرِ المساجدِ الثَّلاثةِ، ويتعيَّنُ توجُّهُ النَّفيِ إلى فضيلَتِهما واستحبابِهما دوَن ذاتِهما، وإلَّا لزِمَ تخلُّفُ الخبرِ، ولا يلزَمُ مِن نفيِ الفضيلةِ والاستحبابِ نفيُ الإباحَةِ، فهذا وجهُ متمسَّكِ مَن قالَ بإباحةِ هذا السَّفرِ بالنَّظرِ إلى أنَّ هذهِ الصِّيغَةَ نفيٌ، وبنى على ذلكَ جوازَ القَصْرِ.

وإنْ كانَ النَّهيُ ملحُوظًا، فالمعنَى حينئذٍ: نهيُهُ عن إعمالِ المطيِّ وشدِّ الرِّحالِ إلى غيرِ المساجدِ الثَّلاثةِ؛ إذ المقررُ عندَ عامَّةِ الأُصوليِّينَ: أنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ قاضٍ بتحريمِهِ أو كراهتِهِ على حسبِ الأدلَّةِ، فهذا وجهُ متمسَّكِ مَن قالَ بعدمِ جوازِ القَصْرِ في هذا السفرِ لكونِهِ منهيًّا عنهُ.

وممَّنْ قالَ بحُرمَتِهِ الشَّيخُ الإمامُ أبو محمَّدٍ الجوينيُّ مِن الشَّافعيَّةِ، والشَّيخُ الإمامُ أبو الوفاءِ ابنُ عقيلٍ من الحنابلَةِ، وهو الَّذي أشارَ القاضي عياضٌ مِن المالكيَّةِ إلى اختيارِه[1].

وما جاءَ من الأحاديثِ في استحبابِ زيارةِ القبورِ، فمحمولةٌ على ما لم يكُن فيهِ شدُّ رحلٍ وإعمالُ مطيٍّ.

ويحتمِلُ أنْ يُقالَ: لا يصلُحُ أن يكُونَ غيرُ حديثِ الرِّحالِ معارِضًا له؛ لعدَمِ مساواتِهِ إيَّاهُ في الدرجَةِ، لكونهِ مِن أعلَى أقسامِ الصَّحيحِ، واللهُ تعالى أعلَمُ.

---

(١) انظر قول أبي محمد الجويني والقاضي عياض في: «شرح النووي على مسلم» (٩/ ١٠٦)، و«فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٦٥). وانظر قول ابن عقيل في «المغني» لابن قدامة (٢/ ١٩٥).

وقد بلغني أنَّه رُزِئَ وضُيِّقَ[١] على المجيبِ، وهذا أمرٌ يحارُ فيه اللَّبيبُ، ويتعجَّبُ منه الأريبُ، ويقعُ بهِ في شكٍّ مريبٍ.

فإنَّ جوابَهُ في هذهِ المسألةِ قاضٍ بذكرِ خلافِ العلماءِ، وليسَ حاكِمًا بالغضِّ مِنَ الصَّالحِينَ والأنبياءِ؛ فإنَّ الأخذَ بمقتضَى كلامِهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ في الحديثِ المتَّفقِ على رفعِهِ إليهِ هوَ الغايةُ القُصوى في تتبُّعِ أوامرِهِ ونواهيهِ، والعدولُ عن ذلكَ محذورٌ، وذلك ممَّا لا مِرْيةَ فيهِ.

وإذا كانَ كذلكَ فأيُّ حرجٍ على مَن سُئلَ عن مسألةٍ فذكرَ فيها خلافَ الفقهاءِ، ومالَ فيها إلى بعضِ أقوالِ العلماءِ؟ فإنَّ الأمرَ لم يزَل كذلكَ على ممرِّ العصورِ، وتعاقُبِ الدُّهورِ، وهل ذلكَ محمولٌ مِن القادحِ إلَّا على امتطاءِ نِضوِ[٢] الهوَى، المفضِي بصاحبِه إلى التَّوَى[٣]، فإنَّ مَنْ يقتبسُ مِن فوائدِهِ، ويلتقِطُ مِن فرائدِه لحقيقٌ بالتَّعظيمِ، وخليقٌ بالتَّكريمِ، ممَّن له الفهمُ السَّليمُ، والذِّهنُ المستقيمُ، وهل حكمُ الـمُظَاهِرِ عليهِ في الظَّاهرِ إلَّا كما قيلَ في المثلِ السَّائرِ: الشَّعيرُ يؤكَلُ ويُذَمُّ[٤]، ولولا خشيةُ الملالةِ لَمَا سئِمْتُ مِن الإطالةِ[٥].

---

(١) في (ج): «بلغ زري وضيف»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) في (ج): «نصر»، والمثبت من «العقود الدرية»، والنضو: المهزول، أو الفاسد. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: نضو).

(٣) في (ج): «النوى»، والمثبت من «العقود الدرية»، والتوى: ذهاب مال لا يرجى. والنوى: الفراق، والتحول من دار إلى غيرها، والبعد. والسياق يحتمل الكلمتين. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: توي ـ نوى).

(٤) الشعير يؤكل ويذم: يضرب في ذمِّ المحسن. انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (١/ ٣٢٧).

(٥) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٦٥ ـ ٣٦٧).

وكتبَ تحتهُ الإمامُ صفيُّ الدِّينِ ابن عبد الحقِّ الحنبليُّ[١]:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلواتُه على سيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلهِ الطَّاهرينَ، ما ذكرَهُ مولانا الإمامُ العالمُ العامِلُ، جامعُ الفضائلِ، بحرُ العلمِ ومنشَأُ الفضلِ، جمالُ الدِّينِ الكاتبُ، خطَّهُ أمامَ خطِّي هذا، جمَّلَ اللهُ به الإسلامَ، وأسبَغَ عليهِ سوابغَ الإنعامِ، أتى فيه بالحقِّ الجليِّ الواضحِ، وأعرَضَ فيهِ عن إغضاءِ المشايخِ؛ إذِ السُّؤالُ والجوابُ اللَّذانِ تقدَّماهُ لا يخفَى على ذي فِطنةٍ وعقلٍ أنَّه أتى في الجوابِ بالمطابقِ للسُّؤالِ، بحكايةِ أقوالِ العلماءِ الَّذينَ تقدَّموهُ، ولم يبقَ عليهِ في ذلك إلَّا أنْ يَعترِضَ معترِضٌ في نقلِه فيبرِزَهُ له مِن كتبِ العلماءِ الَّذينَ حكَى أقوالَهم.

والمتعرِّضُ لهُ بالتَّشنيعِ إمَّا جاهلٌ لا يعلَمُ ما يقولُ، أو متجاهِلٌ يحمِلُه حسَدُهُ، وحِميةُ الجاهليةِ على ردِّ ما هو عندَ العلماءِ مَقبولٌ.

أعاذَنا اللهُ تعالى مِن غوائلِ الحسَدِ، وعصمَنا مِن مخايلِ النَّكدِ بمحمَّدٍ وآلهِ الطَّاهِرينَ[٢].

* * *

---

(١) عبد المؤمن بن عبد الحق بن عبد الله بن علي، صفي الدين أبو الفضائل، القطيعي الأصل، البغدادي الحنبلي، الإمام الفرضي المتقن، له تصانيف محررة في علوم كثيرة، وهو صاحب: «مراصد الاطلاع في الأمكنة والبقاع»، ولما حبس الجماعة الذين كتبوا على مسألة الزيارة، موافقة للشيخ تقي الدين لم يتعرض له، هيبة له واحترامًا، وحبس سائرهم وأوذوا، توفي سنة (٧٣٩هـ). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص١٥٢)، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٥/ ٧٧ ـ ٨٣).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٦٤).

جوابٌ آخرُ لعلماءِ الشَّافعيَّةِ

قالَ بعدَ البسملَةِ والحمدَلةِ:

لا ريبَ أنَّ المملوكَ وقفَ على ما سُئِلَهُ الشَّيخُ الإمامُ العالمُ العلَّامَةُ، وحيدُ دهرِهِ، وفريدُ عصرِهِ، تقيُّ الدِّينِ أبو العبَّاسِ ابنُ تيميةَ، وما أجابَ بِهِ، فوجدتُهُ خُلاصةَ ما قالَهُ العلماءُ في هذا البابِ، حسَبَ ما اقتضاهُ الحالُ مِن نقلِهِ الصَّحيحِ، وما أدى إليهِ البحثُ مِن الإلزامِ والالتزامِ، لا يدخلُهُ تحامُلٌ، ولا يعتَريه تجاهلٌ، وليسَ فيهِ ـ والعياذُ باللهِ ـ ما يقتَضِي الإزراءُ والتَّنقِيصُ بمنزِلةِ الرَّسولِ ﷺ، وكيفَ يجوزُ للعلماءِ أن تحمِلَهم العصبيَّةُ أنْ يتفوَّهوا بالإزراءِ والتَّنقيصِ في حقِّ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

وهل يجوزُ أن يَتصوَّرَ مُتَصوِّرٌ أنَّ زيارةَ قبرِ النَّبيِّ ﷺ تزيدُ في قدرِه، وهل تركُها ممَّا ينقِصُ مِن تعظِيمِه؟ حاشا للرَّسولِ مِن ذلكَ.

نعم، لو ذكَرَ ذلكَ ذاكرٌ ابتداءً، وكانَ هناكَ قرائنُ تدلُّ على الإزراءِ والتَّنقيصِ أمكَنَ حملُه على ذلكَ، من أنَّهُ كانَ يكونُ كنايةً لا صريحًا، فكيفَ وقد قالَهُ في معرِضِ السُّؤالِ وطريقِ البحثِ والجدالِ؟ معَ أنَّ المفهومَ مِن كلامِ العلماءِ، وأنظارِ العقلاءِ: أنَّ الزِّيارَةَ ليسَتْ عبادَةً وطاعةً بمجرَّدِها، حتَّى إنَّهُ لو حلَفَ: إنَّه يأتي بعبادةٍ أو طاعةٍ، لم يبرَّ بها.

لكِنَّ القاضي ابنَ كَجٍّ[1] مِن مُتأخِّري أصحابِنا ذكَرَ أنَّ هذهِ الزيارَةَ عندَهُ

---

(١) أبو القاسم يوسف بن أحمد بن يوسف بن كج الكجي الدينوري، أحد أئمة الشافعية، وتولى القضاء ببلده، وكانت له نعمة كثيرة. وقتلته الحرامية بالدِّيْنَور في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (٤٠٥هـ). انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٧/ ٦٥)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٩/ ١٠٠).

قربـةٌ، تلـزَمُ ناذِرَهـا، وهـو منفـرِدٌ بهِ، لا يُسـاعِدُه فـي ذلكَ نقـلٌ صريـحٌ، ولا قياسٌ صحيحٌ .

والَّـذي يقتضِيـهِ مُطلَقُ الخبـرِ النَّبويِّ في قولهِ عليهِ السَّـلامُ: «لا تُشَـدُّ الرِّحالُ» إلـى آخـرِهِ: أنَّـه لا يجـوزُ شـدُّ الرِّحـالِ إلى غيـرِ ما ذُكـرَ، فمَـنِ اعتقَـدَ جوازَ الشَّـدِّ إلـى غيـرِ ما ذُكـرَ، أو وجوبَـهُ، أو ندبيَّتَهُ كان مخالِفًـا لصريحِ النَّهـيِ، ومخالفةُ النَّهيِ مَعصيةٌ .

حرَّرهُ ابنُ الكُتْبيِّ الشَّافعيُّ[1] حامِدًا للهِ على نِعَمه.

* * *

جوابٌ آخرُ لعلماءِ المالكيَّةِ

قالَ:

مـا أجـابَ بهِ الشَّـيخُ الأوحَـدُ الأجَـلُّ، بقيةُ السَّـلَفِ، وقـدوَةُ الخلـفِ، رئيسُ المحقِّقيـنَ، وخُلاصـةُ المدقِّقينَ، تقيُّ الملَّـةِ والحقِّ والدِّينِ، مـن الخلافِ في هذهِ المسـألةِ = صحيـحٌ منقـولٌ فـي غيـرِ مـا كتـابٍ مِن كتـبِ أهـلِ العلـمِ، لا اعتراضَ عليـهِ فـي ذلـكَ؛ إذْ ليـسَ في ذلـكَ ثلـبٌ لرسـولِ اللهِ ﷺ، ولا غضٌّ مِن قـدرِه ﷺ.

وقـد نـصَّ الشَّـيخُ أبـو محمـدٍ الجُوَينيُّ فـي كتبِهِ علـى تحريـمِ السَّـفَرِ لزيارَةِ القبـورِ، وهـو اختيارُ الإمـامِ القاضي عياضِ بنِ موسَـى بـن عياضٍ فـي «إكمالِه»[2]

---

(١) أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل بن إلياس بن أحمد ابن الكتبي، كان مشهورًا بالعلم وبارعًا في الطب، توفي سنة (٧٥٥هـ). انظر: «الوفيات» لابن رافع (٢/ ١٧٠).

(٢) قال القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٤/ ٤٤٨): «وقوله: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد... الحديث: فيه تعظيم هذه المساجد وخصوصها بشد الرحال إليها، ولأنها مساجد الأنبياء، ولفضل =

وهو أفضَلُ المتأخِّرينَ من أصحابِنا.

ومن «المدوَّنةِ»: ومَنْ قالَ: عليَّ المشيُ إلى المدينةِ أو بيتِ المقدسِ فلا يأتِيهما أصلًا إلَّا أنْ يريدَ الصَّلاةَ في مسجِدَيهما فليأتِهما[١].

فلم يجعَل نذرَ زيارَةِ قبرِهِ طاعةً يجِبُ الوفاء بها.

إذ مِن أصلِنا: أنَّ مَن نذَرَ طاعةً لزِمهُ الوفاءُ بها، أكانَ مِن جنسِها ما هو واجبٌ بالشَّرعِ كما هو مذهَبُ أبي حنيفةَ أو لم يكُن.

قالَ القاضِي أبو إسحاقَ إسماعيلُ بنُ إسحاقَ[٢] عقِبَ هذه المسألةِ: ولولا الصَّلاةُ فيهِما لَمَا لزِمَ إتيانُهما، ولو كانَ نذرَ زيارةَ طاعةٍ لَمَا[٣] لزِمَه ذلكَ.

= الصلاة فيها، وتضعيف أجرها، ولزوم ذلك لمن نذره، بخلاف غيرها مما لا يلزم ولا يباح بشد الرحال إليها إلا لناذر، ولا لمتطوع لهذا النهي، إلا ما ألحقه محمد بن مسلمة من مسجد قباء، وإلزامه إتيانه لمن نذره...». وقال في موضع آخر (٤/ ٥١٦): «مقتضى شد الرحال إنما يكون فيما بَعُد لا فيما قرب؛ ولهذا فرق شيوخنا بين نذر ما قرب من ذلك وما بعد، فيما عدا هذه الثلاثة مساجد»، ثم قال: «وإن نذر إتيان غير هذه المساجد الثلاثة فلا يأتي إليها إذا لم تكن ببلده. قال بعض أصحاب مالك: إلا أن تكون قريبة على أميال يسيرة فيأتيها.».

(١) انظر: «المدونة» (٢/ ٤٧١)، و(٣/ ٨٧).

(٢) أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، قاضي القضاة ببغداد، الثقة الكبير في وقته، متفق عليه، مقدم في أصحاب مالك، وكان على القضاء إلى أن مات، صنف «كتاب المبسوط» على مذهب مالك، وصنف «أحكام القرآن» في مئة وعشرين جزءًا، وله علم بالقراءات، توفي سنة (٢٩٧هـ) وقيل غير ذلك. انظر: «الإرشاد» للخليلي (٢/ ٦٠٧)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٦/ ٧١٧).

(٣) «لزم إتيانهما ولو كان نذر زيارة طاعة لما» من «العقود الدرية».

وقد ذكرَ ذلك القيروانيُّ في «تقريبِه»[(١)]، والشَّيخُ ابنُ بشيرٍ[(٢)] في «تنبيهه».

وفي «المبسوطِ»[(٣)]: قالَ مالكٌ: ومَن نذرَ المشيَ إلى مسجدٍ من المساجدِ ليُصلِّيَ فيهِ، قالَ: فإنِّي أكرَهُ ذلكَ لهُ، لقولهِ ﷺ: «لا تُعْمَلُ المَطِيُّ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدٍ؛ المسجِدِ الحرامِ، ومسجِدِ بيتِ المقدِسِ، ومسجِدِي هذا»[(٤)].

وروَى محمَّدُ بنُ الموَّازِ[(٥)] في «الموازِيَّةِ» عنه: إلَّا أن يكُونَ قرِيبًا فيلزَمُه الوفاءُ؛ لأنهُ ليسَ بشدِّ رحلٍ[(٦)].

وقد قالَ الشَّيخُ أبو عمرَ ابنُ عبدِ البرِّ في «كتابِ التَّمهيدِ»: يحرُمُ على المسلمينَ أن يتَّخِذوا قبورَ الأنبياءِ والصالحِينَ مساجِدَ[(٧)].

---

(١) وانظر: «الرسالة» (ص٨٨)، و«النوادر والزيادات على ما في المدونة» (٤/ ٣٠) كلاهما للقيرواني.

(٢) في (ج): «بشر»، والتصويب من «العقود الدرية»، وهو إبراهيم بن عبد الصمد بن بشير، التنوخي المهدوي: الإمام العالم الجليل الفقيه الحافظ النبيل، ألف «كتاب التنبيه» ـ طبع منه قسم العبادات فقط ـ و«كتاب جامع الأمهات» و«التذهيب على التهذيب»، و«كتاب المختصر»، ذكر فيه أنَّه أكمله سنة ٥٢٦ هـ. مات شهيداً ولم تعرف سنة موته. انظر: «شجرة النور الزكية» (١/ ١٨٦)، و«تراجم المؤلفين التونسيين» (١/ ١٠٨).

(٣) «المبسوط» للقاضي إسماعيل أبي إسحاق، المتقدم ذكره قريبًا.

(٤) بهذا اللفظ رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ١٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وتقدم تخريجه بلفظ: «لا تشد الرحال».

(٥) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز، من الإسكندرية، كان راسخاً في الفقه والفتيا. عَلَمًا في ذلك، والمعوَّل بمصر على قوله، توفي سنة (٢٨١هـ) وقيل: (٢٦٩هـ). انظر: «طبقات الفقهاء» للشيرازي (ص١٥٤)، و«ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٤/ ١٦٧).

(٦) نقل ذلك عنه القيرواني في «النوادر والزيادات» (٤/ ٣٠)، واللخمي في «التبصرة» (٤/ ١٦٦٠).

(٧) انظر: «التمهيد» لابن عبد البر (١/ ١٦٨).

وحيثُ تقرَّرَ هذا فلا يجوزُ أن يُنسَبَ مَنْ أجابَ في هذه المسألةِ بأنَّهُ سفرٌ منهيٌّ عنهُ إلى الكفرِ، فمَنْ كفَّرَه بذلكَ مِن غيرِ موجِبٍ، فإنْ كانَ مُستَبِيحًا ذلكَ فهو كافرٌ، وإلَّا فهوَ فاسقٌ.

قالَ الإمامُ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بن عليٍّ المازِريُّ في «كتابِ الـمُعلِمِ»: من كفَّرَ أحدًا من أهلِ القِبلةِ، فإن كانَ مُستبيحًا لذلك فقَد كفَرَ، وإلَّا فهو فاسقٌ يجِبُ على الحاكِمِ إذا رُفعَ أمرُهُ إليه أن يؤدِّبَهُ، أو يعزِّرَهُ بما يكونُ رادِعًا لأمثالِهِ، فإن ترَكَ ذلكَ معَ القدرةِ عليهِ فهو آثمٌ، واللهُ تعالى أعلَم[1].

كتبَهُ محمَّدُ بنُ عبد الرَّحمن البغداديُّ[2]، الخادِمُ للطَّائفةِ المالكيَّةِ، بالمدرسَةِ الشَّريفَةِ المستنصرِيَّةِ.

* * *

جوابٌ آخرُ لبعضِ علماءِ الشَّام المالكيَّةِ

قالَ:

السَّفرُ إلى غيرِ المساجدِ الثَّلاثةِ ليسَ بمشروعٍ، وأمَّا مَن سافرَ إلى مسجدِ النَّبيِّ ﷺ ليُصلِّيَ ويسلِّمَ على النَّبيِّ ﷺ وعلى صاحبَيهِ رضيَ اللهُ عنهما فمشروعٌ باتِّفاقِ العلماءِ.

وأمَّا لو قصَدَ إعمالَ المطيِّ لزيارَتهِ ﷺ ولم يقصِدِ الصَّلاةَ فهذا السَّفرُ

---

(١) لم أقف على نص هذا الكلام في «المعلم»، وانظر: «المعلم بفوائد مسلم» (١/ ٢٩٥).

(٢) لعله: محمد بن عبد الرحمن بن عسكر البغدادي، شمس الدين، الإمام العلامة المتفنن في العلوم الفهّامة، القائم بلواء مذهب مالك بالعراق، كان من العباد، له تآليف، وتوفي سنة (٧٦٧ هـ). انظر: «شجرة النور الزكية» (١/ ٣٢٠).

إذا ذَكَرَ رجلٌ فيهِ خلافًا للعلماءِ، وأنَّ منهم مَنْ قالَ: إنَّه منهيٌّ عنهُ، ومنهم مَنْ قالَ: إنَّه مباحٌ. وأنَّهُ على القولَينِ ليسَ بطاعةٍ ولا قُربةٍ، فمَنْ جعلَهُ طاعةً وقُربةً على مُقتضَى هذينِ القولَينِ كانَ حرامًا بالإجماعِ، وذكرَ حجَّةَ كلٍّ منهُما، أو رجَّحَ أحدَ القولَينِ = لا يلزَمُهُ ما يلزَمُ مَنْ تنقَّصَ؛ إذ لا تنقُّصَ في ذلكَ ولا إزراءَ بالنَّبيِّ ﷺ.

وقد قالَ مالكٌ رحمَهُ اللهُ لسائلٍ سألَهُ إذا نذرَ أن يأتيَ قبرَ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: إنْ كانَ أرادَ مسجِدَ النَّبيِّ ﷺ فليأتِهِ وليصلِّ فيهِ، وإن كانَ أرادَ القبرَ فلا يفعَلْ؛ للحديثِ الَّذي جاءَ: «لا تُعمَلُ المطِيُّ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ»، واللهُ أعلَمُ[1].

كتبَهُ أبو عمرٍو بن أبي الوليدِ المالكِيُّ[2].

***

---

(١) وانظر: «مواهب الجليل» للرعيني (٣/ ٣٤٤).

(٢) الإمام المفتي الكبير الزاهد أبو عمرو أحمد بن أبي الوليد محمد بن أبي جعفر أحمد ابن قاضي الجماعة أبي الوليد محمد الإشبيلي ثم الدمشقي المالكي، ولد بغرناطة سنة اثنتين وسبعين، ثم قدم دمشق، فقيه فاضل كثير المطالعة ملازم للفتوى والاشتغال والانقطاع، توفي سنة (٧٤٥هـ). انظر: «العبر» للذهبي (٤/ ١٣٦)، و«الوفيات» لابن رافع (١/ ٤٩٧).

كتبَ علماءُ بغدادَ للملكِ الناصرِ

ووردَ مع أجوبةِ أهلِ بغدادَ كتابٌ وفيهِ:

بسمِ الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ للهِ، ناصرِ الملَّةِ الإسلاميةِ، ومعزِّ الشَّريعَةِ المحمَّديَّةِ، بدوامِ أيَّامِ الدَّولةِ المباركَةِ السُّلطانيَّةِ الملكيَّةِ المالكيَّةِ النَّاصريَّةِ، ألبسَها اللهُ تعالى لباسَ العزِّ المقرونِ بالدَّوامِ، وحلَّاها بحليَةِ النَّصرِ المستمرِّ بمرورِ الليالي والأيامِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ المبعوثِ إلى جميعِ الأنامِ، وعلى آلِهِ البررَةِ الكرامِ.

اللهمَّ إنَّ بابَكَ لم يزَل مَفتُوحًا للسَّائلينَ، ورِفدَكَ ما برِحَ مَبذُولًا للوافدِينَ، مَنْ عوَّدتَهُ مسألَتَكَ وحدَكَ، لم يسأَلْ أحدًا سواكَ، ومَن منحتَهُ منائحَ رِفدِكَ، لم يفِدْ على غيرِكَ، ولم يحتَمِ إلَّا بحماكَ، أنتَ الرَّبُّ العظيمُ الكريمُ الأكرَمُ، بابُ غيرِكَ على عبادِكَ محرَّمٌ، أنتَ الَّذي لا إلهَ غيرُكَ، ولا معبودَ سِواكَ، عزَّ جارُكَ، وجلَّ ثناؤكَ، وتقدَّسَتْ أسماؤكَ، لم تزَل سُنَّتَكَ في خلقِكَ جاريةً بامتحانِ أوليائِكَ وأحبابِكَ، تفضُّلًا منك عليهِم، وإحسانًا مِن لدنْكَ إليهِم؛ ليزدادُوا لكَ[1] في جميعِ الحالاتِ ذِكرًا، ولأنعُمِكَ في جميع التَّقلُّباتِ شُكرًا، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلَمُونَ؛ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

اللَّهمَّ وأنت العالمُ الَّذي لا يُعَلَّمُ، والكريمُ الذي لا يَبخَلُ، قد علمْتَ يا عالمَ السِّرِّ والعلانيةِ أنَّ قلوبَنا لم تزَلْ برفعِ إخلاصِ الدُّعاءِ صادقةً، وألسنَتَنا في حالَتي السِّرِّ والعلانيةِ ناطقةً أن تُسعِفَنا بإمدادِ هذهِ الدَّولةِ المبارَكةِ الميمونَةِ السُّلطانيةِ النَّاصريةِ بمزيدِ العُلا والرِّفعَةِ والتَّمكِينِ، وأن تحقِّقَ آمالَنا فيها بإعلاءِ الكلمةِ، ففي

---

(١) في (ج): «ذلك»، والمثبت من «العقود الدرية».

ذلك رفعُ قواعدِ دعائمِ الدِّينِ، وقمعُ مكائدِ الملحدِينَ؛ لأنَّها الدَّولةُ الَّتي برئَتْ مِن غَشيانِ الجنَفِ والحَيفِ، وسلِمَتْ مِن طُغيانِ القلَمِ والسَّيفِ، والَّذي عهدَه المسلمونَ وتعوَّدهُ المؤمنونَ، من المراحِمِ الكريمةِ والعواطفِ الرَّحيمَةِ: إكرامُ أهلِ الدِّينِ، وإعظامُ علماءِ المسلمِينَ.

والَّذي حمَلَ على رفعِ هذهِ الأدعيَةِ الصَّريحَةِ إلى الحضرةِ الشَّريفةِ، وإنْ كانَتْ لم تزَل مرفوعَةً إلى اللهِ سبحانَهُ بالنِّيَّةِ الصَّحيحَةِ: قولُهُ ﷺ: «الدِّينُ النَّصيحةُ»، قيلَ: لِمَنْ يا رسُولَ اللهِ؟ قالَ: «للهِ ولرسولِه ولأئمَّةِ المسلِمينَ وعامَّتهم»[1]، وقولُهُ ﷺ: «الأعمالُ بالنِّيَّاتِ»[2]، وهذانِ الحديثانِ المشهورانِ بالصِّحَّةِ، مُستفاضانِ في الأمَّةِ.

ثمَّ إنَّ هذا الشَّيخَ المعظَّمَ الجليلَ، والإمامَ المكرَّمَ النبيلَ، أوحدَ الدَّهرِ، وفريدَ العصرِ، طرازَ المملكَةِ الملكيَّةِ، وعلَمَ الدَّولةِ السُّلطانيةِ، لو أقسَمَ مقسِمٌ باللهِ العظيمِ القديرِ: أنَّ هذا الكبيرَ ليسَ له في عصرِهِ مماثلٌ ولا نظيرٌ؛ لكانَت يمينهُ برَّةً غنيةً عن التَّكفيرِ، وقد خلَتْ مِن وجودِ مثلِهِ السَّبعُ الأقاليمِ، إلَّا هذا الإقليمَ، يوافقُ على ذلكَ كلُّ منصفٍ جُبلَ على الطَّبعِ السَّليمِ، ولسنا بالثَّناءِ عليهِ نُطريهِ، بل لو أطنَبَ مطنِبٌ في مدحِهِ والثَّناءِ عليه لَمَا أتى على بعضِ الفضائلِ الَّتي فيهِ = أحمدُ ابنُ تيميةَ درَّةٌ يتيمَةٌ يُتنافَسُ فيها، تُشترَى ولا تُباعُ، ليسَ في خزائنِ الملوكِ درةٌ تماثِلُها وتؤاخِيها، انقطعَتْ عن وجودِ مثلِهِ الأطماعُ.

لقد أصمَّ الأسماعَ، وأوهَى قوَى المتبوعِينَ والأتباعِ: سماعُ رفعِ أبي العبَّاسِ أحمدَ ابن تيميةَ إلى القِلاعِ، وليسَ يقَعُ مِن مثلِهِ أمرٌ يُنقَمُ منهُ عليهِ إلَّا أن يكونَ أمرًا قد لُبِّسَ عليهِ، ونُسِبَ إلى ما لا يُنسَبُ مثلُهُ إليهِ.

---

(١) رواه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

والتَّطويلُ على الحضرةِ العاليةِ لا يليقُ، إن يكُن في الدُّنيا قطبٌ فهو القطبُ على التَّحقيقِ، وقد نصَبَ اللهُ السُّلطانَ ـ أعلَى اللهُ شأنَهُ في هذا الزَّمانِ ـ منصِبَ يوسُفَ الصِّدِّيقِ ﷺ لَمَّا صرَفَ اللهُ وجوهَ أهلِ البلادِ إليهِ، حيثُ أمحلَتِ البلادُ، واحتاجَ أهلُها إلى القوتِ المدَّخرِ لديهِ، والحاجةُ بالنَّاسِ الآنَ إلى قوتِ الأرواحِ الرُّوحانيَّةِ أعظَمُ مِن حاجَتِهم في ذلكَ الزَّمانِ إلى طعمِ الجثَثِ الجِسمانيَّةِ، وأقواتُ الأرواحِ المشارِ إليها لا خفاءَ أنَّها العلومُ الشَّريفَةُ والمعاني اللَّطِيفَةُ.

وقد كانَت في بلادِ المملكةِ السُّلطانيَّةِ حرسَها اللهُ تعالى تُكالُ إلينا جُزافًا بغيرِ أثمانٍ، منحةً عظيمةً مِنَ اللهِ للسُّلطانِ، ونعمةً جسيمةً إذ خصَّ بلادِ مملكَتِهِ وإقليمَ دولَتِهِ بما لا يوجَدُ في غيرِها من الأقاليمِ والبلدانِ، وقد كانَ وفدَ الوافِدونَ مِن سائرِ الأمصارِ، فوجَدُوا صاحِبُ صُواعِ الملِكِ قد رُفِعَ إلى القِلاعِ، ومثلُ هذهِ المِيرَةِ لا توجَدُ في غيرِ تلكَ البلادِ لتُشتَرى أو تباعَ، فصادفَ ذلكَ جدبُ الأرضِ ونواحِيها، جدبًا أعطَبَ أهالِيها، حتى صارُوا مِن شدَّةِ حاجَتِهم إلى الأقواتِ كالأمواتِ.

والَّذي عرَضَ للملِكِ بالتَّضييقِ على صاحِبِ صُواعِهِ ـ مع شدَّةَ الحاجةِ إلى غذاءِ الأرواحِ ـ لعلَّهُ لم يتحقَّق عندَهُ أنَّ هذا الإمامَ مِن أكابرِ الأولياءِ والأعيانِ أهلِ الصَّلاحِ، وهذهِ نَزْغَةٌ مِنْ نَزَغاتِ الشَّيطانِ؛ قالَ اللهُ سبحانَهُ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

وأمَّا إزراءُ بعضِ العلماءِ عليهِ في فتواهُ وجوابِهِ عن مسألةِ شدِّ الرِّحالِ إلى زيارةِ القبورِ فقد حُمِلَ جوابُ علماءِ هذه البلادِ إلى نظرائِهِم مِن العلماءِ وقرنائِهم من الفضلاءِ، وكلُّهم أفتَى: أنَّ الصَّوابَ في الَّذي بهِ أجابَ.

والظَّاهرُ بين الأنامِ أنَّ إكرامَ هذا الإمامِ ومُعاملَتهُ بالتَّبجيلِ والاحترامِ فيهِ مِن قَوامِ الملكِ، ونظامِ الدَّولَةِ، وإعزازِ الملَّةِ واستجلابِ الدُّعاءِ، وكبتِ الأعداءِ، وإذلالِ أهلِ البدَعِ والأهواءِ، وإحياءِ الأمَّةِ، وكشفِ الغمَّةِ، ووفورِ الأجرِ، وعلوِّ الذِّكرِ، ورفعِ البأسِ، ونفعِ النَّاسِ، ولسانُ حالِ المسلمينَ تالٍ قولَ الكبيرِ المتعالِ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

والبضاعةُ المُزجاةُ هي هذهِ الأوراقُ المرقومَةُ بالأقلامِ، والميرَةُ المطلوبةُ: الإفراجُ عن شيخِ الإسلامِ، والَّذي حمَلَ على هذا الإقدامِ قولُهُ عليه السَّلامُ: «الدِّينُ النَّصيحَةُ».

والسَّلامُ[1].

* * *

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٧٠ ـ ٣٧٤).

كتابٌ آخرُ لعلماءِ بغدادَ

وفيهِ بعد البسملَةِ والحمدلَةِ:

اللَّهمَّ! فكما أيَّدتَ ملوكَ الإسلامِ ولاةَ الأمرِ بالقوَّةِ والقهرِ، وشيَّدتَ لهم ذِكْرًا، وجعلتَهم للمقهورِ اللَّائذِ بجنابهم ذُخرًا، وللمكسورِ العائذِ بأكنافِ بابِهِم جَبرًا، فاشدُدِ ـ اللهمَّ ـ منهُم بحسنِ مَعونتكَ لهم أزرًا، وأَعْلِ لهم مَجْدًا وارفَع لهم قَدْرًا، وزِدهُم عِزًّا، وعلى أعدائهم نصرًا، وامنَحهم توفيقًا مُسدَّدًا وتمكِينًا مستَمِرًّا.

وبعدُ:

فإنَّهُ لَمَّا قرَعَ أسماعَ أهلِ البلادِ الشَّرقيَّةِ، والنَّواحِي العراقيَّةِ التَّضييقُ على شيخِ الإسلامِ أبي العبَّاسِ تقيِّ الدِّينِ أحمدَ ابنِ تيميةَ سلَّمَهُ اللهُ تعالى عَظُمَ ذلك على المسلمينَ، وشقَّ على ذوِي الدِّينِ، وارتفعَتْ رؤوسُ الملحدِينَ، وطابَتْ نفوسُ أهلِ الأهواءِ والمبتَدِعينَ.

ولَمَّا رأى علماءُ هذهِ النَّاحيةِ عِظَمَ هذهِ النَّازلَةِ مِن شماتَةِ أصحابِ البِدَعِ وأهلِ الأهواءِ بأكابرِ الأفاضلِ وأئمَّةِ العلماءِ أنْهَوا حالَ هذا الأمرَ الفظيعَ والحالَ الشَّنيعَ إلى الحضرَةِ الشَّريفَةِ السُّلطانيَّةِ، زادَها اللهُ شرفًا، وكتَبوا أجوبِتَهم في تصويبِ ما أجابَ بهِ الشَّيخُ سلَّمهُ اللهُ في فتاويهِ، وذكرُوا مِن علمِهِ وفضائلِهِ بعضَ ما هوَ فيهِ، وحملُوا ذلكَ بينَ يدَي مولانا ملِكِ الأمراءِ أعزَّ اللهُ أنصارَهُ وضاعَفَ اقتدارَهُ؛ غَيرةً منهُ على هذا الدِّينِ، ونصيحةً للإسلامِ والمسلِمينَ.

والآراءُ المولويَّةُ العاليةُ أولى بالتقديمِ؛ لأنَّها ممنوحَةٌ بالهدايةِ إلى الصِّراطِ المستقِيمِ[1].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٦٥ ـ ٣٧٦).

قلْتُ: والظَّاهرُ أنَّ هذهِ الكتبَ لم تصِلْ إلى السُّلطانِ الملكِ النَّاصرِ؛ إمَّا لعدَمِ مَن يوصِلُها لَه، أو لموتِ الشَّيخِ قبلَ وصولِها، وإلَّا لظهَرَ لها نتيجَةٌ، ولم أقِفْ على ذلِكَ، وهذهِ الأجوبَةُ والكتبُ وصلَتْ كلُّها إلى دمشقَ.

ثمَّ إنَّ الشَّيخَ رحمَهُ اللهُ استمرَّ مُقيمًا بالقلعَةِ سنتَينِ وثلاثةَ أشهرٍ وأيَّامًا إلى أن توفِّيَ، وما زالَ في تلكَ المدَّةِ مُعظَّمًا مكرَّمًا، يُكْرِمهُ نقيبُ القلعةِ ونائبُها إكرامًا كثيرًا، ويستعرِضان حوائجَهُ، ويبالِغانِ في قضائِها.

وما برِحَ في هذهِ المدَّةِ مُكبًّا على العبادةِ والتِّلاوةِ، وتصنيفِ الكتُبِ، والرَّدِّ على المخالِفينَ.

وكتبَ على تفسِيرِ القرآنِ جملةً كثيرةً تشتَمِلُ على نفائسَ جليلةٍ، ونُكَتٍ دقيقَةٍ، ومعانٍ لطيفةٍ، وبيَّنَ في ذلكَ مواضعَ كثيرةً أشكلَتْ على خلقٍ مِنْ علماءِ أهلِ التَّفسيرِ.

وكتبَ في المسألةِ الَّتي حُبِسَ بسببها عدَّةَ مجلَّداتٍ منها: كتابٌ في الرَّدِّ على الإخنائيِّ قاضي المالكيَّةِ[1]، ومنها: كتابٌ كبيرٌ حافِلٌ في الرَّدِّ على بعضِ قضاةِ الشافعيَّةِ، وأشياءُ كثيرةٌ في هذا المعنى[2].

وكان ما صنَّفهُ في هذه المدَّةِ قد خرَجَ بعضُهُ مِن عندِهِ، وكتبَهُ بعضُ أصحابِهِ، وظهرَ واشتهَرَ.

---

(١) طبع عدة طبعات، والإخنائي: محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي تقي الدين، اشتغل بالفقه على مذهب مالك وغيره وتقدم وتميز ثم ولي قضاء الديار المصرية للمالكية وكان الناصر يحبه ويرجع إليه في أشياء، كان كثير الحط على الشيخ ابن تيمية وأتباعه، مات في الطاعون العام في أول سنة (٧٥٠هـ). انظر: «أعيان العصر» (٤/ ٣٦٢)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ١٤٥)، و«رفع الإصر» (ص٣٥٢) كلاهما لابن حجر.

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٧٧).

فلمَّا كانَ قبلَ وفاتِهِ بأشهرٍ وردَ مرسومٌ بإخراجِ ما عندَهُ كلِّهِ، ولم يبقَ عندَهُ كتابٌ ولا ورقةٌ ولا دواةٌ ولا قلَمٌ، وكانَ بعدَ ذلِكَ إذا كتبَ ورقة إلى بعضِ أصحابِهِ كتبَها بفحمٍ[1].

ولَمَّا أُخرِجَ ما عندَهُ مِن الكتبِ والأوراقِ حُملَ إلى القاضي علاءِ الدِّينِ القونَويِّ[2]، وجُعلَ تحتَ يدِهِ في المدرسَةِ العادليَّةِ[3].

***

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٧٩).

(٢) علي بن إسماعيل بن يوسف الإمام العلامة القدوة العارف ذو الفنون الشيخ علاء الدين قاضي القضاة، أبو الحسن القونوي التبريزي، له تصانيف في الفقه وغيره، توفي سنة (٧٢٩هـ). انظر: «مسالك الأبصار» لابن فضل الله (٩/ ٢٠٦)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٦٩)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ١٥٨).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٤).

فصلٌ في ذكرِ وفاةِ الشيخِ ابنِ تيميةَ رحمَهُ اللهُ تعالى

قالَ أهلُ التَّاريخِ: كانَ مولِدُ الشَّيخِ ابنِ تيميةَ يومَ الإثنين عاشرَ ربيعٍ الأوَّلِ بحرَّانَ سنةَ إحدى وستِّينَ وستِّ مئةٍ، وكانَت وفاتُهُ ليلةَ الإثنين لعشرينَ مِن ذي القعدةِ سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وسبعِ مئةٍ.

ولَمَّا أُخرِجَت كتبُهُ من عندِهِ أقبَلَ بعد إخراجِها على العبادةِ والتِّلاوةِ والذِّكرِ والتَّهجُّدِ حتَّى أتاهُ اليقينُ.

وكانَ يختِمُ القرآنَ في كلِّ عشرةِ أيَّامٍ، وختَمَ القرآنَ مدَّةَ إقامتِهِ بالقلعَةِ إحدى وثمانينَ ختمةً، انتَهى في آخرِ ختمةٍ إلى آخرِ (اقتربَت): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥]، ثمَّ كُمِّلَتْ عليهِ بعد وفاتِهِ وهو مسجونٌ[(١)].

وكانَت مدَّةُ مرضِهِ بضعةً وعشرينَ يومًا، وكانَ إذ ذاكَ الملكُ شمسُ الدِّينِ الوزيرُ بدمشقَ المحروسةِ، فلمَّا علِمَ بمرضِهِ استأذنَ في الدُّخولِ عليهِ لعيادَتِهِ، فأذِنَ الشَّيخُ لهُ في ذلكَ، فلمَّا جلَسَ عندَهُ أخذَ يعتذِرُ لهُ عن نفسِهِ، ويلتمِسُ منه أن يُحلِّلَهُ ممَّا عساهُ أن يكونَ قد وقعَ منهُ في حقِّهِ مِن تقصيرٍ أو غيرِهِ.

فأجابهُ الشَّيخُ رضي اللهُ عنه: إنِّي قد أحلَلتُكَ، وجميعُ مَن عاداني، وهوَ لا يعلَمُ أنِّي على الحقِّ.

وقالَ ما معناهُ: إنِّي قد أحلَلْتُ السُّلطانَ المعظَّمَ الملكَ النَّاصِرَ مِن حبسِهِ إيَّايَ؛ كونه فعَلَ ذلك مقلِّدًا غيرَهُ معذورًا، ولم يفعَلهُ بحظِّ نفسِهِ، بل لِمَا بلَغَهُ ممَّا ظنَّهُ حقًّا

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٤).

مِن مُبلِّغِهِ، والله يعلَمُ أنَّه بخلافِهِ. وقد أحلَلتُ كلَّ أحدٍ ممَّا بيني وبينَهُ، إلَّا مَن كانَ عدوًا للهِ ورسولِهِ.

وأكثرُ الناسِ ما علِمُوا بمرضه، فلم يفجَأ موتُهُ الخلقَ إلَّا بغتةً[١].

قالَ الشَّيخُ علمُ الدِّينِ: وفي ليلَةِ الإثنينِ لعشرينَ من ذي القعدَةِ، مِن سنةِ ثمانٍ وعشرينَ، توفِّيَ الشَّيخُ الإمامُ العلَّامَةُ، الفقيهُ الحافِظُ، الزَّاهدُ القُدوَةُ، شيخُ الإسلامِ، تقِيُّ الدِّينِ، أبو العبَّاسِ أحمدُ ابنُ شيخِنا الإمامِ المفتي شهابِ الدِّينِ أبي المحاسِنِ عبدِ الحليمِ ابنِ الشَّيخِ الإمامِ شيخِ الإسلامِ مجدِ الدِّينِ أبي البركاتِ عبدِ السَّلامِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أبي القاسِمِ بن محمَّدِ ابنِ تيميةَ الحرَّانيِّ ثم الدِّمشقِيِّ بقلعَةِ دمشقَ، بالقاعةِ الَّتي كانَ محبُوسًا فيها[٢].

فاشتدَّ التَّأسُّفُ عليهِ، وكثُرَ البُكاءُ والحزنُ، ودخَلَ إليهِ أقارِبهُ وأصحابُهُ، وازدحَمَ الخلقُ على بابِ القلعةِ والطُّرقاتِ، وامتلأَ جامعُ دمشقَ، وحضرَ جمعٌ كثيرٌ إلى القلعةِ، فأُذِنَ لهم في الدُّخولِ، وجلَسَ جماعةٌ عندَهُ قبلَ الغسلِ، وقرؤوا القرآنَ، وتبرَّكوا برؤيتِهِ وتقبيلِه، ثم انصرَفوا، وحضرَ جماعةٌ مِن النِّساءِ ففعَلنَ مثلَ ذلكَ ثم انصرَفْنَ، واقتُصِرَ على مَنْ يُغسِّلُهُ ويعينُ في غسلِهِ[٣].

وشربَ جماعةٌ الماءَ الَّذي فضَلَ مِن غسلِهِ، وازدحَمَ مَن حضَرَ غسلَهُ مِن الخاصَّةِ والعامَّةِ على الماءِ المنفصِلِ مِن غسلِهِ حتَّى حصلَ لكلِّ واحدٍ منهُم شيءٌ قليلٌ، واقتسَمَ جماعةٌ بقيَّةَ السِّدرِ الَّذي غُسِّلَ بهِ.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٤).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٥).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٦).

وقيلَ: إنَّ الطَّاقِيَّةَ التي كانَت على رأسِهِ دُفِعَ فيها خمس مئةِ درهمٍ، والخيطَ الَّذي فيهِ الزِّئبقُ وكانَ في عُنقِهِ بسببِ القملِ، دُفِعَ فيهِ مئةٌ وخمسونَ دِرهمًا[١].

فلمَّا فُرِغَ مِن ذلكَ أُخرِجَ وقدِ اجتمَعَ النَّاسُ بالقلعَةِ والطَّريقِ إلى جامعِ دمشقَ، وامتلأَ الجامِعُ وصحنُهُ والكلاسَةُ وبابُ البَريدِ وبابُ السَّاعاتِ إلى اللبَّادِينَ والفوَّارةِ، ولم يبقَ في دمشقَ مَن يستطيعُ المجيءَ للصَّلاةِ عليهِ إلَّا حضَرَ لذلِكَ، حتى غُلِّقَتِ الأسواقُ بدمشقَ، وعُطِّلَتْ معايِشُها حينئذٍ، وحصَلَ للنَّاسِ بمصابهِ أمرٌ شغلَهم عن غالِبِ أمورِهم وأسبابِهم، وخرَجَ الأمراءُ والرُّؤساءُ، والعلماءُ والفقهاءُ، والأتراكُ والأجنادُ، والرِّجالُ والنِّساءُ والصِّبيانُ، مِن الخواصِّ والعوامِّ.

قالَ بعضُ من حضَرَ: ولم يتخلَّف أحدٌ فيما أعلَمُ إلا ثلاثةَ أنفُسٍ كانوا قد اشتَهَروا بمعاندَتهِ، فاختفَوا مِن النَّاسِ خوفًا على أنفُسِهم، بحيثُ غلَبَ على ظنِّهم أنَّهم متى خرَجوا رجمَهم النَّاسُ[٢].

ولَمَّا أُخرجَت جنازَتهُ، فما هو إلَّا أنْ رآها النَّاسُ فأكبُّوا علَيها مِن كلِّ جانبٍ، كلٌّ منهم يقصِدُ التَّبرُّكَ بها، وحصَلَ البكاءُ والضَّجِيجُ والتَّضرُّعُ واشتدَّ الزِّحامُ، حتى خُشِيَ على النَّعشِ أن يُحطَّمَ قبلَ وصولِهِ، فأحدَقَ بها الأمراءُ والأجنادُ والأتراكُ، فمنَعوا النَّاسَ مِن الزِّحامِ عليها خشيةَ سقوطِها، وجَعلُوا يردُّونَهم عن الجنازةِ بكلِّ ما يُمكِنُهم، وهم لا يزدادُونَ إلَّا ازدحامًا وكثرةً، حتى أُدخِلَتْ جامِعَ بني أميَّةَ المحروسِ ظنًّا منهم أنَّهُ يسَعُ النَّاسَ، فبقِيَ كثيرٌ مِن النَّاسِ خارجَ الجامعِ.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٧).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٨٣).

فصُلِّيَ عليهِ رضيَ الله عنهُ بجامِعِ دمشقَ عقِبَ صلاةِ الظُّهرِ، وكانَ صُلِّيَ عليهِ أوَّلًا بالقلعَةِ، تقدَّمَ في الصَّلاةِ عليه الشيخُ محمدُ بنُ تمامٍ، ثم حمِلَ منْ بابِ البريدِ على أيدِي الكُبراءِ والأشرافِ إلى ظاهرِ دمشقَ، واشتدَّ الزِّحامُ، وألقَى النَّاسُ على نعشِهِ منادِيلَهم وعمائمَهم للتَّبرُّكِ.

وخرجَ النَّاسُ مِن الجامعِ مِن أبوابِهِ كلِّها مِن شدَّةِ الزِّحامِ، وكلُّ بابٍ أعظَمُ زحمةً مِن الآخرِ، ثم خرَجَ النَّاسُ مِن أبوابِ البلَدِ جميعِها مِن شدَّةِ الزحامِ، لكن الـمُعْظَمُ مِن الأبوابِ الأربعَةِ بابُ الفرَجِ الَّذي خرجَت منهُ الجنازةُ، ومِن بابِ الفرادِيسِ، وبابِ النَّصرِ، وبابِ الجابيةِ، فلمَّا خرَجُوا بهِ لظاهرِ دمشقَ وضِعَ بأرضٍ فسيحَةٍ مُتَّسعةِ الأطرافِ، فصلَّى عليهِ النَّاسُ أيضًا، وتقدَّمَ في الصَّلاةِ عليهِ هناكَ أخوهُ زينُ الدِّينِ عبدُ الرحمنِ[1].

قالَ بعضُ مَن حضرَ مِن الثِّقاتِ: كنْتُ ممَّنْ صلَّى عليهِ في الجامعِ، وكانَ لي مُستشرفٌ على المكانِ الذي صلِّيَ عليهِ فيهِ بظاهرِ دمشقَ، فأحببْتُ أنْ أنظُرَ إلى النَّاسِ وكثرَتهم، فأشرفْتُ عليهم حالَ الصَّلاةِ، وجعلتُ أنظُرُ يمينًا وشمالًا، ولا أرَى أواخِرَهم، بل رأيْتُ النَّاسَ قد طبَّقُوا تلكَ الأرضَ كلَّها.

واتَّفقَ جماعةٌ ممَّن حضرَ وشاهدَ النَّاسَ والمصلِّينَ عليهِ: أنهُم يزيدُونَ على نحوٍ مِن خمسمِئةِ ألفٍ، وحضرَها نساءٌ كثيرٌ، بحيثُ حُزِرْنَ بخمسَةَ عشرَ ألفًا.

قالَ أهلُ التَّاريخِ: لم يُسمَع في جنازةٍ بمثلِ هذا الجمعِ إلَّا جنازةَ الإمامِ أحمدَ بن حنبلٍ[2].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٦ ـ ٣٨٧).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٨٤).

قالَ الدَّارَقُطنيُّ: سمعْتُ أبا سهلِ بنَ زيادٍ[١] القطَّانَ يقولُ: سمعْتُ عبدَ اللهِ بن أحمدَ بن حنبلٍ يقولُ: سمعْتُ أبي يقولُ: قولوا لأهلِ البدَعِ: بينَنا وبينكُم الجنائزُ[٢].

قالَ أبو عبدِ الرَّحمن السُّلَميُّ: إنَّه حزرَ الحزَّارونَ المصلِّينَ على جنازةِ أحمدَ، فبلَغَ العددُ بحزرِهم ألفَ ألفٍ وسبعَ مئةِ ألفٍ، سوى الَّذين كانوا في السُّفُنِ[٣].

ثم حُمِلَتْ جنازةُ الشَّيخِ إلى قبرِهِ بمقبرَةِ الصُّوفيَّةِ، فوُضِعَ وقدْ جاءَ الملِكُ شمسُ الدِّينِ الوزيرُ ولم يكُن حاضِرًا قبلَ ذلكَ، فصلَّى عليه أيضًا، ومَن معَهُ مِن الأمراءِ والكُبراءِ، ومَن شاءَ اللهُ مِن النَّاسِ.

ثم دُفنَ وقتَ العصرِ إلى جانبِ أخيهِ الشَّيخِ الإمامِ العلَّامَةِ البارعِ الحافظِ الزَّاهِدِ العابدِ الورِعِ، جمالِ الإسلامِ، شرفِ الدِّينِ، وكانَ قد تُوفِّي سنةَ سبعٍ وعشرينَ في أيَّامِ حبسِ أخيهِ تقيِّ الدِّينِ، وصُلِّيَ عليهِ بجامِعِ دمشقَ، ثم حمِلَ إلى بابِ القلعَةِ، فصُلِّيَ عليهِ مرةً أُخرَى، وصلَّى عليهِ أخواهُ تقيُّ الدِّينِ وزينُ الدِّينِ وخلقٌ مِن داخلِ القلعَةِ، وكانَ الصَّوتُ بالتَّكبيرِ يبلُغُهم، وكثُرَ البكاءُ في تلكَ السَّاعةِ، وكانَ وقتًا مشهودًا، ثم صُلِّيَ عليهِ مرَّةً ثالثةً ورابعةً، وحضَرَ جنازتَهُ جمعٌ كثيرٌ وعالمٌ عظيمٌ، وكثُرَ الثَّناءُ والتَّأسُّفُ عليهِ.

وأثنى عليهِ الشَّيخُ كمالُ الدِّينِ ابنُ الزَّمْلكَانيِّ فقالَ: شرفُ الدِّينِ بارعٌ في فنونٍ عديدةٍ مِنَ الفقهِ والنَّحوِ والأصولِ، مُلازمٌ لأنواعِ الخيرِ، وتعلِيمِ العلمِ، حسَنُ

---

(١) في (ج): «زياد بن سهل»، والتصويب من مصدري التخريج.

(٢) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٥/ ١٠٦٣)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ٣٧٦).

(٣) في (ج): «السفر»، والتصويب من مصدر التخريج. رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ٣٣٢)، وانظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١/ ٤٦٧).

العبادةِ، قويٌّ في دينِهِ، جيِّدُ التفقُّهِ، مستحضِرٌ لمذهَبِهِ استحضارًا جيِّدًا، مليحُ البحثِ، صحيحُ الذِّهنِ، قويُّ الفهمِ، رحمَهُ الله تعالى[١].

ثمَّ لَمَّا دُفنَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ إلى جانبِ أخيهِ جعَلَ النَّاسُ يأتُونَ قبرَهُ للصَّلاةِ عليهِ مِن القُرى والأطرافِ والأماكِنِ والبلادِ مُشاةً ورُكبانًا، وتردَّدَ النَّاسُ إلى قبرهِ أيَّامًا كثيرةً ليلًا ونهارًا، ورُؤيَتْ له مناماتٌ كثيرةٌ صالحةٌ.

قالَ الحافظُ الشَّيخُ سراجُ الدِّينِ البزَّارُ: وما وصَلَ خبرُ موتِهِ إلى بلدٍ فيما نعلَمُ إلَّا وصلِّيَ عليهِ في جميعِ جوامعِهِ ومجامعِهِ، خصوصًا أرضَ مصرَ[٢] ودمشقَ والعراقِ وتبريزَ والبصرَةِ وقُراها وغيرِها، وخُتمَت لهُ الختَماتُ الكثيرةُ في اللَّيالي والأيَّامِ، في أماكِنَ كثيرةٍ لم يُضبَط عَدَدُها، خصوصًا بدمشقَ ومصرَ والعراقِ، حتى[٣] جعَلَ كثيرٌ مِن النَّاسِ القراءةَ لهُ، وإدارةَ الرَّبْعَةِ الشَّريفَةِ على النَّاس للقراءَةِ وإهدائِها لهُ وظيفَةً مُعتادةً[٤].

قالَ: ولم يُرَ بجنازةِ أحدٍ ما رُؤِيَ لجنازتِهِ مِن الوقارِ والهيبَةِ والعَظَمةِ والجلالَةِ، وتعظيمِ النَّاسِ لها، وتوقيرِهم إيَّاها، وتفخيمِهم أمرَ صاحِبها، وثنائِهم عليهِ بما كانَ عليهِ مِن العِلمِ والعملِ والزَّهادةِ والعبادَةِ، والإعراضِ عن الدُّنيا، والاشتِغالِ بالآخرَةِ، والفَقرِ والإيثارِ، والكرَمِ والمروءَةِ، والصَّبرِ والثَّباتِ، والشَّجاعَةِ والفِراسَةِ، والإقدامِ والصَّدعِ بالحقِّ، والإغلاظِ على أعداءِ اللهِ ورسُولِهِ، والمنحرِفينَ عن دِينِهِ،

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٩٠ ـ ٣٩٠).

(٢) «مصر» من «الأعلام العلية».

(٣) «حتى» من «الأعلام العلية».

(٤) انظر: «الأعلام العلية» (ص٨٥).

والتَّواضُعِ لأولياءِ اللهِ، والتَّذلُّلِ لهم، والإكرامِ والاعتزاز والاحترامِ لجنابِهم، وعدمِ الاكتراثِ بالدُّنيا وزُخرُفِها ونعيمِها ولذَّاتِها، وشدَّةِ الرَّغبَةِ في الآخرةِ والمواظبَةِ على طَلَبِها، حتى سُمِعَ ذلك ونحوُهُ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ والصِّبيانِ، وكلٌّ منهم يُثني عليه بما يعلَمُه مِن ذلكَ[١].

رضيَ اللهُ تعالى عنهُ وأرضاه، ونفعَنا بهِ في الدُّنيا والآخرَةِ، آمينَ.

هـذا مـا قالَـهُ الحافظُ ابـنُ عبـدِ الهادِي ابـنِ قُدامـةَ في «مناقِبـه» بعـدَ أن أطالَ الـكلامَ عليهـا: وللشَّـيخِ فضائـلُ كثيـرةٌ، وأسـماءُ مصنَّفاتِـهِ، وسيرَته، ومـا جـرى بينَـهُ وبيـن الفقهـاءِ والدَّولَـةِ والمتصوِّفةِ، وحبسـه مـرَّاتٍ، وأحوالـه لا يحتمِلُ ذكرَ جميعِهـا هـذا الكتـابُ، انتهى[٢].

* * *

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٨٤).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٩٠).

فصلٌ فيما رثيَ بهِ الشَّيخُ مِن القصائدِ بعدَ موتِهِ

وذلكَ كثيرٌ لا ينحَصِرُ

ولَمَّا ماتَ الشَّيخُ ابنُ تيميةَ رحمَهُ اللهُ رثاهُ كثيرٌ مِن الفضلاءِ والأئمَّةِ العلماءِ بقصائدَ جمَّةٍ، لا يسَعُ هذا المختصَرَ ذكرُها.

قالَ الشيَّخُ الإمامُ ابنُ فضلِ اللهِ العُمَرِيُّ: رثاهُ جماعاتٌ مِن النَّاسِ بالشَّامِ، ومصرَ، والعراقِ، والحجازِ، والعربِ من آلِ فضلٍ رحمَةُ اللهِ عليهِ[١].

وها أنذا أذكُرُ شيئًا مِن ذلكَ في هذا المختصرِ:

فمنها: ما قالَه الشَّيخُ القاضي الإمامُ العالمُ شهابُ الدِّينِ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ فضلِ اللهِ العمَريُّ الشَّافعيُّ نثرًا ونظمًا في حقِّ الشَّيخِ.

قالَ في كلامٍ طويلٍ: ورُفِعَ إلى السُّلطانِ غيرَ ما مرَّةٍ، ورُمِيَ بالكبائرِ، وتربَّصت بهِ الدَّوائرُ، وسُعِيَ بهِ ليؤخَذَ بالجرائرِ، وحسَدَهُ مَنْ لم يَنلْ سَعيَهُ، وكثُرَ فارتابَ، ونمَّ وما زادَ على أنَّهُ اغتابَ، وأُزعِجَ من وطنِهِ تارةً إلى مصرَ، ثم إلى الإسكندَريَّةِ، وتارةً إلى محبسِ القلعَةِ بدمشقَ، وفي جميعِها يودِّعُ أخبيةَ السُّجونِ، ويُلْدَغُ بِزُبَانى المنونِ، وهو على علمٍ يُسطِّرُ صُحفَهُ، ويدَّخِرُ تُحفَهُ، حتى تَستَهدِي أطرافُ البلادِ طُرَفَه، وتَستطلِعَ بنايا الأقاليمِ شَرفَهُ، إلى أن خَطفتْهُ آخرَ مرَّةٍ مِن سجنِهِ عُقَابُ المنايا، وجذَبتهُ إلى مهواتِها قرارةَ الرَّزَايا.

وكانَ قبلَ موتِهِ قد مُنِعَ الدَّواةَ والقلمَ، وطبعَ على قلبِهِ منهُ طابعُ الألمِ، فكانَ مبدأَ مرضِهِ، ومنشأَ غَرَضِهِ[٢]، حتى نزَلَ قِفارَ المقابِرِ، وتركَ فَقارَ المنابِرِ، وحلَّ ساحةَ ربِّهِ

---

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٣).

(٢) في «مسالك الأبصار»: «عرضه».

وما يحاذِرُ، واختارَ راحةَ قلبِهِ من اللّائمِ والعاذِرِ، فماتَ وما ماتَ بلْ حَيِي، وعُرِفَ قدرُهُ لأنَّ مثلَهُ ما رُئي[1].

ما برِحَ على المآثرِ إلى أن صرعَهُ أجلُهُ، وأتاه بشيرُ الجنَّةِ يَستعجِلُهُ، فانتقَلَ إلى اللهِ؛ والظَّنُّ به أنَّه لا يُخجِلُهُ[2].

وكانَ يومُ دفنِهِ يومًا مشهودًا، ووقتًا معدودًا، ضاقَتْ بِهِ البلدُ وظواهِرُها، وتُذُكِّرَت بِهِ أوائلُ الرَّزايا وأواخِرُها، ولم يكُن أعظَم منها منذُ مِئينَ سنين جنازةٌ رُفعَتْ على الرِّقابِ، ووُطِئَتْ في زحَامِها الأعقابُ، وصارَ مرفوعًا على الرُّؤوسِ، مَتبوعًا بالنُّفوسِ، تحدُوهُ العَبَراتُ، وتتبَعُهُ الزَّفَراتُ، وتقولُ له الأُمَمُ: لا فُقِدْتَ مِن غائبٍ، ولأقلامِهِ النَّافعةِ: لا أَبعدكُنَّ اللهُ مِن شجراتٍ[3].

كانَ أمَّةً وحدَهُ، وفردًا حتَّى نزَلَ لحدَه[4].

ثم قالَ:

أهكَذا بالدَّياجِي يُحجَبُ القَمَرُ ... ويُحبَسُ النَّوءُ حتَّى يذهبَ المطَرُ

أهكَذا تُمنَعُ الشَّمسُ المُنيرَةُ عَن ... مَنافِعِ الأرضِ أحيانًا فتَستَتِرُ

أهكَذا الدَّهرُ ليلًا كلّه أبدا ... فلَيسَ يُعرَفُ في أوقاتِهِ سَحَرُ

أهكَذا يُترَكُ البحرُ الخِضَمُّ ولا ... يُلوَى عَلَيهِ وفي أصْدافِهِ الدُّرَرُ

أهكَذا بتقِيِّ الدِّينِ قد عَبَثَتْ ... أيدِي العِدَى وتَعدَّى نحْوَهُ الضَّرَرُ

---

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩١).

(٢) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٦).

(٣) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩١_٦٩٢).

(٤) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٨٨).

إلـى ابـنِ تَيميـةٍ تُرمَـى سِـهامُ أذىً ... مِـنَ الأنـامِ ويُدْمَـى النَّـابُ والظُّفُـرُ

بـذَّ[١] السَّـوابق ممتَـدُّ العِبَـادَةِ لا ... يَـنـالُـهُ مَـلـلٌ فـيـهـا ولا ضَـجَـرُ

ولـم يَكُـن مِثلُـهُ بعـدَ الصَّحَابـةِ فـي ... عِلـمٍ عَظِيـمٍ وزُهـدٍ مَـا لَـهُ خَطَـرُ

طَريقَـةٌ كانَ يمشِـي قَبـلِ مِشـيَتِه ... بهـا أبـو بَكـرٍ الصِّدِّيـقُ أو عُمَـرُ

فـرَدُ المذاهِـبَ فـي أقـوالِ أربعَـةٍ ... جَـاؤوا علـى أثَـرِ السُّبَّاقِ وابتَـدَرُوا

لَمَّـا بَنـوا قَبلَـهُ عُليـا مذاهِبِهـم ... بنـى وعمَّـرَ منهـا مثـلَ مـا عَمَـروا

مِثـلَ الأئمَّـةِ قـد أحيَـا زمَانَهـمُ ... كأنَّـهُ كانَ فيهِـمْ وهـوَ مُنتَظَـرُ

إنْ يَرفعُوهـم جمِيعًـا رفـعَ مُبتَـدَأٍ ... فحقُّـهُ الرَّفْـعُ أيضًـا إنَّـهُ خَبَـرُ

أمِثلُـهُ بينكُـم يُلقَـى بمضْيَعَـةٍ[٢] ... حتَّـى يطيـحَ لـهُ عَمـدًا دمٌ هـدَرُ

يكُـونُ وهـوَ أمانـيٌّ لغَيرِكُـمُ ... تَنُوبـهُ منكُـمُ الأحـدَاثُ والغِيَـرُ

واللهِ لـو أنَّـهُ فـي أرضِ غيركـمُ[٣] ... لـكَانَ منكُـم علـى أبوابِـهِ زُمَـرُ

مِثـلُ ابـنِ تيمَيـةٍ يُنسَـى بمحبَسِـهِ ... حتـى يمُـوتَ ولـم يُكحَـلْ بـهِ[٤] بَصَرُ

مثـلُ ابـنِ تيميـةٍ تَرضَـى حَواسِـدُهُ ... بحبْسِـهِ أوَلكُـم فـي حَبسِـهِ عُـذْرُ

مثـلُ ابنِ تيميـةٍ فـي السِّـجنِ مُعتقَلٌ[٥] ... والسِّـجنِ كالغِمدِ وهو الصَّـارِمُ الذَّكَرُ

---

(١) في (ج): «بر»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٢) في (ج): «بمضيقة»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٣) في «مسالك الأبصار»: «غير أرضكم».

(٤) في (ج): «له»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٥) في (ج): «مقتفل»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

مثلُ ابنِ تيميةٍ يُرمَى بكُلِّ أذًى ... ولَيسَ يُجلَى قَذًى[1] منهُ ولا نظَرُ

مثلُ ابن تيميةٍ تُذْوَى خمائلُهُ ... ولَيسَ يُلقَطُ مِن أفنَانِهِ الزَّهَرُ

مثلُ ابنِ تيميةٍ شَمسٌ تَغيبُ سُدَى ... وما تَرُوقُ[2] بها الآصَالُ والبُكَرُ

مثلُ ابنِ تيميةٍ يمضِي وما نَهلَتْ[3] ... له سيوفٌ ولا خَطِّيَّةٌ سُمُرُ

ولا تجارِي لهُ خَيلٌ مُسوَّمةٌ ... وجوهُ فرسَانِها الأوضَاحُ والغُرَرُ

ولا تحُفُّ به الأبطالُ دائرةً ... كأنَّهُم أنْجُمٌ في وسْطِها قَمَرُ

ولا تُعَبِّسُ حَربٌ في مَواقِفِهِ ... يومًا ويَضحَكُ في أرجَائِها الظَّفَرُ

حتَّى يَقومَ هذا الدِّينُ مِن مَيَلٍ ... ويَستقِيمَ عَلَى مِنهاجِهِ البَشَرُ

بل هَكذا السَّلَفُ الأبرارُ ما بَرِحوا ... يَبلَى اصْطِبَارُهُمُ جَهدًا وهُم صُبُرُ[4]

تأسَّ بالأنبياءِ الطُّهرِ كَمْ بلَغَتْ ... فيهِم مَضَرَّةُ أقوامٍ وكَم هُجِرُوا

في يوسُفٍ في دُخولِ السِّجنِ مَنقَبةٌ ... لمَن يُكابِدُ ما يَلقَى ويَصطَبِرُ

ما أُهمِلُوا أبدًا بل أُمْهِلوا لمدًى ... واللهُ يُعقِبُ تأييدًا ويَنتَصِرُ

أيذهَبُ المنهَلُ الصَّافي وما نقَعَتْ ... بهِ الظِّماءُ وتَبقَى الحَمأَةُ الكَدَرُ

مَضَى حَمِيدًا ولَمْ يَعلَقْ بهِ وَضَرٌ[5] ... وكلُّهُم وَضَرٌ[6] في النَّاسِ أو وَذَرٌ[7]

---

(١) في (ج): «قدر»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٢) في (ج): «تزف»، وفي «مسالك الأبصار»: «ترق»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٣) في (ج): «نهكت»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٤) في (ج): «صبروا»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٥) في (ج): «وطر»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٦) في (ج): «وطر»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

(٧) الوذر: كلمة كانت العرب تساب بها، وقال أبو عبيد: كلمة معناها القذف. انظر: =

طَودٌ مِن الحِلْمِ لا يُرْقَى لهُ، قُنَنٌ[1] ... كأنَّما الطَّودُ مِن أحجَارِهِ حَجَرُ

بحرٌ مِن العلمِ قد فاضَتْ بقيَّتُهُ ... فغاضَتِ الأبحُرُ العُظمَى وما شَعَروا

يا لَيْتَ شِعرِي هلْ في الحاسِدِينَ لهُ ... نظُيرُهُ في جميعِ القَومِ إنْ ذُكِرُوا

هل فيهِمُ لحدِيثِ المصطَفَى أحَدٌ ... يميِّزُ النَّقدَ أو يُروَى له خَبرُ

هل فيهِم مَنْ يضُمُّ البَحثَ في نَظَرٍ ... أو مِثلُهُ مَنْ يضُمُّ البَحثُ والنَّظرُ

هلَّا جمَعتُم لهُ من قَومِكُم ملأً ... كفِعلِ فِرعَونَ معَ مُوسَى لِتَعْتَبِروا

قولُوا لهُم: قالَ هذا فابحَثُوا معَهُ ... بِجَمْعِكُم[2] وانظُرُوا الجُهَّالَ إن قَدَرُوا

تُلْقَى الأباطِيلُ أسحَارًا لها دَهَشٌ ... فيَلقَفُ الحَقُّ ما قالُوا وما سَحَروا

فليَتَّهم مثلَ ذاكَ الرَّهطِ مِن ملأٍ ... حتى يكُونَ لكُم في شَأنِهم عِبَرُ

وليتَهم أذعَنُوا للحقِّ مِثلَهم ... فآمَنوا كلُّهُم مِنْ بَعدِ ما كفَرُوا

يا طالما نَفَرُوا عَنهُ مجَانَبةً ... وليتَهُم نفَعُوا في الضَّيمِ أو نفَرُوا

هَل فيهِمُ صَادعٌ للحقِّ مِقْوَلُهُ ... أو خَائضٌ للوَغَى والحَربُ تَستَعِرُ

رَمَى إلى نَحْرِ غَازانٍ مُواجَهةً ... سِهَامُهُ مِنْ دُعاءٍ عَونُهُ القَدَرُ

بَتلِّ راهِطَ والأعداءُ قَد غَلَبُوا ... عَلَى الشَّآمِ وطالَ الشَّرُّ والشَّرَرُ

وشَقَّ في المَرْجِ والأسيَافُ مُصلَتَةٌ ... طَوائفًا كُلُّها أو بَعضُها التَّترُ

= «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: وذر).

(١) في (ج): «فنن»، والمثبت من «مسالك الأبصار»، والقُنَن: جمع قُنَّة، وهو أعلى الجبل. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: قنن).

(٢) في «مسالك الأبصار»: «قدامنا».

هَـذا وأعـدَاؤهُ فـي الـدُّورِ أشـجَعُهم ... مِثْـلُ النِّسَـاءِ بظِـلِّ البَـابِ يَسْـتَتِرُ[1]

وبَعدَهـا كِسْـرَوانُ والجِبَـالُ وقَـد ... أقـامَ أطْوادَهـا والطَّـودُ مُنفَطِـرُ

واستَحصَدَ القومَ بالأسيَافِ جَهدَهمُ ... وطالما بَطَلوا طَغَـوى وما بطَروا

قالُـوا: قبرنَـاهُ قُلنـا: إنَّ ذا عَجَـبٌ ... حَقًّا أللكَوكَـبِ[2] الـدُّريِّ قد قَبرُوا

وليـسَ يذهَـبُ مَعنـىً منـهُ مُتَّقِـدٌ ... وإنَّمـا تَذهَـبُ الأجسَـامُ والصُّـوَرُ

لـم يَبكِـهِ نَدَمًـا مَـنْ لا يَصُـبَّ دَمًـا ... يجـرِي بـهِ دِيَمًـا تَهمِـي وتَنهَمِـرُ

لهَفِـي عليـكَ أبـا العبَّـاسِ كَـمْ كـرَمٍ ... لَمَّـا قَضيْتَ قضَـى مِـنْ عُمـرِهِ العمُـرُ

سـقَى ثـرَاكَ مِـنَ الوَسـمِيِّ صيِّبُـهُ ... وزارَ مغنَـاكَ قَطْـرٌ كلُّـهُ قَطَـرُ

ولا يـزَالُ لـه بـرْقٌ يُغـازِلُـه ... حُلـوُّ المرَاشِـفِ فـي أجفَانِـهِ حَـوَرُ

لِفَقْـدِ مِثلِـكَ يـا مَـن مَـا لَـهُ مثَـلٌ ... تأسَـى المحارِيـبُ والآيـاتُ والسُّـوَرُ

يـا وارِثًـا مِـنْ عُلـومِ الأنبيـاءِ نُهًـى ... أورَثـتِ قَلبِـيَ نـارًا وَقدُهـا الفِكَـرُ

يـا واحِـدًا لَسْـتُ أستَثنِي بـهِ أحَـدًا ... مِـنَ الأنـامِ ولا أُبقِـي ولا أذَرُ

يـا عالِمًـا بنُقُـولِ الفِقْـهِ أجمَعِهـا ... أعَنْـكَ تُحفَـظُ زَلَّاتٌ كَمَـا ذَكَـرُوا

يـا قَامِـعَ البِـدَعِ اللَّاتـي تجنَّبَهـا ... أهـلُ الزَّمَـانِ وهـذا البـدْوُ والحَضَـرُ

ومُرشِـدَ الفِرقَـةِ الضُّـلَّالِ نهجُهُـم ... مِـنَ الطَّرِيـقِ فمـا حـارُوا ولا سَـهِرُوا

ألـم تكُـن للنَّصَـارَى واليَهُـودِ معًـا ... مُجـادِلًا وهمُ فـي البَحثِ قَـد حَضروا

---

(١) في (ج): «يستتر».

(٢) في (ج): «حقًا لكوكب»، والمثبت من «مسالك الأبصار».

وكَـم فَتـى جَاهِـلٍ غِـرٍّ أَبَنْـتَ لـهُ ... رُشْـدَ المقَـالِ فـزَالَ الجَهـلُ والغَـرَرُ

مـا أنكَـرُوا منـكَ إلَّا أَنَّهُـم جَهِلُـوا ... عظِيـمَ قـدْرِكَ لكِـنْ سـاعَدَ القَـدَرُ

قالـوا بأَنَّـكَ قـدْ أخطَـأْتَ مسـأَلَةً ... وقـد يكُـونُ فهـلَّا منـكَ تُغتَفَـرُ

غَلِطْـتَ فـي الدَّهرِ أو أخطـأْتَ واحِدَةً ... أمـا أجَـدْتَ إصَابـاتٍ فتقتَـدرُ[1]

ومَـنْ يكُـونُ علـى التَّحقِيـقِ مُجتَهِـدًا ... لـهُ الثَّـوابُ علـى الحَالَيـنِ لا الـوِزَرُ

ألـم تكُـن بأَحَادِيـثِ النَّبـيِّ إذا ... سُـئلْتَ تعـرِفُ مـا تأتـي ومـا تَـذَرُ

حاشَـاكَ مِـن شُـبَهٍ فيهـا ومِـنْ شَـبَهٍ ... كلاهُمـا منـكَ لا يبْقَـى لـه أثَـرُ

عَليـكَ في البحـثِ أن تُبـدِي غَوامِضَهُ ... ومـا عَلَيـكَ إذا لـم تَفهَـمِ البقَـرُ

قدَّمْـتَ للهِ مـا قدَّمْـتَ مِـنْ عَمَـلٍ ... ومـا عَلَيـكَ بهـم ذَمُّـوكَ أو شَـكَروا

هـل كانَ مِثلُكَ مَـنْ يخْفَى عَلَيـهِ هُدًى ... ومِـنْ سَـمائِكَ تَبـدُو الأنجُـمُ الزُّهُـرُ

وكيـفَ تحـذَرُ مِـنْ شَـيءٍ تَـزِلُّ بـهِ ... أنـتَ التَّقِيُّ فمـاذا الخَـوفُ والحَذَرُ[2]

* * *

---

(١) في «مسالك الأبصار»: «فتغتفر».

(٢) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٢ ـ ٧٠٨)، و«العقود الدرية» (ص٥٢٦ ـ ٥٣١).

ومنها: للعلَّامةِ أبي حفصٍ عمرَ ابنِ الوردِيِّ الشَّافعيِّ ناظِمِ «البهجَةِ»[١]:

قلُوبُ النَّاسِ قاسِيَةٌ سِلاطٌ ... ولَيسَ لها إلى العَليا نشَاطُ[٢]

أَيُنشَطُ قطُّ بعدَ وَفاةِ حَبرٍ ... لنا مِن نَثرِ جَوهَرِه التِقَاطُ

تَقيُّ الدِّينِ ذو وَرَعٍ وعِلمٍ ... خُروقُ المعضِلاتِ بهِ تُخَاطُ

تُوفِّيَ وهوَ مَسجُونٌ فَرِيدٌ ... وليسَ لهُ إلى الدُّنيا انْبِسَاطُ

ولو حَضَرُوهُ حِينَ قَضَى لأَلْفَوا ... مَلائكَةَ النَّعِيمِ بهِ أحَاطُوا

قضَى نحْبًا ولَيسَ لهُ قَرِينٌ ... ولا لنظيرِهِ[٣] لُفَّ القِمَاطُ[٤]

فتىً في عِلمِهِ أضْحَى فَرِيدًا ... وحَلُّ المشْكِلاتِ بهِ يُنَاطُ

وكانَ إلى التُّقَى يَدعُو البَرَايَا ... ويَنهَى فِرقَةً فَسقُوا ولاطُوا

وكانَ يخافُ إبليسٌ[٥] سَطَاهُ ... بوعْظٍ للقُلُوبِ هوَ السِّيَاطُ

فيا للهِ ما قد ضَمَّ لحْدٌ ... ويا للهِ ما غَطَّى البَلاطُ

هُمُ حَسَدُوهُ لَمَّا لم يَنالُوا ... مَناقِبَهُ فقَد مَكَرُوا وشَاطُوا

وكانُوا عَن طَرِيقَتِه كُسَالى ... ولكِنْ في أذَاهُ لهُم نَشَاطُ

---

(١) تقدم التعريف بابن الوردي وكتابه.

(٢) كذا في (ج)، وجاء مطلع القصدية في «تاريخ ابن الوردي»:

عثا في عرضه قوم سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط

تقي الدين أحمد خير حبر ... خروف المعضلات به تخاط

(٣) في (ج): «لمنظره»، والمثبت من «تاريخ ابن الوردي».

(٤) القماط: الخرقة التي تلف على الصبي إذا شد في المهد. انظر: «المغرب» للمطرزي (مادة: قمط).

(٥) في «تاريخ ابن الوردي»: «الجن تفرق من».

وحَبْسُ الدُّرِّ في الأصْدَافِ فَخرٌ ... وعِنْدَ الشَّيخِ بالسِّجنِ اغتِبَاطُ

بآلِ الهاشِميِّ لهُ اقتِدَاءٌ ... فقَدْ ذاقُوا المَنُونَ ولمْ يُواطُوا

بَنُو تَيمِيَّةٍ كانُوا فبَانُوا ... نُجومُ العِلمِ أدْرَكَها انهِبَاطُ

ولكِن يا نَدَامةَ حَابِسِيْهِ ... فشَكُّ الشِّركُ كانَ بهِ يمَاطُ

ويا فرَحَ اليَهُودِ بما فعَلتُم ... فإنَّ الضِّدَّ يُعجِبُهُ الخبَاطُ

ألمْ يَكُ فيكُمُ رجُلٌ رشِيْدٌ ... يرَى سِجنَ الإمَامِ فيُستَشَاطُ

إمَامٌ لا وِلايَةَ قطُّ عانى[1] ... ولا وَقفٌ عَليهِ ولا رِباطُ

ولا جَاراكُمُ في كَسْبِ مَالٍ ... ولمْ يُعهَدْ له بِكُمُ اخْتِلاطُ

ففِيمَ سَجنتُمُوهُ وغِظتُمُوهُ ... أما لجَزَاءِ أذِيَّتِه اشْتِراطُ

ولولا أنَّهُم سَجنُوهُ شرعًا ... لكانَ بهِ لقَدرِهُمُ انحِطَاطُ[2]

أما واللهِ لولا كَتمُ سِرِّي ... وخَوفُ الشرِّ لانحَلَّ الرِّباطُ

وكنتُ أقُولُ ما عِندِي ولَكِن ... بأهْلِ[3] العِلمِ ما حَسُنَ اشتِطَاطُ

لقَد خَفِيَتْ عَلَيَّ هنا أُمورٌ ... فلَيسَ يَلِيقُ لي فيها انخِراطُ[4]

سيظهَرُ قَصدُكُمْ يا حابِسِيهِ ... ويُنْبِئكُم[5] إذا نُصِبَ الصِّراطُ

---

(١) في «تاريخ ابن الوردي»: «كان يرجو».

(٢) في «تاريخ ابن الوردي»:

وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطاط

(٣) في (ج): «بأهل».

(٤) في «تاريخ ابن الوردي»:

فما أحد إلى الإنصاف يدعو ... وكل في هواه له انخراط

(٥) في (ج): «ونيتكم»، والمثبت من «تاريخ ابن الوردي».

فهـا هـوَ مـاتَ عَنكُـمُ واسـتَرَحتُمْ فعاطُـوا مـا أَرَدْتُـم أن تُعَاطُـوا
وحُلُّـوا واعقِـدُوا مِـن غَيـرِ ردٍّ عليكُـمْ وانطَـوَى ذاكَ البِسَـاطُ[1]

ومما يُنسَبُ إليهِ أيضًا:

كـانَ واللهِ فَقِيهًـا جيِّـدًا ولـه عِـرْضٌ بسـوءٍ مـا اتُّهـم
غَـيرَ لمْ يَـدرِ مُـدَاراةَ الـوَرَى ومُـداراةُ الـوَرَى أمـرٌ مُهِـم

***

(١) انظر: «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٥).

ومِنها: للشَّيخِ الإمامِ محمَّدِ العراقيِّ الجزَرِيِّ رضي الله تعالى عنهُ[١]:

عــزَّ عِنــدِي يَــومَ الرَّحِيــلِ العَــزاءُ ... لنَعــــيٍّ فيــــهِ الدُّمُــــوعُ دِمــــاءُ

طَــرَقَ الخافِقَيــنِ خَطْــبٌ جَسِــيمٌ ... أطرَقَــتْ منــهُ فــي الــوَرَى العُلَمــاءُ

خِفــتُ أن تُزْهــقَ النُّفــوسُ وكادَتْ ... تَرجُــفُ الأرْضُ أو تمُــورُ السَّــماءُ

فقَــدَ المســلِمُونَ قُطــبَ المعَالــي ... فبَكَتَــهُ الأغــوَاثُ والأولِيــاءُ

كَسَــفَ النَّيرَيــنِ فَقــدُكَ يــا أحمَــ ... ــدُ حقًّــا وغابَــتِ الجَــوزاءُ

أظلَمَــتْ جُلَّــقُ الَّتــي كُنْــتَ فيهــا ... وأضَــاءَتْ بقبْــرِكَ البَيــدَاءُ

يــا طلِيــقَ اللِّسَــانِ فــي كُلِّ فَــنٍّ ... فلقَــدْ شَــرُفَتْ بــكَ العَلَيــاءُ

إنْ تكُــنْ مِــتَّ فالعُلُــومُ الَّتــي أحيَيْــ ... ــتَ مِــنْ بعــدِ مَوتِهــا أحيــاءُ

مَدحَــتْ فَهمَــكَ الحُــرُوفُ جَــلالًا ... وكذلِــكَ الأفعَــالُ والأسْــمَاءُ

يــا مُزِيــلَ الإشْــكَالِ عــن كُلِّ فَهــمٍ ... ولَدَيْــهِ عَــن زلَّــةٍ إغْضَــاءُ

لا الصَّبَــاحُ صَبــاحٌ بَعــدَكَ عِنــدِي ... فــي ضِيَــاءٍ ولا المَسَــاءُ مَسَــاءُ

مــا حَضَــرْتَ الجِــدَالَ بيــنَ أُنَــاسٍ ... يُقِــرُّونَ الحَدِيــثَ إلَّا وفــاؤوا

أنــتَ صَخْــرُ الوجُــودِ فــي كُلِّ أرْضٍ ... والبَرايــا فــي جَمِيعِهــا الخَنسَــاءُ

مَــن لعِلــمِ التَّفسِــيرِ فيمــا رَواهُ ... جَابِــرٌ أو مُجَاهِــدٌ أو عَطَــاءُ

عُطِّلَــتْ بعْــدَكَ الــدُّرُوسُ فمــا فيهــ ... ــا لــرَبِّ الفَهْــمِ السَّــقِيمِ شِــفَاءُ

مَــن لعِلــمِ الفُتْيــا إذا اشْــتَبَه الأ ... مْــرُ وحَــارَتْ فــي رَدِّهــا الأذْكِيــاءُ

مَــن لعِلــمِ الحَدِيــثِ بعْــدَكَ فيمَــا ... قالَــهُ الواضعــونَ والأتقِيَــاءُ

---

(١) هذه القصيدة من زيادات المصنف على الكتب الثلاثة التي اعتمد عليها.

طَاهِرَ الأَصْلِ كَم حَويتَ خِصالًا ... قَصُرَتْ عَن فُرُوعِها الفُصَحَاءُ

مَن تَكُن هذِهِ السَّجَايا سَجَاياهُ ... فَلا تَستشْفِي بِهِ الأعْدَاءُ

كلُّ مَيتٍ يكُونُ مِثلَ تقِيِّ الدِّينِ ... فالمَوتُ عِندَهُ أحْيَاءُ

أيُّها القَبرُ إنَّ فيْكَ لَحَبْرًا ... جَلَّلتْهُ مَهابَةٌ وضِيَاءُ

وجَلالٌ وعِفَّةٌ ووَقَارٌ ... وجَمَالٌ وبهْجَةٌ وسَنَاءُ

تَعِسَتْ لَيلَةُ الفِرَاقِ وغَابَتْ ... أنجُمٌ أشْرَقَتْ لها لَألآءُ

نَعَتِ النَّاعِيَاتُ نَعيَكَ في الأُ ... فقِ وناحَتْ في دَوحِها الوَرْقَاءُ

أيُّها الحَبرُ أوحَشَ الآنَ رَبعٌ ... كُنْتَ فيهِ ومَنزِلٌ وفِنَاءُ

هانَ قَدرُ الحمراءِ عِندَكَ من زُ ... هدِكَ واستَحقَرَتْ لكَ البَيضَاءُ

ونَبذْتَ الدُّنْيَا فعِشْتَ فَقِيرًا ... بِصِفَاتٍ تَودُّها الأغْنِياءُ

يا ابنَ تَيمِيةَ الَّذي حَزِنَ الدَّهرُ ... عَلَيهِ وغَاضَتِ الأنْواءُ

كُنْتَ إنسَانَ عَينِ دَهرِكَ لا ... تَعرِفُ حَقًّا إلَّا بكَ الأشيَاءُ

خُضْتَ بحْرًا ما فيهِ إلَّا إمَامٌ ... ذو اجتهادٍ ولكِن عَدَاكَ العِدَاءُ

كُنْتَ في ذِروَةِ السَّنامِ مِنَ العِلمِ ... وما قُلْتَ للأنَامِ سَواءُ

ضَاقَ ذَرعُ الزَّمانِ مِنكَ عياءً ... ليْتَ شِعرِي هلْ ضاقَ مِنكَ الفَضاءُ

وإذا حَلَّتِ المنِيَّةُ يومًا ... بنَفِيسٍ فلَيسَ يُغْنِي الأسَاءُ

نضَّرَ اللهُ وجْهَكَ الحَسَنَ المنـ ... ـظَرِ يا مَنْ لَهُ السَّنَى والسَّنَاءُ

وسَقَى اللهُ رَوضَةً أنْتَ فيها ... سَارِياتٍ تجْرِي بها النَّكبَاءُ

وعَلا قَبرَكَ المُبَجَّلِ قَيصُومٌ ... ورَنْدٌ وفاحَ مِنهُ الكِبَاءُ

رَضِـيَ اللهُ عنـكَ حَيًّـا ومَيتًـا وسَـقَى رَيعَـكَ المصُـونَ الحَيـاءُ

قَسَـمًا بالإلَـهِ لـو أنصَـفَ الـدَّ هـرُ لأضْحَـى فـي كلِّ بيـتٍ عَـزَاءُ

* * *

ومِنها للشيخِ علاءِ الدِّينِ ابن غانمٍ رحمه الله[(١)]:

أيُّ حَبرٍ مَضَى وأيُّ إمامٍ فُجِعَتْ فيه مِلَّةُ الإسلامِ
ابنُ تَيْمِيّةَ التَّقيُّ إمامُ الـ ـعَصْرِ مَنْ كانَ شامَةً في الشَّامِ
بحرُ علمٍ قد غاضَ منْ بعد ما فا ضَ نداهُ وعمَّ بالإنعامِ
زاهدٌ عابدٌ تَنَزَّهَ في دنـ ـياهُ عمَّا بها مِنْ حُطامِ
كان كنزًا لكلِّ طالبِ علمٍ ولِمَنْ خافَ أن يُرى في حَرامِ
ولعارفٍ قد جاءَ يشكُو مِنَ الفَقْـ ـرِ لَدَيْهِ ينالُ كلَّ مَرامِ
حَازَ علمًا فَمَا لهُ مِن مساوٍ فيهِ مِنْ عالمٍ ولا مُسامِ
ولم يكنْ في الدُّنيا له مِنْ نَظِيرٍ في جميعِ العلومِ والأحكامِ
كانَ في عِلمِه وحِيدًا فريدًا لم يَنالُوا ما نالَ في الأحلامِ
عالمٌ في زمانِهِ فاقَ بالعِلْـ ـمِ جميعَ الأئمّةِ الأعلامِ
كلُّ مَنْ في دمشقَ ناحَ عليهِ ببكاءٍ مِنْ شدَّةِ الآلامِ
فُجِعَ النَّاسُ فيهِ في الشَّرقِ والغر بِ وأضْحَوْا بالحزنِ كالأيتامِ
لو يفيدُ الفِداءُ فادَوْهُ بالأر واحِ منهم من الرَّدى والحِمَامِ
أوحَدٌ فيه قد أُصِيبَ البرايا ليُعَزَّى فيه جميعُ الأنامِ

---

(١) علاء الدين ابن غانم: أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن حمائل بن علي المقدسي، أحد كبار المشهورين بالفضائل وحسن الترسل، وكثرة الأدب والأشعار، والمروءة التامة، وسمع الحديث الكثير، وحفظ القرآن والتنبيه، وباشر الجهات، وقصده الناس في الأمور المهمات، وكان كثير الإحسان إلى الخاص والعام، توفي مرجعه من الحج سنة (٧٣٧هـ). انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٢٠٧)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ١٢٣).

وعَزيـــزٌ عليهِـــمُ أن يَـــرَوْهُ غـابَ بالرّغـمِ فـي الثّـرى والرَّغـامِ

لا يُـــرى مثــلُ يومِـــهِ عندمـــا ســا رَ النَّعْــشِ نحـــو دارِ السّـــلامِ

حملُـوهُ علـى الرِّقـابِ إلـى القَبْـــ ـــرِ وكادوا أن يهلكـــوا بالزِّحـــامِ

صـــارَ جـــارَ الإلَـــهِ ربِّ السَّـــموا تِ الرَّحِيـــمِ المهَيمِـــنِ العـــلَّامِ

قَـــدَّسَ اللهُ روحَـــهُ وســـقى قَبْـــ ـــرًا حَـــواهُ بهاطـــلاتِ الغَمـــامِ

* * *

ومنها للشَّيخِ الأديبِ مجيرِ الدِّين أبي العبَّاسِ أحمدَ بن الحسَنِ البغدادِيِّ ثم الدَّمشقِيِّ[1]، وهي:

لمُصَابِ البَرِّ التَّقِيِّ الإمَامِ ... كلُّ دمعٍ مِنَ الورَى في انسِجَامِ

والبَواكِي لَهُا[2] عَلَيْهِ نُواحٌ ... كفَقِيداتٍ صَادِحَاتِ الحَمَامِ

مَاتَ يَوْم الاثنَيْنِ والسِّرُّ فِيهِ ... غيرُ خَافٍ على ذَوِي الأفهامِ

مَوتَةً عظَّمَ المُهَيْمِنُ فيها ... قَدرَهُ في عُمُومِ جمعِ الأنَامِ

حَفَّهُ النَّاسُ أجْمَعُونَ رجَالًا ... ونسَاءً سَعيًا على الأقْدَامِ

ومَشَوا تَحتَ نعشِهِ وهُوَ مِنْ فو ... قِ رُؤوسِ الأعْيَانِ والحُكَّامِ

يُسبِلُونَ الدُّمُوعَ مِن خشيَةِ اللـ ... ـهِ وحُزنًا بمُسبِلاتِ الغَمَامِ

وضَجِيجُ العِبادِ[3] سِرًّا وجهرًا ... كدَوِيٍّ في شاهقٍ[4] الجوِّ سَامِ

يَا لَهُ مُكفَهِرُّ يَوْمٍ عَبوسٍ ... عاثَ في غارِبِ السُّهى[5] والسَّنَامِ

كم بِهِ عايَن الهلَاكَ قَوِيٌّ ... ذُو نشَاطٍ لفرطِ كَظِّ الزِّحامِ

يا لَهَا مِنْ رزِيَّةٍ كانَ فيهَا ... يَوْمُ بؤسٍ في طولِهِ فَوقَ عَامِ

---

(١) أحمد بن الحسن بن محمد الدمشقي مجير الدين الخياط الشاعر كان كثير الدعوى جدًّا وشعره غث، ولكن يندر له الجيد، توفي في سنة (٧٣٥هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٦/ ٢٠٦)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ١٤١).

(٢) في «العقود الدرية»: «لهم».

(٣) في (ج): «العباس»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٤) في «العقود الدرية»: «سامق».

(٥) في (ج): «والنهى»، والمثبت من «العقود الدرية».

جـلَّ فيـهِ المُصَـابُ حَتَّـى لـقَدْ دقَّ تَعْبيـرُه علـى ذوي الأفهـامِ[1]

كانَ شيخَ الإسْلَامِ في العلمِ والزُّهـ ـدِ وحَـلَّالِ مُشْـكِلاتِ الـكَلَامِ

فقَـدَ النَّـاسُ منْـهُ حبـرًا عَلِيمًـا هَدْيُـهُ كالأئمَّـةِ الأعْـلَامِ

مِنـهُ حُـبُّ الكِتـابِ والسُّـنةِ المُثْـ ـلَى جَـرَى فـي عُروقِـهِ والعِظَـامِ

بلَـغَ الأوجَ مِـنْ سَـمَاءِ المَعَالِـي وتَسَـامى عِلمًـا علـى كُلِّ سـامِي

وطَـوَى ذكـرُهُ البِـلَادَ انتِشَـارًا فهُـوَ حَتَّـى المعَـادِ فـي النَّـاسِ نامِـي

كَانَ جَبـرَ الكَسِـيرِ إن هاضَـهُ الـدَّ هْـرُ وعَـونَ العَانـي وحَطْـمَ الحُطَـامِ

كَانَ لا يَرْهَـبُ المُلُـوكَ ولَا يـر غَـبُ فيمَـا لَهُـم مِـنَ الإنعَـامِ

كَانَ وِتـرًا فـي الفَضْـلِ فَـرْدًا وكلُّ النَّـاسِ جَـاؤوا بشَـفعِهم والتَّـؤامِ

كَانَ سَـمحًا بمثلِـهِ الدَّهْـرُ كـزٌّ فـي ليَالِـي الزَّمَـانِ والأيَّـامِ

كَانَ سَـطرًا فـي جَبهَـةِ الدّهـرِ يُقـرَا فـي البرايَـا وشـامةً فـي الشـآمِ

كَانَ نَفعًـا لـكلِّ مَـنْ خَـافَ ضُـرًّا فـي سَـبِيلَي حَلَالِـهِ والحـرَامِ

لـم يكُـنْ ذَا تأنُّـقٍ فـي مَتَـاعٍ ولِبـاسٍ ومَشْـرَبٍ وطَعَـامِ

كَانَ فـي اللهِ ذَا انتقـامٍ ولَا يـو جَـدُ يَوْمًـا لنَفسِـهِ ذَا انتقـامِ

كَانَ نـورًا يُهـدَى بـهِ ذُو ضَـلالٍ كَانَ بحـرًا يُـرْوى بـهِ كلُّ ظـامِ

كَانَ كاللَّيـثِ فـي النَّوائـبِ فَتـكًا كانَ كالغَيـثِ بالمواهِـبِ هـامِ

فِـي يَدَيْـهِ وصَـدرِهِ كلُّ بَحـرٍ زاخِـرٍ بالنَّـوالِ والعِلـمِ طَـامِ

---

(١) في (ج): «ذوي الأفهام»، وفي «العقود الدرية»: «على الأوهام».

أيُّ نَـدبٍ شَـهْمٍ شُـجَاعٍ جَـوادٍ أروعٍ[1] مَاجِـدٍ سـرِيٍّ همـامِ
قَـامَ لَمَّـا تَذَبـذَبَ النَّـاسُ بالـ بِّ عليهـم لَمَّـا نبَـا كلُّ حَـامِ
كـم لَـهُ فِـي حـادِسِ[2] الخَطـبِ والنَّا سُ نيـامٌ حَتَّـى الضُّحَـى مِـن قِيـامِ
وجَمِيـعُ الأنَـامِ مِـن شـدَّةِ الخَـو فِ نِيـامٌ مِـن الـرَّدَى فـي مَنَـامِ
وبَنُـو فَـارِسٍ قـدِ افتـرَسُوا الـنَّـا سَ افتِـراسَ الأسُـودِ سـرحَ الحـوامِ
ودِمشْـقُ الـشَّـآمُ بـعـدَ انبِسَـاطٍ مِـن ضَواحِـي رُسـتَاقِها فِـي انضِمـامِ
إِذْ غَزانـا عِلْـجُ العُلُـوجِ غـزانٌ[3] وغَـزَانـا مِـن فَـارِسٍ بالطَّغَـامِ
فأعَـادَ العَزِيـزَ مِـنَّـا ذَلِيـلًا ذَا صَـغَـارٍ يـنـقَـادُ كالأنعَـامِ
فـنَـضَـاهُ الـجَـبَّـارُ جَـلَّ ثَـنَـاهُ فـي وُجُـوهِ العِـدَى كحَـدِّ الحُسَـامِ
فحَمَانَـا بِـاللهِ مِـن كُلِّ طـاغٍ لا بـرُمْـحٍ وصَـارِمٍ وسِـهَامِ
يـا لَـهُ حِيـنَ فـرَّ كُـلُّ كَمِـيٍّ مِـن حُمـاةِ الإسـلَامِ عَنَّـا يُحَامـي[4]
يـا ابْـنَ تَيْميـةٍ عَلَيْـك خُصُوصًـا وعُـمُـومًـا تحيَّتِـي وسَـلامِي
يـا سَـلِيلَ العُـلَا عَلَيـكَ القَوافِـي قـد بَكَـتْ فـي الطُّـرُوسِ بالأقْـلامِ
يـا فَقِيـدَ المِثَـالِ عِلْمًـا وحِلْمًـا وقَرِيـبَ المَرمَـى بعِيـدَ المـرَامِ

(١) في (ج): «أورع».

(٢) في «العقود الدرية»: «حنادس».

(٣) في (ج): «غزاة»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٤) في «العقود الدرية»: «محامي».

يـا بطِـيءَ الإحْجَـامِ إنْ عَـزَّ خَطْـبٌ وكـثـيـــرَ[1] القِيَــامِ والإقْــدَامِ[2]

كُـفَّ طَرْفـي إنْ لـذَّ مِـن بَعـدِ مَـرآ كَ لأجــفَــانِــهِ لـذِيــذُ الـمَـنَامِ

وبــوِدِّي بفَقْــدِ شَــخْصِكَ لَــو حـا مَ عَلَــى أيْــكَتي حَمَــامُ حِمَامِــي

ولعَمْــرِي يـا مَــن لَــهُ فــي فُـؤَادِي لحَـــدٌّ ذِكــرِ دَوَامُـــهِ بدَوامِـــي

إنْ حَللْــتَ الثَّـرَى فرُوحُــكَ حَلَّــتْ يــا ابــنَ عَبـدِ السَّــلامِ دَارَ السَّـلَامِ

فسَــقَى تُربَــةً حَــواكَ ثَرَاهــا كُـــلُّ مُـــزنٍ بـــوابِلٍ ورِهَـــامِ

وإذا شَــحَّتِ السَّــوَارِي بسَــحٍّ والغَــوادِي وجَدْنَــاكَ بالــدَّوام[3]

* * *

---

(١) في «العقود الدرية»: «وسريع».

(٢) في (ج): «جنح الظلام» بدل «والإقدام».

(٣) فـي «العقـود الدريـة»: «جدنـاك بالدمـع دامي» بـدل «وجدناك بالـدوام». انظـر: «العقـود الدرية» (ص٤٣٧ ـ ٤٤٠).

ومنها لمحمودِ ابن الأثيرِ الحلَبيِّ[١]:

يـا دُمُوعِـي سُـحِّي كسَـحِّ[٢] الغَمامِ ... هـاطِـلاتٍ علـى الخُـدُودِ سِـجَامِ

لِفِـراقِ الشَّـيخِ الإمَـامِ المفَـدَّى ... ابـنِ تَيميَّـةٍ ونجْـلِ الكِـرَامِ

زاهِـدٌ عابِـدٌ تقِـيٌّ نقِـيٌّ ... فهمُـهُ لا يُقـاسُ بالأفهَـامِ

ابـنُ تيمِيَّـةٍ يتيمَـةُ دهْـرٍ ... مـا لَـهُ مِـن مُسـاوِمٍ ومُسَـامِي

فُجِعَـت فيـهِ أهـلُ كلِّ البَرايـا ... جَمْعُهـا للعُلـومِ والأحـكَامِ

أوحَـدٌ فـي العُلُـومِ والفَضْـلِ والـزُّ ... هـدِ لا يُرائـي فـي مِلَّـةِ الإسـلامِ

بحْـرُ عِلـمٍ يَغُـوصُ كلُّ لَبيـبٍ ... فـي مَعانِيـهِ حـارَ كلُّ الأنـامِ

فـاقَ بالعِلـمِ والفَضَائـلِ للخَـ ... ـلقِ فأضْحَـى إمَـامَ كلِّ إمَـامِ

إنْ يكُـنْ غـابَ شَـخصُهُ وتـوارَى ... ومَضَـتْ رُوحُـهُ لـدارِ السَّـلامِ

فمنَاقِبُـه والفَضَائـلُ تبقَـى ... فـي ممَـرِّ الدُّهـورِ والأعْـوامِ

سَـيِّدٌ قـد عَـلا بعِلْـمٍ وحِلْـمٍ ... فـعِـداهُ لـدَيـهِ كـالأنـعَـامِ

كَـم رَمـاهُ الحُسَّـادُ بالكَيـدِ والبَغـي ... وهـو لا يَنثَنـي عـنِ الإقـدَامِ

طَالِـبُ الحـقِّ لا يخَـافُ لحَيفٍ[٣] ... وهـو يحْمِـي عَـن ذِروَةِ الإسـلامِ

لا يخـافُ الملُـوكَ أيضًـا ولا الخَلـ ... ـقَ ولا الـعُـداةَ والـلُّـوامِ[٤]

---

(١) جاء في «العقود الدرية»: «نظمها رجل اسمه جمال الدين محمود بن الأمير الحلبي وأرسلها من حلب المحروسة».

(٢) في «العقود الدرية»: «كسحب».

(٣) في (ج): «لخنف».

(٤) في (ج): «للعداة واللوام».

صـــدرُهُ للعلــومِ وقلْبُــه للــربِّ ويـــــداهُ للــبَـــــذلِ والإنعَـــامِ
لا تَلُمنـــي عـــلى المدِيـــحِ ودَعْنـــي فهـــوَ شَـــيخِي وبُغيَتـــي ومَرامـــي
كلُّ مَـــنْ مـــاتَ في هـــواهُ بوجـــدٍ مـــا عَليـــهِ في حتفِـــهِ مِـــن مَـــلامِ

* * *

وذكر(١) تمامها، وهي إحدى وخمسون بيتًا.

ومنها للشَّيخِ الإمامِ زينِ الدِّينِ عمرَ بن الحسامِ الشبليِّ(٢):

لو كانَ يُقنِعُني عليكَ بُكائي ... لجرَتْ سوابِقُ عَبرَتي بدماءِ
أو كنْتُ في يومِ انتِقالِكَ لِلْبِلَى ... صَخْرًا لزدْتُ عَلى بُكا الخَنساءِ
لكِنْ أُصَبِّرُ عنكَ نفسِي كاتمًا ... للحُزنِ خوفَ شماتةِ الأعداءِ
أترى عَلمْتَ وأنتَ أفضَلُ عالمٍ ... ما عِندَنا مِن لَوعةٍ وبلاءِ
أسفِي على تلكَ الدِّيانَةِ والتُّقَى ... والجودُ آذَنَ شملُهُ بتَناءِ
أسفِي عليكَ وما التَّأسُّفُ نافعٌ ... صبًّا عليكَ مُقلقَلَ الأحشاءِ
أسفِي عليكَ نفَى الكَرى عَن ناظِري ... مِن فَرطِ أحزانِي وفَرطِ عَناءِ
غاضَتْ بحارُ العِلمِ بعدَكَ والورَى ... في غَفْلَةٍ يا سيِّدَ العُلماءِ
بأبي وَحِيدًا ماتَ مُنفَرِدًا عن الـ ... أحبابِ كانَ بقيَّةَ الصُّلحاءِ
بحرُ العلومِ حَوَى الفضَائلَ كلَّها ... وسَمَا سُموَّ كواكِبِ الجَوزاءِ
مُتفرِّدًا في كلِّ علمٍ دونَهُ ... لعلوِّ رُتبَتِه ذُرَى(٣) العلياءِ
بالفضْلِ قد شهِدَت لهُ أعداؤُه ... وبِهِ سَما فَضلًا عَلى النُّظَراءِ

---

(١) «وذكر» من «العقود الدرية».

(٢) عمر بن الحسام أقوش؛ هو الشاعر زين الدين أبو حفص الشبلي الدمشقي الذهبي الشافعي الافتخاري، وكان فيه تودد وتقرب، وحسن صحبة وطهارة لسان، وكان بعضهم يلقبه براطيش، وبعضهم يسميه شراشط، توفي سنة (٧٤٩هـ) في طاعون دمشق. انظر: «فوات الوفيات» لابن شاكر (٣/ ١٣١)، و«أعيان العصر» للصفدي (٣/ ٥٩٨).

(٣) في (ج): «ذوي»، والمثبت من «العقود الدرية».

شَيخُ العُلُومِ وتابِعُ السُّلَفِ الأُلى[(١)] تَبِعُوا الرَّسُولَ بشِدَّةٍ ورخاءِ
وإمامُ أهلِ الأرضِ والـمُبدِي لهم سُنَنَ الهُدَى عَنْ صِحَّةِ الأنباءِ
ذو الصَّالحاتِ وذو الشَّجاعةِ والتُّقَى والجُودِ والبَرَكاتِ والآلاءِ
مَنْ كانَ لا يثني لطالِبِ جُودِه حتَّى يبلِّغَهُ لكلِّ رَجاءِ
يجفُو المضاجِعَ راكِعًا أو ساجِدًا أو ذاكرًا للهِ في الظَّلماءِ
كالصَّبرِ في حنَكِ العدوِّ مذاقُهُ وألذُّ مِنْ شهدٍ إلى الجُلَساءِ
المانحُ البحرُ الهمامُ العالمُ الـ حَبرُ الإمامُ وحجَّةُ الفُقَهاءِ[(٢)]
الواهِبُ المالَ الجزيلَ وغامِرُ الـ ـضَّيفِ النَّزيلِ بوافِرِ النَّعماءِ
المحسِنُ الكافي السُّؤال وحاسِمِ الـ ـداءِ العُضالِ وكاشِفِ الغَمَّاءِ
صَدرُ المدَارِسِ والمجَالِسِ أحمد الـ ـمحمُودُ في عَودٍ وفي إبداءِ
وإذا المسائلُ في الفَتاوَى أَفحَمَت أهلَ العُلومِ وحُجِّبَتْ بخَفَاءِ
وأتَتْ تَقيَّ الدِّينَ أظهَرَ ما اختَفَى منها وأبدَاهُ لعَينِ الرَّائي
فيرَى سُهَاها في الخفَاءِ بكَشْفِهِ كالشَّمسِ مُشرِقةً بصَحوِ سَمَاءِ
ويرَى البصيرُ الحقَّ فيما قالَهُ والحقُّ لا يخفَى على البُصَراءِ
سجنُوهُ خَشيةً أن يرَى متبذِّلًا صَونًا فنَالَ منازِلَ الشُّهداءِ
للمُؤمنِينَ لهُ وعندَ غدوِّهم ذلُّ الكسيرِ وعزَّةُ الخُلَفاءِ
في المحدِّثينَ أتى بفضلٍ باهِرٍ ومناقبٍ أربَتْ على القُدَماءِ

---

(١) في (ج): «الذي»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) في (ج): «الفقراء»، والمثبت من «العقود الدرية».

أيْ خاشـعٍ أيْ شـاكرٍ أيْ ذاكـرٍ ... للهِ فـي الإصبـاحِ والإمسَـاءِ

أيْ زاهـدٍ أيْ حامـدٍ أيْ بـاذلٍ ... للمسـلِمينَ نصائـحَ النُّصحـاءِ

خيـرُ الصِّفـاتِ صِفاتُـهُ وثنـاؤُهُ ... بالجُـودِ بيـنَ النَّـاسِ خيـرُ ثنـاءِ

ويظَـلُّ يسـألُ جـودُهُ عَـنْ سـائلٍ ... ذي فاقَـةٍ ليَبُـرَّه بعطـاءِ

بـادِي التَّبسُّـمِ عنـدَ بـذلِ نوالِـهِ ... لُطفًـا إلـى الفُقـراءِ والضُّعَفـاءِ

أربَـى[1] علـى فضـلِ البرامِكَـةِ الأُلى ... وطـوَتْ مكـارِمُـهُ حديثَ الطائي

مَـن جـاءَ يسـألُهُ يشـاهِدُ عنـدَهُ ... بـذلَ الملُـوكِ وعيشَـةَ الفقَـراءِ

يُربـي علـى سَـحِّ السَّـحائبِ جُـودُه ... وكـذا تكُـونُ مَواهِـبُ الكُرمـاءِ

والجـودُ يرفَـعُ أهلَـهُ بيـنَ الـوَرى ... أبـدًا ويهـوِي البُخـلُ بالبُخَـلاءِ

ولـهُ إذا اصطَـدَمَ القتـالُ شَـجاعَةٌ ... قامَـتْ بنصـرِ الدِّيـنِ فـي الهَيجـاءِ

سَـلْ عَنـه غازانًـا وسَـل أمَـراءَهُ ... لَمَّـا أتَـوا بطَلائـعِ الأُسَـراءِ

والمُغْـلُ قـد ملكُـوا البَـلادَ وأهلَهـا ... كـم فـكَّ مِـن عـانٍ بغَيـرِ عَنـاءِ

وكـذا بشـقْحَبَ والتَّتـارُ قَـدَ اقبلُـوا ... بالطَّـمِّ فـي أُمـمٍ بغيـرِ مِـراءِ

والمسـلِمونَ على النُّزولِ قَدَ اجمعُوا ... والمُغْـلُ عنهُـم نظـرةٌ للرَّائـي

مـن حـرَّضَ السُّـلطانَ والأُمَـرا عَلَى ... تـرْكِ النُّـزولِ سِـواهُ عنـدَ مسـاءِ

قـالَ اثبُتـوا فلكُـم دَليـلُ النَّصـرِ قَـد ... وافَـى فـكانَ النَّصـرُ عِنـدَ لقَـاءِ

وأتَـى جِبـالَ الكَسـروانَ فأذنَـت ... بدَمارِهـا مِـن بعـدِ طُـولِ بقَـاءِ

---

(١) في (ج): «أزرى»، والمثبت من «العقود الدرية».

ولـهُ بـكلِّ مدِينَـةٍ ذِكْـرٌ أتـى   كالمِسـكِ فهـوَ مُعطِّـرُ الأرجَـاءِ

سِـيَرٌ إذا نَظَمْتُهـا سـارَتْ بهـا الـ   ـرُّكبانُ دونَ قصَائـدِ الشُّـعَراءِ

وإذا إمـامُ المسـلِمِينَ وشـيخُهمْ   ولَّـى وعـزَّ علـى عَـزاهُ عَزائـي

أدعُـو إلـهَ العَـرشِ يجمَـعُ بينَنـا   فـي جَنـةِ الفِـردَوسِ فهـوَ رجائـي

وعَليـهِ مِـن رَبِّ السَّـماءِ تحيَّـةٌ   تـبقَى لـهُ أبـدًا بغيـرِ فنـاءِ[1]

***

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (٥٠٩ ـ ٥١٣).

منها للشيخ جمالِ الدِّينِ عبدِ الصمَدِ بنِ إبراهيمَ البغدادِيِّ الحنبَلِيِّ، المعروفِ بابنِ الخضريِّ[(١)]:

عِشْ ما تَشَاءُ فإنَّ آخِرَهُ الفَنَا ... المَوتُ ما لا بُدَّ منهُ ولا غِنَى
والدَّهرُ إن يومًا أعانَ فطَالَما ... بالسُّوءِ عَانَ فعَونُهُ عَينُ العَنَا
لا بُدَّ مِن يومٍ يَؤُمُّكَ حَتفُهُ ... حَتمًا نأى الأجَلُ المقدَّرُ أو دَنَا
للنَّفسِ سَهمٌ مِن سِهامِ نوائبٍ ... يَرمِي فيُصمِي مِن هُناكَ ومِن هُنا
مَن غرَّهُ الأمَدُ المدِيدُ[(٢)] فإنَّهُ ... غِرٌّ لأنَّ طعَامَهُ لن يُسْمِنا
شمسُ الحياةِ تَضيَّفَتْ ومَشِيبُهُ ... ضَيفٌ يجُرُّ مِنَ المنيَّةِ ضَيفَنَا
مِن حِينِ أُوجِدَ كانَ نَفسُ وجودِهِ ... في الكَونِ بالعدَمِ المحقَّقِ مُؤذِنا
يا مَنْ يَعدُّ الدَّهرَ صاحِبَ دهرِهِ ... ويُعدُّ فيهِ للإقامَةِ مَوطِنا
أوما رأيْتَ الموتَ كيفَ سطَا بمَن ... في الخَلقِ عن محضِ العُلومِ تكوَّنا
ندبٌ مباحُ الصَّبرِ حظرٌ بعدَهُ ... فلِمَ استَحالَ وكانَ شَيئًا ممكِنَا
بذَّ الأنامَ معَ البذَاذَةِ فضلُهُ ... إذ لم يكُن بسِوَى التُّقَى مُتزيِّنًا
ترَكَ الجميعَ على الجُموعِ فلم يَهبْ ... تلكَ الجموعَ ولا اسْترَابَ ولا ونَى
ولكَمْ مقامَاتٍ لهُ في الحقِّ لا ... بِيضَ الظُّبا يخشَى ولا سُمرَ القَنا

(١) الشيخ جمال الدين أبو أحمد عبد الصمد بن إبراهيم بن خليل البغدادي، ابن الحصري، وكان يعظ ويذكر من التفسير، وله تصنيف في الرقائق وله نظم، توفي سنة (٧٦٥هـ). انظر: «الوفيات» لابن رافع (٢/ ٢٩٣)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٣/ ١٦٢). ووقع في (ج): «الحصري»، واختلفت المصادر فبعضها ذكره «الحصري»، وبعضها ذكره «الخضري».

(٢) في (ج): «المؤيد»، والمثبت من «العقود الدرية».

بالعُـرفِ يأمـرُ ناهِيًـا عَـن مُنكَـرٍ مُتقرِّبًـا وهـوَ البعيـدُ عـن الخَنَـا
ما حادَ عَـن نهجِ الصَّوابِ ولا اعتدَى وبغيـرِ تحصِيـلِ الفضَائـلِ مـا اعتَنـى
إمَّـا تُبـارِزْهُ تجِـدْهُ مُبـرِّزًا فـي أيِّ علـمٍ شِـئْتَ حَبـرًا مُتقِنـا
وإذا تُجارِيـهِ فمـاءُ السَّـيلِ انبـرى إمَّـا جـرَى فـي بحثِـهِ مُتفَنِّنَـا
مُتزهِّـدًا مُتعبِّـدًا مُتهَجِّـدًا مُتخَشِّـعًا مُتورِّعًـا مُتدَيِّنًـا
فـي كلِّ عصْـرٍ سَـيِّدٌ هـوَ حُجَّـةُ الـ ـبارِي على كلِّ الخَلائـقِ فـي الدُّنـا
ونـرَى أحَـقَّ مَـنِ استَحَقَّ فحـازَ ذا مَـن للإمَامَـةِ لـم يَـزَلْ مُتعَيِّنَـا
شَـيخُ الأنَـامِ وحُجَّـةُ الإسْـلامِ مَـن أغنَـاهُ نشْـرُ الذِّكْـرِ عَـن ذِكْـرِ الكُنَـى
أعْنِـي أبـا العَبَّـاسِ أحمَـدَ بـلْ تقـ ـيَّ الدِّيـنِ حَقًّـا والعَلِيـمَ الممْعِنـا
فـي اللهِ ليـسَ يخَـافُ لَومَـةَ لائـمٍ ويـرَى التَّـوَى فيـهِ نهَايَـاتِ المُنَـى
لَمَّـا تحَقَّـقَ أنَّ كُلَّ مخلَّـفٍ يَفْنَـى وإن كانَ النَّفِيـسَ المثمَنـا
لـم يدَّخِـرْ قُوتًـا لأجْـلِ غـدٍ ولا أبقَـى لـهُ إرثًـا لسِـوَى حُسْـنِ الثَّنـا
صَـدرٌ حَـوَى فـي صَـدرِهِ لكَمالِـهِ مِـنْ كلِّ علـمٍ مَعنـوِيٍّ مَعدِنـا
ظَهـرَتْ أمَـارَاتُ الوِلايَـةِ بَعـدَهُ واسـأَلْ لتُصبِـحَ بالحِقائـقِ مُوقِنـا
واسـمَعْ مَقالَـةَ أحمَـدٍ مُتوَعِّـدًا أعْـدَاءَهُ: (يـومُ الجَنائـزِ بينَنـا)
فأحَـقُّ مـا يُبْكَـى عَلَيـهِ لفَقـدُهُ مـا مَـوتُ هـذا الحَبـرُ رِزءًا هَيِّنَـا
فَيـضُ النُّفُـوسِ يقِـلُّ فيـهِ فـلا تَلُـمْ وأعِـنَّ عُيونَـا فِضْـنَ فيـهِ أَعيُنـا
يـا مَـنْ أعـادَ أولـي التَّشَـدُّقِ عِلمُه خُـرسًا وأنطَـقَ بالثَّنـاءِ[1] الألسُـنَا

---

(١) في (ج): «بالنبأ»، والمثبت من «العقود الدرية».

يا دَوحةَ الفضلِ الَّتي في أصْلِها طِيبٌ وزاكِي فَرعِها حُلوُ الجَنَا
يا حَبرُ بلْ يا بحُر كَمْ حَيَّرتَ مِن حَبرٍ تُصيِّرُ ذا الفَصَاحَةِ ألْكَنا
يا خَاتمَ الفُضَلاءِ عِلمُكَ مُعجِزٌ بَهَرَ الوَرَى فصَدَرت عَنهُ مُؤمِّنا
إن كانَ ذا حِفظًا فوقتُكَ ضَيِّقٌ عنهُ ولو كانَ الزَّمانُ لهُ إنا
لكِنَّهُ مِن فَضلِ مَن هو قاذِفٌ بالحَقِّ مِن نُورِ الوِلايَةِ والسَّنَا
أسَّسْتَ بُنيَانًا عَلَى تَقوَى ورِضْـ ـوانٍ فلا سِيَما قد ارتفَعَ البنا
غَبَّرْتَ يا مَن لا يُشَقُّ غُبارُهُ[1] في أوجُهِ الفُضَلاءِ قُدمًا قبلَنا
جَاهَدْتَ في ذاتِ المهَيمِنِ صَابِرًا عِندَ الأذَى فأتَتْ بِشَاراتُ الهَنا
إنَّ الَّذِينَ يجاهِدُونَ عَدوَّنا فينا سنَهْديْهِم إلَينا سُبْلَنا
واللهُ قد أثنَى عَلَى العُلَماءِ في نَصِّ الكِتابِ وأنتَ أوْلَى مَن عَنَى
لا غَروَ إنْ كُنتَ ابتُلِيْتَ بحاسِدٍ فالحُرُّ مُمتَحَنٌ بأولادِ الزِّنا
أشْكُو إلَيكَ وأنْتَ أصْلُ شِكايَتي مِن فَرطِ ضُرٍّ في افتِقَادِكَ مَسَّنَا
قد عَبَّرَت عَبَراتُنا عَن حُزنِنا وبما نُجِنُّ[2] مِنَ الجَوَى نطَقَ الضَّنَا
سُقيًا لتلكَ الرُّوحِ مِن سُحُبِ الرِّضا وتَبوَّأتْ جنَّاتِ عَدنٍ مَسكَنا
لو كانَ فيها الموتُ يقبَلُ فِديةً كانَ الأنامُ فِداءً وكانَ أوَّلُهم أنا[3]

***

(١) في (ج): «عبرة»، «عباره»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) في (ج): «تحد»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٤٨٠ ـ ٤٨١).

ومنها للشَّيخِ شهابِ الدِّين أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ عبدِ الكريمِ بن أنوشروان التِّبريزيِّ الحنفيِّ[1]:

صَبـرًا جمِيـلًا فالمصَـابُ كَبيـرُ ... كادَتْ جِبـالُ الأرضِ منـهُ تمـورُ

وجَسِيمُ خَطـبٍ قـد عَـلا كلَّ الوَرى ... فُقِـدَ الضِّيـاءُ وأظلَـمَ الدَّيجـورُ

وانهـدَّ ركـنُ فضَائـلٍ وفواضِـلٍ ... فعَلَيهِمـا ركـنُ الأسَـى مَعمُـورُ

وعَلَـى تقـيِّ الدِّيـنِ أحـزانُ الـوَرَى ... لسَـحائبِ الدَّمـعِ الغزيـرِ تُثِيـرُ

لـولا ابتُغـاءُ الأجـرِ لـم يُحمَـدْ علـى ... صَبـرٍ عَلـى هـذا المُصَـابِ صَبـورُ

أفلَتْ شُـموسُ المكرُمَاتِ وأظلَمَ الـ ... ـشَّامُ المنِيـرُ وزالَ عنـهُ النُّـورُ

نـورُ الفَتـى التَّيمِـيِّ والقُطـبِ الَّـذِي ... فلـكُ العُلـومِ عَليـهِ كانَ يـدُورُ

حبـرٌ بـهِ كانَ الزَّمَـانُ ومَـن بـهِ ... يَزهُـو ويُشْـرِقُ فـي الدُّجَـى ويُنِيـرُ

عَلَـمُ التَّعَبُّـدِ والتَّزَهُّـدِ والتُّقَـى ... فـي سـائرِ الدُّنيـا لـهُ مَنشُـورُ

ورسُـوخُهُ فـي كلِّ عِلـمٍ نافِـعٍ ... فحَديثُـهُ بيـنَ الـوَرَى مَشـهُورُ

قـد كانَ صَدْرًا في الصُّـدورِ فمُذ نأى ... ضاقَـتْ عَلى صَـدرِ الصُّـدورِ صُدورُ

لا غَـروَ إن فاضَـتْ عليـهِ مَدامِـعٌ ... حـرَّى وإن قُصِمَـتْ عَليـهِ ظُهـورُ

تبكِـي السَّـماءُ عليـهِ والأرْضُ الَّتـي ... بـصَـفَـائِـهـا لـفِـراقِهِ تكْدِيـرُ

وبكَـى مُصـلَّاهُ ومِنبَـرُه ومَـو ... ضِـعُ درسِـهِ والجامِـعُ المعمُـورُ

---

(١) أحمد بن عبد الكريم بن عبد الصمد بن أنو شروان التبريزي، المعروف بابن المكوشة، العدل الأديب، اشتغل في مذهب أبي حنيفة ومهر وتقدم، وقال الشعر الحسن، وقدم دمشق فأفاد بها، ووصفه العلائي بالعلم والفضل والأدب، توفي سنة (٧٣٥هـ). انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ٢٠٨)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ١٩٣).

وبكَـى الغَمـامُ لفقـدِهِ وتفطَّـرَت ... عَـن أعيـنٍ تجـرِي عَلَيـهِ صُخـورُ

وكَـذَاكَ ربَّـاتُ الخُـدُورِ بكَيْنَـهُ ... وتهَتَّكَـتْ مِنهـا عَلَيـهِ سُـتورُ

نَشـرَتْ لـه العَذَبـاتُ بانـاتِ اللِّـوَى ... عِـوضَ الشُّـعورِ ومـا لهـنَّ شُـعورُ

وعَليـهِ نُحْـنَ عَلـى الأراكِ حمائِـمٌ ... يندُبْنَـهُ أسَـفًا وهـنَّ طُيـورُ

فالصَّـبُّ إنْ صَـبَّ المدامِـعَ بعـدَ مَن ... يَهـوَى ومـاتَ فإنَّـهُ مَعـذُورُ

والنَّـاسُ فـي حُـزْنٍ عليـهِ وإنَّـهُ ... عَبـدٌ بلُقْيـا ربِّـهِ مَسـرُورُ

غـارَ الإلـهُ عَليـهِ مِـن أغيـارِهِ ... فـزَواهُ عنهُـمْ والمحِـبُّ غَيـورُ

فخَـلا بـهِ يتلُـو عَليـهِ كَلامَـهُ ... ولـهُ الحَبيـبُ مُؤانـسٌ وسـمِيرُ

حتـى إذا اشـتَدَّ التشَـوُّقُ زفَّـهُ ... زفَّ العَـرُوسِ وذَيلُهـا مَجـرُورُ

وشِـعارُ كلِّ مُشـيِّعٍ لسَـريرِهِ ... الـتَّسبيحُ والتَّهليـلُ والتَّكبيـرُ

ولقَـد سـرَى فـوقَ الرِّقـابُ سـرِيرُهُ ... فعَجبْـتُ كيـفَ الرَّاسِـياتُ تسِـيرُ

مـا كنْـتُ أعلَـمُ قبـلَ يـومِ وفاتِـهِ ... أنَّ البِحـارَ الزَّاخِـراتِ تَغـورُ

ولقَـدْ سـرَتْ لسَـرِيرِه لـما سَرَى ... سِـيرٌ لهـا حتَّـى النُّشُـورُ نشُـورُ[1]

تفنَـى اللَّيالـي والزَّمـانُ وذِكـرُهُ ... مُتجـدِّدٌ بيـنَ الـورَى مَذكُـورُ

قـدْ كانَ فـي الدُّنيـا هِـلالًا لائحًـا ... كلٌّ إليـهِ بالبَنـانِ يُشِـيرُ

وكَـذا جَنازتُـهُ تَعالـى اللهُ لـم ... يُنظَـرْ لهـا فـي العالَمِيـنَ نَظِيـرُ

ومِـنَ العجَائـبِ أنَّهـا نطقَـتْ علـى ... صَمْـتٍ بمـا هـوَ كامِـنٌ مَسـتورُ

إنَّ المشـيِّعَ للجنَـازَةِ لـم يعُـدْ ... إلَّا وسَـائرُ ذنبِـهِ مَغفُـورُ

---

(١) هذا البيت والذي قبله ليسا في «العقود الدرية».

هـذا هـوَ الفضـلُ المُبيـنُ وهـذِهِ نِعَـمٌ عَلَيهـا ربُّنَـا مَشـكُورُ
لا أوحَشَ اللهُ الوجُـودَ مِـنَ الَّـذِي أنِسَـتْ بـهِ فـي الموحِشَـاتِ قُبـورُ
وإلـى جِنَّـانِ اللهِ راحَـتْ روحُـهُ يلقَـاهُ مِنهـا بهجَـةٌ وسُـرورُ
طُوبـى لميْـتٍ جَـاورَ القَبـرَ الَّـذِي فيـهِ فتَـى تيميَّـةٍ مَقبُـورُ
بـلْ فـازَ نُـزَّالٌ ثـوَوا بجَنابِـه إنَّ الكَرِيـمَ نزيلُـهُ مَغفُـورُ
فينَـالُ حتَّـى الحشْـرِ مـن بَركاتِهِ وعَلَـيهِ تَنـزِلُ رَحمَـةٌ وحُبـورُ[١]
يـا رَبِّ فاجمَـعْ بينَنـا فـي جـنَّةِ المأوَى فأنْـتَ لمـا تشَـاءُ قَدِيـرُ[٢]

* * *

ولهُ أيضًا رحمَه اللهُ تعالى[٣]:

عَـمَّ المصَـابُ فـلا تبكُـوا بغَيـرِ دَمٍ عَلَى ابنِ تيمِيـةَ ذي العِلـمِ والحِكَمِ
حَبـرُ البرِيَّـةِ ولَّـى وهـوَ فـي دَعَـةٍ وكلُّ جَفـنٍ فـلا يَبكِـي عَليـهِ عَمِـي

---

(١) في هامش (ج): «كاتبه أحمد:

يـا هـل تـرى والزائـر القبـر الذي فـي روضـة فيـها ضيـاء ونـور
فلعـل ذلـك أن يكـون نظيـر ما بـلغ المشـيع مثلـه مأجـور».

(٢) هذه القصيدة والتي بعدها ليستا في مطبوعة دار الكتاب العربي، تحقيق محمد حامد الفقي، وهي في طبعة دار عالم الفوائد، تحقيق علي العمران، وأشار محققها أنها في نسخة الأصل فقط. انظر: «العقود الدرية» (ص٤٨٥ ـ ٤٨٧).

(٣) في هامش (ج): «لكاتبه:

ممـا رأى فـي دروس كان يشـهده من الـغـرائب والتآليـف.....
بحـر محيـط بـه أعـلاء معـادن مـن أراد أغـلا ثـمـن فـي......».

لـو أنَّ كلَّ تَقـيٍّ فـي الأنـام فـدَى ... نفسَ الإمـامِ تقـيِّ الدِّيـنِ لـم يُلَـمِ
إذا تذكَّـرَه مَـنْ كانَ يأْلَفُـهُ ... يهُـزُّهُ الشَّـوقُ مِـن فَـرْقٍ إلـى قـدَمِ
يـا ثُلمَـةً ثُلِمَـتْ فـي الدِّينِ واتَّسَـعَتْ ... فلَسْـتِ حتَّـى اللِّقَـا والحَشـرِ تَلتئِمِـي
هَيهـاتِ هَل تَسـمَحُ الدُّنيـا بمثْلِ فتـى ... تَيمِيـةٍ أو يُـرَى فـي عَالـمِ الحُلُـمِ
كانَـتْ بـهِ تَفخَـرُ الدُّنْيـا وقَـد بَقِيَـتْ ... بـهِ تُفَاخِـرُ أجْـداثٌ وذو رِمَـمِ
فالعِلـمُ والحِلـمُ والتَّقـوَى بِهِـنَّ غَـدا ... فـي النـاسِ أشـهَرُ مِن نـارٍ عَلَـى علَمِ
والزُّهـدُ فـي زُخـرُفِ الدُّنيَـا وزِينَتِهـا ... مِـن وَصفِـهِ كانَ مَضمُومًا إلـى الكرَمِ
مَولـى عَلى حبِّـهِ الأرْواحُ قـد جُبِلَتْ ... ولَسْـتُ في القَـولِ والدَّعـوَى بمُتَّهَمِ
مـا ذاكَ إلَّا لِمَـا قَـدْ كانَ خصَّصَـهُ ... بـهِ الإلَـهُ مِـنَ الأخْـلاقِ والشِّـيَمِ
مَـن للمَسـائلِ قـد أعيَـتْ فيوضِحُهـا ... وضُـوحَ بـرقٍ لَمُـوعٍ لاحَ فـي الظُّلَـمِ
كالبَحـرِ يزخَـرُ إنْ بـثَّ العلُـومَ وكالـ ... ـسَّيلِ الَّـذِي مـدُّهُ صَـوبٌ مِـن الدِّيَمِ
مـا أن رأَى النَّـاسُ أبهَـرَ مـن جَنازَتِـه ... لمـا اسـتَلقت علـى الأعنَـاقِ والقِمَمِ
وحَولَـهُ وهـو يُجْلَى كالعَـروسِ عَلَى ... سَـرِيرِهِ أمَـمٌ ناهِيـكَ مِـن أُمَـمِ
أظْمـا الأنَـامَ إليـهِ حَجبُـهُ فبَـدَا ... عَلَـى السَّـريرِ فرَوَّاهُـم بدَمعِهِـمِ
بكَـى عليـهِ مُصـلَّاهُ ومِنبَـرُهُ ... وفـي الخِـدْرِ بكَتـهُ أعيُـنُ الحُـرُمِ
والأرْضُ تَبكِـي والسَّـماءُ كـذا ... قدْ جـاءَ عَن سَـيِّدِ الأعْـرابِ والعَجَمِ
لأنَّـهُ العالِـمُ الحَبـرُ الَّـذِي أبـدًا ... تُتلَـى مَناقِبُـهُ جهـرًا بـكُلِّ فـمِ
هـذا هـوَ المجـدُ حُـقَّ الافتِخَـارُ بـهِ ... لا بالتَّكَاثُـرِ بالأمْـوالِ والحشَـمِ

يـا جَنَّـةَ الخُلـدِ وافِيـهِ مُزَخرفَـةً وأنتِ يـا نارُ أشـواقِ الـوَرى اضْطَرِمِ

ويـا شُـموسَ العُـلا غِيبـي لغَيبَتِـه ويـا مَبانـي المعَالـي بعْـدَه انهَدِمـي

فأعظَـمَ اللهُ أجـرَ الفاقِديـنَ لـهُ الواجِديـن ذَوي الإخْـلاصِ كُلِّهـمِ

وأكـرمَ اللهُ مَثـواهُ ومَضجَعَـهُ بوابِـلٍ مِـن سـحَابِ الجُـودِ والكـرَمِ

***

للفاضِلِ برهانِ الدِّينِ ولد شهابِ الدِّينِ التبرِيزيِّ الحنفِيِّ، وهيَ طويلَةٌ أربعةٌ وثلاثونَ بيتًا، وله في الشَّيخِ مراثي أُخَر:

جدي بانسجام الدَّمع[1] يا صُحبَةَ العَاني ... إلى أنْ تُروِّي الأرضَ مِن فَيضِ أجْفَاني

وذُقْ يـا فُـؤادِي كلَّ يَـومٍ ولَيلَـةٍ ... مَـرارةَ أشْـواقٍ ولَوعَـةَ أشْـجَانِ

إلـى أنْ أرَى وجْـهَ ابـنِ تَيميَـةَ الَّـذِي ... بـهِ اللهُ مِـن أهـلِ الضَّلالـةِ نجَّانـي

ومَـن لي بـأنْ ألقَـاهُ والمَوتُ قَـد أتَى ... فغَيَّبَـهُ فـي التُّـرْبِ عَـن كلِّ إنسَـانِ

فيَـا وحشَـةَ الدُّنيـا لأنْـوارِ وجْهِـهِ ... ويـا لَهْـفَ إخْـوانٍ عَلَيـهِ وجِيـرانِ

يحِـقُّ لعَيـنٍ لا تُرجِّـي لقَـاءَهُ ... إلـى الحشْـرِ أن يَنهَـلَّ مَدمَعُها القَاني

لقَـد عَـمَّ أهـلَ الأرْضِ رُزْءُ مُصابِـهِ ... ولَـم يَنْـجُ فيهِـم منـهُ قـاصٍ ولا دانِ

لقَـد كانَـتِ الدُّنيـا بـهِ ذاتِ بهْجَـةٍ ... ونـورٍ وإشْـراقٍ ورَوحٍ ورَيحـانِ

ومـا كانَ إلَّا آيـةً فـي زَمانِـهِ ... وفـي كلِّ فضْـلٍ حـازَ مـا لَـهُ ثَـانِ

إمَـامُ هُـدىً يدْعُـو إلـى سُبْلِ رَبِّـهِ ... دُعَـاءَ نَصُـوحٍ مُشـفِقٍ غَيـرِ خَـوَّانِ

فمَذهَبُـهُ مـا جـاءَ عَـن خَيـرِ مُرسَـلٍ ... وأصحَابِـهِ والتَّابِعِيـنَ بإحسَـانِ

أتـى بعُلـومٍ حيَّـرَتْ كُلَّ واصِـفٍ ... عَلـى أنَّـهُ يَهـدِي بهـا كلَّ حَيـرانِ

فكَـم مُبطِـلٍ وافَـاهُ يبْغِـي جِدالَـهُ ... فأنْصَتَـهُ فـي البَحثِ مِن غَيـرِ عُدوانِ

ويكْشِـفُ عنـهُ شُـبهَةً بعـدَ شُـبهَةٍ ... إلـى أن يَبيـنَ الحـقُّ أحسَـنَ تِبيـانِ

فيُصبِـحُ عَـن تلـكَ المقالَـةِ مُعرِضًـا ... ولـو كانَ مِـن أحبَـارِ سُـوءٍ ورُهبَـانِ

يغـارُ علـى الإسـلامِ مِـن كُلِّ بدعَـةٍ ... ومـا زالَ مِنهـا هَادِمًـا كلَّ بُنيَـانِ

وفـي اللهِ لـم تأخُـذهُ لَومَـةُ لائـمٍ ... ولَمْ يخْشَ مخْلُوقًا منَ الإنسِ والجَانِ

---

(١) في (ج): «جرى في انسجام الأرض»، والمثبت من «العقود الدرية».

ولـمْ ينتَقِـمْ فـي الدهْـرِ يَومًـا لنفْسِـهِ ... ولكنَّـهُ يُـؤذَى فيَعفُـو عـن الجَانـي

وأمَّـا سَـخَاءُ الكـفِّ فالبحـرُ[1] دونَهُ ... ولـم يَـكُ فـي بـذْلِ العطَـاءِ بمنَّـانِ

ولـو وَزَنُـوا أهـلَ الشَّـجَاعَةِ كُلَّهـم ... بـهِ رجَـحَ الشُّـجعانَ في كلِّ مِيـزانِ

فمَـن جاهَـدَ الأعـداءَ في الدِّيـنِ مِثلَـهُ ... ومَن سلَّ سَـيفَ العَزمِ في وَجهِ غَازانِ

ومَـن قالَ للنـاسِ اثبُتوا يومَ شَـقْحَبٍ ... فـإنَّ الأعـادِي في انهـزام وخُـذلانِ

فمَـن خَـشِيَ الرَّحـمَـنَ بالغَيـبِ واتَّقـى ... إلَـهَ البرَايـا خافَـهُ كلُّ سُـلطانِ

ومـا ضرَّهُ إنْ طـالَ في السِّـجنِ مُكثُـهُ ... إذا كانَ في نُسُـكٍ وطاعَـةِ رحمَـنِ

مُنِيبًـا إلى مَـولاهُ يقطَـعُ وقتَـهُ ... بنقْـلِ أحَادِيـثٍ وتفسِـيرِ قُـرآنِ

ولم يَـكُ مَشـغُوفًا بحُـبِّ رِياسَـةٍ ... ولا شَـدَّ بغْـلاتٍ ولا حُسْـنِ غِلمَانِ

ولا كانَ مَشـغُولًا بجَـاهٍ ومَنصِـبٍ ... ولا رَفـعِ بُنيـانٍ ولا غَـرْسِ بُسـتَانِ

ولكِـنْ بعلْـمٍ نافِـعٍ وعِبـادَةٍ ... وزُهـدٍ وإخـلاصٍ وصَـبرٍ وإيـمانِ

وفي مَوتِـهِ قـد كانَ للنَّـاسِ عِـبرةً ... لِمَـا شـاهَدُوا مِـن غَـيرِ زُورٍ وبهتَـانِ

إذ انتـشَروا مِثـلَ الجَـرادِ وكادَ أنْ ... تَزِيـغَ عُقـولٌ مـن رِجـالٍ ونسـوانِ

وسَـارَ عـلى أعناقِهـم نحـوَ قـبرِهِ ... يجـاوِرُ مَـولىً ذا امتِنَـانٍ وغُفـرانِ

إلى الذَّهـبِ الباقِـي دَعـاهُ إلهُـهُ ... وذاكَ خـيرٌ لـهُ مِـنَ الخـزَفِ الفَـاني

دعَـاهُ إلى جنَّـاتِ عَـدنٍ وطيْبِهـا ... ومَتَّعـهُ فيهـا بحُـورٍ وولـدَانِ

فنسـألُ ربَّ العَـرشِ يجمَـعُ شـمْلَنا ... بـهِ في جِنـانِ الخُلـدِ مِـن قَبـلِ حِرمانِ

ويجْبرَنـا بعـدَ انكِسَـارِ قُلوبِنـا ... ويَـرْوِي برُؤيـا وجْهِـهِ كلَّ ظَمـآنِ

***

(١) في (ج): «سخاء البحر فالكف»، والمثبت من «العقود الدرية».

ومنها لبعضِ الفُضلاءِ مِنْ جندِ مصرَ، أرسلها بعدَ عرضِها على الإمامِ أبي حيانَ النَّحويِّ(١):

خَطبٌ دَهَى فبكَى لهُ الإسلامُ ... وبكَتْ لعِظَمِ بكائهِ الأيَّامُ

وبكَت لعَبرتها السماءُ فأمطَرَتْ ... في غيرِ فصَلٍ تسمَحُ الأعوامُ

وبكَتْ لهُ الأرضُ الجلِيدَةُ بعدَما ... أضْحَى عَليها وحشَةٌ وقَتامُ

وتَزلزَلَتْ كلُّ القلُوبِ لفَقدِهِ ... وتواتَرَتْ مِن بعدِهِ الآلامُ

ولمؤمِنينَ الْجِنِّ حُزنٌ شَامِلٌ ... ونياحَةٌ نطَقَتْ بهَا الأحلامُ

وتَفجَّعَ الدِّينُ القويمُ لفَقدِهِ ... وبقَى غَريبًا يُبتَلَى ويُضَامُ

مُذ مَاتَ ناصِرُهُ الَّذي أوصافُهُ ... أبدًا تكُونُ عَلى سِواهُ حَرامُ

لتقيِّ دينِ اللهِ وصفٌ باهرٌ ... وخَصائصٌ خضَعَتْ لهُا الأفهَامُ

ومَواهبٌ مِن ذِي الجَلالِ تُمِدُّهُ ... ليَتِمَّ فخرٌ شامِخٌ ومَقَامُ

وعزاءُ(٢) تقيِّ الدِّينِ أحمَدَ ما لَهُ ... حَدٌّ فتَحمِلُ فقدَهُ الأجسَامُ

العَالمُ الحَبرُ الإمَامُ ومَنْ غَدَا ... في راحتَيهِ مِن العُلومِ زِمَامُ

ذو المنصِبِ الأعْلَى الَّذي خضعَتْ(٣) لهُ ... في الأرْضِ في أقطَارِها الأعْلامُ

---

(١) ناظم هذه القصيدة يقال له: بدر الدين ابن عز الدين المغيثي رحمه الله تعالى، وأراه محمد بن عبد العزيز بن كمال الدين عبد الرحيم المارديني الصفار، وكان والده عز الدين من خواص أصحاب الشيخ تقي الدين، وكتب ابنه بدر الدين المذكور مصنف الشيخ في الرد على الرافضي في ست مجلدات. انظر: «الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٦٦).

(٢) في «العقود الدرية»: «وغدا».

(٣) في «العقود الدرية»: «نصبت».

بحـرُ العُلـومِ وكَنـزُ كلِّ فضِيلَـةٍ ... فـي الدَّهـرِ فـردٌ فـي الزَّمَـانِ إمَـامُ
حَبـرٌ تخيَّـرَهُ الإلـهُ لدِينِـهِ ... ختـمٌ لأعـلامِ الهُـدَى وخِتَـامُ
فوفَـى بأحـكَامِ الكِتـابِ وكَـم لـهُ ... فـي نصـرِ تَوحِيـدِ الإلَـهِ قِيـامُ
والسُّـنَّةُ البَيضَـاءُ أحيَـا مَيْتَهـا ... فغَـدَا عَلَيهـا حُرمَـةٌ وذِمَـامُ
وأمـاتَ مـن بـدَعِ الضَّـلالِ عوائـدًا ... لا يَسـتطيعُ لدَفعِهـا الصَّمْصَـامُ
ابـنُ الفضَائِـلِ والمعَـارِفِ والَّـذِي ... لا تهْتَـدِي لفُنونِـهِ الأوهَـامُ
وأنالَـهُ ربُّ السَّـمَاواتِ العُلَـى ... فـي العِلـمِ سَبقًا مـا إلَيـهِ مَـرامُ
ونُفُـوذُهُ[1] فـي العِلـمِ قَـولُ محمَّدٍ ... صـلَّى عـليـهِ الخالِـقُ العَـلامُ
إن المنَـزَّهَ رَبُّنـا سُـبحَانَهُ ... يَقضِـي بمـا تَأتـي بـهِ الأحْـكَامُ
يُبـدِي لكُـمْ فـي كلِّ قَـرنٍ قـادِمٍ ... للدِّيـنِ مَـن يهـدِي بـهِ الأقْـوامُ
فلئـنْ تأخَّـرَ فـي القُـرونِ لثامِـنٍ ... فلقَـدْ تَقـدَّمَ فـي العُلـومِ إمَـامُ
فـاقَ القُـرونَ سِـوى الثَّـلاثِ فإنَّهـا ... خَيـرُ القُـرونِ يَزينُهـنَّ تمـامُ
وسِـوى ابـنَ حَنبَـل إنَّـهُ علَـمُ الهُدَى ... حَبـرٌ إمَـامٌ صابِـرٌ قـوَّامُ
لكِـنَّ أحمـدَ مِثـلُ أحمـدَ قـد حَـوَى ... عِلمًـا وزُهـدًا فـي العُلـومِ تُـؤامُ
حَـدِّثْ بـلا حَـرَجٍ وقُـلْ عَـن زُهـدِهِ ... مـا شِـئْتَ لا ردٌّ ولا آثَـامُ
هَجـرَ المطاعِـمَ والملابِـسَ والدُّنَـا ... ولعَزمِـهِ فـي تَركِهـا أحـزَامُ
تـركَ[2] المـآكِلَ والمنَـامِ ولا يُرَى ... لبَنـي الدُّنـا فـي قَلبِـهِ إعظَـامُ

(١) في (ج): «ونعوته»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) في «العقود الدرية»: «نزر».

وتَـراهُ يَصمِـتُ لا لعَـيٍّ دائمًـا ... إلَّا لـعِـلـمٍ يُقتَـنَـى ويُـرامُ
وإذا تكَلَّـمَ لا يُراجَـعُ هَيبـةً ... وسَكِينـةً وكـلامُـهُ إبْـرامُ
أُلْقِـي علَيـهِ مَهابَـةٌ مـن ربِّـهِ ... فخِطَابُـهُ الإجـلالُ والإكـرامُ
وإذا دَنـا فتَـرَى الرِّجـالَ ذَليلـةً ... فكأنَّهـا فـي نَفسِـها إحجَـامُ(١)
بشَـرٌ يُعظَّـمُ بالقُلـوبِ وقَـدرُهُ ... أبـدًا يُعظَّـمُ بعـدُ وهـوَ غُـلامُ
مِننٌ يخُصُّ بها المهَيمِنُ مَن يَشَا ... مِـن خَلـقِـهِ والجَاهِلُـونَ نِيامُ
وجَفَـا العِبـادَ لشُـغلِهِ بحبيبِـهِ ... فـودَادُه للأقـرَبيـنَ سَـلامُ
ولَـهُ مقـامٌ فـي الوصُـولِ لرَبِّـهِ ... ومَكانَـةٌ نطقَـتْ بهـا الأغتَـامُ(٢)
ولَـهُ فُتـوحٌ مِـن غُيـوبِ إلهِـهِ ... وتـحـزُّنٌ وتمَـكُّنٌ وكَـلامُ
وتصَـوُّفٌ وتَقشُّـفٌ وتَعفُّـفٌ ... وقِـراءَةٌ وعِبـادَةٌ وصِيـامُ
وعِنايَـةٌ وحِمايَـةٌ ووِقايَـةٌ ... وصِيـانَـةٌ وأمَـانَـةٌ ومقـامُ
ولَـهُ كرامَـاتٌ سـمَتْ وتعَـدَّدَتْ ... ولهـا علَـى مـرِّ الدُّهـورِ دَوامُ
مَـن ردَّ عـن أرْضِ الشَّـآمِ بعَزمِـهِ ... مَـن صَـدَّ وجْـهَ الكُفرِ وهـوَ حُسَامُ
مَـن ردَّ غَـازانَ الهُمَـامَ بحَسـرَةٍ ... مَـن خلَّـصَ الأَسْـرَى وهُـم أيتَـامُ
مَـن قـامَ بالفَتـحِ المُبيـنِ مُؤيَّـدًا ... فـي كَسـرَوانَ وهُـمْ طُغـاةٌ عظـامُ
مَـن جدَّ فـي حَرْبِ(٣) الضَّلالَةِ وحزبه ... فـإذا لـهـم بَـعـدَ الـرَّضَـاعِ فِطَامُ

(١) في (ج): «أحلام»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) أغتام: جمع أغتم، وهو العيي الذي لا يفصح. انظر: «المغرب» للمطرزي (مادة: غتم).

(٣) في «العقود الدرية»: «بدع».

مَن سارَ في سُنَنِ الرَّسُولِ ونَصرِها … حتى استقَرَّ لأمرِهِنَّ نِظَامُ

مَن قامَ في خَذلِ الصَّلِيبِ ودِينِهِ … لَمَّا تَداعَوا للأنَامِ وقَامُوا

فوَهَوا ورُدُّوا خائِبِينَ بذِلَّةٍ … وعَلَيهِمُ فَوقَ الوجُوهِ ظَلامُ

فالأمرُ بالمعرُوفِ يُفقَدُ بَعدَهُ … والفَاعِلُونَ النُّكْرَ لَيسَ يُلامُوا

فكأنَّ أشرَاطَ القِيامَةِ قد دَنَتْ … وانحَلَّ مِن سُرُجِ الزَّمَانِ حِزامُ

فالعِلمُ فينا لَيسَ يُقبَضُ دُفعَةً … كلا ولا يأتِي حِماهُ حمامُ

لكِن بقَبضِ الرَّاسِخِينَ ذهابُهُ … وزوالُهُ وبقَى رَعَاعُ طِغَامُ

للهِ ما لاقَى تقِيُّ الدِّينِ مِن … مِحَنٍ تُتابِعُهُ وهُنَّ ضِخَامُ

ومَكارِهٍ حُفَّتْ بكُلِّ شَدِيدَةٍ … ومَواقِفٍ زلَّتْ بها الأقدَامُ

ومَكايِدٍ نُصِبَتْ لهُ وحَبَائلٍ … قصْدًا إلَيهِ فزادها إقدَامُ

فحَكَى ابنَ حَنبلَ في فُنونِ بَلائهِ … بجنانِ ثَبْتٍ لَيسَ فيهِ مذَامُ

وبسِجنِهِ وبحَصْرِهِ ونكَالِهِ … حتَّى رَثَى العُذَّالُ واللُّوَّامُ

فأرادَ رَبُّ العَرشِ جَلَّ جَلالُهُ … للقائِهِ مُذْ حَانَهُ الإعدامُ

وأتاهُ آتِي الموْتِ يخطُبُ نفسَهُ … فأجَابَهُ طَوعًا لهُ القَمقَامُ

فخَلَتْ منابِرُهُ وأوحَشَ رَبعُهُ … وتهَدَّمَتْ عِندَ الرَّحِيلِ خِيَامُ

وتَفجَّعَتْ كلُّ القُلوبِ لفَقدِهِ … وغَدا عَلَيها حَسرَةٌ وسُقَامُ

ومَضَتْ جَنازَتُهُ الشَّرِيفَةُ بعدَما … سَدَّ المسالِكَ صارِخٌ وزحَامُ

وأَتَتْ رِوايـاتُ الشَّـآمِ بجَمعِهـا خَبـرًا صَحِيحًـا لِيـسَ فيـهِ كلامُ

إنَّ الَّذِيـنَ شَـهِدوا الصَّـلاةَ وشـيَّعُوا واللهِ لا تحْصِيهُـمُ الأقـلامُ

فعَليـهِ أفضَـلُ رحمَـةٍ تُهـدَى لـهُ ومِـنَ الإلـهِ تحيَّـةٌ وسـلامُ

مـا دامَـتِ الأفـلاكُ فـي دوَرانـهـا أو نـاحَ مِـن فَـوقِ الغُصُـونِ حَمـامُ(١)

***

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٤٩٨ ـ ٥٠٢).

ومنها للشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ محمودِ بنِ عليٍّ الدَّقوقيِّ البغداديِّ المحدِّثِ ولم يرَ الشَّيخَ[(١)]:

مضَى عالِمُ الدُّنيا الَّذي عزَّ فقدُهُ ... وأضرَمَ نارًا في الجَوانِحِ بعدَهُ
فدَمْعِي طَلِيقٌ فَوقَ خَدِّي مُسَلْسَلٌ ... أكَفْكِفُهُ حِينًا وجَفنِي يرُدُّهُ
ونَرجُو التَّلاقِي والفِراقُ يَصدُّهُ ... وما حِيلَةُ الرَّاجِي إذا خابَ قَصْدُهُ
مَضَى الطَّاهِرُ الأثوابِ ذو العِلمِ والحِـ ... ـجَى ولم يَتدَنَّس قطُّ بالإثمِ بُردُهُ
مَضَى الزَّاهِدُ النَّدبُ ابنُ تَيميةَ الَّذي ... أقرَّ لهُ بالعِلمِ والفَضلِ ضِدُّهُ
بكَتهُ بلادُ الشَّامِ طُرًّا وأهلُها ... وجامِعُها وانماعَ للحُزنِ صَلدُهُ
يحِنُّ إليهِ في النَّهارِ صِيامُهُ ... ويشتَاقُهُ في ظُلمَةِ اللَّيلِ وِردُهُ
ويَبكِي لهُ نوعُ الكَلامِ وجِنسُهُ ... ويَندُبُه فصْلُ الخِطابِ وجِدُّهُ
حمَى نفسَهُ الدُّنيا وعَفَّ تكرُّمًا ... ولَمَّا يُصَعِّرْ للدَّنيَّاتِ خَدَّهُ
ولم يجتَمِع زَوجَانِ مِن شَهَواتِها ... لَدَيهِ وبينَ النَّاسِ قد صَحَّ زُهْدُهُ
ويُؤثِرُ عن فَقرٍ وفيهِ قَناعَةٌ ... ويُعجِبُهُ مِنْ كلِّ شيءٍ أَشدُّهُ
علِيمٌ بمنسُوخِ الحدِيثِ وحُكمِهِ ... وناسِخِه فخرُ الزَّمانِ ومجْدُهُ
قَؤولٌ فعُولٌ طَيِّبُ الخيمِ[(٢)] طَاهرٌ ... إمَامٌ لهُ في كلِّ حُكمٍ أشدُّهُ

---

(١) محمود بن علي بن محمود بن مقبل العراقي، تقي الدين الدقوقي الحنبلي، الإمام المتقن محدّث بغداد، شيخ المستنصرية، كان يحضر مجلسه خلق كثير لفصاحته وحسن آدابه، وله نظم، توفي سنة (٧٣٣هـ) ولم يخلف درهمًا. انظر: «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٩١)، و«أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٤٠٦).

(٢) في (ج): «الخيم».

فما قالَ في دُنياهُ هَجرًا ولا هَوىً ... ولا زَاغَ عن حَقٍّ تبيَّنَ رُشدُهُ
عُلومٌ كنشْرِ المسْكِ مِن كلِّ سِيرَةٍ ... يشيدُ[1] دينَ المُصطفَى ويجدُّهُ
فللهِ ما ضَمَّ التُّرابُ وما حَوَى ... مِنَ الفضلِ فليَفْخَر على الأرْضِ لحدُهُ
فيا نَعشَهُ ماذا حَملْتَ مِن امرِئٍ ... جَميعُ الورَى فيهِ وفوقَكَ فردُهُ
وكانَ لنا بحرًا مِنَ العِلمِ زاخِرًا ... فما بالُهُ لم يَصْفُ مُذْ غابَ وِردُهُ
وما ماتَ مَن تَبقَى التَّصانِيفُ بعدَهُ ... مخلَّدةً والعِلمُ والفَضلُ وِلدُهُ
وخَلَّفَ آثارًا حِسَانًا حَميدَةً ... إذا عُدِّدَتْ زادَتْ عَلَى ما تَعُدُّه
ولسْتُ مُطيقًا شَرحَ ذاكَ مُفصَّلًا ... ولكِن عَلَى الإجمالِ يعكسُ طَردَهُ
لقَد فارَقَ الأصحَابُ مِنهُ مُصاحِبًا ... يُراعِي ودادَ الخِلِّ إن خانَ وِدُّهُ
قضَى نحبَهُ واللهُ راضٍ بفِعلِهِ ... وللهِ فيما قد قَضَى فيهِ حمدُهُ
يدُلُّ ترابُ القَبرِ مَنْ جاءَ زائرًا ... إليهِ بطيبٍ فيهِ يَعبَقُ نِدُّهُ
ولا تحسَبُوا ما فاحَ عِطرُ حُنوطِهِ ... ولكنَّهُ حُسنُ الثَّناءِ ومجْدُهُ
وكانَ لأهلِ العلمِ تاجًا مُكلَّلًا ... يحوطُهم مِن مُبطِلٍ خِيفَ حِقدُهُ
وما كانَ إلا التِّبرَ عندَ امتِحانِهِ ... يَبِينُ لعينِ الحاذِقِ النَّقدُ نقدُهُ
وكانَ يقولُ الحقَّ والحقُّ حُلوُهُ ... مَريرٌ لهذا كانَ يكرَهُ ردَّهُ
وفي الحقِّ لم تأخُذهُ لَومَةُ لائمٍ ... ولا خافَ مِن غِمرٍ تشَدَّدَ حردُهُ

---

(١) في (ج): «يشد».

وما كانَ إلَّا السيفَ غارَتْ يدُ العُلا عَليهِ فردَّتهُ كما غارَ غِمدُهُ

ولم تُلهِهِ الدُّنيا وزُخرُفُها الَّذي يرُوقُ لمن لم يؤنِسِ الدَّهرَ رُشدُهُ

لقد فقَدَتْ منهُ المحافِلُ زينَها ولَمَّا يُفارِقْ عِلمَهُ الجَمَّ وجدُهُ

وخُضِّبتِ الأقلامُ بعدَ مِدادَها عَليهِ دمًا قد فاضَ في الطِّرسِ مَدُّهُ

فللَّهُ ما ضمَّ الثَّرَى مِن مُحقِّقٍ ويا لكَ مِن عَضْبٍ تثلَّم حَدُّهُ

وكانَ إمامًا يُستَضاءُ بنُورِهِ وبحْرًا مِنَ الأفضَالِ قدْ غِيضَ عِدُّهُ

وكنتُ أُرَجِّي أن أراهُ ونَلتَقِي ولكِنْ قضَاءُ اللهِ مَن ذا يرُدُّهُ

ترَى الموتَ مألُوفَ الطِّباعِ ورُبَّما يُعلِّلُ بالمألُوفِ مَن لا يَودُّهُ

فآهٍ على تفريقِ شملٍ مُجمَّعٍ وحَرٍّ فؤادٍ لا يُؤمَّلُ بردُهُ

ألا إنَّها نَفسٌ وللنَّفسِ حَسرَةٌ وقلبٌ وقدْ يَشْجَى ويُضنِيهِ وجْدُهُ

ولَسْتُ بناسٍ عَهدَ خِلٍّ تَغيَّبَت محاسِنُهُ والخِلُّ يحْفَظُ عَهدَهُ

وما عُذرُ جَفنٍ لا يجِيشُ بدَمعِهِ غَداةَ نأى عنهُ الصَّدِيقُ ورِفدُهُ

يرومُ الأمَانِي والمنَايا تَصدُّهُ وما حِيلَةُ الرَّاجِي إذا خابَ قَصْدُهُ

عَلَيكَ أبا العبَّاسِ فاضَتْ مَدَامِعي وقَلبي ببُعدِي عَنكَ أُجِّجَ وَقدُهُ

عَلَى مثلِكَ الآنَ المرَاثي مُباحَةٌ وإنْ غاضَ دَمعِي فالدِّماءُ تمُدُّهُ

شدَدْتَ عُرَى الإسْلامِ شَدَّةَ عارِفٍ قوِيٍّ على الأعدَاءِ لم يألُ جهدَهُ

ترَكْتَ لهم دُنياهُمُ تركَ عالمٍ علا قَدرُهُ عِندَ الإلَهِ ومجْدُهُ

وكُنْتَ لمجمُوعِ الطَّوائفِ مُقتَدًى ... وعَقـدًا لهـذا الدِّيـنِ أُبـرِمَ عَقـدُهُ

وكُنْـتَ رَبيعًـا للمُريـدِ وعِصمَـةً ... فمُذْ صِرْتَ تحْتَ الأرْضِ صُوِّحَ وُردُهُ

جَمعْـتَ عُلـومَ الأوَّلِيـنَ مـعَ التُّقَـى ... إلى الورَعِ الشَّـافي الَّذِي شـاعَ حمدُه

وكنـتَ تَقـيَّ الدِّيـنِ مَعنـىً وصُـورةً ... وقـولًا وخَيـرُ القَـولِ عِنـدَكَ جِـدُّهُ

رحَلْـتَ وخلَّفـتَ القُلـوبَ جَرِيـحةً ... تَذُوبُ وجَيـشُ الصَّبرِ قد فُـلَّ[1] جُندُهُ

عَليـكَ سَـلامُ اللهِ حَـيًّـا ومَـيِّـتًـا ... مَدَى مـا بَـدَى نجمٌ وأشـرَقَ سَـعدُهُ[2]

***

---

(١) في (ج): «قل».

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٤٢٥ ـ ٤٢٨).

ولهُ أيضًا رحمَه اللهُ تعالى قالَ:

قِــف بالرُّبــوعِ الهامِــدَاتِ[1] وعَــدِّدِ | واذْرِ[2] الدُّمــوعَ الجامِــدَاتِ وبــدِّدِ
واحْبِس مَطِيَّـكَ فـي المنَازِلِ سَـاعةً | واسـأَلْ وُلا تَـكُ في سُـؤالِكَ مُعتَدِي
واقطَـعْ عَلائقَـكَ الَّتـي هـيَ فِتنَـةٌ | واتبَـعْ سَـبِيلَ أولـي الهِدَايـةِ تَهْتَـدِي
ودِّعْ صِبَـاكَ ودَعْ أباطِيـلَ المُنَـى | واهْجُـرْ دَنيَّـاتِ الأمُـورِ وسَـدِّدِ
واقنَـعْ مِـنَ الدُّنيـا القَليـلَ ولازِمِ الـ | ـفعلَ الجمِيـلَ وسِـرْ بسَـيرٍ مجـرَّدِ
وتـوَخَّ فعـلَ الخَيـرِ واصْحَـبْ أهْلَـهُ | مُتحَبِّبًـا مُتجَنِّبًـا فِعْـلَ الـرَّدِي
لا تَعتِبَــنْ مُفارِقًــا يَبكِــي علــى | أحبَابِــهِ وارحَمْــهُ إنْ لــم تُسْــعِدِ
ودَعِ المــرَوَّعَ بالبِعــادِ وعَذلِــهِ | فالعَـذلُ أمضَـى مِـنْ فِعـالِ مُهنَّـدِ
مـاذا الوُقـوفُ عَـنِ السُّـرَى وصِحَابُنا | سـارُوا وصَـارُوا بالعَـراءِ الفَدْفَـدِ[3]
لا اخضـرَّ بعدَهُـمُ العقِيقُ ولا شـدَتْ | وُرْقُ الحمَائِـمِ فُـوقَ بُرقَـةَ ثَهْمَـدِ
أمَّــا أنــا فلأبْكِيَــنْ فــإنْ وَنَــى | دَمعِي سفكْتُ حُشَاشَةَ القَلْبِ الصَّدِي
أيـنَ المُعينُ عَلَـى الخُطُوبِ إذا عَرَتْ | أيـنَ المُسَـاعِدُ عِنـدَ فَقْـدِ الـمُسْعِدِ
أومـا درَى مَنْ كُنْتَ تَعـرِفُ قَدْ مَضَى | لسَـبِيلِهِ فـي ضَنـكِ لحْـدٍ مُوصَـدِ
أيـنَ المحامِـي عَـنْ شَـريعَةِ أحمَـدٍ | أيـنَ المحَقِّـقُ نهْـجَ مَذهَـبِ أحمَـدِ
مـاتَ الإمَـامُ العالِـمُ الحَبْـرُ الَّـذِي | بهُــدَاهُ عَالــمُ كلِّ قَــومٍ يَهتَـدِي

(١) في (ج): «الهامعات»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٢) في (ج): «وذر»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٣) في (ج): «الغدفدي»، والمثبت من «العقود الدرية»، والفدفد: الأرض المستوية. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: فدد).

مَـنْ لليهُـودِ وللنَّصـارَى بعـدَهُ ... يَرمِيهُـمُ بمقالَـةِ المتَسَـدِّدِ
سَـلْ عنـهُ ديَّـانَ اليَهـودِ أَمَـا غـدا ... مُتلَفِّعًـا بصغَـارِهِ المتهَـوِّدِ
نَشَـأَتْ عَلـى فعـلِ التُّقَـى أطـوارُهُ ... فعَنَـتْ لـهُ التَّقـوَى وأعْطَـتْ عَـن يَدِ
وَرِثَ الزَّهـادَةَ كابِـرًا عَـنْ كَابِـرٍ ... والعِلْـمَ إرثًـا سَـيِّدًا عَـنْ سَـيِّدِ
قِـفْ إنْ مَـرَرْتَ بقاسَـيونَ عَلـى ثرًى ... فيـهِ ضَريـحُ العالـمِ المتفَـرِّدِ
واعْجَـبْ لقَبـرٍ ضَـمَّ بَحـرًا زاخِـرًا ... بِالفَضْـلِ يقـذِفُ بالعُـلا والسُّـؤددِ
بَشَـرٌ يبشِّـرُ بِالغِنـى مَـنْ جـاءَهُ ... يُسْـرٌ يَسُـرُّ فُـؤادَ عَـانٍ مُزهِـدِ
كانَـتْ بـهِ أرضُ الشَّـآمِ أمِينـةً ... مِـنْ مُبطِـلٍ مُتهـوِّكٍ متلـدِّدِ
لـو تَسـتطِيعُ بنـاتُ نَعـشٍ[1] أنْ ترَى ... يـومًـا تسِـيرُ بنَعـشٍ مَيـتٍ مُلَحَّـدِ
[كانَـتْ تَسِـيرُ بـنَعـشِهِ وتـحُـطُّـهُ ... فوقَ السِّـمَاكِ وفَـوقَ فَـرقِ الفَرقَـدِ][2]
مـاتَ الَّـذي جَمَـعَ العُلومَ إلـى التُّقَى ... والفضْـلِ والـورَعِ الصَّحيـحِ الجيِّـدِ
شَـيخُ الأنـامِ تقـيُّ ديـنِ محمَّـدٍ ... وجمالُ مذهَـبِ ذِي الفضَائـلِ أحمَدِ
ودَّعْـتُ قلبـي يـومَ جـاءَ بنَعيـهِ ... فتَقاعَـدِي يـا عَيـنُ بـي أو أنجِـدِي
سـقَتِ العِهَـادُ عِـرَاصَ قبـرٍ حلَّـهُ ... جَسـدٌ حَـوَى خُلُقًـا وحُسـنَ تـودُّدِ
مَـنْ مُبلِـغُ العُـذَّالَ فَـرطَ صَبابَتـي ... وتَعلُّقِـي يـومَ النَّـوَى وتَسَـهُّدِي
مـا بَعـدَ رِزئـكَ فـي الزَّمَـانِ رَزيَّـةٌ ... تُصْمِـي المقَاتِـلَ بالفِـراقِ ولا تَـدِي
بَـدَّدْتَ شـمْلَ الملحِدِيـنَ جميعِهـم ... وجمَعْـتَ شَـملَ ذوي التُّقَـى المتبدِّدِ

---

(١) بنات نعش: نجوم معروفة. انظر: «تاج العروس» (مادة: دبب).

(٢) ما بين معكوفتين من «العقود الدرية»، وأثبتناه لارتباطه بما قبله.

يَـا مَـنْ تُـرَى أقوالُـهُ مُبيَضَّـةً ... فـي كلِّ ذي قـولٍ ووجـهٍ أسـوَدِ

يَـا كالـئَ الإسـلامِ مِـنْ أعدائِـهِ ... وسِـمَامَ كلِّ أخـي نِفـاقٍ مُلحِـدِ

يَـا واحِـدَ الدُّنيـا الَّـذي بعلومِـهِ ... يمتـازُ فـي الإسـلامِ كلُّ موحِّـدِ

يَـا حَامِـلَ الأعبَـاءِ عَـن مُسـتَبصِرٍ ... يَـا كاشِـفَ الغَمَّـاءِ عَـن مُسـتنجِدِ

يَـا طـارِدَ الشُّـبُهَاتِ عَـنْ مُتَـرَدِّدٍ ... يَـا دَافِـعَ الفاقَـاتِ عَـنْ مُسـترفِدِ

قـرَّتْ عُيُـونُ مُجاوِريـكَ وَقـد غَنُـوا ... بجـوارِ قَبـرِكَ عَـن وثِيـرِ المرقَـدِ

فكأنَّمَـا تِلْـكَ اللُّحـودُ حَدائـقٌ ... تزهُـو بنَرجِـسِ زَهرِها الغَضِّ النَّدِي

يـا خَاتـمَ العُلمَـاءِ صَـحَّ بمَوتِـكَ الـ ... ـخَبرُ الَّـذِي يَرويـهِ كلُّ مجَـوِّدِ

اليَـوْمَ قُبِـضَ العِلـمُ قـولًا وَاحِـدًا ... مِـن غَيـرِ مَـا مَنـعٍ وغَيـرِ تَـردُّدِ

لـو لـم يكـن خَتْـمَ الْأَئِمَّـةِ أَحْمـدٌ ... بَشَّـرْتُ أهـلَ الْخَافِقَيْـنِ بِأَحْمَـدِ

خَـوضُ الكَرائِـهِ لـم يـزَلْ مِـنْ دأبِـهِ ... فبـهِ الفَـوارِسُ فِـي المضَايـقِ تهْتَدِي

شَـيخٌ إِذا أبصَرْتَـهُ فـي مَحفَـلٍ ... تُقـذَى برُؤيَتِـهِ عُيُـونُ الحُسَّـدِ

ذُو الـمَنْقُبَاتِ الغُـرِّ والشِّـيَمِ الَّتِـي ... يفْنَـى الزَّمَـانُ وذِكـرُهُ لـم ينفَـدِ

يَـا مَـنْ يَـرومُ لـهُ عَدِيـلًا فِـي الـوَرَى ... قَـدْ رُمْـتِ كالعَنقـاءِ مَـا لـم يُوجَـدِ

كـم بَيـنَ رِئبـالِ[1] الفَـلاةِ وثَعـلَبٍ ... كم بَيـنَ شَـغواءِ البُـزاةِ وجُدْجُـدِ[2]

---

(١) الرئبال: الأسد، والجمع: الرآبيل. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: ربل).

(٢) في (ج): «شعواء» و«وحدحد»، والمثبت من «العقود الدرية». والشغواء: العقاب. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: شغي).

والجدجد بالضم: صرار الليل، وهو قفَّازٌ، وفيه شبه من الجراد. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: جدد).

أرِحِ المطَيَّ ولا تكُنْ كمُحَاوِلٍ ... صَيدَ النُّجُومِ مِنَ المِيَاهِ الرُّكَّدِ

قَدْ كَانَ شمسًا للصِّحَابِ مُنيرةً ... بضِيائِهَا في كلِّ قُطْرٍ نَهْتَدِي

واليَوْمَ أدْرَكَهَا الكُسُوفُ فأظلَمَتْ ... طُرُقُ الهدَى للسَّالكِ المتَرَدِّدِ

لهَفِيْ على تِلْكَ الشَّمَائِلِ والنَّدَى ... والجُودِ والهدْيِ القَويمِ الأرشَدِ

هَجَمَ الحِمَامُ فلَا مَفَرَّ لهارِبٍ ... والمَوْتُ في الدُّنْيَا لنا بالمَرْصَدِ

مَاتَ الصَّدِيقُ ومَاتَ مَنْ عادَيتَهُ ... وتَمُوتُ أَنْتَ كمِثلِهِ وَكَأنْ قَدِ

وإذا مضَى أَقْرَانُ عُمْرِكَ فانتَظِرْ ... في يَوْمِكَ النَّاعي وإلَّا في غَدِ

لكِنْ لنا عَنْ كلِّ خِلٍّ سَلْوَةٌ ... بِمُصَابِ سيِّدِنَا النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

صَلَّى الإلهُ عَليهِ ما هَجَرَ الكَرَى ... جَفْنَ التَّقيِّ القانِتِ المتهجِّدِ[1]

***

ولهُ أيضًا رحمَهُ الله تعالى:

مَا كُفْءُ[2] هَذَا الرُّزْءِ جَفنٌ تَسْجُمُ ... أبدًا وَلَا قَلبٌ يذُوبُ ويألَمُ

رُزْءٌ أَصمَّ جَمِيعَ أسماعِ الورَى ... سَبَقَ الْحُدُوثَ بهِ القَضَاءُ المبرَمُ

رُزْءٌ يجلُّ عَنِ البكاءِ لأَنَّهُ ... لَا رُزْءَ مِنْهُ في البَرِيَّةِ أعظَمُ

مِنْ عُظْمِ مَوقِعِهِ وفادِحِ[3] خَطبِهِ ... لم يدْرِ قسٌّ مَا يقولُ وأكثَمُ

لكنَّما يجْرِي القضاءُ بِكُلِّ مَا ... يقْضِي بهِ ربُّ السَّمَاءِ وَيَحكُمُ

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٤١٣ ـ ٤١٧).

(٢) في (ج): «كفوا»، والمثبت من «العقود الدرية».

(٣) في (ج): «وقادح»، والمثبت من «العقود الدرية».

والأَمـرُ أعظَـمُ أنْ يقُـومَ بحقِّـهِ صـبٌّ حُشاشـتُهُ تـذوبُ وتُكلَـمُ
والمَـوْتُ وِردٌ للأنـامِ وَكلُّهـمْ فـي مَـاءِ ذَاكَ الـوِرْدِ يومًـا يقـدمُ
مَـنْ أخطَأتْهُ يَـدُ الحَوادِثِ فـي الصِّبَا حينًـا سـيذكرُهُ إذا هُـوَ يَهـرَمُ
شـيئانِ فـي حُكـمِ القَضَـاءِ مُؤَجَّـلٌ فـي نَفسِـهِ ومُعجَّـلٌ يتَقَـدَّمُ
أأُخَـيَّ لَا تُبعِـدْ فَلَيْـسَ بِخَالِـدٍ أحَـدٌ ولَا حَـيٌّ عَلَيْهَـا يَسْـلَمُ
لَا تَعـذِلِ الباكِـي عَلَـى أحبَابِـهِ واعـذُرْهُ وارْحَمْـهُ لَعَلَّـكَ تُرحَـمُ
لَا تحسَـبُوا وُرْقَ الْحمَـامِ سَـواجِعًا يَوْمَ الرَّحيـلِ وَلَا المطايـا تُـزْدَمُ[1]
هـذا يحِـنُّ فيَشـتكِي طُـولَ السُّـرَى والْـوُرْقُ تَذكُـرُ إلفَهـا فترَنَّـمُ
مَـنْ ذَا يُطيـقُ مَـعَ الفِـرَاقِ تجَلُّـدًا قـلْ لـي وَقـدْ مَـاتَ الإمَـامُ الأعْظَـمُ
أودَى فرِيـدُ الدَّهْـرِ أوحَـدُ عصْـرِهِ ومَضَـى التَّقِـيُّ العَـارِفُ المتوَسِّـمُ
شَـيخٌ يسُـوْدُ بجِـدِّهِ وبحَـدِّهِ وسِـواهُ فِـي هذَيْـنِ صِفْـرٌ مُعْـدَمُ
شَـيخٌ كأَنَّ اللهَ أودَعَ سِـرَّهُ فيـهِ فمَـا تلقَـاهُ إلَّا يَعْلَـمُ
اليَـوْمَ أكشِـفُ عَـنْ غَوامِـضِ سِرِّهِ اليَـوْمَ منْـهُ يُفَسِّـرُ المسـتَعجِمُ
قـدْ كَانَ يُؤثِـرُ مَـن أتَـاهُ بقُوْتِـهِ ويظَـلُّ طُـولَ نَهـارِهِ لَا يَطْعَـمُ
ظَهـرَتْ لَـهُ شِـيَمُ التُّقَـى فكَأنَّـهُ [بطَهَـارَةِ الأثـوابِ نُسْـكًا محْـرِمُ
وإذا تَقَاعَسَـتِ الرِّجَـالُ فإنَّهُ][2] يَـوْمَ القِـراعِ العَالِـمُ المُتَقَـدِّمُ

---

(١) في «العقود الدرية»: «تدرم»، ومعنى تزدم: تحمل، يقال: ازدمله: احتمله. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: زمل).

(٢) ما بين معكوفتين من «العقود الدرية».

مَـن ذَا يُـرَى للمُشـكِلاتِ يحُلُّهَـا والواقِعـاتِ وَمـن بِـهِ يُسـتَعْصَمُ
وعَلـى النَّصـارَى المُلْحِديـنَ إذا أَتَوا مَـنْ ذَا يـردُّ ومَـنْ يُجيـبُ ويُفْهِـمُ
يَشـتاقُهُ الإِرْسَـالُ فِـي إسْـنَادِهِ والنَّسـخُ والمنسُـوخُ ثـمَّ المُحكَـمُ
وبكَتـهُ عَنْعَنَـةُ الحَديـثِ وطُرْقُـهُ وبَيَـانُ مَـا يحـوي عَلَيْـهِ الـمُعْجَمُ
هَـذَا الَّـذِي للدِّيـنِ منْـهُ مُعَلِّـلٌ ومنـوِّعٌ ومجنِّـسٌ ومعلِّـمُ
هَـذَا الإِمَـامُ الحُجَّـةُ الحَبْـرُ الَّـذِي تُنفَـى بِـهِ شُـبَهُ الشُّـكوكِ وتُحْسَـمُ
فَضْـلٌ وزُهْـدٌ لَا يُحَـدُّ وعِفَّـةٌ ودِيانَـةٌ ورزَانَـةٌ وتحَلُّـمُ
أقْسَـمْتُ مَـا وُصِـفَ امْـرُؤٌ في نفسِـهِ بصيانـةٍ إلَّا ورأيُـكَ أحـزَمُ
أبـدَى مُصـلَّاكَ البُـكاءَ وحَسْـبُهُ يبكِـي عَلَيْـكَ وحقُّـهُ يتنـدَّمُ
أسـفًا علـى مَـا فَاتَـهُ مِـنْ وِرْدِهِ وَاللَّيْـلُ سَـاجٍ وَالْخَلَائِـقُ نُـوَّمُ
حسـدُوْهُ إذْ وجـدُوْهُ أعلـمَ مِنْهُـمُ ورأوْهُ أفضلَهُـمْ وَإِنْ كَانُـوا عَمـوا
عَـقَلُـوه إذْ عَـقَـلُوه لَيْـثَ كباشِـهم وَاللَّيْثُ يَعْقِـلُ مَـنْ[1] سَـطاهُ ويُلْجِـمُ
تبْكـي عَلَيْـهِ جَوَامِـعٌ ومجامِـعٌ ومنـاقِـبٌ ومراتِـبٌ تتهـدَّمُ
مَـلأتْ فضائِلُـهُ البِـلَادَ فَفَضْلُـهُ كالشَّـمْسِ نـورُ ضِيائِهـا لَا يُكتَـمُ
ولَقَـدْ دَعَـوْتُ الشِّـعْرَ يَـوْمَ نعيـهِ فَأبَـى عَلـيَّ فَلـم أُطِـقْ أَتكَلَّـمُ
أَنَّـى يُجيْـبُ؟ ومِـن لَـوَازِم حَقِّـهِ أَنْ لَا يُجيْـبَ وفِكـرُهُ مُتقسِّـمُ
وَأخـذْتُ أكتُـبُ مَـا أَقُـولُ وأدمُعِـي بَيـنَ السُّـطورِ كعِقْـدِ دُرٍّ يُنظَـمُ

(١) في (ج): «لمن».

نفَــدَ المــدَادُ فسَــاعدَتْهُ مَدامِعِــي فعَصَــى عَلــيَّ فســاعَدَ الدَّمــعَ الــدَّمُ

حَــالَ الــمدادُ عَــنِ السَّــوَادِ كــأنَّــهُ دمْعُ المحَاجِـمِ صُـبَّ فِيـهِ العَنْـدَمُ(١)

جَــادَتْ ضَرِيحًــا بالشَّــآمِ غمامَــةٌ تَسْـقِي ثَـراهُ عَلَـى الــمَدَى وتُـدوِّمُ

وَسَـقَى قُبـورًا جَاوَرَتْـهُ مِـنَ الرِّضَـا تَحـتَ التُّـرَابِ سَـحَابُ عَفْـوٍ مُثْجَـمُ

طُوبَـى لمـن أمسَـى مُجَـاوِرَ تُرْبِـهِ مِـن أجلِهَـا الجَـارُ الـمُصاقِبِ يُكْرَمُ

أَمْسَـى وتَحْتَ الأرْضِ عُرْسٌ إذْ ثَوَى فيهَــا وَفَــوقَ الأَرْضِ فِينَــا مأتــمُ

لسِــواهُ تَشــقِيقُ الجُيُــوبِ وَإنَّمَــا شَــقُّ الْجُيُــوبِ عَلَيْــهِ مِمَّــا يلْــزَمُ

فالخَلــقُ إنْ نُسِــبوا إلَيْــهِ كــواحِـدٍ فــي أمَّــةٍ وهُــوَ الفَرِيــدُ الأعلَــمُ(٢)

وهيَ طويلةٌ تبلُغُ اثنَينِ وسبعِينَ بيتًا، رحمَ اللهُ الرَّاثي والمرثِيَّ.

***

---

(١) العندم: صبغ معروف، وقيل: شجر أحمر، وقيل: دم الغزال بلحاء الأرطى يطبخان جميعاً حتى ينعقدا فتختضب به الجواري. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: عنم).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٤١٧ ـ ٤٢٣).

ومنها للشَّيخ عبدِ اللهِ بن خضرِ بنِ عبدِ الرَّحمَنِ الرُّوميِّ الأصلِ، ثم الدِّمشقِيِّ، المعروفِ بالمتيَّم[1]:

لقَد عَذَّبُوا قلبِي بنَارِ الْمحبَّةِ ... وذابَ فُؤَادِي من فِرَاقِ الأَحِبَّةِ

وزَادَ غَرامِي في اشتِياقِي إلَى الْحِمَى ... وهَيَّجَ بلبَالِي حنِينِي ولَوعَتِي

فيا عِظَمَ أحزانِي ووَجْدِي عَليهِمُ ... وَيَا طُولَ أشْواقي إِلَيْهِم[2] ووَحشَتِي

مَلَأتُ النَّواحِي مِن نُواحِي وَكَيفَ لَا ... أنُوحُ عَلى قومٍ وهُم خَيرُ جِيرَتِي

فلَمْ أنسَ أيَّامًا تقَضَّتْ بقُربِهم ... ومِن عِيشَتي لَمَّا تولَّوا تولَّتِ

ومِن عَجَبِي أنِّي أحِنُّ إلَيْهِم ... وهم ساكنو قَلبِي ورُوحِي ومُهجَتِي

ذكَرْتُ فلَم أنسَى زَمَانَ وِصَالهِم ... أأنسَى لَيَالٍ بالعقيقِ تقَضَّتِ

منَازِلُ أحبَابِي مَوَاطِنُ سَادَتِي ... مَطالِعُ أقمَارِي شُروقُ أهِلَّتِي

مَعاهِدُ أفراحِي دِيارُ سَعَادَتِي ... مَواسِمُ أربَاحِي أُوَيقَاتُ لذَّتِي

مَضَتْ وانْقَضَتْ عَنِّي كَأَنْ لم أكُنْ بها ... ومَا ذَاكَ إلَّا مِن تَرادُفِ غَفلَتِي

إذا لم يُلُحْ لي بَارِقٌ مِنْ حِمَاهُمو ... فيا خَيبَةَ الـمَسْعَى ويَا طُولَ شِقوَتِي

وإنْ لم أقْضِ العُمرَ بَينَ خِيامِهم ... فلَا عِشْتُ في الدُّنْيَا وَلَا نِلْتُ مُنيَتِي

وَإن لم أشاهِدْ حُسنَهم فِي مَشاهِدِي ... فقَد فَاتَنِي سُؤْلِي ومِتُّ بحَسرَتِي

وحقِّ أيادِيهم وعزِّ جَمالِهم ... وفرطِ خُضُوعِي في هَواهُم وذِلَّتِي

---

(١) وهو أحد أصحاب الشيخ ابن تيمية، مولده ببلاد الروم، وتوفي سنة (٧٣١هـ) ودفن بباب الصغير بدمشق. انظر: «العقود الدرية» (ص٤٨١، ٤٩٢).

(٢) في (ج): «عليهم».

لغَيرِ رِضاهُم مَا تمنَّتْ مَطامِعِي *** ولَا لسِواهُم مَا حلا لي تَلفُّتي

وحاشَاي أَن أسْلُو هَواهُم وحبُّهم *** يُذَكِّرنِي حفْظَ العُهُودِ القَدِيمَةِ

فهُم سرُّ أسرارِي وَنورُ مَناظرِي *** ورُوحِي ورَيحاني وأُنسِي وبهْجَتِي

وهُم عَينُ أعيَاني وقَلبي وقَالِبي *** وهُم مُنْتَهى قَصدِي ومَشهَدُ رُؤيَتي

وهُم في مَعانِيهم حَياتِي حَقِيقَةٌ *** وهُم في مغانِيهم أُهيلُ مَودَّتي

وهُم في تجلِّيهم شُموسٌ إِذا بدَوا *** وهُم في تجنِّيهِم رِياضِي وجنَّتي

وهُم أَيْنَما كَانُوا نِهَايَةُ مَقصِدِي *** وهُم أَيْنَمَا حَلُّوا مُرادِي وبُغيَتِي

وهُم نورُ أنوارِي وسرُّ حَقَائِقي *** وهُم أُنْسُ تأنِيسِي ومأمَنُ خِيفَتي

تُرَى يَشْتَفِي قَلبِي برُؤيَتِهم على *** رِياضِ الهَنا يَوْمًا وتَبْرُدُ غُلَّتي

وتحْيَا بهم رُوحِي حَيَاةً هَنيئةً *** مُسرَمَدةَ التَّنْعِيمِ فِي روضِ جَنَّةِ

إِذا سَمحُوا لي نَظرةً مِن جمَالهمْ *** فقَدْ نِلْتُ مِن رِضوانِهم كلَّ وصْلَةِ

عَلَيْهِم سَلامُ اللهِ مَا هبَّتِ الصَّبَا *** وَمَا ناحَتِ الأطيارُ شَوقًا وحَنَّتِ

وَقدْ آن أَن أُبدِي خَفَايا صَبَابتي *** وأُظْهِرَ للعُذَّالِ أصلَ رَزِيَّتي

وأبكِي عَلَى مَنْ كَانَ يجمَعُ شمْلَنا *** عَلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ في كلِّ لمحَةِ

وأندُبَ أحزَاني بِمَا قد أصابَني *** وأنشُرَ أشجاني بنَظمِ قَصيدَتي

فَقَدْتُ إِمَامًا كَانَ أوحَدَ عصْرِهِ *** وَقد فُجِعَتْ فِيهِ جَمِيعُ البَرِيَّةِ

فَقَدْتُ إِمَامًا لم يزَلْ مُتوكِّلًا *** على اللهِ لا يُصغِي إِلَى غَيرِ سُنَّةِ

فَقَدتُ إِمَامًا كَانَ بالْعلمِ عَامِلًا *** وكانَ حَقِيقًا قامِعًا كلَّ بِدعَةِ

أَتَى بكِتَابِ اللهِ والسُّنَّةِ الَّتي *** علَتْ وارتقَتْ حَقًّا عَلى كلِّ مِلَّةِ

أَتَـى بأَحَادِيـثِ الرَّسُـولِ وشَـرحِهَا ... وَعَمَّـن رَوَاهَـا بالمتـونِ الصَّحِيحَـةِ
أَتَـى بعلُـومِ العَالَمِيـن جَمِيعِهَـا ... بزُهـدٍ وتأييـدٍ ودِيـنٍ وقُـوَّةِ
أَتَـى بأصـولِ الدِّيـنِ والفِقْـهِ مُجمـلًا ... وفَصَّلَهـا تَفْصِيـلَ مِـن غَيـرِ شُـبْهَةِ
أَتَانَـا بأحـوالِ الصَّحَابَـةِ كلِّهـم ... وللتَّابِعِيـنَ الملَّـةِ المسـتقِيمَةِ
أَتَانَـا بأوصـافِ الأَئِمَّـةِ كلِّهـم ... [وصنَّـفَ كُتبًـا فِـي صِفَـاتِ الأئمَّـةِ
أَتَانَـا بوَصْـفِ الصَّالِحيـنَ وحالِهم](١) ... وَمَـا هـم عَلَيْـهِ مـن جَميـلِ العَقِيدةِ
وعلَّمَنَـا شَـرعَ الرَّسُـولِ ودينَـهُ ... بأفصَـحِ أَلْفَـاظٍ وأصْـدَقِ لهجَـةِ
وأعْلَمنَـا أَنَّ النَّجَـاةَ مِـنَ الهـوَى ... تـمسُّكُنـا بالسُّنَّـةِ النَّبَوِيَّـةِ
وحَذَّرنـا مِـنْ كلِّ زيـغٍ وبِدْعَـةٍ ... وعَـن كلِّ بـاغٍ خَـارِجٍ عَـن محَجَّـةٍ
وناظَـرَ أَرْبَـابَ العقَائـدِ كُلِّهـم ... وبَيَّـنَ مَـنْ قَـدْ ضَـلَّ مِـنْ كلِّ فِرْقَـةِ
وبَيَّـنَ تكْذِيـبَ اليَهُـودِ وخُبثِهـم ... ومَـا بدَّلُـوا فِـي الْملَّـةِ الموسَـوِيَّةِ
وأَخْبرَهُـمْ عَـن سِـرِّ أَسبَابِ كُفرِهـم ... فتُعسًـا لَهُـم مِـنْ أمَّـةٍ غَضبِيَّـةِ
وأظْهَـرَ أَيْضًـا للنَّصَـارَى ضَلالَهُـم ... ومَـا أَحْدَثُـوا فِـي الـمِلَّةِ العيسَـوِيَّةِ
وباحَثَهـم حَتَّـى تبيَّـنَ أَنَّهُـم ... سُـكارَى حَيَـارَى بالطِّبـاعِ الخَبيثَـةِ
وردَّ علـى كُتْـبِ الفَلاسِـفَةِ الأُولـى ... بمنقُـولِ أَحْـكَامٍ ومَعقُـولِ حِكْمَـةِ
وَقَـرَّرَ إِثْبَـاتَ النُّبُـوَّاتِ عِنْدَهـم ... وجَـالَ عَلَيْهِـم كـرَّةً بعـدَ كـرَّةٍ
وردَّ علـى جَهـمٍ وجَعـدِ بـنِ دِرْهَـمِ ... وَبشْـرِ المريسـي عُمْـدَةِ الجهْمِيَّـةِ

---

(١) ما بين معكوفتين من «العقود الدرية».

زنادِقَـةُ كـم أهلكُـوا مِـنْ عَوالـمٍ بسـوءِ اعتقَـاداتِ النُّفُـوسِ السَّـقِيمَةِ
وجـادَلَ أهـلَ الاعتِـزالِ جَمِيعِهـم وسَـلَّ عَلَيْهِـم سَـيْفَهُ بالأدِلَّـةِ
وباحـثَ أَشْـيَاخَ الرَّوافِـضِ وانثَنـى يُـقاتِلُهـم بالـدِّرَّةِ العُـمَـرِيَّةِ
لأَنَّهـم عَـادَوا خَـواصَّ مُحَمَّـدٍ وَسبُّوا فهُم فِي الأَصْلِ شَرُّ الخَلِيقةِ
بغَوا وافترَوا جَهلًا فهُم أنجَسُ الورَى وأكـذَبُ خلـقِ اللهِ مِـنْ كلِّ فِرْقَـةِ
فكَـم أَحْدَثُـوا فـي دِينِنَـا مِـنْ ضَلَالَـةٍ فَـلَا مَرْحَبًـا بالفِرقَـةِ القَدَرِيَّـةِ
وهُـم خُصَمـاءُ اللهِ تَبًّـا لدِينِهـم وبُعـدًا لَهُـم مِـن عُصبَـةٍ ثَنوِيَّـةِ
وردَّ عَلَـى قَـومٍ تَربَّـتْ نُفُوسُـهم عَلَـى النَّفْـي والتَّعطِيلِ مِن غَيـرِ حُجَّةِ
وردَّ علـى قـومٍ وشـتَّتَ شـملَهُم وهُـم أهـلُ تَشْـبِيهٍ أَتَـوا بكَبِيـرَةِ
وردَّ علـى أهـلِ التَّناسُـخِ عِنْدَمَـا تجـرَّوا وخاضُـوا فـي أمُـورٍ عَظِيمَـةِ
ومَزَّقَهـم فـي كلِّ وَادٍ لأَنَّهُـمْ يَقُولُـونَ لا شَـيْءَ سِـوى البرزَخِيَّـةِ
وَقـد أنكَـرُوا أمـرَ الـمَعَاد بقَوْلِهـمْ نُفـوسٌ نـأتْ عَنَّـا وفـي الغَيْـرِ حَلَّتِ
وجـادَلَ أهـلَ الاتِّحَـاد وردَّهُـم إلى أشـرَفِ المسْـرَى وأهْدَى طَرِيقَةِ
وأنقَذَهُـم مـن ظُلمَةِ الجَهْـلِ والعَمَى بنـورٍ وبُرهَـانٍ ودِيـنِ النَّصِيحَـةِ
وردَّ عَلَـى أهـلِ الحُلُـولِ فإنَّهُـم يـرَوْنَ تجَلِّـي الحـقِّ فـي كلِّ صُـورَةِ
وقـد زَعَمُـوا أن التجَلِّـي مَظَاهِـرٌ ولَا سِـيمَا فـي صُـورَةٍ أمرَدِيَّـةِ
فمِـن أجـلِ هَـذَا يرقُصُـونَ ديانَـةً وفـي رَقصِهـم جَـاءُوا بـكُلِّ قَبِيحَـةِ
يـرَوْنَ شُـهُودَ الـمُرْدِ والرَّقْـصِ قُربَةً فيـا ويلَهُـم مِـن خِـزيٍ يَـوْمِ الفَضِيحَةِ
وردَّ علـى أتبَـاعِ إبْلِيـسَ عِنْدَمَـا رَآهُـمْ وَقـد مالُـوا إلَـى الجَبرِيَّـةِ

وَكَم قد طَوَى فِي عِلمِهِ مِن طَوائفٍ ... حَرُورِيَّةٍ مِنْهُم على حَشوِيَّةِ
مَطايا ثَنِيَّاتِ الطَّرِيقِ سَرَتْ بهم ... إلَى أن أناخُوا في عِرَاصِ القَطِيعَةِ
وفي بَحرِ آراءِ العقَائدِ أُغرِقُوا ... رَمَتْهُمْ خَيالاتُ العُقُولِ السَّخِيفَةِ
وَكَم قد أَرَاهُم كُلَّهم سُبُلَ الهُدَى ... وَكَم قد نَهَاهُم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ
فمَن كَانَ قُطْبَ الكَوْنِ في حَالِ عَصرِهِ ... سِواهُ ومَنْ قَدْ فَازَ بالبَدَلِيَّةِ
شُجَاعٌ هُمَامٌ بارِعٌ فِي صِفَاتِهِ ... يَرومُ مَرامًا فِي المراقِي العلِيَّةِ
تزهَّدَ في كُلِّ الوُجُودِ وغَيرُهُ ... يَدُورُ على الدُّنْيَا بنَفسٍ دَنِيَّةِ
يجُودُ على المِسْكِينِ في حَالِ عُسْرِهِ ... بأطمَارِهِ في حُبِّ بارِي البَرِيَّةِ
ويلْقَى لِمَنْ يلقَاهُ بالبِشْرِ والرِّضَا ... بأوصَافِهِ الحُسْنى ونَفسٍ زكِيَّةِ
ويَدْعُو لمنْ قد نَالَ مِن ثَلْمِ عِرضِهِ ... ولم ينْتَقِمْ مِمَّن أتَى بالأذِيَّةِ
يُسَارِعُ في الخيرَاتِ سِرًّا وجَهرةً ... ويلهُو عن اللَّذَّاتِ في كلِّ طَرفَةِ
يجاهِدُ في اللهِ الكَريمِ بجَهدِهِ ... بصِدقٍ وإخْلاصٍ وعَزمٍ ونيَّةِ
ويأمُرُ بالمعرُوفِ حُبًّا لرَبِّهِ ... ويَنهَى عَنِ الفَحشَاءِ نهيًا بهِمَّةِ
تَقِيٌّ نَقِيٌّ طاهِرُ الذَّيلِ مُذ نَشَا ... كَرِيمُ السَّجَايا ذو صِفَاتٍ حَمِيدَةِ
أَلَيسَ الَّذي قد شَاعَ في الكَونِ ذِكرُهُ ... وعَمَّ البرَايا بالفَتاوى العَظِيمَةِ
فمَن كانَ تَاجَ العَارِفِينَ لوَقتِنا ... وشَيخَ الهُدَى قُلْ لي بغَيرِ حَمِيَّةِ
هوَ الحَبرُ والقُطْبُ الَّذي شَاعَ ذِكرُهُ ... وفاحَ شَذاهُ كالعَبِيرِ المفتَّتِ
إذا ما ذَكَرْنا حَالَهُ وصِفَاتِهِ ... كأنَّا حَلَلنَا في نَعِيمٍ ورَوضَةِ
تهَنَّا أبا العَبَّاسِ بالقُرْبِ والرِّضَا ... لقَدْ نِلتَ ما ترجُو بكُلِّ مَسَرَّةِ

ألا يـا تَقِـيَّ الدِّيـنِ يـا فـرْدَ عَصـرِهِ بُروقُـكَ قـد لاحَـتْ كشَـمسٍ مُضيَّـةِ
وبانَـتْ لـكُلِّ النَّاسِ أوْصَافُـكَ الَّتي بـرزْتَ بهـا مِثـلَ العُيـونِ الغَزِيـرَةِ
ظهَـرْتَ بأنـواعِ العُلُـومِ وجِنسِـها وسـارَتْ بهـا الرُّكبَـانُ فـي كُلِّ بلـدَةِ
وأظهَـرْتَ مـا قـد كانَ للنَّـاسِ خافِيًا بـكلِّ مَعـانٍ والفُنـونِ الغَرِيبَـةِ
وأوضَحْـتَ إشْـكالًا وبيَّنْـتَ مُبهَمًـا وأبدَيْـتَ إسْـرَارًا بنفـسٍ عَلِيمَـةِ
وكم غُصْتَ في بحرِ المعارِفِ غَوصَةً ولَجَّجْـتَ فاسـتَخرَجْتَ كلَّ يتِيمَـةِ
ظهَـرْتَ بإحسَـانٍ وحُسـنِ سـماحَةٍ وليـنٍ وتوحِيـدٍ وكلِّ فضِيلَـةِ
خرَجْتَ مِنَ السِّـجنِ الَّذِي كانَ ضَيِّقًا إلـى دارِ فَـوزٍ فـي رِيـاضٍ فسِـيحَةِ
وقـدْ نِلْتَ مِن مـولاكَ ما كُنْتَ راجِيًا وأشـهَدَكَ الـمَغنى بعَيـنٍ قَرِيـرَةِ
حُمِلْـتَ على النَّعْشِ الَّـذي كانَ تحتَهُ مِئـنُ أُلُـوفٍ فـي بـكاءٍ وضَجَّـةِ
وصَلَّـى عَلَيـكَ المسلِمُونَ جمِيعُهم بحسْـنِ اعتِقَـادٍ فيـكَ يـا شَـيخُ قُـدوَةِ
وأمَّـا النِّسَـاءُ المؤمِنَـاتُ فإنهُـنَّ خَرجْـنَ حَيـارَى فَوجَـةً بعـدَ فَوجَـةِ
ومَعهُـنَّ أبـكارٌ تَحجَبْـنَ بالتُّقَـى يَنُحْـنَ بأكبـادٍ عليـكَ حزينـةِ
صَبـرْتَ على الأحـكَامِ طَوعًا وطاعَةً وذُقْـتَ مِـنَ الآلامِ طعـمَ البلِيَّـةِ
وكنْـتَ حَمـولًا للنَّوائـبِ كُلِّهـا صَبُـورًا عَلَـى الأقـدَارِ فـي دارِ غُربَـةِ
وأوسَـعْتَ صَـدرًا للمقَادِيـرِ عِندَمـا شَـهِدْتَ جمـالَ الحبُّ فـي كُلِّ جلوةِ
فـلا أوحَشَ الرَّحْمَنُ منْـك ولَا خَلَتْ رُبوعُـكَ مِـنْ تِلْـكَ العُلُـومِ الجلِيلَـةِ
ولا أقفَـرَتْ مِنْكَ الطُّلـولُ ولَا نـأتْ دِيَـارُكَ مِـنْ تِلْـكَ الصِّفَـاتِ الجمِيلَةِ
ولا سـكَنَتْ يَـوْمَ الـوَدَاعِ دُمُوعُنـا ولا اكتَحَلَـتْ منـكَ الجفُـونُ بغَمضَةِ

لقَـد كُنْـتَ رَوحًـا للقُلـوبِ[1] وراحَةً ... وقُـوتًـا وأُنْسًـا للنُّفـوسِ النَّفِيسَـةِ
تمسَّـكْتَ بالدِّيـنِ الحنيفِـيِّ والْهُـدَى ... وبالعُـروَةِ الوُثقَـى وأصْـلِ الشَّـرِيعَةِ
ظَهَـرْتَ إلَـى الدُّنْيَـا بأَحْسَـنِ مَظهَـرٍ ... ورُحْـتَ إلَى الأُخْـرَى بأكمَـلِ رَوْحَةِ
ووَدَّعتَنـا تَودِيـعَ مَـنْ غيـرُ رَاجِـعٍ ... وفارَقْتَنـا والـدَّارُ غيـرُ بعِيـدَةِ
شَـرِبْتَ بـكَأسِ العارِفِيـنَ مُدَامـةً ... حَقِيقَتُهَـا مِـن سِـرِّ عَيـنِ الحَقِيقَـةِ
وجُـدْتَ بـكَأسِ الفضْلِ مِنْـكَ تَكَرُّمًا ... عَلَـى تابِعيـنَ السُّـنَّةِ الأحمَدِيَّـةِ
فسُبحَانَ مَن أَعْطَاكَ مِـن فَضلِ جُودِهِ ... لقَـدْ نِلْـتَ قُربًـا لا يُنَـالُ بحِيلَـةِ
لقـد عِشْـتَ محبُوبًـا ومِـتَّ مُكَرَّمًـا ... عَلَيْـكَ مِـن الرَّحْمَـنِ أزكَـى تحيَّـةِ
وبعـدُ فللَّـهِ المحَامِـدُ كلُّهَـا ... عَلَـى مَـا أرانـا مِـن وُضُـوحِ المحَجَّةِ
وَهَـا أنـا يَـا رَبِّـي عُبَيـدٌ مُتَيَّـمٌ ... عَسَـاكَ تَـرَى حَالـي وتغْفِـرُ زَلَّتـي

وهيَ طويلةٌ عدَّتها مئةٌ وسبعةٌ وعشرونَ بَيتًا.

***

ولهُ أيضًا رحمَهُ اللهُ تعالى:

للهِ عَـيْـشًـا تَـقَـضَّـى بالثَّنِيَّـاتِ ... مَـعَ جِيـرَةٍ لَـذَّ لـي فيهِـم صَبَابَاتـي
مَـا كَانَ أهنَـا زَمانـي فِـي رُبوعِهِـمُ ... والسَّـعدُ يسْـعَى بِمَـا فِيهَـا إراداتـي
والكأسُ تُجلَـى بأنواعِ السُّـرُورِ وفي ... قُـربِ الأحِبَّـةِ تَبـدُو لـي سَـعادَاتي
إذا تجلَّـوا عَلَـى قلبِـي بحُسْـنِهِمُ ... كأنَّنـي فـي نَعِيـمٍ وَسْـطَ رَوضَاتـي
قـدْ كُنْتُ فِي قُربِهِـمْ والوَصْلُ مُقتَرِني ... لـم يخْطُرِ الصَّـدُّ والهُجـرانُ فِي ذاتي

(١) في (ج): «للعلوم»، والمثبت من «العقود الدرية».

واليَـوْمَ أَصبَحْـتُ أبكِـي بعـدَ بُعدِهِمُ ... لَمَّـا تنـاءَوا نَـأتْ عَنِّـي مَسـرَّاتي
وغَـابَ مُذْ غَـابَ عَن عَيْنـي جَمَالُهُمُ ... راحِـي ورُوحِـي ورَيحَانـي وراحَاتي
ولَا صَفَـا بَعدَهُــمْ عَيشِــي بمَنهَلَــةٍ ... ومُــذ توَلَّــوا توَلَّــى طِيْــبُ لذَّاتــي
يَــا سَــادَةً مَلكُــوا قَلبِــي بلُطْفِهِــمُ ... مَـا ضَرَّهُـم لـو أعـادُوا لـي أُوَيقَاتـي
فهُم مُـرادِي وهُم سُـؤلي وهُـم أمَلِي ... وهُــم نهايَــةُ مَقصُــودِي وغاياتــي
وهم سُرُوري وهم سَمْعِي وهم بَصَرِي ... وهُــم نَعِيمـي ورَوْضَاتـي وجَنَّاتــي
وهُم حَياتِي وهُم أُنسِـي وهُم شَـرَفي ... وذكرُهمْ لـم يزَل في القلْـبِ خلواتي
لَمَّـا سَـرَوا وفـؤادِي فِـي هَوادِجِهـم ... نادَيْـتُ مِـنْ حُرْقَتي يَـا عُظْـمَ لَوْعَاتي
مـا كنْـتُ أعلَـمُ قُربـي فـي محَبَّتِهـم ... حَتَّـى رَمتْنِـي إلـى الأبعَـادِ راياتـي
فاندُبْ علَى مَا مَضَى مِن عَيشَةٍ وَصَفَا ... وابكِ عَلَى مَا قدْ جَرَى يَا قَلبِيَ العَاتي
واذْكُـر مَصَارِعَ قـومٍ كَيفَ قدْ شَـرِبوا ... بعــدَ الــزُّلَالِ بكاسَــاتِ المنيَّــاتِ
وأنْــتَ مِـن بعدِهمْ تَسـرِي كسَـيرِهمُ ... إِمَّــا بــدارِ هَــوانٍ أو بجَنَّــاتِ
أَقُـولُ مـا قَالَـهُ العَبْـدُ المُنِيـبُ وقـدْ ... أودَى بـهِ السِّـجْنُ فـي بِـرٍّ وطاعَاتِ:
أنـا الذَّلِيـلُ أنـا المِسْـكِينُ ذُو شَـجَنٍ ... أنــا الفَقِيــرُ إلــى ربِّ السَّــمَاوَاتِ
مـا زَالَ يَتْبَـعُ آثَـارَ الرَّسُـولِ علـى النَّـ ... ـــهجِ القَويــمِ بأعــلامِ الــدَّلالاتِ
يهــدِي لسُــنَّتِه يُفْتِــي بشِــرعَتِهِ ... يرْعَــى لحُرْمَتِــهِ فــي كلِّ سَــاعَاتِ
قُطْـبُ الزَّمَـانِ وتـاجُ النَّـاسِ كُلِّهِـمُ ... رُوحُ المعَانِـي حَـوَى كلَّ العِبَـادَاتِ
حَبـرُ الوُجُـودِ فَريـدٌ فـي مَعارِفـهِ ... أفنَى بسـيفِ الهُدَى أهلَ الضَّلالاتِ
حَوى مِـن المُصْطَفـى عِلمًـا ومَعْرِفَةً ... وجــاءَهُ مِنْــهُ إمــدَادُ النَّــوالاتِ

مـا جَـاءَهُ سَـائِلٌ إلَّا ويمْنَحُـهُ ... إِمَّـا بجُـودٍ وإمَّـا بالمُـدَاراةِ
مـاذَا أقُـولُ؟ وقَوْلِـي فِيـهِ مُنحَصِـرٌ ... فـي وصْـفِ أخلاقِـهِ كَلَّـتْ عِبَاراتـي
فـي عِلمِـهِ مـا عَلِمنَـا مَـنْ يُنَاسِـبُهُ ... إلَّا أئمَّتنَـا أهـلُ العِنايـاتِ
فـي زُهـدِهِ مـا سَـمِعنَا مَـنْ يُشَـاكِلُهُ ... إلَّا رِجَـالًا مَضَـوا أهـلُ الكَرامَـاتِ
فِـي جُـودِهِ مـا وَجَدنَـا مَـن يُماثِلُهُ[1] ... غَيـرَ البرامِكَـةِ كَانُـوا فِـي سَـعاداتِ
يجـودُ وهـوَ فَقِيـرٌ إنَّ ذَا عَجَـبٌ ... هُـوَ الَّذِي مَـا سـمِعْنَا فـي الحِكاياتِ
تَلـوحُ شـمسُ المَعَالِـي فِـي شَـمائلِهِ ... وفِـي صَفَـا وَجهِـهِ نُـورُ الهِدَايـاتِ
بَحـرُ المعـارِفِ تاهُـوا فـي بدَايتِـهِ ... أهـلُ المعَانِـي وأربَـابُ النِّهايـاتِ
قُطـبُ الحَقَائِـق حـارُوا فِـي فَضَائِلِـهِ ... أهـلُ التَّصـوُّفِ أصْحَـابُ الرِّياضَاتِ
أُعجُوبَـةُ الدَّهْـرِ فَـردٌ فـي فَضَائلِـهِ ... عَلَّامَةُ الوَقْتِ في المَاضِي وفي الآتِي
يـا لهـفَ قلبِي عَلَـى مَـن كَانَ يجمَعُنا ... عَلَـى فُنـونِ المعَانِـي والإشَـاراتِ
فَارَقْـتُ مَـن كَانَ يروِينـي برُؤْيَتِـهِ ... إذْ ابتَـدَى بـدَى سِـرَّ العِبَـادَاتِ
يَـروِي الأحَادِيثَ عَن سُـكَّانِ كاظِمَةٍ ... فيُطـرِبُ الكَوْنَ مِـن طِيـبِ الرِّوَايَاتِ
ويُطنِـبُ الذِّكـرَ في إحْسَـانِ حُسنِهِمُ ... فيرقُـصُ القلـبُ شـوقًا نَحْو سَـادَاتِ
أفْضَـى إلـى اللهِ والجَنَّـاتُ مَسْـكَنُهُ ... عَلَيْـهِ مِـن ربِّـهِ أزكَـى تحِيَّـاتِ
ثمَّ السَّـلامُ علـى المختَارِ مـا همَعَتْ ... سُـحُبُ الغَمَـامِ وجَـادَتْ بالزِّيـادَاتِ

---

(١) في (ج): «يشاكله»، والمثبت من «العقود الدرية».

والحَمْدُ للهِ حمدًا لا انقِطَاعَ لَهُ أرْجُو بهِ مِن إلهي محوَ زَلَّاتي[١]

وهذا آخرُ ما أردْنا جمعَهُ مِن بعضِ مناقبِ شيخِ الإسلام ابنِ تيميةَ، وبعضِ مراثيهِ، على التَّلخيصِ والاختصارِ.

ورضيَ الله تعالى عنه وأرضاهُ، ونفعَنا به، وأعادَ علينا مِن بركَتِهِ وبركاتِ علومِهِ ومدَدِه، آمينَ.

* * *

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٤٨٩ ـ ٤٩٢).

خاتمةٌ

نصيحَةٌ وموعظةٌ

قد علِمْتَ ـ أيَّدَكَ اللهُ ـ ممَّا مرَّ مِن سِيرةِ الشَّيخِ، ومناقِبِه، وغزارَةِ علمِه، وقوَّةِ جهَادِهِ، واتِّصافِهِ بكلِّ فعلٍ جميلٍ، بشهادَةِ الأئمَّةِ لهُ، وثنائِهم عَليهِ، نثرًا ونَظمًا، حيًّا وميتًا = أنَّه مِن كبارِ الأئمَّةِ المحقِّقينَ، وعلماءِ الأمَّةِ العاملِينَ الرَّاسخِينَ، وأكابرِ الأولياءِ العارِفينَ، بشهادةِ الإمامَينِ الجليلَين: أبي حنِيفةَ والشَّافعيِّ، حيثُ قالا: إذا لم تكُن العلماءُ أولياءَ اللهِ فليسَ للهِ وليٌّ[1].

لا سيَّما وقد شهِدَ له بذلِكَ غيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ، معَ ما أعطاه اللهُ مِن العلمِ بالعمَلِ، والزَّهادةِ والعبادةِ، ووقوفِهِ معَ الكتابِ والسُّنَّةِ، لا يميلُه عنهُما قولُ أحدٍ كائنًا مَن كانَ، كما مرَّ في مناقبِهِ.

هذا، وقد تكلَّمَ فيه، وبغَى عليه مَن لا يخافُ اللهَ، واستحَلَّ الوقوعَ في عِرضِه، ونسبَهُ لقبائحَ هو منها بريءٌ، وترى كثيراً مِن الجهَلةِ المتهوِّكينَ ينسِبونَهُ بغيرِ علمٍ لِمَا لا يحِلُّ لهم أن ينسِبوا إليه أعظَمَ الجاهلِينَ، فكيفَ بمن هوَ مِن العلماءِ الرَّاسخِينَ وأئمَّةِ الدِّينِ، والذَّابِّ عن شريعَةِ سيِّدِ المرسلِينَ؟ أترى هذا المفتريَ لم يسمَع قولَ النَّبيِّ ﷺ في خطبته حجَّةِ الوداع:

«إن دماءَكم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكُم حرامٌ، كحُرمَةِ يومِكُم هذا، في شَهرِكم هذا، في بلَدِكم هذا، ألا هَلْ بلَّغْتُ». رواهُ البخاريُّ ومسلِمٌ[2].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٤٣٢) عن أبي حنيفة، ورواه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (١٧٧) عن الشافعي.

(٢) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وقد روي الحديث عن عدد من الصحابة.

ورَوَى أيضًا مسلمٌ عن أبي هريرَةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كلُّ المسلِمِ على المسلِمِ حرامٌ؛ دمُهُ وعِرضُه ومالُهُ»[١].

أَوَمَا درَى هذا المتهوِّكُ بلسانِهِ قولَ الحافظِ ابنِ عساكرَ: لحومُ العلماءِ مسمُومةٌ، وهتكُ أستارِ مُنتقِصِهم معلُومةٌ[٢].

وقولِهِ أيضًا: لحومُ العلماءِ سمٌّ؛ مَن شمَّها مرِضَ، ومَن ذاقَها ماتَ[٣].

أوما بلَغَ هذا المتجرِّئَ أنَّه قد جاءَ النَّهيُ عن ذكرِ مساوِئِ الأمواتِ بذكرِ محاسنِهم؟

فعنِ ابنِ عمرَ رضيَ الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اذكُروا محاسِنَ موتاكُم، وكفُّوا عن مساوِئِهم». رواه أبو داودَ، والتِّرمذِيُّ، وابنُ أبي الدُّنيا[٤].

وعن عائشَةَ رضي الله عنها قالَتْ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فإنهم قد أفضَوا إلى ما قدَّمُوا». رواهُ الإمام أحمدُ، والبخاريُّ، والنَّسَائيُّ[٥].

وفي روايةٍ أُخرى: «لا تذكُروا موتاكُم إلَّا بخيرٍ؛ إنْ يكُونوا مِن أهلِ الجنَّةِ تأثمُوا، وإنْ يكُونوا مِن أهلِ النَّارِ فحسبُهم ما هم فيهِ»[٦].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) انظر: «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر (ص٢٩).

(٣) نحو هذا الكلام في «مفيد العلوم» لأبي بكر الخوارزمي (ص٣٢٩).

(٤) رواه أبو داود (٤٩٠٠)، والترمذي (١٠٢٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٧١٣). وقال الترمذي: غريب، سمعت محمدًا يقول: عمران بن أنس المكي منكر الحديث.

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٥٤٧٠)، والبخاري (١٣٩٣)، والنسائي (١٩٣٦).

(٦) روى أوله أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١٥٩٧)، والطبراني في «الدعاء» (٢٠٦٥)، ورواه النسائي (١٩٣٥) بلفظ: «لا تذكروا هلكاكم إلا بخير».

فلا يجوزُ لِمَنْ يؤمِنُ باللهِ تعالى واليومِ الآخرِ أنْ يثلُمَ عِرضَ أحدٍ مِن المسلمِينَ بما لا يليقُ؛ فكيفَ بأئمَّةِ المسلمِينَ وورثَةِ الأنبياءِ؟! فكيفَ بالأمواتِ منهم؟!

قالَ الشَّيخُ تاجُ الدِّين السُّبكيُّ رحمهُ اللهُ: ينبَغِي لكَ أيها المسترشِدُ أنْ تسلُكَ سبيلَ الأدَبِ مع جميعِ الأئمَّةِ الماضينَ، وأنْ لا تنظُرَ إلى كلامِ النَّاسِ فيهِم إلَّا ببرهانٍ واضحٍ، ثم إنْ قدَرْتَ على التَّأويلِ وتحسِين الظنِّ بحسبِ قُدرتِكَ فافعَل، وإلَّا فاضرِبْ صَفحًا عمَّا جرَى بينَهُم، فإنَّك يا أخي لم تُخلَق لمثلِ هذا، وإنَّما خُلِقْتَ للاشتغالِ بما يَعنِيكَ مِن أمرِ دينِكَ.

قال: ولا يزالُ الطَّالِبُ نبيلًا حتى يخوضَ فيما جرَى بين الأئمَّةِ، فتلحقَهُ الكآبةُ وظلمَةُ الوجهِ[1].

وقالَ الحافظُ السُّيوطيُّ نقلًا عن الشَّيخِ عزِّ الدِّينِ بن عبدِ السَّلامِ: كما أنَّ لكلِّ نبيٍّ عدوًا من المجرمِينَ، كذلك لكلِّ عالمٍ عدوٌّ؛ فإنَّهم ورثَةُ النَّبِيِّينَ، ومَنْ صبرَ كما صبرُوا، نُصِرَ كما نُصِروا، وما مِن عالمٍ إلَّا وقد تسلَّطَ عليهِ حُسَّادٌ مِن السِّفلَةِ، وأضدادٌ من الجهَلةِ، ومن رأى تواريخَ السَّابقِينَ، علِمَ ذلك على اليقينِ، انتهى[2].

فإنْ طُعِنَ على الشَّيخِ ابنِ تيميةَ رحمَهُ اللهُ مِن حيثُ العقيدةُ فعقِيدتُهُ عقيدةُ السَّلفِ، كما وقعَ الاتِّفاقُ على ذلك وقتَ المناظرَةِ، فليطعَن على السَّلفِ مَن طعَنَ فيهِ.

وإنْ كانَ مِن حيثُ إفتاؤه بمسألَةِ الطَّلاقِ الثَّلاثِ في كونِهِ أوقعَ مِن ثلاثِ طلقاتٍ مجموعةٍ أو متفرِّقةٍ قبلَ رجعَةِ طلقةٍ واحدةٍ فهو مجتهِدٌ، ولا يجوزُ الطَّعنُ على المجتهِدُ فيما ذهبَ إليهِ ممَّا قام عليهِ الدَّليلُ عندَهُ، بل يجِبُ عليه العملُ بهِ.

---

(١) انظر: «طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٢٧٨).

(٢) انظر: «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١/ ٢٨).

علـى أنَّ مسـألَةَ الطَّـلاقِ قـالَ بها غيرُهُ مِـن أكابرِ الصَّحابـةِ والتابعِيـنَ، كما هو مـرويٌّ عـن علـيِّ بنِ أبـي طالـبٍ، والزُّبيـرِ بـنِ العـوامِ، وعبـدِ الرَّحمنِ بـنِ عوفٍ، وابنِ مسـعودٍ، وابـنِ عبَّاسٍ.

وقالَ: قولُهُ: (ثلاثًا) لا معنى لهُ؛ لأنَّه لم يطلِّق ثلاثَ مرَّاتٍ.

وقالَ بِهِ عطاءٌ، وطاووسٌ، وعَمرو بنُ دينارٍ، وسعيدُ بن جُبَيرٍ، وأبو الشَّعثاءِ، ومحمَّدُ بن إسحاقَ، والحجَّاجُ بنُ أرطاةَ.

وقالَ بِهِ مِن شيوخِ قُرطبةَ جماعةٌ منهم: محمَّدُ بن عبدِ السلامِ الخُشَنيُّ فقيهُ عصرِهِ، وأصبَغُ بن الحبابِ، وغيرُهم[1].

فليَطعَن على هؤلاءِ مَن طعَنَ فيهِ بسببِ هذه المسألةِ.

وإن كانَ الطَّعنُ فيهِ من حيثُ تحريمُه زيارةَ قبورِ الصَّالحِينَ وغيرِهم، فهو كذِبٌ وافتراءٌ عليهِ، فإنَّه لا يمنَعُ ذلكَ، وإنَّما حكَى قولَيْن للعلماءِ في مَنْ يشُدُّ الرِّحالَ لزيارَتها ورجَّحَ النَّهيَ، تبعًا لطائفةٍ مِن الأئمَّةِ المجتهدِينَ، والحُجَّةُ في ذلكَ قولهُ ﷺ: «لا تشَدُّ الرِّحالُ إلَّا لثلاثةِ مساجِدَ» الحديثَ[2].

فكيفَ يسوغ الاعتراضُ عليه بذلكَ، لا سيَّما وقد وافَقهُ على ذلك علماءُ بغدادَ، مِن ذوِي المذاهِبِ كما مرَّ.

وإنْ كانَتْ مِن حيثُ إنكارُهُ على الصُّوفيَّةِ، فلا خصوصيَّةَ له، بل يجِبُ على

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ١٣٢)، و«مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٨٣)، و«إغاثة اللهفان» لابن القيم (ص٣٢٨).

(٢) تقدم تخريجه.

حملَةِ الشَّرعِ قاطبةً إنكارُ ما خالفَ ظاهرَ الشَّريعةِ، وإلَّا كانوا فساقًا؛ لأنَّهم مكلَّفونَ بالظَّواهرِ، واللهُ يتولَّى السَّرائرَ.

قالَ أبو حيَّانَ في «النَّهر»[1]: في أوائلِ سورةِ المائدةِ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]: ومِنْ بعضِ اعتقاداتِ النَّصارى استنبَطَ مَنْ تستَّرَ بالإسلامِ ظاهرًا وانتمَى إلى الصُّوفيَّةِ: حلولَ اللهِ تعالى في الصُّورِ الجميلَةِ، ومَنْ ذهَبَ مِنْ ملاحِدَتهم إلى القولِ بالاتِّحادِ والوحدَةِ، كالحلَّاجِ، والشَّوْذيِّ، وابنِ أحلَى، وابنِ العربيِّ المقيم بدمشق، وابنِ الفارضِ، وأتباعِ هؤلاءِ كابنِ سبعينَ والشُّشْتريِّ تلميذِه، وابنِ مطرِّف المقيمِ بمرسيَّةَ، والصَّفَّارِ المقتولِ بغِرناطةَ.

قالَ: وممَّن رأيناهُ يُرْمَى بهذا المذهَبِ الملعونِ العفيفُ التلمسانيُّ، وله في ذلكَ أشعارٌ كثيرةٌ، وابنُ عيَّاشٍ المالقيُّ الأسودُ الأقطَعُ، المقيمُ بدمشقَ، وعبد الواحدِ ابن المؤخرِ المقيمُ بصعيدِ مصرَ، والإيكيُّ العجمِيُّ، الَّذي كانَ تولَّى المشيخةَ بخانقاه سعيدِ السُّعداءِ بالقاهرةِ[2]، وأبو يعقوبَ بن مبشرٍ تلميذُ الششتريِّ المقيمُ بحارةِ زُويلَةَ بالقاهرةِ، والشَّريفُ عبدُ العزيزِ المنوفيُّ، وتلميذُهُ عبدُ الغفارِ القوصِيُّ.

---

(١) «النهر الماد من البحر» هو مختصر «البحر المحيط»، طبع بهامش «البحر» في مطبعة السعادة بمصر (١٣٢٩هـ)، وقال في مقدمته: وربما نشأ في هذا النهر ما لم يكن في البحر. انظر: «معجم المطبوعات العربية» ليوسف سركيس (١/ ٣٠٨)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢/ ١٩٩٣).

(٢) خانقاه سعيد السعداء: خانقاه مشهور، سكن فيه كثير من العلماء، ونسبوا إليه، كانت دارًا لرجل اسمه قنبر أو عنبر، ولقبه سعيد السعداء، عتيق المستنصر، ومن الذين خدموا في قصور الفاطميين، وكان له شأن في دولتهم، أنشأها صلاح الدين، وكان شيخها يلقب بشيخ الشيوخ. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٨٢).

قالَ أبو حيانَ: وإنما سردتُ أسماءَ هؤلاءِ نُصحًا لدينِ اللهِ، يعلَمُ اللهُ ذلِكَ، وشفقَةً على ضعفاءِ المسلمينَ، وليحذَرُوهم فهم أشرُّ من الفلاسِفةِ، الذين يُكذِّبونَ باللهِ ورسلِهِ، ويقولونَ بقِدَمِ العالمِ، وينكِرونَ البعثَ.

وقد أولِعَ جهلةٌ، ممَّن ينتَمي إلى التصوُّفِ بتعظيمِ هؤلاءِ، وادِّعائهم أنَّهم صفوَةُ اللهِ وأولياؤه.

والرَّدُّ على النَّصارَى والحلوليَّةِ والقوائليْنَ بالوِحدَةِ، هو مِنْ علمِ أصولِ الدِّينِ، انتَهى(١).

وقال الشَّيخُ الإمامُ الحافظُ سراجُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمرُ البزَّارُ في «مناقبِه»: أكثَرَ في حقِّهِ من الأقاويلِ الزُّورِ والبهتانِ مَنْ ظاهِرُ حالِهِ العدالَةُ، وباطنُهُ مَشحونٌ بالفسقِ والجهالَةِ، ولم يزَل المبتَدِعون أهلُ الأهواءِ، وآكلو الدُّنيا بالدِّينِ مُتعاضِدين مُتناصِرين في عداوَتِهِ، باذِلينَ وُسْعَهم بالسَّعيِ في الفَتْكِ بهِ، مُتخرِّصينَ عليهِ الكذبَ الصَّريحَ، مختَلِقين عليهِ، وناسِبينَ إليه ما لم يقُلهُ، ولم ينقُلهُ عنه، ولم يوجَد لهُ بخطٍّ، ولا وُجِدَ له في تصنيفٍ، ولا فتوى، ولا سُمِعَ منه في مجلِسٍ(٢).

قال: وسببُ عداوتِهم لُه أنَّ مقصُودَهم الأكبرُ طلَبُ الجاهِ والرِّياسةِ، وإقبالُ الخلِق، ورأوه قد رقَّاهُ اللهُ إلى ذِروَةِ السَّنامِ مِن ذلك بما أوقَعَ اللهُ له في قلوبِ الخاصَّةِ والعامَّةِ مِن المواهِبِ الَّتي منحَهُ بها، وهم عنها بمَعْزِلٍ، فنصَبُوا عدواتَهُ، وامتلأَتْ قلوبُهم بمحاسَدَتِهِ، وأرادُوا سترَ ذلك عن النَّاسِ، حتَّى لا يُفطَنَ بهم، فعمَدوا إلى اختلاقِ الباطِلِ والبهتانِ عليهِ والوقوعِ فيهِ، خصوصًا عندَ الأمراءِ والحكَّامِ

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٣).

وإظهارِهم الإنكارَ عليهِ فيما يفتي بهِ مِن الحلالِ والحرامِ، وكما علِمَ اللهُ نيَّتَهُ ونيَّاتهم أبى أنْ يظفِرَهم فيهِ بما راموا، حتى إنَّه لم يحضُر معهُم في عقدِ مجلسٍ للمناظرَةِ إلا ونصرَهُ اللهُ عليهم بما يُظهِره على لسانِهِ من دحضِ حُججِهم الواهنةِ، وكشفِ مكيدَتهم الدَّاهيةِ للخاصَّةِ والعامَّةِ[1].

قالَ: وهو مع ذلكَ كلَّما رأى تحاشُدَهم في مباينَتِه، وتعاضُدَهم في مناقضَتِهِ، لا يزدادُ إلَّا للحقِّ انتصارًا، ولكثرَةِ حُججِهِ وبراهينِهِ إلَّا إظهارًا، وقد سُجِنَ أزمانًا وأعصارًا، ولم يولِّهم دُبرَهُ فرارًا، ولقد قصَدَ أعداؤه الفتكَ بهِ مرارًا، وأوسَعُوا حيَلَهم عليهِ إعلانًا وإسرارًا، فجعَلَ اللهُ حفظَهُ منهم له شعارًا أو دِثارًا، ولقد ظنُّوا أنَّ في حبسِه شينَه فجعلَه اللهُ له فضيلةً وزينةً، وظهرَ له يومَ موتِهُ ما لو رآهُ وادُّهُ أقرَّ به عينَهُ، فإنَّ اللهَ تعالى لعلمِهِ بقربِ أجلِهِ ألبَسهُ مِن الفراغِ عن الخلقِ للقدومِ على الحقِّ أجمَلَ حُللِهِ، كَونه حُبِسَ على غيرِ جَريرةٍ ولا جريمَةٍ، بل على قوَّةٍ في الحقِّ وعزيمةٍ.

هذا مع[2] ما نشرَ الله مِن علومِهِ في الآفاقِ، وبهرَ بفنونِهِ البصائرَ والأحداقَ، وملأَ بمحاسنِ مُؤلَّفاتِهِ الصُّحفَ والأوراقَ[3].

وقد كانَتْ تأتيهِ الفتاوى مِنْ أقطارِ الآفاقِ، فله أجوبةٌ في مسائلَ وردَتْ مِن أصبَهانَ، وجوابٌ عن مسائلَ وردَتْ مِنَ الأندَلُس، وجوابٌ عن سؤالٍ ورَدَ من ماردِينَ، وجوابٌ عن سؤالٍ وردَ مِن الرحبَةِ، وجوابٌ عن سؤالٍ ورَدَ من

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٥).

(٢) «مع» من «الأعلام العلية».

(٣) انظر: «الأعلام العلية» (ص٧٦ ـ ٧٧).

زرعـةَ، وأجوبـةٌ كثيـرةٌ عـن مسـائلَ وردَت مـن بغـدادَ، وكانَ يكتُـبُ على السـؤالِ المجلَّـدَ فأكثرَ.

وله إجازاتٌ طُلِبَت منه، منها: إجازةٌ لأهلِ سبتَةَ، وإجازةٌ لبعضِ أهلِ توريزَ، وإجازةٌ لأهلِ غرناطَةَ، وإجازةٌ لأهلِ أصبهانَ وغيرُ ذلكَ[1].

وفضائلُـهُ ومناقبُـهُ وتعـدادُ تصانيفِـهِ ممَّا يبلغُ مجلَّـداتٍ، رضـي اللهُ تعالى عنه ونفعَنا بـه، آمينَ.

وقالَ مؤلِّفهُ رحمهُ اللهُ تعالى: فرغْتُ مِن جمعِهِ بعد صلاةِ العشاءِ، ليلةَ الجمعةِ، ثالثَ ربيعِ الثَّاني سنة ١٠٢٧هـ[2].

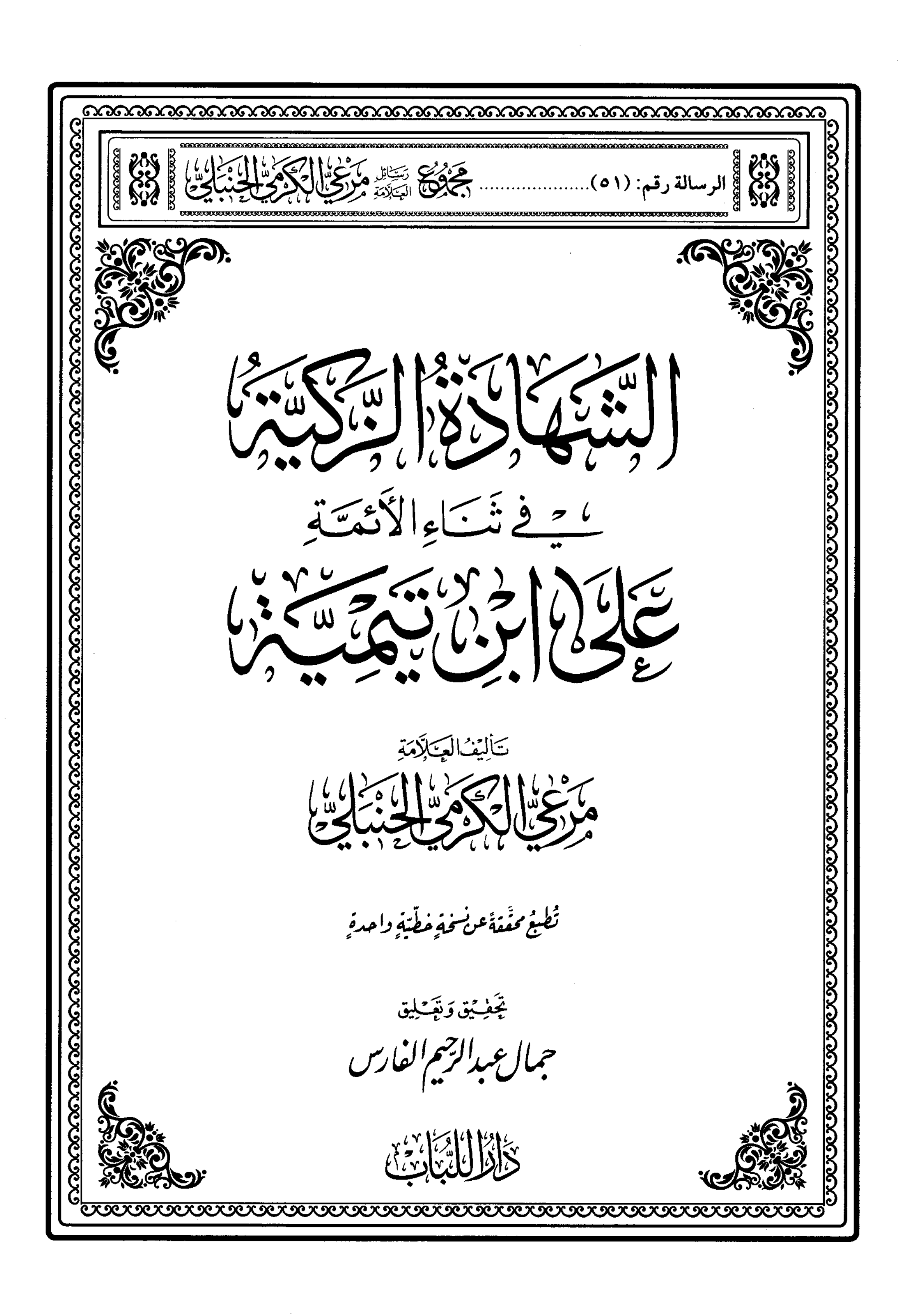
* * *

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٧٢ ـ ٧٣).

(٢) جاء في خاتمة النسخة (ج): «وقد تحقَّقَ الفراغُ من كتابته نهارَ الجمعةِ لستةِ أيامٍ خلَت من ذي الحجة سنة ١١٧٦هـ ألفٍ ومئة وستةٍ وسبعينَ، على يد الفقيرِ الحقيرِ المعترفِ بالذَّنبِ والتَّقصيرِ راجِي عفوِ ربهِ العليِّ أحمدَ بن عبيدٍ الحجاويِّ الحنبليِّ، غفَرَ اللهُ له ولوالدَيه ولمشايخِهِ ولكلِّ المسلمين أجمعينَ، آمينَ ونفعَنا بما فيهِ، وأعيدَ علينا من بركاتِهِ من هو مناقبُهُ ومصنِّفهُ، آمينَ».
وجاء في هامش (ج): «بلغ مقابلةً على نسخةٍ قوبلَت على أصلِهِ ومنهُ نقلتُ حسبَ الطاقةِ جل ما نقلَ من ذلك النسخةِ قوله: والاجتهاد وختمَ القرآن صغيرًا».





مجموع رسائل العلامة مرعي الكرمي الحنبلي .... الرسالة رقم: (٥١)

الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية

تأليف العلامة

مرعي الكرمي الحنبلي

تطبع محققة عن نسخة خطية واحدة

تحقيق وتعليق

جمال عبد الرحيم الفارس

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

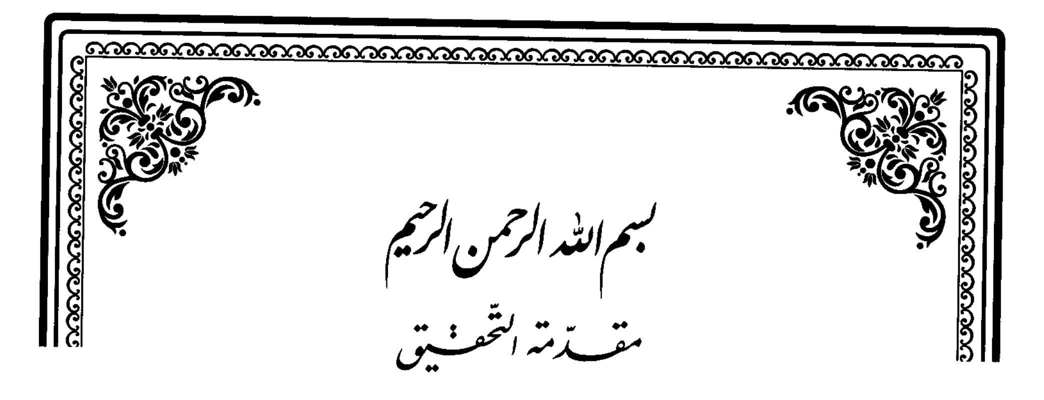
قال العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي
لطف الله تعالى به آمين

الحمد لله رافع مقام العلماء العاملين وقاصم أهل الزيغ الملحدين
والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين وعلى آله وأصحابه
الطيبين الطاهرين وعلى التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان
إلى يوم الدين وبعد فهذه كلمات منيرة وعبارات مستنيرة
في ثناء الأئمة الأعلام على شيخ الإسلام بحر العلوم ترجمان
القرآن مفتي الفرق أوحد المجتهدين أبي العباس أحمد تقي الدين
بن الشيخ الإمام عبد الحليم بن الشيخ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين
عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن
تيمية واختلف لم قيل ابن تيمية فقيل إن جده محمد بن الخضر حج على
درب تيماء فرأى هناك طفلة فلما رجع وجد امرأته قد ولدت
بنتا فقال يا تيمية يا تيمية فلقب بذلك وقيل إن جده محمدا كانت
أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب إليها وعرف بها ولد
رحمه الله يوم الاثنين عاشر وثاني عشر ربيع الأول سنة
إحدى وستين وستمائة وتوفي سحر ليلة الاثنين في العشرين من
ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة عن سبع وستين سنة وقد
أثنى الأئمة الأعلام على هذا الإمام ولقبوه بشيخ الإسلام وأفردوا

مناقبه

مناقبه بالتصانيف وتحلت بذكره التواريخ والتآليف ولم
ينتقصه إلا من جهل مقداره وخطره ومن جهل شيئا أنكره
ولقد أنصف العلامة الإمام قاضي قضاة الإسلام تاج الدين
بن السبكي حيث يقول لبعض من ذكر له الكلام في ابن تيمية فقال
والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى
فالجاهل لا يدري ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق
بعد معرفته به ولقد أنصف أيضا الشيخ الإمام والحبر الهمام محمود
بن أحمد العيني إمام الحنفية في زمنه حيث قال في أثناء كلام
طويل في مدحة ابن تيمية وذم من يعيبه وليس هو إلا كالجعل
باشتمام الورد يموت حتف أنفه أو كالخفاش يتأذى بنور
سنا الضوء لسوء بصره وضعفه وليس لهم نحبة نقادة ولا
روية وقادة وما لهم إلا الصلقع بلقع سلقع صلمعة بن قلمعة
وهيان بن بيان وهي بن بي وضل بن ضل وضلال بن التلال ومن
الشائع المستفيض أن الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين بن
تيمية من شم عرانين الأفاضل ومن جم براهين الأماثل وأطال
العيني الكلام في مدحه كما يأتي واعلم أيدك الله أن كثيرا من
الأئمة الأماثل والعلماء الأفاضل قد أفردوا لمناقب الشيخ
تقي الدين بن تيمية تصانيف مشهورة وتراجم في التواريخ
مذكورة وقد ذكر غالب العلماء الذين أثنوا عليه صاحب

مكتبة دار الكتب الوطنية بتونس (الأصل)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

وبعد:

فإنَّ كتاب «الرَّد الوافر على من زعم بأنَّ مَن سمَّى ابنَ تيمية شيخَ الإسلام كافر» لابن ناصر الدِّين الدمشقيِّ[1] ردَّ فيه على أحدِ المتعصِّبين على شيخ الإسلام،

---

(١) هو محمَّد بن أبي بكر عبد الله بن محمَّد بن أحمد بن مجاهد بن يوسف، شمس الدِّين، أبو عبد الله، الحموي الأصل، الدِّمشقي الشَّافعي، المعروف بابن ناصر الدين.

ولد بدمشق في المحرَّم من سنة (٧٧٧ هـ)، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم، والمتون، وأتقن العلوم، وسمع الحديث في صغره من الحافظ أبي بكر ابن المحب، وسمع من خلق منهم بدر الدّين ابن قوَّام،، والعزّ الأبناسي، وابن غشم المرداوي، وغيرهم.

مهرَ في الحديث، وكتبَ وخرَّجَ، وعرف العالي والنَّازل، وخرَّج لنفسه ولغيره، وصار حافظ الشَّام في عصرِه بلا منازع، واشتهر اسمه، وبَعُدَ صِيتُه.

كانَ حسنَ السِّيرةِ، لطيفَ المحاضرة والمحادثة لأهل مجالسه، قليل الوقيعة في النَّاس، كثير الحياء، قلَّ أن يواجه أحدًا بما يكره ولو آذاه.

ونقل عنه الحافظ ابن حجر في تصانيفه، ووصفه بقوله: «صاحبنا الحافظ»، وبقوله: «محدِّث الشَّام في وقته».

وله التَّصانيف الكثيرة الجليلة، منها: «توضيح المشتبه في المؤتلف والمختلف»، ومنظومة «بواعث =

الَّذي تجاوز الحدَّ في تعصُّبه وعداوته، فأطلقَ للسانِه العَنانَ في تكفير ابن تيمية، بل وتكفير مَن لقَّبه بـ: شيخ الإسلام.

فقام حافظ الشَّام ابنُ ناصر الدِّين بالرَّدِّ عليه، ممتثلاً قولَ النَّبيِّ ﷺ: «ما مِن امرئ ينصرُ مسلمًا في موضعٍ يُنتقَصُ فيه مِنْ عرضِه، ويُنتهَكُ فيه مِنْ حُرمَتِه، إلَّا نَصَرَهُ اللهُ في موطنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتُهُ»[1].

فكيفَ إذا كانَ المُفْتَرى عليه إمامًا كبيرًا، مناقبُه بلغَتِ المشارقَ والمغاربَ، وشهدَ بفضلِه الموافقُ والمخالفُ؟!

وكيف إذا كان ما يُرمى به الكفر؟!

بل كيفَ وقد كُفِّر جميع من لقَّبه بـ: شيخ الإسلام، وهم جمع كبير من العلماء الأفاضل؟!

وقد تكلَّمَ الحافظُ ابنُ حجرَ عمَّا جرى فقال في «إنباء الغُمر بأنباء العُمر»: «وفي هذه السنة ـ أي سنة (٨٣٥ هـ) ـ ثارَتْ فتنةٌ عظيمةٌ بينَ الحنابلة والأشاعرة بدمشق،

= الفكرة في حوادث الهجرة»، و«افتتاح القاري لصحيح البخاري»، و«برد الأكباد عن فقد الأولاد»، و«شرح منظومة الاصطلاح»، «عقود الدُّرر في علوم الأثر»، وغير ذلك من المصنَّفات النَّافعة المفيدة. وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية سنة (٨٣٧ هـ).

توفي في ليلة الجمعة سابع عشر ربيع الآخر، من سنة (٨٤٢ هـ)، وصلي عليه في جامع التَّوبة، ودفن بمقبرة باب الفراديس بدمشق.

انظر ترجمته في: «لحظ الألحاظ» للأصفوني (ص٢٠٦ـ٢٠٩)، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص٥٥٠)، و«الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي (١/ ٣٢)، و«البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ١٩٨)، و«الأعلام» للزركلي (٦/ ٢٣٧).

(١) رواه أبو داود (٤٨٨٤) من حديث جابر بن عبد الله وأبي طلحة رضي الله عنهم.

وتعصَّبَ الشَّيخُ علاء الدِّين البخاريُّ نزيل دمشق على الحنابلة، وبالغ في الحطِّ على ابن تيمية وصرَّح بتكفيره، فتعصَّب جماعة مِن الدَّماشقة لابن تيمية، وصنَّف صاحبنا الحافظ شمس الدِّين ابن ناصر الدِّين جزءًا في فضل ابن تيمية، وسرد أسماء مَن أثنى عليه مِن أهل عصره فمن بعدهم، على حروف المعجم، مبيِّنًا لكلامِهم، وأرسله إلى القاهرة، فكتب له عليه غالب المصريين بالتَّصويب، وخالفوا علاء الدِّين البخاريَّ في إطلاقه القولَ بتكفيره وتكفيرِ مَنْ أطلق عليه أنَّه شيخ الإسلام، وخرج مرسوم السُّلطان على أنَّ كل أحد لا يعترض على مذهب غيره، ومَن أظهر شيئاً مجمعًا عليه سُمِعَ منه، وسكنَ الأمر»[1].

جمع ابن ناصر الدِّين في كتابه (٨٧) شهادةً مِن كبار العلماء في حقِّ ابن تيمية وتلقيبِهم إيَّاه بلقب: شيخ الإسلام، مع ترجمةٍ لكلِّ فرد مِن هؤلاء العلماء، وتعريف بفضائله ومصنَّفاته.

وهو لم يذكر جميع مَن أثنى على شيخ الإسلام ابن تيمية، بل التزم ذكرَ مَن أثنى عليه ولقَّبه بشيخ الإسلام.

ثم صنفَ العلامةُ مرعيُّ الكرميُّ كتابَه «الشَّهادة الزَّكيَّة في ثناء الأئمَّة على ابن تيمية»، اختصر فيه كتابَ «الرَّد الوافر» لابن ناصر الدِّين، مع زياداتٍ عليه، فقام باختصار شهادات العلماء من الكتاب واختار (١٧) شهادة من بين (٨٧) شهادة ذكرها الحافظ ابن ناصر الدين.

ثم عقد فصلًا في وفاةِ شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وعظم جنازته التي لم يشهد لها مثيل سوى جنازةِ الإمام أحمدَ بنِ حنبل.

---

(١) انظر: «إنباء الغمر بأنباء العمر» (٣/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧).

وزادَ عليه تقاريظَ كبارِ العلماءِ لكتاب «الرد الوافر»؛ كالحافظِ ابن حجر والعينيِّ، وهذه التقاريظُ لا تقلُّ أهميةً عن الشهادات المتقدمةِ، بل إنَّ منها ما يعدُّ ترجمةً مُفردةً ومادةً علميةً تميَّز بها كتابُ «الشهادة الزكية».

ثم ختمَ كتابَه بترجمةٍ موجَزةٍ لشيخِ الإسلامِ ابن تيميَّةَ، التزمَ فيها السَّجعَ، وزيَّنها ببعضِ الشِّعر، وجاء فيها بغريبِ الألفاظِ.

وقد بذلنا جهدَنا في خدمة هذا الكتاب، من ضبطِ نصهِ، ومقابلتهِ، وتوثيقِ النُّقول، وترجمة الأعلام، وقُمنا بزيادةِ بعض العناوين الجانبية زيادةً في التوضيح، وجعلناها بين معكوفتين.

وقد اعتمدنا في تحقيقِ هذا الكتابِ على نُسخةٍ خطيةٍ واحدة، وهي النسخةُ المحفوظةُ في دار الكتب الوطنيةِ بتونس، وأشرنا لها بـ(الأصل) [1]. كما أفدنا من مطبوعةِ الكتابِ المنشورةِ بتحقيقِ الدكتور نجم عبد الرحمن خلف جزاهُ الله خيراً والتي اعتمدَ فيها على نُسختينِ إحداهما بخطِّ المؤلفِ لكنَّها ناقصةٌ، والثانية منقولةٌ من خطِّ المصنفِ رحمه الله، وأشرنا لها بـ(ط).

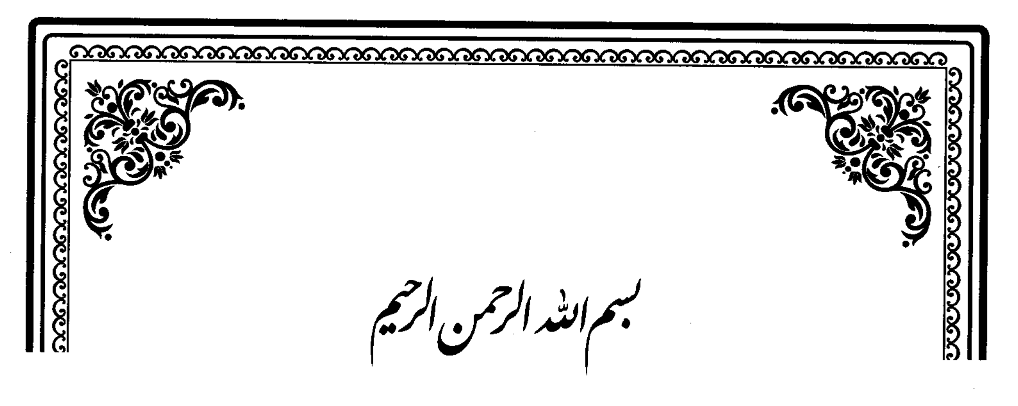
والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ

المحقق

***

---

(١) ولم يظهر لي تاريخ النسخ، إلا أنه جاء في آخرها بعد تأريخ المؤلف من كتابة مؤلفه هذا وهو ربيع الأول سنة (١١٣٢هـ): (تمت المناقب المباركة في ربيع الثاني سنة ١١٣٢هـ)، انتهى. أي بعد كتابة المؤلف بشهر، فهل هي من المؤلف أم ناسخ الأصل الخطي الذي أيدينا؟!
هذا وقد جاء في نهاية الأصل الخطي الذي اعتمد عليه ناشر الطبعة السابقة الدكتور نجم خلف وذكر أنه بخط مؤلفه: أن مؤلفه انتهى من تأليفه سنة ١٠٣٠هـ.



قالَ العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى مرعيُّ بنُ يوسفَ الحنبليُّ المقدسيُّ لطفَ اللهُ تعالى به آمينَ:

الحمدُ للهِ رافعِ مقامِ العلماءِ العاملينَ، وقامعِ أهلِ الزَّيغِ المائلينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أفضَلِ الخلقِ أجمعينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه الطَّيِّبينَ الطَّاهرينَ، وعلى التَّابعِينَ وتابعِ التَّابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

وبعدُ:

فهذه كلماتٌ منيرةٌ، وعباراتٌ مستنيرةٌ، في ثناءِ الأئمَّةِ الأعلامِ، على شيخِ الإسلامِ، بحرِ العلومِ، تُرجمانِ القرآنِ، مفتي الفِرَقِ، أوحدِ المجتهدينَ، أبي العبَّاسِ، أحمدَ تقيِّ الدِّين بن الشَّيخِ الإمامِ شيخِ الإسلامِ مجدِ الدِّينِ عبد السَّلامِ بنِ عبدِ الله بنِ الخَضِرِ بن محمَّدِ بن الخَضِرِ بن عليِّ بنِ عبدِ اللهِ ابن تيميةَ.

واختُلِفَ لم قيلَ: ابنُ تيميةَ؟

فقيلَ: إنَّ جدَّهُ محمَّدَ بنَ الخَضِرِ حجَّ على دربِ تيماءَ[1]، فرأى هناك طفلةً،

---

(١) تيماء: في الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاجّ الشام ودمشق، وحاليًا هي محافظة تتبع منطقة تبوك في السعودية. وانظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٦٧)، و«الروض المعطار» للحميري (ص١٤٦)، و«أطلس التاريخ الإسلامي» لشوقي أبو خليل (ص١٣٨).

فلمَّا رجعَ وجدَ امرأتَهُ قد ولدَتْ بِنتًا، فقالَ: يا[١] تيميةُ! يا تيميةُ! فلقِّبَ بذلكَ.

وقيلَ: إن جـدَّهُ محمدًا كانـت أمَّهُ تُسـمَّى تيميةَ، وكانـتْ واعظَةً فنُسِـبَ إليها وعُـرِفَ بها.

ولِدَ رحمَه اللهُ يومَ الإثنين، عاشرَ أو ثاني عشرَ ربيعٍ الأوَّلِ، سنةَ إحدى وستِّينَ وستِّ مئةٍ، وتوفِّيَ سحرَ ليلةِ الإثنين، في العشرينَ من ذي القعدةِ، سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وسبع مئةٍ، عن سبعٍ وستينَ سنةً.

وقد أثنى الأئمَّةُ الأعلامُ على هذا الإمامِ، ولقَّبوهُ بشيخِ الإسلامِ، وأفردُوا مناقِبَه بالتَّصانيفِ، وتحلَّتْ بذكرِه التَّواريخُ والتَّآليفُ، ولم يتنقِصْهُ إلَّا مَن جهِلَ مقدارَهُ وخطرَهُ، ومَنْ جهِلَ شيئًا أنكرَهُ.

ولقد أنصفَ العلَّامةُ الإمامُ قاضي قضاةِ الإسلامِ بهاءُ الدِّينِ ابنُ السُّبكيِّ حيثُ يقولُ لبعضِ مَن ذكرَ لهُ الكلامَ في ابن تيميةَ فقالَ: واللهِ يا فلانُ! ما يُبغِضُ ابنَ تيميةَ إلَّا جاهلٌ أو صاحبُ هوًى؛ فالجاهِلُ لا يدري ما يقولُ، وصاحبُ الهوى يصدُّهُ هواهُ عن الحقِّ بعدَ معرفَتِهِ بِهِ[٢].

ولقد أنصفَ أيضًا الشَّيخُ الإمامُ، والحبرُ الهُمامُ، محمودُ بن أحمدَ العينيُّ[٣]

---

(١) كـذا فـي الأصـل، وفـي «الكواكب الدريـة» وغيره: «تا»، وتا: اسـمٌ يُشـار بـه إلى المؤنَّـث، مثل ذا للمذكـر، يقـال: تـا فلانـة في موضـع: هذه فلانـة. انظـر: «تهذيب اللغـة» للأزهـري، «والصحاح» للجوهـري (مـادة: تا).

(٢) انظر: «الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٩٥).

(٣) العيني، قاضي القضاة، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، كان عالمًا، فاضلاً، فقيهًا، بارعًا، محدِّثًا، عارفًا بكثير من الفنون، ماهرًا في النحو والصرف، دخل القاهرة، وولي الحسبة مرارًا وقضاء الحنفية، أكثر من التصانيف والتأليف، وله كتب مطوّلة جدًّا مشهورة؛ منها «عمدة القاري =

إمامُ الحنفيَّةِ في زمنِه، حيثُ قالَ في أثناءِ كلامٍ طويلٍ في مدحِه ابنَ تيميةَ وذمِّ مَن يعيبُه: وليسَ هو إلَّا كالجُعَلِ[1] باشتمَامِ الوردِ يموتُ حتفَ أنفِه، أو كالخُفَّاشِ يتأذَّى ببهورِ سنا الضَّوءِ لسوءِ بصرِهِ وضعفِهِ، وليسَ لهم سجيَّةٌ نقَّادةٌ، ولا رويَّةٌ وقَّادةٌ، وما هم إلَّا صَلْقَعٌ بَلْقَعٌ سَلْقَعٌ[2]، صَلْمَعَةُ بنُ قَلْمَعَةٍ[3]، وهَيَّانُ بنُ بَيَّانَ، وهَيُّ بنُ بيٍّ، وضُلُّ بنُ ضُلٍّ، وضَلالُ بنُ التَّلالِ[4].

ومِنَ الشَّائعِ المستفيضِ أنَّ الشَّيخَ الإمامَ العالمَ العلَّامةَ تقيَّ الدِّينِ ابنَ تيميةَ مِنْ شُمِّ العَرانِيْنِ[5] الأفاضلِ، ومِن جُمِّ براهينِ الأماثلِ، وأطالَ العينيُّ الكلامَ في مدحِهِ كما سيأتي.

= شرح البخاري»، و«شرح الشواهد»، و«شرح معاني الآثار»، و«شرح الهداية»، و«طبقات الحنفية»، وغير ذلك، مات سنة (٨٥٥ هـ). انظر: «حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤)، و«نيل الأمل» لابن شاهين (٥/ ٣٤٦).

(١) الجعل: من الخنافس، العَريض الأَسْود الَّذِي يُدَهْدِي الخُرُوء. انظر: «المخصص» لابن سيده (٢/ ٣١٦).

(٢) يقال: مكان بَلْقَع صَلْقَع، وبلاقِع صَلاقِع؛ أي: الأراضي القِفار الَّتي لا شيء بها، وتجوز فيه السين، قيل: هو سلقع إتباع لبَلقع لا يفرد، وقيل: هو المكان الحزن. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: سلقع)، و«لسان العرب» لابن منظور (مادة: صلقع).

(٣) صلمعة بن قلمعة، أي لا يعرف هو، ولا أبوه، وهو مثل: هي بن بي، وهيان بن بيان، وطامر بن طامر، والضلال بن بهلل. ويقال: فلان ضل بن ضل إذا كان منهمكًا في الضلال. كل ذلك إتباع. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: ضلل)، و«تاج العروس» للزبيدي (مادة: صلمع). وسيأتي المصنف على شرح هذه الكلمات.

(٤) وانظر تقريظ العيني لكتاب «الرد الوافر» في آخر هذا الكتاب.

(٥) شم العرانين: الشمم: ارتفاع قصبة الأنف واستواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلاً. والعرانين: الأنوف، وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف الأنفس. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: شمم).

واعلـم أيَّـدَكَ اللهُ أنَّ كثيـرًا مِـن الأئمَّـةِ الأماثـلِ والعلمـاءِ الأفاضلِ قـد أفرَدُوا مناقـبَ الشَّـيخِ تقـيِّ الدِّينِ ابـنِ تيمية فـي تصانيفَ مشـهورةٍ، وتراجمَ فـي التَّواريخِ مذكورةٍ.

وقد ذكرَ غالبَ العلماءِ الَّذين أثنَوا عليهِ صاحبُ «كتابِ الردِّ الوافرِ» تأليفُ الإمامِ العالمِ الأوحَدِ القُدوةِ الحافظِ أبي عبدِ اللهِ محمَّدِ بن أبي بكرٍ[1] بنِ عبدِ الله بن محمَّدِ بنِ أحمدَ بنِ ناصرِ الدِّينِ الشَّافعيِّ.

وقدْ أحببْتُ أنْ أذكُرَ هنا بعضَ ذلكَ على سبيلِ التَّلخيصِ مع زوائدَ لطيفةٍ؛ رجاءَ أنْ أدخُلَ في سِلْكِ أولئكَ الأئمَّةِ ومَنْ كانوا بينَ أظهُرِ النَّاسِ رحمةً.

* * *

(١) كذا في الأصل وفي بعض المصادر، والصواب بإسقاط (ابن) بين (أبي بكر) و(عبد الله)، فأبو بكر كنية عبد الله لا ابنه. وقد نبه على ذلك السخاوي في «الضوء اللامع» (٧/ ١٧٥).

(١)

فمنهم ابنُ سيِّدِ النَّاسِ[١]

وهو الإمامُ الحافظُ الفقيهِ، العالمُ الأديبُ البارعُ، فتحُ الدِّينِ، أبو الفتحِ، محمَّدُ بنِ الحافظِ أبي عَمرٍو محمَّدِ بنِ الحافظِ العلَّامةِ الخطيبِ أبي بكرٍ محمَّدِ بنِ أحمدَ بن عبدِ اللهِ بن محمَّدِ بنِ يحيى بن أبي القاسمِ ابن سيِّدِ النَّاسِ، اليعمرِيُّ، الأندلسيُّ الإشبيليُّ، ثم المصريُّ الشَّافعيُّ.

ولدَ بالقاهرةِ سنةَ إحدى وسبعينَ وستِّ مئةٍ، وتوفِّيَ في شعبانَ سنةَ أربعٍ وثلاثينَ وسبعِ مئةٍ بالقاهرةِ، ودُفِنَ بالقَرَافةِ[٢] عندَ ابن أبي جمرة، وكانَت جنازَتهُ مشهودةً، وله مصنَّفاتٌ مفيدةٌ، ومؤلَّفاتٌ حميدةٌ.

قالَ رحمَهُ الله في ترجمتِهِ لابنِ تيميةَ بعدَ أنْ ذكرَ ترجمةَ الحافظِ المزِّي: وهو الَّذي حداني على رؤيةِ الشَّيخِ الإمامِ شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ عبدِ الحليمِ بن عبدِ السَّلامِ ابنِ تيميةَ، فألفيتُه ممَّن أدركَ مِن العلومِ حظًّا، وكادَ أن يستوعِبَ السُّننَ والآثارَ حفظًا، إنْ تكلَّمَ في التَّفسيرِ فهو حاملُ رايتِهِ، أو أفتى في الفقهِ فهو مُدرِكُ غايتِهِ، أو ذاكرَ في الحديثِ فهو صاحبُ علمِهِ وذو روايَتِهِ، أو حاضرَ بالمِللِ والنِّحلِ لم يُرَ أوسَعَ مِن نِحلَتِهِ في ذلكَ، ولا أرفعُ مِن درايَتِه.

---

(١) انظر ترجمته: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٩٧)، و«أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٢٠١).

(٢) القرافة: مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحالّ واسعة وسوق قائمة، وبها قبر الإمام أبي عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، في مدرسة للفقهاء الشافعية، وهي من نزه أهل القاهرة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٣١٧).

بـرزَ فـي كلِّ فـنٍّ على أبناءِ جنسـهِ، ولـم تـرَ عيـنُ مَـن رآهُ مثلَـهُ، ولا رأَتْ عينُه مثـلَ نفسِـه، كانَ يتكلَّـمُ فـي التفسـيرِ فيحضُرُ مجلِسَـه الجـمُّ الغفيـرُ، ويـرِدُون مِنْ بحـرِه العـذبِ النَّميـرِ، ويرتَعـونَ مِـن ربيـعِ فضلِه فـي روضَـةٍ وغدير، إلـى أنْ دبَّ إلـى أهـلِ بلـدِه داءُ الحسـدِ، وأكـبَّ أهـلُ النَّظرِ منهـم على مـا يُنتقَدُ عليه مِـن أمورِ المعتقَـدِ، فحفِظـوا عنـه فـي ذلـكَ كلامًـا، أوسـعُوه بسـببِه ملامًـا، وفوَّقـوا لتبديعِهِ سـهامًا، وزعمـوا أنَّـه خالَـفَ طريقَهم، وفـرَّقَ فريقَهـم، فنازَعهم ونازَعـوه، وقاطعَ بعضَهـم وقاطعُوه.

ثم نازعَ طائفةٌ أُخرى ينتسِبونَ مِن الفقرِ إلى طريقةٍ، ويزعمون أنَّهم على أدقِّ باطنٍ منها وأجلى حقيقةٍ، فكشَفَ تلك الطَّرائقَ، وذكرَ لها على ما زعَمَ بوائقَ، فآضَتْ[1] إلى الطَّائفةِ الأولى مِن منازِعِيْه، واستعانت بذوي الضَّغنِ عليه مِن مقاطِعِيْه، فوصَلوا بالأمراءِ أمرَه، وأعملَ كلٌّ منهم في أمرِه فكرَه، فرتَّبوا محاضِرَ، وألَّبُوا للسَّعي بها بينَ الاكابرِ، وسعَوا في نقلِه إلى المملكةِ بالدِّيارِ المصريَّةِ، فنُقِلَ وأُودِعَ السِّجنَ ساعةَ حضُورِه واعتُقِلَ، وعقدُوا لإراقةِ دمِه مجالسَ، وحشدوا لذلك قومًا مِن عُمَّارِ الزَّوايا وسكَّانِ المدارسِ، مِن مجامِلٍ في المنازعةِ، مخاتلٍ بالمخادعةِ، ومِن مجاهرٍ بالتَّكفيرِ، مبارزٍ بالمقاطعةِ، يسومُونَه ريبَ المنونِ؛ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩].

فردَّ اللهُ كيدَ كلٍّ في نحرِه، ونجَّاهُ على يدِ من اصطفاهِ؛ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

ثم لم يخلُ بعدَ ذلكَ مِن فتنةٍ بعدَ فتنة، ولم ينتقِل طولَ عمرِه مِن محنةٍ إلَّا إلى

---

(١) آضت: رجعت وصارت. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: آض).

محنةٍ، إلى أن فوّض أمرُه إلى بعضِ القضاةِ، فتقلَّدَ ما تقلَّدَ مِن اعتقالِهِ، ولم يزَل بمحبَسِه ذلكَ إلى حين ذهابِه إلى رحمةِ اللهِ وانتقالِه، وإلى اللهِ تُرجَعُ الأمورُ، وهو المطَّلعُ على خائنةِ الأعينِ وما تخفي الصُّدورُ.

وكانَ يومُه مشهودًا، وضاقَت بجنازَتِهِ الطَّريقُ وانتابها المسلمونَ مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ، يتبرَّكونَ بمشهَدِه ليومٍ تقومُ الأشهادُ، ويتمسَّكون بسريرِه حتَّى كسروا تلك الأعواد.

ثم روى عنه ابنُ سيِّدِ النَّاسِ حديثًا فقالَ: قرأتُ على الشَّيخِ الإمامِ حاملِ رايةِ العلومِ، ومدركِ غايةِ الفهومِ تقيِّ الدِّين أبي العبَّاسِ أحمدَ بن عبدِ الحليمِ بن عبدِ السَّلامِ ابن تيميةَ الحرَّاني[1] بالقاهرةِ، ثم ذكرَ سندَهُ إلى الحسنِ بن عرفةَ، فروى مِن (جزئه) حديثًا[2].

***

(١) نسبة إلى حران: من ديار مضر في الجزيرة قرب الرها ونهر الفرات، مدينة قديمة يقال: بناها هاران أخو إبراهيم عليه السلام، وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، فتحت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على يد عياض بن غنم، كانت مجمع الصابئين، وبقي فيها بعضهم، وينسب لها كثير من العلماء، تقع حاليًّا في جنوب تركيا قرب الحدود السوريَّة، تتبع إداريًّا لمحافظة أورفة. وانظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٢٣٥)، و«الروض المعطار» للحميري (١/ ١٩١)، و«أطلس التاريخ الإسلامي» لشوقي أبو خليل (ص٨٨).

(٢) انظر: «أجوبة ابن سيد الناس على سؤالات ابن أيبك الدمياطي» (٢/ ٢٢١)، و«العقود الدرية» (ص٢٦)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٢٦)، و«الدرر الكامنة» (١/ ١٨٢).

(٢)

ومنهم ابنُ دقيقِ العيدِ

وهو الشَّيخُ العلَّامةُ الإمام، أحد شيوخِ الإسلامِ، قاضي قضاةِ المسلمينَ، عمدةُ الفقهاءِ والمحدِّثينَ، تقيُّ الدِّين، أبو الفتحِ، محمَّدُ بن عليٍّ بن وهبِ بنِ مطيعٍ المنفلوطِيُّ المالكيُّ الشَّافعيُّ، ماتَ عامَ اثنين وسبع مئةٍ.

كانَ إمامًا حافظًا فقيهًا ذا تحريرٍ، مالكيًّا شافعيًّا ليسَ له نظيرٌ، وكانَ يفتي بالمذهبَينِ، ويدرِّس فيهما بمدرسةِ الفاضلِ على الشَّرطَيْن، وله اليدُ الطُّولى في معرفةِ الأصلَيْن.

ولَمَّا قَدِمَ التَّتارُ إلى أطرافِ البلاد الشَّاميَّةِ سنةَ سبع مئةٍ ركبَ ابن تيميةَ على البريدِ من دمشقَ الى مصرَ، فدخلَها في ثامنِ يومٍ، وحثَّ السُّلطانَ والعساكرَ على قتالِ التَّتارِ، واجتمعَ به أعيانُ البلدِ، ومنهم ابنُ دقيقِ العيدِ، فسمعَ كلامَ ابنِ تيميةَ، وقالَ لهُ بعدَ سماعِ كلامهِ: ما كنْتُ أظنُّ أنَّ اللهَ تعالى بقيَ يخلُقُ مثلكَ[١].

وسُئِلَ ابنُ دقيقِ العيدِ بعدَ انقضاءِ ذلك المجلسِ عن ابنِ تيميةَ فقالَ: هو رجلٌ حُفَظَةٌ، فقيلَ له: هلا تكلَّمْتَ معهُ؟ فقالَ: هو رجلٌ يحبُّ الكلامَ، وأنا أحبُّ السُّكوتَ[٢].

وقالَ ابنُ دقيق العيدِ أيضًا: لَمَّا اجتمعْتُ بابنِ تيميةَ رأيتُ رجلًا العلومُ كلُّها بين عينيهِ يأخذُ منها ما يريدُ، ويدعُ ما يريدُ[٣].

* * *

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣)، و«مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٨).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص١٣٥)، و«الرد الوافر» (ص٥٩).

(٣) انظر: «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٨)، و«مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٨)، و«الرد الوافر» (ص٥٩).

(٣)

ومنهم ابنُ الورديِّ(١)

زينُ الدِّينِ عمرُ، كانَ علَّامةً مُتفنِّنًا في العلومِ، ماهرًا في المنثورِ والمنظومِ، وله الأشعارُ الرَّائقةُ والمقاطيعُ الفائقةُ، وكانَ باهرًا في العربيَّةِ، درَّسَ وأعادَ وأفتى، وله مؤلَّفاتٌ مفيدةٌ منها: «البهجةُ نظمُ الحاوي الصَّغيرِ»(٢)، توفي بحلبَ سنةَ تسعٍ وأربعين وسبع مئةٍ.

قالَ في «رحلَتِهِ» لَمَّا ذكرَ علماءَ دمشقَ: وتركْتُ التَّعصُّبَ والحميةَ، وحضرْتُ مجالسَ ابنِ تيميةَ، فاذا هوَ بيتُ القصيدةِ(٣)، وأولُ الخريدةِ(٤)، علماءُ

(١) عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، القاضي الأجل، الإمام الفقيه، الأديب الشاعر، زين الدين ابن الوردي المعرِّي الشَّافعي، أحد فضلاء العصر وفقهائه، وأدبائه وشعرائه، تفنن في العلوم، وأجاد في المنثور والمنظوم، نظمه جيد إلى الغاية، وفضله بلغ النهاية، توفي بحلب بالطاعون، سنة (٧٤٩هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٣/ ٦٧٥)، و«طبقات الشافية الكبرى» للسبكي (١٠/ ٣٧٣).

(٢) «البهجة الوردية» أو «بهجة الحاوي» نظم «الحاوي الصغير»، والحاوي للشيخ نجم الدين عبد الغفار القزويني، خمسة آلاف بيت. انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٦٢٦)، و«معجم المطبوعات العربية» (١/ ٢٨٣).

(٣) (بيت القصيدة) يضرب مثلًا في تفضيل بعض الشيء على كله. انظر: «ثمار القلوب» للثعالبي (ص٦٥٩).

(٤) كذا في الأصل، والخريدة: الدرة التي لم تثقب، والبكر التي لم تمس، ولعل الصواب كما في بعض كتب الأدب: أول الجريدة، لأن من معاني الجريدة المجازية: الجيش لا رجَّالة فيه، فهي أنسب لأنَّها تدل على التَّصدُّر والسَّبق، وأوفق للسياق. انظر: «سحر البلاغة» للثعالبي (ص٦٨)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٣/ ٦٣٥)، و«معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (مادة: خرد)، و«تاج العروس» للزبيدي (مادة: جرد).

زمانِهِ فلكٌ هو قطبُهُ، وجسمٌ هو قلبُهُ، يزيدُ عليهم زيادةَ الشَّمسِ على البدرِ، والبحرِ على القَطرِ.

بحثتُ بين يديهِ يومًا، فأصبتُ المعنى، فكنَّاني، وقبَّل بينَ عيني اليُمنى، فقلْتُ:

إنَّ ابنَ تيميةٍ ... في كلِّ العلومِ أوحدْ

أحييْتَ دينَ أحمدٍ ... وشرعَه يا أحمدْ[١]

ورثاه بعدَ موتِه بقصيدةٍ يقولُ فيها:

قلوبُ النَّاسِ قاسِيةٌ سِلاطُ ... وليسَ لها إلى العَليا نشَاطُ[٢]

أينشَطُ قطُّ وفاةٍ حبرٌ ... لنا مِن نثرِ جوهَرِه التِقَاطُ

تَقيُّ الدِّينِ ذو وَرَعٍ وعلمٍ ... خُروقُ المعضِلاتِ بهِ تُخاطُ

قضَى نَحْبًا وليسَ له قَرينٌ ... ولا لنظِيرِه لُفَّ القِماطُ[٣]

فتىً في علمِه أضحَى فريدًا ... وحلُّ المشكلاتِ بهِ يُناطُ[٤]

وهي طويلةٌ، وقد ذكرتُها كلَّها مع مراثيَ عديدةٍ في كتابِ «المناقبِ» فيراجَع.

* * *

---

(١) انظر: «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٩).

(٢) كذا في الأصل، وجاء مطلع القصدية في «تاريخ ابن الوردي»:

عثا في عرضه قوم سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط

تقي الدين أحمد خير حبر ... خروف المعضلات به تخاط

(٣) القماط: الخرقة التي تلف على الصبي إذا شد في المهد. انظر: «المغرب» للمطرزي (مادة: قمط).

(٤) انظر: «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٥).

(٤)

ومنهم أبو حيَّانَ النَّحويُّ

وهو الشيخُ الإمامُ العلَّامةُ علَمُ القرَّاءِ، أستاذُ النُّحاةِ والأُدباءِ، جمالُ المفسِّرينَ، أثيرُ الدِّينِ، أبو حيَّانَ محمَّدُ بنُ يوسفَ بنِ عليِّ بنِ يوسفَ بن حيَّانَ الأندلسيُّ الجيَّانيُّ الغرناطيُّ ثم المصريُّ الظَّاهريُّ.

ولِدَ بأعمالِ غرناطةَ قاعدةِ بلادِ الأندلُسِ، في شوالٍ سنةَ أربعٍ وخمسِينَ وستِّ مئةٍ، وتوفِّيَ في صفرٍ سنةَ خمسٍ وأربعينَ وسبع مئةٍ، بعد أن أضرَّ في آخرِ عمُرِهِ.

قالَ القاضي الفاضلُ ابنُ فضلِ الله العمريُّ: ولَمَّا سافرَ ابنُ تيميةَ على البريدِ سنةَ سبع مئةٍ، وحضَّ أهلَ مصرَ على الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وأغلظَ في القولِ للسُّلطانِ والأمراءِ، ثم رُتِّبَ له في مدَّةِ مقامِهِ بالقاهرةِ في كلِّ يومٍ دينارٌ وتحفةٌ، وجاءتهُ بُقجَةُ قماشٍ، فلم يقبَلْ من ذلكَ شيئًا.

قالَ: وحضَرَ عندَهُ شيخُنا أبو حيَّانَ، وكانَ علَّامةَ وقتِهِ في النَّحوِ فقالَ: ما رأَتْ عينايَ مثلَ ابن تيميةَ، ثم مدَحهُ أبو حيَّانَ على البديهَةِ في المجلسِ فقالَ:

لَمَّا أَتَينا تقِيَّ الدِّينِ لاحَ لنا ... داعٍ إلى اللهِ فردٌ ما لَهُ وَزَرُ
على مُحيَّاهُ مِن سِيما الأُولى صَحِبوا ... خَيرَ البرِيَّةِ نورٌ دُونَه القمَرُ
حَبرٌ تسربَلَ منهُ دَهرُهُ حِبرًا ... بحرٌ تقاذَفَ مِنْ أمواجِهِ الدُّرَرُ
قامَ ابنُ تَيميَة في نصْرِ شِرعَتِنا ... مُقامَ سيِّدِ تَيمٍ[1] إذْ عَصتْ مُضَرُ

---

(١) سيد تيم: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، شبهه به في حربه ضد المرتدين. وانظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن الكلبي (ص١٥)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٦٩).

فأظهَـرَ الحــقَّ إذ آثــارُهُ درَسَــتْ وأخمَـدَ الشَّـرَّ إذ طـارَتْ لـهُ الشَّـرَرُ
كُنـا نُحـدَّثُ عـن حَبـرٍ يجـيءُ فهـا أنـتَ الإمـامُ الـذي قـدْ كانَ يُنتَظَـرُ

قالَ: ثم دارَ بينهُما كلامٌ فيه ذكرُ سيبويهِ، فقالَ ابنُ تيميةَ فيه كلامًا نافرَهُ عليهِ أبو حيَّانَ، وقطعَهُ بسببِه، ثم عادَ مِن أكثرِ النَّاسِ ذمًّا لهُ، واتَّخذَهُ له ذنبًا لا يُغفَرُ[1].

وقالَ الشَّيخُ زينُ الدِّينِ ابنُ رجبٍ في كتابِه: «الطَّبقاتِ» عن هذهِ الأبياتِ: ويقالُ: إنَّ أبا حيَّانَ لم يقُل أبياتًا خيرًا منها ولا أفحَلَ. انتهى[2].

وهذه القصَّةُ ذكرَها الحافظُ العلَّامةُ ابنُ كثيرٍ في «تاريخِهِ» وهي أنَّ أبا حيَّانَ تكلَّمَ معَ الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ ابنِ تيميةَ في مسألةٍ في النَّحوِ، فقطعَهُ ابنُ تيميةَ فيها وألزمَهُ الحجَّةَ، فذكرَ أبو حيَّانَ كلامَ سيبويهِ فقالَ ابنُ تيميةَ: يفشرُ سيبويهِ، أسيبويهِ نبيُّ النَّحوِ أرسلَهُ اللهُ به حتَّى يكونَ معصومًا؟! سيبويهِ أخطأَ في القرآنِ في ثمانين موضعًا لا تفهمُها أنتَ ولا هوَ.

قالَ: وكان ابنُ تيميةَ لا تأخذُهُ في الحقِّ لومةُ لائمٍ، وليسَ عندَهُ مداهنةٌ، وكان مادِحُه وذامُّه في الحقِّ عندَه سواءً[3].

***

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٨)، و«الرد الوافر» (ص٦٣)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ١٧٧). وانظر الأبيات في «ديوان أبي حيان» (ص٤٤٧).

(٢) انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٥٠٢).

(٣) لم أقف عليه في «البداية والنهاية» لابن كثير. وانظر: «الرد الوافر» (ص٦٥)، و«الدرر الكامنة» (١/ ١٧٨)، و«البدر الطالع» (١/ ٧٠).

(٥)

ومنهم ابنُ القيِّمِ(١)

وهو العلَّامةُ شمسُ الدِّينِ الحنبليُّ، أحدُ المحقِّقينَ، علَمُ المصنِّفينَ، نادرةُ المفسِّرينَ، أبو عبدِ اللهِ، محمَّد بن أبي بكرِ بنِ أيُّوبَ بنِ سعدِ بنِ حريزٍ الزُّرعيُّ الأصلِ(٢)، ثم الدِّمشقيُّ، ابنُ قيِّمِ الجوزيَّةِ، وتلميذُ ابنُ تيمية.

لـه التَّصانيـفُ الأنيقـةُ، والتآليفُ التـي في علومِ الشـريعةِ والحقيقةِ، ولدَ سـنةَ إحـدَى وتسـعينَ وسـتِّ مئـةٍ، وماتَ فـي رجبِ سـنةَ إحدَى وخمسـينَ وسـبعِ مئةٍ بدمشقَ.

وكان قد لازمَ ابنَ تيميةَ، وأخذَ عنه عِلمًا جمًّا، فكانَ ذا فنونٍ مِن العلومِ، صاحبَ إدراكٍ لسرائرِ المنطوقِ والمفهومِ، وبرعَ في علمِ الحديثِ بحيثُ انتهت إليهِ فيه الرِّئاسةُ.

قالَ الحافظُ أبو بكرٍ محمَّدُ ابن المحبِّ: قلْتُ لشيخِنا الحافظِ المزيِّ: ابنُ القيمِ في درجةِ ابنِ خزيمةَ؟ فقالَ: هو في هذا الزَّمانِ كابنِ خُزيمةَ في زمانِهِ(٣).

ومن مُصنَّفاتِه: «زادُ المعادِ في هدي خيرِ العبادِ» في أربعةِ مجلداتٍ، وكتابُ «سفرِ الهجرَتينِ وبابِ السَّعادَتينِ».

---

(١) انظر ترجمته في: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٨/ ٥٢٣)، و«أعيان العصر» للصفدي (٣/ ٣٦٦)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٥/ ١٣٧)، و«المقصد الأرشد» لابن مفلح (٢/ ٣٨٤).

(٢) الزُّرَعي: نسبة إلى قرية من قرى حوران، وتسمى حاليًّا: إزرع ـ والله أعلم ـ تتبع إداريًّا لمحافظة درعا، في سورية.

(٣) انظر: «الرد الوافر» (ص٦٨).

قالَ رحمَه اللهُ في ترجمتِه لابن تيميةَ: شيخُ الإسلامِ والمسلمينَ، القائمُ ببيانِ الحقِّ ونصرةِ الدِّينِ، الدَّاعي إلى اللهِ ورسولِه، المجاهدُ في سبيلِه، الذي أضحكَ اللهُ به مِن الدِّينِ ما كانَ عابسًا، وأحيا مِن السُّنَّةِ ما كانَ دارسًا، والنُّورُ الَّذي أطلعُه اللهُ في ليلِ الشُّبهاتِ فكشَفَ به غياهِبَ الظُّلماتِ، وفتحَ به مِن القلوبِ مُقفلَها، وأزاحَ به عن النُّفوسِ عِلَلها، فقمَعَ به زيغَ الزَّائغينَ، وشكَّ الشاكِّينَ، وانتحالَ المبطِلينَ، وصدقَتْ بِهِ بشارةُ رسولِ ربِّ العالمينَ، يقولُ: «إنَّ اللهَ يبعثُ لهذهِ الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَنْ يجدِّد لها دينَها»[1]. وبقولِهِ: «يحمِلُ هذا العلمَ مِن كلِّ خلفٍ عُدولُه، ينفُونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المبطِلينَ»[2].

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن وضاح في «البدع» (١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٥٦) مرسلاً من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري. وقال العقيلي: فيه معان بن رفاعة السلامي، ولا يعرف إلا به وقد رواه قومًا مرفوعًا من جهة لا تثبت.

ورواه ابن وضاح في «البدع» (٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٩١١) من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري عن ثقة عنده من أشياخه.

ورواه تمام في «فوائده» (٨٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه البزار في «مسنده» (٩٤٢٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٩) من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال البزار: وخالد بن عمرو هذا منكر الحديث قد حدث بأحاديث عن الثوري وغيره لم يتابع عليها وهذا مما لم يتابع عليه وإنما ذكرناه لنبين العلة فيه.

ورواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٨٨٤) (١٠/ ١٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

ورواه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

=

وهو الشَّيخُ العلَّامةُ، الزَّاهدُ العابدُ، الخاشعُ النَّاسكُ، الحافظُ المتَّبِعُ، تقيُّ الدِّينِ أبو العبَّاسِ أحمدُ ابنُ الشَّيخِ الإمامِ العلَّامةِ شيخِ الإسلامِ أبي المحاسنِ عبدِ الحليمِ بن شيخِ الإسلامِ ومفتي الفرَقِ علامةِ الدُّنيا مجدِ الدِّينِ عبدِ السَّلامِ بنِ الشَّيخِ الإمامِ العلَّامةِ الكبيرِ شيخِ الإسلامِ فخرِ الدِّينِ عبدِ اللهِ بن أبي القاسمِ بن محمَّدِ ابنِ تيميةَ الحرانيُّ، قدَّسَ اللهُ روحَه، ونوَّرَ ضريحَهُ[1].

قالَ ابنُ القيِّمِ: وسمعْتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ يقولُ: إنَّ في الدُّنيا جنَّةً مَن لم يدخُلْها لم يدخُل جنَّةَ الآخرة[2].

وكانَ يقولُ: بالصَّبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ[3].

وكان يقولُ: لا بدَّ للسَّالكِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ همَّةٍ تسيِّره وترقِّيه، وعلمٍ يبصِّرُه ويهديه[4].

وقال: العارفُ يسيرُ بينَ مشاهدةِ المِنَّةِ ومُطالعةِ عيبِ النَّفسِ[5].

= قال القسطلاني في «إرشاد الساري» (١/ ٤): وهذا الحديث رواه من الصحابة علي وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وابن عباس وجابر بن سمرة ومعاذ وأبو هريرة رضي الله عنهم، وأورده ابن عدي من طرق كثيرة كلها ضعيفة، كما صرّح به الدارقطني وأبو نعيم وابن عبد البرّ، لكن يمكن أن يتقوّى بتعدد طرقه ويكون حسنًا كما جزم به ابن كيكلدي العلائي. وانظر: «بغية الملتمس» للعلائي (١/ ٣٤).

(١) انظر: «الرد الوافر» (ص٦٧).

(٢) انظر: «الوابل الصيب» (ص٤٨)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٥٢) كلاهما لابن القيم.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١٥٣).

(٤) انظر: «الرد الوافر» (ص٦٩)، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٤٦).

(٥) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص٧).

وكانَ يتمثَّلُ كثيرًا:

عوَى الذِّئْبُ فاستأنسْتُ بالذِّئْبِ إذْ عوَى ... وصـوَّتَ إنسـانٌ فكِـدْتُ أطيـرُ[1]

وكانَ يتمثَّلُ أيضاً:

وأخـرُجُ مِـنْ بيـنِ البيـوتِ لعلَّنـي ... أُحـدِّثُ عنكِ النَّفسَ في السِّـرِّ خالِيا[2]

***

(١) البيت للأحيمر السعدي. انظر: «الحماسة الصغرى» لأبي تمام (ص٣٤)، و«الحيوان» للجاحظ (١/ ٢٥١)، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢/ ٧٧٤).

(٢) البيت لمجنون ليلى، كما في «ديوانه» (ص٢٩٤).

(٦)

ومنهُم ابنُ الزَّملكانيِّ[١]

وهـو الشـيخُ الإمـامُ العلامةُ قاضـي القضاةِ جمـالُ المناظريـنَ، كمـالُ الدِّينِ أبـو المعالـي محمَّـدُ بن أبي الحسـنِ علـيِّ بنِ عبـدِ الواحـدِ ابـنِ خطيـبِ زَمَلْكا[٢] الأنصاريُّ الشَّـافعيُّ.

أخذَ النَّحوَ عنِ ابنِ مالكٍ، والفقهَ عنِ الشَّيخِ تاجِ الدِّينِ بن عبد الرَّحمنِ، والأصولَ عن قاضي القضاةِ بهاءِ الدِّينِ ابن الزَّكيِّ.

وكانَ كثيرَ الفَضْلِ، سريعَ الإدراكِ، يتوقَّدُ ذكاءً وفِطنةً، وأجمعَ النَّاسُ على فضلِهِ، وانتهَت إليه رئاسةُ المذهبِ في عصرِه، وتولَّى قضاءَ حلبَ، وأقامَ بها إلى أن طُلِبَ إلى مصرَ ليتولَّى قضاءَ دمشقَ، فماتَ بمدينةِ بلبيسَ[٣] في رمضانَ سنةَ سبعٍ وعشرينَ وسبع مئةٍ، وحُمِلَ إلى القَرَافةِ، ودُفنَ بجوارِ قُبَّةِ الإمامِ الشَّافعيِّ، وكان مولدُهُ في شوالٍ سنةَ ستٍّ أو سبعٍ وستينَ وست مئةٍ.

تولَّى مناظرةَ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ غيرَ ما مرَّةٍ، ومعَ ذلك كانَ يعترِفُ بإمامَتِه ولا ينكِرُ فضلَهُ.

---

(١) محمد بن علي بن عبد الواحد ابن خطيب زملكا، كمال الدِّين، أبو المعالي الأنصاري السَّمَّاكي الزَّمَلْكاني، قاضي القضاة بحلب، شيخ الشافعية في عصره، توفي سنة (٧٢٧هـ). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٢٤٦)، و«أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٦٢٤).

(٢) زملكا: قرية في غوطة دمشق الشرقية. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ١٥٠).

(٣) بلبيس: مدينة قديمة، تتبع حاليًا لمحافظة الشَّرقيَّة في مصر. انظر: «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» لمحمد رمزي (٢/ ٢٣)

قالَ مرَّةً عن الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ: كانَ إذا سُئِلَ عن فنٍّ مِن العلمِ ظنَّ الرَّائي والسَّامعُ أنَّه لا يعرِفُ غيرَ ذلكَ الفنِّ، وحكمَ أن أحدًا لا يعرِفُ مثلَهُ[1].

وقالَ الحافظُ ابنُ رجبٍ في «طبقاتِه»: وبلغَني من طريقٍ صحيحٍ عن ابنِ الزملكانيِّ أنَّه سُئِلَ عن الشَّيخِ ـ يعني: ابنَ تيميةَ ـ فقالَ: لم يُرَ مِنْ خمس مِئةِ سنةٍ ـ أو قالَ: أربع مِئةِ سنةٍ الشَّكُّ مِن النَّاقلِ وغالبُ ظنِّهِ أنَّه قالَ: مِن خمس مِئةِ سنةٍ ـ أحفَظ منهُ. انتهى[2].

وقالَ ابنُ الزَّملكانيِّ أيضًا: لقد أُعطِيَ ابنُ تيميةَ اليدَ الطُّولى في حسنِ التَّصنيفِ، وجودَةِ العبارةِ، والتَّرتيبِ والتَّقسيمِ والتَّبيينِ، وقد ألانَ اللهُ له العلومَ كما ألانَ الحديدَ لداودَ، كان إذا سئلَ عن فنٍّ من العلمِ ظنَّ الرائي والسامعُ أنه لا يعرِفُ غيرَ ذلكَ الفنِّ، وحكمَ أن أحدًا لا يعرفُ مثلَهُ، وكانَ الفُقهاءُ من سائرِ الطوائفِ إذا جلسُوا معه استفادوا في مذهَبِهم منهُ ما لم يكُونوا عرفوه قبلَ ذلكَ، ولا يُعرَفُ أنه ناظرَ أحدًا فانقطَعَ معهُ، ولا تكلَّمَ في علمٍ من العلومِ سواءٌ كان من علومِ الشَّرعِ أم من غيرِها إلَّا فاقَ فيه أهلَه والمنتسِبينَ إليهِ[3].

وقد رويَ واشتهرَ، وذكِرَ وانتشَرَ ما كتبَهُ الشيخُ كمالُ الدِّينِ ابنُ الزَّملكانيِّ على «كتابِ بيانِ الدَّليلِ على بطلانِ التَّحليلِ» تأليفِ ابن تيميةَ، هو ما نصُّهُ: مِنْ مصنَّفاتِ سيِّدِنا وشيخِنا وقُدوَتِنا، الشَّيخِ الإمامِ، العالمِ العلَّامةِ، الأوحدِ البارعِ الحافظِ، الزَّاهدِ الورعِ القُدوةِ، الكاملِ العارفِ، تقيِّ الدِّينِ، شيخِ الإسلامِ، سيِّدِ العُلماءِ، قُدوةِ الأئمَّةِ

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣)، و«الرد الوافر» (ص٥٦)، و«شذرات الذهب» (٨/ ١٤٤).

(٢) انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٩٣).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٩)، و«مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٧)، و«الرد الوافر» (ص٥٨).

الفضلاءِ، ناصرِ السُّنَّةِ وقامعِ البدعةِ، حجَّةِ اللهِ على العبادِ، رادِّ أهلِ الزَّيغِ والعِنادِ، أوحدِ العلماءِ العاملينَ، آخرِ المجتهدينَ، أبي العبَّاسِ، أحمدَ بنِ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أبي القاسمِ بن محمَّدٍ، ابن تيميةَ الحرَّانيِّ، حفِظَ اللهُ على المسلمينَ طولَ حياتِه، وأعادَ عليهم من بركاتِه إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ[1].

وكتبَ ابنُ الزملكاني أيضاً بخطِه على «كتابِ رفعِ المَلامِ عنِ الأئمَّةِ الأعلامِ» ما نصُّه: تأليفُ الشَّيخِ الإمامِ، العلَّامةِ الأوحدِ، الحافظِ المجتهدِ، الزَّاهدِ العابدِ القدوةِ، إمامِ الأئمَّةِ، قدوةِ الأمَّةِ، علَّامةِ العلماءِ، وارثِ الأنبياءِ، آخرِ المجتهدِينَ، أوحدِ علماءِ الدِّينِ، بركةِ الإسلامِ، حجَّةِ الأعلامِ، برهانِ المتكلِّمينَ، قامعِ المبتدعِينَ، محيي السُّنَّةِ، ومَنْ عظُمَتْ بنفعِه علينا المنَّةُ، وقامَتْ به على أعدائِهِ الحجَّةُ، واستبانَتْ ببركَتِه وهديِه المحجَّةُ، تقيِّ الدِّينِ، أبي العبَّاسِ، أحمدَ بن عبدِ الحليمِ بن عبدِ السَّلام ابنِ تيميةَ، أعلى اللهُ منارَه، وشيَّدَ مِنَ الدِّينِ أركانَهُ.

ثم قالَ:

ماذا يقولُ الواصِفُونَ لهُ ... وصِفاتُه جلَّتْ عنِ الحَصْرِ
هو حجَّةُ اللهِ قاهرةٌ ... هو بيننا أُعجوبَةُ الدَّهْرِ
هو آيةٌ في الخَلْقِ ظاهرَةٌ ... أنوارُها أربَتْ على الفَجرِ[2]

* * *

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٤)، و«الرد الوافر» (ص٥٧)، وذكر محققه الشيخ زهير شاويش أنه رأى خط ابن الزملكاني بتقريظ الكتاب المذكور.

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٥)، و«تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٨)، و«الرد الوافر» (ص٥٧).

(٧)

ومنهم الحافظُ الذَّهبيُّ

وهو الشَّيخُ الإمامُ، الحافِظُ الهُمامُ، مفيدُ الشَّامِ، ومؤرِّخُ الإسلامِ، ناقدُ المحدِّثينَ، وإمامُ المعدِّلينَ والمجرِّحينَ، إمامُ أهل التَّعديلِ والجرحِ، والمعتمَدُ عليهِ في المدحِ والقدحِ، شمسُ الدِّينِ، أبو عبدِ اللهِ، محمَّدُ بنُ أحمدَ بن عثمانَ التُّركمانيُّ، الفارِقيُّ الأصلِ، ثم الدمشقيُّ.

ولدَ سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ وستِّ مئةٍ، وماتَ بدمشقَ سنةَ ثمانٍ وأربعينَ وسبعِ مئةٍ، ومشيَختُه بالسَّماعِ والإجازةِ نحوُ ألفِ شيخٍ وثلاث مئةٍ، يجمَعُهم «معجَمُه الكبيرُ»(١).

وكان آيةً في نقدِ الرِّجالِ، عُمدةً في الجرحِ والتَّعديلِ، عالمًا بالتَّفريعِ والتَّأصيلِ، إمامًا في القراءاتِ، فقيهًا في النَّظريَّاتِ، له دُرْبةٌ بمذاهبِ الأئمَّةِ وأربابِ المقالاتِ، قائمًا بينَ الخلفِ بنشرِ السُّنَّةِ ومذهَبِ السَّلفِ.

ومن كلامِه رحمَهُ اللهُ:

الفقــهُ قــالَ اللهُ قــالَ رســولُــهُ ... إن صــحَّ والإجمــاعُ فاجهَــد فيــهِ

وحـذارِ مِـنْ نَصْـبِ الخِـلافِ جَهالةً ... بيــنَ النَّبــيِّ وبيــنَ رأيِ فقِيـهِ(٢)

---

(١) صنَّف الذَّهبيُّ «المعجم الكبير» وذكر فيه أسماء شيوخه، وقال في مقدمته: «أمَّا بعد فهذا معجم العبد المسكين محمد بن أحمد بن عثمان...» إلى أن قالَ: «يشتمل على ذكر من لقيته أو كتب إلي بالإجازة في الصِّغر، وعلى كثير من المجيزين لي في الكبر، ولم أستوعبهم، وربما أجاز لي الرَّجل ولم أشعر به، بخلاف ما سمعته منه فإني أعرفه».

(٢) انظر: «الرد الوافر» (ص٣١)، و«الوافي بالوفيات» (٢/ ١١١٦).

ولـه المؤلَّفـاتُ المفيـدَةُ، والمصنَّفاتُ السَّـديدةُ، منهـا: «تاريخُ الإسـلامِ» في عشـرينَ مُجلَّـدًا، و«سـيرُ النُّبلاءِ» في عشـرينَ مجلَّـدًا، و«ميـزانُ الاعتـدالِ في نقدِ الرِّجـالِ» وغيـرُ ذلكَ.

وهو الَّذي قالَ فيهِ بعضُ العلماءِ الأعلامِ عندَ اجتماعِه بِهِ بدمشقَ والشَّامِ:

مـا زِلْتُ بالسَّـمْعِ أهواكُمْ وما ذُكِرَتْ ... أخبـارُكـم قـطُّ إلَّا مِلْـتُ مِنْ طَرَبِ

وليـسَ مِـنْ عَجَـبٍ أنْ مِلْـتُ نحوَكُمُ ... فالنَّاسُ بالطَّبْـعِ قَدْ مالُوا إلـى الذَّهَبِ[1]

وقـد ترجَـمَ الذَّهبـيُّ هذا ابـنَ تيميةَ في عـدَّةِ مواضعَ، وأثنـى عليهِ ثناءً حسـنًا؛ فقـالَ فـي كتابةِ طبقَةِ[2] سـماعِ «كتـابِ رفعِ الملامِ عـن الأئمَّةِ الأعلامِ»: سَـمِعَ هذا الكتـابَ علـى مؤلِّفِه شـيخِنا الإمـامِ العالـمِ العلَّامةِ الأوحَدِ، شـيخِ الاسـلامِ، مُفتي الفِـرقِ قُـدوةِ الأمَّـةِ، أعجوبَةِ الزَّمـانِ، بحرِ العلـومِ، حَبرِ القـرآنِ، تقيِّ الدِّينِ، سـيِّدِ العُبَـادِ، أبـي العبَّـاسِ، أحمـدَ بـنِ عبـدِ الحليمِ بنِ عبـدِ السَّـلامِ ابنِ تيميـةَ رضي الله عنـهُ، وذكرَ بقيَّـةَ الطَّبَقَةِ[3].

وكتـبَ الذَّهبـيُّ أيضًـا تحـتَ خـطِّ الشَّـيخِ تقـيِّ الدِّيـنِ ابـنِ تيميـةَ: هـذا خطُّ شـيخِنا الإمـامِ، شـيخِ الإسـلامِ، فَردِ الزَّمـانِ، بحـرِ العلومِ، تقـيِّ الدِّينِ، قـرأ القرآنَ

---

(١) قائل البيتين هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الموصلي الأُطْرابلسي الشافعي، لما قدم دمشق متوجها إلى الحج سنة (٧٣٤هـ). انظر: «الرد الوافر» (ص٣٢)، و«شذرات الذهب» (٨/ ٤٠٦).

(٢) الطبقة والطباق: ما يكتب في أول الكتاب أو آخره من تقييد السماع، وتاريخه، والإجازة، وما يتبع ذلك. انظر: «فتح المغيث» للسخاوي (٣/ ١١٤)، و«تدريب الراوي» للسيوطي (١/ ٤٤٣).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٥)، و«الرد الوافر» (ص٣٣).

والفقهَ، وناظرَ واستدَلَّ وهو دونَ البلوغِ، برعَ في العلمِ والتَّفسيرِ، وأفتى ودرَّسَ وله نحوُ العشرينَ، وصنَّفَ التَّصانيفَ، وصارَ مِنْ أكابرِ العُلماءِ في حياةِ شُيوخِه، وله المصنَّفاتُ الكِبارُ الَّتي سارَت بها الرُّكبانُ، ولعلَّ تصانِيفَه في هذا الوقتِ تكونُ أربعةَ آلافِ كُرَّاسٍ وأكثرَ.

وفسَّرَ كتابَ اللهِ تعالى مدَّةَ سنينَ مِنْ صَدرِه في أيَّامِ الجُمَعِ، وكان يتوقَّدُ ذكاءً، وسماعاتُه مِنَ الحديثِ كثيرةٌ، وشيوخُه أكثرُ مِنْ مِئتي شيخٍ، ومعرِفَتُه بالتَّفسيرِ إليها الـمُنْتَهى، وحفظُه للحديثِ ورجالِه وصحَّتِه وسُقمِه فما يُلحَقُ فيه.

وأمَّا نقلُهُ للفقهِ ومذاهبِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ فضلًا عن المذاهبِ الأربعةِ فليسَ له فيه نظيرٌ، وأمَّا معرِفَتُه بالمِلَلِ والنِّحَلِ والأصولِ والكلامِ فلا أعلَمُ له فيه نظيرًا، ويَدرِي جُمْلةً صالحةً مِنَ اللُّغةِ، وعربيتُهِ قويَّة جدًّا، ومعرِفَتُه بالتَّاريخِ والسِّيَرِ فعجَبٌ عجيبٌ.

وأمَّا شجاعَتُه وجِهادُه وإقدامُه فأمرٌ يتجاوَزُ الوصفَ ويفوقُ النَّعْتَ.

وهو أحدُ الأجوادِ الأسخياءِ الَّذينَ يُضرَبُ بهم المثلُ، وفيه زهدٌ وقناعةٌ باليسيرِ في المأكلِ والمشربِ، انتهى(١).

وقالَ الذَّهبيُّ أيضًا في ترجمةِ ابنِ تيميةَ: وله باعٌ طويلٌ في معرفةِ مذاهبِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وقلَّ أنْ يتكلَّمَ في مسألةٍ إلَّا ويذكُرُ فيها مذاهبَ الأربعةِ، وقد خالفَ الأربعةَ في مسائلَ معروفةٍ، وصنَّفَ فيها واحتجَّ لها بالكتابِ والسُّنَّةِ.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٩)، و«الرد الوافر» (ص٣٣)، و«الدرر الكامنة» (١/ ١٨٥).

ولَمَّا كانَ مُعتقلًا بالإسكندريَّةِ[1] التمسَ منهُ صاحِبُ سَبْتَةَ[2] أن يجيزَ له مرويَّاتِهِ، وينصَّ على أسماءِ جملةٍ منها، فكتبَ في عشرِ ورَقاتٍ جملةً مِنْ ذلكَ بأسانيدِها مِنْ حِفْظِهِ، بحيثُ يعجزُ أنْ يعمَلَ بعضَهُ أكبرُ محدِّثٍ يكونُ[3].

وله خِبرةٌ تامَّةٌ بالرجالِ وجرحِهم وتعديلِهم وطبقاتِهم، ومعرفَةٌ بفنونِ الحديثِ، وبالعالي والنَّازلِ، وبالصَّحيحِ والسَّقيمِ، معَ حفظِهِ لمتونِه، فلا يبلُغُ أحدٌ في العصرِ رُتبتَهُ ولا يُقارِبُه، وهو عجبٌ في استحضارِ واستخراجِ الحُجَجِ منهُ، وإليهِ المنتَهى في عزوِه إلى الكتبِ السِّتَّةِ والمسنَدِ، بحيثُ يصدُقُ عليهِ أن يُقالَ: كلُّ حديثٍ لا يعرفُه ابنُ تيميةَ فليسَ بحديثٍ، ولكن الإحاطةَ للهِ، غيرَ أنه يغترِفُ مِن بحرٍ، وغيرُه مِن الأئمَّةِ يغترِفُونَ مِن السَّواقي.

ولـه الآنَ عـدَّةُ سـنينَ لا يُفتـي بمذهبٍ معيـنٍ، بل بما قـامَ الدَّليلُ عليـهِ عندَه، ولقـد نصـرَ السُّـنَّةَ المحضـةَ، والطَّريقـةَ السـلفيَّةَ، واحتـجَّ لهـا ببراهيـنَ ومُقدِّماتٍ

---

(١) ابتدأ سجن شيخ الإسلام بالإسكندرية سنة (٧٠٩هـ) شهر صفر، وأقام فيه ثمانية أشهر. انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٥٦).

(٢) سبتة: بفتح السين وقيل: بكسرها، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس، والبحر يحيط بسبتة من جميع جهاتها إلا من جهة الغرب. وحاليًا تقع سبتة أقصى شمال المغرب العربي مقابل جبل طارق، وهي مدينة مغربية تحتلها إسبانيا، وهي ذاتية الحكم. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ١٨٢)، و«أطلس التاريخ الإسلامي» لشوقي أبو خليل (ص٨٥)، و«مدن وشعوب إسلامية» لحسان حلاق (ص١٤٢).

وغالب الظن أن صاحب سبتة في ذلك الوقت: يحيى بن أبي طالب، الذي عقد له على سبتة سلطان بني مرين أبو الربيع بعد أن سيطر عليها قائد جيوشه تاشفين بن يعقوب الوطاسي من بني الأحمر، سنة (٧٠٩هـ). انظر: «تاريخ ابن خلدون» (٧/ ٣١٧، ٣٢٦).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص١٣٢ ـ ١٣٣)، و«الرد الوافر» (ص٣٤)، و«الدرر الكامنة» (١/ ١٨٥).

وأمـورٍ لـم يسبَقِ إليها، وأطلَـقَ عباراتٍ أحجَـمَ عنها الأوَّلُـونَ والآخِـرُونَ، وهابوا وجسَرَ عليهـا، حتَّـى قامَ عليـه خلقٌ مِن علمـاءِ مصرَ والشَّـامِ قيامًا لا مزيـدَ عليهِ، وبدَّعـوهُ وناظـرُوهُ وكاتَبُـوه[1]، وهـو ثابـتٌ لا يُداهِـنُ ولا يحابـي، بل يقـولُ الحقَّ المـرَّ الَّـذي أداهُ إليـه اجتهـادُهُ، وحِـدَّةُ ذهنِـهِ، وسَـعةِ دائرَتِـه فـي السُّـنَنِ والأقوالِ، مـعَ مـا اشـتُهِرَ منـه مِـن الـورَعِ، وكمـالِ الفكـرِ، وسَـعةِ الإدراكِ، والخـوفِ مِن الله العظيـمِ، والتَّعظيمِ لحرمـاتِ اللهِ.

فجرى بينَهُ وبينَهم حملاتٌ حربيَّةٌ، ووقعاتٌ شاميَّةٌ ومصريَّةٌ، وكم من نوبةٍ قد رمَوه عن قوسٍ واحدٍ فينجِّيهِ اللهُ تعالى، فإنَّه دائمُ الابتهالِ، كثيرُ الاستغاثةِ، قويُّ التَّوكُّلِ، ثابتُ الجأشِ، له أورادٌ وأذكارٌ يدمِنُها بكيفيَّةٍ وجمعيَّةٍ.

ولـه مِـن الطَّـرفِ الآخـرِ محبُّـونَ مِـن العلمـاءِ والصُّلحـاءِ، ومِـن الجنـدِ والأمـراءِ، ومِـن التجَّـارِ والكُبَـراءِ، وسـائرُ العامَّةِ تحبُّـه لأنَّـهُ مُنتَصِـبٌ لنفعهم ليلًا ونهـارًا بلسـانِه وقلمِـه.

وأمَّـا شـجاعتُه فبهـا تُضْـرَبُ الأمثـالُ، وببعضِهـا يتشـبَّهُ أكابـرُ الأبطـالِ، فلقَد أقامَـهُ اللهُ فـي نوبـةِ غـازانَ[2]، والتقَـى أعبـاءَ الأمـرِ بنفسِـهِ، وقـامَ وقعَـدَ، وطلـعَ

---

(١) كذا في الأصل وفي «الرد الوافر»: «وكاتبوه»، وفي «الدرة اليتيمية»، و«العقود الدرية»، و«تاريخ ابن الوردي»، و«ذيل طبقات الحنابلة»: «وكابروه».

(٢) غازان: أو قازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكيزخان، واسمه بالعربي محمود، أحد ملوك التتار، غزا بلاد الشام، وأسلم سنة (٦٩٤هـ)، وهزم في وقعة شقحب قرب دمشق، ومات على إثرها سنة (٧٠٣هـ). انظر: «العبر» (٤/ ٨)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٦٩٠)، و«فوات الوفيات» لابن شاكر (٤/ ٩٧)، و«أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٨ ـ ١٣).

وخرجَ، واجتمعَ بالملكِ مرَّتينِ، وبخطلوشاه[١]، وببولايَ[٢]، وكانَ قَبْجَقُ[٣] يتعجَّبُ من إقدامِهِ وجُرأتِه على المغولِ.

وله حِدَّةٌ قويةٌ تعتريهِ في البحثِ حتَّى كأنَّه ليثُ حربٍ، وهو أكبرُ مِنْ أن ينبِّهَ مثلي على نعوتِه، فلو حلفتُ بينَ الرُّكنِ والمقامِ لحلَفتُ أنِّي ما رأيْتُ بعينيَّ مثلَهُ، ولا رأى هو مثلَ نفسِه في العلمِ[٤].

وقالَ الذَّهبيُّ أيضًا: وكانَ ـ يعني ابنَ تيميةَ ـ آيةً من الذكاءِ وسرعةِ الإدراكِ، رأسًا في معرفةِ الكتابِ والسُّنَّةِ والاختلافِ، بحرًا في النَّقليَّاتِ، هو في زمانِه فريدُ عصرِهِ علمًا وزهدًا وشجاعةً وسخاءً، وأمرًا بالمعروفِ ونهيًا عن المنكرِ، وكثرةَ تصانيفَ.

وقرأَ وحصَّلَ وبَرَعَ في الحديثِ والفقهِ، وتأهَّلَ للتَّدريسِ والفتوى وهو ابنُ سبعَ

---

(١) خطلوشاه: أو قطلوشاه، نائب قازان، كان كافرًا داهية، فعل بدمشق الأفاعيل، ثم كان مقدمهم في وقعة شقحب فعاد مكسورًا، ثم جهزه غازان إلى كيلان ففتكوا به وقتلوه سنة (٧٠٧هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٣٢١)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٢/ ٢٠٥).

(٢) بولاي النوين: من أمراء التتار، الذين قدموا مع غازان، خرج إليه ابن تيمية واستوهبه بعض الأسرى فأطلقهم. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٧١)، و«تاريخ ابن خلدون» (٥/ ٤٧٤).

(٣) قبجق: الأمير الكبير سيف الدين نائب دمشق وحماة وحلب، كان بطلاً شجاعًا عارفًا جيد الرأي قليل الطمع والظلم، توفي بحلب وهو نائبها سنة (٧١٠هـ)، ونقل إلى حماة ودفن في تربتة المشهورة بها. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٦١ ـ ٦٥)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤).

(٤) انظر: «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» للذهبي (ص٤٢ ـ ٤٤). وانظر: «العقود الدرية» (ص١٣٢ ـ ١٣٣)، و«تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٨)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٠٦)، و«الرد الوافر» (ص٣٤).

عشرةَ، وتقدَّمَ في علمِ التَّفسيرِ والأصولِ، وجميعِ علومِ الإسلامِ أصولِها وفروعِها، ودِقِّها وجُلِّها، فإنْ ذُكِرَ التَّفسيرُ فهو حامِلُ لوائِه، وإنْ عدَّ الفقهاءُ فهو مجتهِدُهم المطلَقُ، وإنْ حضرَ الحفَّاظُ نطَقَ وخرسُوا، وسرَدَ وأبلَسُوا، واستَغنى وأفلَسُوا، وإنْ سُمِّيَ المتكلِّمونَ فهو فردُهم وإليهِ مرجِعُهم، وإنْ لاحَ ابن سينا يقدُمُ الفلاسِفةَ فلَّسهَم وهتكَ أستارَهم وكشَفَ عُوارَهم.

وله يدٌ طولى في معرفةِ العربيَّةِ والصَّرفِ واللُّغةِ، وهو أعظَمُ مِنْ أن تصِفَه كَلِمِي، وينبِّهَ على شأوِهِ قلمِي، فإنَّ سيرَتهُ وعلومَهُ ومعارِفَه ومحَنه وتنقُّلاتِه يُحتمَلُ أن توضَعَ في مجلَّدينِ.

فاللهُ تعالى يغفِرُ له ويسكِنُه أعلَى جنَّتِه، فإنَّه كانَ ربانيَّ الأمَّةِ، وفريدَ الزَّمانِ، وحامِلَ لواءِ الشَّريعةِ، وصاحبَ مُعضلاتِ المسلمينَ، رأسًا في العلمِ، يُبالغُ في أمرِ قيامِه بالحقِّ والجهادِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكَرِ مُبالغةً ما رأيتُها ولا شاهدتُها مِن أحدٍ، ولا لحِظتُها مِن فقيهٍ[١].

وقالَ الذَّهبيُّ أيضًا: جُمِعَتْ مصنَّفاتُ شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ ابنِ تيميةَ فوُجِدَتْ ألفَ مُصنَّفٍ، ثم رأيْتُ له أيضًا مُصنَّفاتٍ أُخَرَ[٢].

وتراجمُ الذَّهبيِّ لابنِ تيميةَ أشهرُ مِن أنْ تُذكرَ، وأكثرُ مِنْ تحصَرَ رحمه اللهُ تعالى.

ورثاهُ الذَّهبيُّ بعدَ موتِه بقولِه:

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٩ـ ٤٠).

(٢) انظر: «الرد الوافر» (ص٣٥).

يا مَوتُ خُذ مَنْ أردْتَ أو فدَعِ ... محوْتَ رسمَ العلُومِ والورَعِ

أخذْتَ شيخَ الإسلامِ وانفصَمَتْ ... عُرَى التُّقَى واشتفَى أُلوا البِدَعِ

غَيَّبْتَ بحرًا مُفسِّرًا جبَلًا ... حَبرًا تَقيًّا مجانِبَ الشِّبَعِ

فإنْ تحدَّثَ فمُسلمٌ ثقةٌ ... وإنْ يُناظِرْ فصاحِبُ اللُّمَعِ

وإن يخُضْ نحوَ سيبويهِ يَفُهْ ... بكُلِّ مَعنى مِنَ الفَنِّ مختَرَعِ

وصارَ عاليَ الإسنَادِ حافِظَهُ ... كشُعبةَ أو سَعيدٍ الضُّبَعِي

والفِقهُ فيهِ فكانَ مجتَهِدًا ... وذا جِهادٍ عارٍ مِنَ الجَزَعِ

وجودُه الحاتِميُّ مُشتَهرٌ ... وزهدُهُ القادِريُّ في الطَّمَعِ

أسكنَهُ اللهُ في الجِنانِ ولا ... زالَ عَلِيًّا في أجمَلِ الخُلَعِ

معَ مالكٍ والإمامِ أحمدَ والنُّـ ... ـعمانَ والشَّافِعيِّ والخُلَعِي[1]

مضَى ابنُ تيميةٍ وموعِدُهُ ... معَ خَصمِهِ يومَ نَفخَةِ الفزَعِ[2]

***

---

(١) كذا في الأصل، وفي «العقود الدرية»: «والنخعي».

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٤٤٩ ـ ٥٠٠)، و«الرد الوافر» (ص٣٥ ـ ٣٦).

(٨)

ومنهم الحافظُ المِزِّيُّ

وهو الشَّيخُ الإمامُ، حافظُ الإسلامِ، محدِّثُ الأعلامِ، الحبرُ النَّبيلُ، أستاذُ أئمَّةِ الجرحِ والتَّعديلِ، شيخُ المحدِّثينَ، جمالُ الدِّينِ، أبو الحَجَّاجِ، يوسفُ القُضاعيُّ، ثم الكلبيُّ الحلبيُّ الدِّمشقيُّ، ثم المزِّيُّ الشَّافعيُّ.

ولدَ بظاهِرِ حلبَ سنةَ أربعٍ وخمسينَ وستِّ مئةٍ، ونشأَ بالـمِزَّةِ[١].

وسمِعَ الكثيرَ مِنَ الكتبِ الطِّوالِ والقصارِ، والأجزاءِ الكبارِ وغيرِ الكبارِ، ورحَلَ إلى عدَّةٍ مِن الأمصارِ.

وصنَّفَ «كتابَ التَّهذيبِ»[٢]، و«كتابَ الأطرافِ»[٣]، وخرَّجَ لغيرِ واحدٍ التَّخاريجَ المطوَّلةَ واللِّطافَ.

وكانَ غزيرَ العِلمِ ثقةً حجَّةً، حسَنَ الأخلاقِ، صادقَ اللَّهجَةِ.

---

(١) المزة: قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٥/ ١٢٢). وهي اليوم منطقة كبيرة في الجهة الغربية الجنوبية لدمشق تحوي عدَّة أحياء.

(٢) وهو «كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، ترجم فيه لرجال الكتب الستة ولواحقها، وهو تهذيب وإكمال لكتاب «الكمال» لعبد الغني المقدسي الذي جمع رجال الكتب الستة إلا أنه أهمل كثيرًا من الرجال فلم يذكرهم، وزاد عليه بحيث غدا «التهذيب» ثلاثة أضعاف «الكمال». وللمزيد انظر: مقدمة التحقيق لـ«تهذيب الكمال» لبشار عواد معروف (١/ ٣٧ ـ ٥١)».

(٣) واسمه: «تحفة الاشراف بمعرفة الأطراف» جمع أحاديث الكتب الستة ولواحقها (وهي: مقدمة صحيح مسلم، والمراسيل لأبي داود، والعلل، والشمائل كلاهما للترمذي، وعمل اليوم والليلة للنسائي) بطريقة تسهل على المرء معرفة طرق الحديث الواحد وأسانيده، لذا جعله مرتبًا على الأسانيد.

ترافَقَ هو وابنُ تيميةَ شيخُ الإسلامِ في السَّماعِ والنَّظرِ في علومٍ مع عدَّةٍ من الأعلامِ.

ماتَ في عامِ اثنينِ وأربعين وسبعِ مئةٍ بدمشقَ، ودفِنَ بجوارِ ابنِ تيميةَ، وكانت جنازَتهُ مشهودةً[١].

وهو الذي قالَ فيهِ بعضُ العلماءِ الأفاضلُ[٢]:

ما زلْتُ أسمَعُ عن إحسانِكُم خبرًا ... الفَضلُ يُسنِدُه عنكُم ويرفَعُهُ
حتَّى التقَينا فشاهَدْتُ الَّذي سمِعَتْ ... أُذُني وأضعَاف ما قدْ كنْتُ أسمَعُهُ

حدَّثَ غيرُ واحدٍ مِنَ الشُّيوخِ عن المِزِّيِّ أنَّهُ قالَ عن ابنِ تيميةَ: ما رأيْتُ مثلَهُ، ولا رأى هو مثلَ نفسِهِ، وما رأيتُ أحدًا أعلَمَ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِ اللهِ، ولا أتبَعَ لهما منهُ[٣].

وقالَ المِزِّيُّ أيضًا عن ابنِ تيميةِ: ابنُ تيميةَ لم يُرَ مثلُهُ منذُ أربع مئةِ سنةٍ[٤].

وكتبَ المِزِّيُّ على «كتابِ ترجمةِ الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ ابنِ تيميةَ» تصنيفِ ابنِ عبدِ الهادي[٥] ما صورَتهُ: كتابٌ مختصَرٌ في ذكرِ حالِ الشَّيخِ الإمامِ، شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ عبدِ الحليمِ ابن تيميةَ، وذكرَ بعضَ مُصنَّفاتهِ ومناقبِه،

---

(١) انظر: «الرد الوافر» (ص١٢٨)، وانظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٥٥٦).

(٢) قائلها أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الموصلي الطرابلسي الشافعي، لما قدم الحج سنة (٧٣٤هـ). انظر: «الراد الوافر» (ص١٢٨).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٣)، و«شذرات الذهب» (٨/ ١٤٧).

(٤) انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٠٣)، و«الرد الوافر» (ص١٢٩).

(٥) وهو «كتاب العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية».

جمعُ الشَّيخِ الإمامِ الحافظِ شمس الدِّينِ أبي عبدِ اللهِ محمَّدِ بن أحمدَ بن عبدِ الهادي المقدسيِّ[(١)].

وكتبَ المِزِّيُّ أيضًا بخطِّهِ طبقةَ سماعٍ على الجزءِ الثَّاني من «حديثِ الحسنِ ابن عليٍّ الجوهريِّ» ما صورَتُهُ: سمِعَ هذا الجزءَ عليَّ المشايخُ الثَّلاثةُ: الإمامُ العلَّامةُ شيخُ الإسلامِ تقيُّ الدِّينِ أبو العبَّاسِ أحمدُ ابنُ تيميةَ، والإمامُ علمُ الدِّينِ البرزاليُّ بقراءتِه مِن لفظِهِ، وكاتبُ السَّماعِ يوسفُ ابنُ الزَّكيِّ[(٢)].

وقد قالَ قاضي القضاةِ صالحُ بن عمرَ البُلقينيُّ الشَّافعيُّ[(٣)]: لقدِ افتخرَ قاضي القضاةِ تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ في ترجمةِ أبيهِ الشَّيخ تقيِّ الدِّينِ السُّبكيِّ في ثناءِ الأئمَّةِ عليهِ بأنَّ الحافظَ المزيَّ لم يكتُب بخطِّهِ لفظَةَ شيخِ الإسلامِ إلَّا لأبيهِ، وللشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ ابنِ تيميةَ، وللشَّيخِ شمسِ الدِّين ابن أبي عمرَ الحنبَليِّ[(٤)].

***

---

(١) انظر: «الرد الوافر» (ص١٢٩).

(٢) انظر: «الرد الوافر» (ص١٢٩).

(٣) ستأتي ترجمته وقوله في تقريظه على «كتاب الرد الوافر».

(٤) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١٠/ ١٩٥).

(٩)

ومنهم الحافظُ البرزاليُّ[١]

وهو الشيخُ الإمامُ الحافظُ الثِّقةُ الحُجَّةُ، مؤرِّخُ الشَّامِ، وأحدُ محدِّثي الإسلامِ، مفيدُ المحدِّثينَ، علَمُ الدِّينِ أبو محمَّدٍ القاسمُ بن محمَّدِ بن يوسفَ البرزاليُّ الإشبِيليُّ الأصلِ، الدِّمشقِيُّ، صاحبُ «التَّاريخِ الخطيرِ»[٢]، و«المعجمِ الكبيرِ»[٣].

كانَ بأسماءِ الرِّجالِ بصيرًا، وناقلًا لأحوالِهم نحريرًا، ولِدَ سنةَ خمسٍ وستينَ وست مئةٍ بدمشقَ، وماتَ بخُلَيصٍ[٤] مُحرِمًا في ثالثِ ذي الحجَّةِ، سنةَ ثمانٍ وثلاثينَ وسبع مئةٍ.

ولقد حكَى بعضُ مشايخِنا عنه أنه كانَ إذا قرأ الحديثَ، ومرَّ به حديثُ ابنِ عباسٍ في قصَّةِ الرَّجلِ الَّذي كانَ معَ النَّبيِّ ﷺ، فوقصَتْهُ ناقَتُهُ وهو محرِمٌ فماتَ... الحديثَ؛ وفيهِ: «فإنَّه يُبعَثُ يومَ القيامةِ مُلبِّيًا»[٥]، فكانَ إذا قرأه البرزاليُّ يبكِي ويرِقُّ قلبُه، فماتَ بخُليصٍ محرِمًا.

---

(١) الحافظ المحدث المتقن الإمام مؤرخ الشام، علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف بن الحافظ زكي الدين محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي ثم الدمشقي الشافعي، سمع كثيرًا ورحل وأمعن في طلب الحديث مع الإتقان والفضيلة، توفي محرمًا سنة (٧٣٩هـ). انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٧٧)، و«أعيان العصر» للصفدي (٤/ ٤٩).

(٢) «تاريخ البرزالي»: جمع فيه: وفيات المحدثين، بل هو يختص بمن له سماع، لكنه لم يبيض. انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٢٨٧).

(٣) جمع فيه أسماء مشايخه، وبلغ عدد مشايخه بالسماع ألفي شيخ وبالإجازة أكثر من ألف. انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢٧٧).

(٤) خليص: حصن بين مكة والمدينة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٣٨٦).

(٥) رواه البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (١٢٠٦).

وفيهِ يقولُ الذَّهبيُّ:

إنْ رُمتَ تفتيشَ الخزائنِ كلِّها وظهُورِ أجزاءٍ حوَتْ وعَوالي
ونُعوتِ أشياخِ الوُجُودِ وما رَوَوا طالِعْ أو اسمَعْ مُعجَمَ البرزالي [١]

وفيهِ يقولُ الشَّيخُ الإمامُ ابنُ الموصليِّ الطَّرابلسيُّ:

ما زلْتُ أسمَعُ عنكَ كلَّ عارفةٍ لمثلِها أو إلَيها ينتَهِي الكرَمُ
وكنْتُ بالسَّمعِ أهواكُم فكَيفَ وقَد رأيتُكُم وبدا لي في الهوَى عَلَمُ [٢]

كتبَ البرزاليُّ بخطِّه سماعَ طبقةٍ على جزءٍ فيهِ «أحاديثُ مُنتقاةٌ من جزءِ الحسنِ بنِ عرفةَ» وهيَ: قرأ هذه الأحاديثَ الثَّمانيةَ شيخُنا وسيِّدُنا الإمامُ العالمُ العلامةُ الأوحَدُ القُدوةُ الزَّاهدُ العابدُ الورعُ الحافِظُ، تقيُّ الدِّينِ، شيخُ الإسلامِ والمسلمينَ، سيِّدُ العلماءِ في العالمِينَ، حبرُ الأمَّةِ، مُقتدي الأئمَّةِ، حجَّةُ المذاهبِ، مُفتي الفِرقِ، أبو العبَّاسِ، أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ ابنُ تيميةَ، أدامَ اللهَ بركتَهُ ورفَعَ درجَتهُ[٣].

وقد ذكرَ البرزاليُّ في «معجَمِ شيوخِهِ» الشَّيخَ تقيَّ الدِّينِ فقالَ: أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنُ عبدِ السَّلامِ بن عبدِ اللهِ بن أبي القاسمِ بنِ محمَّدِ ابنِ تيميةَ الحرَّانيُّ، الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ، أبو العبَّاسِ، الإمامُ المجمَعُ على فضلِهِ ونُبلِهِ ودينِهِ، قرأَ القرآنَ وبرَعَ فيهِ، والعربيَّةَ والأصولَ، ومهرَ في عِلمَي التَّفسيرِ

---

(١) انظر: «الرد الوافر» (ص١٢٠)، و«الدرر الكامنة» (٤/ ٢٧٧)، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص٥٢٧).

(٢) انظر: «الرد الوافر» (ص١٢٠)، و«الدرر الكامنة» (٤/ ٢٧٧).

(٣) انظر: «الرد الوافر» (ص١٢٠).

والحديثِ، وكانَ إمامًا لا يُلحَقُ غُبارُهُ في كلِّ شيءٍ، وبلغَ رتبةَ الاجتهادِ، واجتمعَتْ فيهِ شروطُ المجتهدينَ، وكانَ إذا ذكَرَ التَّفسيرَ أبهَتَ النَّاسَ مِن كثرةِ محفوظِهِ، وحُسْنِ إيرادِهِ، وإعطائِهِ كلَّ قولٍ ما يستحقُّهُ مِن التَّرجيحِ والتَّضعيفِ والإبطالِ، وخوضِهِ في كلِّ علمٍ، كانَ الحاضرونَ يقضُونَ منه العجَبَ، هذا معَ انقطاعِه إلى الزُّهدِ والعبادةِ، والاشتغالِ باللهِ تعالى، والتَّجرُّدِ مِن أسبابِ الدُّنيا، ودعاءِ الخلقِ إلى اللهِ تعالى.

وكانَ يجلِسُ في صبيحةِ كلِّ جمعةٍ يقرَأُ على النَّاسِ تفسيرَ القرآنِ العظيمِ، فانتفَعَ بمجلسِهِ، وبركةِ دُعائِه، وطهارَةِ أنفاسِهِ، وصدقِ نيَّتِه، وصفاءِ ظاهرِه وباطنِهِ، وموافقَةِ قولِه لعمَلِه، وأنابَ إلى اللهِ تعالى خلقٌ كثيرٌ، وجرَى على طريقةٍ واحدةٍ مِن اختيارِ الفقرِ، والتقلُّلِ من الدُّنيا، وردِّ ما يُفتَحُ بهِ عليهِ[1].

وقالَ البرزاليُّ في «تاريخِه» بعد أن ذكرَ وفاةَ ابنِ تيميةَ، ووصفَ دفنَهِ، وشدَّةَ الزِّحامِ عليهِ، ثم قالَ: وخلقٌ كثيرٌ سمِعَ منهم الحديثَ، وقرأَ بنفسِهِ الكثيرَ، وطلَبَ الحديثَ، وكتبَ الطِّباقَ والإثباتَ، ولازمَ السَّماعَ بنفسِهِ مدةَ سنينَ، وقلَّ أن يسمَعَ شيئًا إلَّا حفِظَه، ثم اشتغَلَ بالعلومِ، وكان ذكيًّا كثيرَ المحفوظِ، فصارَ إمامًا في التَّفسيرِ وما يتعلَّقُ بِهِ عارِفًا بالفقهِ، فيقالُ: إنَّه كانَ أعرَفَ بفقهِ المذاهبِ مِن أهلِها الَّذينَ كانوا في زمانِه وغيرِه.

وكانَ عالمًا باختلافِ العلماءِ، عالمًا بالأصولِ والفروعِ والنَّحوِ واللُّغةِ وغيرِ ذلكَ من العلومِ النَّقليَّةِ والعقليَّةِ، وما قُطِعَ في مجلسِ مُناظرةٍ، ولا تكلَّمَ معه فاضلٌ في فنٍّ مِن فنونِ العلمِ إلَّا ظنَّ أن ذلكَ الفنَّ فنَّهُ، ورآه عارِفًا به مُتقنًا لهُ.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٨)، و«الرد الوافر» (ص١٢١).

وأمَّا الحديثُ فكانَ حامِلَ رايتِه، حافظًا له، مميِّزًا بينَ صحيحِهِ وسقيمِهِ، عارفًا برجالِه متضلِّعًا مِن ذلكَ، وله تصانيفُ كثيرةٌ، وتعاليقُ مفيدةٌ في الأصولِ والفروعِ.

وأثنى عليهِ وعلى فضائلِهِ وعلومِه جماعةٌ مِن علماءِ عصرِه، مثلُ ابنِ دقيقِ العيدِ، وابنُ النَّحاسِ، والقاضي الحنفي قاضي قضاةِ مصرَ ابنُ الحريريِّ، وابنُ الزَّملكانيِّ وغيرُهم[1].

* * *

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٥٧)، و«الرد الوافر» (ص١٢٢).

(١٠)

ومنهم الحافظُ ابنُ رجبٍ

وهوَ الشَّيخُ الإمامِ العلَّامةُ، الزَّاهدُ القُدوةُ البركَةُ، الحافظُ العمدةُ، الثِّقةُ الحُجَّةُ، واعظُ المسلمينَ، مُفيدُ المحدِّثينَ، زينُ الدِّينِ، أبو الفرجِ، عبدُ الرَّحمنِ بن الشَّيخِ الإمامِ المقرئ المحدِّثِ أحمدَ بن رجبٍ البغداديُّ الدِّمشقيُّ الحنبليُّ، أحدُ الأئمَّةِ الزُّهَّادِ، والعلماءِ العُبَّادِ، توفِّيَ سنةَ خمسٍ وتسعينَ وسبع مئةٍ بدمشقَ.

وقد حدَّثَ مَنْ حفرَ لحدَ ابنَ رجبٍ: أنَّ الشَّيخَ ابنَ رجبٍ جاءَ قبلَ أن يموتَ بأيَّامٍ قالَ: فقالَ لي: احفِر لي هنا لحدًا، وأشارَ إلى البُقعةِ الَّتي دفن فيها، قالَ: فحفرْتُ لهُ، فلمَّا فرَغَ نزلَ في القبرِ واضطجَعَ فيه فأعجبَهُ، وقالَ: هذا جيِّدٌ، ثم خرَجَ، قالَ: فواللهِ ما شعرْتُ بعدَ أيَّامٍ إلَّا وقد أوتي به ميتًا محمولًا في نعشِهِ، فوضعتُه في ذلكَ اللَّحدِ وواريتُه فيهِ[١].

له مصنَّفاتٌ مفيدةٌ ومؤلَّفاتٌ عديدةٌ منها: «شرحُ جامعِ التِّرمذِيِّ» وشرحَ مِن أوَّلِ «صحيحِ البخاريِّ» إلى الجنائزِ شرحًا نفيسًا[٢]، وله كتابُ: «طبقاتِ أصحابِ مذهَبِه»[٣] جعلَهُ ذيلًا على مَنْ بدأَ بهِ، وهو القاضي أبو يعلَى ابنُ الفرَّاءِ.

---

(١) انظر: «الرد الوافر» (ص١٠٧)، و«الدرر الكامنة» (٢/ ١٠٩).

(٢) وسمَّاه: «فتح الباري»، وهو مطبوع لكن حتى حديث (١٢٣٦) من كتاب السهو، فلعل جزءًا منه قد فقد.

قال ابن عبد الهادي في «الجوهر المنضد» (ص٥٠): وشرح قطعة من البخاري إلى كتاب الجنائز وهي من عجائب الدهر، ولو كمل كان من العجائب.

(٣) مطبوع باسم: «ذيل طبقات الحنابلة»، وله من المصنفات المفيدة الكثير منها: «جامع العلوم والحكم» شرح الأربعين النووية وزيادتها، و«شرح علل الترمذي»، و«لطائف المعارف فيما =

قالَ فيهِ: أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ بنِ عبدِ اللهِ بن أبي القاسمِ الخَضِرِ بن محمَّدِ، ابنِ تيميةَ، الحرَّانيُّ، ثم الدِّمشقِيُّ، الإمامُ الفقيهُ المجتهِدُ، المحدِّثُ الحافظُ، المفسِّرُ الأصوليُّ الزَّاهدُ، تقيُّ الدِّينِ، أبو العبَّاسِ، شيخُ الإسلامِ، وعلَمُ الأعلامِ، وشهرَتُه تُغني عن الإطنابِ في ذكرِه، والإسهابِ في أمرِه[1].

ثم ذكرَ ابنُ رجبٍ ترجمةَ ابنِ تيميةَ، وفيها ذكرُ موتِه ودفنِه، ثم قالَ: وصُلِّيَ عليهِ صلاةَ الغائبةِ في غالبِ بلادِ الإسلامِ القريبةِ والبعيدةِ، حتَّى في بلادِ اليمنِ والصِّينِ، وأخبرَ المسافرونَ أنَّه نُودِي بأقصى الصِّينِ للصَّلاةِ عليهِ يومَ الجمعةِ: الصَّلاةَ على ترجمانِ القرآنِ[2].

* * *

= لمواسم العام من وظائف»، وغيرها.

(١) انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٤٩٣).

(٢) انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٢٨).

(١١)

ومنهم الحافظُ ابنُ عبدِ الهادي[1]

وهوَ الشَّيخُ الإمامُ العلَّامةُ، الحافظُ النَّاقدُ، ذو الفنونِ، عُمدَةُ المحدِّثينَ، مُتقنُ المحرِّرينَ، شمسُ الدِّينِ محمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الهادي بنِ عبدِ الحميدِ بن عبدِ الهادي بنِ قُدامةَ بنِ مقدامِ بنِ نصرٍ المقدسيُّ الصَّالحيُّ الحنبليُّ.

ولدَ سنةَ أربعٍ أو خمسٍ وست مئةٍ، وقرأَ القرآنَ بالرواياتِ، وسمِعَ ما لا يحصَى من المروياتِ، وعُنيَ بالحديثِ وأنواعِهِ ومعرفةِ رجالِهِ وعلَلِه، وتفقَّهَ وأفتى ودرَّسَ، وجمَعَ وألَّفَ، وكتبَ الكثيرَ، وصنَّفَ وتصدَّى للإفادةِ.

ومن مصنَّفاتِه: «تنقيحُ التَّحقيقِ في أحاديثِ التَّعليقِ» مجلَّدانِ[2]، و«المحرَّرُ في الأحكامِ»[3]، و«الكلامُ على أحاديثِ مختصَرِ ابنِ الحاجبِ» مؤلَّفانِ مطوَّلٌ

---

(١) توفي سنة (٧٤٤هـ). انظر: «المعجم المختص بالمحدثين» للذهبي (ص٢١٥)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٥/ ٦١).

(٢) هو كتاب اعتنى فيه مصنفه بكتاب ابن الجوزي: «التحقيق»، فخرج أحاديثه وذكر من صحح الحديث أو ضعفه، وذكر علة الحديث إن كان له علة، وعلق عليه. وكتاب «التحقيق» لابن الجوزي كتاب عني بذكر أدلة مذهب الإمام أحمد وأدلة مخالفيهم. انظر: مقدمة كتاب «تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق».

(٣) مطبوع باسم: «المحرر في الأحاديث»، قال ابن عبد الهادي في مقدمته: «هذا مختصر يشتمل على جملة من الأحاديث النبوية في الأحكام الشرعية، انتخبته من كتب الأئمة المشهورين والحفاظ المعتمدين... وذكرت بعض من صحح الحديث أو ضعفه، والكلام على بعض رواته من جرح أو تعديل، واجتهدت في اختصاره وتحرير ألفاظه، ورتبته على ترتيب بعض فقهاء زماننا ليسهل الكشف منه».

ومختصرٌ، و«جزءٌ في الرَّدِّ على أبي حيَّان فيما أوردَهُ على ابنِ مالكٍ»، وجمعَ «التَّفسيرَ المُسْنَدَ» لكنَّهُ ماتَ قبلَ إتمامِهِ[١].

وكانَ إمامًا في علومٍ كالتَّفسيرِ والحديثِ والأصولِ والفقهِ واللُّغَةِ والعربيَّةِ.

وذكرَهُ الحافظُ الذهبيُّ في «معجَمِه المختصِّ بالمحدِّثينَ» وفي «طبقاتِ الحفَّاظِ» وأثنى عليه فيهما ثناءً حميدًا[٢]، وقالَ: واللهِ ما اجتمعْتُ بِهِ قطُّ إلَّا واستفدْتُ منهُ[٣].

ماتَ سنةَ أربعٍ وأربعينَ وسبع مئةٍ بدمشقَ، وكانَت جنازَتهُ حافلةً.

ومن مصنَّفاتِهِ: «كتابُ مناقبِ ابنِ تيميةَ» في مجلدٍ[٤].

قالَ فيهِ: هو الشَّيخُ الإمامُ، العالمُ العاملُ الرَّبانيُّ، إمامُ الأئمَّةِ، وعلَّامةُ الأمَّةِ، ومفتي الفِرَقِ، وبحرُ العلومِ، سيِّدُ الحفَّاظِ، وفارسُ المعاني والألفاظِ، فريدُ العصرِ، ووحيدُ الدَّهرِ، شيخُ الإسلامِ، بركةُ الأنامِ، علَّامةُ الزَّمانِ وترجمانُ القرآنِ، وعلمُ الزَّمانِ، وأوحدُ العُبَّادِ، قامِعُ المبتدِعينَ، وآخرُ المجتهِدينَ، تقيُّ الدِّين، أبو العبَّاسِ، أحمدُ ابنُ الشَّيخِ الإمامِ العلَّامةِ شهابِ الدِّينِ أبي المحاسنِ عبدِ الحليمِ ابنِ الشَّيخِ الإمامِ العلَّامةِ شيخِ الإسلامِ مجدِ الدِّينِ أبي البركاتِ عبدِ السَّلامِ ابنِ تيميةَ الحرَّانيُّ.

---

(١) ويعد ابن عبد الهادي من المكثرين في التأليف على الرغم من وفاته شابًّا لم يكمل الأربعين من عمره، وله كتب أخرى مشهورة منها: «الصارم المنكي في الرد على السبكي»، و«تعليقة على العلل لابن أبي حاتم»، و«طبقات علماء الحديث».

(٢) انظر: «المعجم المختص» (ص٢١٥)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/ ٢٠١).

(٣) انظر: «ذيل طبقات الحفاظ» للحسيني (ص٣٢)، و«الرد الوافر» (ص٣٠)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ٦٢).

(٤) مطبوع باسم: «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية».

نزيلُ دمشقَ، وصاحِبُ التَّصانيفِ الَّتي لم يُسبَق إلى مثلِها، ولا يلحَقُ في شكلِها توحيدًا أو تفسيرًا، وإخلاصًا، وفقهًا وحديثًا ولغةً ونحوًا وجميعَ العلومِ، كتبُهُ طافحةٌ بذلك[١].

وانتهَت إليهِ الإمامةُ في العلمِ والعملِ، والزُّهدِ والورعِ، والشَّجاعةِ والكرمِ، والتَّواضُعِ والحلمِ والإنابةِ، والجلالةِ والمهابةِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكَرِ، وسائرِ أنواعِ الجهادِ، مع الصِّدقِ والأمانةِ، والعفَّةِ والصِّيانةِ، وحسنِ القصدِ والإخلاصِ، والابتهالِ إلى اللهِ، وكثرةِ الخوفِ منهُ والمراقبَةِ لهُ، وشدَّةِ التَّمسُّكِ بالأثرِ، والدُّعاءِ إلى اللهِ، وحسنِ الأخلاقِ، ونفعِ الخلقِ والإحسانِ إلَيهم، والصَّبرِ على من آذاهُ والصَّفحِ عنهُ، والدُّعاءِ لهُ، وسائرِ أنواعِ الخيرِ.

وكانَ رحمَهُ الله سيفًا مسلولًا على المخالفينَ، وشَجًى[٢] في حلوقِ أهلِ الأهواءِ من المبتدعينَ، وإمامًا قائمًا ببيانِ الحقِّ ونُصرةِ الدِّينِ.

وكانَ بحرًا لا تكدِّرهُ الدِّلاءُ، وحَبرًا يقتدِي به الرِّجالُ الألبَّاءُ، وطفَتْ بذكرِه الأمصارُ، وضنَّتْ بمثلِه الأعصارُ[٣].

واشتغَلَ بالعلومِ، وكانَ ذكيًّا، كثيرَ المحفوظِ، إمامًا في التَّفسيرِ وما يتعلَّقُ بهِ، عارفًا بالفقهِ واختلافِ العلماءِ والأصلَينِ والنَّحوِ واللُّغةِ وغيرِ ذلكَ مِن العلومِ النَّقليةِ والعقليَّةِ، وما تكلَّمَ معهُ فاضلٌ في فنٍّ إلَّا ظنَّ أنَّ ذلك الفنَّ فنهُ، ورآهُ عارفًا بهِ مُتقنًا لهُ.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص١٨)، و«طبقات علماء الحديث» (٤/ ٢٨٠) كلاهما لابن عبد الهادي.

(٢) الشَّجى: مَا نَشَبَ فِي الحلق من غُصَّةِ هَمٍّ أَوْ عُودٍ. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: شجو).

(٣) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٢ ـ ٢٣)، و«طبقات علماء الحديث» (٤/ ٢٨٣) كلاهما لابن عبد الهادي.

وأما الحديثُ فكانَ حافظًا له، مميِّزًا بين صحيحِهِ وسقيمِهِ، عارفًا برجالِه، مُتضلِّعًا من ذلكَ، وله تصانيفُ كثيرةٌ وتعاليقُ مفيدةٌ في الفروعِ والأصولِ، ولقد أثنى عليهِ وعلى فضائلِه جماعةٌ من علماءِ عصرِه(١).

ولقد ترجمَهُ ابنُ عبدِ الهادي هذا بشيخِ الإسلامِ، مرارَ كثيرة، وذكرَ مِن مناقبِه في ترجمَتِه أشياءَ خطيرةً، وعدَّ كثيرًا مِن مصنَّفاتِه، ونصَّ على نفائِسَ مِن مؤلَّفاتِه.

وذكرَه في كتابِه «طبقاتِ الحفَّاظِ» بترجمةٍ مختصَرةٍ، ونعوتٍ جامعةٍ محرَّرةٍ مِن أوصافِ الأئمَّةِ، رحمَهُ اللهُ تعالى.

وقالَ: منَّ اللهُ تعالى على الشيخِ بسرعةِ الكتابةِ، ويكتُبُ من حفظِه من غيرِ نقلٍ.

قالَ: وأخبرَني غير واحدٍ أنَّه كتبَ مجلَّدًا لطيفًا في يومٍ، وكتبَ غيرَ مرَّةٍ أربعينَ ورقةً في جلسةٍ، وأحصيْتُ ما كتبَهُ في يومٍ وبيَّضهُ فكانَ ثمانيةَ كراريسَ في مسألةٍ مِن أشكلِ المسائلِ، وكان يكتُبُ على السُّؤالِ الواحدِ مجلَّدًا، وأمَّا جوابٌ يكتبُ فيهِ خمسينَ ورقةً وستِّين فكثيرٌ جدًّا(٢).

***

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٨ ـ ٣٨٩).

(٢) انظر: «العقود الدرية» (ص٧٩ ـ ٨٠).

(١٢)

ومنهم ابنُ فضلِ اللهِ العمريُّ

وهو القاضي الفاضِلُ البارعُ، النَّبيلُ العالمُ الأصيلُ، أبو العبَّاسِ، أحمدُ ابن القاضي الإمامِ، يمين مملكةِ الإسلامِ، يحيى بنِ فضلِ الله العدويُّ العمريُّ الشَّافعيُّ.

وُلِدَ سنةَ سبعٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ، وتوفِّيَ سنةَ تسعٍ وأربعينَ وسبع مئةٍ.

ذكرَهُ الذَّهبيُّ في «معجَمِه المختصِّ بالمحدِّثين» وقالَ: صاحبُ النَّظمِ والنَّثرِ والمآثرِ[١].

وقالَ ابنُ فضلِ اللهِ هذا في تاريخِه المسمَّى بـ «مسالكِ الأبصارِ في ممالكِ الأمصارِ» في ترجمةِ ابنِ تيميةَ، وهي طويلةٌ تبلغُ كرَّاسةً فأكثرَ:

ومنهم أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ، العلَّامةُ الحافظُ المجتهدُ المفسِّرُ، شيخُ الإسلامِ، نادرةُ العصرِ، علَمُ الزهادِ

هوَ البحرُ مِنْ أيِّ النَّواحِي جِئْتَه والبدرُ مِن أيِّ الضَّواحِي رأيتَهُ

رضعَ ثديَ العلمِ منذُ فُطِمَ، وطلَعَ وجهُ الصَّباحِ ليحاكِيَه فلُطِمَ، وقطَعَ الليلَ والنهارَ ردائينِ، واتخذَ العلمَ والعملَ صاحِبَينِ، إلى أن أنسَى السَّلفَ بهُداهُ، وأنأى الخلفَ عن بلوغِ مداهُ، على أنه من بيتٍ نشأَتْ منهُ علماءُ في سالفِ الدُّهورِ، ونشأت منهُ عظماءُ على المشاهيرِ الشُّهورُ، فأحيا معالمَ بيتِه القديمِ إذ درسَ، وجنَى مِن فنَنِه الرَّطيبِ ما غرسَ، وأصبحَ في فضلِه آيةً، إلَّا أنهُ آيةُ الحرَسِ[٢]،

---

(١) انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٤٦).

(٢) الحرس: الدهر. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: حرس).

عَرَضَت له الكُدَى[١] فزحزحها، وعارضته البحارُ فضحضحها.

ثمَّ كانَ أمَّةً وحدَهُ، وفردًا حتَّى نزَلَ لحدَهُ، أخملَ مِنَ القُرناءِ كلَّ عظيمٍ، وأخمدَ من أهلِ البدَعِ كلَّ حديثٍ وقديمٍ، جاءَ في عصرٍ مأهولٍ بالعلماءِ، مشحونٍ بنجومِ السَّماءِ، تموجُ في جوانبِهِ بحورٌ خضارمُ[٢]، وتطيرُ بينَ خافقَيهِ نسورٌ قشاعِمُ[٣]، وتشرِقُ في أنديَتِه بدورُ دُجُنَّةٍ[٤]، وتبرُقُ في ألويتِه صدورُ أسِنَّةٍ، إلَّا أنَّ شمسَهُ طمسَتْ تلكَ النُّجومَ، وبحرَهُ طمَّ على تلكَ الغيومِ، وابتلَعَ غديرُهُ المطمئِنُّ جداولَها، واقتلَعَ طَودُهُ المُرجَحِنُّ[٥] جَنادِلَها[٦]، ثم عُبِّئَتْ له الكتائبُ، فحطَّمَ صفُوفَها، وخطَمَ أنوفَها، وأخمدَتْ أنفاسَهُم ريحُه، وأكمدَتْ شراراتِهم مصابيحُه.

تقدَّم راكبًا فيهم إمامًا ... ولولاه لَمَا ركبُوا وراءَه

فجمعَ أشتاتَ المذاهبِ، وشَتَاتَ الذَّاهبِ، ونقَلَ عن أئمَّةِ الإجماعِ فمَنْ سواهُم مذاهبَهم المختلِفَةَ واستحضرَها، ومثَّلَ صورَهم الذَّاهبةَ وأحضرَها، فلو شعرَ أبو حنيفَةَ بزمانِهِ وملكَ أمرَه لأدنى عصرَهُ إليهِ مُقترِبًا، أو مالكٌ لأجرَى وراءَهُ أشهَبَه وكوكبًا، أو الشَّافعيُّ لقالَ: ليتَ هذا كانَ للأمِّ ولدًا وليتَني كنْتُ له أبًا، أو الشَّيبانيُّ ابنُ حنبلٍ لَمَا لامَ عِذارَه إذْ غدا منه لِفَرْطِ العَجَبِ أشيبًا، لا بل داودُ الظَّاهِرِيُّ وسِنانُ

---

(١) الكدى: جمع كدية، وهي الأرض الصلبة. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: كدى).

(٢) الخضارم: جمع خضرم، وهو الواسع الكثير من كل شيء. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: خضرم).

(٣) قشاعم: المسن الضخم. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: قشعم).

(٤) بدورُ دجنةٍ: البدور في شدة الظلام، والدجنة: الظلمة. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: دجن).

(٥) المرجحن: الثقيل. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: رجحن).

(٦) الجندل: صخرة مثل رأس الإنسان. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١١/ ١٧١).

الباطنيُّ[١] لظنَّا تحقيقَه مِن مُنتَحِلِه، أو ابنُ حزمٍ والشَّهرِستانيُّ لحشَرَ كلٌّ منهُما ذِكْرَهُ في نِحَلِه، أو الحاكمُ النَّيسابوريُّ والحافظُ السِّلَفِيُّ لأضافَهُ هذا إلى «مستدرَكِه» وهذا إلى «رحَلِه».

تَرِدُ إليه الفَتاوى ولا يَرُدُّها، وتفِدُ عليهِ فيجيبُ عنها بأجوبةٍ كأنَّه كانَ قاعدًا لها يُعِدُّها.

أبدًا على طَرفِ اللِّسانِ جَوابُه فكأنَّما هيَ دفعَةٌ من صَيِّبِ[٢]

وكانَ مِن أذكى النَّاسِ، كثيرَ الحفظِ، قليلَ النسيانِ، قلَّما حفِظَ شيئًا فنَسِيَه، وكان إمامًا في التفسيرِ وعلومِ القرآنِ، عارفًا بالفقهِ واختلافِ الفقهاءِ والأصولِيينَ، والنحوِ وما يتعلَّقُ بهِ، واللغةِ والمنطِقِ وعلمِ الهيئةِ، والجبرِ والمقابلَةِ وعلمِ الحسابِ، وعلمِ أهلِ الكِتابَينِ وعلمِ أهلِ البدَعِ، وغيرِ ذلكَ من العلومِ النقليَّةِ والعقليَّةِ، وما تكلَّمَ معه فاضلٌ في فنٍّ من الفنونِ إلا ظنَّ أن ذلك الفنَّ فنُّه.

وكانَ حُفَظَةً للحديثِ، مميِّزًا بينَ صحيحِهِ وسقيمِه، عارِفًا برجالِه، متضلِّعًا مِن ذلكَ، وله تصانيفُ كثيرةٌ، وتعاليقُ مُفيدةٌ، وفتاوى مُشبعةٌ في الفروعِ والأصولِ والحديثِ، وردِّ البدَعِ بالكتابِ والسُّنَّةِ[٣].

* * *

---

(١) سنان الباطني: أبو الحسن سنان بن سلمان بن محمد البصري الباطني، راشد الدين، كبير الإسماعيلية وصاحب الدعوة النزارية، كان أديبًا فاضلًا عارفًا بالفلسفة وشيئًا من الكلام والشعر والأخبار، أحل لقومه وطء المحرمات من أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم، وأسقط عنهم صوم رمضان، مات سنة (٥٨٩هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢١/ ١٨٢ ـ ١٨٩)، و«الوافي بالوفيات» (١٥/ ٢٨٢).

(٢) البيت ليعلى بن إبراهيم الأربسي. كما في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٦/ ٢٤٧٦).

(٣) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٨٧ ـ ٦٩٦).

(١٣)

ومنهم بهاءُ الدِّينِ السُّبكيُّ

وهو الشَّيخُ الإمامُ العلَّامةُ، قاضي القضاةِ، علَمُ المناظرينَ، أحدُ المتبحِّرينَ، بهاءُ الدِّينِ، محمَّدُ بن عبدِ البرِّ بنِ يحيى بن عليِّ بن تمامٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ السُّبكيُّ الشَّافعيُّ.

ولدَ سنةَ سبعٍ وسبع مئةٍ، وتوفِّيَ بدمشقَ سنةَ سبعٍ وسبعينَ وسبع مئةٍ.

ذكرَه الذَّهبيُّ في «معجَمِه» فقالَ: إمامٌ متبحِّرٌ مناظرٌ، بصيرٌ بالعلمِ، محكِمٌ للعربيَّةِ وغيرِها، قالَ: ونابَ في الحكمِ[١]؛ يعني: عنِ الإمام تقيِّ الدِّين السُّبكيِّ.

ثم وليَ القضاءَ استقلالًا سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وسبع مئةٍ، ثم وليَ قضاءَ الدِّيارِ المصريةِ سنةَ ستٍّ وستِّينَ، ثم صُرِفَ عنهُ عامَ اثنين وسبعينَ، ثم وليَ قضاءَ دمشقَ ثانيًا.

قالَ العلَّامةُ صاحِبُ «كتابِ الردِّ الوافرِ»: حكَى بعضُ مَنْ لقِيتُه مِنَ الشُّيوخِ أنَّه حضَرَ مرَّةً مع قاضي القُضاةِ بهاءِ الدِّينِ السُّبكيِّ درسًا ألقاه بالمدرسَةِ الرَّواحيَّةِ[٢] بدمشقَ، فجاءَ طائفةٌ من القَلندَريَّةِ[٣] يسألونَهُ فأمرَ لهم بشيءٍ، ثم جاءَ طائفةٌ أُخرى

---

(١) انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٢٣٧).

(٢) المدرسة الرواحية: أنشأها أبو القاسم هبة الله بن عبد الواحد بن رواحة الحموي، المتوفى (سنة ٦٢٢ هـ) داخل باب الفراديس ووقفها على الشَّافعية، وفوض نظرها وتدريسها إلى الشيخ ابن الصَّلاح الشهرزوري، وهي شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي ولصيقه، شمالي جيرون. انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ١٣٦)، و«الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي (١/ ١٩٩).

(٣) القلندرية: طائفة من الصوفية منسوبون إلى الشيخ جمال الدين محمد الساوجي، قدم دمشق، =

من الحيدَريَّةِ[١] وهو يتوضَّأُ على بركةِ المدرسَةِ المذكُورةِ، فأمرَ لهم بشيءٍ، ثم جاءَ فصلَّى ركعَتين، ثم قالَ: رحمَ اللهُ ابنُ تيميةَ كانَ يكرَهُ هؤلاءِ الطَّوائفَ على بدَعِهم.

قالَ: فلمَّا قالَ ذلكَ ذكَرْتُ له كلامَ النَّاسِ في ابنِ تيميةَ، فقالَ لي: واللهُ يا فلانُ! ما يبغِضُ ابنَ تيميةَ إلَّا جاهلٌ أو صاحِبُ هوى، فالجاهِلُ لا يدرِي ما يقولُ، وصاحبُ الهوى يصدُّهُ هواهُ عن الحقِّ بعدَ معرِفَته بِهِ، قالَ: فأعجبَني ذلك منهُ، وقبَّلتُ يدَهُ، وقلْتُ: جزاك اللهُ خيرًا[٢].

قالَ: فكيفَ هذا لو سمِعَ ممَّا صحَّت بهِ الرِّوايةُ عن شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ السُّبكيِّ من مدحِهِ لابنِ تيميةَ لطارَ فرحًا مِن السُّرورِ، ولأنشَدَ مُتمثِّلًا بذلكَ البيتِ المشهورِ:

ومليحةٍ شَهِدَتْ لها ضَرَّاتُها ... والفَضلُ ما شهِدَتْ به الأعداءُ[٣]

= وسكن جبل قاسيون، ثم حلق وجهه ورأسه فانطلى على أولئك حاله الشيطاني فوافقوه، وحلقوا، وهذه الطائفة ظهرت بدمشق سنة نيف وست مئة، ويتميزون بحلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم، ويلتزمون زي الأعاجم والمجوس، ويتناولون الحشيشة. انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٣١٤)، و«كنز الذهب في تاريخ حلب» لسبط ابن العجمي (١/ ٤١٣)، و«الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي (٢/ ١٦٣).

(١) الحيدرية: طائفة دخلت الشام سنة (٦٥٥هـ)، ومن شعارهم لبس الراحي والطراطير ويقصون لحاهم ويتركون شواربهم، وهو خلاف السنة، تركوها لمتابعة شيخهم حيدر الزاوجي حين أسره الملاحدة فقصوا لحيته وتركوا شواربه، فاقتدوا به في ذلك، وهو معذور مأجور، وفي رقابهم حلق كبار من حديد، بنيت لهم زاوية بظاهر دمشق قريبًا من العونية. انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٤/ ٦٦٧)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ٢٢٩).

(٢) انظر: «الرد الوافر» (ص٥١).

(٣) كذا في الأصل وفي بعض المصادر، والشطر الثاني جرى مجرى المثل وتناقله كثيرون، والبيت =

كتبَ الحافظُ الذَّهبيُّ فيما اشتُهِرَ إلى الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ السُّبكيِّ يعاتِبُه على ما صدرَ، فكتبَ الجوابَ يعتذِرُ عن تلك الحادِثاتِ، ومن بعضِهِ ما أشارَ إليه الشَّيخُ زينُ الدِّينِ ابنُ رجبٍ في كتابِه «الطَّبقاتِ» فقالَ: وممَّا وجِدَ في كتابٍ كتبَهُ العلَّامةُ قاضي القضاةِ أبو الحسنِ السُّبكيُّ إلى الحافظِ الذَّهبيِّ في أمرِ الشَّيخِ تقيِّ الدينِ ـ يعني ابنَ تيميةَ ـ: أما قولُ سيِّدي في الشَّيخِ فالمملوكُ يتحقَّقُ كبرَ قدرِهِ، وزخارَةَ بحرِهِ، وتوسُّعَه في العلومِ الشَّرعيَّةِ والعقليَّةِ، وفرطَ ذكائِهِ واجتهادِهِ، وبلوغَه في كلٍّ مِن ذلكَ المبلغَ الَّذي لا يتجاوَزُ الوصفَ، والمملوكُ يقولُ ذلكَ دائمًا، وقدرُه في نفسي أعظَمُ مِن ذلكَ وأجلُّ، مع ما جمَعَ اللهُ له مِن الزَّهادَةِ والورَعِ والدِّيانةِ، ونصرةِ الحقِّ والقيامِ فيه، لا لغرَضٍ سواهُ، وجريِه على سَنَنِ السَّلفِ، وأخذِه مِن ذلكَ بالمأخذِ الأوفى، وغرابةِ مثلِه في هذا الزَّمانِ، بل مِن أزمانٍ. انتهى[1].

***

= للسري الرفاء، كما في «ديوان المعاني» للعسكري (١/ ٧٢)، و«يتيمة الدهر» للثعالبي (٢/ ١٩٢)، لكن شطره الأول:

وشـــمائل شـــهد العـــدو بفضلهـــا

(١) انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٥٠٣).

(١٤)

[ابن الصَّيرفي][(١)]

ومنهم الشَّيخُ العالمُ الفاضلُ المحدِّثُ، أبو المعالي، محمَّدُ بنُ طغريلَ الخوارِزميُّ.

أخذَ عن خلائقَ مِن رواةِ الآثارِ، ماتَ سنةَ سبعٍ وثلاثينَ وسبع مئةٍ.

كتبَ بخطِّهِ سماعَ طبقةٍ فقالَ: وسيِّدنا الشَّيخ الإمام العلَّامة، الصَّدر الكبير الكاملِ، القُدوة الحافظ، الزَّاهد العابد الورِع، شيخ الإسلام، مُفتي الفِرقِ، حجَّة المذاهبِ، مُقتدَى الطَّوائفِ، لسان الشَّريعةِ، مجتَهد العصرِ، وحيد الدَّهرِ، إمام الأئمَّةِ، تقيّ الدِّينِ، أبي العبَّاسِ أحمد... وذكرَ بقيةَ نسبِه.

وشيخنا الإمام العالم، الزَّاهد الورِع، المحدِّث العمدَة، الحجَّة الحافظ الكبير، محدِّث العصر، جمال الدِّينِ، أبي الحجَّاج يوسف بن الزَّكيّ المزيّ، وذكرَ بقيةَ المشايخ، والقارئ وبعض السَّامِعينَ[(٢)].

***

---

(١) انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٢٣٤)، و«أعيان العصر» (٤/ ٤٨٠)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٥/ ٢٠٣)، و«الرد الوافر» (ص٤٥).

(٢) انظر: «الرد الوافر» (ص٤٥).

(١٥)

[شمس الدين ابن سعد](١)

ومنهم العالمُ الفاضلُ، المحدِّثُ البارعُ المؤرِّخُ، جمالُ المؤرِّخينَ، شمسُ الدِّينِ، محمَّدُ بن الشَّيخِ المسندِ الكبيرِ يحيى بنِ الشَّيخِ الفقيهِ الفاضِلِ الأديبِ البارعِ محمَّدِ بن سعدِ بن مفلحِ المقدسِيِّ الدِّمشقِيِّ الصَّالحيِّ.

وذكرَهُ الذَّهبيُّ في «معجَمِه»(٢).

كتبَ بخطِّه في طبقةِ سماعٍ لـ«جزءِ الحسنِ بنِ عرفةَ»: الشَّيخ الإمام، العالم العلَّامة، الأوحد البارع، الحجَّة الحافظ، الزَّاهد العابد الورع، شيخ مشايخِ الإسلامِ، بقيَّة الأئمَّةِ الأعلامِ، إمام الأئمَّةِ، قدوة الأمَّةِ، علَّامة الزَّمانِ، فريد العصرِ والأوانِ، بحر العلومِ، تقيّ الدِّينِ، أبي العبَّاسِ، أحمد، وذكرَ بقيَّةَ نسبِهِ وبقيَّةَ المشايخِ.

ثم قالَ: بقراءةِ الشَّيخِ الإمامِ، العالمِ العلَّامةِ، الحافظِ النَّاقدِ البارعِ، مؤرِّخِ الإسلامِ، علَمِ الدِّينِ البرزاليِّ(٣).

* * *

(١) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٤/ ٦٤١)، و«الرد الوافر» (ص٦١).

(٢) انظر: «المعجم المختص» للذهبي (ص٢٦٥).

(٣) انظر: «الرد الوافر» (ص٦٢).

(١٦)

[بدر الدين ابن حبيب الحلبي][١]

ومنهم الشَّيخُ العالمُ الفاضلُ، المحدِّثُ المؤرِّخُ، المفيدُ الأديبُ، أبو محمَّدٍ، الحسنُ بنُ الشَّيخِ الإمامِ الحافظِ عمرَ بنِ الحسنِ بن عمرِو بن حبيبٍ الدِّمشقيُّ الحلبيُّ.

سمِعَ الحديثَ وجمعَ فأوعى، وسمَّعَ وروَى، وله مؤلفاتٌ عدةٌ منها: «درَّةُ الأسلاكِ في دولةِ الأتراكِ» قالَ فيهِ في ترجمَةِ سنةِ ثمانٍ وعشرينَ وسبع مئةٍ: وفيها توفِّيَ شيخُ الإسلامِ، تقيُّ الدِّينِ أبو العبَّاسِ، أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ ابنُ تيميةَ، بحرٌ زاخرٌ في النَّقلياتِ، وحبرٌ ماهرٌ في حفظِ عقائدِ العقليَّاتِ، وإمامٌ في معرفةِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وهمامٌ لا يميلُ إلى حلاوةِ من المنَّةِ.

كان ذا ورعٍ زائدٍ، وزهدٍ فرعُه في روضِ الرِّضا مائدٌ، وسخاءٍ وشجاعةٍ، وعزلةٍ وقناعةٍ، وتصانيفَ مشهورةٍ، وفتاوى أعلامُها منشورةٌ، يصدعُ بالحقِّ، ويتكلَّمُ فيما جلَّ ودقَّ، ويأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكَرِ، ويثابرُ على إقامةِ الحدودِ إن شُكِرَ أو لم يُشكَرْ[٢].

***

(١) انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٢/ ١٣٤)، و«المنهل الصافي» لابن تغري بردي (٥/ ١١٦)، و«الأعلام» للزركلي (٢/ ٢٠٨).

(٢) انظر: ترجمة شيخ الإسلام من «درة الأسلاك في دولة الأتراك ـ مطبوع ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص٤٥٧)، و«الرد الوافر» (ص٩٦).

(١٧)

[ابن قطلوبغا]

وكذلكَ العلامةُ صاحبُ «الفتاوى القاسميَّةِ» في مذهبِ السَّادةِ الحنفيَّةِ[1]، يترجِمُ ابنَ تيميةَ بشيخِ الإسلامِ عندَ ذكرِه في عدَّةِ مواضعَ من «فتاويهِ».

* * *

(١) وهي للشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي، تلميذ ابن الهمام، المتوفى سنة (٨٧٩ هـ). انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢/ ١٢٢٧).

[ذكر جملة من العلماء أثنَوا على الشيخ ابن تيمية]

وبالجملةِ فذكرُ العلماءِ الأعلامِ الذين ترجَموا ابنَ تيميةَ بشيخِ الإسلامِ وأثنَوا عليه مما يطولُ، وهم كثيرٌ جدًّا، ذكرَ منهم صاحبُ «الردِّ الوافرِ» نحو ثمانينَ، يترجِمُهم ثم يذكُرُ مدحَهم لابنِ تيميةَ.

وقد قالَ الشَّيخُ الإمامُ، قاضي قضاةِ مصرَ والشَّامِ، مُفتي المسلمينَ محمَّدُ ابنُ الشَّيخِ صفيِّ الدِّين الأنصاريُّ الحنفيُّ ابنُ الحريريِّ[1]: إن لم يكُن ابنُ تيميةَ شيخَ الإسلامِ فَمَنْ[2]؟!

وسُئلَ الشَّيخُ الإمامُ العلامةُ المحدِّثُ أبو حفصٍ عمرُ بن مُسلَّمٍ القُرشيُّ[3]، قاضي أهلِ دمشقَ في عصرِه، وواعظُ أهلِ مصرَ، عن الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ ابن تيميةَ فقالَ: هو شيخُ الإسلامِ على الإطلاقِ[4].

***

---

(١) شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الحسن الدمشقي الحريري قاضي القضاة. كان عادلاً، مهيبًا، صارمًا، ديِّنًا، قوَّالًا بالحق، حميد الأحكام، رأسًا في المذهب، توفي سنة (٧٢٨هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٤/ ٦٧)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٤٧٨)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ١٥٣).

(٢) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٠).

(٣) عمر بن مسلم بن سعيد بن عمر القرشي الملحي، أبو حفص، من قرية ملح من أعمال صرخد، ثم الدمشقي، الشافعي، توفي في ذي الحجة سنة (٧٩٢ هـ). انظر: «الرد الوافر» (ص١٨٨).

(٤) انظر: «الرد الوافر» (ص١٨٨)، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٣/ ١٥٧)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢٢٧).

[ثناء علماء بغداد على الشيخ ابن تيمية]

وقد أثنى على الشَّيخِ ابنِ تيميةَ علماءُ بغدادَ، وأرسلُوا كتبًا في شأنِه لَمَّا كان محبوسًا بالقلعةِ مكتوبٌ فيها:

ثم إنَّ هذا الشَّيخَ المعظَّمَ الجليلَ، والإمامَ المكرَّمَ النَّبيلَ، أوحَدَ الدَّهرِ، فريدَ العصرِ، طرازَ المملكةِ الملكيَّةِ، وعلَمَ الدَّولةِ السُّلطانيَّةِ، لو أقسَمَ مُقسِمٌ باللهِ العظيمِ القديرِ أنَّ هذا الإمامَ الكبيرَ ليسَ له في عصرِهِ مماثلٌ ولا نظيرٌ؛ لكانَت يمينُه برَّةً غنيَّةً عن التَّكفيرِ، وقد خلَتْ مِنْ وجودِ مثلِه السَّبعَةُ الأقاليمِ إلَّا هذا الإقليمُ، يوافِقُ على ذلكَ كلُّ منصِفٍ جُبِلَ على الطَّبعِ السَّليمِ، ولسنا بالثَّناءِ عليهِ نُطرِيه، بل لو أطنَبَ مُطنِبٌ في مدحِهِ والثَّناءِ عليه لَمَا أتى على بعضِ الفضائلِ الَّتي فيهِ = أحمدُ بنُ تيميةَ، درةٌ يتيمَةٌ يُتنافَسُ فيها، تُشتَرى ولا تباعُ، ليسَ في خزائنِ الملوكِ درَّةٌ تماثِلُها وتؤاخِيها، انقطعَتْ عن وجودِ مثلِهِ الأطماعُ.

ولقد أصمَّ الأسماعَ وأوهى قوَى المتبوعِينَ والأتباعِ سماعُ رفعِ أبي العبَّاسِ أحمدَ ابن تيميةَ إلى القلاعِ، وليسَ يقعُ من مثلِه أمرٌ يُنقَمُ منه عليهِ، إلَّا أن يكونَ أمرًا قد لُبِّسَ عليهِ، ونُسِبَ إلى ما لا يُنسَبُ مثلُه إلَيهِ.

والتَّطويلُ على الحضرةِ العليَّةِ لا يليقُ، إنْ يكُن في الدنيا قطبٌ فهو القطبُ على التَّحقيقِ.

أرسلوها في مكاتَباتِهم وفتاويهم الموافقةِ لقولِه، النَّاصرةِ لهُ، وقد ذكرتُ ذلك كلَّهُ في «كتاب مناقبِ ابنِ تيميةَ»[1].

***

---

(١) وانظر: «العقود الدرية» (٣٧٠ ـ ٣٧٣).

[تلخيص ابن فضل الله العمري لمحنة شيخ الإسلام]

ولقد أنصَفَ ابنُ فضلِ اللهِ العمريُّ حيثُ قالَ في ترجمةِ ابنِ تيميةَ: فلقد اجتمعَ عليه عُصَبُ الفقهاءِ والقضاةِ بمصرَ والشَّامِ، وحشدوا عليهِ خيلَهم ورَجِلَهم، فقطَعَ الجميعَ وألزمَهم الحُججَ الواضحاتِ أيَّ إلزامٍ، فلما أفلسوا أخذُوه بالجاهِ والحكَّامِ، وقد مضى ومضَوا إلى المليكِ العلَّامِ؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١][1].

* * *

(١) انظر: «الرد الوافر» (ص٨٤).

فصلٌ في وفاةِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ

قالَ الشَّيخُ الإمامُ العالمُ، العلَّامةُ الحافظُ، ثقةُ المحدِّثينَ، عمدةُ المؤرِّخينَ، علَمُ المفسِّرينَ، ابنُ كثيرٍ الدِّمشقيُّ الشَّافعيُّ في «تاريخِهِ»: ثم دخلَتْ سنةُ ثمانٍ وعشرينَ وسبع مئةٍ، في ذي القعدةِ منها كانَت وفاةُ شيخِ الإسلامِ أبي العبَّاسِ أحمدَ ابنِ تيميةَ قدَّسَ اللهُ روحَهُ(١).

قالَ: وقد اتَّفقَ موتُه في سحَرِ ليلةِ الإثنينِ، فذكَرَ ذلك مؤذِّنُ القلعةِ على المنارةِ بها، وتكلَّمَ بها الحرَّاسُ على الأبرِجةِ، فما أصبحَ النَّاسُ إلَّا وقد تسامَعوا بهذا الخَطْبِ الجسيمِ، فبادرَ النَّاسُ إلى الاجتماعِ حولَ القلعةِ من كلِّ مكانٍ أمكَنَهم المجيءُ منهُ، حتَّى مِن الغوطَةِ والمرجِ، ولم يطبُخْ أهلُ الأسواقِ شيئًا، ولا فتحوا كثيرًا مِن الدَّكاكينِ الَّتي مِن شأنِها أن تُفتَحَ أوائلَ النَّهارِ على العادةِ، وكانَ نائبُ السَّلطنةِ قد ذهبَ يتصيَّدُ في بعضِ الأمكنةِ(٢).

ثم ذكرَ ابنُ كثيرٍ صفةَ غسلِه وحملِه والصَّلاةِ عليهِ، والنَّاسُ في بكاءٍ وتهليلٍ في مخافتِه كلُّ واحدٍ في نفسِه، وفي ثناءٍ وتأسُّفٍ، والنِّساءُ فوقَ الأسطِحةِ مِن هناكَ إلى المقبرةِ يبكِيْنَ ويترحَّمْنَ.

قالَ: وبالجملةِ كانَ يومًا مشهودًا لم يُعهَدْ مثلُه بدمشقَ، ولا يمكِنُ أحدٌ حصرَ من حضَرَ الجنازةَ.

قالَ: ورُثِيَ بأشعارٍ كثيرةٍ وقصائدَ مطوَّلةٍ جدًّا، وقد أفرِدَت له تراجمُ كثيرةٌ، وصنَّفَ في ذلكَ جماعةٌ من الفضلاءِ(٣).

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٥٣).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٥٩).

(٣) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٦٠).

قالَ: وبالجملةِ كانَ رحمَهُ اللهُ من كبارِ العلماءِ، ممَّنْ يخطئُ ويصيبُ، ولكنْ كانَ خطؤُهُ بالنِّسبةِ إلى صوابِه كنقطةٍ في بحرٍ لجِّيٍ، وخطؤُهُ أيضًا مغفورٌ له، كما صحَّ في «البخاريِّ»: «إذا اجتهَدَ الحاكمُ فأصابَ فلهُ أجرانِ، وإذا اجتهَدَ فأخطأَ فلَهُ أجرٌ»[1]، فهو مأجورٌ.

وقالَ الإمامُ مالكُ بنِ أنسٍ: كلُّ أحدٍ يُؤخذُ من قولِه ويُترَكُ إلَّا صاحِبَ هذا القبرِ ﷺ[2].

انتَهى كلامُ ابنِ كثيرٍ مُلخَّصًا[3].

وقالَ الحافظُ البرزاليُّ في «تاريخِه»: وفي ليلةِ الإثنين العشرينَ من ذي القعدةِ سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وسبعِ مئةٍ توفِّيَ الشَّيخُ الإمامُ العلَّامةُ الفقيهُ الحافظُ الزَّاهدُ القدوةُ شيخُ الإسلامِ تقيُّ الدِّينِ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ شيخِنا الإمامِ المفتي شهابِ الدِّينِ أبي المحاسنِ عبدِ الحليمِ بنِ الشَّيخِ الإمامِ شيخِ الإسلامِ مجدِ الدِّينِ أبي البركاتِ عبدِ السَّلامِ ابن تيميةَ، بقلعةِ دمشقَ، في القاعةِ الَّتي كانَ محبوسًا فيها، واجتمَعَ النَّاسُ بالقلعةِ والطَّريقِ إلى جامعِ دمشقَ، وامتلأَ الجامعُ وصحنُهُ، والكلَّاسةُ، وبابُ البريدِ، وبابُ السَّاعاتِ.

وحضرَتِ الجنازةُ السَّاعةَ الرَّابعةَ، ووُضِعَتْ في الجامعِ، والجُندُ يحفظُونها مِن شِدَّةِ الزِّحامِ، وصُلِّيَ عليهِ أوَّلًا بالقلعةِ، ثم صُلِّيَ عليهِ بجامعِ دمشقَ عقبَ الظُّهرِ، وحُمِلَ مِن بابِ البريدِ... وذكرَ بقيَّةَ ذلكَ، وصِفَةَ دفنِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) وروى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٤١) من قول ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه البخاري في «قرة العينين» (١٠٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٠٠) من قول مجاهد.

(٣) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٦٠).

قالَ: وكانَ دفنُه وقتَ العصرِ، وذلكَ مِن كثرَةِ مَن يأتي ويصلِّي عليهِ مِن أهلِ البساتينِ وأهلِ الغُوطةِ وأهلِ القُرَى، وغلَقَ النَّاسُ حوانِيتَهم، ولم يتخلَّفْ عن الحضورِ إلَّا مَن هو عاجِزٌ مع التَّرحُّمِ والدُّعاءِ له، وحضرَ نساءٌ كثيرٌ بحيثُ حُزِرْنَ بخمسةَ عشرَ ألفَ امرأةٍ، غير اللَّواتي كنَّ على الأسطُحِ، وأمَّا الرِّجالُ فحُزِروا بمئةِ ألفٍ إلى أكثرَ مِن ذلكَ إلى مئتي ألفٍ.

ثم قالَ: ولا شكَّ أنَّ جنازةَ أحمدَ بنِ حنبلٍ كانت هائلةً عظيمةً بسبَبِ كثرةِ أهلِ بلدِه واجتماعِهم لذلكَ وتعظيمِهم لهُ، وأنَّ الدَّولةَ كانَتْ تحبُّهُ، والشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ ابنُ تيميةَ توفِّيَ ببلدهِ دمشقَ، وأهلُها لا يعشِّرونَ أهلَ بغدادَ كثرةً، ولكنَّهم اجتمعُوا لجنازتهِ اجتماعًا لو جمعَهم سلطانٌ قاهرٌ وديوانٌ حاصرٌ لَمَا بلَغُوا هذه الكثرةَ، مع أنَّه ماتَ بالقلعةِ محبوسًا مِن جهةِ السُّلطانِ.

وكثيرٌ مِن الفقهاءِ والفقراءِ يذكرونَ عنه للنَّاسِ أشياءَ كثيرةً ينفِرُ منها طباعُ أهلِ الأديانِ فضلًا عن أهلِ الإسلامِ، وهذه كانَت جنازتَهُ رحمَهُ اللهُ. انتهى ملخَّصًا(١).

وقالَ بعضُ من حضرَ مِن الثِّقاتِ: كنْتُ ممَّن صلَّى عليه في الجامعِ، وكان لي مُستشرَفٌ على المكانِ الَّذي صُلِّيَ عليهِ بظاهرِ دمشقَ، وجعلتُ أنظرُ يمينًا وشمالًا، ولا أدري أواخِرَهم، بل رأيتُ النَّاسَ قد طبَّقوا تلك الأرضَ كلَّها(٢).

واتَّفقَ جماعةٌ ممن حضَرَ وشاهدَ الناسَ والمصلِّينَ عليهِ على إنهم يزيدُونَ على نحوٍ من خمس مئةِ ألفٍ.

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٣٨٦-٣٨٨)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ١٥٨-١٥٩)، و«الرد الوافر» (ص١٢٢-١٢٣).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٨٤).

وحضَرَها نساءٌ كثيرٌ بحيثُ حُزِرنَ بخمسَةَ عشرَ ألفًا.

قـالَ أهـلُ التَّاريـخِ: لم يُسـمَع في جنـازةٍ بمثلِ هـذا الجمـعِ إلا جنـازةَ الإمامِ أحمـدَ بنِ حنبَـلٍ[١].

قـالَ الدَّارَقطنـيُّ: سـمعْتُ أبا سـهلِ بـنَ زيـادٍ القطَّانِ يقـولُ: سـمعتُ عبدَ اللهِ ابـن أحمـدَ بن حنبـلٍ يقولُ: سـمعتُ أبي يقـولُ: قولـوا لأهلِ البـدعِ: بينَنـا وبينكُم الجنائزُ[٢].

قالَ أبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ: حزَرَ الحزَّارون المصلِّينَ على جنازةِ أحمدَ فبلَغَ العددُ بحزِرهم ألفَ ألفٍ وسبع مئةَ ألفٍ سوى الذين كانوا في السُّفُنِ[٣].

وقـالَ ابـنُ فضـلِ اللهِ العُمريُّ فـي ترجمَتِه لابنِ تيميـةَ: وكانَ قبلَ موتِـه قد مُنِعَ الـدَّواةَ والقلـمَ، وطُبِـعَ علـى قلبِه منه طابـعُ الألـمِ، فـكانَ ذلك مبـدأَ مرَضِه ومنشَـأَ عرضِـه، حتَّـى نزَلَ قِفـارَ المقابرِ، وتـرَكَ فقَارَ المنابرِ، وحلَّ سـاحةَ ربِّهِ ومـا يحاذِرُ، وأخـذَ راحـةَ قلبـهِ مِن اللَّائـمِ والعاذِرِ، فمـاتَ وما مـاتَ، لا بل حييَ، وعُـرِفَ قدرُهُ لأن مثلَه مـا رُئِيَ[٤].

مـا برِحَ على المـآثـرِ إلى أن صرعَـهُ أجلُهُ، وأتاهُ بشـيرُ الجنَّةِ يسـتعجِلُه، فانتقَلَ إلـى اللهِ، والظنُّ به أنَّـه لا يُخجِّلُه[٥].

---

(١) انظر: «الأعلام العلية» (ص٨٤).

(٢) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٥/ ١٠٦٣)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ٣٧٦).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ٣٣٢)، وانظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١/ ٤٦٧).

(٤) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩١).

(٥) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٦).

وكانَ يومُ دفنِهِ يومًا مشهودًا، ووقتًا معدودًا، ضاقَت بِهِ البلدُ وظواهِرُها، وتُذِكِّرَتْ به أوائلَ الرَّزايا وآواخِرَها، ولم يكن أعظَمُ منها منذ مِئينَ سنينَ جنازةً رُفعَتْ على الرِّقابِ، ووُطِئت في زِحامِها الأعقابُ، وسارَ مرفوعًا على الرُّؤوسِ، متبوعًا بالنُّفوسِ، تحدُوْه العَبَراتُ وتتبَعُه الزَّفراتُ[1].

كان أمَّةً وحدَهُ، وفردًا حتى نزَلَ لحدَهُ[2].

ورثاهُ بقصيدةٍ طويلةٍ منها:

بَذَّ السَّوابق ممتدُّ العبادَةِ لا ... ينالَهُ ملَلٌ فيها ولا ضجَرُ

ولم يكُنْ مثلُهُ بعدَ الصَّحابَةِ في ... عِلمٍ عَظيمٍ وزُهدٍ ما له خَطَرُ

طَريقةٌ كانَ يمشِي قبلَ مِشيَتِه ... بها أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ أو عمرُ

فردَ المذاهِبَ في أقوالِ أربَعةٍ ... جاؤوا على أثرِ السُّبَّاقِ وابتَدَرُوا

لَمَّا بنَوا قبلَهُ عُليا مَذاهِبِهم ... بنى وعمَّرَ منها مثلَ ما عَمَروا

مثلَ الأئمَّةِ قد أحيَا زمانَهم ... كأنَّهُ كانَ فيهم وهوَ مُنتظَرُ

إنْ يرفعُوهم جميعًا رفعَ مُبتدَأٍ ... فحقُّهُ الرَّفعُ أيضًا إنَّهُ خبرُ

قالوا: قَبرناه قُلنا: إنَّ ذا عَجَبٌ ... حقًّا أللكوكبِ الدُّرِّيَ قد قَبرُوا

لم يَبكِه نَدمًا من لا يصبُّ دَمًا ... يجري بهِ دِيَمًا تهْمِي وتَنهَمِرُ

لهَفِي عَليكَ أبا العبَّاسِ كَم كرَمٍ ... لما قَضيتَ قضَى من عُمرِه العمُرُ

سَقَى ثراكَ مَن الوَسْمِيِّ صَيِّبُه ... وزارَ مَفناكَ قَطْرٌ كلُّهُ قَطَرُ

---

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩١ ـ ٦٩٢).

(٢) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٨٨).

يـا وارِثًـا مِـن عُلـومِ الأنبِيـاءِ نُهًـى أورَثْـتَ قَلبـي نـارًا وَقدُهـا الفِكَـرُ
يـا واحِـدًا لسْـتُ أستَثني بـهِ أحـدًا مِـن الأنـامِ ولا أُبـقِـي ولا أذَرُ
يـا عالمًـا بنقـولِ الفقـهِ أجمَعِهـا أعنـكَ تُحفَـظُ زَلَّاتٌ كمـا ذَكـرُوا
كَـم مِـن فتـىً جاهِـلٍ غِـرٍّ أبنْـتَ لـهُ رُشـدَ المقَـالِ فـزَالَ الجَهـلُ والغَـرَرُ
مـا أنكَـروا منـكَ إلَّا أنَّهُـم جهِلـوا عظيـمَ قـدرِكَ لكِـن سـاعَدَ القـدَرُ
قالـوا بأنَّـكَ قـد أخطـأْتَ واحـدَةً وقـد يكُـونُ فهـلَّا منـكَ تُغتَفَـرُ
ومَـن يكُـونُ علـى التَّحقِيـقِ مجتَهِـدًا لـه الثَّـوابُ عَلَـى الحالَيـن لا الـوَزَرُ
ألـم تكُـن بأحادِيـثِ النَّبـيِّ إذا سُـئلْتَ تَعـرِفُ مـا تَأتـي ومـا تَـذَرُ
حاشَـاكَ مِـن شَـبَهٍ فيهـا ومِـن شُـبَهٍ كِلاهُمـا مِنـكَ لا يَبقَـى لـهُ أثَـرُ
عَليـكَ في البحـثِ أن تُبـدِي غَوامِضَهُ ومـا عَلَيـكَ إذا لـم تَفهَـمِ البقَـرُ
قدَّمْـتَ للهِ مـا قدَّمْـتَ مِـن عَمَـلٍ ومـا عَلَيـكَ بهـم ذَمُّـوكَ أو شَـكَروا
هـلْ كانَ مثلكَ مَـن يخفَى عَلَيـهِ هُدًى ومِـن سـمائِكَ تبـدو الأنجُـم الزُّهـرُ
وكيـفَ تحـذَرُ مِـن شـيءٍ تـزلُّ بـهِ أنـتَ التَّقيُّ فمـاذا الخوفُ والحـذَرُ[1]

وقد قالَ الأفاضلُ في الشيخِ ابنِ تيميةَ مراثيَ كثيرةً ذكرْتُ جانبًا منها في كتابي: «الكواكبُ الدُّرِّيَّةُ في مناقبِ المجتهدِ ابنِ تيميةَ».

***

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٢ ـ ٧٠٨)، و«العقود الدرية» (ص٥٢٦ ـ ٥٣١).

(١٨)

[أبو حفص البزار]

وقالَ الشَّيخُ الإمامُ الحافظُ أبو حفصٍ عمرُ البغداديُّ البزَّارُ[١] في ترجمةِ ابنِ تيميةَ: وما وصلَ خبرُ موتِه إلى بلدٍ فيما نعلَمُ إلَّا وصُلِّيَ عليه في جميعِ جوامعِه ومجامعِه، خصوصًا أرضَ مصرَ والشَّامِ والعراقِ وتبريزَ والبصرةِ وقُراها وغيرَها[٢].

وأطالَ في تعدادِ فضائلِ الشَّيخِ، وجمعَ له ترجمةً مُفردةً سمَّاها: «الأعلام العليَّة في مناقبِ الإمامِ ابنِ تيميةَ»[٣].

وقد تقدَّمَ قولُ الحافظِ ابن رجبٍ أنهُ صُلِّيَ على ابنِ تيميةَ صلاةَ الغائبِ في غالبِ بلادِ الإسلامِ القريبةِ والبعيدةِ حتى في اليمنِ والصِّينِ، وأخبرَ المسافرونَ أنهُ نودِيَ بأقصى بلادِ الصِّينِ للصلاةِ عليهِ يومَ جمعةٍ: الصَّلاةُ على ترجمانِ القُرآنِ، رحمَهُ اللهُ تعالى.

اللهمَّ! تغمَّده برحمَتك ورِضوانكَ، وأسكِنهُ أعلَى فراديسِ جنَّاتِكَ، وانفَعنا ببركاتِه الوافرَةِ وعُلومِهِ الزَّاخرةِ، وأنفاسِهِ الطَّاهرَةِ، وأسرارِهِ الباهرَةِ، وأسارِيرِهِ الزَّاهرةِ، واجمَع لنا بين خيرَي الدُّنيا والآخرةِ، آمينَ آمينَ.

---

(١) عمر بن علي بن موسى بن الخليل البغدادي، الأزجي، البزار، الفقيه المحدث، قاضي الحنابلة، سراج الدين أبو حفص، أخذ عن الشيخ ابن تيمية، صنف كثيرًا في الحديث وعلومه، وفي الفقه والرقائق، توفي بالطاعون في طريقه للحج سنة (٧٤٩هـ). وكتابه: «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» مطبوع. انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» (٥/ ١٤٦)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢١١).

(٢) انظر: «الأعلام العلية» (ص٨٥).

(٣) من قوله: «أجله وأتاه بشير الجنَّة يستعجله» إلى هنا سقط من الأصل، والمثبت من (ط)، وهي ما يقارب لوحة.

خاتمةٌ لطيفةٌ

فقد كتَبَ جماعةٌ من الأئمةِ الأماثلِ، والعلماءِ الأفاضِلِ تقاريظَ على «كتابِ الردِّ الوافرِ» تصنيفِ الإمامِ العالمِ الأوحَدِ القُدوةِ الحافظِ أبي عبدِ اللهِ محمَّدِ بنِ ناصرِ الدِّينِ الشَّافعيِّ، خادمِ السُّنَّةِ، الَّذي أَلَّفهُ في الرَّدِّ على مَنْ يطعَنُ في ابنِ تيميةَ، ولقد بالغَ هذا الطَّاعنُ المتهاوِنُ بذنبِه، والمتجرِّئُ على ربِّهِ، فنسَبَ الشَّيخَ إلى الكُفرِ، بل نسَبَ معَه أيضًا من أطلَقَ عليهِ: شيخَ الإسلامِ!

فانظُر إلى ما يقَعُ مِن سفهاءِ الأنامِ، ورِعاعِ اللِّئامِ، وغوغاءِ العَوامِ، ومَن يعُدُّ نفسَهُ بشرًا وهو مِن الأنعامِ، وما هو إلَّا على حدِّ قولِ الأعشى:

كناطحٍ صخرَةً يومًا ليُوهِنَها ... فلَم يُضِرْها وأوهَى قرنَهُ الوَعِلُ[١]

وانتقَيتُ منه هذهِ التراجِمَ، معَ بعضِ زوائدَ لطيفَةٍ:

---

(١) انظر: «ديوان الأعشى» (ص٢٠).

(١٩)

[الحافظ ابن حجر العسقلاني]

صورةُ تقريظِ الإمامِ الحافظِ ابنِ حجرَ العسقلانيِّ:

الحمدُ للهِ، وسلامٌ على عبادِهِ الَّذين اصطَفَى.

وقفْتُ على هذا التَّأليفِ النَّافعِ، والمجموعِ الَّذي هو للمقاصدِ التي جُمِعَ لأجلِها جامعٌ، فتحقَّقْتُ سَعَةَ اطلاعِ الإمامِ الَّذي صنَّفَهُ، وتضلُّعَه مِن العلومِ النَّافعةِ بما عظَّمهُ من العلماءِ وشرَّفَهُ.

وشهرةُ إمامةِ الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ ابنِ تيميةَ أشهرُ مِن الشَّمسِ، وتلقيبُهُ بشيخِ الإسلامِ في عصرِهِ باقٍ إلى الآنَ على الألسنةِ الزَّكيَّةِ، ويستمِرُّ غدًا كما كانَ بالأمسِ، ولا ينكِرُ ذلكَ إلَّا مَن جهِلَ مقدارَهُ وتجنَّبَ الإنصافَ، فما أعظَمَ غلطَ مَن تعاطَى ذلكَ وأكثرَ عِثارَهُ.

ولو لم يكُن مِن الدَّليلِ على إمامةِ هذا الرَّجلِ إلَّا ما نبَّهَ عليهِ الحافظُ الشَّهيرُ علَمُ الدِّينِ البرزاليُّ في «تاريخِه» أنَّه لم يوجَد في الإسلامِ مَن اجتمَعَ في جنازَتِهِ ممَّا اجتمعَ في جنازةِ الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ، وأشارَ إلى أن جنازةِ الإمامِ أحمدَ كانت حافلةً جدًّا، شهِدَها مئاتُ ألوفٍ، ولكن لو كانَ بدمشقَ مِن الخلائقِ نظيرُ مَن كانَ ببغدادَ بل أضعافُ ذلكَ لَمَا تأخَّرَ أحدٌ منهم عن شهودِ جنازَتِه، وأيضًا فجميعُ مَن كانَ ببغدادَ إلَّا الأقلَّ كانوا يعتقِدُونَ إمامةَ الإمامِ أحمدَ، وكانَ أميرُ بغدادَ خليفةُ الوقتِ إذ ذاكَ في غايةِ المحبَّةِ لهُ والتَّعظيمِ، بخلافِ ابنِ تيميةَ؛ فكانَ أميرُ البلَدِ حينَ ماتَ غائبًا، وكانَ أكثرُ مَن بالبلدِ مِن

الفقهاءِ قد تعصَّبُوا عليهِ حتَّى ماتَ محبوسًا بالقلعةِ، ومعَ هذا فلم يتخلَّفْ عن حضورِ جنازَتِه والتَّرحُّمِ عليهِ والتَّأسُّفِ إلَّا ثلاثةُ أنفس، تأخَّرُوا خشيةً على أنفُسِهم من العامةِ.

ومعَ حضورِ هذا الجمعِ العظيمِ فلم يكُن لذلكَ باعثٌ إلَّا اعتقادُ إمامَتِه وبَركَتِه، لا بجمعِ سلطانٍ ولا غيرِهِ، وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «أنتُم شهداءُ اللهِ في الأرضِ»[1].

ولقد قامَ على الشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ جماعةٌ من العلماءِ مرارًا بسببِ أشياءَ أنكرُوها عليهِ مِن الأصولِ والفروعِ، وعُقِدَ له بسببِ ذلكَ عدَّةُ مجالسَ بالقاهرةِ وبدمشقَ، ولا يُحفَظُ عن أحدٍ منهم أنَّه أفتَى بزندَقتِه، ولا حكَمَ بسفكِ دمِهِ، معَ شدَّةِ المتعصِّبينَ عليهِ حينئذٍ مِن أهلِ الدَّولةِ، حتى حُبِسَ بالقاهرةِ ثم بالإسكندريَّةِ، ومع ذلك فكلُّهم معترفٌ بسعةِ علمِه، وكثرةِ ورَعِه وزهدِه، ووصفِهِ بالسَّخاءِ والشَّجاعةِ، وغيرِ ذلكَ من قيامِهِ في نصرةِ الإسلامِ، والدُّعاءِ إلى اللهِ في السِّرِّ والعلانيةِ.

والمسائلُ التي أُنكِرَت عليه ما كانَ يقولُها بالتَّشهِّي، وهذهِ تصانيفُهُ طافحةٌ بالرَّدِّ على مَن يقولُ بالتَّجسُّمِ والتَّبرِّي منهُ، ومعَ ذلكَ فهو بشرٌ يخطيءُ ويصيبُ، فالَّذي أصابَ فيه وهو الأكثرُ يُستفادُ منهُ ويُترحَّمُ عليهِ بسببِه، والَّذي أخطأَ فيهِ لا يُقلَّدُ فيهِ، بل هوَ معذورٌ؛ لأنَّ أئمةَ عصرِه شهِدُوا له بأن أدواتَ الاجتهادِ اجتمعَتْ فيهِ، حتَّى كان أشدُّ المتعصِّبينَ عليه والقائمِينَ في إيصالِ الشرِّ إليهِ وهو الشَّيخُ كمالُ الدِّينِ

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الزملكانيُّ شهِدَ له بذلكَ، وكذلكَ الشيخُ صدرُ الدِّينِ ابن الوكيلِ[1] الَّذي لم يثبُتْ لمناظرَتِه غيرُه.

ومن أعجَبِ العجَبِ أنَّ هذا الرَّجلَ كانَ أعظَمَ النَّاسِ قيامًا على أهلِ البدَعِ من الرَّوافضِ والحلوليَّةِ والاتِّحاديةِ، وتصانيفُه كثيرةٌ شهيرةٌ، وفتاوِيه في ذلكَ لا تدخُلُ تحت الحصرِ، فيا قرَّةَ أعيُنِهم إذا سمعوا بكفرِه، ويا سرورَهم إذا رأوا مَن يكفِّر مَنْ لا يكفِّرُهُ!

فالواجبُ على مَنْ تلبَّسَ بالعلمِ وكانَ له عقلٌ أنْ يتأمَّلَ كلامَ الرَّجلِ مِن تصانيفِهِ المشهورةِ، أو مِن ألسنَةِ من يوثَقُ بهِ من أهلِ النَّقلِ، فيرُدُّ مِن ذلكَ ما يُنكَرُ فيحذَرُ منهُ على قصدِ النُّصحِ.

[ثناء ابن حجر على ابن القيم]

ولو لم يكُن للشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ إلَّا تلميذُه الشَّيخُ شمسُ الدِّينِ ابنُ القيمِ الجوزيَّةِ صاحِبُ التَّصانيفِ النَّافعةِ السَّائرةِ الَّتي انتفَعَ بها الموافقُ والمخالفُ = لكانَ غايةً في الدلالةِ على عِظَمِ منزِلَتِه.

فكيفَ وقد شهِدَ له بالتَّقدُّمِ في العلومِ والتَّمييزِ في المنطوقِ والمفهومِ أئمَّةُ عصرِه مِن الشَّافعيَّةِ وغيرِهم، فضلًا عن الحنابلةِ.

---

(١) صدر الدين محمد بن عمر بن مكي، أبو عبد الله الشافعي الأشعري، المعروف بابن الوكيل وبابن المرحّل وبابن الخطيب، شيخ الشافعية، أفتى وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، كان ذكيًّا نظّارًا حافظًا، يسرد في كل فن أسفارًا، لا يقوم أحد لجداله، ولا يُرى في عصره أحد من رجاله، مكثراً من جميع الفنون، يستحضر الأسانيد والمتون، ولم يكن يقوم بمناظرة العلامة تقي الدين بن تيمية سواه، توفي سنة (٧١٦هـ). انظر: «العبر» للذهبي (٤/ ٤٥)، و«أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ٣٩٠).

فالَّذي يُطلِقُ عليهِ ـ مع هذهِ الأشياءِ ـ الكفرَ أو على مَن سمَّاهُ شيخَ الإسلامِ لا يُلتفَتُ إليهِ، ولا يعوَّلُ في هذا المقامِ عليهِ، بل يجِبُ ردُّهُ عن ذلكَ إلى أن يراجِعَ الحقَّ ويُذْعِنَ للصَّوابِ.

واللهُ يقولُ الحقَّ وهو يهدي السَّبيلَ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ.

قالَ ذلكَ وكتبَه أحمدُ بنُ أحمدَ بنِ عليٍّ بنِ محمدِ ابنِ حجرٍ الشافعيُّ، وذلكَ في يومِ الجمعةِ، تاسعَ ربيعٍ الأوَّلِ، سنةَ خمسٍ وثلاثينَ وثمان مئةٍ.

* * *

(٢٠)

[بدر الدِّين العيني][(١)]

وهذا صورةُ تقريظِ الإمامِ الهمامِ شيخِ الإسلامِ صاحبِ «تحريرِ الكلامِ»، وإمامِ الحنفيَّةِ في زمانِه، الشَّيخِ العينيِّ رحمَهُ اللهُ تعالى:

إنَّ أضوَعَ زهرٍ تفتَّقَ عنهُ أكمامُ ألسُنِ الأنامِ، وأبدعَ ذكرٍ يعبَقُ منه طيبُ الأفهامِ، حمدُ مَن أجرَى ماءَ التِّبيانِ في عودِ اللِّسانِ، لحملِ ثمارِ المعاني والبيانِ، وكشَفَ ضبابةَ الأوهامِ بشموسِ الحقائِقِ، وأبانَ ما في القلوبِ بأقمارِ الحقائقِ، وأشرَعَ أسنَّةَ الخواطرِ والأفكارِ بأيدي أنوارِ البصائرِ والأبصارِ، إلى ثغرِ العلومِ والأخبارِ، وأقلَعَ عنَّا بنسائمِ ألطافِهِ عجاجَةَ الظُّنونِ والشُّكوكِ، ووقعَ لنا مناشيرَ الصِّدقِ في السُّلوكِ، وأراحَنا في ركوبِ أعناقِ الكلامِ مِن العثراتِ والـمَلامِ، وأراحَنا عن مقالاتٍ لا يُقالُ فيها العِثارُ، ومحالاتٍ يستحِيلُ فيها الإعذارُ.

اللَّهمَّ صلِّ على صاحبِ الوحيِ والرِّسالَةِ، المخلوقِ مِن طينَةِ الفصاحةِ والبَسالةِ، الَّذي أصعَدْتَهُ في ذُرى الملكوتِ، وأعطيتَهُ الكتابَ، وقرَنْتَ بطاعَتِهِ ومعصِيَتِهِ الثَّوابَ والعقابَ؛ محمَّدٍ المصطفى، المستأثِرِ بالشَّفاعةِ يومَ الحسابِ، وعلى آلِه الذينَ تنزَّهوا في رياضِ نبوَّتِه، وأصحابِه الذينَ تقلَّدُوا بسيوفِ النُّصرةِ في دعوَتِه، وعلى علماءِ الأمَّةِ الَّذين استظهرُوا على صَدماتِ الدَّهرِ وصولَتِه، بنزعِ ألسنَتِهم في تفويقِ سهامِ الطَّعنِ إلى أغراضِ العصبيَّةِ، وإقلاعِ أسنَّةِ خوضِهم في أعراضِ الأنفُسِ الأبيَّةِ، فلذلكَ صاروا أنجُمًا للاهتداءِ، وبدورًا للاقتداءِ، فأجدِرْ بهم أنْ يُفوَّه لهم بمشايخِ الإسلامِ، وأنصارِ شريعَةِ خيرِ الأنامِ.

---

(١) تقدم التعريف به أول الكتاب.

وبعدُ:

فإنَّ مؤلِّفَ «كتابِ الردِّ الوافرِ» قد جدَّ في هذا التَّصنيفِ البديعِ الزَّاهرِ، وجلا بمنطقِهِ السَّحَّارِ الرَّدَّ على مَن تفوَّهَ بالإكفارِ لعلماءِ الإسلامِ والأئمَّةِ الأساطينِ، والأعلامِ الَّذينَ تبوَّؤوا الدَّارَ في رياضِ النَّعيمِ، واستنشَقُوا رياحَ الرَّحمةِ مِنْ ربٍّ كريمٍ، فمَنْ طَعَنَ في واحدٍ منهم أو نقَلَ غيرَ صحيحٍ عنهم فكأنَّما نفخَ في الرَّمادِ، واجتنَى مِن خَرْطِ القَتادِ[١].

وكيفَ يحلُّ لمن يتَّسِمُ بالإسلامِ، أو يتسمَّى بسمةٍ أو علمٍ أو فهمٍ وإفهامٍ أن يكفِّرَ مَن قلبُه عن ذلكَ سليمٌ بهيجٌ، واعتقادُه لا يكادُ إلى ذلكَ يهيجُ، ولكِن من لم يُورِ زَنْدَ[٢] طبعِه في القريضِ لم يزَل يجدُ العَذْبَ مُرًّا كالمريضِ، والعائبُ بجهلِهِ شيئًا يبدِي صفحةَ معاداتِه، ويتخبَّطُ خبطَ العشواءِ في محاوراتِه، وليسَ هو إلَّا كالجُعلِ باشتمامِ الوردِ يموتُ حتفَ أنفِه، وكالخفَّاشِ يتأذَّى بظهورِ سَنا الضَّوءِ لسوءِ بصرِه وضعفِه، وليسَ له سَجِيَّةٌ نقَّادةٌ، ولا رويَّةٌ وقَّادةٌ، وما هم إلَّا صَلقَعُ بَلْقَعُ سَلْقَعُ، صَلْمَعَةُ بنُ قَلْمَعَةَ، وهيَّانُ بنُ بيَّانَ، وهيُّ بنُ بيٍّ، وضُلُّ بنُ ضُلٍّ، وضَلالُ بنُ التَّلالِ[٣].

---

(١) دونه خرط القتاد: مثل يضربان للأمر الشاق، والخرط: قشر الورق عن الشجر اجتذابًا بكفِّك، والقتاد: شجر له شوك صلب. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: خرط، قتد)، و«المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٨٢).

(٢) ورى الزند يري وريًا: إذا خرجت منه النار، فهو وار، وأوريته أنا إيراء. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: وري). والزَّنْدُ والزَّنْدة: خَشَبتان يُستقدَح بهما. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: زند).

(٣) تقدم تفسير غريب هذه العبارات أول الكتاب.

ومِنَ الشَّائعِ المستفيضِ أنَّ الشَّيخَ الإمامَ العالمَ العلَّامةَ تقيَّ الدِّينِ ابنَ تيمية مِن شُمِّ عَرانينِ الأفاضِلِ، ومِن جُمِّ براهينِ الأماثلِ، الَّذي كانَ لهُ مِن الأدبِ مآدِبُ تغذِّي الأرواحَ، ومِن نخبِ الكلامِ له سُلافةٌ[1] تهزُّ الأعطافَ المراحَ، ومِن ثمارِ أفكارِ ذوي البراعةِ، طبعُهُ المفلقُ في الصِّناعةِ، الخاليةِ عن وصمَةِ الشَّناعةِ، وهو الكاشفُ عن وجوهِ مخدَّراتِ المعاني نقابَها، والمنتزِعُ عن عرائسِ أبكارِ المباني بكشفِهِ جلبابَها، وهو الذَّابُّ عن الدِّينِ طعنَ الزَّنادِقةِ والملحِدينَ، والنَّاقدُ للمرويَّاتِ عن سيِّدِ المرسَلِينَ، وللمأثوراتِ عن الصَّحابةِ والتَّابعِينَ.

فمن قالَ: إنَّه كافرٌ فهو كافرٌ حقيقٌ، ومَنْ نسبَهُ إلى الزَّندقةِ فهوَ زنديقٌ، وكيفَ ذاكَ وقد سارَت تصانيفُه في الآفاقِ، وليسَ فيها شيءٌ ممَّا يَدُلُّ على الزَّيغِ والشِّقاقِ، ولم يكُن بحثُه فيما صدرَ عنهُ في مسألةِ الزِّيارَةِ والطَّلاقِ إلَّا عن اجتهادٍ سائغٍ بالاتفاقِ، والمجتهِدُ في الحالتَيْنِ مأجورٌ ومثابٌ، وليسَ فيه شيءٌ ممَّا يُلامُ ويُعابُ، لكِنْ حملَهُم على ذلكَ حسَدُهم الظَّاهرُ، وكيدُهم الباهرُ، وكفَى للحاسدِ ذمًّا آخرُ سورةِ الفلَقِ في احتراقِه بالقلَقِ.

ألا وهو الإمامُ الفاضلُ البارعُ، التَّقيُّ النَّقيُّ الورِعُ، الفارِسُ في عِلْمَي الحديثِ والتَّفسيرِ، والفقهِ والأصولِ، بالتَّقريرِ والتَّحريرِ، والسَّيفُ الصَّارمُ على المبتدعِينَ، والحبرُ القائمُ بأمورِ الدِّينِ، والأمَّارُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكَرِ، ذو همَّةٍ وشجاعةٍ وإقدامٍ فيما يروعُ ويُزجَرُ، كثيرُ الذِّكرِ والصَّومِ والصَّلاةِ والعبادةِ، خشنُ العيشِ والقناعةِ، مِن دونِ طلَبِ الزِّيادةِ.

---

(١) السلافة: من أسماء الخمر، وهي من الخمر أخلصها وأفضلها. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: سلف).

وكانت له المواعيدُ الحسَنةُ السَّنيَّةُ، والأوقاتُ الطَّيِّبَةُ البهيَّةُ، مع كفِّهِ عن حُطامِ الدُّنيا الدَّنيَّةِ، وله المصنَّفاتُ المشهورَةُ المقبولَةُ، والفتاوى القاطِعةُ غيرُ المعلولَةِ.

وقد كتبَ على بعضِ مُصنَّفاتِهِ قاضي القضاةِ ابنُ الزَّملكانيِّ رحمَهُ اللهُ:

ماذا يقُولُ الواصِفُونَ لهُ وصِفَاتُه جَلَّتْ عن الحَصرِ

هوَ حُجَّةٌ للهِ قاهِرَةٌ هو بيننا أُعجُوبةُ الدَّهرِ[(١)]

أفلا تكفِي شهادةُ هذا الحبرِ لهذا الإمامِ، حيثُ أطلَقُوا عليهِ حجَّةَ اللهِ في الإسلامِ، ودعواهُ أن صفاتِه الحميدَ لا يمكِنُ حصرُها، ويعجَزُ الواصِفُ عن عَدِّها وسبرِها، فإذا كانَ كذلكَ كيفَ لا يجوزُ إطلاقُ شيخِ الإسلامِ عليهِ، أو التَّوجُّهُ بذكرِه إليهِ، وكيفَ يسوغُ إنكارُ المعانِدِ الماكرِ الحاسدِ؟!

وليتَ شِعري! ما مُتمسَّكُ هذا المكابِرِ الجاهِلِ المجاهِرِ، وقد علِمَ أنَّ لفظَةَ الشَّيخِ لها معنيانِ؛ لغويٌّ، واصطلاحيٌّ.

فمعناهُ اللُّغويُّ: الشَّيخُ: مَنِ استَبانَ فيهِ الكِبَرُ.

ومعناهُ الاصطِلاحيُّ: الشَّيخُ: مَنْ يصلُحُ أن يُتلْمَذَ لهُ.

وكِلَا المعنيَيْنِ موجودٌ في الإمامِ المذكورِ، ولا ريبَ أنَّه كانَ شيخًا لجماعةٍ مِن علماءِ الإسلامِ، ولتلاميذِه مِن فقهاءِ الأنامِ، فإذا كانَ كذلكَ كيفَ لا يُطلَقُ عليه شيخُ الإسلامِ؛ لأنَّ مَن كانَ شيخَ المسلمينَ يكونُ شيخًا للإسلامِ.

وقد صرَّحَ بإطلاقِ ذلكَ عليهِ قضاةُ القضاةِ الأعلامُ، والعلماءُ الأفاضِلُ

---

(١) انظر: «العقود الدرية» (ص٢٥)، و«تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٨)، و«الرد الوافر» (ص٥٧).

أركانُ الإسلامِ، وهم الَّذينَ ذكرَهم مؤلِّفُ «كتابِ الردِّ الوافرِ» في رسالَتِه التي أبدَعَ فيها بالوجهِ الظَّاهرِ، وقد استغنَينا بذكرِهِ عن إعادَتِه، فالواقِفُ عليه يتأمَّلُه، والنَّاظرُ فيهِ يتقبَّلُه.

وأمَّا مناظراتُ هذا الإمامِ فكثيرةٌ في مجالسَ عديدةٍ، فلم يظهَرْ في ذلكَ لمعانِديه فيما ادُّعِيَ به عليهِ برهانٌ، غيرَ تنكيداتٍ في القلوبِ رسخَتْ من ثمارِ الشَّنآنِ، وقصارَى ذلك أنَّه حُبِسَ بالظُّلمِ والعُدوانِ، وليسَ في ذلك ما يُعابُ به ويُشانُ.

وقد جرَى على جُلَّةٍ مِن التَّابعينَ الكبارِ مِن قتلٍ وقيدٍ وحبسٍ وإشهارٍ، وقد حُبِسَ الإمامُ أبو حنيفةَ رضيَ الله عنه وماتَ في الحبسِ، فهل قالَ أحدٌ مِن العلماءِ: إنَّه حبِسَ حقًّا؟! وحُبِسَ الإمامُ أحمَدُ وقيِّدَ لَمَّا قالَ قولًا صِدقًا، والإمامُ مالكٌ ضُرِبَ ضربًا مؤلمًا شديدًا بالسِّياطِ، والإمامُ الشَّافعيُّ حُملَ من اليمنِ إلى بغدادَ بالقيدِ والاحتياطِ، وليسَ ببِدعٍ أن يجرِيَ على هذا الإمامِ ما جَرَى على أولئكَ الأئمَّةِ الأعلامِ.

ثم ذكرَ العينيُّ وفاةَ ابنِ تيميةَ وكثرةَ الخلائقِ في جنازَتِهِ ومرثِيَةَ عمرَ ابنِ الوردِيِّ فيه.

ثم قالَ: وفيهِ يقولُ العلَّامةُ أثيرُ الدِّينِ أبو حيَّانَ رحمَهُ اللهُ تعالى:

قامَ ابنُ تيميةٍ في نَصرِ شِرعَتِنا	مَقامَ سيِّدِ تَيمٍ إذ عَصَتْ مُضَرُ
فأظهَرَ الحقَّ إذْ آثارُهُ درَسَتْ	وأخمَدَ الشَّرَّ إذْ طارَتْ لهُ الشَّرَرُ
كنَّا نُحَدَّثُ عن حَبرٍ يجِيءُ فها	أنتَ الإمامُ الَّذي قدْ كانَ يُنتَظَرُ[1]

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٨)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين (ص٦٣)، و«الدرر الكامنة» =

ومثلُ الإمامِ أبي حيانَ إذا شهِدَ له بأنَّه ناصرُ الشَّريعةِ، ومظهِرُ الحقِّ، ومخمِدُ الشَّرِّ وأنَّه هو الإمامُ الَّذي كانوا ينتظِرُونَ مجيئه = كفاهُ مدحًا وتزكيةً.

فإذا كانَ هذا الإمامُ بهذا الوصفِ بشهادةِ هذا العلَّامةِ، وبشهادةِ غيرِه مِنَ العلماءِ الكبارِ، فما يترتَّبُ على مَن يُطلِقُ عليه الزَّندقةَ أو ينبِزُهُ بالكفرِ؟

ولا يصدُرُ هذا إلَّا عن غبيٍّ جاهلٍ، أو مجنونٍ كاملٍ، فالأوَّلُ يُعزَّرُ بغايةِ التَّعزيرِ، ويُشهَّرُ في المجالسِ غايةَ التَّشهيرِ، بل يُؤبَّدُ في الحبسِ إلى أن يُحدِثَ التَّوبةَ، ويرجِعَ عن ذلكَ بأحسنِ الأوبةِ، والثَّاني يُداوَى بالسَّلاسلِ والأصفادِ، والضَّربِ الشَّديدِ بلا أعدادٍ.

وهذا كلُّهُ مِن فسادِ أهلِ هذا الزَّمانِ، وتواني ولاةِ الأمرِ عن إظهارِ العدلِ والإحسانِ، وقطعِ دابرِ المفسِدينَ، واستئصالِ شأفةِ المدبِرينَ، حيثُ يتصدَّى جاهلٌ غبيٌّ يدَّعي أنَّه عالمٌ، يثلُبُ أعراضَ علماءِ المسلمينَ، ولا سيَّما الَّذين مضَوا إلى الحقِّ وبهِ كانوا عادلِينَ.

وهذا الإمامُ ـ معَ جلالةِ قدرِه في العلومِ ـ نُقِلَتْ عنهُ على لسانِ جمٍّ غفيرٍ مِن النَّاسِ كراماتٌ ظهرَتْ منه بلا التباسٍ، وأجوبةٌ قاطعةٌ عندَ السُّؤالِ مِن المعضلاتِ مِن غيرِ توقُّفٍ بحالةٍ مِن الحالاتِ.

ومِن جُمْلةِ ما سُئِلَ عنهُ، وهو على كرسيِّهِ يعِظُ النَّاسَ، والمجلِسُ غاصٌّ بأهلِه، في رجلٍ يقولُ: ليسَ إلَّا اللهُ، ويقولُ: اللهُ في كلِّ مكانٍ، هل هو كفرٌ أو إيمانٌ؟

= لابن حجر (١/ ١٧٧). وانظر الأبيات في «ديوان أبي حيان» (ص٤٤٧).

فأجابَ على الفورِ: مَن قالَ: إنَّ اللهَ تعالى بذاتِه في كلِّ مكانٍ فهو مخالفٌ للكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ المسلمينَ، بل هو مخالِفٌ للمِلَلِ الثَّلاثِ، بلِ الخالقُ سبحانَه وتعالى بائنٌ من المخلوقاتِ، ليسَ في مخلوقاتِه شيءٌ مِن ذاتِه، ولا في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، بل هو الغنيُّ عنها، البائنُ بنفسِه منها.

وقد اتَّفقَ الأئمَّةُ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ والأئمَّةِ الأربعةِ وسائرِ أئمَّةِ الدِّينِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] ليسَ معناه أنَّه مختلِطٌ بالمخلوقاتِ وحالٌّ فيها، ولا أنَّه بذاتِه في كلِّ مكانٍ، بل هو سبحانَه وتعالى معَ كلِّ شيءٍ بعلمِه وقُدرَته ونحوِ ذلكَ، فاللهُ سبحانه وتعالى معَ العبدِ أينما كانَ، يسمَعَ كلامَه، ويرى أفعالَه، ويعلَمُ سرَّهُ ونجواهُ، رقيبٌ عليهم، مُهيمِنٌ عليهم، بل السَّماواتُ الأرضُ وما بينَهُما كلُّ ذلك مخلوقٌ للهِ، ليسَ الله بحالٍّ في شيءٍ منه، سبحانَه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، لا في ذاتِه، ولا في صفاتِه، ولا أفعالِه، بل يوصَفُ اللهُ بِمَا وَصَفَ به نفسَهُ، وبما وصفَهُ رسولُه مِن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ومِن غيرِ تحريفٍ ولا تَعطيلٍ، ولا تُمَثَّلُ صفاتُه بصفاتِ خلقِه.

ومذهبُ السَّلَفِ إثباتٌ مِن غيرِ تشبيهٍ، وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ، وقد سُئلَ الإمامُ مالكٌ رضيَ الله عنه عن قولِه تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فقالَ: الاستواءُ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ(١).

---

(١) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٠٤)، وابن المقرئ في «معجمه» (٣/ ٥٧)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٦٦٤) عن الإمام مالك.

فهذا الإمامُ كما رأيتَ عقيدَته وكاشفت سريرَته، فمَنْ كانَ على هذه العقيدةِ كيفَ يُنسَبُ إلى الحلولِ والاتِّحادِ والتَّجسيمِ؟! أو ما يذهبُ إليه أهلُ الاتِّحادِ. أعاذَنا الله وإيَّاكم مِنَ الزَّيغِ والضَّلالِ والفَسادِ، وهدانا إلى سُبُلِ الخيرِ والرَّشادِ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابةِ جديرٌ.

حرَّره منمَّقًا، فقيرُ ربِه الغنيّ، أبو محمَّدٍ، محمودُ بنُ أحمدَ العينيُّ، عاملَهُ الله بلطفِه الخفيِّ والجليِّ، بتاريخِ الثَّامنَ عشرَ مِن ربيعِ الأوَّلِ، عام خمسةٍ وثلاثينَ وثمان مئةٍ بالقاهرةِ المحروسَةِ[1].

***

(١) انظر: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٥٦٦).

(٢١)

[شيخ الإسلام التَّفَهْني][1]

وهذا صورةُ تقريظِ الإمامِ وشيخِ الإسلامِ التَّفَهْنِيِّ الحنفيِّ:

الحمدُ للهِ الَّذي جعَلَ قلوبَ العلماءِ كنوزَ لطائفِ الحِكَمِ، وألسنَتَهم مكفوفةً عمَّا فيه نقصٌ أو جرحٌ أو ألمٌ، وأسماعَهم عن سماعِ قولِ الفُحشِ في صَممٍ، وخصَّهم بين الأنامِ بجلائلِ النِّعَمِ، وجعلَهم محفوظينَ عن الخوضِ في الأعراضِ، متجانِبينَ عمَّا يؤدِّي إلى ظهورِ الأغراضِ.

وصلَّى الله على سيِّدِنا محمَّدٍ المبعوثِ للعربِ والعجمِ، وعلى آله وأصحابِه ذوي الكرَمِ والهِمَمِ.

وبعدُ:

فإنَّ صاحبَ هذا التَّأليفِ قد أمعنَ وأجادَ، وبيَّنَ وأتقنَ وأفادَ، فيما هو المقصودُ والمرادُ، مِن الردِّ على مَن أكفَرَ علماءَ الإسلامِ، وهم الأئمَّةُ الأعلامُ، بنسبتِهم الشَّيخَ العالمَ النَّاسكَ تقيَّ الدِّينِ ابنَ تيميةَ الى كونِه شيخَ الإسلامِ.

فنقولُ وباللهِ التَّوفيقُ: إنَّ الشَّيخَ تقيَّ الدِّينِ ابنَ تيميةَ كانَ على ما نُقِلَ إلينا مِن الَّذين عاشرُوه، وما اطَّلَعنا عليه مِن كلامِ تلميذِه ابنِ القيِّمِ الجوزيَّةِ الَّذي سارَتْ تصانيفُه في الآفاقِ، كانَ عالمًا مفنِّنًا مُتقنًا، مُتقلِّلًا مِن الدُّنيا، مُعرِضًا

---

[1] القاضي زين الدّين عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن الحنفي التّفهني؛ نسبة إلى تفهن قرية بمصر، مهر في الفقه والعربية، وناب في الحكم، وولي تدريس الصّرغتمشية، وولي قضاء الحنفية، فباشره مباشرة حسنة، وكان حسن العشرة، كثير العصبيّة لأصحابه، توفي سنة (٨٣٥ هـ). انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (٩/ ٣١١).

عنها، متمكِّنًا من إقامةِ الأدلَّةِ على الخصومِ، حافظًا للسُّنَّةِ، عارفًا بطرِقها، عالمًا بالأصلَيْنِ؛ أصولِ الدِّينِ وأصولِ الفقهِ، قادرًا على الاستنباطِ لاستخراجِ المعاني، لا يلومُه في الحقِّ لومةُ لائمٍ، قائمًا على أهلِ البِدَعِ المجسِّمةِ والحلوليَّةِ والمعتزلةِ والرَّوافضِ وغيرِهم.

والإنسانُ إذا لم يُخالَطْ ولم يُعاشَرْ يُستدَلُّ على أحوالِه وأوصافِه بآثارِه، ولو لم يكُنْ مِنْ آثارِه إلَّا ما اتَّصفَ به تلميذُه ابنُ القيِّمِ الجوزيَّةِ مِن العلمِ لكفَى ذلك دليلًا على ما قلْناهُ.

وما نُقِلَ إلينا ممَّا اجتمَعَ في جنازَته مِن الخَلْقِ الَّتي لا تُحصَى، حتَّى شُبِّهَتْ جنازُتُه بجنازةِ الإمامِ أحمدَ رضيَ الله عنه عبرةً لمن اعتبرَ، وما نقِلَ إلينا مِن تسلُّطِه على الجانِّ المردَةِ عبرةٌ أيضًا.

قالَ تلميذُه ابنُ القيِّمِ الجوزيَّةِ عندَ كلامِه عنِ الصَّرَعِ في «الطِّبِّ النبويِّ» واختارَ أنَّ الصَّرعَ على قسمَينِ؛ صرعٌ يتعلَّقُ بالأخلاطِ، وصرعٌ يتعلَّقُ بالأرواحِ الخبيثةِ: كانَ شيخُنا ابنُ تيميةَ يأتي إلى المصروعِ، ويتكلَّمُ في أذنِه بكلماتٍ، فيخرُجُ الجنيُّ منهُ، فلا يعودُ إليهِ بعدَ ذلكَ[1]، وحكايتُهُ مع الذي اختُطِفَتْ زوجَتُه معروفةٌ، ومع الَّذي كانَ يرتفِعُ إلى السَّقفِ معروفةٌ أيضًا.

فمَنْ كانَ يتصِّفُ بهذه الأوصافِ كيفَ لا يلقَّبُ بشيخِ الإسلامِ.

ومذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ: لا يجوزُ تكفيرُ أحدٍ مِن أهلِ القبلَةِ، أعمُّ مِن أنْ يكُونَ سُنيًّا أو معتزليًّا أو شيعيًّا أو من الخوارجِ، وهو المرويُّ عن أبي حنيفةَ رضيَ الله عنه، فإنَّه سُئِلَ عن طائفةٍ مِن الخوارجِ فقالَ: هم أخبَثُ الخوارجِ،

---

(١) انظر: «الطب النبوي» لابن القيم (ص٥٢).

فقيلَ: هل تكفِّرُهم؟ فقالَ: لا[١]. وهكذا المرويُّ عن الشَّافعيِّ والأشعريِّ وأبي بكرٍ الرَّازيِّ.

وقد أخبرَني من حضَرَ مجلِسَ هذا المكفِّرِ فقالَ: ابنُ تيميةَ كافرٌ مجوسيٌّ، اليهودُ والنَّصارَى خيرٌ منهُ؛ فإنَّ النَّصارَى واليهودَ لهم كتابٌ، وابنُ تيميةَ لا كتابَ له!

فنعوذُ باللهِ مِنْ هذهِ النَّزغَةِ الشَّيطانيَّةِ الفظيعَةِ القبيحَةِ، مع أنَّهُ لم يُنقَل عنِ ابنِ تيميةَ كلامٌ يقتَضِي كفرًا ولا فسقًا ولا ما يَشينُه في دينِه.

وقد كُتِبَتْ في زمنِه محاضرُ بجماعةٍ مِن العلماءِ العدولِ، اطَّلَعنا عليها بأنَّه لم يقَع منهُ شيءٌ ممَّا يَشينُه في دينِهِ، ووصفُوه في تلكَ المحاضرِ بأعظَمَ ممَّا قلناهُ مِنْ أوصافِه المتقدِّمةِ، وإنَّما قامَ عليه بعضُ العلماءِ في مسألَتي الزِّيارَةِ والطَّلاقِ، وقضيَّةُ مَن قامَ عليهِ مشهورَةٌ، والمسألتانِ المذكورَتانِ ليسَتا مِن أصولِ الأديانِ، وإنَّما هما مِن فروعِ الشَّريعةِ الَّتي أجمعَ العلماءُ على أنَّ المخطِئَ فيها مجتهدًا مُثابٌ لا يُكفَّرُ ولا يُفسَّقُ، والشَّيخُ كان يتكلَّمُ في المسألتَينِ بطريقِ الاجتهادِ.

وقد ناظرَهُ مَن أنكرَ عليه فيهما مناظرةً مشهورةً بأدلَّةٍ يحتاجُ مَن عارَضَه فيها إلى التَّأويلِ.

ثم قالَ بعد كلامٍ طويلٍ عن المعترِضِ: وكما وقَعَ له مثلُ ذلكَ في حقِّ شخصٍ ممَّن أجمَعَ النَّاسُ على علمِهِ وخيرِهِ ودينِهِ وتبحُّرِهِ في العلومِ، وهو الشَّيخُ شمسُ الدِّينِ البساطيُّ قاضي القضاةِ المالكيُّ بالدِّيارِ المصريَّةِ[٢].

---

(١) انظر: «الفقه الأكبر» لأبي حنيفة (ص١١٠).

(٢) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المالكي البساطي نسبة لبعض قرى بساط ـ في الغربية بمصر ـ، كان في شبيبته نابغة في الطلبة، واشتهر أمره وبعد صيته واشتغل في فنون، =

فنسألُ اللهَ أن يتوبَ عليهِ، وأن يصونَ لسانَه ولسانَنا عن الزَّلَلِ، آمينَ.

قالَ ذلكَ عبدُ الرَّحمنِ التَّفهِنِيُّ الحنفِيُّ، عاملَهُ اللهُ بلطفِه الخفيِّ، في رابعَ عشرَ ربيعٍ الأوَّلِ، سنةَ خمسٍ وثلاثينَ وثمان مئةٍ.

***

= وكان عارفاً بفنون المعقول والعربية والمعاني والبيان والأصلين وصنف فيهما تصانيف وفي الفقه أيضًا، وباشر القضاء نحو عشرين سنة، توفي سنة (٨٤٢ هـ). انظر: «السلوك لمعرفة دولة الملوك» للعبيدي (٧/ ٢٤٢)، و«إنباء الغمر» لابن حجر (٤/ ١٢٤)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٥/ ٤٦٦).

(٢٢)

[علم الدِّين البلقيني][1]

هذا صورةُ تقريظِ ما كتبَهُ الشَّيخُ الإمامُ وشيخُ الإسلامِ البُلقِينيُّ:

قالَ بعدَ الخُطبةِ: وقفتُ على هذا التَّصنيفِ الجامعِ، والمنتقَى البديعِ المطرِبِ للسَّامعِ، وعملْتُ بشروطِ الواقِفِينَ مِن استيفاءِ النَّظَرِ، فوجدْتُه عقدًا مُنظَّمًا بالدُّررِ، يفوقُ عقودَ الجُمَانِ، ويُزرِي بقلائدِ العِقيانِ، ويضوعُ مسكُ الثَّناءِ على جامعِه مدى الزَّمانِ، وقالَ لسانُ الحالِ في حقِّهِ: (ليسَ الخبرُ كالعيانِ)[2].

وكيفَ لا؟! وهو مشتمِلٌ على مناقبِ عالمِ زمانِه، والفائقِ على أقرانِه، والذَّابِّ عن شريعةِ المصطفى باللِّسانِ والقلَمِ، والمناضِلِ عن الدِّينِ الحنيفِيِّ وكم أبدَى من الحكَمِ.

صاحبِ المصنَّفاتِ المشهورةِ، والمؤلَّفاتِ المأثورَةِ، النَّاطقةِ بالرَّدِّ على أهلِ البدَعِ والإلحادِ، القائلِينَ بالحلولِ والاتِّحادِ، ومَن هذا شأنُهُ كيفَ لا يُلَقَّبُ بشيخِ الإسلامِ، وينوَّه بذكرِهِ بينَ العلماءِ الأعلامِ؟! ولا عِبرةَ بمَنْ يرمِيهِ بما ليسَ فيهِ، أو

---

(١) علم الدين صالح بن عمر بن رسلان البلقيني الشافعي، ابن شيخ الإسلام سراج الدين، برع في الفقه وأفتى ودرس، واستمر ملازماً لأخيه قاضي القضاة جلال الدين البلقيني إلى أن توفي، ولي القضاء غير مرة، توفي سنة (٨٦٨ هـ). انظر: «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (ص١٦٩)، و«المنهل الصافي» (٦/ ٣٢٧)، و«النجوم الزاهرة» (١٦/ ٣٣٣) كلاهما لابن تغري بردي، و«طبقات المفسرين» للداوودي (١/ ٢٢٠).

(٢) استعمل مثلاً كما هنا، وأصله حديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٤٢)، والبزار في «مسنده» (٥٠٦٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٥٠)، بلفظ: «ليس الخبر كالمعاينة». وانظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ١٨٢).

ينسِبُه بمجرَّدِ الأهواءِ إلى قولٍ غيرِ وجيهٍ، فلم يضرَّهُ قولُ الحاسدِ والباغِي والجاحِدِ والطَّاغي.

وما ضرَّ نورَ الشَّمسِ إنْ كانَ ناظِرًا ... إليهِ عُيونٌ لم تزَل دهْرَها عُميًا[١]

***

حَسَدُوا الفَتى إذ لم يَنالُوا سعْيَهُ ... فالقَومُ أعداءٌ لهُ وخُصومُ[٢]

أعاذَنا اللهُ مِنْ حسدٍ يسدُّ بابَ الإنصافِ، ويصدُّ عن جميلِ الأوصافِ.

وكيفَ يجوزُ أن يكفَّرَ مَنْ لَقَّبَ هذا العالمَ بشيخِ الإسلامِ، ومذهبُنا أنَّ مَنْ أكفَرَ أخاه المسلِمَ بغيرِ تأويلٍ فقد كفَرَ؛ لأنَّه سمَّى الإسلامَ كفرًا.

ولقد افتخَرَ قاضي القضاةِ تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ رحمَه اللهُ تعالى في ترجمةِ أبيهِ الشَّيخِ تقيِّ الدِّين السُّبكيِّ في ثناءِ الأئمَّةِ عليهِ بأنَّ الحافِظَ المزيَّ لم يكتُب بخطِّهِ لفظةَ (شيخِ الإسلامِ) إلَّا لأبيهِ وللشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ ابنِ تيميةَ وللشَّيخِ شمسِ الدِّينِ ابن أبي عمرَ[٣].

فلولا أنَّ ابنَ تيميةَ في غايةِ العلوِّ في العلمِ والعمَلِ ما قرَنَ ابنَ السُّبكيِّ أباه معَه في هذِه المنقَبةِ الَّتي نقلَها، ولو كانَ ابنُ تيميةَ مبتدِعًا أو زنديقًا ما رضِيَ أن يكونَ أبوهُ قرينًا لهُ.

---

(١) لعل البيت لعلم الدين البلقيني فإني لم أقف عليه قبله، وقد ضمنه المصنف أبياتًا قالها في أول كتابه: «الكواكب الدرية».

(٢) البيت أنشده كثيرون، ونسب لأبي الأسود الدؤلي من قصيدة بديعة. انظر: «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (٢/ ١٦٢)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٥٦٨).

(٣) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١٠/ ١٩٥). وقد تقدم.

نعَم، قد نُسِبَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ ابن تيميةَ لأشياءَ أنكرَها عليهِ معاصرُوهُ، وانتصَبَ للردِّ عليهِ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ السُّبكيُّ في مسألَتَي الزِّيارةِ والطَّلاقِ، وأفردَ كلًّا منهما بتصنيفٍ[1]، وليسَ في ذلكَ ما يقتضِي شينَهُ أصلًا، وكلُّ أحدٍ يؤخَذُ مِن قولِه ويُترَكُ إلَّا صاحبَ هذا القبرِ[2]؛ يعني النَّبيَّ ﷺ، والسَّعيدُ مَنْ عُدَّتْ غلَطاتُه، وانحصرَتْ سقَطاتُه.

ثم إنَّ الظَّنَّ بالشَّيخِ تقيِّ الدِّينِ أنَّه لم يصدُر منهُ ذلكَ تهورًا وعدوانًا، حاشا للهِ، بل لعلَّهُ لرأيٍ رآه وأقامَ عليهِ برهانًا، ولم نقِف إلى الآن بعدَ التَّتبُّعِ والفحصِ على شيءٍ مِن كلامِه يقتضِي كفرَهُ ولا زندقتَهُ، إنَّما نقِفُ على ردِّه على أهلِ البدَعِ والأهواءِ وغيرِ ذلكَ ممَّا يدلُّ على براءَته وعلوِّ مرتبَتِه في العلمِ والدِّينِ.

وتوقيرُ العلماءِ والكبارِ وأهلِ الفضلِ مُتعيِّنٌ، وقد صحَّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا يرمي رجلٌ رجلًا بالفسقِ أو الكفرِ إلَّا ارتدَّتْ عليهِ، إن لم يكُن صاحبُه كذلكَ»[3].

انتَهى مُلخَّصًا، واللهُ أعلَمُ.

وكتبَهُ الفقيرُ إلى اللهِ صالحُ بنُ عُمرَ البُلقِينيُّ الشَّافعيُّ، في ربيعٍ الأوَّلِ، سنةَ خمسٍ وثلاثينَ وثمان مئةٍ.

* * *

---

(١) سماهما: «رافع الشقاق في مسألة الطلاق»، و«شفاء الأسقام في زيارة خير الأنام». انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٨٣٠)، (٢/ ١٠٤٩)، وقد رد ار ابن عبد الهادي على كتاب «شفاء الأسقام» بكتاب سماه: «الصارم المنكي في الرد على السبكي» وهو مطبوع.

(٢) نسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وإلى الإمام مالك وإلى مجاهد، وقد تقدم.

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

[تقريظ جماعة آخرين على كتاب الرد الوافر]

وقد كتَبَ أيضًا جماعاتٌ آخرونَ من التَّقريظِ أضرَبنا عنهُ خوفَ الإطالةِ[1].

وصلَّى اللهُ وسلَّم على سيِّدِ المرسلِينَ وخاتمِ النَّبِيِّينَ، وعلى آلِ كلٍّ وصحبِه أجمعينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

***

(١) من هؤلاء:

١ ـ أبو العباس، أحمد بن نصر الله بن أحمد البغدادي ثم المصري، كتبه في سنة (٨٣٦ هـ)، بصالحية دمشق، بدار الحديث الأشرفية.

٢ ـ محدث حلب سبط ابن العجمي، أبو الوفاء، إبراهيم بن محمد خليل.

٣ ـ القاضي سراج الدين الحمصي الشافعي.

٤ ـ زين الدين أبو النعيم رضوان بن محمد بن يوسف بن سلامة بن البهاء ين سيد العقبي.

انظر: «أبجد العلوم» لصديق خان (ص٦٤٥)، وانظر بعضها في الملحق المطبوع في نهاية «الرد الوافر» (ص٢٥٣ ـ ٢٨٤).

(٢٣)

[ترجمة ابن تيمية للشيخ مرعي الكرمي]

قال المؤلفُ مرعي الحنبليُّ سامحَه اللهُ تعالى: قد أحببْتُ أنْ أكتُبَ ترجمةً في ابن تيميةَ شيخِ الإسلامِ؛ اقتداءً بأولئكَ الأئمَّةِ الأعلامِ، ومحبَّةً في ذلكَ الإمامِ.

فأقولُ:

قد علِمْنا علمَ اليقينِ، وتحقَّقنا التَّحقيقَ المبينَ، مِنَ الثِّقاتِ النَّاقلِينَ، وأئمَّةِ الحديثِ النَّاقدينَ أنَّ ابنَ تيميةَ الشَّيخَ تقيَّ الدِّين هو الإمامُ الحافظُ، الحجَّةُ العلَمُ، المجتهدُ الضَّابطُ، المتقِنُ المفسِّرُ، أعجوبةُ الزَّمانِ، ترجمانُ القرآنِ، سيِّدُ المحقِّقينَ، وسندُ المدقِّقينَ، وشيخُ الإسلامِ والمسلمينَ، والمعراجُ الأعلَى في المعارفِ، والمنهاجُ الأسنى في الحقائقِ والعوارفِ، بروجُ سماءِ معرِفَته كواكبُ العنايةِ، ومنشورُ رياضِ حضرةِ أعلامِ الولايةِ.

بحرٌ ليسَ للبحرِ ما عندَهُ للجواهرِ، وحَبرٌ سما على السَّماءِ وأينَ للسَّماءِ مثلُ ما له من الزَّواهرِ، انتظمَتْ بقدرِه العظيمِ عقودُ الملَّةِ الإسلاميَّةِ، وابتسمَتْ بدرِّهِ النَّظيمِ ثغورُ الثُّغورِ المحمديَّةِ، تنوَّعَ في المباحثِ وفنونِها، وتضوَّعَ في الرِّياضِ وغُصونها، وتفوَّهَ بفصاحةٍ وبلاغةٍ، فصاحةُ قيسٍ وبلاغةُ أوسٍ من دونِها، وخاضَ مِن العلومِ في بحارٍ عميقةٍ، وراضَ النَّفسَ ففاقَ في سلوكِ الطَّريقةِ، وهو فخرُ المتأخِّرينَ على الحقيقةِ.

تقدَّمَ راكبًا فيهم إمامًا ... ولولاهُ لَمَا ركِبُوا وراءَه[1]

---

(١) البيت أنشده ابن فضل الله العمري في ترجمة ابن تيمية في «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٨٩)، وقد تقدم.

فريدُ العصرِ إلَّا أنَّهُ شيخُ الإسلامِ، وحيدُ الدَّهرِ إلَّا أنَّه لا يقبَلُ فضلُه الانقسامَ، ومفرَدُ الزَّمان إلَّا أنَّه القائمُ مقامَ الجمعِ، والمستغرِقُ لأوصافِ الإنسانِ عند كلِّ مَنْظَرٍ وسَمْعٍ، وخلاصَّةُ أهلِ الفِرَقِ والتَّمييزِ، وكشَّافُ أسرارِ البلاغةِ باللَّفظِ الوجيزِ، إذا أتعبَ راحتَه بقلَمِ الفُتيا أراحَ أرواحَ أهلِ الدُّنيا.

حَبـرٌ إذا مَـدَّ اليـراعَ جَـرَى النَّدَى مِـنْ راحَتَـيـهِ فضَائـلًا وعَجَائبَـا
كالبَحـرِ يَقـذِفُ للقَرِيـبِ جَـواهِـرًا جُـودًا ويَـبعَثُ للبَعِيـدِ سَـحائبَا[1]

المتحلِّي كلامُه بقلائدِ العِقيانِ، ونظامُهُ ببلاغةِ قَسٍّ وفصاحَةِ سحبانَ، كيفَ لا وهو الفصيحُ الَّذي إنْ تكلَّمَ أجزَلَ وأوجزَ، وأسكَتَ كلَّ ذي لسَنٍ ببلاغَتِه وأعجزَ، بل البحرُ الَّذي جرَتْ فيهِ سفنُ الأذهانِ فلم يُدرَك قرارُهُ، وعجزَ النُّظراءُ والبلغاءُ فلم يخوضُوا تيَّارَهُ، ما برزَ في موطنِ بحثٍ إلَّا برزَ على الأقرانِ، ولا أجرَى جِيادَ علومِهِ إلى غايةٍ إلَّا كانت مطلقَةَ العنانِ، ولا أخبرَ عن فضلِهِ مَنْ رآه إلَّا تمثَّلَ بـ: ليسَ الخبرُ كالعيانِ، سارَتْ بتصانيفِه الرُّكبانُ، وتفنَّن بمدحِها أولو الفخامةِ والشَّانِ.

تصانيـفُ قـد أنشَـا بحسْـنِ براعَةٍ وحُسْـنُ عِبـاراتٍ كـدُرٍّ تنضَّـدَا
فسـارَ بهـا مَـن لا يسِـيرُ مُشَـمِّرا وغَنَّى بهـا مـن لا يُغَنـي مُغـرِّدا[2]

فـإنْ كنْـتَ تعـرِفُ الحـقَّ عرفْـتَ أهلَـهُ، أو تدرِي مـا الفضـلُ أدركـتَ فضلَهُ،

---

(١) غالب الظن أن البيت الأول للمصنف، والبيت الثاني للمتنبي ضمنه المصنف في كلامه، وسيتكرر مثل هذا الصنيع. انظر: «ديوان المتنبي» (ص١٠٢) تحقيق عبد الوهاب عزام، و«يتيمة الدهر» للثعالبي (١/ ٢٣٢)، و«الحماسة المغربية» (١/ ٤٨٠).

(٢) البيت الثاني للمتنبي، كما في: «ديوانه» (ص٣٦١)، و«يتيمة الدهر» (١/ ١٣٩)، و«الحماسة المغربية» (١/ ٤٤٦).

إلَّا أن تكونَ ذا عصبيَّةٍ وحميَّةٍ، فتجحَدُ بالهوى فضائلَ ابن تيميةَ، وتَعمى عن لمعانِ أنوارهِ البهيَّةِ.

إذا لم يَكُن للمَرءِ عَينٌ صَحِيحَةٌ ... فلا غَرْوَ أنْ يَرتَابَ والصُّبحُ مُسفِرُ
ومَن يتَّبع لهَواهُ أعمَى بَصِيرةً ... ومن كانَ أعمَى في الدُّجَا كيفَ يُبصِرُ[1]

فطالعْ كتابَهُ «الكواكبَ الدُّريَّةَ في الرَّدِّ على الرَّوافضِ والإماميَّةِ»[2] تجدِ العجبَ، أو «الرَّدَّ على اليهودِ والنَّصارى وأهلِ البدَعِ»[3] يُداخِلُكَ الطَّربُ، ومواعِظَه تجدْ فيها حكمَةَ لقمانَ، أو فتاوِيه تجِدْ عندَها أبا حنيفَةَ النُّعمانَ، أو زهدَهُ وورَعَهُ تجِدْ إبراهيمَ بنَ أدهَم وأحمدَ بن حنبَلٍ في الزُّهدِ والعرفانِ.

ولقدْ كانَ بحرًا يتقاذَفُ موجُه بالدُّررِ، وعقدًا في جيدِ الدَّهرِ يتلألأُ بالغُرَرِ، فرائدُ فوائدِه تُخْجِلُ جواهِرَ العقودِ، وجواهِرُ فرائِدِه تُزرِي بقلائدِ العِقيانِ والنُّقودِ.

وكانت الأقلامُ خُدَّامًا لخواطرِهِ، والأسماعُ نظَّامًا لجواهرِهِ، والطُّروسُ سواحلَ لزواخِرِهِ، وأسواقُ الفضلِ والآدابِ بوجودِه قائمةً، وتحقيقُ العلومِ في أفنائِه دائمةٌ.

كانَتْ طلعَتُه الباهرةُ مطلعًا لشموسِ السَّعادةِ، وغرَّتُه الزَّاهرةِ وَسْمًا لبلوغ السِّيادةِ، وأبوابُه موردًا لأصنافِ الكرامات، وأعتابه مصدرًا لأنواعِ المعالي والكمالات.

---

(١) ذكر البيت الأول بلا نسبة في: «مفتاح العلوم» للسكاكي (ص٣٠١)، و«الطراز» للمؤيد بالله (٣/ ١٥٦)، و«الإتباع» لابن أبي العز (ص٧٦)، و«نفح الطيب» للتلمساني (١/ ٦٨).

(٢) لابن تيمية كتاب يعرف بـ«منهاج السنة النبوية» مطبوع، رد فيه ابن تيمية رحمه الله على ابن مطهر المتوفى سنة (٧٢٦هـ) في كتابه «منهاج الكرامة».

(٣) وهو المعروف باسم: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، مطبوع.

ولقد كانَ الزُّهدُ شعارَهُ، والورَعُ وقارَهُ، والذِّكْرُ أنيسَهُ، والفِكْرُ جليسَهُ، وظهرَتْ له خفايا الأسرارِ، ولاحَتْ له خبايا الحقائقِ مِنْ وراءِ الأستارِ، وكشفَ الغطاءَ عن حقائقِ الآخرةِ وهو في هذه الدَّارِ، وتفجَّرتْ ينابيعُ الحِكَمِ على لسانِه، وفاضَت عيونُ الحقائقِ مِن خلالِ جَنانِه، وأنشأتْ أهلَ الوجودِ عباراتُه، وأنعَشتْ أرواحَ السَّامعينَ إشاراتُه.

هذا وإنِّي وإن أُعمِلْ صارِم اليراعةِ ومُداها، وأبلغ مِنْ مسالكِ البراعَةِ مَداها، وألمح مِن الإبداعِ غواني المغاني، وأُصمِي بِظُباةِ[1] الأقلامِ ظُبا المعاني[2]، ورُمْتُ تعديدَ بروجِ نجومِ فضائلِه، وتحديدَ تخومِ مدرجِ فواضِلِه، الَّتي تتنافسُ فيها الأماثِلُ وتتبَاهى = لَتَناهَتِ الأيَّامُ وهي لا تتَناهى، ولعرَفْتُ أنَّ تعبيرَ لساني قَصورٌ، واعترفْتُ بأنِّي مِن جنانِ مدائحِه في قصورٍ.

وأمَّا ما قيلَ مِن أنَّ الشَّيخَ منعَ مِن زيارةِ القبورِ، فحاشا للهِ، ومعاذَ اللهِ، هذهِ كتُبُه وفتاوِيه ومناسِكُه مصرِّحةٌ باستحبابِ زيارةِ قبورِ المسلِمينَ، فضلًا عن الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ، بل صرَّحَ بجوازِ زيارةِ قبورِ الكفارِ.

نعم؛ حكَى خلافًا للعلماءِ فيما إذا سافرَ لمجرَّدِ زيارةِ القبورِ، فمنهم مَن قالَ بالجوازِ وهو مذهبُ الجمهورِ، ومنهُم مَن قالَ بالكراهةِ، ومنهُم مَن قالَ بالتَّحريمِ، واختارَ هذا القولَ ابنُ بطَّةَ[3] وابنُ عَقيلٍ إماما الحنبليَّةِ، والإمامُ أبو محمَّدٍ الجوينيُّ

---

(١) في الأصل: «ظباب»، ولعل الصواب المثبت.

(٢) أصمي: أرمي، ظبا: الظبة: حد السيف والسنان والنصل والخنجر وما أشبه ذلك، وجمعه: ظباة وظبى وظبون. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: ظبا، صما).

(٣) انظر: «الإبانة الصغرى» (ص٢٤٣).

إمامُ الشَّافعيةِ، وهو اختيارُ القاضي عياضٍ في «إكمالِهِ» وهو إمامُ المالكيَّةِ[١]، ومالَ إلى هذا القولِ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ.

والحجَّةُ في ذلكَ الحديثُ الصَّحيحُ، وهو قولُه عليهِ السلامُ: «لا تشدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ...» الحديثَ[٢]، وقد انتصَبَ للرَّدِّ على السُّبكيِّ ابنُ عبدِ الهادي في مجلَّدٍ كبيرٍ سمَّاهُ: «الصَّارمَ المُنْكِي في الردِّ على السُّبكيِّ».

وأمَّا مسألةُ الطَّلاقِ فإنَّ ابنَ تيميةَ رحمَهُ اللهُ يقولُ: إنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ دفعةً واحدةً لا يقَعُ إلَّا واحدةً، وهو لم ينفرِدْ بهذا القولِ، بل هو يُروَى عن عليٍّ والزُّبيرِ وعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ، وابن مسعودٍ، وابنِ عبَّاسٍ. وقالَ به عطاءٌ وطاوسُ وعَمرُو بنُ دينارٍ وسعيدُ بنُ جبيرٍ وأبو الشَّعثاءِ ومحمَّدُ بن إسحاقَ والحجَّاجُ بن أرطاةَ، وقالَ به شيوخٌ مِن قرطبةَ، وجماعةٌ منهم محمَّدُ بن عبدِ السَّلامِ الخُشَنيُّ فقيهُ عصرِه، وأصبَغُ بن الحبابِ، واختارَ هذا الإمامُ أبو حيَّانَ في تفسيرِه «النَّهرِ»[٣]، والإمامُ ابن القيِّمِ، وتكلَّمَ على ذلكَ في نحوِ أربعينَ ورقةً[٤].

فلينكُرْ علـى هؤلاءِ مَـنْ ينكِرُ على ابـنِ تيميةَ، لا سـيَّما وقد صـرَّحَ العلماءُ أنَّ

---

(١) انظر قول أبي محمد الجويني والقاضي عياض في: «شرح النووي على مسلم» (٩/ ١٠٦)، و«فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٦٥). وانظر قول ابن عقيل في «المغني» لابن قدامة (٢/ ١٩٥).

(٢) رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «النهر الماد من البحر» هو مختصر «البحر المحيط» وفيه زيادات عليه، طبع بهامش «البحر» في مطبعة السعادة بمصر (١٣٢٩هـ). انظر: «معجم المطبوعات العربية» ليوسف سركيس (١/ ٣٠٨)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢/ ١٩٩٣).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ١٣٢)، و«مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٨٣)، و«إغاثة اللهفان» لابن القيم (ص٣٢٨).

مذهَبَ الأئمَّـةِ قاطبةً أنَّـه لا يجوزُ للمجتهدِ أن يقلِّـدَ، بل يجِبُ عليـهِ العمَلُ بما رآه اجتهـادُهُ، وابـنُ تيميـةَ كانَ مجتهدًا بشـهادَةِ علمـاءِ عصرِه، فـلا وجهَ للإنـكارِ عليهِ إلَّا مجـرَّدُ العصبيَّـةِ، وحميَّـةُ الجاهليَّةِ، وما أحسَـنَ قـولَ ابنِ فضـلِ اللهِ العمريُّ في مرثيَّته المتقدِّمةِ:

عليـكَ فـي البحـثِ أن تُبـدِي غَوامِضَهُ ... ومـا عَلَيـكَ إذا لـم تفهَـمِ البقَـرُ[1]

***

وبالجملةِ: فهو الحَبرُ الَّذي فاقَ بصفاتِه الأوائلَ، والبحرُ المشتمِلُ بذاتِه على جواهرِ الفضائلِ، ومَنْ تكلَّمَ فيه، أو توجَّهَ بالنَّقصِ إليهِ مِن فِيْه، فإنَّما هو عفنجلٌ[2] قَنْعَدَلٌ[3] سَبَهْلَلٌ[4]، أو زعقوق[5] بن طرموق[6]، يتكلم بكلامٍ عَسْلَطَةٍ[7] عَسْمَطَةٍ[8]، ويحكي الغَطْغَطَةَ[9]....................................

(١) انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ٧٠٨).

(٢) العفنجل: الثقيل الهذر الكثير فضول الكلام. انظر: «المحكم» لابن سيده (٢/ ٤٣٥).

(٣) القنعدل: الأحمق. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: قنعدل).

(٤) السبهلل: الفارغ، يقال: جاء سبهللاً؛ أي بلا شيء. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: سبهل).

(٥) الزعقـوق: هو الجعل، دويبة معروفة أكبر من الخنفسـاء، شـديد السـواد، ومن شـأنه جمع النجاسـة وادخارهـا، يمـوت مـن ريح الـورد والطيب. انظر: «حيـاة الحيوان الكبـرى» للدميـري (١/ ١٢٨)، و«المسـتطرف» للأبشيهي (ص٣٥٥).

(٦) الطرموق والطمروق: من أسماء الخفاش. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: طمرق، طرمق).

(٧) العسلطة: الكلام بلا نظام، وكلام معسلط: مخلط. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (٢/ ١١٥٥)، و«القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عسلط).

(٨) العسمطة: تخليط الخبر، عسمطت الشيء: إذا خلطته. انظر: «المخصص» لابن سيده (٣/ ٤٧٦).

(٩) الغطغطة: حكاية صوت القدر في الغليان وما أشبهها. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: غطط).

العَفْلَطَة[١]، لُكَعُ بنُ لُكَعٍ[٢]، زُحْلُوطٌ[٣] هَبَنْقَعٌ[٤]، لا يَعِي ما يقول؛ لأنَّه عَفْكَلٌ[٥]، ويشتهي الفُضول، كأنَّه نَعْثَلٌ[٦] مِنْ أقوامٍ زِعْنِفَةٍ[٧]، يحبُّونَ العَجْرَفةَ[٨]، يحملُ على ظهرِه أوزارًا، ويجرُّ إلى نفسه نارًا، وإلَّا فالشَّيخُ ابنُ تيمية آياتُ معاليهِ بألسِنَةِ الأقلامِ متلوَّة، وأبكارُ الأفكار كانَتْ بِيَدِ معانيْهِ مَجْلُوَّة، ومدحُه على ممرِّ الأعصار شائِع، وفضلُه عندَ عُلماءِ الأقطارِ ذائِع[٩].

وقد أناخَ ابنُ عبدِ السَّلامِ[١٠] ركائبَهُ بدارِ السَّلامِ، عليهِ الرَّحمةُ والرِّضوانُ، وسحائبُ العفوِ والغفرانُ، وهواطِلُ الرِّضا على مَرِّ الأزمانِ.

---

(١) العفلطة: تخليط الخبر، مثل العسمطة. انظر: «المخصص» لابن سيدة (٣/ ٤٧٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (مادة: عفلط).

(٢) (لكع بن لكع) اللكع عند العرب: العبد، وقيل: هو اللئيم، وقيل: هو الوسخ القذر. انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (١٠/ ٣٩٤).

وقد ورد ذكره في حديث حذيفة رضي الله عنه يرفعه: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعدَ الناس بالدنيا لُكَع بنُ لكع». رواه الترمذي (٢٢١٠)، وقال: حسن غريب.

(٣) زحلوط: رجل خسيس من سفلة الناس. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (٢/ ١١٩٦).

(٤) الهبنقع: المزهوُّ الأحمق. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: هبقع).

(٥) العفكل: الضعيف الأحمق. انظر: «المخصص» لابن سيده (١/ ٢٦٩).

(٦) النعثل: الشيخ الأحمق. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (مادة: نعثل).

(٧) زعنفة: مفرد زعانف، وزعانف كل شيء: رديؤه ورذاله. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: زعنف).

(٨) العجرفة: الإقدام في هوج، والجفوة في الكلام، والخرق في العمل. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (٢/ ١١٣٧)، و«لسان العرب» لابن منظور (مادة: عجرف).

(٩) من قوله: «ومن تكلم فيه» إلى هنا سقط من (ط).

(١٠) يقصد ابن تيمية، نسبه إلى جده، على خلاف المشهور، ليوافق السجع.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، آمين.

قال ذلك وكتبه: العبد الفقير، العاجز الحقير، من لا شيء، وعمله سيء، مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي.

وذلك في ربيع الأول، بالجامع الأزهر، بمصر المحروسة، عام اثنين وثلاثين وألف[1].

***

(١) جاء في آخر النسخة الخطية (الأصل): «تمت المناقب المباركة، بحمد الله وحسن توفيقه، يوم الإثنين، رابع عشر ربيع الثاني، من شهور سنة اثنين وثلاثين وألف، والحمد لله وحده».

